هنري ترويّا

دوستويفسكي

حياته - أعماله



ترجمة علي باشا

هنري تروَيّا

دوستويفسكي

حياته - أعماله

ترجمة

علي باشا



منشورات دار علاء الدين

دوستويفسكي
حياته - أعماله

Henri Troyat

Dostoïevski

- دوستويفسكي.

حياته - أعماله.

- تأليف: هنري ترويَا.
- ترجمة: علي باشا.
- الطبعة الثانية 2010.
- عدد النسخ 1000 نسخة.
- تمت الطباعة في دار علاء الدين.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

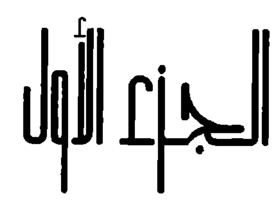
سورية، دمشق، ص. ب: 30598 هاتف: 5617071

فاكس: 5613241، E-mail: ala-addin@mail.sy

ISBN: 978-9933-18-192-5

«أمّا أنا، فلم أفعل في حياتي، سوى دفعي إلى الحد الأقصى، ما لم تجرؤوا أنتم أن تدفعوه إلا إلى النصف».

دوستويفسكي


الجزء الأول

العائلـــة

أوعزت «ماريا» للخادمة بإشعال «حمام البخار» وتسخينه، ونصحت زوجها «ستانيسلاس كارلوفيتش» ألاّ ينتظر كثيراً ويتأخر عن أخذ حمام بخار. فانصاع لها، دون أن يساوره أي شك، بأن هذا الاهتمام بمسألة تتعلق بالنظافة والصحة سيكون قاتلاً بالنسبة له. وعند خروجه من الكوخ الخشبي المخصص لاستحمام السادة، هاجمه «يان تور» وهو شخص يعمل لحساب زوجته، وأطلق عليه النار، فسبّب له جرحاً خطيراً. فاندفع «ستانيسلاس» وهو يترنح، نحو المنزل. ولكن الأبواب كانت مغلقة من الداخل بالمزاليج بناء على أوامر «ماريا». وبينما كان الجريح البائس يقرع بيأس درفة الباب بقبضته، لحق به المعتدي، وأجهز عليه بضربة من سيفه. وقالت الأرملة لمن جلبوا لها الجثة:

«خذوها إلى الشيطان»!

فوضعت جثة القتيل على نقالة. وكان يوجد بالقرب من المدخل، بقع من الدم، أخذت الكلاب والخنازير تلعق بها.

وابنه بالتبني «كريستوف كارلوفيتش» الذي بدوره. هددته هذه المرأة الشريرة، هرب بسرعة إلى بيت أحد الجيران. وفي الحال، ودون أن تضطرب «ماريا» لفقت وصية مزورة لكي تستولي على ميراث المتوفى. وتقدم «كريستوف كارلوفيتش» بشكوى. وأثبت التحقيق صحة شكواه،

وحكم على المجرمة بالإعدام. ولكن السلطات قررت تأجيل تنفيذ الحكم.

وفي غضون ذلك، تزوجت «ماريا» ثانية من شخص آخر.

وهذه القصة التي كان من الممكن أن تشكل الحدث الرئيسي في إحدى روايات «دوستويفسكي» هي المغامرة الحقيقية التي قامت بها «ماريا ستيبانوفنا دوستويفسكي»، جدة الكاتب، في سنة ١٦٠٦. ولكن قبل ذلك بقرن، كان قد ظهر للمرة الأولى اسم «آل دوستويفسكي» في حوليات الوقائع الليتوانية.

وبالفعل، فبتاريخ ٦ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٥٠٦، أهدى أمير «بينسك» للنبيل الروسي «دانييل إيفانوفيتش إيرتيشيفيتش» عدة قرى، من بينها قرية تدعى «دوستويفو». وأخذ أحفاد النبيل الروسي «ايرتيشيفتش» وذريته من بعده، اسم «دوستويفسكي» وأحدهم، ويدعى «فيدور» كان مقرباً، من الأمير المشهور «كوربسكي» وقد تغنى بقصته الشعراء الروس، وأذاعوا صيتها، وكان قد هرب بعد أن غضب عليه القيصر «إيفان» المرعب ولجأ إلى لتوانيا ومن هناك وجه له رسائل، تنم عن كرامته وعزة نفسه وعن حقده الشديد وكراهيته للقيصر. وفي الفترة نفسها تقريباً، اتهم أحدهم ويدعى «رفائيل إيفانوفيتش» بالاحتيال وباختلاس بعض الأموال العامة. وبعض أفراد أسرة «دوستويفسكي» الآخرون أصبحوا قضاة، كهنة، وضباطاً. وأحدهم ويدعى «أكيندي» اكتسب صيت القداسة من «لوردي كييف» (Laure De Kiev) وأحد أفراد أسرة «دوستويفسكي» ويدعى «ستيفان» استطاع الهرب من أحد السجون التركية، سنة ١٦٢٤، وعلق سلاسل مصنوعة من الفضة أمام أيقونه العذراء، في «لفوف». وشارك أحدهم، ويدعى «شاشني دوستويفسكي» هو وابنه في قتل أحد مديري شؤون القرى، وكان رجلاً عسكرياً، حدث ذلك سنة ١٦٣٤، وكان

«فيليب دوستويفسكي» مسؤولاً، في سنة ١٦٤٩، عن القيام بهجمات دامية، على أراضي جيرانه، وعن نهب ممتلكاتهم.

فهذه الذرية التي يكثر فيها اللصوص والقتلة والقضاة والمنظرون والمشاغبون، حيث يلتقي الشر والخير في كل جيل فيها، تبدو وكأنها تعطي صورة مسبقة، لأعمال «دوستويفسكي»، بالذات.

وأثناء ذلك، ومنذ منتصف القرن السابع عشر، استقر فرع من هذه الأسرة في «أوكرانيا»، وقاوم بشدة وعنف النفوذ الكاثوليكي البولوني، وانضم معظم أفراد هذا الفرع وممثليه إلى صفوف الأكليروس الأرثوذكسي. كرهبان وكهنة، فإننا لا نكاد نعرف شيئاً عن حياتهم. فبعد أن تخلوا عن أبهتم، وحرموا من أملاكهم وتعلقوا بخدمة الرب. بدا عليهم أنهم نذروا أنفسهم للاستقامة المتواضعة للنزاهة وللنسيان. وإلى هذا الحد، يبدو حقيقياً أن الفضيلة تضعف من عزيمة التاريخ كان والد «ميخائيل أندرييفيتش دوستويفسكي» كاهناً، قدوة بأجداده وعلى شاكلتهم، ولم يكن يتصور أنّ أيّ نزعة أخرى يمكن أن تغري مخيلة ابنه. وكانت فضيحة كبرى، عندما ادعى الشاب، البالغ من العمر خمس عشرة سنة، أنه ينوي دراسة الطب، ويكرس نفسه لدراسة هذا العلم، ويدعم سرّي من أمه، غادر منزل الأسرة، وذهب، ليقيم في موسكو.

لم يكن يعرف أحداً في هذه المدينة، ومعه قليل من النقود، وأقل من ذلك أيضاً من الخبرة والتجربة. ومع ذلك، فقد بدأ الدراسة بعزيمة قوية، وقُبل في مدرسة «الطب الجراحي» وساهم في معالجة الجرحى أثناء حملة ومعارك سنة ١٨٢١، وحظي أخيراً برتبة «ماجور» أي نقيب في الجيش.

وتنقّل على التوالي، من فرقة إلى أخرى، ومن معسكر إلى آخر، ومن موقع إلى مُوقع، وبتاريخ ٢٤ آذار (مارس) سنة ١٨١٢، عين «ميخائيل أندرييفيتش» طبيباً معالجاً في مشفى الفقراء. ورافقت هذا العمل الذي بدأه

بقفزة حماسية، مكافآت فخرية هزيلة، ثم تابعه بهدوء في وظيفة إدارية: وسام صليب القديس «سان - فلاديمير» من الدرجة الرابعة، وسام صليب القديسة «سانت - آنّ» من المرتبة الثالثة، ثم وسام آخر، من المرتبة الثانية، وتكريم متواضع من أحد المسؤولين كانت هي المكافآت البسيطة لجهوده. وفي غضون ذلك عمل الماجور على تسجيل اسمه في سجل النبلاء بالوراثة، في موسكو.

وفي سنة ١٨١٩ تزوج «ميخائيل أندرييفيتش» «ماريا فيدورفنا نيتشاييف»، وهي ابنة تاجر غني، جلبت له بائنة مهمة، وحبته بحب صادق، وبحس منزلي وعائلي سليم، تغلب على جميع العقبات وتجاوزها بسهولة.

كانت حساسة، وديعة، متواضعة، ذات وجه جميل، سيماؤه تنم عن شيء من السأم. وقد مثلتها صورة من عمل «بوبوف بملابس وتسريحة الشعر، والقبعة، الدارجة في سنة ١٨٢٠، وكانت خصلات الشعر الحريرية تحيط بوجهها الصغير الذي تبدو فيه عينان حالمتان وشفتان لا تبتسمان. والرسام نفسه كان قد رسم صورة لـ ميخائيل أندرييفيتش دوستويفسكي»: وجه قروي، بحاجبين ممتدين نحو الصدغين، وفم ضخم ينم عن قوة الشكيمة، وذقن بارزة، وبعض خصل الشعر المصففة بعناية تنزل إلى منتصف خديه. والياقة القاسية المزركشة بالذهب لبزته الرسمية مرتفعة حتى فكيه. وكانت له نظرة العصفور الثابتة والجامدة.

وقد ساهمت بدايات «ميخائيل أندرييفيتش» الشاقة، ونجاحه الهزيل، بتقسية طباعه. كان قاسياً عل نفسه وعلى الآخرين. ولكنه في قساوته، نفسها، لم يكن يحقق أيّ عظمة. فقد كان غضوباً، كثير الشكوك، متلمساً، متردداً، يمثل الآمر المستبد في محيطه. كان الرجل الذي يحبذ البرامج الموضوعة والمنظمة جيداً، والترتيبات العائلية التي تُحترم وتراعى بكل دقة، والانضباط المنزلي والتزمت. أي أنه السيد بعد الله.

ومع ذلك فإن هذا الزعيم الصغير كان يعاني من حساسية بالغة الحد. وأحياناً كانت تنتابه موجات مفاجئة من الحزن الشديد، تعصف به وتهزه حتى الأعماق. وكان يكاشف بها زوجته:

«سأم قاتل، لا أدري أين عليّ أن أذهب. والله وحده يعرف الأفكار التي تساورني في عز النهار وفي الأحلام»!

فكانت تخاف عندما تراه حزيناً إلى هذه الدرجة، وكان يسر كثيراً بهذا الخوف الصادق الذي يدل على المحبة والوفاء.

وقد كتبت له، أثناء فترة قصيرة من الفراق:

إن قلبي ينقبض، عندما أتصورك حزيناً إلى هذا الحدّ.

أتوسل إليك، يا ملاكي، يا إلهي، أن تعتني بنفسك، إن لم يكن من أجل أي شيء، فليكن، على أقل، من أجل حبنا. وتذكر جيداً، أني عندما أكون بعيدة عنك، فأنا أؤلّهك، وأني أحبك أكثر من حياتي، فأنت صديقي الوحيد.

وهكذا كانت المسكينة البائسة تحاول أن تعيد لهذا الطاغية الصغير والمحبوب جداً، قليلاً من الثقة بنفسه، التي لم يكن يطيقها. فيستمع لها، مسترخياً، وهو يغمغم مشفقاً عليها. ولكن، ما أن تنقضي وتمر الأزمة، حتى يتجهم وجهه، ويعود إلى الانطواء على نفسه، بشكل ينم عن الكآبة والحزن.

والواقع أن هذا الشخص لم يكن بالأساس شريراً، بل لم يكن شريراً أبداً. وكان يحب زوجته من أجل الحب الذي يبلغ حد العبادة، والذي كان يثيره لديها. ولم يكن يوقع عقوبات جسدية على أولاده، وإن كان هؤلاء يفضلونها على ثورات غضبه العنيفة، وغير المؤذية. وقد امتنع عن احتساء الكحول، طوال حياة «ماريا فيدوروفنا»، وعندما استرسل تماماً في السّكر وتناول الكحول، كان لديه على الأقل، عذر يشفع له، وهو أنه

أصبح «أرمل» ويائساً. أما بخله الشديد، والذي كان مضرب الأمثال، فقد حاول بعض من كتبوا سيرة حياته، أن يبرروه بضعف موارده وببطء تقدمه. وراتبه الذي لم يكن يزيد على مئة روبل على شكل حوالات حكومية كان بالحقيقة، متواضعاً، ولكن بائنة زوجته، وإيرادات عيادته الخاصة، والمساعدة المحتملة التي كان يقدمها له أقرباؤه الأغنياء، كآل «كومانين» على سبيل المثال، كانت تؤمن له ما يكفي لتسديد نفقاته، بكل سهولة. ويبدو أنه من المبالغة بمكان، التحدث عن بؤس أو شقاء، عانى منهما «ميخائيل أندرييفيتش» لأن سكنه كان مؤمناً على نفقة الدولة، وتحت تصرفه سبعة من الخدم التابعين للمشفى. وأربعة أحصنة، خاصة به.

بل لقد اشترى، سنة ١٨٣١، ملكية، تبعد نحو (١٥٠) «فيرستا»[1] عن موسكو، في المنطقة الخاضعة لحكومة «تولا». وهي مؤلفة من ٥٠٠ دونم من الأراضي ومن قريتي «دارو فوي» وتشيرو ماشني» اللتين تضمان ما يقرب من مئة «نفس».

ومع ذلك، فإن الملاك الريفي الجديد لم يكف عن التذمر والشكوى في الرسائل التي يرسلها لزوجته، عندما تكون مقيمة في الأرياف مع الأولاد:

«لقد تلقيت كل شيء، فيما عدا زجاجتي الشراب، اللتين، على حد قول «غريغوري» قد انكسرتا، وأنا أتساءل، يا حبيبتي العزيزة، عما إذا كانتا قد انكسرتا من تلقاء نفسيهما، أم أنهما قد أفرغتا أولاً ثم كسرتا، بعد ذلك»...

وكذلك: «في المنزل، كل شيء هادئ، وإن كان «فاسّيليسّا» قد أثارت شكوكي عدة مرات، ولكني لا أرفع نظري عنها، في الوقت

١- فيرستا: وحدة قياس أطوال روسية قديمة تساوي ١,٠٦٦٨كم

الحاضر. اكتبي لي يا محبوبتي العزيزة، لكي تخبريني كم بقي لديك من زجاجات الشراب في الخزانة».

وفي رسائله الأخرى، كان يرجو زوجته أن تحدثه بالتفصيل عن الأدوات والقطع الفضية، دون أن تهمل الحديث عن القطع المكسورة وغير المستعملة:

«لقد كتبت لي أنه يجب أن يكون لدي «ست ملاعق للحساء»، وأنا لا أجد منها سوى خمسة في خزانة المطبخ وبحثت عنها فلم أجدها، ألا يمكن أن تكوني مخطئة»؟

ويطلب منها أن ترسل له على جناح السرعة قائمة دقيقة بعدد قبعاتها وفساتينها. وهكذا، فعبر رسائل الزوجين، تتكرر هذه الطلبات، والملاحظات البسيطة. مع فيض من العواطف والمحبة الزوجية.

في موسكو، كان «آل دوستويفسكي» يقيمون في جناح تابع لمشفى «ماري» (أو مشفى الفقراء). وكانت واجهة المشفى المزدانة، بشكل ينم عن الأبهة، بأعمدة مطلية بلون ذهبي. محمية بحواجز تعلوها تماثيل تمثل أسوداً جميلة، وتطل على «البوجيدومكا» أو «شارع بيوت الله» وبالواقع فإن جانبي هذا الشارع، لم يكن يوجد فيهما سوى مؤسسات المساعدة والإسعاف والتربية: ملاجئ للأيتام، مأوي للمتسولين، معهدا «أليكسندر» وسانت - كاترين» للفتيات النبيلات. وملجأ.

ومنزل «آل دوستويفسكي» كان بناء صغيراً مؤلفاً من طابق واحد، مبنياً بشكل تقريبي على الطراز الإمبراطوري، ومحاطاً بحديقة صغيرة. وخلف حاجز هذه الحديقة تبدأ الحديقة الداخلية الكبيرة الخاصة بمشفى «ماري»، مع أبنيته الضخمة، وأشجاره الكثيرة، وكنيسته الخاصة. عالم بكامله، مثير للشفقة، كان ممنوعاً على الأطفال الدخول إليه.

كان مسكن «آل دوستويفسكي» مؤلفاً من غرفتين وردهة. وكان هنالك حاجز يقطع الرواق، والفسحة وهكذا حددت كانت تستخدم كغرفة للأولاد. لم يكن لها نوافذ، وجدرانها مطلية بدهان صمغي رمادي اللون. وفي الجهة الأخرى، غرفة كبيرة مطلية جدرانها باللون الأصفر الكناري وأخيراً الصالون بلونه الأزرق الفاتح وفيما بعد، أضيفت غرفة أخرى إلى هذا المسكن.

والأثاث كان بسيطاً وعملياً: في الصالون منضدتان للعب، ومائدة لتناول الوجبات عليها، ودزينة من الكراسي مغطاة بجلد أخضر اللون.

وفي غرفة النوم، سرير الوالدين، مغسلة وصندوقان كبيران مملوءان بالألبسة الداخلية.

الأسقف تبدو عالية وقطع الأثاث كبيرة. والمقاعد المحشوة بالشعر فقط، تحتفظ كالشمع بأثر المؤخرات التي جلست عليها.

وفي هذا المنزل أمضى الابن الثاني للماجور، كل طفولته. وكان قد ولد بتاريخ ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٢١. وفي الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر) عمد في كنيسة «بطرس وبولس» الكائنة في مشفى الفقراء. وأطلق عليه اسم «فيدور» الذي كان اسم جده لأمه.

وتوالت الأيام برتابة هادئة. والبرنامج الدقيق، والغياب التام تقريباً لكل أنواع اللهو والتسلية، كانا يلغيان حتى مفهوم الزمن لدى هذه الأسرة، التي كانت على أيّ حال، تعتبر نفسها سعيدة.

كان أفرادها يستيقظون الساعة السادسة صباحاً. وعند الساعة الثامنة، كان الأب يغادر المنزل ليقوم بجولة في الجناح الذي كان يشرف عليه، فينتهز الخدم فرصة غيابه لترتيب المنزل وإشعال المدافئ.

وكان يعود في الساعة التاسعة، وفي الحال يخرج ثانية لعيادة مرضاه في المدينة ولتفقد حالتهم الصحية. كان أفراد الأسرة يتناولون طعام الغداء

عند الظهر. وبعد تناول طعام الغداء، يأوي الطبيب إلى الصالون، حيث ينام ساعة ونصف أو ساعتين على الأريكة القديمة الموجودة هناك. وفي أيام الصيف، كان على أحد الأولاد أن يقف بجانب والده، ليطرد الذباب عن وجهه، بواسطة غصن من الزيزفون، وإذا غفل هذا الخفير عن إحدى الذبابات، فحطت على أنف النائم وأيقظته فكان يعلو صراخه، ويوبخ الولد بشدة بشكل يقطع له شهيته، لتناول طعام العشاء. وقد كتب «أندريه دوستويفسكي» فيما بعد، في مذكراته: «الويل لمن كان يترك ذبابة تمر». وفوق ذلك، كانت الأسرة كلها، تعمل على تأمين الهدوء والحماية لتلك القيلولة التي يرتاح خلالها رب الأسرة. وفي الغرفة المجاورة، كان أفراد هذه الأسرة يجتمعون حول طاولة مستديرة، ويتحدثون بصوت خافت، يكتمون ضحكاتهم، ويرتعشون عند أقل غمغمة تصدر عن الوالد الذي يخلد للراحة.

وهذه التمتمات والوشوشات السرية هدهدت طفولة «دوستويفسكي» وكانت «ماريا فيدوروفنا» تحب أن تروي الكثير من ذكريات أهلها الغريبة. كان والدها قد هرب من موسكو، عند دخول الفرنسيين إلى هذه المدينة، سنة ١٨٢١. وعند عبوره أحد الأنهار، غاصت في الماء العربية التي كانت تقلّه. وأصبح من المستحيل، بعد ذلك، فصل الأوراق النقدية التي التصقت ببعضها والتي كانت مخبأة بين الأمتعة. كان صوت «ماري فيدوروفنا» عذباً، وعيناها تنمان عن الحنان والغموض.

وكان يحلو العيش بهدوء عندما يكون «الماجور» نائماً. ولكن الأولاد كانوا يفضلون أيضاً حكايات «الوصيفة أليونا فرولوفنا» الخرافية على قصص أمهم.

و «أليونا فرولوفنا» هذه، كانت تحتل مركزاً مهماً في المنزل. وهي امرأة ضخمة الجثة، تبدو متورمة بالشحم الرديء. وكان بطنها،

على حد قول «أندريه دوستويفسكي» يكاد يلامس ركبتيها. وهي ترتدي على الدوام ملابس نظيفة جداً، وتغطي رأسها بطاقية من القماش الرقيق الشفاف (التولّ). وشهيتها للطعام لا تعرف الحدود. وكان الطبيب يهزأ منها بسبب ضخامة جسمها. وفي رسالة لزوجته، تحدث عنها:

«كتبت لي أن المرأة قد نقص وزنها، وأنك من جهة أخرى تجدين صعوبة لتحميل العربة ولتنزيل حمولتها، وأنا أرى أن ليس هنالك من كارثة، إلا ويمكن أن يوجد فيها جانب يستفاد منه، لأني أتصور أنها فقدت على الأقل عشرين ليبرة[1] من وزنها، وبالتالي فإن هذا النقص في الوزن ستُسر به وتقدره حق قدره الأحصنة والعربة».

كان «ميخائيل أندرييفيتش يحب أن يمزح أحياناً وأن يسخر من نزوات وعادات المرأة المسكينة، التي كان لديها منها الكثير. ومن بعض أفكارها أنها، على سبيل المثال، كانت تؤكد دائماً أنّ الرب العادل يطلب من أي مسيحي أن يأكل لقمة خبز قبل كل لقمة أخرى من اللحم، ومن السمك أو الخضار. وأن البرغل وحده، حسب رأيها يمكن أن يؤكل دون «مرافق». «أقضم أولاً قطعة من الخبز، يا صغيري، وبعد ذلك ضع الطعام في فمك. فهذا ما يريده الرب العادل»!

كانت نقطة ضعفها الوحيدة، هي «النشوق» أي استنشاق التبغ. وكان يجلبه لها في مواعيد محددة بائع يتصف بالقذارة والبخل.

وكان «الماجور» يقول عنه إنه خطيبها. فكانت ترد على ذلك بغضب: «تُفِ، فلتسامحك السماء! الرب هو خطيبي، وليس أي شخص آخر كبائع التبغ، مثلاً»!

١- الليبرة= ٥٠٠ غرام تقريباً.

وأثناء الليل، كانت ترسل أحياناً عويلاً يشبه أصوات بعض الحيوانات، وعند ذلك، كان الأطفال يستيقظون من نومهم، مذعورين.

فيقفز «الماجور» من سريره، ويهزها إلى أن يعود إليها وعيها، ويقول لها: «أحذرك! وإياك أن تصيحي مرة أخرى، وإلا أمرت بفصدك، وبأخذ ثلاث «ليبرات» من دمك»!

والحقيقة هي إنها كانت تفصد كل يوم، تقريباً، ولكن دون أيّ نتيجة. وكان الطبيب ينصحها أيضاً بأن تقلل من كمية الطعام التي تتناولها في الوجبات. ولكنها كانت تدعي، بأنها يكفيها أن تنام ومعدتها فارغة، حتى ترى أحلاماً مزعجة، يبدو لها فيها بعض النور والفجر بأشكالهم المخيفة، فتنزعج منهم كثيراً. فيمل الطبيب من ذلك، ويتركها وشأنها. والحقيقة هي أن «أليونا فرولوفنا» كانت الوحيدة التي استطاعت مجابهة «القيصر الصغير» في ذلك المنزل ومقاومته.

حتى أنها كثيراً ما كانت تحمي الأولاد من ثورات غضبة. لقد كانت «مواطنة من موسكو» وتبدو فخورة بذلك. وتخاطب الصغار بصيغة المفرد. وعندما تخاطب سيدها، لا تقول له: «يا سيدي» بل تناديه باسمه: «ميخائيل أندرييفيتش»، كما لو أنها لم تكن خادمة. وأخيراً، فقد كانت تحتفظ بمفاتيح القبو والمستودع و «النملية»[1]، وكان ذلك امتيازاً مهماً، لا يمكن إنكاره.

كان «آل دوستويفسكي» يتناولون الشاي الساعة الرابعة، ويقضون السهرة حول الطاولة المستديرة التي تنيرها شمعتان مصنوعتان من الشحم، لأن الشموع المصنوعة من الشمع كانوا يحتفظون بها للمناسبات السعيدة وللأعياد. وهذه الاجتماعات حول الطاولة المستديرة كانت تتخللها

١- خزانة الأطعمة.

بالضرورة فترة تتم فيها القراءة بصوت عالٍ. وكان الأب والأم وبعد ذلك الأولاد، يقرأ كل منهم بدوره، وعلى التوالي، تاريخ روسيا الذي وضعه «كرامزين» والأناشيد والقصائد الغنائية التي نظمها «ديرجافين» وأشعار «جووسكي»، رواية «ليزا المسكينة» أو بعض أشعار «بوشكين». وكان «ميخائيل أندرييفيتش دوستويفسكي» في وضعه آنذاك يعتبر مثقفاً بشكل كافٍ ومرضٍ. وكان يطلب - وهذه كلمة حق، من العدل أن نقولها عنه - أن يربى أولاده وينشئوا على احترام الآداب والفنون.

كان موعد تناول طعام العشاء محدداً في الساعة التاسعة بالضبط. وفور مغادرة الأولاد لمائدة الطعام، يعانقون والديهم، يركعون أمام الأيقونات والصور المقدسة، للقيام بصلاة المساء، ثم يذهبون إلى غرفتهم التي ليس لها نوافذ، والتي يخيم فيها الظلام والهدوء وحيث تصبح بشكل مفاجئ، قطع الأثاث، تبعث على الخوف، حيث تبدو كل قطعة منها وكأنها تمد لهم شركاً، بمساندها الفظة، وبمقاعدها الحية والمتحركة وبمفارشها السحرية... كان «فيدور» يخاف من الظلام، ولم يكن أخوه «ميشيل» أكثر شجاعة منه. ولكنهما كانا ينامان في الحال، ونظرتهما مثبتة على شعلة الضوء الصغيرة التي تنير الأيقونة، وهي تخفق مرتعشة على الجدار كجناح العصفور.

والتسليات كانت قليلة لدى «آل دوستويفسكي» ومرتين في السنة، كانت مرضعات الأولاد، (لأن «ماري فيدوروفنا» لم ترضع سوى ابنها «ميشيل») تأتي من القرية لزيارة الأطفال الذين أرضعتهم وكانت «أليونا فرولوفنا» تخبر سيدتها، قائلة: «لوكيريا هنا» وتدخل «لوكيريا» إلى الصالون، وعلى رأسها وشاح تزينه الشرائط وتنتعل خفاً مصنوعاً من لحاء الشجر. وعند عتبة الباب ترسم إشارة الصليب، تحيي الجميع بوقار، وتوزع على الأولاد قطع الحلوى القروية التي جلبتها معها في منديل زاهي الألوان. ثم تعود، مسرعة، إلى المطبخ.

ولكنها، في المساء، تأتي بهدوء إلى الغرفة التي كان الأطفال ينتظرونها فيها، وتجلس بقربهم. وعبر العتمة التي تثير الخيال، وتناسب الأحاديث عن العجائب، كانت تروي لهم بصوت خافت مغامرات «إيفان» ابن القيصر البكر، أو قصة صاحب «الذقن الزرقاء»، وحكاية «عصفور النار» أو حكاية «أليوشا بوبوفيتش». وكانت تتكلم باللغة القروية القديمة، ببطء وعذوبة، وتشدّد على بعض المقاطع التي تنتهي بحرف «الواو». بينما كان الأطفال يصغون لها، وقد استبد بهم. الخوف والسرور، في آن معاً: «كان «البويار» النبيل الروسي الغني قد توقف عند تقاطع الطرق...». وبعد أن تذهب ويبقى الأطفال وحدهم، يحتدم النقاش بينهم حول مهارة مرضعاتهم، والمقارنة بينهن: هل كانت مرضعة «فرنكا» أم مرضعة «فيدور» هي التي لديها الحكايات الأفضل من حكايات الأخرى؟

كان ذوو «فيدور دوستويفسكي» يستقبلون قليلاً من الناس، لأنّ «الماجور» كان ميالاً للعزلة، لا يرغب كثيراً بمخالطة أحد ولا يحب أن يسهر إلى ساعة متأخرة من الليل، بل يفضل النوم في وقت مبكر، ولهذا السبب، وبناء على إرادته، كانت الأسرة تعيش منطوية على نفسها. المسرح؟ لقد اصطحب إليه أولاده، بصورة استثنائية، مرتين أو ثلاث مرات. وبعد حضورهم عرض مسرحية «جاكو» أو «قرد البرازيل»، ظل «فيدور» بعد ذلك، وخلال أسبوع يقلد الممثل الذي قام بدور القرد. ومسرحية: «لصوص شيلّر» التي قام بالدور الرئيسي فيها الممثل «متشالوف» أطارت النعاس من عينيه. والنزهات؟ وهي كما ينبغي أن تكون، برفقة الوالد، ولذلك تبدو مقيدة ومملة. ففي أيام الصيف، وفي ساعة محددة، كان جميع أفراد العائلة يذهبون للنزهة في «مرج مريم» القريب من المشفى. وعند مرورهم أمام خفير «معهد اليكسندر»، يرمي أحدهم قطعة صغيرة من النقود عند قدميه، فيلتقطها الخفير خلسة، لكي لا يراه أحد وهو يفعل ذلك. وكان الوالد، وهو يمشي، يجري مع أولاده

أحاديث مهمة ومفيدة: بالحساب والجغرافيا... وكان ممنوعاً على الأولاد أن يركضوا على العشب الأخضر، لأن الولد المهذب، حسب رأي «ميخائيل أندرييفيتش» لا ينبغي له أن ينحط ويفعل ذلك. وكان محظوراً عليهم أيضاً إقامة علاقات مع «أولاد مجهولين». كما أن بعض التسليات البريئة كانت محرمة بالنسبة لهم. كركوب الخيل ولعب الكرة وكرة المضرب، وهي برأيه تسليات لا تليق إلا بالسوقيين وبالعامة من الناس.

وفي الأعياد، وأيام الأحد، كان أفراد الأسرة يذهبون إلى الكنيسة للصلاة وحضور القداس. وفي الأمسيات المرحة كانوا يلعبون بالورق. وبمناسبة عيد ميلاد والدهم، كان الأولاد يكتبون التهنئة والمدائح باللغة الفرنسية، على أوراق أنيقة، يلفونها ويربطونها بشريط حريري ملون، وفيما بعد، كانوا ينشدونه أشعاراً حفظوها غيباً، ومن أجل تلك المناسبة: من شعر «بوشكين»، «جوكوفسكي»، و - بشكل يصعب شرحه أو تبريره - كانوا ينشدون أيضاً بعض المقاطع من مجموعة «الهنرياد» (Lahenriade)!

وفي وسط هذه الجماعة، كان «فيدور ميخايلوفيتش دوستويفسكي» ينمو ويترعرع، منقطعاً عن أي اتصال مع العالم الخارجي، محروماً من الأصدقاء، من اكتساب الخبرة والتجربة، ومن الحرية أيضاً. وفترة الشباب، هذه التي أمضاها في حيز مغلق، وهذا النمو والتطور الصنعي لحساسيته، تركا أثرهما عليه طوال حياته. وقد قال أحد أبطال رواية له: «نحن جميعنا غير معتادين على الحياة». و «دوستويفسكي» نفسه لم يستطع أبداً أن يألفها ويعتاد عليها.

ومع ذلك، فلا ينبغي علينا أن نستنتج من هنا أنّ «فيدور ميخايلوفيتش» كان طفلاً حزيناً وعاقلاً. فلم تكن سذاجته التي تجعله سريع التأثر، تمنعه من أن يكون شلشاً، غضوباً، خبيثاً، ومتسلطاً، في الوقت الذي يحلو له فيه أن يبدو هكذا. وعندما يلعب الورق مع ذويه، كان يحاول أن يعمد إلى الغش في اللعب،

الأمر الذي كان يستاء منه «الماجور» كثيراً وكانت النزهات في العربة، تدفعه إلى حالة من الحمى المقلقة. وأبسط تسلية كانت تثير حماسته ومشاعره. وبعد أن شاهد أحد العدائين برفقة إحدى الفرق المتجولة، وهو يعدو وبطريقة معينة، أخذ يقلده، ويقفز في الحديقة، وقد وضع منديلاً بين فكيه، وضم مرفقيه إلى جسمه، إلى أن أصيب بالإعياء. وقد كتبت «ماري فيدوروفنا» مرة في إحدى رسائلها إلى زوجها: «أنا لا تدهشني، يا عزيزي، أفعال «فيدور» السيئة لأننا يجب أن نخشى ونتوقع حدوث الكثير منها». و «الماجور» لكي يوبخ ابنه كان بالحقيقة، يوجه له كلاماً يتضمن ما يشبه النبوءة. ومما قاله له، مرة: «آه! يا فيديا، اهدأ يا بني، إن عملك هذا سوف يسيء إليك!... وسيؤدي بك إلى أن تعتمر القبعة الحمراء»! وهذه القبعة الحمراء التي كانت خاصة بالجنود العاديين الذين لم يحصلوا على أيّ رتبة كان على «فيدور ميخائيلوفيتش» أن يعتمر بها بالفعل، عندما أخلي سبيله من سجن الأشغال الشاقة.

كان هنالك حاجز من شبك حديدي يفصل حديقة آل «دوستويفسكي» الصغيرة، عن الحديقة الكبيرة، التي كانت كمنتزه تابع للمشفى. وعلى الرغم من المنع الذي قرره الدكتور، كان «فيدور» يحبّ أن يتعرف على المرضى الذين يتنزهون في الحديقة، وهم يرتدون «مباذل» مصنوعة من الجوخ الأصفر اللون وطاقيات صنعت من قماش قطني. وهؤلاء الناس المتألمون والبشعون لم يكونوا يثيرون اشمئزازه، بل لقد كان يشعر بالعطف عليهم وبأنهم يجذبونه إليهم. نعم، لقد كان البرجوازي الصغير، الذي يعيش في عزلة، يرغب برفقة هؤلاء الناس المغلوبين على أمرهم، الخجولين والبؤساء، الذين نبذهم عالم، لا يعرف هو عنه شيئاً، فمن أيّ مآسي محزنة، ومن أي سوء طالع متواضع، نتجت هذه النفاية التي تثير الشفقة؟ وكيف حصل أنه لم يشعر أنهم غُرباء بالنسبة له، على الرغم من فارق السن. والوضع الاجتماعي بينه وبينهم؟ وعندما كان «الماجور» يفاجئ «فيدور» وهو يتحدث مع أحد نزلاء

المشفى، يعمد إلى توبيخه بعنف شديد. أما ابنه البكر «ميشيل» فكان هادئاً، وربما بدا حالماً، بعض الشيء، ولكنه، على أيّ حال كان مطيعاً. أما الأصغر: «أندريه» فكان راضياً عنه تماماً. ولكن «فيدور»! «إنه نار حقيقية»! هذا ما كان يقوله عنه والداه. ولتهدئة شقاوة الولد، المرضية، كان الدكتور يشرح له بشكل مبسط، كم كانوا فقراء، وكم سيكون عليهم صعباً تأمين «وضع مناسب» لهم، وكم كان عليهم أن يحدوا من طموحاتهم ومن آمالهم. وكانت هذه اللوحة القاتمة لمستقبلهم، تثير الرعب لدى الأطفال. وليس هنالك أي شك بأن «ميخائيل أندرييفيتش» قد نمّى لدى ابنه، بهذه المواعظ المنفرة، ذلك الخوف من أي مجتمع كان، وتلك الحساسية المفرطة والقابلية الشديدة للتأثر، وتلك الشكوك العنيفة، التي كان عليه أن يتحملها ويعاني منها، طوال حياته، وإلى أن يموت.

وكان الأب يقول لأولاده: «اقتدوا بي»! فماذا لو عرف كم كان ابنه يخشى أن يشبه والده! أليس بردّ فعله ضد بخل أبيه أنه أصبح كريماً جداً. وبرد فعله ضد قساوته وتشدده أنه أعطى الدليل على تسامحه؟

وقد أثبت بذلك أن ليس لديه أي شيء، وأيّ صفة مشتركة معه. وكان يبدو أنه يشعر نحو هذا الأب بعواطف مضطربة ومتناقضة: فهو يخشاه، ويكرهه في بعض الأحيان، بل وكان يكن له نوعاً من القرف الحسي والجسدي. وفي إحدى رواياته الشهيرة، يصرخ «إيفان كرامازوف»: «من منا لم يكن يتمنى أن يموت والده»؟، ولكنه كانت تعصف به أحياناً عودة دفقات من الشفقة. فيشعر بالغيظ لأنه متباعد إلى هذا الحد عمن أتى به إلى الحياة. فقد كتب إلى أخيه «ميشيل»: «لكم أرثي لأبي! فيا له من نموذج يتّصف بطباع غريبة»! وقد أثاره وأحزنه كثيراً موت الدكتور، لا سيما وأنه أصبح بعد ذلك، أقل ثقة وتأكداً من أنه قد أحبه، فعلاً.

«داروفويّ»
«Darovoïe»

سنة ١٨٣١، حرك شراء ملكية «داروفويّ» حياة الأسرة، التي كانت هادئة وساكنة. ومنذ أيام الربيع، الأولى، كانت «ماري فيدوروفنا» تذهب، مع الأولاد، إلى الريف، أما «الماجور» الذي كانت التزاماته تحتجزه في المدينة، فلم يكن يأتي ليلحق بهم إلا في شهر تموز (يوليو)، ولم تكن تتعدى زياراته مدة الثماني وأربعين ساعة: إجازات قصيرة حقيقية!

والرحلة التي كانت تدوم يومين أو ثلاثة أيام، كان لها فعل السحر على الأولاد. كان الفلاح العبد «سيمون شيروكي» يأتي من القرية، ومعه أحصنة الحراثة، فيحملون الحقائب والأمتعة الأخرى، في العربة القديمة.

ويجلس «فيديا» على المقعد، بجانب السائق. وتنطلق العربة، مع الحصانين اللذين يعدوان بها شيئاً فشيئاً، مجتازة المدينة ثم تندفع على الطرق التي تكثر فيها الحفر والخطوط عبر الطين الجاف.

وتمر عبر حقول الشوفان، وبالقرب من شجرة السندر، ذات الأوراق الفضية الرقيقة، وبجانب «ايسبا» مغطاة بالقش وبأغصان الأشجار، ودرج مدخلها مصنوع من الخشب المقطع، حيث يبدو صبي لا يرتدي سوى قميص، حافي القدمين، يرفع ذراعه، ويصيح بشيء ما، لا يمكن فهمه، وكأنه يحيي ركاب العربة. وتتوالى إشارات الطريق. وتتصاعد رائحة الغبار

والأقذار والقماش الذي قرضه العثّ وتمر، تارة عن يمين العربة وتارة عن يسارها. بينما كانت حوافر الحصانين ترسل صوتا يشبه صوت اللسان وهو يطرق سقف الحلق. وكانت العجلات ترسل الصرير، والأجراس يتصاعد رنينها. وتوسل «فيديا» إلى «سيمون» لكي يسلمه أعنة الخيل.

- أحسن، هكذا؟

وعند أول توقف، كان يقفز عن المقعد، ويسرع ليتفقد المكان، فيبلل حذاءه في العشب الرطب، ويصعد، بعد ذلك، منتشياً بالهواء الطلق، متذمراً ومسروراً في آن معاً. ويفرقع السوط، ومن جديد، تنطلق العربة.

كان البيت في القرية صغيراً، مؤلفاً من ثلاث غرف، جدرانه من ألواح خشبية مغطاة بطبقة من الكلس، وسقفه من القش، وتغطيه بظلها أشجار الزيزفون الضخمة التي يزيد عمرها عن مئة سنة، ويمتد حقل صغير بين جذوعها وبين غابة من أشجار السندر، تتخللها الحفر والمجاري.

وداخل تلك الغابة يصبح موحشاً، بعد حلول الظلام، ويروى أن الذئاب والأفاعي تكثر هناك، وهذا ما كان يثير كثيراً تخيلات الأولاد. وبخاصة «فيدور» الذي كان يرغب بالمجازفة، والذهاب إلى هناك، خفية، ولذلك سميت تلك القطعة من الأرض: «غابة فيديا».

كانت الملكية تضم أيضاً بستاناً للخضروات. وفيما بعد، عمل «آل دوستويفسكي» على حفر بحيرة بالقرب من مسكنهم. وأرسل «ميخائيل أندرييفيتش» من موسكو برميلاً يحوي أسماكاً حيّة أطلقت في البحيرة الملأى بالماء. وبعد ذلك، قام الكاهن بجولة حول البحيرة، وكان يتبعه موكب من حاملي الأيقونات واللافتات التي كتبت عليها العبارات المقدسة.

أما اليوم، فقد قطعت أشجار الغابة وزرع الملفوف في قاع البحيرة، التي جفت مياهها، وبني منزل جديد ونظيف مكان بيت آل «دوستويفسكي» القديم. ولكن قريتي «داروفويي» و «تشيرو ماشني»

احتفظتا بمظهرهما البالغ القدم: دساكر ومزارع صغيرة، فيها نحو عشرين سطحاً من الأغصان والقش، يغسلها المطر وتشويها الشمس وفلاحون عبيد (Moujiks) «مؤجيك» جهلة، كسالى، بائسون يشتهرون بمهارتهم في سرقة الخيل، يعيشون حياة بدائية، وكأن الزمن قد تقهقر قروناً، إلى الماضي.

كانت «ماري فيدوروفنا» تمضي الصيف كله في «داروفويي» تعتني بحظيرة الدواجن، وبستان الخضروات، وبزراعة الحبوب والبطاطا، والقنب. وتكتب لزوجها:

«العبيد جميعهم بصحة جيدة، فيما عدا أفراد أسرة «فيدور» الذين مرضوا وأشرفوا على الموت، ولكنهم اليوم، والحمد لله، قد تحسنت صحتهم! وثلاثة منهم فقط، ما زالوا لا يستطيعون العمل في الفلاحة، وبفضل الله، فإن الماشية بحالة جيدة».

وفي رسالة أخرى، كتبت له:

«لقد وهبني الله عبداً وعبدة. فقد رزق «نيكيتا» ابناً أسماه «إيغور»، كما رزق «فييدوت» بنتاً، أسماها: «لوكيريا». ووضعت الخنزيرة حملها الذي كان مؤلفاً من خمسة خنانيص والبطة تحتضن البيض، بكل هدوء، أما الإوزات، فهي لا تعطي شيئاً»...

وبينما كانت الأم تعنى بالأعمال المنزلية، وتراقب بانتباه متساوٍ صحة فلاحيها وصحة مواشيها، كان أولاد أسرة «دوستويفسكي» يتمتعون بنهم وشغف بحريتهم الجديدة، التي حصلوا عليها آنذاك. وكانت الألعاب تنظم في تلك الملكية الصغيرة المألوفة التي كانت تبدو لهم كبلد يزخر بالحفلات، بالأعياد وبالعجائب، ويا لها من ألعاب! لعبة المتوحشين أولاً، التي ابتكرها «فيديا»: كان الصبيان يبنون كوخاً تحت أشجار الزيزفون، ويخلعون ملابسهم يطلون أجسامهم بالألوان، ويعتمرون قبعات مزينة بأوراق الأشجار، وبريش الإوزّ وبعد أن يتسلحوا بالأقواس والسهام يتظاهرون

بالقيام بمهاجمة غابة السندر، التي يتجمع فيها صبيان وفتيات القرية. ويقتاد الأسرى إلى الكوخ، ولا يطلق سراحهم إلا مقابل فدية. ولعبة أخرى من ابتكار «فيديا» أيضاً، كانت هي لعبة «روبنسون». وفيما بعد، كان الأولاد يتخيلون أنهم يسبحون في حوض الماء.

وكان الفتيان القادمون من المدينة محبوبين جداً من الفلاحين العبيد المقيمين في ملكيتهم. وبخاصة «فيدور» الذي كان يقضي نهارات بكاملها في الحقول، متأملاً عمل الفلاحين الملتحين، القذرين، ذوي العيون الشبيهة بعيون الأطفال، والأيدي الثقيلة الخشنة والصلبة وكان يثقل عليهم بأسئلته الكثيرة. ويطلب منهم أن يقود الحصان المكدون على المسلفة أو على المحراث، وأن يستخدم المنجل. وذات يوم، أثناء الحصاد، عندما لمح فلاحة، كانت قد انقلبت جرتها وانسكب الماء الذي كان فيها، فأخذت تندب حظها وتشكو وتتأوه، لأن ابنها يشعر بالعطش الشديد، ويوشك أن يصاب «بضربة الشمس»، فأسرع، سيراً على قدميه لمسافة تقرب من كيلومترين، لكي يجلب لها قليلاً من الماء، من القرية.

وكان هؤلاء الفلاحون البسطاء، هؤلاء العمال البليدون يجذبونه إليهم، مثلهم في ذلك مثل مرضى مشفى «ماري». وكان يشعر أنه على وفاق معهم، وعلى مستوى واحد. وكان كل ضيق، وكل شعور بالكبرياء والكرامة، يتبدد عند تواصله معهم، وأخذ يكتشف، بمزيد من السرور، هذا الشعب الروسي البسيط، الفظ والمنهك الذي لا يحصى عدده، والذي سيحتفظ له، طوال حياته، بحب شديد. وإنما لأبناء هذا الشعب كان يعود، عندما يريد تقوية إيمانه بمهمة روسيا، المقدسة. وليس إلى الموظفين حاملي الرتب والأوسمة. وليس إلى الطبقة النبيلة (الارستقراطية) المتعالية، ولكن إليهم، إلى تلك الوجوه الوسخة، إلى تلك الظهور المنحنية، إلى تلك النظرات الحانية والمتعاطفة، دون أن تفهم شيئاً.

وفي سجن الأشغال الشاقة نفسه، وهو يشعر باليأس، في تلك العزلة القاتلة، كان من ذكراهم، يطلب العون والتشجيع.

«تذكرت ذلك الشهر، شهر آب (أغسطس) في الريف. كان الجو جافاً وصافياً، بارداً بعض الشيء، لأن الرياح كانت تهب بقوة. والصيف قارب على الانتهاء، وعما قريب، يجب أن نستأنف طريقنا نحو موسكو، لتمضية شتاءً ممل، في دراسة اللغة الفرنسية، ولذلك كنت أشعر أن قلبي ينقبض عندما أفكر بأنّ عليّ أن أغادر الريف»...

كان يتوغل في الفرجات الكائنة في الغابة، ويقطع من على اليمين واليسار القضبان من أشجار البندق لكي يضرب بها الضفادع. وكانت الغابة من حوله، ساكنة، يخيم عليها الهدوء. والحرادين الصهب المرقطة ببقع سوداء، تتسلل بسرعة بين حصى الطريق، الكبيرة. والخنافس تقف ملتصقة على الأوراق المنخفضة، والهواء تفوح منه رائحة الفطر، والجذوع التي فقدت قشرتها، والعشب التالف. وفجأة، تنطلق صيحة مخيفة: «إلى الذئب»!

فيهرب الولد وهو يصرخ، يجتاز الأدغال، ويصل إلى فرجة في الغابة، حيث كان أحد الفلاحين يحرث الأرض.

إنه فلاحنا «ماريّي»... رجل في الخمسين من العمر، قوي البنية، طويل القامة، لحيته شقراء، كثيفة. وقد بدت فيها بعض الشعرات البيضاء. كنت أعرفه، وإن لم أكن قد تحدثت إليه أبداً. وعندما سمع صيحتي، أوقف فرسه، ولما وصلت بالقرب منه، وأمسكت محراثه بإحدى يديّ، وبالأخرى أمسكت كمه، لاحظ خوفي، وكنت أردد، وأنا ألهث: «إلى الذئب»!

فرفعَ رأسه، وبصورة عفوية أخذ ينظر حوله، وكأنه، في تلك اللحظة، قد صدقني:

- أين الذئب؟

فتمتمت:

- لقد صرخوا... أحدهم صرخ: «إلى الذئب»!

- هيا، دعك من ذلك! ليس هنالك ذئب، لقد كنت تحلم. وأضاف لكي يطمئنني:

وماذا يعمل الذئب إذا أتى إلى هنا؟

«ولكني، وأنا أرتجف، كنت ما زلت أمسك بمزيد من القوة بكم قميصه، وأظن أن وجهي كان شاحباً جداً.

فقال وهو يهز رأسه:

- آه! لكم أنت خائف! أيّي، أيّي! هيا، لقد انتهى الأمر يا صغيري العزيز. انظروا كم هو شجاع!

وفجأة مد يده، وداعب بها خدي:

- هيا، لقد انتهى كل شيء، هيا، ليكن المسيح معك: ارسم إشارة الصليب.

«ولكني لم أرسم إشارة الصليب. وكانت شفتاي متقلصتين عند زاويتيهما. فلاحظ ذلك، ووضع إصبعه الكبيرة، ذات الظفر الأسود، الذي وسخه التراب، على شفتيَّ المتقلصتين... «وهاكم أنني فجأة، وبعد عشرين سنة، وأنا في سيبيريا، ما زلت أذكر ذلك اللقاء، في أدق تفاصيله. وأتصور ابتسامة الأم الحنونة، التي بدت على شفتي ذلك الفلاح المسكين، فلاحنا العبد. وما زلت أتذكر إشارات الصليب التي رسمها أمامي، وكيف هزّ برأسه، وهو يقول: «لكم أنت خائف يا صغيري العزيز»! وبخاصة تلك الإصبع التي وسخها التراب، والتي مس بها بهدوء، وعلى استحياء، فمي الصغير.

«وفجأة، وأنا ابتعد عن سريري السيئ، وألقي نظرة حولي، شعرت أني أستطيع النظر إلى هؤلاء البؤساء، وتقديرهم بطريقة أخرى، وأنه،

بشكل مفاجئ، وكأنما حدث ذلك بفعل السحر، فقد تبدد وزال كل ما كان في قلبي من غيظ وكراهية».

وعند كل تجربة يتعرض لها ولدى كل هجمة جديدة من شكوكه الدينية، كان يندفع بسرعة نحو الفلاح، متوسلاً ومطالباً بحضوره الدائم، متسلحاً بقوته البسيطة الهادئة والمطمئنة. وكان الآخر يستجيب إليه، قائلاً: «هيا! هيا، ليس هنالك ذئب... لن أدعك للذئب، كي يفتك بك...ليكن المسيح معك».

والفلاح «ماريي» عاش، بالفعل، في قرية «داروفويي» كان فلاحاً عبداً «موجيك» خبيراً بشؤون الخيل، وكانت «ماريا فيدوروفنا» تقدّره وتعتمد عليه كثيراً، لدرجة أنها كانت تصفح عما يتفوه به من ألفاظ سيئة. وكذلك، ففي «داروفويي» عرف «دوستويفسكي» الفتاة «سميرداياشيا» التي تحدث عنها في روايته: «الأخوة كرامازوف». كانت تدعى «أغافيا تيموفييفنا»، وتعتبر بلهاء، تتسكع طوال السنة وهي لا ترتدي سوى القميص، وتنام في المقبرة. وقرية «تشيرو ماشني» متواجدة أيضاً في الرواية نفسها. أما «أليونا فرولوفنا»، فقد خلد «دوستويفسكي» اسمها في روايته: «الشياطين».

مرحى لأليونا فرولوفنا الشجاعة! فهي تستحق هذه المكافأة. وذات يوم، في موسكو - وكان «دوستويفسكي» في التاسعة من عمره، آنذاك - فتح باب الصالون، وبدا «غريغوري» على العتبة، كان قادماً مباشرة من القرية. «وها نحن قد رأينا عند ذلك، بدلاً من المعتمد البدين، الذي يرتدي ملابسه على الزي الألماني، رجلاً يرتدي قميصاً عتيقاً، وينتعل حذاء مصنوعاً من القماش.

فصاح به أبي، وقد انتابه خوف شديد:

- ماذا هنالك؟

فأجابه «غريغوري» بصوت مبحوح:

- لقد احترقت الملكية.

كانت النار قد التهمت الايسبات (مساكن الفلاحين) والمستودعات، والمحصول والماشية. وحتى الأب «أرخيبّ» فقد احترق ومات عبر لهيب النار. فتصورنا، في بداية الأمر، أنّ الدمار كان تاماً. وخرّ أفراد الأسرة راكعين، وأخذت «ماري فيدوروفنا» تجهش بالبكاء، عند ذلك اقتربت منها «أليونا فرولوفنا»، وربتت على كتفها: «إذا كنتم بحاجة لنقود، خذوا نقودي». كانت قد وفرت خمسمائة روبل. ولكن لحسن الحظ، فقد أصلحت الأضرار دون الحاجة لنقود الخادمة. ولكن هذه الذكرى، مثلها في ذلك مثل ذكرى الفلاح العبد «ماريي»، لم ينسها «فيدور ميخائيلوفيتش» طوال حياته.

ومما كتبه، فيما بعد:

«لا تقيموا الشعب الروسي، وتحكموا عليه، بناءً على الأخطاء والأعمال السيئة، التي يرتكبها في كثير من الأحيان، بل بناءً على الأمور العظيمة والمقدسة التي لا يكف عن التطلع والطموح إليها، من أعماق جهله... ومنه يشع نور يضيء لنا الطريق».

الدروس الأولى
الحداد الأول

بدأت عملية تعليم أولاد «آل دوستويفسكي» بصورة مبكرة. وكانت «ماري فيدوروفنا» هي التي تكفلت بتلقين ابنها «فيدور» مبادئ التهجي والقراءة. وكانت تعلمه حسب الطريقة القديمة، معطية لكل حرف تسميته السلافية:

«Az, Bouqi Vede» والصغير «فيدور» الذي كان آنذاك في الرابعة من عمره، كاد يضيع رشده عند تدفق تلك المقاطع الغريبة.

وكانت قراءاته الأولى لقصص العهد القديم والعهد الجديد المئة وأربع قصص. والطباعة الحجرية الرديئة للكتاب كانت تروي قصة خلق العالم، آدم وحواء في الجنة، وقصة الطوفان...

وفي سنة ١٨٧٠، وكان «دوستويفسكي» آنذاك قد بلغ التاسعة والأربعين من العمر، عثر على كتاب مماثل لذلك الكتاب الذي درس فيه أثناء طفولته، واحتفظ به في مكتبته، بحرص وعناية وكأنه ذخيرة مقدسة.

وعندما أصبح الأولاد يجيدون قراءة قصص العهد القديم والعهد الجديد، أحضر «ميخائيل أندرييفيتش» إلى المنزل شماساً حسن الثقافة، ليعلمهم التاريخ المقدس. وكان أحد أساتذة معهد «كاترين» فسحر ببلاغته

جميع أفراد الأسرة. وكانت «ماري فيدوروفنا» تترك أعمالها المنزلية، في كثير من الأحيان، لكي تصغي إليه وهو يروي للصغار، الجالسين حول طاولة اللعب، وقد أسندوا خدودهم على قبضات أيديهم، والبريق يشع من أعينهم، ميلاد السيد المسيح، عذابه وصلبه وموته.

واستدعي بعد ذلك أستاذ آخر، لإكمال تربية صغار «آل دوستويفسكي» ببعض المعلومات عن اللغة والثقافة الفرنسيتين. وكان من أصل فرنسي ويدعى «سوشار»، ولكنه كان قد طلب من الإمبراطور السماح له بأن يقلب اسمه ويحوله إلى اسم روسي، لكي يصبح، بعد ذلك: «دراشوسوف» وكان فيما بعد عند «دراشوسوف» هذا، أي المعروف سابقاً، باسم «سوشار»، أن وضع الأولاد كنصف داخليين.

و «دراشوسوف» الذي كان بديناً، قصير القامة» جاهلاً يلثغ ببعض الحروف، تكفل بإعطاء دروس اللغة الفرنسية، وتكفل ولداه بدروس الرياضيات والدراسات السلافية وتكفلت زوجته بتدريس كل ما تبقى من المواد.

ولكن، لم يكن أحد، في تلك المؤسسة المتواضعة، يجيد اللغة اللاتينية. فأخذ والد «دوستويفسكي» على عاتقه، تعليمها لأولاده وكان «الماجور» يجمعهم حوله، كل مساء، والعذاب يبدأ، بالنسبة لهم.

فقد كان «ميخائيل أندرييفيتش» أستاذاً مخيفاً. وقد تفتحت سليقته كمعلم، في حضور تلاميذه. ولم يكن يمنعهم وحسب من الجلوس أثناء الدرس الذي كان يستمر أكثر من ساعة، بل إذا أحدهم شعر بالتعب، فاستند إلى إحدى قطع الأثاث، كان يوبخه، في الحال، بصوت يقصف كالرعد. وهكذا. كانوا يمكثون هناك، ساكنين لا تبدر منهم أيّ حركة، وقد استبد بهم الخوف، وأنهكهم الملل، وهم يصرّفون الأفعال خبط عشواء وكيفما اتفق:

«Mensa, Mensae... Amo, Amas, Amat...» - وعند وقوع أقل خطأ، يتعالى الصراخ، وتنقض الضربات بقبضة اليد على المنضدة، ويغلق كتاب قواعد اللغة اللاتينية، وتلقى الأوراق جانباً، ويصفق الباب، ويسمع وقع الأقدام الثقيلة، وهي تبتعد.

ولكن يجب الاعتراف بأن «ميخائيل أندرييفيتش» لم يكن يرغم تلاميذه على الركوع على ركبهم، ولا على الوقوف لمدة طويلة، في إحدى زوايا الغرفة.

ولم يوافق «آل دوستويفسكي» أبداً على إرسال أولادهم إلى المدرسة الرسمية، حيث كانت تطبق العقوبات الجسدية على التلاميذ، بصورة نظامية وقانونية. ولهذا السبب، كان العديد من العائلات يفضلون إرسال أبنائهم إلى المؤسسات التعليمية الخاصة. وكانت مؤسسة «تشيرماك» الباهظة التكاليف، والتي تحظى بتقدير الجميع، هي التي استقبلت، سنة ١٨٣٤، الأخوين «ميشيل» و «فيدور» دوستويفسكي.

كان «تشيرماك» رجلاً طيباً، ومربياً حريصاً ومدققاً. شريفاً، وقليل الحظ من الثقافة والعلم، ولكنه استطاع أن يضم في مؤسسته نخبة من المدرسين المؤهلين والأكفاء. وكان جو المدرسة عائلياً ومريحاً.

وكان الطلاب الداخليون يتناولون طعامهم على المائدة نفسها التي يتناول عليها طعامهم، أفراد أسرة «تشيرماك»، وكانت مدام «تشيرماك» هي التي تعالج الجروح البسيطة التي يصاب بها التلاميذ. وعندما يستحق أحد الطلاب مكافأة ما، كان «تشيرماك» يستدعيه إلى مكتبه، ويناوله بكل جدية واهتمام، قطعة من السكاكر، أو الحلوى. وكان تلاميذ الصفوف العليا يتقبلون هذه المكافأة بالرضا والسرور، مثلهم في ذلك مثل التلاميذ الصغار، الذين كانوا في الصفوف التمهيدية والدنيا.

وكل يوم سبت، كان «ميشيل» و «فيدور» يعودان إلى منزل العائلة، حيث ينتظرهما عشاء احتفالي فخم، تزينه أطباق الطعام التي يفضلانها. ولكن، حتى قبل أن يمسا الطعام، ينطلقان في حديث مسهب ومفصل عن حياتهما الجديدة: العلامات التي حصلا عليها، الوظائف التي ينبغي عليهما تحضيرها، عفرتة وشيطانات رفاقهما. و «الماجور» الذي ما كان ليسمح بأن يصدر منهما، أو ضدهما أي تصرف ينم عن عدم التهذيب، كان يسر كثيراً بسماعه أخبار تلك «الشيطنات» المدرسية. فهل كان يتذوق عند سماعها، فرحة الانتقام، الخبيثة، من العالم؟ وهل كان يوجه احتقاره إلى أولئك الجامعيين الذين يبدون له أكثر عجزاً من أن يستطيعوا فرض احترامهم على جماعة من الأطفال؟

وكان يتمتم، برضا وسرور واضحين.

«آه! يا للزعران الصغار! آه! يا لكم من لصوص أشقياء! أيها الأوغاد الصغار»!

وبعد أن يتناول الأولاد طعام العشاء، ينصرفون إلى القراءة في كتبهم. وكان «ميشيل» و «فيدور» يقرآن كل ما يقع تحت أيديهما، باهتمام وحماسة، شديدين. وكان غذاؤهما الثقافي والفكري مقتصراً في بداية الأمر على ما تتضمنه منشورات «مكتب القراءة» الشهرية، وهي كتب صغيرة، يتغير لون غلافها، مع كل طبعة جديدة.

ولكن «فيدور» كان يهتم ويتحمس كثيراً لمطالعة الروايتين التاريخيتين: «وافيرلي» (Waverley) و «كانتان دوروارد» (Quentin Durward) اللتين كتبهما الكاتب البريطاني الشهير: «السير والتر سكوت» (١٧٧١-١٨٣٢)، الأولى، سنة ١٨١٤ والثانية، سنة ١٨٢٨. ولمطالعة قصص الرحلات والأسفار. وكان يحلم بالسفر إلى «فينيسيا» أو إلى «اسطنبول» والتمتع بالتسامح، وبالحريات الشرقية، وبالغزوات والاكتشافات المحفوفة

بالمخاطر. وبمظاهر الإخلاص، التي تتسم بالنبل، وكان يطالع بشغف شديد، ودون أي تمييز أعمال «والتر سكوت»، «ديكنز»، «جورج صاند» و «هيغو»، ويهضمها كيفما اتفق، بين درسين من الرياضيات أو القواعد.

وكان «ميشيل» يتمادى في الانحراف، إلى حد نظم الشعر خفية، وبصورة سرية. وكان الاثنان يحفظان غيباً أشعار «بوشكين»، وأشعار «جوكوفسكي». وينشدانها، بعد ذلك لأمهما، التي كانت تقوم بدور الحكم في الجدل الذي يدور أحياناً بين الأخوين، وهي مستلقية على إحدى الأرائك، بعد أن نحل جسمها، بسبب إصابتها بالتدرن الرئوي.

كان «بوشكين» آنذاك شاباً، معاصراً لهما، ولم تكن شهرته تعادل شهرة «جوكوفسكي». وكانت «ماري فيدوروفنا» تعلن عادة تفضيلها لهذا الأخير. وكان «فيدور» يغضب لمجرد التفكير بمقارنة قصيدة: «الكونت هبسبورغ» بقصيدة: «موت أوليغ» المؤثرة، والمثيرة للإعجاب.

وذات يوم، أتى لزيارتهم أحد أبناء أصدقاء العائلة القليلين، ويدعى: «فانيا أومنوف» وأطلع «فيدور» على قصيدة من الهجاء الأدبي، عنوانها: «منزل المجانين، لشاعر اسمه: «فويكوف»، وقرأ «فيدور» القصيدة لأبيه، الذي قال عنها إنها غير لائقة، لأنها تتضمن «كثيراً من السخرية بحق كتاب معروفين، وبحق «جوكوفسكي» بشكل خاص».

و «فانيا أومنوف» هذا، كان هو الشاب الوحيد، في مثل سنهما، الذي يسمح لهما باستقباله. ومع ذلك، فإن «الماجور» لم يكن المسؤول الوحيد عن الوحدة التي كان يقبع فيها أبناؤه. فكم كان «فيدور» يحب أن يوجد لنفسه رفاقاً من بين تلاميذ مدرسة «تشيرماك». ومع ذلك فإن حسّ الكبرياء المغالى به، والحذر الشديد، والحياء المرضي، كل هذا، كان يجعل زملاءه في الدراسة يبتعدون عنه. كان يتحرق شوقاً لكي يظهر وفاءه لأي كان، وأن يبوح بكل ما تكنه نفسه من مشاعر وأسرار، لأول شخص

يلتقي به. ولكنه منذ البداية، كان يتقوقع على الفور، وينطوي على نفسه، وكان يخاف من العيش والتمتع بالحياة. وماذا هنالك من صفة مشتركة بين هؤلاء الفتيان النشيطين والمرحين وبينه، هو الذي تلازمه كآبة شديدة تجعل له الحياة تبدو قاتمة؟ وأي شيء مشترك بين تطلعاته وطموحاته الرومانسية ورغبته الغامضة بتحقيق الشهرة والمجد، والإعجاب الشديد الذي يبديه للأعمال الأدبية، وبين الألعاب الفظة التي يمارسها رفاقه؟

وكان مزاحهم السوقي والمبتذل يثير غيظه. وربما كان تعرفه على إحدى الفتيات، أمكنه أن يشفيه من الحياء الشديد الذي يعاني منه؟ ولكن الدكتور كان يراقب سلوك أبنائه بكل حرص واهتمام. وحتى سن السادسة عشرة، لم يتلق أحد منهم أي مبلغ من النقود لنفقاته الشخصية. بل وأكثر من ذلك، كانت العودة إلى مدرسة «تشيرماك» تتم بواسطة عربة المشفى، لكي لا يساور الشابين أي إغراء، بالتسكع في شوارع المدينة. أما أوقات الفراغ في الأعياد، وأيام الأحد، فقد قرر «ميخائيل أندرييفيتش» أنّ على «فيدور» و «ميشيل» أن يساعدا خلالها، في العمل والتعلم أخويهما «أندريه» و «نيقولا»، وكذلك أختيهما الصغيرتين.

أثناء ذلك، كان مرض «ماري فيدوروفنا» يزداد خطورة مع مرور الوقت. ومنذ شتاء سنة ١٨٣٦، أوت المريضة البائسة إلى سريرها، لكي لا تنهض بعد ذلك، أبداً. ومع ذلك، ففي شهر أيار (مايو) من تلك السنة نفسها، كان زوجها، الذي تساوره ريبة وشكوك سخيفة ومضحكة، لا يزال يتهمها بأنها قد خانته.

وقد كتبت له، آنذاك:

«إني لأتساءل، يا صديقي، فيما إذا كنت لا تزال تعاني من جديد، وتتعذب بسبب تلك الشكوك التي تساورك بشأن أمانتي الزوجية وإخلاصي

لك، وهي شكوك مخيفة بالنسبة لك، كما هي مخيفة ومرعبة أيضاً بالنسبة لي، وإذا كان الأمر هو كذلك، فأنا أقسم لك، يا صديقي، بالله، بالسماء وبالأرض، أني لم يسبق لي أن خنتك أو أن حنثت، وأني لن أخونك ولن أحنث باليمين المقدس، الذي أقسمته لك أمام المذبح».

ولم يكن يحتاج الأمر، لأقل من الانطفاء التام للمرأة المسكينة، لكي تهدأ غيرة زوجها.

وكان ضعف «ماري فيدوروفنا» قد أصبح شديداً جداً، لدرجة أنها لم تعد تستطيع تسريح شعرها. ولأنها كانت ترى أنه من «غير اللائق» بأن تعهد بذلك لأيدٍ غريبة. فقد عملت على قص شعرها كله تماماً، وعلى مستوى الجلد تقريباً. وفي غضون ذلك، كانت زيارات الأقارب والأصدقاء والمعارف، المشفقين على المريضة، تتوالى بصورة متزايدة على ملحق مشفى «ماري». وأتى العديد من الأطباء لمساعدة زميلهم في معالجة زوجته والعناية بها. ولكن المرض كان مستعصياً وغير قابل للشفاء. وهكذا، فقد توفيت والدة «دوستويفسكي» بتاريخ ٢٧ شباط (فبراير) سنة ١٨٣٧، بعد أن باركت أولادها، وزوجها، ووجهت نصائحها الأخيرة، لجميع المقيمين في ذلك البيت وكانت في السنة السابعة والثلاثين من عمرها.

وهذه الخسارة زعزعت كيان الأسرة، بشكل مخيف: فقد بدا «فيدور» و «ميشيل» حائرين، منذهلين. والماجور، الذي أصابه مس من الجنون بسبب شدة حزنه، أخذ يضرب الحائط برأسه. وأقام نصباً تذكارياً من الرخام، لزوجته، كتبت عليه هذه العبارة، لكارمزين[1]: «أرقد، أيها الرفات العزيز، إلى أن يحين موعد استيقاظك الذي يتصف بالبهجة والسرور».

١- «Karamzine» (١٧٦٦-١٨٢٦): كاتب ومؤرخ روسي، وهو مؤلف اول كتاب تاريخي كبير، نشر في روسيا: «تاريخ الدولة الروسية» (١٨١٦-١٨١٩) -المترجم

وقبل ذلك بشهر، كان قد قتل البارون «أنتهيز» بالمبارزة الشاعر «بوشكين». ولم يصل خبر هذا الحادث للشابين من آل «دوستويفسكي» إلا بعد موت «ماري فيدوروفنا». وقد تأثرا كثيراً وحزنا لموت الشاعر. وقد أكد «فيدور» أنه كان سيرتدي ثوب الحداد على الشاعر، لو لم يكن قد سبق له أن ارتداه حزناً على أمه. وهذا الشعور، ليس فيه شيء من المغالاة، إذا فكرنا بالذهول الذي ينم عن الحزن الشديد الذي أحدثه في كافة أرجاء البلاد نبأ تلك الكارثة. وشعر جمهور المتعلمين والمثقفين، بشكل مبهم وغامض، أن نهاية «بوشكين» المأساوية تشير إلى عهد جديد ومخيف. فلم يكن رجلاً ذو موهبة، ذاك الذي رحل، وهو لا يزال في ذروة قوته، وحسب، بل لقد رحلت برحيله، فكرة، وحال واقعية، وتواريتا معه.

وقد كتب «غوغول»:

«يا إلهي! روسيا من دون «بوشكين»، كم ستبدو غريبة... إن حياتي، وبهجتي القصوى، قد ماتتا معه! فالعظيم جداً، لم يعد على قيد الحياة».

وليرمونتوف، الذي كان آنذاك «حامل العلم» في فرقة الحرس الخيالة، نظم قصيدته: «موت الشاعر» التي سببت له النفي إلى «القوقاز:

«الشاعر لم يعد على قيد الحياة، فقد نفذ القدر حكمه.

وساحة الشعر الوطني، أصبحت مقفرة:

«فقد مات «بوشكين»...

وهذه الأبيات الحزينة أثارت اليأس الشديد لدى «فيدور» و «ميشيل دوستويفسكي».

وفي غضون ذلك، أصبحت الحياة في البيت مشوشة، لا تطاق، فالأب الذي ترمل أصبح يقوم بعمله بقرف واشمئزاز، ولا يفكر إلا بالانزواء في ملكيته: «داروفويي». وقرر إرسال ولديه الكبيرين إلى مدرسة الهندسة

العسكرية، في «سان بطرسبرج» وقد بدا له أن هذا المشروع ممتاز، لأنّ طلاب هذه المدرسة، عند انتهاء دراستهم ونيلهم شهادتها، يستطيعون أن يصبحوا ضباطاً في إحدى فرق الحرس الإمبراطوري، أو أن يصبحوا مهندسين، إذا رغبوا في ذلك، والخيار متروك لهم. ولكن السفر إلى العاصمة قد تأخر، بسبب مرض مفاجئ أصيب به «فيدور» وأخذ يعاني من اختفاء صوته. ولم تجد مختلف الأدوية، التي تناولها وظلت غير فعالة، للحصول على نتيجة إيجابية وحاسمة. فنصحه أحد الأطباء الأخصائيين، بأن يحاول القيام برحلة عندما تتحسن حالة الطقس. ونجحت التجربة. ولكن، كان على «دوستويفسكي» أن يظل، طوال حياته، يتكلم بنبرة خافتة، غريبة وكأنها «مصطنعة» كان ينزعج منها جميع من يتحدث إليهم.

وحصل الفراق في جو احتفالي مهيب، وحضره الكاهن «إيفان بارشيف» مرشد المشفى، وترأس صلاة المسافرين. وجلس بقية أفراد العائلة، حسب العادة، حول المائدة، ثم نهضوا ورسموا إشارة الصليب على صدورهم. وأخيراً صعد الأب وولداه عربة الأجرة التي كانت بانتظارهم.

ودامت الرحلة أسبوعاً، على وجه التقريب. وكانت الأحصنة تسير ببطء وبخطى متثاقلة. وكان ينبغي الانتظار ثلاث ساعات في كل محطة استراحة. حيث يذهب المسافرون لتناول الطعام في بعض الفنادق الصغيرة الموجودة في القرى، ثم يذهبون لزيارة الإسطبلات، حيث كان الخدم يجهزون الأحصنة التي ستستخدم في متابعة الرحلة. وكانوا يتابعون السفر، أخيراً بسرعة موكب الجنازة، على طريق سهلة ومستوية، وعبر حقول فسيحة، تشوبها هنا وهناك، غابات سوداء، ومستنقعات شاحبة صفراء.

وأحياناً، كان المنظر الرتيب يبعث على الملل. وبدا الماجور مكتئباً، متجهم الوجه، بينما كان الشابان ينتشيان بالآمال الغامضة التي يحلمان بها، إذ إنّ حياة جديدة سوف تبدأ بالنسبة لهما: فهما سيخدمان «الجميل

والعظيم»، حسب تعبير كان عزيزاً لديهما، وسوف يدرسان الرياضيات، حقاً، لأن هذا مفروض عليهما، ولكن الشعر كان يثير مشاعرهما وينير ظلمات حياتهما الخاصة والسرية.

كان «ميشيل» ينظم الشعر بسرعة، وبمعدل ثلاث قصائد في اليوم. و «فيدور» يعد ويحضر لكتابة بعض روايات الفروسية التي تشكل قصور «فينيسيا» لوحتها الخلفية. وكانا ينشدان بصوت يشوبه التأثر، آخر أعمال «بوشكين». وفور وصولهما إلى «سان بطرسبرج». كان عليهما أن يحجا إلى المكان الذي جرت فيه تلك المبارزة المشؤومة. وبعد ذلك، سيذهبان لزيارة المنزل، الذي كان يقيم فيه «بوشكين»، والغرفة التي لفظ فيها النفس الأخير. وبعد ذلك...

ولكن، حصل آنذاك حادث، قطع لهما سلسلة أحلامهما وتخيلاتهما: ففي إحدى استراحات حكومة «تفير» (Tver) كان المسافرون ينتظرون أن تستبدل أحصنة عربتهم، عندما شاهدوا عربة منطلقة بأقصى سرعة، تتوقف أمامهم بينما كانت الأحصنة التي تجرها، تلهث وتنتفض. ونزل منها ناقل بريد إحدى الوزارات، يعتمر قبعة مثلثة الزوايا تزينها عدة ريشات، ويرتدي ملابس تبدو ضيقة على جسمه، وبدا وجهه مورداً، أحمر اللون، واحتسى كأساً من «الفودكا»، بينما كان الخدم يهيئون له عربة أخرى لمتابعة رحلته. وصعد إلى العربة، ولم تكد تقلع وتبدأ السير، حتى نهض ذلك الساعي واقفاً، وأخذ يلكم السائق بقبضته على مؤخرة عنقه، فانحنى السائق البائس إلى الأمام، وأخذ يضرب بكل قواه، الأحصنة بسوطه، الطويل. وكلما زاد الساعي في لكمه وضربه له، كان هو يزيد في ضربه للأحصنة...

وقد كتب «دوستويفسكي» في: «يوميات الكاتب»: «هذه الصورة المثيرة للاشمئزاز ظلت ماثلة في ذاكرتي، طوال حياتي».

فهو يرى في حادثة ساعي البريد التفسير لذلك الانحطاط البهيمي، الذي ينسبه بعضهم للشعب الروسي ويلومونه عليه. فليكفوا عن الأمر والنهي، عن الصراخ وعن الضرب، وعند ذلك سينتصب متخلصاً من الانحناء، ويصبح من جديد الرجل اللطيف والواعي، الذي ما كان ليكف أبداً عن أن يكونه.

وفي رواية: «الجريمة والعقاب»، يحلم «راسكو لينكوف» بفرس نفقت تحت ضربات «ميكولكا» السائق الفظ: «الفرس تترنح تحت الصدمة والضربات، وتنهار، ثم تحاول من جديد أن تشدّ وتجر العربة، ولكنها تتلقى ضربة أخرى بالعصا الضخمة على ظهرها، فتسقط على الأرض، كما لو أن قوائمها الأربعة، قد قطعت».

ويتحدث «دوستويفسكي» في كتابه: «يوميات الكاتب» عن قصيدة للشاعر «نيكراسوف» عنوانها: «العينان الحلوتان»: فلاح عبد «موجيك» يضرب بسوطه حصانه على عينيه: «أنت لا تستطيع أن تجر العربة، ومع ذلك فإنك ستجرها. فلتمت، ولكن عليك أن تجرها».

و «دوستويفسكي» تستبد به فكرة الألم، وتلازمه على الدوام، فكل جريمة، يفسرها، يفتديها ويكفر عنها، بل ويشيد بها الألم. فهو ذريعة وجودنا الكبرى ومبرره المهم. وأبوه الجالس إلى جانبه، كان قد ابتلاه القدر بقسوة، وهذه المحنة التي أصابته تبرر القسوة، التي برهن على أنه يمارسها في معاملته لأولاده. وكل فرد يلقي على جاره مسؤولية ووطأة يأسه وكراهيته وخوفه. فلا شيء يبدأ فينا. ولا شيء ينتهي فينا. وجميعنا أمسكت بنا الشبكة العصبية الواحدة نفسها، وحصرنا فيها، ويكفي أن تبدر من أحدنا إشارة أو حركة حتى يشعر القريبون منه بالتبرم المؤلم الذي تسببه.

وقد أكدت «أنّا غريفوريفنا دوستويفسكي» أن «فيدور ميخايلوفيتش»، يتذكر برضى وعن طيب خاطر، طفولته السعيدة

والهادئـة، ولكـن الـدكتور «يانوفـسكي» الـذي كـان صـديقاً حميمـاً، لفيدور ميخائليوفيتش»، يرد عليها:

«لقد عانى «فيدور ميخائيلوفيتش» تَماماً، في طفولته من تلك المشاعر القاتمة والمرهقة، التي لا تزول مع مرور الزمن، والتي تثير لدى الإنسان الاستعداد للأمراض العصبية، وبالتالي الاستعداد للصرع، ولوسواس الإصابة بالمرض، وللريبة والحذر الشديدين.

كان الوقت قد تأخر، وأخذ «الماجور» يتثاءب، وعلى جانبي الطريق، تكاثر عدد السبخات والمستنقعات، وكان ذلك دليلاً على الاقتراب من «سان بطرسبرج».

قصر المهندسين

الزيارات الورعة لمنزل «بوشكين» والنزهات المثيرة. على ضفتي نهر النيفا، واكتشاف «الجميل والعظيم» أرجئت بناءً على رغبة «الماجور» المتعقلة.

ومنذ وصوله إلى «سان بطرسبورج»، وضع «فيدور» و «ميشيل» في المدرسة الداخلية الخاصة التي يديرها «كوروناد فيليبوفيتش كوستوماروف».

وهذا الضابط المتقاعد، ذو الشهرة الكبيرة، كان يتكفل بتحضير الشباب لفحص القبول في «المدرسة». وكان يتمتع بقامة مدهشة. وشاربه الأسود الضخم، ونظرته الباردة، أدخلتا الرعب إلى قلب القادمين الجديدين، ولكنه منذ أن تلفظ بكلماته الأولى، أدركا أيّ عذوبة ممتازة وأي لطف أنثوي يختفيان خلف ذلك المظهر العسكري.

والدكتور، وقد اطمأن تماماً على وضع ولديه وعلى مصيرهما، فقد عاد أدراجه إلى موسكو.

أما الأخوان، اللذان تأثرا قليلاً بالوحدة الجادّة التي افتتحت أمامهما، فقد انكبّا على العمل بهمة ونشاط.

ومما كتبه «ميشيل» إلى والده:

«إنّ أعمالنا تسير بشكل جيد، فتارة ندرس الهندسة، والجبر، ونرسم مخططات التحصينات، المتاريس والأبراج، وتارة نرسم بالريشة

مقاطع وجوانب بعض الجبال. و «كوروناد فيليبوفيتش» مسرور جداً منا، ويبدي لنا مودّة تفوق العادة: فقد اشترى لنا أدوات بثلاثين روبلاً، وبعض الألوان بقيمة اثني عشر روبلاً».

وأضاف أيضاً:

«ومدرّسنا يعتمد علينا أكثر من اعتماده على الطلاب الثمانية الآخرين الذين يتابعون دروسه».

وأخيراً، أتى يوم الاختبار. فنجح «فيدور»، وأبلغ «ميشيل» أنه غير كفء لأسباب صحية. فأرسلته الإدارة ليتابع الدراسة في «رافيل» حيث يوجد «للمدرسة» ملحق هناك.

ولم تستطع فرحة «فيدور» بارتدائه البزة العسكرية الرسمية، ومعاملته، بعد ذلك «كمرشد» للتخفيف من حدة اليأس الذي شعر به بسبب ذلك الفراق. فالأخوان كانت تربطهما صداقة حارة وحميمية. ومن كان يستطيع، في نظر «فيدور» أن يقوم مقام ذلك النجيّ النبيه. وذلك الرفيق العطوف والمحب، بل وذلك الشاعر المتحمس، الذي كان يفهم عليه بالإشارة، والذي كان هو نفسه يدرك أكثر أفكاره سرية؟

ولكنه، حيال والده، فقد أبدى مع ذلك، بعض الحماسة، بدافع الشفقة عليه:

«لقد قُبلت، أخيراً، في «مدرسة المهندسين» وقد ارتديت البزّة العسكرية الرسمية، ودخلت في خدمة الدولة»!...

وقد كتب، فيما بعد.

«لقد أرسلت مع أخي «ميشيل» الذي كان آنذاك في السادسة عشرة من العمر، إلى «سان بطرسبورج»، للدراسة في «مدرسة المهندسين» وقد دمروا بذلك مستقبلنا. وبالنسبة لي، كانت تلك غلطة كبرى».

وكان هذا هو شعوره الحقيقي تماماً.

«قصر المهندسين»: (هكذا كانوا يسمون أحياناً تلك المدرسة) بني في عهد الإمبراطور «بولس الأول» لكي يكون مسكناً خاصاً له.

وهو يقع في أجمل أحياء المدينة، عند ملتقى نهري: «مويّكا» و «فونتنكا»، ويفصله عن حديقة الصيف جسر متحرك، يعلوه برج ضخم. وفي هذا المسكن، مات العاهل مقتولاً، بتاريخ ١١ آذار (مارس) سنة ١٨٠١، عند منتصف الليل، بناءً على أوامر صديقه الحميم ونجيّه: الكونت «فون ديرياهلين»، حاكم «سان بطرسبورج» العسكري، وبموافقة ابنه «أليكسندر» الضمنية والمكتومة.

«لقد شاء الرب أن يأخذ إلى جواره، والدنا المحبوب جداً:

الإمبراطور «بولس بيتروفيتش»، الذي توفى فجأة، بسبب إصابته بسكتة دماغية».

كان هذا هو نص البيان الذي نشره «اليكسندر» في اليوم التالي، بالذات، لمقتل الإمبراطور.

وفي سنة ١٨١٩، نقلت من القصر بعض مفروشاته، وأجريت فيه بعض التعديلات والإصلاحات، وخصص بعد ذلك لمدرسة الهندسة العسكرية. كانت قاعاته فسيحة، عالية، نيرة، وجدرانها مطلية بالكلس الأبيض.

وفي القاعات الإمبراطورية، سابقاً، أقيم مهجع للنوم، ومطعم وقاعات تدريس لستة وعشرين ومئة طالب. وكان طلاب هذه «المدرسة» تتراوح أعمارهم بين ١٤ و ١٩ سنة. وكانوا يشكلون جماعة ذات تقاليد راسخة: «تقديس الاستقامة والشرف، احترام السابقين لهم و «متقدميهم»، حماية الضعيف، الازدراء بالمخاطر والاستهانة بها، والتقدير الخاص للرقص.

وكانت تأدية القسم، عند القبول في قصر المهندسين، تضفي على «المرشدين» الشعور بمسؤوليتهم.

وكـان منهـاج الدراسـة منوعـاً وبـالغ القـسوة: جـبر، هندسـة علـم القذائف، فيزياء، هندسة معمارية، تحصينات، طوبوغرافيا، وجغرافيا، يـضاف إليهـا، بـالطبع: الأدب والتـاريخ والتـدريبات العـسكرية... وكـانوا يعملون في رسم المخططات الجيدة، والعناية بالرسم المائي، ورسم المقاطع، ويتحـدثون عـن الأوضـاع في المـستقبل وعـن العلاقـات المهمـة والعامـة، عـن المهمات، والسهرات، والاستعراضات. ويخططـون لانتفاضـات وتمـردات ضد اضطهاد «المتقدمين» والرؤسـاء. ثم، بنـاءً علـى أمـر أحـد رؤسـاء «المرشـدين» يتعـانق الأعـداء مـن الـصفين ومـن الطبقـتين، يـؤدون القـسم ويتعاهـدون علـى صداقة خالصة، فيمـا بيـنهم، تليـق بالرجـال الـشجعان، ويتنـاسـون الإسـاءات والإهـانات.

والانـضباط شـديد القـسوة. ويقـصد بـه «تـرويض» الـشباب وتـدريبهم على تحمل الصعاب والظروف القاسية، ومن أجل ذلك كل الوسائل كـانت صالحة وكل شيء كان مباحاً، وبخاصة الجلد بالسوط.

ويمكـن أن نقرأ ما ذكره «سيرج بيركي» في كتابه: «ذكريات من معهد الجسور والطرقات»:

«كانت تحدث حالات في فوج «الطبقة النبيلة»، بسبب خطأ بسيط في تمـارين التـدريب، يجلـد الطـلاب فيهـا، بعنـف شـديد، إلى درجـة كـان ينبغي معها نقلهم مـن ميدان التـدريب، وهـم «نـصف أموات» علـى نقالـة، أو محمولين ضمن بطانية كبيرة».

وفي هـذا العـالم الـصغير، الـساذج، الجـائش والمـضطرب، دخـل «دوستويفسكي» بشكل مفاجئ، بعد حياة عائلية، أمضاها في عزلة تامة، محمياً من كل شيء.

وكـان «فيـدور ميخـائيلوفيتش» في تلـك الفـترة الزمنيـة، فتـى مربـوع القامة، وجهه مستدير، أنفه خانس، شاحب اللون، مع بعض بقع النمش،

وشعره الأشقر كان مقصوصاً، وقصيراً جداً، وجبهته العريضة والعالية، كانت فوق عينين رماديتين، غائرتين بعمق في محجريهما، وثابتتين بشكل يوحي بالانزعاج. وكان حاجباه خفيفين، أما شفتاه فكانتا مكتنزتين. وبصورة عامة كانت سيماء وجهه تعبر عن الحزن، الانطواء والقلق. وكان سيئ الهندام، لا يجيد ارتداء البزة العسكرية الرسمية، ولا يعتني بها. ولقبه رفاقه بـ «فوتيوس» (Photius)، إشارة إلى المبتدع (صاحب بدعة) المتحمس، الذي أسس الكنيسة الأرثوذكسية.

كانت أول اتصال لدوستويفسكي مع رفاقه، صعباً، بل شاقاً ومرهقاً.

فقد ذكر في كتابه: «مذكرات كتبت في سرداب»: «لكم كانوا يبدون مغفلين، كالبهائم! في مدرستنا كانت تعابير وسيماء الوجوه تفسد وتتحول لتعبر عن الخبل والبلاهة. والفتيان الجميلون وصحيحو الأجسام الذين يدخلون إليها، يصبحون بشعين، مشوهي الخلقة، بعد بضع سنين. ومنذ سن السادسة عشرة، كنت انظر إليهم بدهشة مشوبة بالكآبة والحزن. وقد أذهلتني خسّة تفكيرهم وحقارته، وألعابهم وأحاديثهم، واهتماماتهم. فلم يكونوا يحترمون سوى النجاح والفوز. وكل ما هو صحيح، حق وعدل، ولكنه معرض للمذلة وللاضطهاد والتعذيب، يثير سخريتهم القاسية. السافلة والكريهة.

وبالنسبة لهم، يقوم اللقب مقام الذكاء. وبينما هم لا يتجاوزون السادسة عشرة من العمر، فهم يتحدثون عن المراكز والمناصب الصغيرة التي تدر الربح الوفير، وكانوا فاسدين لدرجة أنهم أصبحوا منفرين، يثيرون القرف والاشمئزاز».

كان يكره تلك الحيوانات الصغيرة، لأنها على هذه الدرجة من البساطة وعلى هذا القدر من سلامة الصحة، ولكونها لا تعاني ولا تشعر

إلا بالقليل من الألم، ولأنها تفرح بحصولها على هذا القدر القليل. وأكثر مما تجرعه في مدرسة «تشيرماك» الداخلية، فهو يتجرع هنا أيضاً مرارة عزلته، في أشد وأسمى صورها.

وقد كتب إلى أخيه «ميشيل»، ما يلي:

«الحياة هنا مقرفة ومنفرة. وما تخلص من المادية ومن السعادة على سطح هذه الأرض، وحسب، هو الجميل»!

والحال هي إنما إلى هذه «المادية» وإلى هذه «السعادة الأرضية» كانت تدعوه أحاديث زملائه الطلاب: «الوصول، الترفيع إلى رتبة أعلى، التحضير لاحتراف الجندية»... فهل كان يفكر، هو، باحتراف الجندية؟...

«يبدو لي أن العالم قد اتخذ معنى، بل منحى سلبياً، وأنه من روحية عالية وجميلة خرجت أهجية. وهذا مخيف!... فما أشد نذالة وجبن الإنسان!... «همليت!... همليت»...!

وكأنه أصبح بالقوة كهمليت، كئيباً، يائساً، وحيداً، أخذ يتجول في الأروقة والممرات، كتابه بيده، يتحاشى مقاربة الأساتذة، يحسم أحاديث رفاقه ويضع حداً لها، ومع ذلك فإنه لم يكن يرفض العمل، بل على العكس من ذلك، كان يجتهد في إنجاز المهمات التي يكلف بها، ولم يعترض، عندما قال لهم الأستاذ «بلاكسين» في درسه أنّ «غوغول» لا يتمتع بأيّ موهبة، وأنه يحلو له احتقار العرف والتقاليد، والخوض في الأوساخ والقذارات. وهكذا فهو يتقبل كل شيء. ويخضع لكل شيء ويتحمل همومه ومصائبه.

وقد كتب فيما بعد، في كتابه: «ذكريات من منزل الأموات»:

«مخلوق يعتاد على كل شيء، هذا، على ما أظن، أفضل تعريف يمكن أن يعطى للإنسان».

وبالفعل، فقد أخذ يعتاد شيئاً فشيئاً على حياته الجديدة في «المدرسة». ونظم معيشته في الوحدة، منفرداً. وقد كتب أحد رفاقه: «كان يفضل أن يبتعد عنا، ويظل منزوياً لوحده، فهل كان تعيساً، أم أنه يتخيل أنه كذلك؟ كيف يمكننا أن نتبين هذا الأمر؟ وحمل السلاح واستخدامه، والتحركات الجماعية، العادات والتقاليد العسكرية التي تعود للزمن القديم، وهي فظة ولكنها صادقة وصريحة، كلها لم تعجبه أبداً. وكانت كبرياؤه المرضية، ودقته الأخلاقية، وضعفه الجسدي كل هذا كان يدفعه إلى الوحدة، ويلازمه في وحدته».

وأثناء فرص الاستراحة، الصاخبة والقصيرة، كان يلجأ إلى فتحة نافذة تطل على نهر «الفونتانكا»، يفتح كتابه ويقرأ. كان ينفصل عن ذلك العالم الذي تسوده الهموم البسيطة، والاهتمامات والمصالح المدرسية، الكريهة، ويعود الطلاب من الباحة، ينتظمون في صفوف، يمرون من أمامه، ذاهبين إلى قاعة الطعام، ويعودون منها بعد ذلك، وهو يتحدثون ويتضاحكون. ولكنّ «فيدور ميخائيلوفيتش» لم يكن يسمع شيئاً ولا يرى شيئاً. ولم يكن يرتب كتبه إلا عندما يقرع الطبل، معلناً انتهاء فترة الدراسة والعمل. ولكنه، في معظم الأحيان، وفي عزّ الليل، حسب ما ذكره «سافوليف» المراقب العام، كان من الممكن رؤية «دوستويفسكي» جالساً أمام منضدة عمله الصغيرة، في «الغرفة المستديرة». حافي القدمين، وعلى منكبيه بطانية كثيفة، وهو يكتب على ضوء مصباح صغير معلق على حامل من التنك.

وقد عثر على التقييمات التي وضعتها إدارة المدرسة لدوستويفسكي:

«هل الطالب مجتهد؟ - إنه مجتهد جداً.

«وما هي درجة كفاءاته؟ - إنها جيدة».

هـذا، ولـيس أكثـر مـن ذلـك. وفي هـذه الفـترة بالـذات، لم يكـن مستبعداً أنه كان يحضر روايته الأولى: «الناس الفقراء».

وشخـصية هـذا «المرشـد» الغريبـة، الـذي كـان يحتقـر اسـتخدام السلاح، والألعـاب والـرقص، والـساعات المرغوبـة الـتي يقـضيها الطـلاب في قاعة الطعـام، لا يمكـن إلا أن تلفـت نظـر رفاقـه وتثـير اهتمـامهم، وهكـذا فقـد تقـرب منـه بعـض الطـلاب، وانجـذبوا إليـه بـسرعة بفعـل حماسـته الوجدانية. فشكل حوله - وظل هذا الحدث مجهولاً في المدرسـة - حلقـة مـن أربعة أو خمسة شباب، كانوا يتحدثون في الشعر، وحتى في المثل العليا.

كـان «فيـدور» يـشرف علـى زملائـه، ويرشـدهم في قـراءاتهم الأولى. وكـان بعـضهم مـدينين لـه باكتـشاف روايـة «المعطـف» لغوغـول وروايـات «ديكنز» وأعمال «والتر سكوت» وبإطلاعهم عليها.

وكان هؤلاء المتـآمرون مـن أجل «الجميـل والعظيم» يتـذرعون أحيانـاً بإصابتهم بالتوعك، لكي يجتمعوا في المهجع حيث كـان «دوستويفـسكي» ينـشد الأشـعار، أو يقـرأ النثـر، بـصوته الأصـم، اللاهـث، الـذي يخـرج مـن صـدره، ثـم يتوقـف لكـي يعلـق علـى الـنص الـذي قـرأه. وعنـد صـدور أقـل اعتراض، كانـت اللهجـة ترتفـع وتقـوى، والحجـج والأدلـة تنهمـر كـضربات المطرقة. وكثيراً ما كـان الـشباب الـذين يقيمـون في القاعـة المجـاورة، يـرون المعـترض يهـرب مـسرعاً مـن أمـامهم، و «دوسـتويفـسكي» يـركض خلفـه، حاملاً كتابه في يده، لكي يحاول أن يقنعه.

وكتب أحد زملائه في الدراسة:

«عندما نـكون قد أنجزنا واجباتنا، وأخذنا نتحدث بكل بـساطة مـع بعضنا، كـان «فيـدور ميخـائيلوفيتش دوسـتويفـسكي» يـدخل إلى القاعـة، ويسترعي في الحال انتباهنا بكلامه الملهم. وعند منتصف الليل، نكـون في غاية التعب، ونشعر بالنعاس، ولكـن «دوسـتويفـسكي» الـذي كـان يـستند

على الباب، يظل يتحدث بحمية عصبية. وكان صوته المختنق في الداخل. يسحرنا ويشدّنا إليه».

وأثناء ذلك، أثرت حماسة دوستويفسكي» الوجدانية للأدب على نشاطه الوظيفي، وجعلته يتراخى في تأدية واجباته العسكرية.

وذات يوم وكان في خدمة تابعة للدوق - الأكبر «ميشيل بافلوفيتش» نسي أن يبدأ تقريره بعبارة: «إلى صاحب السعادة الإمبراطورية».

فصاح «الدوق - الأكبر»:

«يا لهم من مغفلين، هؤلاء، الذين يرسلونهم لي»!

كانت أقسى وأشق فترة في السنة، بالنسبة لدوستويفسكي، هي فترة مناورات «كرازنوي» أو «بيترهوف». لا سيما وأنه كان لا يملك نقوداً. فإن كانت الحرارة شديدة، فهو لا يستطيع أن يشتري ما يروي به عطشه، وإن أمطرت السماء، فليس معه ما يشتري به كأساً من الشاي الساخن، أو ملابس يستبدل بها ملابسه المبتلة. وكان والد «دوستويفسكي»، المنزوي في الريف، مسترسلاً في الشراب ومستسلماً لليأس. ويعيش في خمول دائم. وهو لا يريد أن يرى أحداً، ولا أن يسمع حديثاً عن أي شيء.

وكتب له «فيدور»:

«أرسل لي شيئاً مّا، بأسرع ما يمكن، وبذلك تنقذني من جحيم أعيش فيه! أوه! كم هو فظيع أن يشعر الإنسان بالحاجة»...!

وكان مما كتبه له أيضاً:

«أبي العزيز والطيب، لا تعتقد أن ابنك عندما يطلب منك مساعدة مالية، أنه يطلب منك ما يزيد عن حاجته...

فأنا لدي عقل. ولي ذراعان، ولو كنت حراً، ومتروكاً لشأني، لما طلبت «كوبيكاً» واحداً، ولتعودت على تحمل البؤس والشقاء... ولكن، يا أبي العزيز، تذكر أني في هذا الوقت، أنا في الخدمة، أي أني «أخدم»

بالمعنى التام للكلمة، وأن علي، رضيت أم لم أرضَ أن ألتزم بقواعد المجتمع الذي أعيش فيه، وأن أخضع لها... وحياة المعسكر، تكلف، حالياً، كل طالب (٤٠) روبلاً، على الأقل (وأنا أكتب لك هذا لأني أتكلم مع أبي) وأنا لا أحسب في هذا المبلغ مشتريات الشاي والسكر، مع أنها، مع ذلك، أشياء ضرورية. عندما نكون مبتلين بالمطر، تحت خيمة من القماش، وعائدين من تمارين التدريب، متعبين، نرتجف من البرد. وليس لدينا شاي، يمكن أن يمرض أحدنا - وهذا ما حصل لي في مناورات السنة الماضية. ومع ذلك فلأني آخذ بالاعتبار ما تعانيه من ضائقة، فإني سأستغني عن الشاي. وأطلب منك الضروري جداً. فقط: أي ما أشتري به «جزمة» عادية.

والد «دوستويفسكي» يملك أراضي، ولديه دخل ثابت ورزمة ضخمة من الأوراق النقدية وفَّرها من أجل بائثة بناته. وهو يكاد لا ينفق شيئاً، في عزلته الريفية. لا يمكنه إلا أن يؤمن بصحة وأحقية الطلبات التي يوجهها له ابنه. ومع ذلك فإن ردود البخيل العجوز كانت غاية في المكر الدنيء، والغيظ الذي يثير الارتعاش. وينم عن الرفق الكاذب:

«اعلم، يا صديقي أنه من المعيب، بل ومن الإجرام أن تتمتم وتتذمر شاكياً من أب يرسل لك كل ما تسمح له به موارده. وتذكر ما كتبته لكما، أنتما الاثنين، منذ ثلاث سنوات، بخصوص محصول القمح، الذي كان سيئاً. والسنة الماضية، أيضاً، أخبرتك عن حالة المزروعات السيئة... وبعد هذا، هل ستثور ضد والدك لأنه يرسل لك القليل جداً من النقود؟ فأنا، نفسي ليس لدي ما أرتديه من الملابس. وها قد مرت أربع سنوات، لم أستطع الحصول خلالها على بزة جديدة، والقديمة قد بليت تماماً. ولم أحتفظ بـ «كوبيك» واحد لنفسي. ولكني أصبر وانتظر. وها أنا أرسل لك ٣٥ روبلاً، حوالات على الدولة، وهي تساوي، حسب أسعار سوق موسكو

٤٣ روبلاً و ٧٥ كوبيكاً. أصرفها بروية وتعقل، لأني، وأكرر لك ذلك، لن يكون لي أيّ إمكانية لأن أرسل لك غيرها قبل مرور زمن طويل».

فشعر «فيدور» بالإحباط، وباليأس الشديد. وكتب إلى ميشيل بتاريخ ٩ آب (أغسطس) سنة ١٨٣٨:

«أنت تشكو الفقر، يا أخي، ولكني أنا، لست غنياً أيضاً.

وهل تصدقني إذا قلت لك إني طوال فترة المناورات، لم يكن في حبيبي «كوبيك» واحد؟ وفي الطريق، أصبت بالمرض، بسبب البرد الشديد (كان المطر ينهمر دون انقطاع، ولم يكن لدينا ما يحمينا منه) وبسبب الجوع أيضاً، لأني لم يكن معي ما أستطيع أن اشتري به كأساً من الشاي الساخن... ولا أدري إذا كانت أفكاري الكئيبة يمكن أن تتبدد وتزول، أبداً»...

وكحاشية:

«لدي مشروع، وهو: أن أصبح مجنوناً...

وفي ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) من السنة نفسها، كتب له أيضاً:

«إنه لأمر محزن، أن يعيش الإنسان من دون أمل، يا أخي.

فأنا انظر إلى الأمام، فيخيفني المستقبل، أني أغوص في جو جليدي قطبي، لا يسطع فيه أي شعاع من الشمس. ومنذ زمن طويل لم أشعر بأيّ انطلاقة من الوحي، وبالمقابل فأني أحس بمشاعر وبمعاناة سجين «شيون» (Chillon) في زنزانته بعد موت أخوته...[1]

وتتخلل هذه الشكاوى البليغة، الإشارة إلى مطالعاته الأخيرة: «أنت تتباهى بأنك قرأت كثيراً، ولكن لا تتصور أني أحسدك على ذلك فقد قرأت أنا في «بطرسبورج» بقدر ما قرأت أنت، على الأقل.

١- «شيون» حصن في سويسرا بني في القرن الثالث عشر على ضفة بحيرة ليمان قرب «مونترو» كان مقراً لإقامة امراء «آل سافوا» سجن فيه «بونيفار» و (Bonivard) (١٤٩٣-١٥٧٠) وهو مناضل وطني من جنيف، خلده الشاعر الإنكليزي «بيرون» بقصيدته المشهورة: «سجين شيون». -المترجم

والحقيقة هي أنه قرأ جميع أعمال «هوفمان» باللغتين الروسية والألمانية، كما قرأ أيضاً جميع أعمال «بلزاك» تقريباً، وقد كتب: (بلزاك عظيم)... وقرأ أيضاً «فاوست» لجوته، كما قرأ بعض قصائده القصيرة وقرأ أعمال «فيكتور هيغو» أيضاً، ما عدا «هيرناني» و «كرومويل»: و «فيكتور هيغو» «ملائكي وسماوي تماماً، ولكن الفرنسيين لا يقدرونه حق قدره» أما «نزار» (Nisard) الذي اهتم بنقد مؤلف القصائد الشهيرة «Odes Et Ballades» «فهو يكذب، وإن كان أحد رجال الفكر».

أما «شيلّر» فيحدث على «دوستويفسكي» تأثيراً كبيراً:

«لقد حفظت أعمال «شيلر» غيباً، وكنت أتكلم «شيلر» وأحلم «شيلر»...»

وماذا عن «راسين» (Racine) إذن؟!

«أنت تدعي أنّ «راسين» لا يقول شعراً؟ ولكنك، هل قرأت مسرحية: «ايفيجيني» (Iphigénie) وهل تستطيع القول أنها ليست رائعة وعلوية؟ ومسرحية «فيدر» (Phédre)؟ أخي، إنك ستكون آخر الرجال، إذا كنت تصرّ على أن هذا ليس الطبيعة والشعر في أسمى مظاهرهما! و «كورنيل» (Corneille) هل قرأت مسرحية «السيد»، اقرأها، أيها البائس، واركع أمام «كورنيل» واطلب منه أن يصفح عنك، فقد أهنته!...

ولم يكن المرسلة إليه هذه الرسائل أقل حماسة ممن كان يرسلها له. كان «ميشيل» يقرأ وينظم أبيات الشعر بكثرة وبصورة مدوخة.

وقد كتب، مرة إلى «الماجور» ما يلي:

«آه! يا أبي، افرح معي، فأنا أعتقد أني لست محروماً من موهبة نظم الشعر. وقد سبق أن كتبت كثيراً من القصائد القصيرة...

أما الآن، فقد بدأت بتأليف مسرحية».

والرسالة تبدأ بهذا التأكيد الذي لا بد من أنه قد أذهل الدكتور وأغاظه:

«فليأخذوا مني كل شيء، وليتركوني عارياً، ولكن ليعطوني «شيلر»، وسأنسى العالم»!.

وكانت قصائد «ميشيل» تثير حماسة أخيه:

«قرأت أشعارك، فأثارت بعض الدموع في عيني، وهدهدت روحي لبعض الوقت».

وتأييداً لرأيه، فقد استشهد بالكلمات نفسها التي قالها صديقهما الشاب «شيدلوفسكي».

و «شيدلوفسكي» هذا، كان شاباً غريب الأطوار. وقد كتب عنه «فيدور» ما يلي: «تنظر إليه، إنه شهيد. لقد نحل وجف جسمه. وتجوف خداه. وعيناه جافتان ومتوهجتان»...

وكان الأخوان «دوستويفسكي» قد التقيا به يوم وصولهما إلى «سان بطرسبورج». وتعارفا في الفندق الذي نزلوا فيه سوية.

وعندما عرف «فيدور» و «ميشيل» أنّ هذا الشاب الذي حصل لتوه على وظيفة في وزارة المالية، هو شاعر حقيقي، ويفكر بنشر أشعاره، لم تعد فرحتهم تعرف لها حدوداً. والماجور، نفسه أعجب كثيراً بهذا الفتى الفصيح، المثقف، ، والذي يتسم بالغموض على شاكلة الشاعر الإنكليزي اللورد. بيرون». وكان «شيدلوفسكي» هو الدليل الذي رافق صديقيه الشابين في زيارة العاصمة، وذهبوا سوية حاجين إلى كاتدرائية «قازان» وفيما بعد، عندما أخذ رفيقهما يسافر بين «سان بطرسبورج» و «روفيل» أصبح يقوم بمهمة الساعي بين الأخوين، وينقل رسائل كل منهما للآخر.

ويؤكد «دوستويفسكي» قائلاً:

«أن تعرفي على «شيدلوفسكي» قد أتاح لي عدة ساعات هي من أجمل الساعات في حياتي... أوه! يا لتلك الروح الصادقة والطاهرة! إن الدموع تنفر من عيني عندما أحرك تلك الذكريات»!

والحقيقة هي أن ذلك الموظف - الشاعر. الذي كتب:

«نعم، أنا بركان، والنار هي عنصري الأساسي» والذي يعتقد ذلك. كان قد أثر كثيراً على «فيدور» و «ميشيل» وسكنهما، فأصبح فكرة ثابتة تلازمهما على الدوام.

كان «شيدلوفسكي» يحب فتاة تدعى «ماري» ومغرماً بها، ولكنها تزوجت شخصاً آخر. وعن هذا، يقول «دوستويفسكي»: لولا هذا الحب، لما أصبح هذا الشاب الكاهن الحق، الطاهر، والسامي للشعر».

ولكن ذلك لم يكن كل شيء: فالشكوك الدينية كانت تساور الشاعر. وكان يعتقد تارة أنه مرضي عنه، وتارة أنه رجيم وملعون، وبالتناوب. فهو يتأرجح بين الإيمان والكفر. وفي الليل، كان يشتغل في تأليف كتاب عن تاريخ الكنيسة الروسية. وعلى أيّ حال، فإنه لم يستطع أن يتحمل مناخ «سان بطرسبورج»، فانسحب ليقيم في الريف، مع أمه وفي تلك العزلة، أصيب بحمى صوفية حقيقية، وأخذ يبحث عن علاج لقلقه وللوساوس التي انتابته، فاعتقد أنه عثر على هذا العلاج باللجوء إلى أحد الأديرة، والخضوع لنظامه الصارم. ولكن، عبثاً، فإنّ ذلك لم يجده نفعاً. وبعد قليل، وقد يئس من استعادة الراحة والهدوء لروحه ولنفسه، فقد عمد إلى القيام بالحج إلى مقام القديسة «لور دوكييف»: (Laure De Kiev) ونصحه أحد النساك، الذين يدعون صنع المعجزات، كما فعل فيما بعد «زوسيم»: (Zosime) مع «أليوشا كرامازوف» أن يحقق أمنه وطمأنينته في الدنيا وبين الناس. عاد «شيدلوفسكي» إلى ملكيته. ولكنه لم يخلع لباس (المترهبن) الحديث العهد في الرهبنة.

وكثيراً ما كان يسير على الطرقات، ويتوقف في أحد الفنادق الريفية، فيقرأ الإنجيل، ويعظ القرويين، الذين كانوا يصغون له حاسري الرؤوس. وتوفي سنة ١٨٧٢.

وليس هنالك أي شك بأن هذا الخلق (أي الطبع) الممزق بين الخشوع المسيحي، لدى أليوشا، والإنكار الشيطاني لدى «إيفان كرامازوف» قد لازم «فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي» عبر أعماله كلها. مخلوق «من نار وجليد» مثل معظم أبطال رواياته، ومثله، هو بالذات.

والرسوب في أحد الفحوص أخر تقدم «فيدور» وقد كتب إلى أخيه:

«لم أنجح، ولن أرتقي إلى الصف الأعلى. أوه! أنه لأمر فظيع!... سنة أخرى، أيضاً، سنة بطولها، إضافية، عليّ أن أعمل خلالها»!

وهو يتهم أحد مدرسي مادة الجبر بأنه أسقطه ظلماً في الامتحان. وهذا المدرس يكرهه. الجميع يكرهونه: «لكم أودّ أن اسحق الكون».

وأرسل إلى والده بياناً مفصلاً بعلاماته، يستنتج منه أنّ نية سيئة وعدائية، قد دفعت اللجنة الفاحصة لاتخاذ قرارها:

«أوه، يا الله!... بماذا يمكن أن أكون قد أغضبتك؟

لماذا لا تمنحني مساعدتك ونعمك، التي يمكن أن يفرح ويسر بها كثيراً أبي الذي يحبني كثيراً؟ آه! كم ذرفت من الدموع!... وهنالك طلاب، كانت إجاباتهم أقل جودة من إجاباتي، وقد نجحوا لأنهم يتمتعون برعاية وحماية بعض المسؤولين في المدرسة».

وكان حزنه شديداً، لدرجة أنه أصيب بالمرض، واضطر إلى أن يلزم السرير خلال عدة أيام. وكانت الكتب ورسائل أخيه، هي عزاؤه، وسلواه الوحيدة. وتلك الرسائل كان ينتظرها، بنفاد صبر، وبتذمر يتسم بالحب. وكان يتردد في فتحها، ويجد متعة بالاحتفاظ بها لبضع ساعات.

ولكنه، أحيانا، بعد أن يفتح المغلف، يشعر بخيبة أمل شديدة! لقد تغير «ميشيل» ولم يعد هو نفسه. فمشيل يتحدث الآن عن التزين، ويسأل «فيدور» إذا كان قد أصبح له شارب. ويشير إلى فتاة، ليست من إبداع عبقريته الشعرية، ولكنها فتاة حقيقية وموجودة، وهي تدعى: «اميلي فون ديتمير»، وتقيم في «روفيل». و «ميشيل» يفكر بالزواج. ومن المؤكد، أنّ قراره هذا لن يمنعه من الكتابة! فهو ينظم، متخبطاً كالمهووس، من تلك الأشعار الغنائية.

وحالما يتناول فطوره، يعمد إلى مصاحبة الجزالة والسمو وإلى التآخي معهما. غير أن هذا الشاعر، الذي تدله في حب شخص من لحم ودم، وليس له حتى العذر بفشله في هذا الحب، كما حصل مع «شيدلوفسكي»، كي يمكن أن يغفر له.

أما «فيدور» من جهته، فإنه لم يفتح عينيه على الحياة العاطفية المجدية، إلا في وقت متأخر جداً. وبأيّ طريقة بائسة!... وبانتظار ذلك، كان يجهد نفسه، محاولاً أن يفهم الآخرين، وأن يقيمهم ويحكم عليهم، بصواب وبصورة صحيحة. ولكن، لكم هو تائه وضائع، بشكل مفاجئ! ولكم هو تعيس وبائس!

وقد كتب في «مذكرات كتبت في نفق»:

«أنا وحيد، وهم كثر»!

وأثناء ذلك، كان هنالك حدث مرعب يوشك أن يقع، ويرفع قلقه واضطرابه، إلى حدهما الأقصى.

موت الأب

بعد أن اصطحب «ميخائيل أندرييفيتش دوستويفسكي» «ميشيل» و «فيدور» إلى «سان بطرسبورج»، وضع ولديه الصغيرين في مدرسة «تشيرماك»، واستقر في «داروفويي» للإشراف على العمل في أراضيه، واصطحب معه ابنتيه الصغيرتين «فيرا» و «أليكسندره».

كانت العزلة في «داروفويي» موحشة فانكبّ «الماجور» على الشراب، إلى درجة إحساسه بالدوخة وبالهلوسات. وتروي الوصيفة «أليونا فرولفنا»، أنه كان يحصل معه أن يتحدث بصوت عالٍ مع شبح زوجته. وكان يردد الأسئلة والأجوبة، مغيراً نبرة صوته ومستخدماً العبارات المألوفة التي كان من عادة المتوفاة أن تستخدمها. وفي المساء، كان يندفع بشكل مفاجئ إلى غرفة ابنتيه «فيرا» و «أليسكسندره»، ويفتش تحت السرير لكي يتأكد من أنهما لم تخبئا أحد العشاق. ثم يتركهما ويتجول من غرفة إلى أخرى، متذمراً وشاكياً من حياته التي تشوهت، ومن حداده الظالم الذي لم يكن يستحقه، ومن سأمه من العيش. ولكي يلهو عن حزنه، اتخذ خليلة له من إحدى خادماته، وتدعى: «كاترين» كما فكر أيضاً بالزواج بإحدى مالكات الأراضي الغنيات المجاورة له، وهي «أليكسندره لاغنونوف». ولكنه لم يستطع أن يحزم أمره، ويقرر التقدم بطلب يدها.

كانت المحاصيل هزيلة. وبدت إدارة «الماجور» للأعمال، عاجزة عن تحاشي الكارثة. فحالما كان الأمر يقضي بإنفاق بعض النقود لتحسين مردود الملكية، كان «ميخائيل أندرييفيتش» يثور، يجن جنونه يتردد، ويمتنع أخيراً عن إنفاق النقود. فقد أصبح يتصف ببخل شديد ومخجل. ولا بد من أنّ ابنته «بارب» قد ورثت عنه هذا المرض، فبعد موت زوجها، وعلى الرغم من الثروة الضخمة التي كدستها، فقد طردت خدمها، ورفضت إشعال المدافىء لتدفئة مسكنها، وبدافع التوفير والاقتصاد، كانت تتغذى بالحليب والخبز، فقط، وعندما علمت بوفاة والدها، قالت: «الكلب يجب أن يموت ميتة كلب».

وفي سنة ١٨٩٣ قتلها وحرقها بعض اللصوص.

وميخائيل أندرييفيتش كان على الدوام متحذلقاً وقاسياً. وفي «داروفويي»، عبر البطالة واليأس، تكاثرت عيوبه وتكشفت.

وعلى الفلاحين كان يصبّ جام غضبه، ومنهم كان ينتقم لما أصابه من حزن وكآبة.

وذات يوم، لم يكن الفلاح «فيدوت» قد رآه قادماً، فلم يحيه. فأمره «الماجور» قائلاً.

«عليك أنه تذهب لتجلد في الإسطبل».

فنفذ القرار في الحال.

وفي الشتاء، لم يكن الفلاحون العبيد يعرفون كيف يتصرفون ولا أي موقف عليهم أن يتخذوا. فإذا حيوه، صرخ بهم:

«أيها الأوغاد، أنتم تنزعون قبعاتكم عمداً لكي تصابوا بالبرد ولا تذهبون إلى العمل»!

وإذا لم يحيّوه، فلا مفر من أن يُجلدوا.

وفي سنة ١٨٣٩، دبر الفلاحون مؤامرة لقتل «السيد السيئ» ففي صباح ذات يوم من شهر حزيران (يونيو) استدعى «الماجور» جميع الفلاحين،

لكـي يعملـوا في نقـل «الزبـل». فتغيـب ثلاثـة مـنهم، يـسكنون في قريـة «تشيروماشني» الصغيرة، ولم يكونا حاضرين، عند إجراء التفقد.

فسأل «ميخائيل أندرييفيتش»: لماذا لم يحضروا؟

وأجابه الوكيل، مراقب الأعمال:

- إنهم مرضى.

فغـضب المـاجور، وأرغـى وأزبـد، ولـوح بهراوتـه المـزوّدة بالمـسامير الحديدية وصاح:

«سأشفيهم بهذه»!

وسائق العربة كان على علم بالمؤامرة، ولكنه وقد شعر بالخوف كاد يعترف بها وصاح:

- لا تذهب إليهم، يا سيدي، فربما حصل لك شيء ما».

فضرب ميخائيل أندرييفيتش الأرض برجله، وصاح به:

ألا تريد أن أشفيهم؟ هيا جهز العربة، وبأقصى سرعة»! فهز السائق كتفيه وذهب ليجهز العربة.

وعندما وصل الدكتور إلى «تشيروماشني» لمح «مرضاه» الثلاثة، وهم يتسكعون بين المنازل.

«لماذا لم تذهبوا إلى العمل؟

فأجابه أحدهم:

- نحن متعبون».

فضربهم «المـاجور» بهراوتـه، فهربـوا إلى باحـة خاليـة. وعنـدما دخـل إليها «سيدهم» وهو يلاحقهم، عمد أحدهم، وهو «فاسيلي نيكتكين»، عملاق ضخم، ذو فم وحشي فظ، إلى إمساكه بذراعيه من الخلف. فذهل الاثنان الآخران، ولم يتحركا. فصاح بهما «فاسيلي»:

«ماذا بكما؟ هل أقسمنا على ذلك أم لا؟

وعند هذا النداء، انقض الفلاحان على البائس السيئ الحظ وانضم إليهما «فاسيلي» فأوثقوا كتافه، وألقوه على الأرض.

لم يضربوه، خوفاً من إحداث الآثار من الضرب، بل فتحوا له فمه، مباعدين ما بين الفكين بواسطة سكين، وسكبوا له كحولاً في حلقه، على الرغم من انتفاضاته وحشرجته. ثم كمموه لكي يختنق. ولكن «الماجور» استطاع أن يقاوم. عند ذلك، ضغط أحد الأشقياء بقبضته القوية على أعضائه التناسلية، فتلوى جسم المعذب وتقلص، ثم استرخى وهمد. «لقد كان ثملاً، ونال جزاءه».

ورفعوا «المشرف على الموت» إلى العربة، فضرب السائق الشاحب الوجه، من شدة ذعره، الأحصنة، بسوطه، وانطلقت العربة مسرعة عبر الحقول الهادئة.

ومع ذلك فإن هماً يتعلق بالتقاليد الدينية أخذ يساور القتلة ويعذبهم: لا يجوز أن يُترك مسيحي يموت، مهما كان مكروهاً، دون أن يكون قد استطاع الاعتراف أولاً. فما العمل؟

فوضع الثلاثة «الماجور» عند جذع شجرة سنديان، وذهبوا لإحضار الكاهن من القرية المجاورة.

وعندما وصل الكاهن إلى المكان، كان «ميخائيل أندرييفيتش» لا يزال يتنفس، ولكنه لم يعد يستطيع الكلام. فتقبل الكاهن الاعتراف الصامت من والد «دوستويفسكي» وساعده على لفظ نفسه الأخير. وبعد ذلك، سأل سائق العربة:

«ماذا عملتم به»؟

فأجابه السائق:

«لقد حصل معه احتقان».

ولم يُظهر التحقيق شيئاً، وحتى الأقرباء والمقربون، فقد حاولوا إخفاء الفضيحة، لأن القضاة لو تأكدوا من مقتل «الماجور» لكان وجه الاتهام لجميع فلاحي «تشيروماشني» تقريباً، ولكانوا أرسلوا جميعهم إلى سيبيريا. وإجراء كهذا كان من الممكن أن يدمر العائلة، دون أن يحقق لها أي رضى أو يجلب لها أي تعويض معنوي.

وهذه الوفاة، علم بها «فيدور ميخائيلوفيتش» عندما كان في مدرسة المهندسين. وقبل ذلك بشهر، كان قد أرسل إلى والده رسالة تنم عن الغضب، يطلب فيها نقوداً. وربما كان، عشية ذلك اليوم، قد لعن بخل «الماجور» وعدم تفهمه لأوضاع أولاده. وفي اللحظة ذاتها، التي كان فيها العجوز «دوستويفسكي» يلفظ أنفاسه الأخيرة، جسمه معذب ومشوه، وعيناه جاحظتان رعباً، كان ابنه حانقاً ثائراً ضده، يعتب عليه ويلومه على أنانيته، وبخله الشديد، على الرغم من تقدمه في السن. وجريمة الفلاحين ارتدت وانعكست على «فيدور ميخائيلوفيتش» فهو يتحمل، بشكل من الأشكال، جريرة تلك الجريمة التي لم يرتكبها. كما لو أن هنالك مسؤولية ما، يمكن أن تفهم من قبله وحده، قد ألغت مسؤوليات الآخرين، المباشرة. كان مذنباً ولكن ليس في نظر القوانين البشرية التي لا تطوله. وكان هذا الكشف يبهره بقوة البداهة، والأمر الجلي الواضح. وزعزعت كيانه هزة مخيفة، وجعلته يتقلص، رمته أرضاً، وهو يحشرج والزبد يخرج من فمه، فهل كانت هذه أول نوبة صرع تصيبه؟ ربما كان الأمر هكذا. وعلى أيّ حال، فإنه لن يتحدث أبداً عن هذا الحدث، في رسائله.

ولكن الانفعال الشديد الذي سببته له الصدمة، كان من القوة بحيث إنه أثر به ودمغه على الفور. وفي كتبه إنما ينبغي البحث عن اعترافه بقلقه الأخلاقي. وفي روايته: «الأخوة كرامازوف» أولاً: لقد قتل «سميرد ياكوف» «كرامازوف» العجوز. ولكنه أقل جرمية وتحملاً لمسؤولية هذه

الجريمة، من الابن البكر «إيفان كرامازوف» الذي حلم بها دون أن يقترفها:

«القاتل الرئيسي هو أنت، وليس أنا، وإن كنت أنا قد قتلت». هذا ما قاله «سمير دياكوف».

ويسأل «ايفان كرامازوف»: «أكنت إذن أرغب إلى هذه الدرجة، بموت أبي».

ولكن يكفي قبول ضمني، وانحسار بسيط في المحبة، لا يكاد يُلحظ، وها نحن، نجد أنفسنا، في الحال شركاء ومتواطئين. هذه القدرة الغريبة للفكر على المادة. وتجاوز الفكر للمادة، هذا الأمر يلازم «دوستويفسكي» ويرهقه.

وفي روايته: «الشياطين»، «بيير ستيبانوفيتش» هو الذي يدبر عملية ذبح زوجة «ستافروغين» و «ستافروغين» هو الذي يقبل تحمل مسؤولية هذا الفعل، الذي تمناه في سره. ومع ذلك فهو يقول: «لم أقتلها، بل لقد كنت معارضاً لهذا المشروع».

فقوانين الطبيعة المعروفة، وما يستنتج بصورة ذكية وفطنة من العلوم الطبيعية، وإنشاءات الرياضيات وتراكيبها الهادئة، كلها تتكدس فوق بعضها لتشكل «جداراً من الحجارة».

«وبالطبع، فإني لن أحطم هذا الجدار بجبيني، ولكني لن أستسلم وأخضع فقط لأنه جدار من الحجارة».

إنه لن يخضع ولن يستسلم. إنه سيحاول أن يتجاوزه، وبعد أن يجتاز الجدار، يقع في حيز غير منطقي، هو وطن أبطاله، الحقيقي.

بعد مقتل «ميخائيل أندرييفيتش، الذي تعرض للتعذيب وتشوهت جثته، إنما يدخل «دوستويفسكي» إلى هذه المنطقة الغريبة، التي لم تعد هي الحقيقة والواقع، وليست العدم، حيث نرى الأبرياء حسب قوانين

الأرض، مجرمين حسب قوانين أخرى لم يعبر عنها، وغير معلنة، وحيث الأفعال لم تعد متعلقة بمن قام بها، وحيث تقوم المشاعر والعواطف مقام الدليل والبرهان، وحيث تتبخر الأفكار، وحيث ليس هنالك شيء مؤكد وموثوق، ولا شيء ثابت، ولا شيء يحكم ويقيم بصورة مسبقة، ومع كل ضربة جديدة تأتي من القدر، يزداد هو بعداً عن الوقائع البديهية، لكي يقترب من الأسرار الخفية:

«هنالك أشياء من النوع الذي يخشى المرء أن يكشف عنها ويظهرها، حتى إلى نفسه...».

الموهبة

من فحص إلى آخر، نجح «دوستويفسكي» وأصبح ملازماً. استأجر في بداية الأمر، مسكناً صغيراً ليقيم فيه هو ورفيقه «توتلبين» ثم استأجر منزلاً كبيراً، كلفه ١٢٠٠ روبل، حوالات حكومية، وفيه غرفة واحدة مفروشة. ولكن وجه مالكه بدا له ودياً وجذاباً. وكان هذا كافياً، بالنسبة له. كذلك كان الجندي «سيمون» وصيفه، رجلاً، أكثر طيبة وشهامة من أن يستحق أن يوجه له اللوم والتوبيخ. وكان يقول:

«فليسرقني، فليس ذلك هو ما سيسبب لي الخراب».

والواقع هو أنه كان على الدوام، تقريباً، مفلساً، خالي الوفاض، وإن كان راتبه يضاف إليه ما يرسله له صهره «كاريبين»، الذي أصبح وصياً على العائلة، يؤمن له دخلاً يبلغ ٥٠٠٠ روبل في السنة...

وكانت معيشته في تلك الفترة مضطربة بشكل غريب، وغير منتجة. كان يذهب صباح كل يوم لحضور دروس ضباط المدرسة.

وكانت الأمسيات مخصصة للخروج والقيام بالجولات. وكان مولعاً بالمسرحيات التي تعرض على مسرح «اليكسندر»، وبحفلات رقص «الباليه». وبالحفلات الموسيقية التي تعزف فيها أعمال «أول - بول» و «ليست». ولكنه، بعد الظهر، كان ينزوي في غرفته ويعمل عبر جو يسوده دخان السجائر، الكثيف والأزرق. كان شاحب اللون غدد عنقه

متورمة، يسعل كثيراً. ويتكلم بطريقة سيئة، بصوت أجش، يخرج بصعوبة. وكان الدكتور «ريزنكمب» وهو صديق الأخوين، يأتي أحياناً لزيارته ويجلب له بعض الأدوية. ولكن «دوستويفسكي» كان يرفض أن يتناولها.

وفي سنة ١٨٤٠، أتى «ميشيل» إلى «سان بطرسبورج» ليتقدم إلى أحد الامتحانات. وبقي هناك حتى شهر شباط (فبراير) سنة ١٨٤١. وعشية سفره إلى «روفيل» عقد اجتماع ودّي، قرأ خلاله «فيدور ميخائيلوفيتش» المسرحيتين اللتين ألفهما: «ماري ستوارت» و «بوريس غودونوف». وقد فقدت، فيما بعد، مخطوطتاهما. وحسب قول بعض الشهود، يبدو أنّ المؤلف قد استعان بشكل جدي ببعض أعمال «شيلر» و «بوشكين».

وأخيراً غادر «ميشيل» العاصمة، وعاد إلى «روفيل»، حيث سيتزوج ضد إرادة وصية، الفتاة «اميلي فون ديمتر» التي تحدث عنها كثيراً في رسائله. وبعد ذلك ببضعة أشهر، كان على «دوستويفسكي» أن يستقبل أخاه «أندريه» الذي أتى ليتابع دراسته في العاصمة. و «فيدور ميخائيلوفيتش» لم يكن يحب هذا الفتى المترهل، الخامل، والشديد الاهتمام والتدقيق في الأمور البسيطة والتافهة.

وقد كتب إلى «ميشيل»، متحدثاً عنه:

«إن له طباعاً محايدة وعقيمة جداً، لدرجة أن الجميع، يتحولون مبتعدين عنه».

ولحسن الحظ، فقد قُبل «أندريه» في شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٤٢ في مدرسة الهندسة المعمارية، وبذلك استعاد «فيدور ميخائيلوفيتش) وحدته العزيزة عليه.

النقود تسيل وتهرب من بين يديه. وأخذ «دوستويفسكي» ينفق مبالغ ضخمة في لعبة «البلياردو»، ويترك المجال للخدم لسرقته بكل يسر وسهولة. وذهب إلى «روفيل» حيث سيكون العراب لأول أبناء «ميشيل» الذي ذعر هو

وزوجته من سوء صحة أخيه ومن فاقته. واشتريا له بعض الثياب والملابس الداخلية. وطلبا من الدكتور «ريزيكمب» أن يشارك «دوستويفسكي» الإقامة في منزله، لكي يسهر على صحته، ويراقب نفقاته، فوافق الطبيب على ذلك، عن طيب خاطر.

ولكن هذا الإجراء لم يكن من شأنه أن يحقق التوازن في ميزانية «فيدور ميخائيلوفيتش. لأنه، بالفعل، حالما كان يبدو له مريض يدل مظهره على الفقر، قادم ليعالجه الطبيب، كان يقتاده إلى إحدى الزوايا ويسأله عن أحواله وعن تفاصيل حياته الخاصة، ويعطيه مبلغاً من النقود، مكافأة له على صراحته وصدقه.

وقد كتب الدكتور في إحدى رسائله إلى «ميشيل»:

«إنه يعاني من البؤس، بشكل دائم، بينما يعيش الذين يحيطون به، في بحبوحة، وبشكل جيد، أنهم ينهبونه دون شفقة أو رحمة».

وذات يوم، دخل «دوستويفسكي» إلى غرفة الطبيب بخطى واثقة، رافع الرأس. وبدا سعيداً ومزهواً بنفسه، وقال له: «لقد تلقيت ألف روبل من موسكو».

وفي اليوم التالي، عاد وقد أحنى رأسه، وطلب من صديقه أن يقرضه خمسة روبلات. فقد خسر جانباً من المبلغ في لعبة «البلياردو»، وسرق منه ما تبقى خياط، كان قد استدعاه إلى المنزل، دون أن يحتفظ بنقوده، مسبقاً في درج مقفول.

وبعد مرور بعض الوقت، ودون أن ييأس أو يتعظ، فقد أنشأ علاقة مع شخص فاشل من أصل ألماني، يتعاطى مهنة مشبوهة. وأخذ يدعوه لتناول الطعام، والشاي، يستجوبه ويسجل أجوبته. وكان يمنحه، بطبيعة الحال، مكافأة نقدية لقاء ذلك. الأمر الذي جعل الدكتور «ريزنكمب» المتعقل، يشعر باليأس حيال هذا الوضع. ولكن وصول ألف روبل أخرى، أنقذ

«فيدور» من الضائقة التي يعاني منها. ولكن، ويا للأسف، فمع فرحته بهذا المبلغ الجديد، ذهب ليتناول طعام العشاء في مطعم «دومينيك»، وبعد العشاء، أراد أن يمارس لعبة «الدومينو» مرة واحدة، مع أحد الأشخاص المشبوهين. ممن يعملون في المطعم المذكور، والواقع هو أنه مارس اللعبة خمسة وعشرين مرة، وخسر المبلغ الذي كان بحوزته، وحتى آخر «كوبيك» منه. وانتهى به الأمر بعد هذه الأخطاء، وحالة الضياع التي يعاني منها إلى الاستدانة، وعقد القروض، بنسبة مرتفعة من الفائدة وبتحديد وجبات طعامه واقتصارها على الخبز والحليب، وبالرفض الفعلي لارتياد المسارح.

وأثناء ذلك، كان «فيدور ميخائيلوفيتش» قد اجتاز آخر امتحاناته ومسابقاته، بنجاح، وسُجل في عداد أفراد ملاك الجيش العام، كملحق في مكتب الرسم التابع لمصلحة الهندسة العسكرية.

حدث هذا، في شهر آب (أغسطس) سنة ١٨٤٣. وقبل ذلك بشهر تقريباً، أي بتاريخ ١٧ تموز (يوليو) من السنة نفسها، وصل «بلزاك» إلى «سان بطرسبورج» ليلتقي بالسيدة «هنسكا»، التي لم يكن قد التقى بها منذ سبع سنوات.

ووجود هذا الكاتب، الذي كان يعتبره معلمه، منذ زمن طويل، في العاصمة، آثار كثيراً حماسة «دوستويفسكي» لمؤلف «المهزلة البشرية» وزاد من إعجابه به، فقرر على الفور أن يترجم روايته الشهيرة: «أوجيني جرانديه».

وكتب إلى أخيه: «لقد ترجمت رواية «بلزاك»: «أوجيني جرانديه» (أوه! أعجوبة، إنها أعجوبة)..! وترجمتي لا مثيل لها. وسيعطونني عليها، على الأقل ٣٥٠ روبلاً، حوالات على الحكومة، ولكن، بحق ملائكة السماء، أرسل لي ٣٥ روبلاً (أجرة نسخها) وأقسم لك بالسماء وبآلهة الأولمب،

وباليهودي «ايانكل» (وهو شخصية في الرواية التي أنجزتها) وبماذا أقسم لك أيضاً؟ حتى بشاربي، الذي آمل أنه سينبت ذات يوم، أن نصف ما سأناله من ترجمة «أوجيني» سيكون لك، نقداً وعلى الفور».

وفي غضون ذلك، غادر الدكتور «ريزنكمب» «سان بطرسبورج» دون أن يستطيع تلقين «دوستويفسكي» «مبادئ الاقتصاد الألماني» ويرسخها في ذهنه. ولكن، ما أهمية ذلك؟ فهنالك نبأ مهم يواسي «دوستويفسكي» ويعزيه عن رحيل صديقه: «أوجيني جرانديه» ستنشر في مجلة « Le repertoire et le panth eon». ولكن رئيس التحرير حذف ثلث العمل.

فتذمر «دوستويفسكي»، وصاح شاكياً:

«إن هذه خيانة»!

والواقع، أنه هو نفسه قد خان «بلزاك» عندما ترجم روايته، فقد استولى على «أوجيني جرانديه» بشغف شديد وخطير. ولم يستطع أن يقتصر بترجمتها على التبني الشريف، والذي يتسم بالاستقامة والأمانة لمضمونها، فقد ضخم المشاعر والعواطف، وزاد كثيراً من حدة وحرارة النعوت والصفات، وغمر القصة المتواضعة لتلك الريفية، وغلفها بجو شاذ وغريب. و «آلام» «أوجيني جرانديه»، أصبحت بما خطه قلمه «عذاباً عميقاً ومخيفاً. ووجهها، الذي كان، حسب «بلزاك»، «محاطاً بوميض، كزهرة متفتحة»، يتوجه «دوستويفسكي» «بهالة سماوية»... أليس أفضل هكذا؟ وهو مسرور. وينصح أخاه أن يترجم رواية «شيلر»: «دون كارلوس» فينفذ «ميشيل» الفكرة.

وكتب له «فيدور» فيما بعد:

«لقد تلقيت «دون كارلوس» وها أنا أسرع بالتحدث إليك عنها: الترجمة جيدة، بل وممتازة في بعض الأماكن، ولكن بعض الأسطر بدت أقل جودة: وهذا ناتج عن تسرعك في العمل. وقد سمحت لنفسي بتصحيح بعض العبارات، وتصويب إيقاع بعض الأبيات...

وسأحمل «دون كارلوس» إلى أولئك المغفلين، العاملين في مجلة: «الريبرتوار» (Le Repertoire) لكي يفغروا أفواههم، إعجاباً بهذا العمل، إلا إذا أعطيتها إلى مجلة «حوليات الوطن»...

ولكن، كن مطمئناً، فإني لن أتخلى عنها لقاء مبلغ زهيد، لا يساوي ثمن لقمة خبز».

كان هنالك مشروع ضخم يساوره ويتعب فكره: فهو يفكر بنشر أعمال «شيلر» الكاملة، على ثلاث دفعات: «وفيما يتعلق بالناشر، سننظر في ذلك، فيما بعد، ولكن الحقيقة أنه من الأفضل أن ينشر الكاتب أو المترجم، أعماله، بنفسه».

وأخذ يسجل الأرقام بحماسة شديدة على الأوراق: مبلغ كذا للورق، مبلغ كذا للأغلفة، مبلغ كذا للطباعة، ومبلغ كذا للضم والتغليف... وحسب لكل شيء حسابه، ومع ذلك فقد فشل المشروع. فعلى من يقع الذنب في ذلك؟ إنه، بالله، يقع على عمله الوظيفي! الذي «يزعجه، ويبعث في نفسه الملل، كطبق من البطاطا».

وبتاريخ ٣٠ أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٤٤، كتب إلى أخيه «ميشيل» «إني في وضع جهنمي. وسأشرح لك ذلك: لقد استقلت لأن... بل لأني أقسم لك، إني لم أعد أستطيع متابعة خدمتي.

والحياة تصبح ثقيلة ومملة، عندما نضيع أفضل وقتنا وأيامنا، في أعمال سخيفة إلى هذا الحدّ... وأخيراً، إليك ما هو أخطر ما في الأمر: لقد أرادوا إرسالي بمهمة، ولكن قل لي، أرجوك، كيف يمكنني مغادرة «سان بطرسبورج» والاستغناء عنها»...؟

ومع ذلك. فقد كان آنذاك مثقلاً بالديون، ولا يدري بالضبط كيف يستطيع تأمين معيشته.

«لقد كتبت إلى «البيت» أني مدين بمبلغ (١٥٠٠) روبل، لأني أعرف أنّ من عادتهم ألا يرسلوا لي سوى ثلث ما أطلب. وإذا تأخر خنازير موسكو، هؤلاء، في إرسال المبلغ، فسأكون من المفلسين، الهالكين».

وكان تقديره صحيحاً، فبعد بضعة أشهر، كتب ما يلي:

«تلقيت من موسكو ٥٠٠ روبل، ولكن المبلغ لم يكن يكفي آنذاك لنفقاته ولتسديد ديونه. وأصبح يعاني من ضائقة شديدة، وفي وضع ميؤوس منه. وأخذ يتخبط ويلهث، محاولاً القيام بمشاريع ترجمة، ومشاريع اقتباس ضبابية وغير واضحة.

«أنت تقول إن الخلاص يتحقق بواسطة مسرحيتي، ولكن الإخراج يتطلّب وقتاً طويلاً. وكيف يمكنني دفع النفقات، وتسديد الديون»؟!.

كان من الممكن أن يتخلى عن حصته من الميراث، مقابل حصوله آنذاك على (٥٠٠) روبل. وكان من الممكن أن ينذر نفسه ويستسلم للشيطان مقابل أي مبلغ زهيد من النقود. ومن جديد: العودة إلى الحليب والخبز والشاي، والمسكن البارد الجو والوحدة المضنية.

وذات يوم، التقى في زاوية أحد الشوارع برفيقه في المدرسة سابقاً: «غريغوروفيتش». فتعانق الصديقان. وأخبر «دوستويفكسي» رفيقه بأنه قد استقال، وحدثه عن أعماله الغامضة والمشوّشه، وعن آماله الكبيرة. وبالمقابل، أخذ «غريغوروفيتش» يتحدث مزهواً عن تحقيق أمنياته: فهو يكتب وينشر، وينال المكافآت على ذلك. وهذا الفتى الجميل، الأنيق ذو المشية الراقصة والذي يتكلم بيسر وطلاقة، بهر «دوستويفسكي»، كما أنّ «غريغوروفيتش» قد أغرته حماسة رفيقه، العنيفة، وأعجب بها، فهذا روحاني، خفيف الظل، ثرثار، وذاك صموت، معذب، متحمس. ومع ذلك فقد تفاهما تماماً وبشكل عجيب من أول الكلمات التي تبادلاها، واقتاد «غريغوروفيتش» «دوستويفسكي» إلى منزله وقرأ له عملاً بعنوان: «عازف

الأرغن المتجول» كان قد أنجزه للتو: حماسة، تهاني، عهود ومشاريع. ولم يعد أحدهما يستطيع الاستغناء عن الآخر. فاستأجرا منزلاً وأقاما فيه سوية. ولكن موارد الصديقين كانت تنفذ منذ بداية الشهر.

كان «دوستويفكسي» يعمل ليلاً ونهاراً، لإنجاز عمل لا يريد أن يقول عنه شيئاً لأحد. وكان «غريغوروفيتش» يرى أوراقاً مسودة تتكدس على المنضدة، عليها كتابة، بخط ناعم وحروف صغيرة ملتفة ومقطعة «شبيهة جداً بكتابة أليكسندر دوماس الأب».

ومن وقت لآخر، كان «فيدور ميخائيلوفيتش» يتوقف عن الكتابة، وقد شعر بالتعب، فيحتسي كأساً من الشاي، ويفتح كتاباً: «جورج صاند»، «مذكرات الشيطان» «لفريديريك سوليه»... ويتوسل إليه «غريغوروفيتش» أن يحاول القيام ببعض التمارين الرياضية، فيوافق على الخروج. ولكن الهواء الطلق، والنور المبهر، وضجيج الشارع، كل ذلك بدا له، لا يحتمل ولا يطاق. وشعر بدوخة تنتابه، وشحب وجهه، فاستند على ذراع صديقه الذي اضطر إلى إعادته بإحدى العربات إلى المنزل.

وذات صباح، وأثناء إحدى نزهاتهما التقيا بموكب جنازة. كان الكاهن يحمل الصليب ويسير خلف المشيعين الذين يحملون اللافتات التي كتبت عليها العبارات الدينية المقدسة، وخلفه مشت جوقة المنشدين والمرتلين، وبعدهم عربة نقل الموتى، التي يجرها حصانان يسيران ببطء شديد. والتابوت كان مفتوحاً. ويمكن رؤية وجه الميت، الذي بدا بلون الصمغ الرمادي. وكان يغطي جبينه تاج من الورق الأبيض، تزينه عبارات دينية تقليدية. وكان يمسك بيديه المتصلبتين أيقونة صغيرة. فارتعش «دوستويفسكي» والتفت إلى الوراء، محاولاً الهرب. ولكنه، منذ الخطوات الأولى، انهار، وقد عصفت به هزة عصبية. فأحاط به بعض المارة، وساعدوا صديقه على نقله إلى محل لبيع الألبان، قريب من هناك. وبصعوبة كبيرة توصلوا لإنعاشه.

وفي الأيام التالية، بدا «دوستويفسكي» مكتئباً، خائر القوى، شارد الذهن، كأنه خارج هذا العالم، وبالكاد كان يستطيع أن يتكلم، ويكتفي بالقليل من الطعام، ولم يعد يريد أن يكتب.

ولكنه بعد فترة من الوقت، استأنف العمل. فبماذا كان يعمل؟ كان أخوه «ميشيل» وحده، هو المطلع على سره. فقد كتب له «فيدور ميخائيلوفيتش» إلى «روفيل»:

«يراودني أمل كبير: أكاد أنجز رواية في حجم ومستوى رواية «بلزاك»: «أوجيني جرانديه». وهي تتصف بالأصالة. وأنا أقوم حالياً بنسخها ثانية وتبييضها»...

وبتاريخ ٢٤ آذار (مارس) سنة ١٨٤٥، كتب له أيضاً: «أنا مسرور تماماً وراضٍ عن روايتي. إنها عمل بسيط وواضح، ولكنها بالحقيقة لا تخلو من بعض العيوب المهمة»...

وكان اهتمامه الشديد والدقيق ببلوغ ذروة الكمال، يمنعه مع ذلك من أن ينشرها آنذاك:

«في شهر شباط (فبراير) استأنفت التصحيح، الصقل، الإضافة والحذف. ونحو منتصف شهر آذار (مارس) أنجزت العمل، وأنا راضٍ عنه ومسرور... وقد أقسمت بيني وبين نفسي أنه مهما كان وضعي حرجاً وصعباً، فإني لن أكتب شيئاً بناءً على الطلب، فالطلب يسحق كل شيء ويبيده. وأريد أن يكون كل عمل من أعمالي دقيقاً وجميلاً».

انظر إلى «بوشكين»، إلى «غوغول» فكليهما إنتاجهما قليل ومحدود، ومع ذلك، فسيكون لكل منهما تمثاله».

وهو يلوم أخاه لأنه لا يؤيد حماسته للدقة، والكتابة بصورة صحيحة تماماً:

«إن قدر الأعمال الأولى، هو أن تدقق وتراجع إلى ما لا نهاية. فقد كان «بوشكين» يجري تصحيحات لا تحصى، على أصغر وأقصر قصائده.

و «غوغول» كان يراجع ويتلمس قصصه، ويعدل فيها ويصححها، طوال مدة تزيد على السنتين».

وحالما ينتهي الكتاب وينجز، ينبغي أن ينشر. ولكن، «في أيّ مجلة، لا يوجد ديكتاتور واحد وحسب، بل عشرون ديكتاتوراً، على وجه التقريب. وأن يطبع المؤلف أعماله بنفسه، فهو بذلك يفتح لنفسه ثغرة ينفذ بواسطتها من الحصار...».

واستشار بعض الأصدقاء، ممن لديهم خبرة في هذا المجال، فنصحوه بعدم النشر على نفقته الخاصة:

«فمن سيعلن عن الكتاب للجمهور، ومن سيقوم بالدعاية له؟

وأصحاب المكتبات لن يقوموا بذلك ولا يعملون شيئاً لكاتب مجهول».

و «دوستويفسكي» أقر بعجزه، بعد أن أعيته الحيلة، واضطر إلى تقديم كتابه إلى مجلة «حوليات الوطن». ولكنه كان خائر العزيمة، ويائساً، بصورة مسبقة: سوف ترفض مخطوطته. وسيرهقونه بالانتقادات. ولن يتفهموه. وكيف يمكنهم أن يتفهموه؟!

وقد كتب:

«إذا لم أنشر روايتي، فمن المحتمل أن ألقي بنفسي في نهر «النيفا». فما العمل؟ لقد فكرت بكل شيء. ولن أظل على قيد الحياة بعد موت فكرتي الثابتة التي تلازمني».

وهذه «الفكرة الثابتة» التي لا يوضحها في رسائله، سيكون عنوانها: «الناس الفقراء» التي ستكون أولى رواياته.

كيف يمكن التوفيق بين إعجاب «دوستويفسكي» بالأدب وحبه للشعر الغنائي، و «بكل ما هو جميل وعظيم»، وبكل ما يدوّي ويؤثر، وبين قصة: «الناس الفقراء»، المتواضعة؟

فمن جهة، هنالك «شيلر» («كنت أشعر بالألم لمجرد سماعي أحدهم يلفظ اسم «شيلر»)! وهنالك «فيكتور هيغو»: («لا مثيل له»)!، و «كورنيل» (الملائكة الغاضبون لإهانة لحقت بهم، وحدهم، يستطيعون أن يتكلموا هكذا»)! و «راسين»: «لقد نهب هوميروس، ولكن بطريقة تدعو إلى الإعجاب»! و «جورج صاند»: عندما قرأتها للمرة الأولى، أذكر أن الحمى قد أصابتني ولازمتني طوال الليل»! و «والتر سكوت»: (كيف استطاع أن يكتب في بضعة أسابيع أعمالاً رائعة كـ «مانورنغ»: (Mannering) على سبيل المثال»)؟! و «شكسبير»، «بوشكين»، «لامارتين»، و «بيرون»، والموكب الذي رافقهم، من حب شريف، وجرائم بمشاهدها المثيرة، والبكاء والعويل في الحزن والمراثي، والآخر، الناسخ المسكين: «ديفوشكين» المتدثر ببزته الرثة، والذي يقيم في كوخ حقير، لا يدفئه سوى عطف فتاة صغيرة، تسكن في منزل مجاور للكوخ الذي يقيم فيه.

فمن جهة، هنالك جوقة العواصف العاطفية، ومن الجهة الأخرى هنالك، مزمار المحبة والحنان، المنفرد.

فبأي «كيمياء» عجيبة وخفية، قدمت تلك الإضافات الرومانسية والتقليدية المادة العذبة والرمادية الكئيبة لرواية: «الناس الفقراء»؟ وبأي عملية عجيبة وغريبة، تقلص اللصوص الكرماء، والأميرات الخياليات اللواتي يشبهن القمر، وأصبحوا بحجم وقياس سكان المدن الصغار؟

وبأي آلية رائعة، ذابت وانصهرت ديكورات وزينات فينيسيا» وتحولت إلى أزقّة مظلمة، وإلى سقائف، وحانات مشبوهة، ومواخير؟

حقاً، لقد كان «دوستويفسكي» معجباً أيضاً بـ «بلزاك» وبـ «غوغول» هذين المعلمين، رائدي الواقعية الجديدة. ولكنه، هل كان يقدمهم ويفضلهم على جيش «السادة المبدعين العلويين»؟ لا يبدو أنّ الأمر كان هكذا. ألم يشعر بالحاجة لرفع قيمة مغامرة «أوجيني جرانديه»

وتمجيدها، عندما قام بترجمتها؟ ألم ينه تبنيه لترجمة «بلزاك» بعبارة مهيبة وارتسامية، شبهت فيها ابنة «سومور» بأحد تماثيل اليونان القديمة؟ كانت طباع شخصيات «بلزاك» باهتة جداً في نظر تطلعاته وطموحاته الخاصة، وبالنسبة لها. ولكن ها هو يتصور طباعاً، باهتة أكثر منها! فهل يكون «دوستويفسكي»، قد غير خلال بضعة أشهر، مفاهيمه الفنية؟ وهل عانى من صدمة، أصابته بسبب كشف أدبي أو عاطفي؟

لنتصور الفتى المراهق الذي نشأ وترعرع في «قصر المهندسين» وهو ينتشي بمطالعة الشعر والروايات: إنه «بيريكليس» أو «ماريوس» أو مسيحي في عصر «نيرون» أو فارس مغامر يخوض إحدى المبارزات، أو «إدوار» بطل رواية «والترسكوت»: «الدير». وهو يعلن أنه صديق الشاعر «شيدلوفسكي»: («نعم، أنا بركان، والنار هي عنصري الأساسي»). وهو يبكي عندما يقرأ القصائد الحزينة، والمراثي التي ينظمها أخوه. فهو لا يعرف شيئاً عن الحياة. وجدران المدرسة، مثلها في ذلك مثل جدران مشفى «ماري» سابقاً، تحتجزه في حلم تسوده النعمة والنور، ولا يفكر حتى بأنه يستطيع أن يستيقظ منه. ثم تفتح الأبواب:

إنها «سان بطرسبورج»، بشوارعها الصاخبة، وقصورها الحديثة جداً، وأبنيتها الإدارية المحشوة بالكتبة وبالموظفين، وبعد الابتعاد عن حي الأناقة والغنى، نرى منازلها الكبيرة والواسعة التي تشبه الثكنات، حيث تأوي البشرية البائسة، المؤلفة من صغار الموظفين، والمرابين، والحرفيين الذين يعملون في منازلهم، والمومسات والطلاب. وهناك نرى المطاعم الحقيرة والقذرة، التي تفوح منها روائح التبغ، والخرق المحروقة، ومياه جلي أواني المطبخ. وزقاقات مسدودة لا منفذ لها، ينيرها فانوس معلق على عمود. له رافدة ملونة. ومخازن سيئة الإدارة والمظهر، حيث تنتظر الزبائن نساء شرسات، يتكلمن بصوت عال، وفي يد كل منهن كأس من الشاي.

وجدران هذه المدينة، التي بنيت على أرض مرزغية وعلى المستقعات يرشح منها ماء دبق. والضباب الكثيف يخيم على أسطحة بيوتها. والثلج الطري ينزلق ويصر تحت كعب الحذاء. والمارة يسيرون بسرعة، عابسين، متجهمي الوجوه، مشغولي البال. يفكرون بمكاتبهم، وبتقدمهم، وبأعمالهم التجارية، وغيرها من الأعمال المختلفة. ويبدو «دوستويفسكي» بينهم كشخص يمشي في نومه. وفي الزمن الأول، من إقامته فيها، كان لا يزال يمشي ملتفاً ومتقمطاً بالأحلام وبالآمال. ولكنه، أخذ يستيقظ شيئاً فشيئاً، على هذه الحياة الجديدة. وفتح عينيه. وهو يروي في كتابه: «أوهام سان بطرسبورج الخادعة» (شعراً ونثراً). إنه على ضفة نهر «النيفا» إنما حصل الكشف.

كان قد خيم الظلام، تقريباً، والبرد على أشده: (٢٠ درجة، تحت الصفر). ومناخير أحصنة العربة ترسل دخاناً كثيفاً. والنهر تغطيه كتلة بيضاء براقة كالسكر. وعلى يمينه قصر الأميرالية الذي يرتفع سهمه نحو سماء باردة، تبدو بلونين: البنفسجي والأصفر.

وكانت كتل من الثلج المتجمد والقاسي عالقة على أعمدة مقر مجلس الشيوخ وأعمدة بناء المجمع الكنسي.

«فكرة غريبة خطرت على بالي... وبدا لي أني فهمت في تلك الدقيقة شيئاً، سبق لي أن شعرت به، دون أن أعبر عنه أبداً. وبدا لي أني قد استيقظت للتو في عالم جديد، غريب عني وبالنسبة لي ولم أكن أعرفه حتى ذلك الحين إلا عن طريق قصص وحكايات غامضة وبواسطة إشارات خفية. واعتقد أني منذ تلك اللحظة، بدأت حياتي الحقيقية».

فما هو هذا العالم الذي استيقظ عليه؟

«كانت وجوه غريبة، شاذة وعجيبة، بل ومبتذلة تماماً، ليس فيها شيئاً من «دون كارلوس» ولا من «يوزا»، ولكنها كانت، حقاً لمستشارين فخريين، ولكنهم مستشارون فخريون، من نوع وهمي، وخارق للعادة».

نعم، جميع أولئك الفتيان ذوي الأنوف المجمدة، وكل أولئك الفتيات اللواتي يرتدين الملابس المرقعة، ربما كان لديهم عواطف ومشاعر لا تشبه بشيء مشاعر وعواطف الأبطال المترفين الذين يبدون كالأمراء. وصغار الموظفين البيروقراطيين، والطفلات المريضات، والرجال المتقدمون بالسن المهووسون، والسكيرون، كل منهم يعيش مع سره، مع ولعه، مع إخلاصه أو مع جريمته.

«التكريم والمجد للشاعر الشاب الذي تحب قريحته الملهمة مستأجري السقائف والأقبية، والذي يقول لساكني القصور المذهبة: «هؤلاء أيضاً بشر، إنهم إخوتكم»: هذا ما كتبه فيما بعد الناقد «بيلنسكي».

بشر، رجال وأخوة، وهذا ما فهمه «دوستويفسكي» بعد ما يشبه الصدمة القوية والموفقة. وتنهار الديكورات والزخارف الشرقية، وتهوي أشباح شخصيات القصة الكبرى، إلى الأبد، في العدم. ولم يبق بعد ذلك سوى الناس الفقراء، الأذلاء، الذين تعرضوا للإهانات: «في إحدى الزوايا المظلمة، قلب مستشار طاهر وشريف صادق ومخلص لرؤسائه، ومعه فتاة صغيرة، مهانة وحزينة. قصتهما تمزق روحي».

كان «دوستويفسكي» قد وجد طريقه.

«الناس الفقراء»

«ادخل، يا «غريغوروفيتش» واجلس. لقد انتهيت من إعادة نسخ وتبييض كتابي. وأريد أن أقرأه لك»

كان «دوستويفسكي» جالساً على أريكته. وأمامه، على منضدة صغيرة دفتر كبير، من ورق الرسائل، مفتوح: مخطوطة رواية «الناس الفقراء».

كان «غريغوروفيتش يتآكله الفضول، فهو، على الدوام، معجب بدوستويفسكي» ويأسف كثيراً لأن رفيقه، الواسع الثقافة، الشديد الذكاء، والحساسية، لم يكتب حتى ذلك الحين، شيئاً سوى بعض المحاولات والدراسات المسرحية والأدبية، التي لم يكن لها أي مستقبل، ولم يتبعها بشيء جديد.

وقد كتب «غريغوروفيتش» في مذكراته، ما يلي:

«كنت أقول في سري: كيف يحدث هذا؟ كيف أكون أنا قد ألفت ونشرت بعض الأعمال الأدبية الصغيرة، وأني أصبحت أعتبر نفسي أديباً، بينما لم ينتج «دوستويفسكي» حتى الآن شيئاً، في هذا المجال»؟

ويروي لنا «غريغوروفيتش» فيما بعد، ماذا كانت تعني تلك القراءة، لرواية «الناس الفقراء» بالنسبة له. إذ إنه لا شك، كان يتوقع أن يكون العمل الجديد، تقليداً وبديلاً لرواية: «ماري ستيوارت» ولرواية:

«بوريس غودونوف» ولكنه، لم يكد يسمع الجمل الأولى، منها، حتى أدرك خطأه.

وكتب «دوستويفسكي» فيما بعد في عمله الذي يحمل عنوان: «مذلون مهانون»: «إنها قصة بسيطة، مطابقة للواقع اليومي المعاش. وبطلها ليس رجلاً عظيماً، أو شخصية تاريخية، على شاكلة «روسلافليف» أو «يوري ميلوسلافسكي». إنه موظف بسيط متواضع، معذب، بل وأبله، بعض الشيء، وبزته البسيطة والعتيقة قد فقدت بعض أزرارها.

والرواية كتبت على شكل رسائل:

شخصيتان: «دييفوشكين» رجل قروي غامض ومجهول، تقدمت به السن، ساذج وجاهل، بائس، طيب القلب ومتسامح، لدرجة استعداده لتقديم أيّ تضحية.

ومقابل غرفته، تسكن امرأة شابة، تدعى: «فارنكا»، تمت إليه بقرابة بعيدة، ولكنها لا تريد أن تستقبله في غرفتها، ولا تريد أن تذهب لتزوره في غرفته، خوفاً من الأقاويل.

ولذلك، فما عليهما إذن إلا أن يتكاتبا.

هي بائسة، وهو بائس أيضاً. ولكنه يغمرها بعطف أبوي، رقيق، ساحر وبسيط لا تكلف فيه ولا تصنع. وهي، من جهتها، تحاول مساعدة صديقها العجوز على التعلم واكتساب المعرفة لأنها مثقفة. وقد طالعت كثيراً. وهي تتحدث في رسائلها عن معاناتها وعن آلامها، بذكاء عذب ومحبب: كما أنها تروي قصة حياتها: «طفولتها التي أمضتها بالقناعة والخضوع، وحبها المفاجئ لطالب مصاب بالتدرن الرئوي، وموت الطالب، ثم حزنها الشديد عليه.

كانت هذه المراسلة تشكل وليمة، بل متعة كبيرة، بالنسبة لدييفوشكين: فهو لم يعد وحيداً، بل يعيش مع شخص آخر ومن أجل هذا

الشخص، وهو يعمل ويشتغل، ويحرم نفسه من أشياء كثيرة ليقدم شيئاً لهذا الشخص. وبفرح يجعله يرتعش، يبيع ملابسه، ويقبل القيام بأعمال النسخ في البيت، وأن يستدين نقوداً لكي يشتري سكاكر وزهوراً لصديقته الشابة. ولكنّ البؤس يترصده: فبزته مرقعة، وحذاؤه لم يعد له نعل، و «فارنكا» مريضة. والجيران يظنون أنه يقيم معها علاقات مشبوهة.

وصاحبة البيت تقول: «إنها علاقة الشيطان مع طفلة صغيرة». وأحد الكتبة الذي يقيم في البناية نفسها يعامل «دييفوشكين» على أنه فنّان ومغوٍ، وفي المكتب، لا يقيم له الحاجب أي اعتبار.

«أتعرفين، ما الذي يقتلني، يا «فارنكا»؟ ليست النقود، بل كل هذه المنغصات للحياة، كل تلك الوشوشات، والابتسامات المصطنعة، والكلمات والتعليقات الجارحة»...

وكيف يحترمونه، وهم يرون حذاءه بالياً، وأكمام بزته مثقوبة عند المرفقين؟

«ماذا لو أن أحد رؤسائي لاحظ أنّ هندامي سيئ إلى هذا الحدّ!... إنها مصيبة، يا «فارنكا»، مصيبة كبيرة، ومصيبة حقيقية»...! والحال، هي أن «سعادته» قد استدعاه لكي يوبخه على غلطة ارتكبها في النسخ. وبينما كان «دييفوشكين» يقف أمامه في وضعية الاستعداد، انقطع أحد أزرار بزته، وسقط عند قدمي الجنرال وهذا أمر يشكل إساءة لسمعته! وسوف يوبخ، ويطرد على الفور بسببه. ولكن «سعادته» أشفق على الموظف المسكين، بسبب مظهره البائس، فأخذ يستجوبه، ثم صافحه وشدّ على يده، وأعطاه مائة روبل، ليشتري بها بعض الملابس.

«أقسم لك إنّ تلك المئة روبل كانت أقل في نظري، من مصافحة «سعادته» لي، التي أراد أن يكرمني بها، أنا البائس، غير الجدير بهذا التكريم والسكير، الذي لا يساوي قشة»...!

لأنه، في غضون ذلك، كان يشرب كثيراً من وقت لآخر، لكي يسبر أغوار حزنه وشقائه. أما الآن، فهو غني، ويستطيع أن يجلّس ظهره.

ولكن فرحته كانت قصيرة الأمد: فهنالك سيّد غني، وفاسد، بعض الشيء، يطلب من «فارنكا» أن تتزوجه. فقبلت، لأن المرض والحرمان قد أنهكاها. وهكذا، فقد بدأ عذاب «دييفوشكين» الحقيقي.

و «فارنكا» الوقورة والمتعقلة جداً، تأثرت وثارت بسبب كل تلك المشتريات التي عليها أن تقوم بها لكي تحضّر جهازها. وبدت في رسائلها الأخيرة نبرة تنم عن الخفة واللا مبالاة المحمومتين. فقد أعطاها خطيبها نقوداً لتشتري بها أدوات الزينة والحلي التي تحتاجها. فكلفت «فارنكا» بقسوة بريئة، «دييفوشكين» بالقيام بهذه المهمة:

«تزيينات المناديل يجب أن تكون مطرزة على الطبلة، على الطبلة، أتسمع؟ وليس مجرد قطبات عادية وحسب... أوصهم، حباً بالله، أن يضعوا على الوشاح عقداً صغيرة من خيط حريري وأن يزينوا الياقة بالدنتيلا أو بحاشية عريضة».

و «دييفوشكين» الذي هدّه اليأس، فقد وعيه عبر تلك الأكداس من الخرق والأزرار والأشرطة. ومع ذلك، فإنه، بنية حسنة مشوبة بالحزن والأسى، كان يركض مسرعاً، ذات اليمين، وذات اليسار، ليزور الخياطات، بائعات القبعات، ومخازن الحلي والمجوهرات.

وأخيراً، تزوجت «فارنكا». و «دييفوشكين» الذي امتنع حتى ذلك الحين عن التذمر والشكوى، أطلق عند ذلك العنان للتعبير عن حزنه ويأسه. وبدت الجمل في رسالته مشوشة لا يعرف لها رأس من ذنب ولا أول من آخر. فقد أراد أن يعبر بسرعة، وبمزيد من السرعة، كم كان يحب عزيزته «فارنكا»، وأي فراغ مخيف سيحدثه حوله رحيلها. وينتهي الكتاب، بهذه الصرخة:

«ليس من الممكن أن تكون هذه الرسالة هي الأخيرة!...

كيف يمكن أن تتوقف مراسلتنا إذن هكذا، فجأة؟...

كلا سأكتب لك، وأنت ستكتبين لي أيضاً... يا «فارنكا»، إن أسلوبي في الكتابة يتحسن. آه! يا عزيزتي، ماذا أقول عن الأسلوب؟!... وكيف أتحدث عنه فأنا الآن لا أدري ما أكتب، لا أعرف عنه شيئاً، ولا أعرف شيئاً، البتة، وبالمرة، فأنا لا أعيد قراءة ما أكتب، ولا أصحح أخطائي أو أسلوبي. ولا أفكر إلا بالكتابة لك، وبالكتابة لك أكثر ما يمكن... يا محبوبتي الغالية، يا عزيزتي «ماتوتشكا»...

حقاً، لقد كانت رواية «الناس الفقراء» مستوحاة من رواية «غوغول»: «المعطف». فذلك المستشار الفخري المرح الذي نشأ وترعرع على تقديس رؤسائه، وحبه «للنسخ» وذلك الساكن في مدينة «سان بطرسبورج» المسكين الذي يسخر منه زملاؤه، ويعاني من الحرمان وشظف العيش، ويتقبل كل شيء، يخضع ويستسلم لأيّ كان، بورع ديني، هو، بالضبط، الأخ الثاني للمسكين «أكاكي أكييفيتش، الذي خلد صورته «غوغول»، ولكن بطل رواية «غوغول» يثير الشفقة فقط، بشكله الغريب. ويستدعي الانتباه بعجزه التام، وعدم أهليته لأي شيء. بينما يبدو بطل «دوستويفسكي» «ماكار ديفوشكين» مثيراً للإعجاب ببعض الجوانب والصفات التي يتميز بها: كالشفقة والإحسان والإخلاص. والتكتم الذي يبديه بشأن بؤسه وشقائه، ينم عن إرادة قوية، وعن سمو في الأخلاق لا مثيل له. والسخرية لا تقضي عليه، بل تثير حماسته وتبرز مزاياه. وخموله وقلة حظه من الذكاء يتوقفان عند حدود قلبه، دون أن يمسانه أو يؤثرا عليه وهو يتعذب ولكنه ينجو من أن يصبح صورة مشوهة وقبيحة.

وتنبتُ حوله شخصيات ثانوية، كان أهم من يلفت النظر منها والد الطالب المصاب بالتدرن الرئوي «بوكروفسكي» وهذا العجوز السكير،

الكذاب والدنيء، يكنّ عطفاً مشوباً بالخوف لابنه ويحترم تعلمه واستقلاليته. وهو أيضاً يكفر عن عيوبه، بمحبته وتواضعه.

«ومن النظرة الأولى، يمكن أن نظن أنه يشعر بالخجل من شخصه، وإلى هذا الحد كان يبدو أنه يبذل مجهوداً لكي يبدو صغيراً... والبقية الوحيدة من المشاعر النبيلة لديه التي احتفظ بها، كانت حبه الشديد لابنه»...

نموذج آخر، نجده في رواية: «الناس الفقراء»، هو «جورتشكوف» الذي يقيم في منزل مستأجر. وهو متورط في قضية أقيمت عليه دعوى بشأنها، وبسببها يصبح شرفه، مستقبله وثروته، في كفة الميزان ومعرضة للضياع. وعندما عقدت المحكمة جلستها، برأته مما اتهم به، وعندما صدر الحكم ببراءته، لم يعد يستقر في أي مكان، ويمر بالناس وهو يوجه لهم كلاماً غريباً: «شرفي... الشرف... الشهرة، والسمعة الطيبة... أولادي»!...

وفي الليلة نفسها، يموت من شدة انفعاله وفرحه.

وهكذا فمنذ هذه الرواية الأولى، أخذت تبدو موضوعات «دوستويفسكي» الثانوية. وقطيع الدمى الممثلة، يبدو هناك، بكامله. الأب الخائب الذي ينظر إليه أولاده بمزيج من الاحتقار والشفقة، نجده في شخصية العجوز «مارمو لادوف» في رواية: «الجريمة والعقاب»، وفي شخصية العجوز «كرامازوف» في رواية «الأخوة «كرامازوف»، وفي شخصية الجنرال «ايفولجين» البائس الذي استقال، في رواية «الأبله». والسكيرون الطيبون والشجعان يتواجدون في كل الكتب. ألم يفكر بأن يسمي رواية: «الجريمة والعقاب» ؛ ويطلق عليها عنوان: «المتشردون الطيبون»؟ والعجوز، المعلّق بعد انتهاء النظر في قضيته، والذي يسكر وينتشي بكبرياء، وهو في أعمق درجات الانخفاض، نجده في شخصية «ايغمينيف» في رواية «مذلون مهانون. والأغنياء جداً، الكثير والعيوب، الذين «يبصبصون على الفتيات

الشابات والجميلات «المضطهدات والمعذبات في الحياة وبسبب ظروف معيشتهن القاسية، وهن «لوجين»، «سفيد ريفايلوف» وغيرهما، في رواية: الجريمة والعقاب»...

والجميع، الجميع تقريباً، موجودون عند أول نداء. ولكن طباعهم لا يكاد المؤلف يشير إليها، فهو لا يزال يجربهم ويختبرهم، كما يفعل الرسام بألوانه، عند أسفل صفحة بيضاء.

وفيما بعد، سيتسلح بالشجاعة، وينظر بعيداً وإلى مجال أوسع. ومن لوحة الرسام التي هيئت جيداً وبعناية التي تشكلها رواية: «الناس الفقراء» سوف تخرج لوحات الفترة العظيمة. ومن هذه الوفاقات المترددة سوف تولد معزوفة بل «سيمفونية» الأخوة كرمزوف، العجيبة.

ولكن، من أجل إنجاز هذه الأعمال المهمة، يجب أن ننتظر إلى أن يستيقظ «دوستويفسكي» على موضوعات فنه، الأساسية. لأن «دييفوشكين» و «فرنكا» لا يزالان محدودين ضمن ذاتيهما. وتنقصهما سماء فوق رأسيهما، وظلّ عند أقدامهما. إنهما يتألمان، ولكن آلامهما معنوية، أخلاقية، اجتماعية، مادية وأرضية. وهما يجهلان القلق، والهموم «الميتافيزيقية» لما هو وراء الغيب والطبيعة. وهما يعيشان في عالم: «اثنين في اثنين يساويان أربعة. وهنالك شخصية غائبة عند توزيع الأدوار: الله. فيجب أن يحين وقت المشنقة والمحرقة والنفي إلى سيبيريا، لكي يبرز فجأة في خلفية عالم «دوستويفسكي».

ومهما كان الأمر، فإن رواية «الناس الفقراء» قد أذهلت «غريغورفيتش» وعدة مرات أعلن إعجابه بها بأعلى صوته، وأراد أن ينهض لكي يشدّ على يدي «فيدور ميخائيلوفيتش» ولكن هذا الأخير كان، وهو متجهم الوجه، متجمد الملامح، يتابع القراءة بصوته الأجش والكئيب، الذي يسبب الانزعاج والألم لمن يسمعه. وبعد آخر جملة في الرواية، ألقى

«غريغوروفيتش» بنفسه بين ذراعي المؤلف، وقد طفرت الدموع من عينيه، وأخذ يتوسل إليه بأن يعهد إليه بمخطوطة روايته. فهو سيطلع عليها الشاعر «نيكراسوف»، الذي يفكر بإصدار مجلة أسبوعية. وهو سيدعمه ويؤيده بحرارة، لأنه واثق من النجاح.

يا له من «صبي» غريب الأطوار، «نيكراسوف» هذا! فوالده، العسكري السابق البخيل والقاسي الطبع، كان يريد منه أن يلتحق بفرقة النبلاء، في الجيش الروسي. فاختلف «نيكراسوف» معه، وتمرد عليه لكي يتابع دراسته الحرة في الجامعة. فقطعت عنه أسرته أسباب المعيشة. فأخذ الشاب يتسكع في «سان بطرسبرج» ويعيش حياة بائسة: كان يسرق الخبز من المطاعم، وينام في الملاجئ الليلية. ولكنّ طموحه لم يكن يقف عند حد، وبحماسة تستحق الثناء، كان يكتب بعض المقالات الصغيرة، والقصص والمقطوعات الشعرية التي كان ينال عليها مكافآت هزيلة من الصحف التي تنشرها.

وإحدى قصائده: «على الطريق، أثارت حماسة «بيلنسكي» فشجع هذا الناقد المشهور، الشاعر المبتدئ، ونصحه، ووجهه في سيره في الوسط الأدبي. وكان صعود «نيكراسوف» سريعاً. فشاعر البسطاء والمتواضعين، هذا، يتصف بحسّ عملي نامٍ ومتطور.

وقال عنه الصحفي العجوز: «نيكراسوف» سيذهب بعيداً، فهو ليس مثلنا... وهو سيكدس ثروة صغيرة».

وبالواقع، فإنّ «نيكراسوف» هذا نفسه، قد كتب:

لقد دعيت للتغني بآلامك،

أيها الشعب الخاضع بشكل مدهش،

ولكن ألقي شعاعاً من ضوء الضمير

على الطريق التي يرشدك ويقودك عليها الله».

و «نيكراسوف»، هذا نفسه، الذي يعرف قريحته وملهمته، كفتاة عبدة، تجلد بالسوط، إلى أن يسيل دمها، والذي يعطف على سائقي الزوارق، على نهر «الفولغا»، ويبكي على أنوف الفلاحين العبيد «الموجيك» المحمرة، والذي يستنكر المظاهر البسيطة والخطيرة لبؤس وشقاء روسيا. و «نيكراسوف» هذا، نفسه، يندفع بشكل بشع في العالم، يرتاد الصالونات، ويتصل مع الكاتب «باناييف»، يرتبط معه، ويقيم في منزله، يستولي على زوجته ويعيش معها خمسة عشر عاماً، ويحصل من الزوج المخدوع على إصدار مجلة، يتوليان إدارتها سوية. والتغني بالطبقة العمالية وهمومها، وحسّ المال والأعمال، لم يتخربا لديه، ولكنهما كانا ينسجمان ويتكاملان بتناسق غريب. وكان يقول عنه أعداؤه: إنه لاهٍ، يبحث عن المتعة، ويجيب أصدقاؤه: إنه يفعل ذلك، بصورة لا شعورية.

وعندما حمل له «غريغوروفيتش» رواية: «الناس الفقراء»، بدا «نيكراسوف» متردداً، وأبدى بعض الشكوك، فهو مشغول، شارد الذهن، وتنازل أخيراً إلى الاستماع إلى قراءة عشر صفحات:

«بعد عشر صفحات، سنرى ماذا تساوي هذه الرواية».

فبدأ «غريغوروفيتش» القراءة

عشر صفحات، عشرون صفحة، ثلاثون صفحة، قرئت دون توقف. ولكن عملية دفن الطالب المصاب بداء السل، انتزعت من «نيكراسوف» صيحات الفرح. وعندما وصل القارئ إلى رسالة الوداع، لم يستطع أن يحبس دموعه، وأخذ يجهش بالبكاء، وينظر خلسة إلى «نيكراسوف»: كان وجه الشاعر تغطيه الدموع. لأنّ هذا الوصولي، الذي لا يهتم بشيء، كان أكثر شباباً من ألا يتأثر بسرعة، ويسخو بالدموع.

وصاح «غريغوروفيتش»، بحماسة:

«يجب أن نذهب إلى «دوستويفسكي» ونعلن له البشارة.

- ولكنّ الوقت ليل، وهو نائم، دون شك...

- وماذا يهمنا إن كان نائماً! فسنوقظه، فهذا أفضل من النوم بالنسبة له»!

و «دوستويفسكي» لم يكن نائماً. فقد أمضى الأمسية كلها عند أحد رفاقه، وهو يقرأ كتاب «الأرواح الميتة»، ويناقش الأفكار للمرة المئة، الأفكار التي تضمنها ذلك الكتاب. وقد عاد إلى منزلة في الساعة الرابعة صباحاً، في إحدى ليالي «سان بطرسبرج» البيضاء النيرة والدافئة كأحد أيام الربيع.

وعندما وصل إلى غرفته، لم يستطع أن يقرر النوم، بل فتح النافذة. وجلس أمام تلك السماء الصافية، الناعمة والفسيحة والتي يشع منها بريق فضي.

كانت المنازل ترقد، بأنوارها الخافتة. والمارة أصبحوا قليلي العدد. ولم يعد «فيدور ميخائيلوفيتش» واثقاً جداً، بأنه كائن في عالم واقعي، وهو بين حياتين، ينتظر الشمس التي ستشرق بعد قليل. ورنين الجرس جعله يرتعش. فنهض وفتح الباب:

«غريغوروفيتش» ورجل مجهول يقفان عند العتبة فامتقع وجه «دوستويفسكي»، واعتراه خوف غامض. ولكنّ الزائرين ضماه بين أذرعتهما، وأرسلا صيحات التحية والفرح، وأخذا يهزان يديه المسبلتين. لقد قرأا الكتاب، وهما يطيران إعجاباً به:

«إنه عمل عبقري...! عبقري»...

و «دوستويفسكي» الذي أذهلته المفاجأة، شعر بالسرور وحاول أن يرد بشكل ما على تهانيهما الحماسية.

وخلال نصف ساعة، أخذوا يتحدثون عن الشعر، عن الحقيقة، عن السياسة وعن المسرح. وخلال ذلك، كانوا يذكرون «غوغول» دائماً، ويستشهدون به. كما تحدثوا عن السلطة التي يتمتع بها «بيلنسكي».

وصاح «نيكراسوف»:

«سأحمل له مخطوطتك، هذا اليوم بالذات، وسوف ترى!... آه! يا له من رجل، يا له من رجل!... سوف تتعرف عليه!... والآن، عليك أن تنام، هيا إلى النوم. ونحن سنذهب.

وستأتي غداً».

وتركاه أخيراً، ولكنّ «دوستويفسكي» لم يعد يفكر آنذاك بالنوم، وقد ذكر في: «يوميات الكاتب»:

«كما لو أنني كان يمكنني أن أنام، بعد تلك الزيارة» فأيّ حماسة! وأي فوز وانتصار! ولكنّ اهتمامهما هو الذي كان على الخصوص ثميناً وكبير القيمة، بالنسبة لي. وأنا أتذكر أفكاري بوضوح تام: هناك من يحققون النجاح، ويهنئهم الناس ويستقبلونهم بحرارة ويمتدحونهم، ولكن هؤلاء أتيا والدموع في أعينهما، الساعة الرابعة صباحاً، لأن ذلك كان أهم من النوم! آه! ما أجمل هذا»!...

وإلى أن أشرقت الشمس، كان لا يزال «غريغوروفيتش» متمدداً على أريكته، يسمع وقع خطوات «دوستويفسكي» وهو يسير جيئة وذهاباً، في الغرفة المجاورة.

وفي اليوم التالي، نفذ «نيكراسوف» وعده، وذهب لمقابلة «بيلنسكي» حيث صرح باحتفالية حماسية:

«لقد ولد لنا «غوغول» جديد»!

فرد عليه الناقد بقسوة:

- عندكم أنتم، الكتاب من أمثال «غوغول» ينبتون كالفطر.

ومع ذلك، فقد وافق على أن يحتفظ بالمخطوطة، ووعد بقراءتها.

وهذا، بحد ذاته، يعتبر نجاحاً مهماً، لأن «بيلنسكي» كان في ذلك الحين، هو الناقد الكبير، الذي يصغى له، ويخشى منه، والنزيه الذي لا يمكن رشوته أو إفساده.

وهذا الرجل النحيل، الذي يقيم في منزل متواضع، والذي يسعل، ويبصق الدم، ويعرف أنه مقضي عليه بالموت قريباً، تصدر عنه هيجانات، ونوبات غضب تثير الرأي العام وتهزه. وهو يستحسن ويستنكر، على التوالي في تقلبات سريعة. وهو كما قال عنه «دوستويفسكي»: «الرجل الأكثر عجلة واستعجالاً في روسيا».

نعم، الرجل الأكثر عجلة، والأكثر نشاطاً وحميةً: «إنه فيساريون الغضوب والمحتد». فهو يعطي توجيهاته وتعليماته بسرعة وعلى عجل.

يتحمس لنظريات، لم يُتح له الوقت الكافي ليستوعبها ويتمثلها جيداً، فيتركها ويعود إليها، ويتألم حتى أعماق روحه. وفي بدايات عمله، اندفع بكل قواه في «المثالية». الفن للفن، التأمل الحميمي، الزهد المترفع حيال العالم، ولكن هذا الجو الرقيق والمتخلخل أخذ، شيئاً فشيئاً، يثقل كاهله. فلم يعد يكتفي بالأدب، بل لم يعد يكتفي بنفسه.

وقد كتب لأحد أصدقائه:

«الفن وحده خنقني وبكل بساطة، غير أني مع ذلك، كنت أستطيع العيش في ذاتي في ظل ذلك النظام، وكنت أظن أنه، بالنسبة لأي إنسان ليس هنالك حياة أخرى سوى الحياة الداخلية. ولكني خرجت من ذاتي (كنت فيها أشعر بالضيق، ومع ذلك كنت أحس بالدفء) وقد خرجت نحو عالم الألم، الجديد».

واستأنف تماسه واتصاله بالواقع وبالجماهير، ونذر نفسه لمعالجة المشكلات الاجتماعية، فقدر الشعب الروسي جائر، لا يطاق. وواجب الكاتب هو أن يستنكر بؤس الفلاح وشقاءه. والكتاب لا قيمة له إذا لم يكن يتضمن بعض المطالب الإنسانية. والموهبة لا تساوي شيئاً إذا لم تكن نافعة ومفيدة.

وحوله، تشكل حزب «الغرب»، المعارض لحزب «محبي السلاف».

ومنذ ذلك الحين، لم يعد يقسم إلا بالاشتراكيين الفرنسيين ولا يتحدث عن أحد غيرهم، ولا يلتمس ولا يطالب إلا بتقدم العلم. و «بوشكين» نفسه وهو الذي كان معجباً به فيما مضى، دون أي تحفظ، أصبح يبدو له كناظم لشعر الصالونات. ألم يكتب هذا الشاعر:

«طنجرتك أغلى عندك من أي شيء، لأنك تستخدمها في طبخ طعامك» وكان «بيلنسكي يصيح وفي عينيه بريق عجيب، وهو يركض من زاوية إلى أخرى، في الغرفة:

- إيه! بالتأكيد، بالتأكيد إنها عزيزة علي، وأغلى من أي شيء! فليس لي وحدي فقط، بل لأفراد أسرتي، بل وللناس الفقراء، إنما أطبخ فيها الطعام، وقبل أن أنتشي وأتمتع بما يتيحه لي الفن من مظاهر الجمال، فإن من حقي بل من واجبي أن أطعم جماعتي وأهلي وأغذيهم، وأن أتغذى أنا، نفسي، على الرغم من جميع الأرستقراطيين، وجميع الطائشين الحقراء»![1].

كان تعلقه، بغوغول، يبدو أنه لا يتزعزع. لكن، ويا للأسف! عندما كان على «غوغول» أن ينشر عمله: «مقاطع مختارة من الرسائل المتبادلة بيني وبين أصدقائي كان لا بد من أن يستشيط غضباً.

فهذا الكاتب الذي كان «يعبده»، لأن كتبه كانت تكشف عيوب وعاهات المجتمع المعاصر، ها هو يتبين فيه صوفياً متخلفاً، محباً للسلاف متقوقعاً، ورجعياً متوحشاً. وقد كتب الناقد فيما بعد، رسالة مطولة تطفح بالكراهية، كان لها، بتوجه غريب أثر سيئ، بل مشؤوم، على «دوستويفسكي».

وقد كتب «بيلنسكي» فيما كتب إلى «غوغول»:

١- من مذكرات «تورغينيف». -المؤلف

«نعم، لقد أحببتك، كما يستطيع الرجل الذي ارتبط بوطنه بالدم، وحده، أن يحب أمل هذه البلاد، شرفها ومجدها، أحد كبار زعماء ضميرها الداخلي، نموها وتطورها وسيرها قدماً إلى الأمام. وأنا لا أستطيع أن أعطيك أدنى فكرة عن الغيظ الذي أثاره بي كتابك... فأنت لم تلاحظ أنّ روسيا ترى سلامها وأمنها، ليس في التصوف، ولا في الورع والتقوى، بل في ازدهار وتقدم الحضارة، بل وفي نضج تلك الكرامة الإنسانية التي طرحت طوال عدة قرون في الأوحال والزبل والرمال... انظر إلى قدميك، إنك على حافة الهاوية»...

ولكن حتى سنة ١٨٤٥، لم يكن «غوغول» قد نشر، بعد «مراسلاته» وكان «بيلنسكي» لا يزال يحيطه بإجلال شديد وغيور، وبمحبة تضاهي محبة الأم لوليدها.

«غوغول جديد ولد لنا»! إنهم يسخرون به!

ومع ذلك، ففي اليوم التالي، عندما أتى «أنانكوف» الصحفي المختص بالشؤون الأدبية، لزيارة «بيلنسكي» رآه، من طرف الباحة واقفاً أمام النافذة، وبيده دفتر كبير. وصاح «بيلنسكي» حالما لمح القادم الجديد:

«ادخل بسرعة، سأعلن لك خبراً... انظر إلى هذه المخطوطة، إنها تشدني إليها، ولا أستطيع أن انتزع نفسي منها... إنها عمل لشاب يتمتع بموهبة حقيقية: وأنا لا أعرفه، ولا أعرف حتى شكله، ولا أفكاره، ولكن الرواية تفتح منافذ على حياة وطباع الشعب الروسي من تلك التي لم يحلم بمثلها أحد حتى اليوم، أبداً. وهذه هي أول دراسة، وأول محاولة لكتابة رواية اجتماعية، في بلادنا، ولكن بالطريقة وعلى الشكل الذي يستطيع من يكون فناناً حقيقياً هو وحده الذي يكتبها ويعالج موضوعها، أي بعدم الوعي أو الاهتمام بما سينتج عنها»[1].

١- «انانكوف».

وقرأ «بييلنسكي» بصوت مدوٍ، ومتهدج، ينم عن العصبية، بضع صفحات من رواية: «الناس الفقراء».

وفي المساء، كان الدور لينكراسوف، كي يذهب لاستطلاع الأخبار. فاستقبله «بييلنسكي» بهذه الكلمات البسيطة:

«احضره... احضره بسرعة»...!

وهكذا، فبعد ثلاثة أيام من قراءة «دوستويفسكي للمخطوطة بحضور «غريغوروفيتش»، تعرف على أشهر النقاد ومسجلي الوقائع، وأكثرهم نشاطاً وحماسة، في روسيا.

وقد ترك «تورغينيف» وصفاً موجزاً لهذا الناقد:

«رأيت رجلاً رَبْعَ القامة، وجهه غير متناسق ولكنه يتسم بالأصالة، وشعره الأشقر يتدلى من دون انتظام على جبينه. وتعابير وجهه تنم عن القلق، كما هي الحال، غالباً، لدى الناس الخجولين والذين يميلون إلى العزلة. وأخذ يتحدث إليّ، ثم أصيب بنوبة حادة من السعال، وطلب مني أن أجلس، ثم جلس هو نفسه على الديوان، في الحال، سارحاً بنظراته على أرضية الغرفة، وهو يلف سيجارة بين أصابعه النحيلة والظريفة».

وهكذا، دون شك، رآه «دوستويفسكي»: متجهم الوجه، وقوراً يبدو عليه الانزعاج. ولكنّ «بييلنسكي» تحمس بسرعة كبيرة.

«أخذ يردد لي، مضخماً الكلام، كعادته: أتفهم، على الأقل، أتفهم وحسب ماذا كتبت هنا»؟

«وكان من عادته أن يرفع صوته، حالما ينتابه إحساس قوي. «ذلك لأنك، بكل بساطة، فنان مرهف الحس، وتتمتع بحساسية مفرطة، فقد استطعت أن تكتب عملاً كهذا، ولكنك هل قدّرت كل ضخامة الحقيقة المخيفة التي وصفتها لنا؟ فليس من الممكن أن تكون قد فهمتها، وأنت لا تزال في العشرين من عمرك. وبعد كل شيء، فإن

«موظفك» البائس، قد قام بوظيفته، وخدم بإخلاص، وبأي تفانٍ وإنكار للذات!... وقد وصل به الأمر مع نفسه إلى حد لم يعد يجرؤ معه أن يكون لديه أقل تقدير لذاته، كان يشعر أنه قد انحط إلى درجة انتهى به الأمر معها إلى أنه أصبح يعتبر أقلّ شكوى أو تذمر يبدر منه، هو عبارة عن تجديف وإلحاد. وحتى الحق بالبؤس والشقاء لم يتجاسر على أن يعترف به لنفسه!... الحقيقة ظهرت لك وأعلنت عن نفسها، لأنك فنان، وقد تلقيتها كهبة كبيرة، وعليك أن تقدرها حق قدرها، وأن تظل وفياً لها، فتصبح كاتباً كبيراً».

«دوستويفسكي» منذهل، نشوان، يكاد عقله يختل، يريد أن يعانق ويقبل أيّاً كان، يشكر أيّاً كان، وأن يقسم لأيّ كان، ويعاهده على صداقة خالدة وأبدية. وعندما أصبح في الشارع، شعر أنه يكاد لا يستطيع أن يمشي. توقف عند زاوية الرصيف، وأخذ ينظر! «السماء، النهار، النير الذي تسطع شمسه، المارة» ولكنه لم يعد لديه شيء مشترك معهم. فقد ارتفع لتوه، دفعة واحدة، إلى عالم آخر، يراهم منه كأنهم نمل.

«كنت أقول في سرّي. هل من الممكن حقاً أن أكون قد أصبحت عظيماً؟ بعد أن شعرت بنشوة عارمة. أوه! لا تضحكوا: فأنا لم أتصور على الإطلاق، أني سأصبح رجلاً عظيماً، بسبب ذلك، ولكن هل من الممكن مقاومته ورفضه فيما إذا حصل؟

«أوه! سأكون جديراً بهذا المديح وهذا التكريم، ولكن أيّ رجال هم هؤلاء، أيّ رجال!... سوف أستحق تقديرهم، وسأحاول وأبذل كل جهدي كي أصبح ممتازاً مثلهم. وسأظل وفياً ومخلصاً... وسنفوز وننتصر. أوه، فلأذهب معهم، ولأنضم إليهم»...

والحقيقة هي إنه لم يظل وقتاً طويلاً، في صحبتهم، وفي مناصرته وتأييده لهم.

كان «بييلنسكي» معجباً بالفعل برواية: «الناس الفقراء» ولكنه قرأها وفسرها على طريقته الخاصة. فهو لم ير فيها سوى شرح وتوضيح جميلين لأفكاره الاجتماعية. وقال وهو يشرح موضوعها لأنانكوف: «القضية بسيطة، فقد وجد جماعة من المغفلين الطيبين، يعتقدون أن محبة الجنس البشري هي متعة وواجب كل فرد. ولم يفهموا شيئاً، عندما يدور دولاب الحياة، بكل قوته ومعداته الجاهزة، فيحطم ويطحن بهدوء واطمئنان أعضاءهم وعظامهم. وهذا كل شيء. ولكن يا لها من مأساة! ويا لها من مشاهد، ومن طباع»...!

إنه لم يلاحظ الجانب الإيجابي لدى الشخصيات، ولم يتأثر لخضوعها الصامت والمكتوم، ولطيبتها الفعالة، ولم يدرك أنّ «ماكار دييفوشكين» يساوي أكثر من ضحية، لأنه قبل أن يكون الضحية. ورأى في «الناس الفقراء» ذريعة لثورة اجتماعية، وليس دعوة إلى التعاطف الإنساني بين بني البشر. وقد غضب من الجلادين، ونسي أن يبدي إعجابه بالشهداء.

لندع ذلك، فالمهم هو أنّ الناقد والمؤلف، كل منهما الآن «مجنون» بالآخر. «بييلنسكي» يطلع كل من يريد أن يستمع إليه على اكتشافه الجديد، وقد أصبح هذا الاكتشاف يشكل هاجساً بالنسبة له.

كتب «أكساكوف» بصيغة تنم عن التبرم:

«لقد عثروا على نجم جديد، شخص يدعى «دوستويفسكي» يضعونه تقريباً فوق «غوغول».

الصالونات

لم تكن رواية: «الناس الفقراء قد نشرت بعد، ولكن بفضل «بيلنسكي»، كان المؤلف الشاب يستقبل في الأوساط الأدبية بفضول يتسم بالتعاطف. وكانت تُنظم قراءات لعمله، ويدعى إلى الصالونات. ففقد «دوستويفسكي» صوابه، وأوصى على قبعة للتشريفات من محلات «زيميرمان» المشهورة في ذلك العهد، وأخذ يعتني بهندامه وبملابسه الداخلية، معتقداً أنه شخصية كَ «راستيغناك» (Rastignac)[1] وأصبح يجد جميع الناس لطفاء ومحببين، ويعتبر «بيلنسكي» كوالد ثانٍ له، وكتب إلى أخيه:

«يجب أن أقول لك إنّ «بيلنسكي» قد لقنني درساً، منذ أسبوعين، بشأن الطريقة التي يمكن العيش بها من عمل القلم»...

«وأنا أذهب كثيراً لزيارته، وهو يعاملني معاملة حسنة، بصورة جادة وبأفضل طريقة، وهو يرى بي التبرير لأرائه والبرهان عليها حيال الجمهور... وأصبح أكثر من نصف سكان «سان بطرسبرج» يتحدثون الآن عن «الناس

١- شخصية ابتدعها «بلزاك» (Balzac) في روايته الشهيرة: «الأب غوريو» نموذجاً للوصولي المتأنق، والشخصية تظهر في معظم روايات «بلزاك» التي تشكل المجموعة التي تطلق عليها تسمية: «المهزلة البشرية أو الإنسانية»، والتي يتحدث فيها عن المجتمع الباريسي، وعن أحواله ومشكلاته المختلفة.

الفقراء»... و «غريغوروفيتش» وحده يساوي ثقله ذهباً. وهو، نفسه، قال لي: «أنا مصفقك الخاص»[1].

وهذه الرسالة يعود تاريخها إلى ٨ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٤٥ وبتاريخ ١٦ تشرين الثاني من العام نفسه، لم تكن رواية «الناس الفقراء» قد رأت النور، بعد، ومع ذلك فقد اشتدت نشوة «دوستويفسكي» حتى بلغت حد الزيغ والانحراف:

«أبداً يا أخي، إن مجدي لن يتجاوز الذروة التي بلغها الآن، ففي كل مكان ألاقي احتراماً لا يصدق وصفه، وفضولاً مذهلاً، وقد تعرفت على عدد كبير، بل على جمهور من أرفع الناس مقاماً وأعظمهم نفوذاً. وقد طلب مني الأمير «أودييفسكي» أن أشرفه بزيارة، والكونت «سولوغوب» يئس ولم يعد يأمل أني سأقوم بزيارته: كان «يانييف» قد أخبره بأن هنالك كاتباً موهوباً، سيبزّ جميع الكتاب ويجعلهم يغورون في الوحل. وأخذ «سولوغوب» يركض مسرعاً لدى الجميع، وعندما ذهب لزيارة «كراييفسكي»، سأله: «من هو هذا الذي يدعى «دوستويفسكي»؟ وأين أستطيع أن أعثر على «دوستويفسكي» هذا؟» و «كراييفسكي» الذي لا يجامل أحداً، ويقول الحقيقة للجميع، أجابه بأن «دوستويفسكي» لن يشرفه بزيارته.

وهكذا كان الأمر بالحقيقة. فهذا الأرستقراطي الصغير، يتطاول ويتعالى في هذه الأيام، ويظن أنه يستطيع أن يبهرني بأريحية مجاملاته. وكل الناس ويعتبرونني كأعجوبة. ولم أعد أستطيع حتى أن أفتح فمي، دون أن يرددوا في كل مكان:

١- باللغة الفرنسية في النص الأصلي: «Je Suis Votre Claqueur- Chauffer». - المترجم

«دوستويفسكي» قال كذا... «دوستويفسكي» سيفعل هذا»... والخلاصة، يا أخيّ، فإني لن يكون لدي ما يكفي من الورق لو أردت أن أحدثك عن جميع نجاحاتي الأدبية»...

وأخيراً صدر خبر مهم: «دوستويفسكي» التقى بـ «تورغينيف»:

«تورغنيف» مغرم بي. يا له من رجل، يا أخي! أنا نفسي، كنت قريباً جداً من الوقوع في حبه. إنه شاعر موهوب، أرستقراطي، شاب جميل وغني، ذكي ومثقف - ٢٥ سنة... والطبيعة لم تبخل عليه بشيء، على ما أعتقد. وعلاوة على ذلك فهو يتمتع بطبع في غاية الاستقامة. ومهذب بصورة جيدة، أصدقاؤه من الأكفاء وأصحاب الجدارة، وباختصار، فإن كل ما فيه يدعو إلى الإعجاب... وأنا لدي كثير من الأفكار، ولكن يكفي أن أتحدث عنها لأحد ما، لتورغينيف، على سبيل المثال، وكل «بطرسبرج» ستعرف في اليوم التالي أن «دوستويفسكي» قال أو كتب كذا وكذا»... إنه يتلذذ بشهرته، ويتبختر أمام مرآته، كطفل ارتدى ثياباً جديدة. وهو سعيد بسذاجة وغرور، لا يطاقان. وهذا طبيعي جداً، فيما إذا فكرنا بالعزلة التي كان يعيش فيها، بشكوكه القريبة العهد، فمنذ عهد قريب فقط، كان لا يزال مجهولاً، كان يكتب في جو يكتنفه الضباب، وهو يشعر بأنّ لا أحد سوف يقدر عمله حق قدره. وها هو، بين عشية وضحاها، قد أخذ المجهولين يقرؤون عمله، يفهمونه، يعجبون به، ويسعون للاجتماع به ومرافقته. وليس هنالك مغرور أسوأ من ذلك الذي ظل خلال زمن طويل ينكر على نفسه الحق، بأن يكون كذلك.

وفضلاً عن ذلك، فإن تبجحه كان كتابياً صرفاً، فحالما لم يعد وحيداً أمام ورقته، يعود إلى خجله الأولي. فهو يخشى بأن يكون غير جدير بدور الشخصية التي يجعلونه يمثلها. ولديه إحساس بأنه يغش بطريقة تفتقر إلى المهارة، وان كل من يراه يلاحظ لعبته ويسخر منه.

وأتى الكونت «سولوغوب» لمقابلته بعد قراءته لرواية: «الناس الفقراء»، فوجد نفسه أمام شاب شاحب الوجه، ينم مظهره عن المرض. وقد كتب فيما بعد، قائلاً عنه:

«كان يرتدي لباساً منزلياً يكاد يكون بالياً، أكمامه قصيرة جداً، بحيث يخيل لمن يراها إنها قيست وفصلت لشخص آخر، وليس له. وعندما ذكرت له اسمي، وحدثته بكلمات مختارة عن شعور الدهشة العميقة التي أحدثتها لديّ قراءة روايته، بدا حائراً، منزعجاً، وقدم لي الأريكة الوحيدة الموجودة في الغرفة، وهي قديمة متداعية.

مكثت عنده زهاء عشرين دقيقة، ورجوته أن يذهب ليتناول طعام العشاء في منزلي. والحقيقة هي أنّ هذه الدعوة على بساطتها قد أرعبت «دوستويفسكي»، وقد احتاج الأمر لانقضاء شهرين لكي يحزم أمره ويقرر الحضور، بشكل مفاجئ، إلى منزلي»[1]

«انتابه الرعب»: إنها بالضبط العبارة المناسبة: إذ إنّ «دوستويفسكي» يبدو متحمساً ومرعوباً، في أن معاً، وكل هذا أجمل مما ينبغي وأسهل مما ينبغي. فهو منبهر، كمن أفقدته القدرة على الرؤية الأنوار الساطعة. وهو يعانق أعداءه. ولا يتصور أن أحداً يمكنه ألا يحبه، لأنه يحبّ كل الناس.

«هؤلاء، الناس الطيبون لم يعودوا يعرفون كيف يعبرون لي عن حبهم، فمن أول واحد بينهم إلى آخر واحد، جميعهم مغرمون بي»...

ومع ذلك، ففي صالون الموسيقا، في منزل الكونت «فيلفورسكي» حيث ذهب مع «بيلنسكي» انتابه إحساس واضح وقوي «بأنه يعرض في مشهد على أحد المسارح». وفي ذلك الصالون نفسه، عندما كسر

١- من مذكرات «سولّوغوب».

«بيلنسكي»، دون انتباه منه، كأساً، سمع «فيدور» الكونتيسة «سولوبفوب» تتمتم، خلفه:

«لو أنهم لم يكونوا سوى غير أكفاء ومتوحشين، ولكن ويا للأسف! فإنهم ليسوا حتى أذكياء».

وقد علم أخيراً أنّ بعض الزملاء يعيبون عليه طلبه أن تزين طباعة روايته «بإطار خاص».

وبعد ذلك ببضع سنوات، عندما كان «دوستويفسكي» في سيبيريا، حذر «تورغينيف» «ليونتيف» من شعور الكبرياء، الزائد عن الحد المعقول، الذي يعاني منه بعض المبتدئين.

«كذلك المسكين «دوستويفسكي»، عندما أعطى روايته إلى «بيلنسكي» لكي ينشرها، كان ذلك البائس قد فقد صوابه إلى درجة أنه قال له: «يجب إحاطة نصوص روايتي ببعض التزيينات».

والقضية لم تتوضح أبداً. وفي سنة ١٨٨٠، أي قبل وفاته بسنة، احتج «دوستويفسكي» غاضباً على هذه الأسطورة في صحيفة «الزمن الجديد».

ومع ذلك فإنّ «أنانكوف» يدعي أنه رأى «بروفات» الطباعة، محاطة بإطارات تزيينية، و «غريغوروفيتش» نفسه، لا يجرؤ على نفي ذلك الزعم. ولكنّ الرواية نشرت دون أيّ تزيينات.

ومع ذلك، فمن الممكن أن يكون «دوستويفسكي» وقد انتشى، وأفقدته صوابه التهاني والمدائح التي وجهت له، قد طلب، فعلاً، من الناقد أن يقدم طباعة عمله بشكل جديد وجذاب. لأنّ أي تصرف ينم عن الحذلقة أو التفاخر، لم يكن مستغرباً منه، ولا ينبغي أن يندهش منه أحد، في تلك الفترة، لأنه كان متعب الأعصاب، لم يعد يعرف ماذا يفعل ولا ماذا يريد.

ومما كتبه «باناييف»:

«كدنا نجعل أحد أصنام أيامنا هذه، يفقد صوابه... وقد انتهى به الأمر إلى الشرود والهذيان، وبعد ذلك بقليل أنزلناه من مقامه وطواه النسيان تماماً. فيا له من مسكين! لقد قضينا عليه. وجعلناه سخرية الجميع»[1].

وأثناء إحدى حفلات الاستقبال، اصطحب أحدهم «دوستويفسكي» لكي يقدمه إلى إحدى شابات المجتمع الجميلات: «السينيافينا» (La Seniavina) فوجد نفسه أمام فتاة شابة، لها شفتا طفل، تزين وجهها خصل ضخمة من الشعر الأشقر، عيناها هادئتان وباردتان. فتهيأت لتوجه له ثناءً عادياً بشأن عمله. ولكن وجهه شحب، وأخذ يترنح وهو فاقد الوعي. فنقل إلى غرفة مجاورة، لإسعافه، وهناك، أحضروا زجاجة «كولونيا» ورشوا وجهه بماء الكولونيا لإنعاشه.

وبعد مرور بعض الوقت، ألف «تورغينيف» («تورغينيف» مغرم بي) و «نيكراسوف» («شاعر البسطاء، العذب») قصيدة هجاء، تجد هذه الحكاية، مكانها فيها:

أيها الفارس الحزين الهيئة،
«دوستويفسكي» أيها المتبجح المحبوب
أنت تبدو أحمر اللون كدمل صغير جديد
على أنف الأدب
وعما قليل سيرسل سلطان تركيا
وزراءه نحو مقرك
ولكنك عندما سقطت في حفلة استقبال اجتماعية
بين جماعة من الأعيان والأمراء،
- يا أسطورة ومشكلة الزمن الحالي

١- من مذكرات «باناييف».

كنجمة تنطلق أو كنيزك يهوي

ولويت أنفك كالبوق

أمام جميلة شقراء،

عند ذلك أخذت تتأمل تلك الفاتنة الحسناء

بجمود شديد المأساوية، بحيث كدت

تموت بسببها، وترحل وأنت في زهرة العمر...

وأخذ الزميلان الصغيران، يساعدهما في ذلك «أنانكوف» ينشران عن «دوستويفسكي» قصصاً معيبة.

ألم يكن يعرف شيئاً عنها، أم أنه كان يتظاهر بأنه لا يعرف عنها شيئاً؟

وتلقّى دعوة من آل «بانابيف». فتهيأ لها وتزين وتعطر كما لو أنه ذاهب إلى موعد غرامي. ودخل أخيراً إلى الصالون الكبير، الذي زادت في بهائه واتساعه الأضواء الساطعة والمرايا الواسعة. ومن النظرة الأولى قيّمته السيدة «بانابيف» وحكمت عليه، فقد كتبت في مذكراتها:

«منذ البداية، يدرك المرء أنّ «دوستويفسكي» شاب عصبي للغاية، ويتأثر بسرعة. وهو ذو قامة متوسطة، نحيل الجسم، أشقر اللون، ولكن لون بشرته ينم عن المرض. وحدقتاه الصغيرتان الرماديتان تنزلقان من غرض إلى آخر، بشكل ينم عن القلق، وعلى شفتيه الباهتتين تبدو تقلصات خفيفة».

وشكراً لله، فهو يعرف تقريباً كل الناس! ولكن عن أي شيء سيتحدثون معه، وعن أي شيء سيتحدث معهم؟ فهل يستطيع أن يكون على قدر شهرته وفي مستواها؟ وهل سيتمكن من التمييز بين السخرية المبطنة والمديح الصادق؟

إنه منزعج، متكلف، ومتعالٍ، وهو لا يفكر إلا بالهرب بأسرع ما يمكن، والعودة إلى غرفته الصغيرة، السيئة الإضاءة الموبوء جوها برائحة التبغ، والمكدسة فيها الكتب والدفاتر والأوراق. يريد أن يكون في عزلة، وحده، بمفرده!...

وهو سيعود، مع ذلك:

فقد كتبت أيضاً، السيدة «بانابيف»

«كثيراً ما كان يأتي «دوستويفسكي» مساءً. لقد زال ارتباكه، بل لقد أخذ يبدي بعض الدعابات التي تتسم بالمشاكسة يجري مناقشات مع الجميع، ويعاكس من يتحدث إليهم، بدافع من العناد».

إنه الفعل المنعكس أو رد الفعل الذي يبدر من الخجول. فهو يهاجم خوفاً من أن يهاجم. ويتعالى خوفاً من أن تنخفض قيمته. وهو يعتقد أنه متألق، بينما هو لا يطاق. ويعتقد أنه مرح خفيف الروح، والحقيقة فهو شرير وغبي. ويعتقد أنه يلتفت ويستدير بأناقة ارستقراطية، بينما يسمع الجميع الصوت الذي يحدثه حذاء الفلاح، الثقيل الذي ينتعله.

والزملاء الصغار ينقضون كمجموعة من الذباب الكبير على تلك الفريسة السهلة. إنهم يسخرون منه ويشبعونه وخزاً ومشاكسة «تورغينيف»، على الخصوص، كان قد أصبح معلماً في هذه اللعبة.

كان يتناقش مع «دوستويفسكي»، وهدفه الوحيد من ذلك هو إزعاجه ومضايقته»[1].

كان البائس يستاء، يأخذ الأمر على محمل الجد، يتطرف بآرائه ويتجاوز حدود المعقول، فيضحك من حوله الجميع.

١- السيدة «بانابيف».

كان الأسلوب الدارج في الأدب، هو السخرية والاغتيابات والاجتماعات الحميميّة، والمؤامرات. وكان «دوستويفسكي» تتقطع أنفاسه ولا يستطيع أن يلتقطها في هذا الجو الموبوء.

«لا تكرر ذلك، ولكن هل تعرف ماذا يقول فلان عنك؟

وبالمناسبة، كن حذراً من فلانة».

هيا، الأمر في غاية البساطة، الجميع يغارون منه! و «بيلنسكي» نفسه لم يعد يحبه، لأنه يلعب الورق، بدلاً من أن يحدثه عن رواية «الناس الفقراء».

ويصيح «فيدور ميخايلوفيتش»:

«كيف يمكن لرجل ذكي أن يعطي، حتى ولو عشر دقائق من وقته، لتسلية سخيفة كلعب الورق؟... حقاً، ليس هنالك شيء يميز مجتمع الموظفين عن مجتمع الأدباء:

إذ إنّ لهم جميعاً التسليات السخيفة، نفسها».

وأثناء ذلك، كان «بيلنسكي» يراقبه من طرف خفي فقال بصوت خافت لينكراسوف، رفيقه في لعب الورق:

«ماذا به «دوستويفسكي»؟ إنه يتفوه بكثير من الحماقات، وبأيّ حدة وحماسة»!

وكتبت السيدة «باناييف»:

«عندما كانوا يرددون أمام «بيلنسكي» أنّ «دوستويفسكي» يعتبر نفسه عبقرياً، كان يهز كتفيه ويقول: «يا للمصيبة! لأن «دوستويفسكي» لديه موهبة لا يمكن إنكارها، وإذا كان، بدلاً من أن يعمل ويحاول تنميتها وإبرازها يتصور أنه عبقري، فإنه لن يتقدم أبداً. ويجب من كل بد أن يعتني بنفسه، وربما كان بحاجة للمعالجة، لأن كل ذلك ينجم عن توتر عصبي في غاية الشدة».

وأضافت السيدة «باناييف»:

«روى «تورغينيف»، ذات يوم أمام «دوستويفسكي» إنه التقى في الريف برجل يعتقد أنه عبقري، وأخذ يصف بمهارة وحزم ملامح الشخصية، المضحكة. فشحب وجه «دوستويفسكي» وأصبح باهت اللون، وانسحب هارباً قبل انتهاء القصة. عند ذلك، قلت للأشخاص الحاضرين:

- لماذا تعذبون «دوستويفسكي»، هكذا»؟...

و «دوستويفسكي» هرب، إلى خارج القاعات الكبيرة الحسنة الإضاءة. وهو يركض، مسرعاً عبر الشوارع الخالية. ويعود إلى غرفته، ليلقي بنفسه على ديوانه، لكي يجتر بمزيد من الراحة نقمته وغيظه.

أن يسخر منه أولئك الأوباش، رواد الصالونات! يا للعار! فليضربوه، ولكن شريطة أن يجنبوه الغمزات واللمزات الساخرة!

فهل كان مضحكاً بما فيه الكفاية، في تلك الأمسية وحدها!

لقد ضحكت منه السيدة «باناييف»، فصعدت موجة من الدم إلى خديه.

وهو يتخيل وجهها الجميل بلونه الكامد، وعينيها الواسعتين، السوداوين، وابتسامتها الساخرة. وأن تكون هذه المخلوقة التي تثير الإعجاب، زوجة «باناييف» فهذا الأمر كان يثير لديه الغثيان. فهي تستحق أفضل من ذلك. وماذا تستحق؟ ومن تستحق؟ هل تستحقه، هو؟ لقد عكست له المرآة صورة شاب ساذج، وجهه ترابي اللون، شعره شاحب. فكم هو قبيح! وكم هو حزين!

وبدقة الخبير العارف، أخذ يبالغ بيأسه. وانهمك في لعب الميسر، كان ينقصه ولع بائس لكي يكمل مصيبته. وسيحصل عليه، بل لقد حصل عليه. ولامس قاع الضيق والشدة البشريين.

وكتب إلى أخيه:

«لقد أحببت السيدة «باناييف» بصورة جدية».

كل شيء جميل في هذه المرأة: وجهها، روحها، حياتها. فهي ابنة الممثل «بريانسكي» وقد ربت نفسها بنفسها. وأحبت «باناييف» وهي في الثامنة عشرة من عمرها، فتزوجها بالسر، لأن أمه التي عارضت هذا الزواج، غيرت رأيها فيما بعد.

ويروي «بييلنسكي»، ما يلي:

«لقد هددت أم «بانابيف» ابنها، بأنها ستنتحر وتموت إذا تزوج تلك الفتاة، ومع ذلك، فما زالت على قيد الحياة، ومن المحتمل جداً أنها ستقبر ابنها وكنتها».

والشابة «أدفوتيا بانابيف» تكتب بقلم ساحر وتمزح قليلاً، تتحلى بالأناقة وخفة الروح اللتين يفتقدها «دوستويفسكي» فماذا لو باح لها بحبه؟ وماذا لو وجه لها أشعاراً، كما يفعل أحد عشاقها، «سوشكوف»؟ إنه لن يجرؤ على ذلك، أبداً.

ولأنه قرف من نفسه ومن الآخرين، ذهب ليبحث عن النسيان في الفسق والفجور. وأخبر «بييلنسكي» مسبقاً بذلك، فوبخه شكلاً ومراعاة للعرف، وأوصاه بأن يلتزم بعفة معتدلة.

وسر «دوستويفسكي» ضمناً، لأنه سبب بعض القلق لصديقه.

وكمن يذهب للقيام بحملة، فقد اقتحم عالم الجنس.

وقد كتب إلى أخيه، ما يلي:

«آه! هؤلاء، اللواتي أسماؤهن: «كلارا»، «مينا»، «مريان» كم أصبحن جميلات، إنهن يكلفنني ثمناً باهظاً.

وكان يحاول التشبه بالشهواني، طالب المتعة المحترف، ويهاوي الدخول إلى المخادع والتفتيش فيها، ولكنه، دون شك عندما كان يعود إلى غرفته، يشعر بالذعر من فعائله، ويتمضمض لكي يطرد مذاقاً، يقرف منه ويثير لديه الغثيان.

وقد كتب الدكتور «يانوفسكي»:

«في أحاديثي معه (من سنة ١٨٤٦ إلى سنة ١٨٤٩) لم أسمعه أبداً يقول بأنه قد توله غراماً بأحد، ولا حتى إنه أحب امرأة، وحسب».

فالتي يحبها لا يتحدث عنها، لأنه يعجب بها. والأخريات؟

إنه لا يتحدث عنهن، لأنه يحتقرهن. وكل يوم جمعة، كان يذهب إلى منزل «أل باناييف»، فيجد هناك «أنانكوف» السمج، الذي يكون على الدوام، متفقاً بالرأي مع من يتحدث إليه، و «سولوغوب» الوقور، بنظارته ذات العدسة الواحدة، المثبتة على عينه. و «تورغينيف» الكريه، الذي يتشبه بالرجل النبيل، أي كل زمرة خصومه، وكل حلقة صحيفة «حوليات الوطن»، وكل «جماعتنا».

ومن جديد، أخذ يتألم، ومن جديد أصبح يغتاظ ويغضب، ومن جديد، صار «يتفوه بحماقات» كان لا بد من أن تنتقل من صالون إلى آخر.

وذات يوم، رأته السيدة «باناييف» يخرج راكضاً من مكتب «نيكراسوف»:

«كان شاحب الوجه، كالميت، ولا يستطيع أن يضع يده في كم المعطف الذي يقدمه له الخادم. وأخيراً انتزع منه المعطف، واندفع مسرعاً على الدرج. وعندما دخلت إلى مكتب «نيكراسوف» وجدته حانقاً، وقال لي بصوت يرتعش من شدة الانفعال:

- «دوستويفسكي»، بكل بساطة، لقد أصبح مجنوناً! من الذي روى له هذه الأسطورة المختلقة؟ فهو يدعي أني أقرأ لمن يريد أن يستمع لي أبياتاً شائنة من الشعر الكريه، نظمتها عنه!...

والواقع، هو أن الأمر لم يكن عبارة عن أسطورة مختلقة و «بافلوفسكي» من جهته، يروي أنه قد اجتمع، ذات مساء مع «أوغاريف»، «بييلنسكي» و «هيرزين» في منزل «تورغينيف» لكي يلعبوا الورق. وعندما

القى أحدهم نكتة ظريفة، فهقه الجميع ضاحكين. وفي تلك اللحظة، بالذات، فتح الباب، وبدا «دوستويفسكي» عند العتبة وهو يهم بالدخول، فنظر إلى المدعويين، شحب وجهه وانسحب مسرعاً.

وبعد ساعة، وجده «تورغينيف» في الباحة، يمشي في كل الاتجاهات، ممتقع الوجه، مضطرباً، حاسر الرأس، على الرغم من الرياح والبرد الشديد.

«ماذا بك، يا «دوستويفسكي»؟

- يا الهي! إنّ هذا لا يطاق! ففي أي مكان أتواجد فيه يسخرون بي وقد رأيت تماماً، كيف أخذتم تضحكون عندما رأيتموني»!...

إنهم يضحكون منه في كل مكان، ولا يعرف ما الذي يضحكهم. أفلا تكفي الموهبة لفرض الاحترام؟ آه! لو أن «الناس الفقراء» يمكن أخيراً أن تُنشر. إذن لسدّ مديح الصحفيين أفواه هذه الطيور الصغيرة المؤذية. ولكن نشرها تأخر. والرقابة لم تصدر قرارها بعد.

وكتب «دوستويفسكي» إلى أخيه:

«إنها لمصيبة، فالرقابة لم تعد تعطي إشارة تدل فيها على أنها على قيد الحياة... والرواية مسالمة، ولا يمكن أن تؤذي أحداً ومع ذلك فهم يجرجرونها، ويحولونها من مكتب إلى آخر، ولا أدري كيف سينتهي كل هذا»!...

من «البديل» إلى
«مؤجّرة الغرف المفروشة»

بتاريخ ١٥ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٤٦ نُشرت رواية: «الناس الفقراء» في «ألمنا» (تقويم) نيكراسوف»، وفي «روكوي» (مجموعة) سان بطرسبرج. فأسرع «بيلنسكي» لينشر في صحيفة «حوليات الوطن» تحليلاً يشيد فيه بالرواية ويكيل لها فيه المديح:

«إثارة الضحك، وملامسة روح القارئ، وإرغامه على الابتسام عبر دموعه، فيا لها من مهارة، ويا لها من موهبة»!...

ولكن لم يلحق به زملاؤه في باقي أرجاء الصحافة الواسعة.

وكتب «دوستويفسكي» إلى أخيه «ميشيل»:

«لقد نشرت رواية: «الناس الفقراء» يوم الخامس عشر من الشهر الجاري، فلو أنك تعلم، يا أخي، أيّ شتائم مجنونة استقبلتها في كل مكان!... ففي صحيفة «الالستراسيون» (Lillustration) ليس من النقد بشيء ما قرأته، بل مجموعة من الشتائم واللعنات.

وفي مجلة «نحلة الشمال»، يعرف الشيطان وحده ما نشر بحقي!

ولكني أتذكر بدايات «غوغول، ونعرف جميعنا كيف استقبل «بوشكين».

فالجمهور نفسه، ثار وفقد وعيه.

«إن ثلاثة أرباع القراء يجرجرونني في الوحل، والربع الآخر (وربما أقل) يكيل لي المديح بحرارة. وقد فتحت مناقشات ومجادلات حادة ومخيفة. إنهم يشتمونني، ويشتمونني، ومع ذلك فهم يقرؤون روايتي... آه! لقد ألقيت لهم عظماً «ليعروشوه» ويقضموه. فليقضموه إذن: إنهم يعملون لمجدي ولنشر شهرتي، هؤلاء المغفلون!... ولكن، بالمقابل، أي ثناء وأي مديح، اسمع، في بعض الأحيان، يا أخي! تصور أنّ كل «جماعتنا» وحتى «بيلنسكي» يعتبرون أني قد تفوقت كثيراً على «غوغول»... ويرون بي نبعاً بل مصدراً أصيلاً (بيلنسكي والآخرون)، بمعنى أني أتبع طريقة ومنهج التحليل، وليس التركيب، وهذا يعني أني أتجه إلى الأعماق، وأني عندما أفتت الذرات، أكتشف الكل بكامله. أما «غوغول» من جهته، فهو يتناول الكل كما هو وكما يبدو له، ولذلك فهو أقل عمقاً مني»...

كم هذا بسيط! فها هو «دوستويفسكي» وقد ارتفعت معنوياته وعلا مقامه. إنهم ينتقدونه، يمتدحونه ويهتمون به.

ويكاد كتابه أن يفصل بين الأصدقاء والأعداء الحقيقيين، ويخلق معسكرين من الجنود المخلصين، في ميدان فسيح ومفتوح، والمناوشات لم تعد ممكنة. آه! إنها الحرب الجميلة!...

ودون أن ينتظر «دوستويفسكي» نشر رواية: «الناس الفقراء» كان قد بدأ بكتابة رواية ثانية: الشبيه، أود «البديل» والرسائل التي كتبها إلى أخيه فيها كثير من الإشارات إلى «رائعته» الجديدة.

«اياكوف بيتروفيتش غوليادكين» (بطل هذه الرواية) كما يؤكد طبعه، وغد حقيقي، لا يمكن أن يعرف أحد كيف يمسك به أو كيف يتعامل معه: فهو لا يريد أن يتقدم بحجة أنه ليس جاهزاً...

ويرفض أن ينهي عمله قبل شهر تشرين الثاني (نوفمبر) (٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٤٥.

رواية «غوليادكين» تسير بشكل جيد على طريق ممتاز: وستكون إحدى «روائعي الأدبية» (١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٥).

«غوليادكين» تتفوق على «الناس الفقراء» وهي أفضل منها بعشر مرات. و «جماعتنا» يقولون إنه لم يكتب مثلها، بعد رواية «الأرواح الميتة»: (Les Ames Mortes) في روسيا، وإنها عمل مبتكر ينم عن العبقرية، ولا أدري ماذا يقولون أيضاً»!؟... (الأول من شباط (فبراير) ١٨٤٦).

وبالفعل، فإن الفصول التي قرأها «لأصدقائه» من رواية «البديل» أحدثت لديهم تأثيراً قوياً:

ويروي «غريغوروفيتش» أنّ «بيلنسكي» كان جالساً قبالة المؤلف، يلتقط على الهواء وبشغف أبسط كلمة يتفوه بها، وأحياناً، لم يكن يستطيع أن يكتم إعجابه، فيردد بأنّ «دوستويفسكي» وحده هو الذي يستطيع اكتشاف خفايا النفس البشرية بمثل هذه الدقة».

وحتى سنة ١٨٧٧؛ كان «دوستويفسكي»، مع اعترافه ببعض نقاط الضعف الموجودة في الكتاب، لا يزال يكتب:

«الفكرة في الرواية جميلة، بالقدر الكافي، وأنا لم أعالج فكرة أكثر أهمية وخطورة منها طوال حياتي العملية».

وإليك القصة:

الموظف «غوليادكين» شنيع وكريه. لشدة خشيته القاتمة، وخجله الشديد، وتواريه الذي يدفعه إليه الفقر المدقع، يلتقي ذات يوم «بديله» الذي يشبهه تماماً.

«السيد «غوليادكين» عرف تماماً زائره الليلي. والزائر الليلي كان هو - نفسه. السيد «غوليادكين» شخصياً، سيد «غوليادكين» آخر، ولكنه مماثل تماماً في كل النقاط ومن كل الجوانب، للحقيقي، وبكلمة واحدة «الضعف» أو «البديل» بكل معنى الكلمة».

وبقدر ما يبدو «البديل» انتهازياً، وقحاً، سمجاً، ماكراً، مداهناً وشريراً، كان «غوليادكين» يبدو متواضعاً، بليداً وشريفاً. وذلك الشخص السيئ استولى بسرعة على هوية السيد «غوليادكين»، وخطف علاقاته وأفقده تقدير رؤسائه، وحل محله، ألغاه وحوله إلى ظل موحش. والثنائي «غوليادكين» لا يمكن أن يتواجدا جنباً إلى جنب. والأقوى منهما قتل الأكثر ضعفاً. الشرير قتل الطيب. وعاد كل شيء إلى النظام.

وهذه القصة الطويلة، أعطاها «دوستويفسكي» كعنوان: «قصيدة». وكان عليه فيما بعد أن يتحدث عنها باعتبارها «اعتراف» وكانت اعترافاً، بالفعل، لم يستطع معاصروه اكتشافه خلف حكاية رويت على طريقة «هوفمان» الكاتب والملحن الألماني الذي كان يمزج السخرية بالخيال الخارق للعادة وللطبيعة.

و «غوليادكين»، هو الدخيل الأبدي، والغريب الأبدي، غير المرغوب فيه: «أنا وحيد، وهم كثيرون».

وهذا البائس الذي يدخل إلى صالون «أندريه فيليبوفيتش، حيث الجميع معادون له، ويشعر أن نظرات الحاضرين، الساخرة، تنصب عليه، الذي يحاول أن يبرر عمله ويفرض وجوده، ولكنه يرتبك ويفقد رباطة جأشه فيجن جنونه، ويريد أن ينصرف، ولكنه لا يستطيع أن يحزم أمره وينفذ رغبته، أليس هو المؤلف بالذات، في وسط الندوات الأدبية؟

وعندما نال «غوليادكين» حظه الوافر من الإهانات، وعندما هرب من المنزل الذي تسطع فيه الأضواء، لكي يركض على طول أرصفة النهر وبمحاذاتها، «هارباً من أعدائه ومتخلصاً من تعذيبهم له، ومن وابل الوخزات التي يوجهونها له» أليس بـ «دوستويفسكي» إنما نفكر؟ أليس هو الذي نتذكره في تلك «الليلة الفظيعة، الرطبة، التي يكتنفها الضباب، وينهمر فيها المطر، ويتساقط الثلج. والتي تسبب الالتهابات والنزلات الصدرية

والحميات المختلفة، وباختصار، جميع هدايا شهر تشرين الثاني (نوفمبر) التي يقدمها لسكان «سان بطرسبرج»؟

نعم، هذه العودات الذليلة التي يقوم بها «غوليادين» هي عوداته، وارتياح «غوليادين» عندما يعود ويتواجد في غرفته المعتمة، بعد أبهات حفلة الرقص، هو ارتياحه أيضاً. وجزع «غوليادين» أمام الفتاة الشابة الجميلة «كلارا ألسوفيفنا» هو جزعه حيال «لاسينيافينا» أو حيال السيدة «بانابيف». «والسيد «غوليادين» كان شاحباً ومضطرباً تماماً. وبدا وكأنه قد أصابه تعب مفاجئ. وكان بالكاد يستطيع أن يتحرك».

ولكنّ الآخر، «غوليادكين» المزور، ولكن ماذا عن «المغتصب»، كما يسميه «دوستويفسكي»؟

إيه، حسناً! ولكنه هو «دوستويفسكي» أيضاً. «دوستويفسكي» النجاح، «دوستويفسكي» الاجتماعي، الذي يستجدي الثناء والمديح يبحث عن الصداقات ويناضل ضد طبيعته. ويتثبت ازدواج الشخصية: فمن جهة، «فيدور ميخائيلوفيتش» الحقيقي، المتواضع، الحزين والغضوب ومن جهة أخرى «فيدور ميخائيلوفيتش» الذي أفسده النجاح، والذي يجلس ظهره ويرفع رأسه، الذي يتبختر ويهاجم كيفما اتفق وخبط عشواء. و «فيدور ميخائيلوفيتش» الحقيقي يحتقر شبيهه أو «بديله» الكريه. فهو يشعر أنّ هذا البديل يكاد يستبعده ليحل محله.

وهو يخشى أن يجذبه سحر ومفاتن مجد سهل المنال، ويخشى الاستسلام إلى هؤلاء الناس الذين لا يغفرون له توصله إلى ما وصل إليه. ويخاف من أن يصبح غير ما كان هو نفسه. وعندما يختفي «غوليادكين» الحقيقي، «ترافقه الأصوات والصراخ الحاد، غير الإنساني الذي يرسله أعداؤه» يظل بديله البشع سيد الموقف.

والحقيقة هي أن فكرة «البديل» والازدواجية، قد لاحقت «دوستويفسكي» ولازمته طوال حياته. فعقوبة المجرم هي أولاً انشطار أي انفصام شخصيته، فيظهر الشبيه أو «البديل» ويتجسد، بديل هو الشخص نفسه، وليس هو نفسه. «بديل» على صورته الكاريكاتيرية البشعة والمخيفة، المرآة التي تعكس المنظر مشوهاً، حيث يبدو وجهه البشري منتفخاً ومتورماً من كثرة البثور والقروح، تبدو عليه سيماء الانهيار وهو يتلقى ويعكس علامات حياة نفسية داخلية كريهة وشريرة.

و «الرسكولنيوف» في رواية «الجريمة والعقاب» يعرف نفسه في «سفيدريفاييلوف» السافل: «إيه، حسناً، ألم أقل لك أنّ بيننا صفة مشتركة»؟

وفي رواية «المراهق، «فيرسيلوف» يتعرض للازدواجية نفسها التي تعرض لها «غوليادكين»: «اسمع، يبدو لي تماماً أني قد ازدوجت... نعم لقد ازدوجت وانشطرت في الفكر إلى اثنين، وأنا خائف ذلك كما لو أنّ شبيهاً لك يبرز فجأة بجانبك، وأنت ذكي، عاقل، بينما يريد الآخر، دوماً وبطريقة واحدة، أن يرتكب أخطاء غير معقولة، بل ويريد أحياناً القيام بخدعة أو بمقلب»...

والستافروغين في رواية «المهووسون» يجد نفسه في «بييرستيبانوفيتش» المحرض على الثورة: «أنا أضحك من قردي» هذا ما يقوله له، والآخر، بعد ذلك بقليل، يجيبه: «أنا مهرج، ولكني لا أريدك، وأنت النصف الأفضل مني بالذات أن تكون مهرجاً».

وعندما يتحدث «ستافروغين» عن الشيطان، لا يكون أقل وضوحاً: «أنا لا أؤمن به إني لم أؤمن به بعد. فأنا أعرف انه هو أنا» بمختلف الجوانب والأشكال، وإني أنشطر وأزدوج، وأتكلم مع نفسي»[1].

١- هذا المقطع حذفه «دوستويفسكي» في الطبعة الأخيرة والنهائية.

«إيفان كرامازوف» يرى الشيطان في هذيانه. وهذا الشيطان هو نفسه بالذات، هو ظله المحمول. إذ إن «إيفان» يقول: «عندما تشتم نفسك أنت تشتمني، فأنت أنا بالذات، ولكن بوجه آخر... وكل ما هنالك أنك تختار أفكاري الأكثر حماقة».

ويقول أيضاً: «كل ما كان لدي من غباء ومن بهيمية، وكل ما هضمته وطرحته منذ زمن طويل، باعتباره قذر كالقمامة، تجلبه لي وكأنه شيء جديد وسلعة مستحدثة. فكيف استطاعت روحي أن تنتج شخصاً حقيراً وتافهاً على شاكلتك»؟...

والخادم «سمير دياكوف» هو أيضاً صورة ساخرة للشاب «ايفان كرامازوف»: «في روحه كان قد استقر المهرج «سمير دياكوف».

وفيما بعد قال «بودلير»:

«يوجد لدى كل إنسان نزعتان متزامنتان، إحداهما تشده نحو الله، والأخرى تشده نحو الشيطان».

وهذه الفكرة التي عبر عنها «دوستويفسكي» كثيراً وبوضوح في أعماله التي كتبها في مرحلة النضج والكهولة، أفسدها في رواية «البديل». ذلك لأنه لم يستطع أن يجعل تأثير «غوغول» يسيطر عليه.

ورواية «البديل» ليست مستوحاة من رواية «غوغول»: «الأنف» وحسب، بل هي محاكاة لرواية «غوغول»، وتمرين مدرسي تطفو فيه على السطح، وتلفت النظر، جمل كاملة لغوغول.

ورواية «غوغول» هي قصة موظف، انفصل أنفه وأخذ يعيش حياة مستقلة تماماً. ورواية «دوستويفسكي» هي قصة موظف، انشطرت روحه، لدرجة أنّ كلا من جزئيها قد اكتسب ذاتية أي شخصية تامة وكليّة.

والفصل الثاني في «الأنف» يبدأ بهذه الجمل:

«استيقظ «كوفاليف» المشرف على المدرسة الثانوية، باكراً جداً، أرسل صوتاً من بين شفتيه: «برر»... تمطى وأعطى أمراً بإحضار مرآة صغيرة، كانت موجودة على المنضدة، كان يريد أن يتأمل دملاً صغيراً نبت له، مساء الأمس، على أنفه».

ورواية «البديل» تبدأ هكذا:

«كانت الساعة تقارب الثامنة صباحاً، عندما استيقظ المستشار المختص «إياكوف بيتروفيتش غوليادكين»، بعد نوم طويل، تثاءب وتمطى، وفتح أخيراً جفونه... وبعد أن قفز من سريره، أسرع في الحال إلى مرآة صغيرة مستديرة، كانت موجودة على الخزانة الصغيرة، وقال السيد «غوليادكين» في سره: «يا لها من قصة» لو أنّ دملاً نبت لي في وسط وجهي»!

والتوازي يمكن متابعته عبر الكتاب كله. بل وأكثر من ذلك: فعمل «دوستويفسكي» تكثر فيه عبارات، مثل: «التقيا أنف مقابل أنف. سبب لنفسه لكمة على أنفه، دس أنفه في مكان مّا، أبدى أرنبه أنفه، الخ»...

وعند تصحيح عمله من أجل إعادة نشره في طبعة جديدة، اضطر «دوستويفسكي» إلى إزالة معالم النقل والتقليد، ومن أجل ذلك، كان عليه أن يلغي ويستبعد من نصه أكبر عدد ممكن من الأنوف» وكانت هذه العملية عبارة عن مجزرة حقيقية.

ولكنها لم تكن كافية لإنقاذ «البديل» التي ظلت «على غرار» رواية ذات فكرة مبتكرة تنم عن العبقرية.

وعلى مدى القصة، تتلقى الشخصيات التحية، ونعثر على التشنجات والعادات المستهجنة، ونتبين مزاج ودعابات «غوغول» وقد اعترف «دوستويفسكي» نفسه بخطئه، فور نشر «غولیادكين».

فقد كتب إلى أخيه «ميشيل» بتاريخ الأول من نيسان (أبريل) ١٨٤٦:

«ها أنا أقول لك ما الذي يحزنني ويغيظني: إنّ «جماعتنا» وعلى رأسهم «بيلنسكي» مستاؤون مني بسبب رواية «غوليادكين». كان رد فعلهم الأول الإعجاب دون تحفظ، الصخب والضجيج، وتلا ذلك كثير من المناقشات. ورد فعلهم الثاني كان النقد.

«والحقيقة هي أنهم، جميعاً، باتفاق مشترك - أي «جماعتنا» والجمهور - رأوا أن رواية «غوليادكين» مملة وهشة وأني قد أثقلتها لدرجة أنها أصبح من الصعب قراءتها...

«وفيما يتعلق بي، فأنا، في الوقت الحاضر، محبط وحزين، بسببها. والحقيقة هي أن لديّ نقيصة فظيعة: كبرياء، بل غرور ليس له حدود. ومجرد التفكير أني خدعت الجمهور ولم أحقق توقعاته مني، وأني خربت عملاً كان من الممكن أن يكون عظيماً، فإن هذا يقتلني أدبياً، وبكل معنى الكلمة. ورواية «غوليادكين» تجعلني أشعر بالقرف والاشمئزاز.

كثير من المقاطع فيها بدت مكتوبة بصورة سيئة... وكل هذا يجعل حياتي جحيماً وقد أصبت بالمرض بسبب يأسي الشديد».

والحقيقة أن النقد كان قاسياً، فقد كتب «أكساكوف»:

«إني لا أستطيع حتى أن أفهم، كيف سمحوا بنشر هذه الرواية. إذ إن روسيا كلها تعرف «غوغول» وتعرف أعماله تقريباً عن ظهر قلب، وها هو السيد «دوستويفسكي» يدعي لنفسه ويردد بصورة تامة جمل وعبارات «غوغول» نفسها.

وبعد أن سرق بضع مزق من أطراف ثوب الفنان، المدهش، صنع منها زينة لنفسه، وقدم نفسه بكل جرأة إلى الجمهور».

و «بيلنسكي» نفسه، توقف عن تقديم مدحه، أخذ يتردد، ثم تهرب:

«يحتمل أن يكون مؤلف رواية «البديل» لم يكتسب بعد الحس السليم، وحسن الإيقاع وجمال الانسجام، وهي الصفات التي من الضروري ان يتحلى بها الكاتب، ولذلك فإن الكثير من القراء، يعيبون عليه، ليس دون حق، بعض الثقل والتباطؤ»...

شعر «دوستويفسكي» أنه فقد مودة الجمهور وتعاطفه معه. ويريد أن يستعيدهما بأسرع ما يمكن. ومن أجل ذلك، عليه أن يكتب بسرعة، وبمزيد من السرعة. ولكن ماذا يكتب؟

في قصة طويلة: «عنوانها السيد بروخارتشين» يرسم صورة لشخصية رجل بخيل مهووس وخسيس. وبعد موت هذا الرجل العجوز، يكتشفون لفائف من الذهب في فراشه المصنوع من القش. ويبدو المشهد فظيعاً: الناس يتراكضون وينقضون على الجثة ويدفعونها ذات اليمين وذات اليسار، «وفجأة، وبصورة غير متوقعة أبداً، تسقط الجثة عن السرير، الرأس إلى الأسفل، ولا يرى منها سوى رجلين نحيلتين وزرقاوين، منتصبتين في الهواء كجذري شجرة يابسة».

وفي هذه القصة البريئة، التي لا يبدو لها أيّ جدوى، تعمل الرقابة فيها عملها تصويباً وتعديلاً، بطريقة تنم عن قوة مذهلة، وقد كتب «فيدور ميخائيلوفيتش» إلى أخيه، ما يلي:

«لقد شوهت قصة «بروخارتشين» في بعض الأماكن، بشكل مخيف. فأولئك السادة قد حذفوا كلمة «موظف» ومنعوا استعمالها، والله وحده يعلم، لماذا فعلوا ذلك؟... وكل ما كان حياً في القصة قد أخمدت أنفاسه، ولم يبق مما عملته سوى الهيكل العظمي».

وقد تلقى «بيلنسكي» بصورة سيئة العمل الجديد الذي نشره الكاتب الذي يتمتع بحمايته:

«تلمع فيه بعض ومضات الموهبة، ولكن عبر ظلمات دامسة، بحيث أن تلك الومضات لا تسمح لنا بأن نميز شيئاً. وهذا ليس عملاً من وحي العبقرية، وليس عملاً حراً لفنان، هو الذي أنتج هذه القصة، ولكنه شيء آخر، مختلف تماماً، فماذا أقول، وكيف أصفه؟ ربما كان عمله متكلفاً، مصطنعاً، يطمح ليكون عملاً مقبولاً ومتقناً»...

والرواية التي كتبها تحت عنوان: «في تسع رسائل»، وأنجزها في ليلة واحدة، ونشرت في صحيفة «المعاصر» وهي نوع من المجادلة عبر التراسل بين وغدين، لم تحظ بالقبول، هي أيضاً، لدى الناقد.

وقد كتب «بيلنسكي» إلى «تورغنيف»، ما يلي:

«لقد دهشت كثيراً، وأغاظتني تماماً تلك الرسائل المتبادلة بين ذينك الشخصين الحقيرين، وبالكاد استطعت أن أقرأها كلها. وجميع النقاد يتبنون رأيي».

فجن جنون «دوستويفسكي» بسبب توالي فشل أعماله.

وأخذ يبحث عن نفسه، ويتوه عبر مقالات ليس لها أي مستقبل.

وقبل المشاركة في تحرير المجلة الهزلية: «زوبوسكال» (Zouboscal) التي كتب، هو نفسه» بيانها دون أن يذيله بتوقيعه. وقد كتب، فيما بعد:

«لقد أحدث هذا البيان ضجة كبيرة. وقد ذكرني ذلك بأول رواية متسلسلة نشرها «لوسيان دو روبميري»».

وقدم له الناشر «كرايفسكي» سلفة نقدية، وأخذ يطالبه بإلحاح بتقديم أعماله للنشر.

«لقد سددت جميع ديوني بفضل سلفة «كرايفسكي» النقدية، ورغبتي الوحيدة الآن، هي أن أعمل لحسابه في هذا الشتاء، لكي لا أبقى مديناً لأحد «بكوبيك» واحد، عندما يأتي فصل الصيف»...

وانكبّ على العمل في كتابة قصتين: «العارضان المحلوقان» و «الدواوين الملغاة». وكتب إلى أخيه، بتاريخ الأول من نيسان (إبريل) سنة ١٨٤٦ :

«الاثنتان، كلتاهما، يشوبهما طابع مأساوي مؤثر، وأقول لك مسبقاً إنهما مكثفتان للغاية».

ولكنه، في تشرين الأول (أكتوبر) من العام نفسه، أخبره أنّ أياً من القصتين لن ترى النور:

«لقد أهملتهما وتخلّيت عن كل شيء. لأن كل هذا لم يكن سوى إعادة وتكرار لما سبق لي أن قلته وكتبته. والآن، هنالك أفكار جديدة، أكثر أصالة وحيوية ووضوحاً، تطلب مني أن أعبر عنها على الورق. وأنا أكتب الآن قصة أخرى، والعمل يتم فيها على أفضل شكل ممكن».

وفي رسالة أخرى، كتب له، في سنة ١٨٤٧ :

«عما قريب، ستقرأ قصة «نيتوتشكا نيزفانوفنا»، وهي عبارة عن اعترافات، على شاكلة قصة «غوليا دنيك»، وإن كانت بلهجة أخرى وبصيغة مختلفة... وأنا أكتب الآن، روايتي الجديدة:

«مؤجرة الغرف المفروشة». وهي تبدو منذ الآن أفضل من رواية: «الناس الفقراء» ومتفوقة عليها، وعلاوة على ذلك فهي من ذات النوع. وهنالك إلهام ينبعث من روحي، ويجعل قلمي يسرع بالكتابة على الورق».

ولم تصدر قصة «نيتوتشكا نيزفانوفنا» إلا في سنة ١٨٤٩ وبطلتها فتاة صغيرة، نشأت بين «عم» (زوج أمها) سكير، يعتقد أنه ممسوس بعبقرية الموسيقا، وبين أم مريضة، في عالم تحده جدران رمادية اللون لغرفة صغيرة منخفضة السقف».

وقد كتب عنها «دوستويفسكي»:

«نيتوتشكا» وهي في السن التي يوجه فيها الأطفال كل طاقاتهم إلى الخارج» كانت تركز في داخل نفسها «الانطباعات التي تحصل لديها من

الخارج» والطفلة كانت تتغذى بالأحلام، ولا تتبين الطريق، عبر «ضباب حياة فوضوية». وهي معجبة بعمها لأنه ذو موهبة، ولأنه «يستحق الشفقة».

ويصيح الموسيقي، ذات يوم بأعلى صوته: «أنا لا شيء، لست أحداً» وفي اليوم التالي يصيح: «أنا عبقري» والواقع أنه يبدو مزيجاً غريباً من الغطرسة والتذلل. وكان كما قال عنه المؤلف: «إنه يحب بشكل ما، بأن يشعر بأنه مضطهد ومعذب.

و «نيتوتشكا» تكره أمها، لأنها تتصور أن هذه المخلوقة المتألمة تمنع الفنان من أن يكرس نفسه لفنّه.

وهذه الكراهية التي تمازجها الشفقة، وهذا الحب الذي يشوبه الاحتقار، كان «دوستويفسكي» قد شعر بهما في طفولته، حيال والده، وهو يتخلص منهما في أدنى فرصة تسنح له، ويحملهما لشخصيات قصصه، ويعترف عبر هذه الشخصيات.

وتموت والدة «نيتوتشكا» في ظروف مأساوية، والزوج يصاب بالجنون، فيُؤوي الفتاة أمير مولع بالموسيقا، هو صورة للكونت «فيلجورسكي».

وهذا الأمير له ابنة، تدعى «كاتيا» وهي أميرة صغيرة، متسلطة كثيرة النزوات ومنطوية على نفسها، و «كل من في المنزل يدللها، ويداعبها، ويقدرها وكأنها كنز ثمين». وبعد أن أبدت ازدراءً تاماً بالفتاة «الدخيلة» وعذبتها، مذكرة إياها بأنها يتيمة وأنها ترتدي «فستاناً سيئاً»، عادت «كاتيا» وهامت حباً بها.

ونشأت بين الفتاتين محبة شديدة ومشبوبة، تكاد تكون جنسية وشهوانية، تجلت بثرثرات في السرير، بقرصات وبقبلات وإيمان، وبحرد ونزاعات:

«كنت ألاحظ أنك لا تستطيعين العيش من دوني، عند ذلك كنت أفكر: «انتظري، إني سأعذبها»!

وكذلك:

كنت أقول في سري: سأقبلها، وأقرصها بشدة وعنف إلى أن تموت».

هذا الطبع الأنثوي الحار والممزق استأنف ذكره والحديث عنه في رواية: «La Logeuse» (مؤجرة الغرف المفروشة) التي صدرت قبل قصة «نيتوتشكا نيزفانوفا» بزمن طويل.

العالم الشاب «أوردينوف»، المبتعد عن العالم، منصرفاً إلى تأملاته الدينية، استأجر غرفة عند رجل عجوز، يبدو بشكل غامض أنه يتعاطى السحر، يتمتع بنظرات نارية كالجمر. وهذا العجوز يقيم مع مخلوقة غاية في الجمال، يقع في حبها «أوردينوف» بشكل جنوني.

ولكن «أوردينوف» مهووس، يعاني من القلق والاضطراب وحبه الشديد لكاترين الغامضة، نراه عبر ضبابية الهذيان، المرتعشة. فهو لديه، طوال الوقت، شعور بأنه يحلم، ثم يستيقظ في عالم معادي، ولكنه يمكن أن يكون مستيقظاً عندما يعتقد أنه يحلم، أو أنه يحلم، في حين أنه يعتقد أنه مستيقظ. والقارئ يتأرجح معه بين عالم الأحلام وعالم الحقيقة والواقع.

«اوردينوف» يسمع أسطورة، قصة خرافية، ثم يتلاشى الصوت الذي كان يرويها في تمتمة خافتة، «ولكن القصة الخرافية تستمر في مكان ما»...

وفجأة يفتح الباب، وتقع شفتان حارتان على شفتيه، وبعد ذلك بثانية، تستلقي «كاترين» عند أقدام الأيقونات وتتهم نفسها بارتكاب جريمة قتل. إنها مجنونة، يحاول «مورين» الساحر العجوز أن يثنيها عن حب «أوردينوف».

فأين ما هو حقيقي؟ وأين ما هو كذب وزيف؟

وتنتهي الحكاية بهرب العجوز والفتاة الشابة. وهذه القصة، من المؤكد أنّ الكاتب قد استوحاها من قصة غوغول: «الانتقام الرهيب» التي

يروي فيها أن أحد السحرة، الذي يعشق ابنته «كاترين» - يستخدم كل علمه الذي يعتمد على الظواهر الخارقة والأشباح، وعلى اللعنات والدعوات وعلى مزيج من العقاقير، لكي ينتزعها من زوجها.

وكل شيء موجود فيها من تلك القصة، حتى العاصفة التي هبت على «الدنيبير، التي تحدث عنها «غوغول» والتي أصبحت عاصفة على «الفولغا» في القصة التي روتها «كاترين» لأوردينوف.

ومع ذلك، فهنا أيضاً، ليس الأمر مجرد اقتباس أو تقليد أدبي. إذ إن «أوردينوف» المفكر، الذي «يتحمل شرور ومعاكسات رفاقه» وهم جميعهم متضايقون، على درجات متفاوتة، من طبعه الغريب الذي يدفعه إلى العزلة والانزواء» هو «دوستويفسكي» بالذات. وشغف بطل الرواية الشاب بكاترين هو شغف «فيدور ميخائيلوفيتش» بالسيدة «باناييف» التي تبعدها عنه التقاليد والأعراف الاجتماعية.

«أنا في السابعة والعشرين من عمري، ولم أرَ أحداً على الإطلاق... صدقني، ولا أيّ امرأة، أبداً، ولم أتعرف على أحد، أبداً، أبداً. وأنا أحلم، كل ليلة، أنها ستأتي لحظة، أتعرف فيها على أحد ما».

كان هذا مما كتبه «دوستويفسكي» في كتابه: «الليالي البيضاء» وهذا الفن الذي يمارسه كاتب حالم تزخر أعماله بالرؤى الخيالية لا يمكن إلا أن يضلّل ويهزم النقد المعاصر، المولع بالأسلوب الواقعي وبالمطالب الاجتماعية.

وها هو «بيلنسكي» يفقد وعيه، ويكتب إلى «أنانكوف»: «هل قلت لك إنّ «دوستويفسكي» أصدر رواية بعنوان: «مؤجرة الغرف المفروشة؟ إنها أسوأ الحماقات!... وكل عمل من أعماله الجديدة، هو سقوط جديد... لقد خدعنا بقسوة بعبقرية «دوستويفسكي»... وأنا، أول الناقدين لم أكن سوى حمار يحمل بردعته... لقد قرأت لتوي «اعترافات» ج. ج. روسو وعبرها

شعرت بقرف شديد من هذا السيد، الذي يشبه بدرجة كبيرة «دوستويفسكي» الذي يبدو مقتنعاً بأن الجنس البشري بكامله يحسده ويضطهده»...

والتقرير عن الكتاب الذي أعطاه «بيلنسكي» لصحيفة «المعاصر» لم يكن سوى حرمان ورفض جارحين:

«في كل هذه القصة، لا يوجد كلمة، ولا عبارة في أيّ جملة، تبدو بسيطة وحية. كل شيء فيها متكلف ومصطنع، مشدود إلى أقصى درجة ومرفوع على عكازات بهلوانية إنه زيف وكذب».

ولا بد أن هذا النقد العنيف قد أغاظ «دوستويفسكي» وجعله يشعر بالإحباط الشديد. فقد كتب إلى أخيه «ميشيل»:

«ها هي السنة الثالثة من عملي في المجال الأدبي، وأنا أعيش كأن ضباباً كثيفاً يحيط بي. فأنا لا أرى الحياة، وليس لدي الوقت الكافي لأسترد حواسي، وألملم شتات أفكاري.

وفني يضيع لعدم وجود الوقت. ولكم أرغب بالتوقف عن الكتابة. وقد أقاموا لي شهرة تعتريها الشكوك: ولا أدري إلى متى يستمر هذا الجحيم الذي أعيش فيه: الفقر، والعمل الهابط والفاشل! ومتى سأحصل على الراحة والأمان»؟...

الانهيار

الحقيقة هي أنه أثناء هذه الفترة التي حصل فيها إنتاج متسرع ودون أي ألق أو بريق كانت حياة «دوستويفسكي» مشوبة بهموم تافهة وبخيانات حقيرة، وبوشايات مؤسفة: وعرف البؤس المذل الناتج عن وجوب دفع أجرة المنزل الذي يقيم فيه، وتسديد المبالغ التي استلفها، ووجوب المحافظة على الصداقات القوية، أي أن يتحمل كل هذا العذاب الذي يعاني منه الناس الفقراء.

والطابع الاستثنائي للمصائب الكبيرة يواسي به هؤلاء الذين أصيبوا بها، أنفسهم. ولكن المتاعب اليومية تسبب التآكل للمخلوق دون أن يفكر بالتحرر من صوت أو من صراخ. والمقارنة العامة والمشتركة تبدو غير عادلة وبالنسبة لـ «دوستويفسكي» أكثر من أي شخص أخر.

وأخذ يفقد صداقاته الأدبية، الواحدة بعد الأخرى. ولم يغفر له «بيلنسكي» الخيبات التي سببها له. ولكنّ أسباب الخلاف تتجاوز مجال الفن. فوراء الكاتب هناك الرجل، بل الإنسان الذي «فيساريون» (Vissarion) الغضوب يكرهه ويهاجمه بعنف مرضي.

وهنالك مغزيان متقابلان، وبأقصى سرعة، يبدو أنه لا يمكن التوفيق بينهما. إذ إنّ «بيلنسكي» بطريقته الأخيرة، يضع العلم، والتقدم الاجتماعي وكرامة الفرد في المقام الأول بين مشاغله واهتماماته الفكرية

والثقافية. وهو «يريح روحه» بل يرتاح نفسياً عندما يشاهد عملية بناء ومدّ سكة حديد ليسير عليها أحد القطارات.

بينما كتب «دوستويفسكي» في «يوميات الكاتب»:

«منذ بداية علاقاتنا، أحبني من كل قلبه، وكلف نفسه، بكل سذاجة، بمهمة تحويلي لتبني أفكاره... وقد عرفته اشتراكياً متحمساً. ومن بداية الأمر، أراد أن يستميلني إلى الإلحاد... أما تعاليم السيد المسيح، فكان يشعر، باعتباره اشتراكياً، أنه ملزم بتدميرها والقضاء عليها... ويظل وجه «الله - الإنسان»، النير، وحده، وسموه المعنوي والأخلاقي، وجماله الفائق للطبيعة والمعطاء والخلاق للمعجزات وللعجائب. ولكن «بيلنسكي» في اندفاعه الحماسي والعنيف لم يتوقف أمام هذه الحاجز المنيع الذي لا يمكن اجتيازه، كما فعل «رينان» (RENAN).

وفي سنة ١٨٧١ لم يكن غيظ «دوستويفسكي» قد هدأ بعد.

وكتب إلي «ستراخوف»

«هذا الرجل شتم السيد المسيح أمامي... ولكنه عندما شتمه، فإنه لم يتساءل أبداً: «من سنضع محله، إذن؟ هل نضع أنفسنا، نحن»؟ كلا، إنه لم يفكر بذلك على الإطلاق. كان راضياً جداً عن نفسه!...

أليس في هذا دليل على حماقته التي تتسم بالغرور»؟

ويضاف إلى ذلك:

«أنت تقول لي إنه ذو موهبة. أبداً ليس لديه أيّ موهبة، على الإطلاق. فقد قيّم نماذج أعمال «غوغول» بشكل سطحي جداً، وبكل إهمال، وكان يفرح فقط بما يكون «غوغول»، «قد استنكر ودان شيئاً ما». وهنا، وخلال أربع سنوات، قرأت عدة مرات دراساته النقدية. فقد هاجم «بوشكين» وهدمه، عندما ضحى هذا الأخير بجنس شعره المتكلف ونشر

بعض قصصه، مثل «بيلكين» و «الزنجي» وأنكر نهاية «أوجين أونيغين». وكان هو أول من نشر عبارة: «بوشكين شاعر الصالونات».

كان «دوستويفسكي» وهو يجري مسرعاً من طرف إلى آخر، لم يعد يعترف بأيّ قيمة للذي كان يسميه فيما مضى «قلباً طيباً» وأصبح يكره كل ما يحبه «بيلنسكي»: الفن المفيد والنافع، المداولات البسيطة في موضوع وضع برامج ذات طابع إنساني لخدمة بني البشر. وأصبح يحب كثيراً كل ما يكرهه «بيلنسكي»: صورة «الإله - الإنسان» والفن الحرّ.

وهو لا يقبل أن يقيمه ويحكم على أعماله، شخص لا يستطيع أن يفهمه. ولا يقبل أيضاً أن يتمسك اجتماع معين، بعد الآن، بكلام هذا المعتوه، المسكون بالرغبة «بأن يزدري كل ما أنتج في الماضي، وأن يدوسه بقدميه، مرسلاً صراخ الغضب، ورشقات البصاق، ومبدياً التكشيرات المعبرة عن الاحتقار»...

وكل أولئك الذين يدورون في فلك ذلك الناقد، أصبحوا في عداد الأعداء.

وفي طليعتهم «تورغينيف» ذلك العملاق ذو الإبهامين القصيرين، والسيد الفاتر الهمة والشديد الرخاوة، والمرهف الذي يعبر بكلام بارع لكي يحافظ على مركزه. آه! لقد استماله «بيلنسكي» لتأييد آرائه وقضاياه، وحشا له دماغه بآرائه المؤيدة لمبدئه المناصر للغرب ولاشتراكيته وإلحاده، وكلها أمور لم يهضمها ولم يتمثلها جيداً. وكان على «دوستويفسكي» أن يكتب فيما بعد، ناسياً أنه قال في اليوم التالي للقائه مع هذا الكاتب: «كنت قريباً جداً من الوقوع في حبه»:

«أنا، شخصياً، ما أحببت، في يوم من الأيام، هذا الرجل».

وقد أكد ذلك «تورغينيف» فيما بعد: «كان يكرهني سابقاً، عندما كنا لا نزال كاتبين شابين في بداية حياتنا الأدبية، وعلى عتبة مدخلها، وذلك دون أن استحق منه، بأي شيء تلك الكراهية».

يبدو أنّ «تورغينيف لم يعد يتذكر قصيدة: «الفارس ذو الهيئة الحزينة»، والوخزات والغمزات في ذلك الصالون، وقضية تزيين طبعة القصة بإطار، وألف حركة ومناورة القصد منها كلها كان إزعاج خصمه وإحراجه.

وقد بدأ العداء بين «تورغينيف» و «دوستويفسكي» عندما نشرت قصة: «البديل»، وبعد فترة وجيزة، قطع «دوستويفسكي» علاقته بـ «نيكراسوف»، وقد كتب إلى أخيه:

«سأقول لك، بأني منزعج لأني اختلفت تماماً مع صحيفة «المعاصر» ممثلة في شخص «نيكراسوف» فهو يلومني لأني أعطيت قصتين إلى «كرايفسكي» الذي قدم لي سلفه نقدية، وأنا مدين له بمبلغ من المال، ولأني لم أعلن عن عدم رغبتي بالنشر بعد الآن في مجلة حوليات الوطن. ولأنه يئس من الحصول على قصة أكتبها له في القريب العاجل، فقد وجه لي كلاماً قاسياً، وطالبني بطريقة مزعجة بتسديد المبلغ الذي أعطاني إياه كسلفة. وتلبية لطلبه، وعدته بأن أدفع له ذلك المبلغ بتاريخ ١٥ كانون الأول (ديسمبر)... إنها قصة قذرة...

وفي هذه الأيام، ينشرون عني الشائعات بأني مصاب بمرض العظمة... و «نيكراسوف» يستعدّ لينتقدني بقسوة. أما «بيلنسكي» فهو رجل ضعيف جداً، لدرجة أنه، حتى في أحكامه وتقييماته الأدبية، يغير رأيه، بالسهولة نفسها التي يغير بها قميصه»...

في غضون ذلك، ظهر كتّاب جدد، فلم يعد «دوستويفسكي» هو الكاتب الشاب الذي أعطى أعجوبة: «الناس الفقراء»، وقد أصدر عدة كتب، أدهش بعضها الجمهور، والبعض الآخر خيب أمل الجمهور. فهو ليس كاتباً مبتدئاً وليس كاتباً حقق الغاية من مؤلفاته. وهو لم يعد يثير لدى الجمهور، الفضول الذي ينم عن التعاطف، ولا الاحترام الناجز

والمستقر، فهو يقف عند نقطة الانتظار، يراوح مكانه، ويتذمر عند سماعه أصوات الذين يصعدون خلفه. وقد أخذ الناس يتحدثون عنهم، وهم كثيرو العدد، وقد أخذوا يقتربون منه. فهل سيفقد السبق الذي حققه عليهم؟ وهل سيدعهم يتجاوزونه؟

فيتدمّر مستقبله كله! ويستيقظ بعد أحلام الشهرة والمجد التي تراءت له! إن ذلك سيكون، بالحقيقة، صعباً للغاية!...

وكتب إلى «ميشيل» يقول:

«لقد ظهر جمهور من المؤلفين الشباب. والبعض منهم اخذوا ينافسونني، من بينهم، من يلفت النظر، مثل «هيرزين» و «غوتشاروف». والأول سبق له أن نشر بعض المؤلفات، أما الثاني فلم ينشر شيئاً، بعد والنقاد يمتدحونهما بشكل مخيف. ولكني ما زلت محافظاً على التفوق وآمل أن أظل محافظاً عليه دائماً»...

دائماً! إنه يكتب ذلك لكي يطمئن «ميشيل» ولكنه، بالحقيقة، يخشى أن يكون مخطئاً. فهو يشك في نفسه. ربما لم يكن لديه ما يقوله؟

وربما كان «لبييانسكي» وزمرته الحق بأن يدعوا بأنه لا يتمتع بأيّ موهبة؟ وربما من الأفضل، بالنسبة له، أن يتوارى ويختفي عن الأنظار؟

ولكن لا، إنه لم يبلغ مداه بعد، ذلك لأنه يعمل في ظروف مادية سيئة للغاية. والفقر ليس الجو الصالح لتلقي الإلهام فليس معه نقود وهو بحاجة لها، وهذا هو الذي يكاد يقتله ويقضي عليه.

ومن رسالة إلى أخرى، تعود هذه الفكرة بإلحاح وعناد:

«كم هو مرعب العمل من أجل تأمين سبل العيش! وعملي لا يطيق الحاجة والضيق»...

«لقد أنفقتُ، منذ أن افترقنا (٤٥٠٠) روبل، بالضبط، وبعت مسبقاً من بضاعتي، بمبلغ (١٠٠٠) روبل»...

«من جهتي، اللازمة نفسها، على الدوام: لا أملك «كوبيكاً» واحداً. ديون كثيرة. وأنا أكتب، ولا أرى نهاية ولا نتيجة لعملي. السأم، الخمول، والانتظار المحموم لوضع أفضل من هذا، كل ذلك يعذبني»...

وطريقة الاستدانة بصورة مستمرة التي يصفها «كرايفسكي»، هي الدليل على عبوديتي، ودليل على العبودية الأدبية، بشكل عام»...

«لو لم يكن هنالك أناس طيبون في هذا العالم، لكنت قد ضعت... وأنا أعيش في فقر مدقع، ومنذ أن فارقتك أنفقت (٢٥٠) روبلاً عملة نقدية و (٣٠٠) روبل لتسديد بعض الديون... و «نيكراسوف» هو الذي أساء إلي إساءة كبيرة، عندما أجبرني أن أدفع له (١٥٠) روبلاً، بالعملة النقدية»...

النقود، النقود، دائماً النقود! فهو لا يعرف كيف يكسبها ولا يجيد استخدامها، ولا يحسن الاحتفاظ بها. وهو على عجلة من أمره. وسيظل طوال حياته، على هذه الحال: في عجلة من أمره. وكأنه، في هذا العالم، ليس في بيته. وهو بحاجة لتغيير الهواء.

وبدأ بتغيير مسكنه، وكرّر ذلك مرة، مرتين وثلاث مرات. ودفعته حمى التغيير إلى الانتقال من طرف «سان بطرسبورج» إلى طرفها الآخر.

وأخذ يبحث لنفسه عن أصدقاء جدد: «آل بيكيتوف»، «آل مايكوف»، الدكتور «يانوفسكي». وبقربهم كان يشعر بالأمن والطمأنينة، فهؤلاء يحبونه، ولا يحسدونه، ولا يسخرون منه. وفي صالون «آل مايكوف» الأدبي، كان يشاهد الشباب والشابات وهم يرقصون، بل وكان يرقص، هو أيضاً.

وأثناء ذلك، إلى أي خلاف، وإلى أي سوء تفاهم، تعود رسالة الاعتذار التي كتبها بتاريخ ١٤ أيار (مايو) سنة ١٨٤٨، وأرسلها إلى السيدة «مايكوف»؟:

«أشعر أني تركتك البارحة، في حالة من الغضب، وأني بدوت لك سيئ التهذيب... وأخشى أن تكوني قدرت أني نزق غضوب (أنا أعترف

بالأمر) وفظ، توجهني فكرة خلفية غريبة... أرجو أن تفهميني: فلأني ذو تكوين ضعيف وعصبي، أستطيع بصعوبة شديدة الإجابة على أسئلة مزدوجة المعنى»...

كلا، فإنّ الاجتماعات الودية، وحفلات العشاء البسيطة التي كان يقيمها لبعض رفاقه في «فندق فرنسا»، والمديح الذي كان يتلقاه من المقربين منه والمحيطين به، كل ذلك لم يكن كافياً لتخليصه من اليأس الذي استولى عليه. وأصيب بالمرض بسبب شدة عصبيته، والإنهاك الذي يعاني منه فتكفل الدكتور «يانوفسكي» بمعالجته والعناية به. وأخذ «دوستويفسكي» يقوم بزيارته صباح كل يوم وفي الحال نشأت بينهما صداقة وطيدة. بل لقد انتهى بهما الأمر إلى العيش معاً، على نفقة مشتركة بينهما.

كان الألم الذي يعاني منه «دوستويفسكي» غريباً: كان يستولي عليه غم شديد، عند حلول المساء. ويشعر بمخاوف عاطفية».

وقد كتب في عمله: «مذلون مهانون»:

«إنه الخوف الأشد إيلاماً، من أمر مّا، لا أستطيع تحديده، من شيء لا أدركه، لا وجود له في نظام أو مجرى الأحداث، ولكنه دون شك، يمكن أن يحصل ويتحقق في أيّ لحظة»...

إن بعض الوقائع وبعض التفاصيل في الحياة اليومية، تحمل معنى مخيفاً في نظره. فهو تائه في غابة من التوقعات والتنبؤات. وهو يعتقد أنه مصاب بالجنون أو بمرض السل، ولذلك أخذ يقرأ بعض كتب الطب. وقد أثار اهتمامه علم فراسة الدماغ ودراسة شكل الجمجمة، الذي تحدث عنه العالم «غال» (GALL) وطلب من الطبيب أن يدرس بعناية شكل جمجمته وحدباتها.

وذات يوم من شهر تموز (يوليو) سنة ١٨٤٧، التقى الدكتور «يانوفسكي» بـ فيدور ميخائيلوفيتش في الشارع. كان «دوستويفسكي»

شاحب الوجه، شارد النظرات، يسير مترنحاً، يسنده موظف مدني يعمل ناسخاً في إحدى الدوائر العسكرية. وكان، قبل قليل قد أصيب بنوبة صرع حادة. فأعاده «يانوفسكي» بإحدى العربات، إلى المنزل، وفصده، فانبثق الدم، كثيفاً، وأسود كالحبر، عند ذلك، صاح «دوستويفسكي»: «لقد نجوت، لقد نجوت»!

ومرة أخرى، التقى «يانوفسكي» نفسه، في إحدى الساحات العامة بدوستويفسكي»، وقد بدا مرحاً، مكشوف الصدر، حاسر الرأس، يسير متأبطاً ذراع أحد العسكريين.

وحالما لمح صديقه، صاح «دوستويفسكي» وهو يشير بيده إلى الرجل الذي لا يعرفه العسكري: «ها هو!... إنه هو الذي سينقذني»!...

وذهب لزيارة أخيه. وكان يفكر بالسفر إلى إيطاليا. ويتمنى أن تحصل له صدمة تخلصه من ماضيه، من حاضره، ومن نفسه بالذات:

«إني أتخبط كسمكة تحت طبقة من الجليد».

فماذا لو سقط تحت عجلات إحدى العربات؟ أو ماذا لو ألقى نفسه في الماء؟

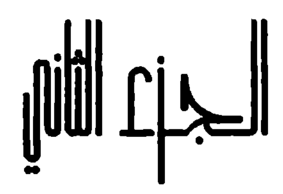
وكل شيء، بل أي شيء، أليس أفضل من هذا الملل الذي يغوص فيه، شيئاً فشيئاً، كل يوم؟ ولماذا هو موجود؟

وماذا ينتظر أو يتوقع؟

وقد قال «مارمو لادوف» فيما بعد، في رواية «الجريمة والعقاب»:

«أتعرفون ماذا يعني ألاّ يعرف أحدنا إلى أين يذهب»؟

كان «دوستويفسكي» يعاني من إحساس مخيف، بأنه لم يعد لديه ما يعيشه. فالطريق الذي يسير عليه مسدود، وكان يرى الجدار الكاذب والمزيف، ماثلاً أمامه، وبضع خطوات أخرى، ولن يستطيع بعد ذلك أن يتقدم.


الجزء الثاني

المؤامرة

الحملات التي جرت في الفترة الواقعة بين سنة ١٨١٢ و ١٨١٤ قادت الجنود الروس إلى قلب أوربا. وبسرعة كبيرة استطاع ضباط جيش الاحتلال التعرف عن قرب على الثقافة الغربية، وأغرتهم باكتسابها. وتلك البلاد التي أتعبها استبداد «نابليون» العسكري، أخذت تستيقظ على حياة اجتماعية جديدة. ونشأت منظمات سرية عديدة، في فرنسا، في إيطاليا وفي ألمانيا: «Charbonneries». «Tugenbund»... الخ. وكان من نتائج عودة الجيش الروسي إلى الوطن، تشكيل جمعيات كانت علنية في بداية الأمر، ثم أصبحت سرية، تعمل في الخفاء: «اتحاد الشمال»، «اتحاد الجنوب»، «اتحاد السلافيين» وكانت مؤلفة من النبلاء وكبار الموظفين. ووضعت برامج للعمل تنص على إلغاء العبودية، وإبطال العقوبات الجسدية، والعمل ضد النظام المحافظ والمتخلف الذي يترأسه «أليكسندر» الأول.

و «أليكسندر» الأول لم يكن معارضاً لمبدأ تحرير العبيد، ولكنه كان يخشى عواقب عملية تحرير تحصل بسرعة وبشكل مفاجئ.

وعند اعتلاء «نيقولا» الأول العرش، قامت مجموعات المعارضة بحركة تمرد انتشرت في أوساط الجيش، وأدت إلى اضطرابات دامية بتاريخ ١٤ كانون الأول (ديسمبر)، سنة ١٨٢٥. وتغلب الحرس الإمبراطوري على «ثوار كانون الأول» وشنق بعض من حرضوا على تلك الثورة، ونفي

البعض الآخر إلى سيبيريا.ولكن إذا كانت الثورة قد فشلت، فإن الحركات والاضطرابات الاجتماعية لم تتوقف. وقد وافق القيصر على القيام ببعض الإصلاحات التي طالب بها «ثوار كانون الأول»: (LES DECEMBRISTES)، على أن ينفذها هو بنفسه، وأن يمنع الطبقة الأرستقراطية الثورية من القيام بأي تدخل في سياسة الإمبراطورية الروسية. ولذلك فقد بدأت في الحال دراسة المسائل القروية ومشكلات الفلاحين، وفي الوقت نفسه أقيمت رقابة بوليسية مشددة حول المثقفين والمفكرين، من أعلى طبقة فيهم إلى أدنى طبقة.

هكذا، وإن كان العاهل الجديد قد أثبت «عصرنته، بل حداثته الغربية» ورعايته لمصير «الموجيك» أي الفلاحين العبيد، فإن ذلك لم يمنعه من أن يظل في نظر الطبقة المثقفة. المثل العتيد للقمع الاستبدادي، وللشكوك الضمنية والمتواترة، والحكم الفردي المتخلّف، وقد قال، فيما بعد المؤرخ «كيكين»:

«لم يكن هنالك حرية من أجل التفكير، بل كان المرء يشعر بضيق شديد في مجال التفكير». والحال هي أنه لم يسبق إن كان لدى أحد رغبة بالتفكير، بقدر ما كان لدى الناس من تلك الرغبة، في تلك الفترة. كان البعض يفكرون عن الناس الذين لا يفكرون، ويفكرون ضد أولئك الذين يمنعون الآخرين من أن يفكروا. كان البعض يفكرون فرادى، وفي مجموعات، سراً في بعض الغرف، وفي الصالونات بل وفي الشوارع أيضاً. كان الناس يفكرون، ولكنهم كانوا يستنكرون ويشجبون التفكير المجازي والمجرد. وكان الرجال البالغون (الذين تجاوزوا الأربعين من العمر) يزدرون بالغيبيات وينصب اهتمامهم على حاجات ومطالب الشعب الملحة والفورية.

وقد كتب بييلنسكي» سنة ١٨٤٢:

«إن روح عصرنا توحي بأنّ أكبر قوة خلاقة، لا يمكنها أن تثير الدهشة إلا بصورة مؤقتة... إذا كانت تتصور بأنّ الأرض ليست جديرة بها، وأن مكانها هو في السحب والغيوم العالية، وأن آلام وآمال الشعب القديمة والمزمنة لا ينبغي أن تشوش لها رؤاها الشاعرية وتأملاتها الخفية والعجيبة».

كان دعاة الثقافة والمبادئ الغربية، وأنصار السلافيين مشبوهين في نظر السلطات، وعلى درجة متساوية من الشبهة. كان «الغربيون» يقدرون أنّ روسيا بلاد متخلفة، لا يمكن أن تبعث وتنهض من جديد إلا بواسطة مجموعة من الإصلاحات العميقة، على شاكلة ما حدث في الدول الأورُبية، الكبرى. وبالمقابل يقدر «السلافيون» أنّ نظام الحكم الذي دشنه «بطرس الأكبر» هو نسخة سيئة عن أنظمة الحكم الأورُبية، وأنه ينبغي العودة إلى روح العصر المسكوفي. وهم يحلمون بكنيسة مستقلة عن الدولة، وبروسيا روسية بشكل حقيقي، وبكل دقة، منغلقة على نفسها، ومستمدة مؤسساتها من تراثها ومن داخلها. وليس بين الخصمين سوى قاسم مشترك واحد، وهو استياؤهما، وهو بطبيعة الحال عامل مهم، لا يمكن إهماله. كانت الكتب ترد بطريقة التهريب ويجري تداولها خفية وبشكل سري.

وكان الطلاب يطالعون بشغف أعمال «جورج صاند» «فورييه» و «لويس بلان» وكان كل منهم يتوجّه إلى الشعب دون أن يعرف شيئاً عنه. وكل منهم يتصور تجمعات إنتاجية شفافة، تغص برجال سعداء، مهذبين وجذابين. وكل منهم يتعاطف مع فكرة قسمة الأملاك بالتساوي بين جميع الطبقات. ،وأخذ الشعر يلون الاقتصاد السياسي، وفقدت الثورة رعبها الفظيع الذي تثيره المذابح. واتحد التقدم العلمي مع معتقدات الديانة الأرثوذكسية. والتآمر أصبح واجباً، على وجه التقريب، بالنسبة للشباب الجامعيين، . وجماعات «كانون الأول» (LES Deceembristes) كانت مؤلفة من النبلاء، وجماعات «الأربعين سنة» كانت تضم كثيراً من

الموظفين والطلاب والصحفيين، وكذلك بعض الكتاب والتجار. وكانت الطبقة البرجوازية، الصغيرة تتكون بهدوء وفي صمت. ولم يكن الأمر يتعلق بثورة يقوم بها الشعب، بل بثورة من أجل الشعب.

وإحدى هذه المجموعات الثورية كان قد شكلها طالب سابق، موظف في وزارة الخارجية، يدعى «بيتراشفيسكي» الذي وإن كان ينتمي إلى إدارة الدولة، فقد كان له لحية سوداء ذات طابع ايتيوبي، ويعتمر قبعة ذات جوانب عريضة كالتي يعتمرها المتآمرون.

وتعرف عليه «دوستويفسكي» في شهر أيار (مايو) سنة ١٨٤٦.

وكان ينبغي انتظار مرور سنة لكي نرى «فيدور ميخائيلوفيتش» يبدو في ندوات الجمعية التي كانت تقام يوم «الجمعة»، والحقيقة إنه كان يذهب إليها، في بداية الأمر، بدافع الفضول، ولأنه لم يكن لديه أي عمل. وقد أعجبه ذلك البيت الصغير المكون من ألواح خشبية، ذو النوافذ الجميلة بزينتها الزاهية، والمزود بدرج يؤدي إلى الطابق الثاني، ينير درجاته المزعزعة مصباح صغير يعمل على زيت القنب.

والغرفة المتواضعة يقتصر أثاثها على أريكة صغيرة مغطاة بقماش «الكريتون» وبضعة كراسي عتيقة ومنضدة. وهنالك شمعة كبيرة واحدة تضيء تلك الغرفة، مع أن «بيتراشفيسكي» شاب ميسور الحال، ولكنه حساس جداً، ويهتم كثيراً بالإخراج وبترتيب الأمور، وهو لا يرى أنه من الممكن التحدث عن الشعب في منزل «برجوازي». ولا يمكنه أن يتصور مؤامرة تحاك في وضح النهار، أو على ضوء الشمعدانات!.

والواقع أن الأمر لم يكن يتعلق بمؤامرة، وعلى الأقل لم يكن موضوعها وارداً بعد. كان أصدقاء «بيتراشفيسكي» يأتون إلى منزله، لمناقشة آخر الأخبار السياسية والأدبية.

وكانوا يجلسون باسترخاء على الأريكة وعلى الكراسي، يفكون أزرار ستراتهم، يحتسون الشاي، ويدخنون بغلايين ذات أنابيب طويلة ومحرق التبغ فيها صغير.

وكان يتواجد هناك: «سالتكوف - شيدرين»، «كايدانوف»، الأخوان «مايكوف»، «بلسهيف»، «ميليوتين» «دوروف»، «دوبوكس»، سييشنيف»، وغيرهم...

ويروي «أكشاروموف» في مذكراته:

«لم نكن نشكل جمعية منظمة، كنا أثناء تلك الاجتماعات التي نعقدها لا ندرس برنامجاً محدداً، بل كنا ننتقد نظام الحكم، ونعبر عن أسفنا واستيائنا من الوضع الراهن».

ويؤكد عضو آخر من هذه الجماعة، وهو يدعى: «كوسمين» ما يلي:

«كان أي ظلم، أيّ إساءة في استخدام السلطة، أي ضغط أو إكراه وأي إجراء تعسفي وغير معقول يثير بشدة غيظ كل واحد منا».

وكتب «بوغسلوف»:

«الفكرة المشتركة الوحيدة بيننا كانت عبارة عن رد فعل عنيف ضد لعب الورق، والثرثرة التي تحدث في الصالونات».

كل ذلك كان يرتدي طابع البراءة. وقد استطاع «فيدور ميخائيلوفيتش» أن يتأكد من ذلك، من الزيارة الأولى. وقد بدا له المدعوون، شباباً متحمسين وجذابين. وكانت المجموعة تملك مكتبة تحوي كثيراً من «الكتب الممنوعة» التي كان «دوستويفسكي» يرغب كثيراً بمطالعتها، كما أنه كان يشعر بالحاجة للانضمام إلى إحدى المجموعات، لكي يتخلص من عزلته، وليتبنى قناعة ما إن كانت حسنة أو سيئة، تتيح له العيش براحة وأمان.

وكان يتردد إلى هناك، من وقت لآخر. ويشعر بالسرور وهو يستمع إلى تلك الأحاديث التي لا تنتهي. وبالطبع، كانوا يقولون إن الأحوال جميعها سيئة، وإنه ينبغي تجديد كل شيء، تغييره وتحديثه. ولكن كيف؟!

لم يتفق «جماعة بيترافيشسكي»: (Les Petrachevtsy) على آليات تنفيذ النظام الاشتراكي الفرنسي وطريقته:

كان «أكشاروموف» يوافق على إبقاء القيصر متربعاً على عرش روسيا، على أن تقيد سلطته وصلاحياته بدستور، يوضع لهذا الغرض. وكان «سييشنيف» من أنصار ومؤيديه العمل المباشر.

أما بيترافيشسكي» فقد بدا مرتبكاً، يتخبط في نظريات «فورييه» دون أن يتصور شيئاً محدداً وواضحاً، من أجل المستقبل. بينما ظل «دوستويفسكي» مرتاباً، تساوره الشكوك، ومع اعترافه بأريحية ونبل هذه اللمحات الإنسانية، فإنه كان ينفي أنها يمكن أن تتأقلم في روسيا وأن تتفق مع أوضاعها. وبالنسبة له، فهو يرى أنّ على الروس أن يلتفتوا نحو تاريخهم الخاص بهم، وينهلوا منه التعاليم التي تحقق لهم الأمن والسلامة. فالمشاركة في الأملاك، والتجمع والضمان المتبادل، كل ذلك موجود منذ زمن طويل في أوساط الشعب الروسي، ولذلك فإن تطوير هذه المفاهيم وهذه المؤسسات، أفضل بكثير من تصورات وتخيلات «سان سيمون» ومدرسته.

ويروي عنه «ميليكوف» أنه كان يقول:

«إن الحياة في وحدة «إيكارسية» (خيالية وبهلوانية) أو في مجمع إنتاجي، للعمل، تبدو لي أكثر فظاعة وإثارة للقرف وللاشمئزاز، من الأشغال الشاقة».

لقد أرادوا أن يصنعوا من «دوستويفسكي» ثورياً، وهو لم يكن كذلك أبداً. وقد أجاب على استجواب لجنة التحقيق له بقوله: «إني لم أجد

أبداً شيئاً أكثر عبثية ولا معقولية من التصور بأن يكون لروسيا حكومة ثورية. وجميع الذين يعرفونني يعرفون أيضاً آرائي بشأن هذا الموضوع».

ولم يكن، انقلاباً، هو ما يتمناه، بل تطويراً وتكييفاً. ولم يكن يحلم بتغيير اجتماعي، بل بتطور معقول. وقد صرح، قائلاً: «إن الشعب الروسي لن يسير على آثار خطى الثوريين الأوربيين» وقرأ لرفاقه قصيدة «الانفراد والتوحد» لبوشكين التي يقول فيها: «هل سأرى، يا صديقي، الشعب وقد تحرر، «والعبودية تزول بإشارة من القيصر»...

نعم، إلغاء الرق والعبودية، تخفيف قيود الرقابة، تحريم العقوبات الجسدية، كل هذا يجب أن يصدر عن القيصر.

وقد كتب: «القيصر، بالنسبة للشعب، هو تجسيد للشعب نفسه، لفكره، لإيمانه ولآماله».

ليس بين العاهل ورعاياه علاقات السيد بعبيده، بل علاقات الأب بأبنائه. وقتل هذا الحب، هو قتل لروسيا. ولكن إنارة هذا الحب وتنويره، وتوجيهه، هو عمل لخير الجميع. يجب أن ننتظر يجب «أن نؤمن».

ومع ذلك، فإنّ الشهور أخذت تمر وتمضي، والفلاحون لم يتحرروا، والرقابة البوليسية تزداد شدة وقسوة.

وفي مختلف المناطق، أخذ الفلاحون العبيد (الموجيك) يثورون ضد أسيادهم. وبعد مقتل اثني عشر ملاكاً من قبل فلاحيهم، سنة ١٨٤٦، قتل ثمانية عشر ملاكاً، سنة ١٨٤٨، وبعد سبع وعشرين حركة عصيان وهياج قامت بها «الجماهير الريفية» سنة ١٨٤٦، سُجل خمسة وأربعون حركة مثلها، سنة ١٨٤٨، وقد قام ما يقرب من نصف العبيد المقيمين في مدينة «فيتيبسيك» ومنطقتها بثورة حقيقية، وزحفوا على «سان بطرسبرج»، ولكن القوات المسلحة أوقفتهم في منتصف الطريق.

وقد هزت أصداء الثورة التي اندلعت في فرنسا، سنة ١٨٤٨، حياة تلك المجموعة الصغيرة ووجودها. وبدا «دوستويفسكي» وكأنه فقد الثقة بما كان يؤمن به من آراء. وعندما سأله أحدهم:

- ما العمل، إذا كان من المستحيل تحرير العبيد إلا عن طريق الثورة؟

عند ذلك صاح «فيدور ميخائيلوفيتش»:

«إيه، حسناً! ينبغي! إذن القيام بالثورة»!

لقد أصبح سريع التأثر للغاية. إذ إنّ إخفاقاته الأدبية، ومتاعبه العصبية، جعلته يبدو ضعيفاً، أعزل حيال الأحداث. وعدة مرات، وقف خطيباً ليهاجم ويستنكر قسوة السادة الملاكين، أو شدة وصلابة النظام العسكري.

وقد كتب «دوبو»: «ما زلت أكاد أسمعه وهو يروي لنا كيف أنّ ضابطاً في الفرقة الفنلندية، قد جلد بالسوط».

وقد أكد «سيمينوف تيان - شانسكي» هذه الحادثة، وأضاف: في لحظات كهذه، كان «دوستويفسكي» على استعداد للنزول إلى الساحة، حاملاً علماً أحمر»...

وقبل «فيدور ميخائيلوفيتش» بأن ينظم قرارات اتهام، وأن يتلوها في الاجتماعات التي تعقدها المجموعة. ولكنّ هذا الوعد لم يتحقق. وكل ما هنالك، إنه اكتفى بقراءة صفحات من بعض أعمال «ديرجافين»، «بوشكين» و «غوغول».

وفي غضون ذلك، وصل أخوه «ميشيل» إلى «سان بطرسبورج» بعد أن استقال. فقدمه «دوستويفسكي» إلى «رئيس المتآمرين» وكان «ميشيل» متفقاً في الرأي مع أخيه: «بيتراشفيسكي»، هذا، متشدّق غير متزن، ممثل مضطرب ومشوش التفكير. تتجاوزه أفكاره الخاصة به. يجب التصرف

والقيام بالعمل، وكان الآخر يحلم ويتنبأ. أمر ثانوي غريب، يلفت النظر: حاول «بيتراشفيسكي» أن يبني «مجمعاً للعمل المشترك» في غابه تعود له ملكيتها، ولكنّ الفلاحين العبيد (LES MOUJIKS) الذين لم يقرؤوا ما كتبه الاشتراكيون الفرنسيون، أحرقوا البناء، رمز سعادتهم المقبلة.

ومن جهته، دوروف» الشاعر الصوفي فقد شكل مجموعة على هامش «البيتراشيفستيين». وبالنسبة لهذا المنظر الحالم، اللطيف والعنيد في آن معاً، فإن الاشتراكية تلتقي مع المسيحية. وأمام لجنة التحقيق، قال «دوستويفسكي» فيما بعد، إنّ «دوروف» كان «متديناً إلى حد السخف والإسفاف» ومع ذلك، فإنّ «بالم»، «يليشيلف» و «فيدور ميخائيلوفيتش نفسه، قد انضموا إليه آنذاك.

كان مجتمع «سان بطرسبورغ» مطلعاً على تلك الاجتماعات الليلية، دون أن يوليها أي اهتمام. وعضو مجلس الشيوخ «ليبيديف يعتبر أولئك الشباب، في حديثه عنهم في مذكراته، أنهم «ثرثارون، وليسوا سوى «أطفال متآمرين» وأنّ تصرفاتهم ليست في نظره سوى ألعاب وحيل مدرسية». وفي سنة ١٨٤٥، نشرت قصيدة هجاء بحق مبدأ «فورييه» بعنوان: «نزعتا الأنانية» وهي تعرض «بيتراشفيسكي» تحت اسم: «بيتوشيفسكي»، و «أكزاكوف» تحت اسم «بيكاكوف «الاختصاصي بنظرية العدمية»: (أي تحرير الفرد من أي سلطة) الفرد «باكونين» كتب إلى «هيرزين» يقول له إنّ هذه المجموعات ليست مؤذية أبداً، وهي ضعيفة تماماً لا يمكن أن تلحق الضرر بأحد».

ومع ذلك، فمن بين ذلك الجمهور من الشباب الوجلين، وغير المفيدين، أخذ يبدو شيئاً فشيئاً وجه «سبيشنيف» الغامض والملغز وهو وجه امرأة جميلة، نحيل، ذو شفتين غليظتين، وعينين واسعتين مدورتين. وشعر كثيف مجعد وطويل ينسدل على كتفيه. وهو من أنصار العمل المباشر،

ويتقبل نتائجه. وجميع الوسائل صالحة ومقبولة من أجل إزاحة السلطة، قلبها والقضاء عليها: التمرد والهياج، إطلاق النار، الاغتيالات السياسية، لم تكن تخيفه. وعندما ألقي عليه القبض، عثروا بين أوراقه على صيغة قسم ثوري: «أنا الموقع أدناه، أتقبل الالتزامات، التالية: عندما تقرر اللجنة العليا، أن الوقت قد حان للتمرد والقيام بالثورة، أتعهد، دون تحفظ، بالمشاركة التامة والمستمرة في خوض المعركة، بعد أن أكون قد تزودت مسبقاً بالأسلحة النارية أو بالأسلحة البيضاء»...

وهذا المخلوق العجيب، الذي سيطلق عليه «دوستويفسكي» اسم «Son Mephistopheles» «شيطانه» لا بدّ من أنه سيمارس على «فيدور ميخائيلوفيتش تأثيراً سيئاً بشكل حقيقي. و «دوستويفسكي» يكره «سبيشنيف» بسبب سخريته التي تتسم بالبرود، وبسبب إلحاده المعلن، ومع ذلك فإنه لا يستطيع التخلص من التأثير الغريب الذي يمارسه عليه هذا الشاب الذي لا يبدو تماماً أنه حي.

ويوجد لديه تصميم جهنمي، وغطرسة يائسة، تقضي على الجاذبية. فلا يمكن أن يحبه المرء، ولا يمكنه إلا أن يقاتله أو أن يخضع له. وخضع «دوستويفسكي بحزن وقرف وخوف».

فقد استدان منه ٥٠٠ روبلاً في لحظة من الضيق أو الخسّة والنذالة، وأخذت فكرة هذا الدين تعذبه، وأصبح كئيباً غضوباً، ومشاكساً، وردّ على الدكتور «يانوفسكي» الذي قال له إن ما به ليس سوى عارض عابر، بقوله: «كلا، إنّ هذه الحالة النفسية لن تفارقني أبداً، بل سوف تستمر زمناً طويلاً وطويلاً جداً، وستظل تعذبني: لقد استدنت نقوداً من «سبيشنيف»... وفي الوقت الحاضر، أنا معه، بل أناله، ولن أستطيع أبداً أن أرد له هذا المبلغ، وعلاوة على ذلك، فهو من الممكن ألا يقبل أن أرد له هذا الدين نقداً، فالرجل هو هكذا مخلوق. أتفهم، إني في الوقت الحاضر، لديّ «شيطاني» بجانبي»؟

شيطان!... يفكر المرء بصورة لا إرادية وعفوية بأولئك الشياطين، بأولئك البدائل المتشابهين الذين تزخر بهم أعمال «دوستويفسكي»، وهم الصورة المشوهة لأبطاله.

ولا شك في أنّ «دوستويفسكي» رأى في الثوري «سيشنيف» النهاية الكريهة لمبدئه التحرري الذي يعتنقه هو. كان «فيدور ميخائيلوفيتش» أكثر ما يريد هو تحسين أوضاع ومصير الفلاح، إعادة النظر في قوانين الرقابة، لفت انتباه القيصر إلى بؤس بلاده الشديد، وهذه الأفكار نفسها لدى «سيشنيف» تترجم بالدعوة إلى الثورة وارتكاب المذابح والأمر الذي بالكاد يشار إليه لدى أحدهم، يبدو مدفوعاً إلى الحد الأقصى المخيف وإلى اللا معقول لدى الآخر. ومع ذلك لا يوجد بينهما حل يتصف بالاستمرارية. «دوستويفسكي» بداية لـ «سيشنيف» وهو يقودنا ويؤدي إليه و «سيشنيف» هو «دوستويفسكي» وقد تحرف وتشوه. و «سيشنيف» هو عقوبة «دوستويفسكي».

«كل ما هضمته، وفرزته وطرحته منذ زمن طويل كما تطرح القمامة، تجلبه وتعيده لي وكأنه شيء جديد. فكيف استطاعت روحي، بل ذهني أن ينتج شخصاً حقيراً وتافهاً، من نوعك»؟...

كان ينبغي التراجع، وقطع العلاقة مع هذا الرفيق المخيف.

ولكن «دوستويفسكي» كان قد أُخذ في الدوامة. وهو يشعر بالدوار بسبب ما لا يمكن إصلاحه، والذي لا يعوض. يضل ويتوه مع شعوره المخيف بمسؤوليته. فهو الذي اقترح على «سيشنيف» أن يشكل جمعية صغيرة تتألف من أربعة أو سبعة أعضاء، لا أكثر. فوافق «سيشنيف». وأخذوا يتحدثون عن الحصول على مطبعة سرية، وعلى توزيع منشورات مثيرة ومهيجة، في كافة الأوساط الشعبية.

ورسم «فيليبوف» مخططات أجهزة المطبعة، وأوصوا على صنع أجزائها في مصانع مختلفة موجودة في العاصمة.

وكان عليهم، فيما بعد، أن يركبوا هذه المطبعة في منزل أحد المتآمرين، وبأعجوبة، لم تكتشف أثناء التحقيق في المؤامرة.

ولم يكتف «دوستويفسكي» بالدعوة إلى تشكيل جمعية سرية يرأسها «سيينشيف»، بل أخذ يبحث له عن أتباع وعن أعوان، ينضمون إلى الجمعية ويساعدونه في العمل، وفي شهر آذار (مارس) سنة ١٨٤٩، قام بزيارة الشاعر «أبولون مايكوف» تأخر وأمضى وقتاً طويلاً عنده، ووافق على البقاء عنده، والنوم على الأريكة المقابلة لسرير رفيقه، ولم يكد الصديقان يبدآن بخلع ملابسهما، حتى تطرّق «دوستويفسكي» لموضوع الدعاية الثورية، وقال:

إنّ «بيتراشيفسكي» مغفل، وهو مهرج ثرثار، ولن يستطيع أبداً أن يقدم شيئاً مجدياً وجدياً، ولكن البعض من معارفه، الأكثر نشاطاً منه، يقومون بعمل لا يعرف هو شيئاً عنه، وقد قرروا عدم قبول مشاركته في هذا العمل».

وكان الموضوع يتعلق بالمؤامرة التي يحيكها «سييشنيف»، «فيليبوف»، «دوستويفسكي» ورفاقهم. فرفض «مايكوف» أن ينضم إلى الجماعة الجديدة.

وفي رسالة له إلى «فيسكوفاتوف»، قال فيها ما يلي:

«أخذت أبرهن له على عدم جدية ذلك المشروع وخطورته، وعلى أنهم جميعهم يعرضون أنفسهم لكارثة مؤكدة. بالإضافة إلى ذلك - وكانت هذه هي حجتي الرئيسية - فقد قلت له: أنت وأنا كلانا شاعر، أي أننا شخصان لا نتمتع بالحس العملي، ولا نجيد تدبير أمورنا ومصالحنا الشخصية الخاصة بنا، مع أنّ العمل في السياسة يتطلب حساً سياسياً متطوراً للغاية».

ويتابع «مايكوف» قائلاً في رسالته:

«وما زلت أتصور «دوستويفسكي» جالساً كسقراط، وهو يموت أمام مريديه، وكان يرتدي قميص النوم وقد فك أزرار ياقته مستخدماً كل فصاحته وهو يشرح لي هدف فكرته، المقدس، والواجب الملقى على عاتقنا لإنقاذ وطننا، وغير ذلك مما قاله»!...

وفي صباح اليوم التالي عندما غادر «دوستويفسكي» منزل «مايكوف» استحلفه بأن يحافظ على سرية حديثهما.

ومع ذلك، وفي تلك الأثناء، أي منذ ٢٧ شباط (فبراير) سنة ١٨٤٨، لم تكن مكاتب «الشعبة الثالثة» التي أنشأها «نيقولا الأول» «لكي تسهر على أن تظل طمأنينة المواطنين وحقوقهم آمنة، لا يعكرها أي تصرف أو سلطة أحد»، تجهل أنه كان يجتمع في منزل «الشيوعي»: «بيترافيششكي» كل يوم جمعة، بعض التلاميذ الشباب وبعض المفكرين الأحرار وكثير من طلاب الجامعة».

وقد كلف الجنرال - الكونت «أورلوف» قائد الدرك العام «يبراندي» الموظف في وزارة الداخلية بمتابعة ملابسات هذه القضية والتحقيق فيها. وظل «ليبراندي» طوال سنة بكاملها يبحث كما قال هو، «عن الجاسوس المثالي، الذي يجب أن يكون متحلياً بثقافة مساوية لثقافة أفراد تلك الحلقة التي سيندس فيها»...

وأن يبدو أخيراً مؤيداً لآرائهم، لكي لا يثير الشبهة حوله...

وانتهى به الأمر إلى اكتشاف هذه اللؤلؤة النادرة في شخص السيد «أنطونيللي».

و «انطونيللي» هذا، وهو ابن رسام من أصل إيطالي، كان أشقر البشرة، كبير الأنف، واسع العينين، حادّ النظرات، يتعامل مع الآخرين بأسلوب الباعة المتجولين، الذي يتسم بالتزلف والمجاملة المفرطة. درس في جامعة «سان بطرسبورج» وهو موظف في إحدى الدوائر الحكومية. ووافق

على القيام بالمهمة التي كلف بها، بتحفظ واحد وهو ألاّ يذكر اسمه الصريح والحقيقي، في إضبارات القضية.

وهكذا كان، ففي يوم الجمعة الواقع في ١١ آذار (مارس) سنة ١٨٤٩، حضر «أنطونيللي» أحد اجتماعات الجمعية، وبدا مرتبكاً ومتخوفاً بعض الشيء وهو يرتدي صدرية أرجوانية اللون، لفتت أنظار جميع الحاضرين. وأخذ يوزع «سيكارات» ذات منشأ أجنبي، على الجالسين بقربه، ويشارك بالأحاديث، مبدياً أفكاراً تحررية، ومحاولاً توجيه بعض النقد اللاذع للحكومة أو للكنيسة.

وسأل «كوسمين» رفيقة «بوغوسوغلو» قائلاً:

«ماذا أتى يفعل هذا هنا»؟

فأجابه رفيقه:

«دعنا من ذلك، فأنت تعلم جيداً أن «ميشيل فاسيليفيتش» (أي بيتراشفيسكي) مستعد لاستقبال كل من يأتي، وليقدم له كل الرعاية والاهتمام له ولأي شخص كان»...

واعتباراً من ذلك اليوم، أصبح «انطونيللي» ضيفاً مداوماً عند «بيتراشيفسكي». بل وكان يذهب أيضاً إلى الاجتماعات التي تعقد لدى أعضاء آخرين في الجمعية. وعندما يعود إلى منزله، كان يسجل بدقة وعناية كل ما شاهده وكل ما سمعه في تلك الأمسية، وكانت تقارير ترسل إلى وزارة الداخلية، حيث كان «ليبراندي» يدرسها ويحتفظ بها.

وأثناء ذلك، كانت المآخذ والأخطاء التي تنسب إلى جماعة «بيتراشفيسكي» لا تزال طفيفة: هذر فارغ وانتقادات غير موثقة وليس لها أساس منطقي... فشعر «أنطونيللي» بخيبة الأمل: فهل كان المتآمرون يحذرونه ويحترسون منه أم أنهم، بالحقيقة ليسوا سوى طلاب أغرار، لن يلحقوا أذى بأحد؟

وذات يوم، ذهب «دوستويفسكي» لزيارة «دوروف» فناوله هذا الأخير نسخة من الرسالة الشهيرة التي أرسلها «بيلنسكي» إلى «غوغول»، التي كان الكلام فيها أكثر صراحة وأشد قوة. و «بليشييف» هو الذي أرسلها من موسكو. فأطلع «دوستويفسكي» «بالم»، «مومبيلي» و «إيفانوف» على تلك الوثيقة، ووعد «بيتراشيفسكي» بأن يقرأها في أحد الاجتماعات التي تعقد في منزله يوم الجمعة.

كان ذلك في شهر آذار (مارس) سنة ١٨٤٩، وبتاريخ ١٥ نيسان (أبريل) نفذ وعده. ورسالة الكراهية تلك، كان على «دوستويفسكي» فيما بعد، أن يدافع عن نفسه باعتباره قد أيد مضمونها:

فقد أجاب على الأسئلة التي وجهتها له لجنة التحقيق، قائلاً:

«هل يستطيع الذي وشى بي أن يقول بأي من المتراسلين كنت أكثر ارتباطاً؟... وفي الوقت الحاضر أرجوكم أن تأخذوا بالحسبان، الأوضاع الخاصة: أكان من الممكن أن أقرأ رسالة شخص اختلفت معه بشأن مسألة بعض الأفكار (والأمر ليس سراً خفياً، وكثير من الناس يعرفونه) وأقدمها وكأنها كتاب الصلوات المقدس، وقاعدة يجب على الجميع اتباعها؟... لقد قرأتها وأنا أحاول بكل جهد ألاّ أبدي أي تفضيل أو تأييد لأيّ من الشخصين المتراسلين»...

فكيف يمكن شرح موقف «دوستويفسكي» وتفسيره وقد أعار صوته وموهبته لما كتبه أحد «الأعداء». حقاً لقد كانت رسالة «بيلنسكي» تعبر عن عدد من الأفكار التي ظلّ «دوستويفسكي» معادياً لها:

كتهجمات الناقد العجوز على التصوف وعلى الكنيسة وعلى الإمبراطور التي لا يمكن أن تحظى بموافقته. ولكنّ الرسالة كانت تتضمن، بالمقابل احتجاجاً شديداً على العبودية والرق، وتمجيداً حاراً لدور الكاتب وهي أفكار تتجاوب مع آراء «دوستويفسكي» نفسها، وتبرر قيامه بتلك الدعاية لها.

كان «أنطونيللي» يصغي إلى تلك الجمل، وهي ترد الواحدة بعد الأخرى، والتي تدين «دوستويفسكي»، والذين استمعوا إليه «الكنيسة تعرّف عن نفسها كراعية للتسلسل الطبقي، أي كتجسيد للتباين وعدم المساواة، وكمحظية للسلطة وكعدوة ومدمرة للأخوة بين بني البشر... وفي معظم وأغلبية الحالات، «الأكليروس» أعني رجال الدين في بلدنا، لا يتميزون إلا بالكروش الكبيرة المتخمة، وبحذلقتهم الكلامية الفارغة، وبقلة أدبهم، الغريبة والبربرية...

«ولن أتكلم عن المدح الذي تكيلونه لمحبة الشعب الروسي لقياصرته. ولكني أقول لكم، ما يلي، وحسب: إنّ هذا المدح لم يلق لقياصرته. ولكني أقول لكم، ما يلي، وحسب: إن هذا المدح لم يلق أقل قبول ورضا، لدى أحد»...

وحول «دوستويفسكي»، كان الشباب يطلقون الصيحات والشتائم، يقهقهون ضاحكين، ويصفقون مستحسنين، فقد ناسبهم ذلك وأرضاهم. وكان «أنطونيللي» يرتب، في ذهنه، صياغة تقريره.

والاجتماعات التالية لم تكن أقل ثمرة وجدوى، بالنسبة «لعميل» وزاره الداخلية. وهكذا، ففي حفل عشاء أقيم في منزل «سبيشنيف»، استمع «دوستويفسكي» إلى قراءة: «حكاية جندي» التي كتبها «غريغورييف»، وهي «قصة مخربة، موجهة ضد الجيش وضد الحكومة» وقبل ذلك ببضعة أيام، أقيم حفل غداء تكريماً لشارل فورييه، في منزل أحد المتآمرين: «ايفرابوس»، ولم يستطع «دوستويفسكي» المشاركة فيه، ولكن الحفل كان ناجحاً للغاية. وكان «بيتراشفيسكي»، وهو في أحسن حالة، قد أنهى خطابه بهذه العبارات: «لقد حكمنا بالموت على المجتمع الحالي، والمطلوب الآن، هو تنفيذ الحكم».

أما الصغير «أكشاروموف» فقد طلب، بعبارات لاذعة إلغاء رابطة الأسرة، وإلغاء الملكية والدولة والقوانين والجيش والمدن والكنائس.

و «أنطونيللي» الذي زود ملفه بكل هذه المعلومات الدقيقة والمثيرة. نقلها الجنرال - كونت «أورلوف» إلى القيصر «نيقولا الأول. وعند قراءة القيصر لهذه التقارير، لا بد من أنه قد تذكر «ثوار كانون الأول» الذين كان عليه أن يقضي عليهم في أول يوم اعتلى فيه عرش روسيا وتسلم زمام الحكم، فأمر بإعدام بعض رؤساء التمرد، وبنفي البقية، وإبعادهم إلى سيبيريا.

وها هم أحفادهم يبرزون له فجأة. ألا يمكنه أن ينتهي أبداً من مكافحة التسمم الذي تسببه الأفكار «الغربية؟ وبسبب خشيته من رؤية اضطرابات سنة ١٨٢٥، تتجدد آنذاك، فقد بالغ في تقدير أهمية تلك المؤامرة، وفكر بتطبيق عقوبات صارمة، ولذلك فقد كتب على هامش التقرير:

«قرأت كل شيء. القضية خطيرة، حتى وإن لم يكن كل ذلك سوى ثرثرة، وهذا لا يعني أنه مما يحتمل ويسمح به وأنه ليس عملاً جرمياً. يجب توقيفهم، كما أوصيت واقترحت، فهيا، ونفذ ذلك، باسم الله، ولتتحقق مشيئته».

فاتخذ «أورلوف» إجراءاته المناسبة. وبتاريخ ٢٢ نيسان «أبريل» تلقى الماجور «تشودينوف» قائد الدرك في المنطقة، الأمر «بإلقاء القبض على «فيدور ميخائيلوفيتش» دوستويفسكي»، المهندس المتقاعد والكاتب».

وكان ٢٢ نيسان (أبريل) يوم جمعة. وقد ذهب «فيدور ميخائيلوفيتش إلى منزل «بيتراشفيسكي»، حيث جرى الحديث عن إصدار جريدة بطريقة المساهمة. وعاد إلى المنزل الساعة الرابعة صباحاً، وهو متعب جداً، وقد بلل ثيابه مطر خفيف بارد.

فخلع ملابسه، واستلقى على سريره، واستغرق بسرعة في النوم. ولكنه بعد ما يقرب من ساعة، عكرت نومه أصوات وقعقعة سيوف

وأسلحة، عند الباب، ففتح عينيه. المصباح مشتعل، وقد وقف أمامه مفتش شرطة الحي، ضابط برتبة مقدم، بكتافيتين لائقتين، وأحد الجنود:

«انهض... هيا، وافعل ما نأمرك به»...!

«دوستويفسكي» منذهل ومرتبك:

«اسمحوا لي....»

- أسرع بارتداء ملابسك، فنحن ننتظر»...

وبدا المقدم لطيفاً، وكان صوته عذباً، فاطمأن «دوستويفسكي»: لا يمكن أن يكون هذا إلا نتيجة لخطأ أو لسوء فهم، وسيقتادونه ويستجوبونه ثم يطلقون سراحه في الحال. فأي جريمة ارتكب حتى يخشى أن يزجوه في السجن؟

وبينما كان يرتدي ملابسه، أخذ هؤلاء الدخلاء يتفحصون كتبه وأوراقه، ويقلبونها بعناية، ثم جمعوها وربطوها بخيط قنب. وأخذ شرطي يبحث في المدفأة ويفتش الرماد بواسطة غليون «دوستويفسكي». وصعد أحدهم على كرسي ليرى ماذا يوجد فوق المدفأة، ولكنه تزحلق وسقط على الأرض.

ورأى المفتش قطعة عملة من ذات الخمسة «كوبيك» على المنضدة فتناولها، عند ذلك سأله «دوستويفسكي»:

«أيمكن أن تكون مزورة»؟

فغمغم المفتش: «هذا ما سننظر به».

وضم قطعة النقد إلى الأوراق الثبوتية. وارتدى «دوستويفسكي» ثيابه بسرعة. وغادر الجميع الغرفة التي تبعثرت محتوياتها. كانت إحدى العربات تنتظرهم أمام الباب. وأخذ البواب وصاحبة الغرفة يهزان رأسيهما وهما يريان المستأجر وأولئك الرجال يصعدون بسرعة إلى العربة التي انطلقت في ذلك الصباح الباكر، الذي يكتنفه الضباب. وكانت الشوارع خالية، والجو بارد.

السجن

إلى باحة الشعبة الثالثة، أخذت بعض العربات تصل، تدور فيها وتتوقف.

وأنزل منها المعتقلون الذين ألقي عليهم القبض في مختلف أحياء ومناطق «سان بطرسبورغ». كان المسؤولون يتحققون من هوياتهم، ثم يوزعونهم على القاعات. وعند مدخل كل قاعة كان يقف بعض الجنود المسلحين. وبدت وجوه المعتقلين شاحبة، متجهمة، لا يزال أثر النّعاس بادياً عليها. وعرف «دوستويفسكي» بعض أصدقائه ولمح بينهم، من البداية، أخاه «أندريه» - فبادره بالسؤال: «ماذا تفعل، أنت، هنا»؟

ولكن الحراس فصلوا أحدهما عن الآخر.

وجمع أحد موظفي وزارة الداخلية المتآمرين حوله: وكان يحمل قائمة بأسمائهم فأجرى التفقد وفي أعلى الورقة استطاع «دوستويفسكي» أن يقرأ هذه الكلمات التي كتبت بقلم الرصاص:

«معتمد القضية: أنطونيللي»

وفي اليوم نفسه، قام «ميشيل دوستويفسكي» بزيارة «ميليوكوف».

وكان «ميشيل» يوشك أن ينهار.

فسأله «ميليوكوف» «ماذا بك»؟

- كيف؟ ألم تسمع بما حدث؟

- كلا وماذا حدث؟

- لقد ألقي القبض على أخي «فيدور».

- ماذا تقول؟ أهذا ممكن؟ ومتى حصل ذلك؟

- هذه الليلة... لقد فتشوا منزله... ثم اقتادوه... وختموا باب المنزل بالشمع الأحمر...

- وماذا عن الآخرين؟

- لقد ألقي القبض على «بيتراشفيسكي» وعلى «سبيشنيف» ولا أدري إذا كان هنالك معتقلون آخرون... أما أنا، فإنهم سيعتقلونني غداً، إن لم يكن اليوم...

- ولماذا تعتقد ذلك؟

- لأنهم اعتقلوا أخي «اندريه»... وهو لا يعرف شيئاً عن الموضوع... ولم يذهب أبداً إلى أي اجتماع، فقد اخطؤوا واعتقلوه بدلاً مني»[1]...

فقررا القيام بجولة على أصدقائهما: كانوا كلهم قد اعتقلوا واقتيدوا من منازلهم التي ختمت بعد ذلك أبوابها بالشمع الأحمر.

وأثناء ذلك، كتب الجنرال - كونت «أورلوف» إلى «نيقولا الأول»: «لي الشرف أن أحيط جلالتكم علماً بأن عملية التوقيف قد نفذت، وأن ٣٤ شخصاً مع أوراقهم قد سلموا إلى الشعبة الثالثة». وبتاريخ ٢٣ نيسان (أبريل) الساعة ١١ ليلاً، نقل السجناء إلى قلعة «بطرس وبولس».

وهذه القلعة بناها «بطرس الأكبر»، ومنذ سنة ١٧١٨، كان قد سجن فيها أعضاء مؤامرة «أليكسي» ابن القيصر الأكبر. وفي أحد معاقل هذه القلعة، استجوب ابن القيصر الأكبر وسجن، ثم عذب حتى الموت، وكل جريمته أنه لم يؤيد أفكار والده.

١- من مذكرات «ميليوكوف».

وأثناء حكم «أنا إيفانوفنا» بني سجن خاص في القلعة، وأطلق عليه اسم: «حصن أليكسي»، وكان ذلك عبارة عن تكريم، وإن بدا ذلك غريباً بعض الشيء، لذكرى الإمبراطور «أليكسي ميخائيلوفيتش» وأول من شغل هذا الحصن (السجن الخاص) كانت الأميرة:

«تاراكانوفا» التي يفترض أنها ابنة الإمبراطورة «اليزابيت بيروفنا» والمطالبة بعرش روسيا. كما أنّ «ثوار كانون الأول»:

(LES Decembristes) قد حلوا أيضاً ضيوفاً في حصن «أليكسي». وبعد ذلك بخمسة وعشرين سنة، استقبلت أقبية المعتقل، المعتمة، جماعة «بيتراشفيسكي» القليلة العدد.

والواقع هو أنّ متآمري سنة ١٨٤٩، قد قسموا إلى مجموعتين:

وضع أفراد إحداهما في زنزانات القلعة، وأفراد المجموعة الأخرى، الذين اعتبروا، أنهم (المجرمون الأكثر أهمية)، فقد حشروا في «الحصن المعقل» أي السجن الخاص. وكان «دوستويفسكي» في عداد المجموعة الأخيرة.

كان «الحصن المعقل» أو السجن الخاص، بناء مثلث الشكل، كانت جدرانه الخارجية تتلاطم عليها مياه نهر «النيفا»، السنجابية اللون. وكان هنالك حديقة صغيرة لكي يتنزه فيها المحكومون. وممر طويل على جانبية تسعة عشر باباً، وكان صدى وقع الخطى يتردد من قبو إلى آخر، حيث تسود العتمة.

وصودرت ملابس المعتقلين، وأعطيت لهم، بدلاً منها، ملابس السجناء النظامية: قميص و «بنطال» من قماش الأكياس، ورداء منزلي (روب دوشمبر) من الجوخ العسكري الكثيف. وهكذا، وبهذا الهندام الجديد، دخل «دوستويفسكي» إلى سجنه.

المكان فسيح نسبياً: طوله ستة أمتار، وعرضه ثلاثة أمتار ونصف. فيه سرير ميدان عسكري، صغير، عليه فراش ووسادة محشوان بالقش،

منضدة صغيرة، أسكملة، وعاء للماء، وشمعة من الودك (شحم الأمعاء) مثبتة بالقرب من النافذة، وهذا كل ما هنالك.

والنافذة الصغيرة التي طلي زجاجها بالكلس الأبيض، زودت بقضبان قوية من الحديد، تشابكت فيما بينها. وهنالك خرقة تستر «منظار الباب» الصغير وهو ثقب في الخشب، يسميه السجناء بلغتهم الخاصة: «العين». وهذا الباب يفتح خمس مرات في اليوم: الساعة السابعة من أجل الشاي، العاشرة من أجل التفتيش، عند الظهر من أجل طعام الغداء: (جنق من الحساء وقطعة لحم)، وفي المساء، من أجل طعام العشاء، وأخيراً، في نهاية النهار، يأتي الحارس، فيشعل الشمعة وينصرف.

وهناك يسود الهدوء، ويخيم صمت الحجارة والفضاء، الثقيل والمطبق. ولا تسمع ضوضاء المدينة. ووقع خطى الخفراء، يبدو وكأنه يأتي من عالم آخر، ومن عصر آخر، وتفوح هناك رائحة البلاط العفن، الرطبة. وينخفض لهب الشمعة، يرتعش ثم يتلاشى وينطفئ، وفجأة يخيم الظلام، ويهبط، كشقة جدار، وكالموت.

انتفض «دوستويفسكي»، وضع يديه على صدغيه. لقد انتهى الأمر. يجب أن ينام. وبأي ثمن، ومهما كلفه الأمر، يجب أن ينام، ومع ذلك، كان ذهنه يعمل بوعي محموم. هل هو بائس؟ كلا. وهو في صميم اضطرابه وقلقة، كان يشعر بارتياح لا يجرؤ على أن يعترف به لأحد. فمنذ زمن طويل وهو يعلم بضرورة حصول كارثة، إذ إنّ هذه الحياة الباطلة التي لا قيمة لها، المبددة دون فائدة ترجى منها، من المهم جداً العمل على تحويل مسيرتها. والتوقيف والزج في السجن، يخلصانه من حياته الرتيبة. وخطورة مصيبته كانت تفصله عن بقية بني البشر. فهو قد أصبح أخيراً (فريداً، استثنائياً». وها هو، أخيراً «غير مسؤول» يستطيع أن يرتاح وأن يتنفس الصعداء. فالقدر يعمل لصالحه. ولم يعد الأمر يتعلق به

أو يعود إليه، لكي يكون رجلاً عظيماً أو شخصاً خاملاً وبليداً. وهو يجد نفسه بين يدي الله.

وسيقال له بعد ثلاثين سنة: «يا له من أمر ظالم وسيئ، كان نفيكم إلى سيبريا»! فيردّ: «كلا، لقد كان ذلك حكم العدالة. وكان يمكن أن يديننا الشعب الروسي. ومن قال لكم إنه ربما، هناك في السماء، القادر على كل شيء لم يشأ أن يرسلني إلى سجن الأشغال الشاقة لكي أتعلم فيه وأعرف ما هو الأهم، والذي من دونه لا يمكن العيش والتمتع بالحياة»؟

وطوال شهرين ونصف، منع السجناء من الكتابة إلى أقاربهم ومن تلقي أيّ رسالة.

والبعض من جماعة «بيتراشيفسكي» تحملوا بصعوبة بالغة الحبس الاحتياطي.

وقد عانى «غريغورييف» من «نوراستينيا» نوعية «خور ونهك عصبي» وأصيب «كاتينيف» بمس من الجنون، فاضطروا إلى نقله إلى المشفى، ومع ذلك، فقد توفي هناك، بعد فترة وجيزة.

وأخذ «ياستير جمبسكي» يفكر بالانتحار: «لقد بقيت في حصن المعتقل من ٢٣ نيسان (إبريل) وحتى ٢٣ كان الأول (ديسمبر) ولو كان على أن أبقى فيه لبعض الوقت أيضاً لكنت، دون أي شك، قد فقدت عقلي». (هذا ما كتبه في مذكراته).

كما أنّ «بيتراشيفسكي» الذي كان يعاني من آلام شديدة، كتب شكوى، يصعب تصديقها، أرسلها إلى اللجنة: إنهم يمنعونه من النوم، بالضرب بدقات خفيفة على الجدار، الأمر الذي جعله يفقد ذاكرته. والهمسات والوشوشات تأتيه في جميع زوايا الزنزانة وتقتل لديه تصور شخصيته وكذلك مفهومي الزمان والمكان.

أمّا «أكشاروموف» فقد اقتلع مسماراً من سريره، وأخذ يشحذه لتمضية الوقت: «تارة، كنت أقف بالقرب من النافذة، وتارة كانت أتجول في قفصي بكل الاتجاهات. وكثيراً ما كنت أجثو على الأرض وبعد أن أغطي وجهي بيدي، أتكلم بصوت عالٍ وأبكي، لم أثب واقفاً على قدميّ وأعود إلى قرب النافذة».

و «أندريه دوستويفسكي» الذي اعتقل عن طريق الخطأ، في اليوم نفسه الذي اعتقل فيه أخوه، أخلي سبيله بتاريخ ٦ أيار (مايو) سنة ١٨٤٩. و «ميشيل دوستويفسكي» الذي اعتقل بدلاً من «أندريه» لم يطلق سراحه إلا في حزيران (يونيو). وقد جاء في التقرير:

«ذلك ليس لأنه لم يرتكب أيّ جريمة ضد الحكومة، وحسب بل لقد بذل جهداً كبيراً في محاولته تحذيرهم».

وأحدث شهر تموز (يوليو) انقلاباً في معيشة وحياة المساجين: فقد سمح لهم بمطالعة الكتب، وبكتابه وإرسال الرسائل وتلقيها.

وكتب «فيدور ميخائيلوفيتش» إلى أخيه بتاريخ ١٨ تموز (يوليو) سنة ١٨٤٩:

«أخي العزيز، كنت سعيداً بشكل لا يوصف برسالتك التي تلقيتها بتاريخ ١١ تموز. أخيراً، ها أنت حر طليق. وأتصور سعادتك التي شعرت بها وأنت تعود إلى أسرتك وتراها من جديد... تقول لي في رسالتك إن علي ألاّ أفقد الشجاعة، فأنا لا أفقدها، ولكن من المؤكد أني أشعر بالملل، بالقرف وبالاشمئزاز، ولكن ما العمل؟...

وبصورة عامة يمر الوقت بصورة غير متساوية أبداً: فتارة يمر بأسرع مما ينبغي، وتارة يمر ببطء شديد. حتى أني أشعر أحياناً كأني قد اعتدت على هذه الحياة، وأن كل شيء لديّ سيان وأني لا أبالي ولا أهتم بشيء... وفي الوقت الحاضر، الأيام جميلة، وهذا يتيح لي شيئاً من البهجة. ولكن

عندما تمطر السماء، يصبح جو السجن كئيباً، موحشاً. وانا لا أضيع وقتي: فقد تصورت ثلاث قصص وروايتين... يوجد في طبيعة الإنسان حيوية مدهشة، بل ومذهلة... والحقيقة هي أني لم أكن أعتقد أنه يتمتع بهذا القدر الكبير من الحيوية، ولكني الآن أصبحت أعرف ذلك عن تجربة وخبرة».

وهذا الصفاء الذهني وراحة البال تثيران الدهشة، عندما نتذكر أنّ «دوستويفسكي» لم يكن واثقاً من مصيره ولا مطمئناً عليه، وأنه لا يستطيع التواصل مع أحد من رفاقه. ولكن يبدو أنّ الوحدة تناسبه. وهو يتمتع بصحة تبدو أفضل من أي وقت مضى. وهو يصغي لنفسه ويعيش حياته، وذكريات طفولته وأمله بإخلاء سبيله قريباً، كل هذا يواسيه ويخفف عنه قسوة سريره الصغير، ورداءة رائحة دخان شمعة الشحم، ووقع خطى الخفير التي تدوي في أروقة السجن ويتردد صداها هناك.

وقد ألّف أثناء سجنه قصة «البطل الصغير» التي تبدو ممتعة على استحياء وطافحة بالشعر العاطفي، بانتظار صدور قرار الحكم يروي المتهم يقظة الغريزة الحسية والشهوانية لدى أحد الأطفال.

ولم تنشر القصة إلا في سنة ١٨٥٧.

وأثناء ذلك، كانت الأيام والأسابيع تمر وتمضي، والرسالة التي بعث بها «دوستويفسكي» إلى أخيه بتاريخ ٢٧ آب (أغسطس) كانت أقل حماسة وتفاؤلاً من الرسالة الأولى:

«بالنسبة لي، لا أستطيع أن أقول شيئاً مؤكداً وموثوقاً، فما زال الجهل نفسه بشأن قضيتنا، على حاله، وحياتي رتيبة جداً، أي على حالها كما كانت فيما مضى، ولكنهم سمحوا لي، منذ بعض الوقت بالتنزه في الحديقة، التي يوجد فيها ١٧ شجرة. وهذه النزهات أتاحت لي السعادة. وشعرت بسعادة أخرى، عندما سمح لي بالحصول على شمعة جيدة، في المساء...

أتريد أن ترسل لي بعض كتب التاريخ، فهذا سيكون عملاً ممتازاً ولكن كتاب «التوراة» (العهدان: القديم والجديد) يكون أفضل أيضاً...

لا أستطيع أن أقول لك شيئاً حسناً عن صحتي. فها قد مر شهر على وجه التقريب وأنا أعيش على زيت الخروع... والألم الذي تسببه لي بواسيري يزداد يوماً بعد يوم، وأشعر بألم في صدري لم أكن أشعر به فيما مضى. وبشكل خاص، في الليل، تزداد حساسيتي وسرعة تأثري. وأعاني من كوابيس ليس لها نهاية، أخذت تضايقني منذ بعض الوقت، ويبدو لي أنّ الأرضية الخشبية تهتز وتتأرجح تحتي كأنني أقيم في مقصورة على متن إحدى البواخر»...

وبتاريخ ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٨٤٩:

«صحتي تزداد سوءاً: معدتي تؤلمني، وبواسيري أيضاً، فمتى سينتهي كل هذا؟ وها قد أقبلت شهور الخريف الصعبة، وفيها تزداد وساوس المرض لديّ. الغيوم تغطي الأفق وتحجبه، ومع ذلك فإن الزاوية الصغيرة من السماء الزرقاء التي ألمحها من زنزانتي لا تزال تؤمن لي الصحة والمزاج الحسن»...

والحقيقة أنه كاد يفقد القدرة على المقاومة. والعزلة التامة التي يعيش فيها خاملاً أخذت تدمره ببطء. ولكي يلهو ويتسلى، أخذ يتراسل مع «فيليبوف» جاره في الزنزانة الملاصقة لزنزانته، وذلك بالدق بضربات خفيفة على الحاجز. وهو يشعر بالملل من التفكير ومن عدم رؤيته أي شيء. وحصل لديه انطباع بأنه محصور تحت جرس مفرغ من الهواء، وقد حدث حوله فراغ تام، فلا يستطيع التنفس، ويكاد يختنق. فهل هو إنسان كالآخرين؟ إنه لم يعد يتمكن من تحديد موقعه في الزمان وفي المكان. ولم يعد يعرف فيما إذا كان يحلم أم أنه مستيقظ وعندما كان طفلاً، كان يضع كل مساء على المنضدة الكائنة بجانب سريره، بطاقة صغيرة كتب عليها ما يلي:

«يمكن أن أقع اليوم في حالة من السبات تشبه الغيبوبة، أرجو عدم دفني قبل انقضاء بضعة أيام».

إنه في غيبوبة. وقد دفن. ولم يعد موجوداً.

واستمرت التحقيقات خلال فترة طويلة. وتوالت وتعددت الاستجوابات وأخذ المحققون يتشددون في استنطاق المتهمين، الواحد بعد الآخر. ومن وقت لآخر، كان يدخل ضابط يرافقه دركي، إلى الزنزانة، فيأمر السجين بأن يرتدي ملابسه المدنية ويقتاده عبر الممرات السيئة الإضاءة، إلى الباب الخارجي، وبعد أن يجتازوا الباحة يدخلون إلى «البيت الأبيض»، حيث تقيم لجنة التحقيق.

وهذه اللجنة مؤلفة من خمسة أعضاء: الأمير «غاغارين»، «دوبليت» قائد الدرك، الأمير «دولغوروكي» الجنرال «روستوفتزيف» والجنرال «نابوكوف» حاكم القلعة، رئيساً لهذه اللجنة.

وقد اتهم «دوستويفسكي» بأنه حضر اجتماعات، انتقدت فيها أعمال الحكومة، ووجود الرقابة ونظام الرق والعبودية، وبأنه قرأ رسالة «بيلنسكي» الموجهة إلى «غوغول» والتي تتضمن شتائم ضد الكنيسة الأرثوذكسية، والسلطة العليا» وبأنه حضر قراءة «قصة جندي، التي كتبها «غريغوروييف» وهي قصة مثيرة، نصها «يدعو إلى الثورة».

وحاول أعضاء اللجنة استدراج «دوستويفسكي» إلى الفخ بأسلوب اللين والملاطفة (إنه دفاع، بل نضال «راسكولينكوف»[1] ضد القاضي «يورفير»):

«الإمبراطور سيعفو عنك إذا رويت لنا تفاصيل القضية».

هذا ما قاله له الجنرال «روستوفيتزيف».

١- الشخصية الرئيسية في رواية «دوستويفسكي» الشهيرة: «الجريمة والعقاب».

فلزم «دوستويفسكي» الصمت. عند ذلك وثب الجنرال عن كرسيه وغادر قاعة الاجتماعات، وهو يصيح:

«لا أستطيع أن أرى «دوستويفسكي» بعد الآن». واستمر الاستجواب ولم ينكر «دوستويفسكي» الوقائع: «ولكن من هو الذي لن يكون مذنباً، إذا اتهم كل منا ولوحق، من أجل أفكاره الأكثر سرية وحميمية، ومن أجل ما قيل ضمن حلقة صغيرة وضيقة، خيّرة ومتسامحة، تضم بعض الرفاق»؟

وقراءة «حكاية جندي» حصلت بصورة غير متوقعة أبداً...

والتأثير الذي أحدثته كان باطلاً وليس له أيّ قيمة»...

أما بشأن رسالة «بيلنسكي»، فقد اعترف «دوستويفسكي»، بأنه «تصرف دون تروٍ أو تفكير» بمنح تلك الرسالة دعاية لا تستحقها. وأكد بأن تحرّريته (ليبراليته) تعبر فقط عن رغبته بخدمة وطنه وبأن يكون نافعاً له».

«إني لم أكن اشتراكياً، في يوم من الأيام، وإن كنت قد أحببت مطالعة ودراسة المؤلفات التي تبحث وتناقش المشكلات الاجتماعية».

ولم يستطيعوا أن ينتزعوا منه أدنى اتهام ضد رفاقه في تلك المصيبة. بل وأكثر من ذلك، فقد تعهد هو نفسه بتسريع إطلاق سراح أخيه «ميشيل»: «أقول لكم هذا، لأنّ أخي قد تعرف بواسطتي على بيتراشفيسكي»، وإني وحدي المسؤول عن هذه العلاقة وكذلك عن مصيبة أخي ومصيبة وشقاء عائلته... وهذا التوقف هو عقوبة حقيقية له، في حين أنه أقل جريرة من أيّ كان».

وبدا أعضاء لجنة التحقيق مرتبكين جداً في الوصف القضائي والقانوني لجريمة لم ترتكب. فهل تكفي النية في الثورة لإدانة نشاط هذه المجموعة الصغيرة؟ وهل كان هنالك بالضبط نية ثورية لدى هؤلاء

الليبراليين الثرثارين والمشوشين. فأين ينتهي التطور والتحضير، وأين تبدأ الثورة؟

واستمرت التحقيقات طوال خمسة أشهر، استجوب خلالها شفهياً أو كتابياً ٢٣٢ شخصاً من المتهمين والشهود. وعلى الرغم من التأكيدات التي ردّدها «ليبراندي»، فقد انتهت اللجنة إلى الاعتراف ببراءة المتهمين:

«لا المراقبة الشديدة والحاذقة التي مارسها «ليبيراندي» طوال فترة تقارب العام على تصرفات «بيتراشفيسكي» ولا الاستجوابات العديدة التي أجريت مع الأشخاص الموقوفين... تمكنت من اكتشاف وجود جمعية ذات دعاية منظمة».

هذا ما جاء في القرار الذي أصدرته اللجنة بتاريخ ٢١ آب (أغسطس) ومع ذلك، فقد طلب وزير الداخلية إعادة دراسة القضية من جديد، وفي هذه المرة، قبلت اللجنة بضرورة معاقبة أعضاء المؤامرة: «تقدّر اللجنة أنّ الوقائع المكتشفة، بحد ذاتها، تستحق انتباه الحكومة واهتمامها»...

وبتاريخ ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٨٤٩، عرضت «حالة أو قضية «بيتراشيفسكي» على المحكمة العسكرية، وقامت لجنة خاصة مؤلفة من ستة أعضاء مدنيين ومن ستة جنرالات، بدراسة مسؤولية ثمانية وعشرين شاباً مدنيين بارتكابهم جريمة ضد أمن الدولة.

وبتاريخ ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) أدانت اللجنة الثنائية التكوين: (ستة مدنيين وستة عسكريين)، سبعة سجناء بالنفي، وخمسة عشر بالإعدام، وبإطلاق سراح الستة الآخرين.

ولكن التحقيقات لم تتوقف عند ذلك الحد. وخلافاً لجميع قواعد الإجراءات القضائية، فقد حول الإمبراطور القضية إلى مجلس الدولة العام، الذي يحكم بموجب نصوص القانون العرفي، الصارمة. وبدأ مجلس الدولة بإصدار قراره بأن تشمل الجميع عقوبة الإعدام.

وبعد ذلك، أوحى إلى الإمبراطور بأن يخفف العقوبة ويستبدلها بالأشغال الشاقة. والقرار الأخير والنهائي، صدر كما يلي:

«دوستويفسكي»... لأنه غذّى، وحرض على القيام بمشاريع إجرامية، ولأنه قرأ رسالة الأديب «بيلنسكي»... الخ... فقد حكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة ثماني سنوات، في سيبيريا».

وقد كتب «نيقولا الأول» على هامش القرار:

«لمدة أربع سنوات فقط، وبعد ذلك، يصبح المحكوم كجندي عادي، في الصف».

ولكنه طلب أن يظل إجراء الرحمة والعفو، هذا، طي الكتمان.

منصّة الإعدام

حتى تاريخ ٢١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٩ لم يكن المساجين يعرفون شيئاً بعد عن العقوبة التي حكموا بها. لم يعد أحد يستجوبهم أو يوجه لهم أي سؤال. وكان المسؤولون يرفضون الإعلان عن أي تصريح أو معلومات محددة. فهل سيخلى سبيلهم عما قريب؟

وبتاريخ ٢٢ كانون الأول (ديسمبر)، نحو الساعة السادسة صباحاً، استيقظ الشباب على وقع أقدام كثيرة تقترب، وأصوات تصدر بعض الأوامر وقعقعة السلاح التي أخذت تتعالى.

ودار مفتاح في القفل ففتح الباب. ودخل إلى الزنزانة أحد ضباط الدرك يرافقه مفتش السجن، وطلبا من المساجين في كافة الزنزانات أن يرتدوا ملابسهم المدنية، ثم اقتيدوا، الواحد بعد الآخر، نحو باب الخروج.

ولم يكد «دوستويفسكي» يجتاز العتبة، حتى شعر بالهواء الشديد البرودة يلفح وجهه، فأخذ يرتجف، وهو يتأمل ضوء النهار الباهت الذي يغشاه الضباب. وفي الباحة وقفت بعض عربات الأجرة في صف منتظم. وكانت أحصنة رجال الدرك تتململ وهي تضرب الأرض بحوافرها، وتتعالى خشخشة عدتها. وكان ذوو البذات الرسمية الزرقاء يتراكضون ذات اليمين وذات اليسار.

ودفعوا المحكومين إلى العربات وصاح صوت بقوة: «واحد في كل عربة، وجلس دركي على المقعد بجانب كل سجين. وعندما انتظم الصف

وركب الجميع، دوى أمر حازم، فانطلق الموكب، يرافقه على جانبيه خيالة من رجال الدرك، شاهري السيوف. إلى أين يقتادونهم؟

هل سيقرؤون لهم قرار المحكمة العرفية؟ ولكن كيف يمكن تفسير هذه المسيرة التي لا نهاية لها؟ وهذه الجولة الطويلة؟

وسأل «سييشنيف» الدركي الذي يرافقه:

«إلى أين نحن ذاهبون»؟

فأجابه الدركي:

ممنوع التصريح بذلك.

كانت طبقة من الصقيع المتجمد تغطي زجاج نوافذ أبواب العربة. وكان يبدو أنهم كانوا يعبرون نهر «النيفا» لأنّ حوافر الخيل كانت تنزلق على خشب جسر مؤلف من القوارب. أليس الطريق الكثير الحصى في «ليتينايا» الذي يرسل الرنين الآن تحت عجلات العربات؟ وأراد «سييشنيف» أن يمسح الصقيع الأبيض ويزيله عن الزجاج، ولكنّ الدركي منعه.

«لا تفعل شيئاً كهذا، وإلا سببت لي الجلد».

وبعد ثلاثة أرباع الساعة من السير، - توقفت أخيراً العربات وفتحت بواباتها.

ساحة سلاح فرقة «سيمونوفسكي» الفسيحة.

كان قد تساقط الثلج في تلك الليلة. وفوق الثكنات الصفراء بدت الأسطحة بيضاء: نظيفة وجديدة تماماً، يتصاعد منها البخار وكذلك الدخان، ببطء وهدوء. جمهور كثيف قد اصطف على الجانبين: تجار ملتحون، ياقات معاطفهم مصنوعة من الفرو، نساء ربطن أوشحتهن تحت ذقونهن، طلاب يعتمرون قبعات «الكاسكيت» وموظفون تزين صدورهم الشارات الوطنية، عدد الجميع يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف شخص.

وفي الوسط منصة من الخشب الأبيض، محاطة بحاجز. والجنود اصطفوا على شكل مربع أمام هذه المنصة، وبعيداً، هنالك ثلاث خشبات غرزت في الأرض. وفرغت العربات من ركابها، الواحدة بعد الأخرى. ولمح «دوستويفسكي» «سييشنيف» الذي بدا كعادته، هادئاً، تنم ملامحه عن الازدراء و «غريغورييف» وقد أصابه الهلع، كما كان هنالك أيضاً «بيتراشفيسكي»، فانطلق نحوهم، وأخذ يعانقهم، الواحد بعد الأخر.

فصاح صوت، بلهجة الأمر:

«هيا! إلى الصف»!...

وبدا أحد الكهنة بثوبه الكهنوتي الأسود، حاملاً الصليب، والإنجيل، فوقف في مقدمة الموكب، وسار المحكومون على خطاه، كانوا مرتبكين، حذرين، وأخذوا يتعثرون في الثلج الطري.

وتساءل أحدهم بصوت خافت: «ماذا يفعلون بنا»؟

- إنهم سيقرؤون لنا قرار الحكم... الجميع، أشغال شاقة...

- ولكن لماذا هذه الأعمدة الخشبية؟

- سنربط عليها... وربما أعدمونا رمياً بالرصاص...

- أو تظن ذلك؟!..

ومر العشرون شاباً أمام صف الجنود، وصعدوا على درج المنصة الصغير، وأخذ أحد الضباط يتفقد المحكومين، معدداً أسماءهم، ثم وزعهم حسب ترتيب سرّي: تسعة في الجهة اليمنى من المنصة، وأحد عشر في جهتها اليسرى.

وخلف كل متآمر وقف دركي. وبجانب المنصة، أخذ عدد من الجنرالات بألبستهم الرسمية الزاهية، يتمشون بوقار وكبرياء.

كان «دوستويفسكي» بجانب «مومبيلي»، ولم يكن شديد القلق فهو لا يشعر أنه ينتمي إلى العالم الذي يجري فيه التدريب على هذا العرض

ذي المشهد الضخم. إنه شارد الذهن، فهو في مكان آخر. وفجأة شعر بالحاجة لأن يروي إلى جاره موضوع قصة- تصورها وهو في السجن.

ولكن صوتاً مدوياً قاطعة.

«استعداد»!

- انزعوا قبعاتكم»!

لم يتحرك أحد. وكأن المتآمرين لم يفهموا أنّ الأمر موجه لهم. فتعالت أصوات من بين مجموعة الجنرالات:

«انزعوا القبعات! سيقرأ عليكم تصديق الأحكام».

فانصاع «جماعة بيتراشفيسكي» أخيراً للأمر. وأصبحوا حاسري الرؤوس في ذلك البرد القارس، الذي يضغط بشدة على أصدغتهم، ويجعلهم يبكون.

كانت السماء زرقاء، صافية. وفي الثلج الكثيف، تركت خطوات الشبان حفراً كبيرة وطرية، على جوانب أحذيتهم أخذت تلمع طبقة من النتف البيضاء. وكان الدركي الذي يتولى الحراسة، ينفخ لهم أنفاسه الحارة، في «نقراتهم».

وبدا «المحضر» في وسط المنصبة، وبصوت رتيب، ولكنه سريع، أخذ يقرأ نص الأحكام. ويعدد بالنسبة لكل محكوم، الجرائم التي اعتبروه قد ارتكبها، وينهي عرض الأسباب والمبررات بهذه الكلمات البسيطة: «حكم عليه بالإعدام».

«بيتراشفيسكي»، مومبيلي»، «غريغورييف»، «أكشاروموف»...

وكان المحضر قد لفظ قرار الحكم، تسع مرات، وأضاف:

«دوستويفسكي»... حكم عليه بالإعدام».

فانتفض «فيدور ميخائيلوفيتش» كأنه قد استيقظ من حلم.

«عقوبة الإعدام». في تلك اللحظة، برزت أشعة الشمس عبر الضباب وانصبت على القبة الذهبية التي تعلو كنيسة «سيمونوفسكي» فأخذت تتلألأ، مع أنّ بعض كتل الثلج كانت لا تزال باقية عليها.

وصاح «دوستويفسكي»:

«لا يمكن أن يطلقوا علينا النار»!

ولكن «موميلي» بدلاً من أن يجيبه، أشار له إلى عربة مغطاة بمشمع.

كان هذا المشمع يبدو وكأنّ تحته بعض التوابيت (الحقيقة، كان هنالك بعض الملابس المكدسة تحت المشمع).

لم يكن «دوستويفسكي» قد فهم شيئاً بعد، وقد أخذ يراقب، بصورة تلقائية ثؤلولاً على خدّ أحد رجال الدرك، وانعكاس الأشعة على زر نحاسي. وأخذ ينظر - وسيظل يتذكر ذلك طوال حياته - إلى المحضر وهو يغلق ورقته حسب طياتها، يدسّها في جيبه، يقرص أذنه بطرف أصابعه وينزل ببطء على درجات المنصة.

وفي الحال، حل مكانه أحد الكهنة، وبصوت يشوبه التأثر ألقى موعظة من نص القديس «بولس»: «إن فدية الخطيئة وكفارتها هما الموت». وأخذ يشرح لهؤلاء البؤساء أنّ لا شيء ينتهي هنا، في هذه الدنيا، وأن هنالك أبدية وخلوداً في السعادة ينتظر أولئك الذين يستطيعون أن يندموا وأن يعلنوا التوبة. ثم قدم لهم المصلوب ليقبلوه. و «سشايوشينكوف» وحده، وهو رجل شعبي طلب أن يسمح له بالاعتراف. وعلاوة على ذلك، كان هنالك أمر بسيط لم يلاحظه أحد في بداية الأمر وهو أنّ الكاهن لم يكن مزوداً بالقربان المقدس.

قبّل «دوستويفسكي» الصليب الفضي الصغير، الذي كان قاسياً وبارداً جداً كالجليد. وانتصب، لم يعد يستطيع إن يشك الآن، إذ أنّ وجود

الكاهن قد بدد آخر آماله: فمن الذي يستطيع إذن أن يشرك الكنيسة في مهزلة كهذه؟

ولكنّ العقوبة قاسية لا تتناسب مع الجريمة. «إني لم أستحق هذا، لم يستحق أحد هذا. والظلم يضفي عظمة على هؤلاء البؤساء، الذين يرتجفون في وسط الساحة، على منصة من خشب، وهي ترفعهم إلى موقع الشهداء، وهم يدركون ذلك، ويشعرون بكل جوارحهم بمتعة التضحية العديمة الفائدة. «القضية التي حكمونا من أجلها، الأفكار، والطموحات التي تحكمت بنا لم تكن تثير لدينا أي شعور بالندم، ولكن كان يبدو لنا أنّ تعذيبنا، يمكن أن يطهرنا، نوعاً ما، وأن كثيراً من الخطايا سوف يغفر لنا عنها، بفضل ذلك التعذيب» هذا ما كتبه «دوستويفسكي» فيما بعد، في «مذكرات كاتب. نعم هذه القضية - التي كانوا يناقشونها، كيفما اتفق، مجابهين أحلامهم العبثية، متكبرين، مستنكرين، ساخرين، ها هي تبدو لهم مقدسة، لأنهم سيموتون من أجلها.

أثناء ذلك، غادر الكاهن المنصة. واقترب رجلان من المحكومين: الجلادان، وهما يرتديان ملابس فضفاضة. أيديهما ضخمة، أيدي قتلة، غزيرة الشعر. البوق يدوي، والطبول تقرع في الميادين وهذا الدوي الحزين تردّد صداه جدران الثكنات، وهو يخبو، وينبعث من جديد، مزعجاً، يصمّ الآذان، لا يهدأ ولا ينتهي... أرغم المتآمرون على الركوع، وفوق رؤوسهم أخذ الجلادون يحطمون سيوفاً، دلالة على الفشل والانهيار. ثم ألبسوهم فساتيناً بيضاء صنعت من قماش الأكياس، طويلة الأكمام ومزودة بقبعات.

وربط الثلاثة الأوائل: «بيتراشفيسكي»، «مومبيلي»، و «غريغورييف» بأعمدة المذلة، وأنزل الجلادون القبعات على أعينهم. وصدر أمر موجز. فخرجت ثلاث مفارز من الصفوف ووقفوا صفاً أمام المتهمين.

أغمض «دوستويفسكي» عينيه. إنه السادس في ترتيب تنفيذ حكم الإعدام. الدور القادم سيكون دوره، فبعد خمس دقائق لن يعود موجوداً، فانتابه قلق مخيف، فلا ينبغي إضاعة هذه الدقائق الخمسة، بل يجب استخدامها على أفضل شكل، واستخراج كل روحها، كل الفرحة السرية قبل السقوط والغوص في الظلام. وقسم الوقت الذي بقي له أن يعيشه في هذه الحياة إلى ثلاثة أقسام، دقيقتان لكي يودّع أصدقاءه، دقيقتان للتفكير، ودقيقة لكي ينظر للمرة الأخيرة إلى العالم.

ولكن بماذا سيفكر، وإلى ماذا سينظر؟ إنه في السابعة والعشرين من العمر، وهو يشعر تماماً بقوته وبموهبته ويدركهما جيداً - و، فجأة، الموت، إنه موجود، إنه حي يزرق - وبعد ثلاث دقائق، لن يكون شيئاً، أو شيئاً آخر، أو أحداً ما آخر. وأخذ ينظر أيضاً إلى قبة الكاتدرائية. وها هو لم يعد يستطيع تحويل ناظريه عن هذه القبة التي يتلألأ فوقها الذهب تحت أشعة الشمس. وبدا له أنه، من ثانية إلى أخرى، لم يعد هنالك في الحضور إلا هو وذلك الضوء الهادئ، ولن يشكلا بعد ذلك سوى واحد فرد. وسيصبح هو هذا الضوء، وهذا الهدوء، وسيذوب في المجهول. وانتابه خوف تقلّصي. «وماذا لو لم أمت؟ وإذا ردّت لي الحياة؟ فيا له من خلود!... وكل هذا يمكن أن يصبح لي!... أوه! عند ذلك، ربما سيمكنني أن أحول كل دقيقة إلى قرن، ولن أضيع واحدة منها، وسأحسب حساباً لجميع لحظاتي، لكي لا أستهلك أي واحدة منها، دون روية وتفكير»[1]!...

أثناء ذلك لقم الجنود بنادقهم، وسددوا، فساد صمت يثير الحزن والألم. وانطلق صوت: «نار»! وتلك الأجسام الثلاثة ستنهار على الأرض باسترخاء مؤسف.

١- من رواية: «L,idiot»: (الأبله).

وستنقل من هناك، ليضعوا مكانها ثلاثة محكومين آخرين. ولكن لماذا لم يطلق الجنود النار؟

وبدم بارد تماماً، أبعد «بيتراشيفسكي» طرف قبعته عن عينيه لكي يرى ماذا يحدث: كان هنالك أحد الضباط المرافقين يلوح بمنديل. فنفخ في البوق إعلاناً بالتوقف عن التنفيذ. وفك الجلادون أربطة «بيتراشيفسكي»، «مومبيلي» و «غريغورييف» وأعادوهم إلى المنصة.

فتقدم «المحضر» من جديد، وقرأ وهو يتلعثم قرار العفو:

«المجرمون الذين استحقوا عقوبة الإعدام، حسب نصوص القانون نفسها، منحوا العفو بفضل رحمة صاحب الجلالة، التي ليس لها حدود».

السجن مع الأشغال الشاقة، النفي. الفرحة سقطت على «دوستويفسكي» كما تسقط الكتلة الثقيلة: لقد نجا من الموت!

فأيّ أهمية لكل ما يتبقى! وسيقول إلى زوجته، بعد عشرين سنة: «إني لا أذكر يوماً شعرت فيه بمثل تلك السعادة».

وبالمقابل، بدا بعض رفاقه منهكين من شدة التأثر والانفعال مشمئزين جداً من تلك المهزلة التي لم تكن سوى خدعة، لدرجة أنهم أسفوا على الموت الذي نجوا منه. كان «غريغورييف» شاحب الوجه، يرتجف وتصطك أسنانه، لقد أصيب بمس من الجنون.

لقد شكوا في البداية أن يكون الإخراج القبيح لهذه المهزلة، قد حظي بموافقة الإمبراطور. والواقع هو أنه هو الذي رتب أدق تفاصيله. وخلال يومين حصلت مراسلة مكثفة، بين بعض المكاتب: كم هو عدد الأردية البيضاء التي ينبغي تحضيرها؟ وكم عمود يجب أن ينصب؟ هل يجب أن تحفر بعض الحفر؟ أيجب ربط المحكومين، وتعصب أعينهم؟ وقد أراد «نيقولا الأول» أن يعطي درساً مناسباً وشافياً لهؤلاء «الشبان الطائشين»، ولكنه تجاوز الحد المعقول، وقتل عندهم الشعور بالندم وبالتوبة بدلاً من أن يبعثه ويوجده.

وذكرى عملية الإعدام هذه، ستظل حية في كتب «دوستويفسكي» فقد كتب في رواية «الأبله»: (L, Idiot): هنالك رجال قرؤوا لهم قرار الحكم بإعدامهم، وتركوهم يتعذبون لبعض الوقت... وبعد ذلك قالوا لهم: «انصرفوا فقد سامحناكم وعفونا عنكم». وفي الكتاب نفسه، يصف الأمير «ميسشكين» مشهداً مشابهاً من جميع جوانبه للمشهد الذي حصل في تلك الساحة. وفي «مذكرات كاتب»، يسأل «فيدور ميخائيلوفيتش»: أتعرفون ما هي عقوبة الإعدام؟

إن من لم يرَ الموت بعينيه، ويشرف عليه، لا يمكن أن يعرفها».

كلا، إنه لن ينسى، لن ينسى أبداً. كان الجلادون قد نزعوا عن المحكومين أرديتهم الفضفاضة، وألبسوهم معاطف مبطنة بالفرو، وجزمات مزودة بطبقة من اللباد، وقبعات مصنوعة من الفرو. وصعد بعض الحدادين إلى المنصة واقتربوا من «بيتراشفيسكي» الذي سيرسل في الحال إلى سيبيريا. وألقى أحدهم على المنصة رزمة من السلال أحدثت فرقعة قوية عند سقوطها. وثبت الحدادون السلاسل في رجلي «بيتراشفيسكي»، وأخذ، هو، بكل هدوء، يساعدهم في عملهم. وبعد ذلك، عانق رفاقه في تلك المصيبة، ونزل على الدرج يسنده دركيان، وهو يجرجر رجليه عبر قرقعة السلاسل الحديدية. ورفعوه إلى إحدى العربات وصدر أمر، ففرقع سوط السائق، وشقت العربة طريقها بين الجمهور، الذي عاد فالتأم في الحال بعد مرورها.

كان المحكومون يرتعشون من شدة البرد. فقال أحدهم: «افركوا أنوفكم»! وقال آخر: «افركوا خدودكم فقد تجمدت»! وجثا «كاشكين» و «بالم» على، ركبهما، وأخذا يصليان ويدعوان: وكان «بالم» يتمتم:

«العاهل الصالح»!... أمد الله بعمر الإمبراطور»!

وفيما بعد، أعادت عربات الأجرة المحكومين إلى قلعة «بطرس وبولس».

وحالما وصلوا إلى السجن، فحصهم أحد الأطباء، لمعرفة فيما إذا كانت ملكاتهم العقلية، لم تتضرر من الانفعال الذي انتابهم، ثم اقتيد المحكومون إلى زنزاناتهم التي كانوا يقيمون فيها. ولم يكد «دوستويفسكي»، يصبح وحيداً، حتى أخذ يكتب رسالة إلى أخيه «ميشيل»:

«أخي، صديقي العزيز،

«لقد تقرر كل شيء، لقد حكم عليّ بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة أربع سنوات (اعتقد أني سأمضيها في «أورنبورج») وبعد ذلك بالخدمة العسكرية كجندي صف عادي... وقد قيل لي الآن، إنهم سيرحلوننا اليوم أو غداً. لقد طلبت أن يسمح لي بمقابلتك، ولكنهم أكدوا لي أنّ هذا مستحيل. يا أخي، أنا لست محبطاً أو منهاراً، ولم أفقد عزيمتي وشجاعتي. ومع ذلك فإن الحياة هي الحياة.

والحياة في داخلنا، في نفوسنا، وليس في العالم الذي يحيط بنا. وإلى جانبي سيكون هنالك رجال، وأن أكون رجلاً بين الرجال وأظل هكذا على الدوام، أياً كانت الظروف، دون أن أضعف، ودون أن أسقط، فهذه هي الحياة، وها هو المعنى الحقيقي للحياة. وقد فهمته. وهذه الفكرة دخلت بي وتخللتني إلى اللحم، وإلى الدم...

ربما سنرى بعضنا يا أخي. اعتنِ بنفسك، حاول أن تعيش، بحق السماء، حتى لقائنا المقبل. وربما استطعنا، في يوم من الأيام، أن نتعانق، وأن نتذكر سوية حياتنا الجميلة الماضية، شبابنا، آمالنا التي انتزعها الآن من قلبي الدامي، لكي أدفنها...

أمن الممكن ألاّ أمسك بالقلم، من جديد، أبداً؟ أظن أني سأستطيع أن أفعل ذلك، بعد أربع سنوات. ولو منعت من الكتابة، فإني

سأموت. وأنا أفضل الإقامة في السجن خمس عشرة سنة، على أن يكون القلم في يدي...

«وإذا كان هنالك من يحتفظ عني بذكرى سيئة، وإذا كنت قد اختلفت مع أحد ما، وإذا كنت قد تركت لدى أحدهم انطباعاً سيئاً عني، قل لهم أن يتناسوا هذه المآخذ، عندما ستلتقي بهم.

فلا يوجد شرّ ولا يوجد كراهية في قلبي. وستكون لديّ رغبة شديدة بأن أحب وأعانق أيا كان من رفاقي في هذه اللحظة. وعندما أنظر إلى الماضي، وأفكر بكل ذلك الوقت الذي بدّدته، وبكل ذلك الوقت الذي أضعته في الزيغ والضلال، والأخطاء والتفاهات، بسبب جهلي للحياة، يجتاح قلبي فيض من الدم. سأتطور وأتبدل نحو الأفضل، وهنا يكمن كل أملي وكل عزائي.

(آه! متى سأراك؟ متى سأراك؟ الوداع، إني انتزع نفسي من كل شيء، من كل ما كان محبباً إلى نفسي! إنه لمن القسوة بمكان أن أغادر وأتخلى عن كل ذلك. إنه لأمر قاسٍ جداً أن يكسر المرء نفسه إلى اثنين، وأن يمزق قلبه إلى جزأين. الوداع! الوداع!...

ولكني سأراك ثانية، أنا متأكد من ذلك، وآمله من كل قلبي.

«لا تتغير، أحببني، احفظني في ذاكرتك، وفكرة محبتك ستكون هي فرحتي الكبرى في حياتي، الوداع! مرة أخرى، الوداع!... وداعاً للجميع»...

وبتاريخ ٢٤ كانون الأول (ديسمبر)، في ليلة عيد الميلاد، بالذات، كان ينبغي أن يرحل «دوستويفسكي» إلى سيبيريا، وحصل أخوه «ميشيل» والكاتب «ميليوكوف» على إذن من حاكم القلعة، بمقابلة «فيدورميخائيلوفيتش» قبل سفره. وحصل اللقاء في قاعة كبيرة عارية، في الطابق الأرضي، من منزل الحاكم. كان قد خيم الظلام تقريباً. ومصباح واحد ينير الغرفة.

كان «ميشيل» ورفيقه ينتظران منذ نصف ساعة، أحضروا لهما «فيدور ميخائيلوفيتش» و «دوروف». كان المحكومان هادئين، مرتاحين ومبتسمين.

وكتب «ميليوكوف» فيما بعد: «عند مشاهدتي لوداع الأخوين «دوستويفسكي» خيل لي أنّ الذي كان يتألم أكثر هو الذي سيبقى في «سان بطرسبورغ» وليس ذلك الذي سيسافر عما قريب إلى سجن الأشغال الشاقة في سيبريا. كانت الدموع تشوش الرؤية في عيني الأخ الأكبر، وشفتاه ترتمشان بعصبية. بينما كان «فيدور ميخائيلوفيتش» هادئاً، يحاول أن يواسيه، قائلاً له: «كفّ عن هذا يا أخي، أنت تعرفني، فأنا لا أنزل إلى القبر. وأنت لا تمشي في جنازتي، وليسوا بهائم أو حيوانات أولئك الذين سألتقي بهم في السجن، بل رجال، وربما كانوا أفضل مني، وربما كانوا يفوقونني بكل شيء... وعندما سأخرج من السجن، سأستأنف الكتابة. وقد خبرت كثيراً من الأمور، خلال هذه الشهور الأخيرة، وسأرى الكثير منها، وسأختبر غيرها الكثير، الكثير، هناك. وسيكون لديّ آنذاك ما سوف أكتب عنه»...

وهذا الرجل، الذي كان قبل بضعة أشهر، وهو يتمتع بكامل حريته، يختلق لنفسه الأمراض، ويعاني من الهموم في الليل، يحتقر نفسه ويتشاجر معها، يثور وينتابه الجنون لأي أمر تافه، ها هو الآن يتقبل بشجاعة هادئة تجربة الصعود على منصة الإعدام وألم الفراق. وهذا السقيم جسدياً ونفسياً لا يخشى أربع سنوات من السجن والحرمان والأشغال الشاقة. وهذا لا ينبغي أن يدهشنا، لأنّ «دوستويفسكي» هو رجل المشاعر والعواطف المغالية والمفرطة، التي لا تقف عند حد، فهو لا يشعر بالارتياح إلا في الحالات الاستثنائية. وهو لا يتنفس بشكل مريح إلا في جو تسوده العاصفة. وقد ذكر فيما بعد في كتابه: «مذكرات كتبت في سرداب»:

«أمّا أنا، فإني لم أفعل في حياتي سوى دفع الأمور إلى حدها الأقصى، في حين أنكم أنتم لم تتجاسروا على دفعها إلا إلى النصف»، وقد أضاف: «وهكذا، فإني، ربما أكون حياً أكثر منكم».

وبعد نصف ساعة، اقتاد الضابط المناوب المساجين إلى زنزاناتهم.

وعند منتصف الليل، بالضبط، كانت السلاسل الحديدية التي تزن عشر «ليبرات» (أي خمسة كيلوا غرامات) قد ثبتت في رجلي «دوستويفسكي».

وبعد ذلك، اقتيد «فيدور ميخائيلوفيتش»، «دوروف» و «يسترجمبسكي» إلى الباحة. وكانت هناك زحافات مكشوفة، ربطت سوية بثلاثة أحصنة، تنتظرهم. وفي المقدمة كانت تقف العربة المغلقة التي يستقلها ساعي بريد الوزارة، الذي سيرافقهم إلى «توبولسك» كان الجو صافياً وبارداً في تلك الليلة. ومن أفواه الأحصنة كان يخرج بخار رمادي اللون.

وأركب رجال الدرك المحكومين، في الزحافات، وركبوا بجوارهم. وبناء على أمر ساعي بريد الوزارة، انطلق الموكب، وقد تصاعد صرير الثلج الذي تسحقه الزحافات.

كان «ميشيل دوستويفسكي» و «ميليوكوف» واقفين عند باب السجن، فصاحا بالمسافرين:

«الوداع»!

فرد عليهم المسافرون:

- إلى اللقاء!

وسارت الزحافات الثلاث، مسرعة في الشوارع الهادئة. وكانت الأضواء الساطعة تبدو من نوافذ المنازل، وبدت شجيرات عيد الميلاد الصنوبرية تغطيها الألعاب الملونة، وتبدو عبر زجاج النوافذ وكأنها تشع

بالأضواء. وكانت تبدو أشباح الراقصين والراقصات عبر ستائر «التول» القماش الرقيق والشفاف. فتلك ليلة عيد الميلاد، عيد «دوستويفسكي» المفضل. والناس سعداء، كانوا يضحكون، يأكلون ويشربون، يداعبون أطفالهم، ويفكرون بشؤون وقضايا المستقبل.

ولم يكن يخيل لأحد منهم أنه في تلك اللحظة، هنالك ثلاثة رجال منزوين في زحافات مستأجرة، متجمدين من البرد، منهكين من التعب والهم، يغادرون «سان بطرسبورغ» إلى سجن الأشغال الشاقة في سيبيريا.

وكتب «دوستويفسكي» إلى أخيه، فيما بعد، أي في سنة ١٨٥٤:

«أخذت انظر باهتمام إلى «سان بطرسبورغ» التي كنا نعبرها. وتجاوزنا منزلك، ومنزل «كرايفسكي» حيث كانت تشع الأنوار. وهناك شعرت بحزن مميت. وكنت أعرف، منك أنت، أنه كان هنالك «شجرة عيد الميلاد» وأنّ «إيميلي فيدورفنا» ستقود إليها الأطفال. وكان يبدو لي أني أودعهم. وكم أسفت لذلك، وكم افتقدتهم، وكم من مرة، بعد عدة سنين، تذكرتهم أيضاً، وعيناي تطفحان بالدموع»!...

كانت الرحلة شاقة ومتعبة. والفروات القصيرة التي أعطيت للمحكومين لم تكن تكفي لوقايتهم من البرد القارس. وبعد التوقف عدة مرات في محطات البريد، للاستراحة، توقفت القافلة، عند الفجر، في فندق «شليسلبورغ» الريفي. وسار المحكومون الثلاثة، وهم يجرجرون سلاسلهم وينفخون في أصابعهم التي خدرها البرد، إلى القاعة العامة حيث جلسوا لكي يحتسوا بعض أكواب الشاي. وكتب «دوستويفسكي» يصف تلك المناسبة:

«كنت مرحاً، وأخذ «دوروف» يتكلم دون انقطاع، أما «يستيرجمبسيك»، فكان متشائماً، ويرى أنّ المستقبل قاتم».

وساعي بريد الوزارة، الذي كان «عجوزاً طيباً، واسع الخبرة» وافق على تدبير زحافات مغطاة لمساجينه. كما وعدهم أيضاً بأن يطيل فترة

التوقف في الاستراحات، وأن يتحمل نصف النفقات واستأنفت القافلة السفر في وضح النهار. وبمناسبة الأعياد، فقد ارتدى السائقون سترات من الجوخ الرمادي الألماني وتزنروا بنطاقات من قماش أرجواني. وبدت القرى خالية وأسطحة منازلها تلمع تحت الثلج الأبيض. وكانت أغصان الأشجار ساكنة، وكأنها غمرت بمياه متجمدة، تحت سماء زرقاء، تميل زرقتها للاخضرار. وكانت مراحل الرحلة التي تستغرق عشر ساعات ترهق الأحصنة والمسافرين. وأصبح البرد لا يطاق، وفي منطقة «بيرم» وصل إلى ٤٠ تحت الصفر.

وكان اجتياز جبال «الأورال» كارثة كبيرة. فقد حدثت عاصفة ثلجية. وأخذت الأحصنة تتعثر، والزحافات تغوص في الثلج وتتوقف، وكان على المسافرين أن ينزلوا منها، في ظلام الليل، لجذب مزالق الزحافات وتخليصها من الثلج، وتهدئة الأحصنة، وتسوية الثلج المتراكم أمامها. والثلج الذي كانت تدفعه وتبعثره الرياح، كان يلفح الوجوه والأيدي كالسياط. وضوء المصابيح الخافت كان يتذبذب ويكاد يخمد وينطفئ. وقد كتب «دوستويفسكي»:

«حولنا، الثلج والعاصفة... وأمامنا سيبيريا وخفايا وأسرار مستقبلنا، ووراءنا ماضينا كله. كان ذلك يبعث على الحزن فبكيت».

وبتاريخ الحادي عشر من كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٥٠ وبعد رحلة استغرقت ثمانية عشر يوماً، وصل المنفيون، أخيراً إلى «توبولسك».

وكانت هذه المدينة، في تلك الفترة، محطة لفرز المساجين وتوزيعهم على السجون المختلفة. وفور وصول المبعدين الثلاثة، أدخلوا إلى مكاتب إدارة السجون.

وفي تلك الأماكن المعتمة والقذرة، جلس كتبة يرتدون البزة الرسمية الخاصة بالمحكومين بالأشغال الشاقة وعلى جباههم بدت الحروف المذلة التي تشير إلى ذلك.

كانت خياشيمهم مجرّحة، وعلى خدودهم ندبات جروح قديمة، وأخذوا يكتبون في السجلات، بهمة الطلاب المجتهدين.

وسأل مفتش السجن:

«هل هم مقيدون»؟

- نعم.

- إذن فتشوهم»!

فصادروا ما في جيوبهم من نقود، وزجاجة «روم» كانوا قد اشتروها أثناء رحلتهم. ثم اقتادوهم إلى القاعة العامة.

«وكانت عبارة عن غرفة ضيقة، مظلمة، باردة، ووسخة» ثلاثة أسرة ميدان صغيرة مغطاة بأكياس محشوة بالقش.

وكانت تنتشر في المكان رائحة اللحم الفاسد والوسخ الذي تجمد من شدة البرد. والجو الذي يسوده الغبش، كان يغص بالناس: صراخ، شتائم ضحكات، وعندما يخف الصخب قليلاً، كان يسمع وقع خطوات الخفير، خلف الباب.

كان «دوروف» قد فقد الإحساس برجليه ويديه، من شدة البرد. و «ياسترجمبسكي» تجمدت أرنبة أنفه. و «دوستويفسكي» كان يعاني من دمل في فمه.

وأثناء ذلك، ساد نشاط محموم بين شاغلي الغرفة. فقد أخذ المحكومون يستعدون للمرحلة الأخيرة. كان المسؤولون يصححون وضع السلاسل والقيود، وتحلق رؤوس المحكومين، ويرسمون العلامات المذلة على أذرعتهم وعلى عظام أكتافهم. وهذه العلامات كان لها معاني مختلفة وسرية:

«KAT: محكوم بالأشغال الشاقة... Sk: منفي... SB: هارب من سجن الأشغال الشاقة».

ومع كل محاولة هرب، كانوا يضيفون «دمغة» أي عبارة جديدة، بدءاً من المرفق. وهذه الأعمال كان ينفذها المحكومون بالأشغال الشاقة، أنفسهم، وكانوا يقومون بمهمتهم، وقد بدا الجد والتجهّم على وجوههم.

كان هذا أكثر مما ينبغي، وقد طفح الكيل، وأخذ «ياسترجمبسك» يتذمر ويشكو بصوت عالٍ، ويتحدث عن الانتحار. وقد كتب: «كنت أفكر بما يمكن أن تقوله أختي، لو أنها رأتني في هذا المكان». وكان «دوستويفسكي» هو الذي يواسيه.

وحصلوا بعد ذلك بقليل على الإذن بتناول الشاي وبتدخين «سجائر»، كان «فيدور ميخائيلوفيتش» قد تمكن من تخبئتها عندما قام مفتش السجن بتفتيشهم.

بقي «فيدور ميخائيلوفيتش» ورفاقه ستة أيام في «توبولسك». وكان يقيم في هذه المدينة بعض «ثوار كانون الأول» الذين أخلي سبيلهم من سجن الأشغال الشاقة، ولكنهم يقضون في سيبيريا عقوبة النفي المتممة: «مورافييف»، «أنانكوف» «فون فيزين»... وكانت زوجاتهم تقوم بأعمال الخير والبر، ويخففن في حدود إمكاناتهن، من بؤس ومعاناة المساجين الذين يتوقفون لبضعة أيام، يقضونها في مساكن البلدية.

وعندما علم ثوريو سنة ١٨٢٥ بوصول أولئك الذين آمنوا مثلهم «بقضية الحرية» وناضلوا مثلهم وسقطوا مثلهم تحت ضربات حكم جائر، وأنهم أصبحوا في المدينة، تأثروا كثيراً، وحاولوا عند ذلك مساعدتهم وتشجيعهم. وأرسلت زوجاتهم المأكولات والمشروبات إلى أولئك المحكومين. وطلبن من المفتش السماح لهن بمقابلتهم في منزله.

وقد كتب «دوستويفسكي» فيما بعد في كتابه: «مذكرات كاتب»:

«لقد رأينا أولئك «الشهيدات» العظيمات اللواتي تبعن، بملء إرادتهن، أزواجهن إلى سيبيريا، ومع أنهن بريئات، لم يرتكبن أيّ ذنب، فقد تحملن طوال ٢٥ سنة طويلة العذاب نفسه الذي تحمله أزواجهن».

واستمرت المقابلة ساعة. وفي لحظة الفراق، باركت زوجات «ثوار كانون الأول» المحكومين، وسلمن لكل منهم إنجيلاً، وهو الكتاب

الوحيد الذي كانت قراءته مسموحاً بها في السجن. وكان على «دوستويفسكي» أن يحتفظ بهذا الكتاب وإلا يفارقه معتبراً إياه كذخيرة مقدسة.

وعندما انسحبت الزائرات، ألقى «دوستويفسكي» نظرة على الكتاب الذي كان في يده، كان غلافه مشقوقاً من الداخل، وقد دس في هذا المخبأ ورقة نقد من ذات العشرة روبلات.

وبتاريخ السادس عشر من كانون الثاني، غادر «دوستويفسكي» و «دوروف» «توبولسك» إلى «أومسك» وقد نص أمر حكومة سيبريا الغربية، بوجوب «معاملتهما دون أي تسامح».

وعلى بعد ثمانية كيلومترات تقريباً عن «توبولسك»، توقفت الزحافة في أرض عراء. كانت السيدتان «فون فيزين» و «فرانتسيف» قد رشتا رجال الدرك للحصول على الحق بتوديع هؤلاء الذين تحرصان على حمايتهم ومساعدتهم. وكانتا تنتظران، وقد بدتا كأشباح سوداء ضائعة في الثلج.

وكان اللقاء قصيراً ومقتضباً: شد على الأيدي، كلمات للمواساة والتشجيع:

«لقد كتبنا إلى «أومسك»، وهناك سيهتمون بكما، وسيحاولون التخفيف من مشقة وصعوبات مصيبتكما»...

كان رجال الدرك يقفون على بعد بضع خطوات، وقد نفد صبرهم: يجب استئناف السير. فرسمت المرأتان إشارة الصليب على رأسي المحكومين: «ليكن السيد المسيح معكما». وصعد «دوستويفسكي» و «دوروف» إلى الزحافتين. وفرقع السوط، وانطلقت القافلة التي كان رنين أجراسها الصغيرة، خفيفاً على الطريق الأبيض الطويل المؤدي إلى «منزل الأموات».

سجن الأشغال الشاقة

بتاريخ ٢٣ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٥٠، بعد أيام وأيام في الزحافة، عبر الثلوج المنهمرة والرياح العاصفة، أنهى أخيراً «دوستويفسكي» و «دوروف» رحلتهما.

كان حصن «أومسك» محاطاً بمرتفع غرس فيه ١٥٠٠ وتداً من خشب السنديان على شكل حاجز من الركاسات. وعند المدخل، انتصبت مباني الإدارة، ومباني مصلحة الهندسة، والقيادة العامة. وبعدها توجد بعض الثكنات القديمة المبنية من جذوع الأشجار الرديئة.

وبعيداً، هنالك المطبخ والسقيفة والمستودع. وفي وسط الباحة، فسحة واسعة وخالية، تستخدم لتجميع المساجين والقيام بتفقدهم.

وكان قائد الحامية في سجن «أومسك»، فظاً ومخيفاً، وهو يدعى «كريفتزوف» ولكنّ المحكومين لقبوه بـ «فاسكا ذو الثماني عيون» لأنه لم يكن هنالك شيء يفوته تبيّنه والاطلاع عليه. كان غبياً، متكبراً وقاسياً. وتفكيره بأن سلطته لا حدود لها يجعله ينتشي ويسكر، وكذلك الخمر أيضاً، فهو كالبالوعة: يشرب ولا يرتوي.

وعندما كان يدخل إلى القاعة، الغيظ بادٍ في عينيه، اللعاب يخرج مع الكلام الجارح من بين شفتيه، كان المساجين الأكثر صلابة يشعرون بالخوف كالأطفال. لم يكن يتورع عن مغادرة سريره في الليل، لكي يقوم

بتفتيش الناس الذين يرثى لهم والذين يعاملهم باحتقار كأنهم قطيع يمتلكه، من الماشية. كان ذلك السكير، مشعث الشعر، يقف في وسط المهجع، وهو يترنح من السكر، يقوم بتوبيخ المحكومين ولومهم على احتسائهم الخمر.

وكتب «دوستويفسكي» إلى أخيه، إنه أيضاً في بعض الأحيان، كان يشتم أحد المحكومين، لأنه لا ينام على جنبه الأيمن، أو لأنه كان يصرخ، أو يهذي أثناء نومه»..

والعقوبة كانت رادعة: الجلد بالقضيب.

وكل شهر، كان «كريفتزوف» ينظّم تقريراً عن سلوك المساجين ويرسله إلى الإدارة.

وكانت شكاوى المساجين تجمع، ثم تفحص وتدرس من قبله، وهو الذي يبت بها. كان يستطيع أن يأمر بتخفيف العقوبة أو بقتل أي رجل، وذلك بتكليفه القيام بعمل مرهق جداً، يفوق طاقته وقد أمر بتطبيق عقوبة الجلد بمئة ضربة عصا، على أحد البولونيين وكان أستاذاً سابقاً في الجامعة وفي الخمسين من العمر، بحجة أنّ الرجل السيئ الحظ، صرّح عند وصوله: «نحن لسنا لصوصاً، نحن محكومون سياسيون».

وقدم «دوستويفسكي» و «دوروف» إلى «كريفتزوف» في اليوم نفسه الذي وصلا فيه إلى السجن. فرأيا أمامهما رجلا جريئاً مزهواً بقوته، أنفه محبحب وعيناه دامعتان، خداه بارزان ومورّدان، ما اسمك؟

- دوروف

- وأنت؟

- دوستويفسكي.

- أيها المساعد... أرسلهما في الحال إلى السجن، وليحلق رأسيهما في مركز الحرس، حلاقة مدنية، أي نصف الرأس فقط، والقيود ستغير

غداً... انزعوا عنهما هذه الثياب، واتركوا عليهما الملابس الداخلية فقط، شريطة أن تكون بيضاء.

والباقي سيباع بالمزاد. فالمحكوم بالأشغال الشاقة ليس له ما يملكه. وانتبها جيداً، أنتما الاثنين، كونا عاقلين! لكي لا أسمع شيئاً عنكما، وإلا... فهنالك العـ - قو - بة الجسد - ية... وعند أدنى مخالفة، إلى الجـ - لـ - د با لعـ - صا!»...

وفي فترة بعد الظهر، قام حلاق السجن بتنفيذ أوامر «الماجور» فحلق رأس «دوستويفسكي» على نصف مساحته. وقص نصف شاربه وكل لحيته. وهذه العملية التي كان ينبغي أن تتجدد كل أسبوع، كانت عذاباً حقيقياً، لأن موسى الحلاق لم يكن مشحوذاً وقاطعاً، أكثر من قطعة تنك. وحدّه لم يكن يقطع، بل كان يكشط الجلد ويدميه، ويقتلع الشعر. وكان الرجال يتلوون ويتململون، وهم جالسون على الكراسي الخشبية، يصيحون ويهددون بالتمرد والثورة.

وفيما بعد، وافق محكوم كان لديه أدوات حلاقة خاصة به، على أن يحلق لـ «دوستويفسكي» مقابل «كوبيك» واحد، لكل حلاقة.

كان اللباس النظامي الذي على المساجين أن يرتدوه، مكوناً من بنطال رمادي، وسترة نصفها رمادي والنصف الآخر أسود، تحمل علامة على شكل مربع أصفر مثبت على الظهر، وفروة قصيرة وقبعة (كاسكيت) ليس لها واقية للوجه.

فلنتصور في تلك اللحظة «دوستويفسكي» «كاتب المستقبل» صديق آل «مايكوف» الأليف، والعاشق الذي أحب «أفدوتيا باناييف» وهو يبدو كالمهرج المضحك في ذلك الهندام، برأسه الأحلس الذي يميل لونه إلى الزرقة من إحدى جهاته، ومغطى بالشعر الأشقر من الجهة الأخرى، وهو

بنصف شارب، والقيود الحديدية في رجليه، وقد تجمع حوله زمرة من الأشقياء، وأخذوا يضحكون، يجدّفون ويشتمون.

وكتب «دوستويفسكي» فيما بعد، في كتابه: «ذكريات من منزل الأموات».

«لم يكن أحد هناك يستطيع أن يدهش أحداً».

ولدى أولئك الأموات - الأحياء، كان اختلاف وتنوع الجرائم ليس له شبيهاً سوى تنوع الأجناس والأعراق:

فهنالك الشراكس واليهود والمغول والأوكرانيون، والبولونيون والمسكوفيون، واللصوص، ومزورو النقود والقتلة العاديون، وقاتلو الوالد أو الوالدة، والمحكومون السياسيون.

وكان هنالك «ميخائيلو» الذي قتل سيده بعدة ضربات بالبلطة: كان سيده قد أرسل من خطف له زوجة هذا البائس، الشابة، بعد بضع ساعات من الانتهاء من تناول الطعام في حفلة العرس. و «ميخائيلو» نفسه، سبق له أن طعن أحد المراقبين وبقر له بطنه، على أثر «سوء تفاهم» حصل بينهما.

مع أن «ميخائيلو» هذا كان يبدو شاباً هادئاً، وديعاً وجميلاً كإحدى الفتيات. وكان هنالك «أريستوف» الذي ارتكب جريمة الابتزاز بالتهديد والتخويف، والذي أخذ يتجسس على رفاقه في السجن ويجلب لهم الفودكا وورق اللعب. وكان هنالك أيضاً شاب جبلي الأصل، سبق له أن ساعد أخوته بدافع من العصبية العائلية على سلب بضاعة وأمتعة تاجر أرمني، بالعنف والقوة، وكان هنالك لص عتيد ومحنك، سبق له أن قتل طفلاً في الخامسة من عمره، بعد أن أغراه وألهاه ببعض اللعب.

البعض كانوا غير واعين بأخطائهم ولا يشعرون بها ولا يتحدثون عنها أبداً، والآخرون كانوا معذبين بتبكيت الضمير، ويتحرقون شوقاً

للبوح بهمومهم وبشكواهم لأي كان. ولكن القاعدة، بين المحكومين بالأشغال الشاقة، كانت دقيقة وصارمة: «لا ينبغي التحدث عن ذلك، والتحدث عنه كان غير مقبول أبداً».

ويرون في الدفاع عن أنفسهم ضد أي فضول أو تطفل، نوعاً من التمنع والدلال. وكان القادمون الجدد يدركون بسرعة أن مغامراتهم لا يمكن أن تدهش أحداً. فالجميع هناك كانوا قساة، يشعرون بالسأم والاشمئزاز. وكان وضع سجين الأشغال الشاقة يعتبر كلقب فخري، على كل واحد أن يكون فخوراً به، وأنه ينبغي عليه أن يستحقه. والانصياع لأوامر مسؤولي وموظفي السجن لم يكن يعتبر تصرفاً مهيناً، بل هو ثمن لنوع من الالتزام كان المحكوم قد وقع عقداً به مع السلطات العامة يتضمن فوائد ومزايا لمصلحة الجانبين.

وقد كتب «دوستويفسكي»:

«السجن والأشغال الشاقة لا ترفع من شأن المجرم، بل تعاقبه بكل صراحة وبساطة وتحمي المجتمع من الاعتداءات التي يمكنه أن يرتكبها فيما بعد».

والذي حصل هو أن «دوستويفسكي» أمضى السنوات الأربع الأكثر جدوى وفائدة، من حياته، بين هذه الطغمة الكريهة من اللصوص والنصابين والقتلة.

وعند حلول الظلام، كان باب المهجع يغلق، وهذا المهجع كان عبارة عن قاعة فسيحة مبنية من الخشب، خربة، مهدمة وجوها شديد البرودة. وأرضيتها الخشبية التالفة مغطاة بطبقة كثيفة ورخوة من القذارة والأوساخ. وكان زجاج النوافذ يلونه الوحل في الصيف ويغطيه الجليد في الشتاء. والسقف كان يدلف وتشر منه المياه، وتنساب تيارات الهواء القوية بصورة مفاجئة من بين لوحات الحاجز، الخشبية، غير الملتحمة جيداً. وقد

كتب «دوستويفسكي» فيما بعد إلى أخيه: «كنا متراصين على بعضنا كسمك في برميل. وحتى لو وضعوا عشر قطع كبيرة من الحطب في المدفأة، فلم نكن نشعر بالدفء (وبالكاد كان الجليد يذوب في الغرفة) ولكن الدخان كان لا يطاق. وكان المساجين يغسلون بأنفسهم ملابسهم الداخلية في الغرف، بحيث كان يوجد على الدوام في الغرف مستنقعات صغيرة من الماء، منتشرة في كل مكان، لدرجة أن أحدنا لا يعرف أين يضع قدمه عندما يريد أن يمشي. ومنذ حلول الظلام وحتى طلوع الصبح، كان الخروج ممنوعاً، بأيّ ذريعة كانت، وكانوا يضعون عند باب كل قاعة دلواً كبيراً، تستطيع أن تعرف أنت لماذا سيستخدم، وطوال الليل كانت الرائحة التي تفوح منه تكاد تخنقنا، كما كان جميع المساجين تنبعث منهم رائحة كريهة كرائحة الخنازير، ولكنهم كانوا يقولون، بما أننا مخلوقات حية، فكيف يمكن ألا تحصل منا قذرات ونجاسات؟ كانت أسرتنا مكونة من لوحين من الخشب، وأغطيتنا معاطف قصيرة لا تغطي رجلينا التي تظل مكشوفة ومعرضة للبرد الشديد، الذي يجعلنا نرتعش طوال الليل. أما البق والقمل والصراصير، فمن الممكن أن تكال بالصّاع..

وحالما يبتعد وقع أقدام المراقبين عبر ظلام الليل، يبدأ المساجين بتنظيم سهرتهم: يتناولون المسكرات، يلعبون الورق، تحدث بعض المشاحنات. وكان بعض المحكومين بالأشغال الشاقة يلقبون بـ «أصحاب الحانات» وهم مختصون بتجارة «الفودكا»، وكان لهم مساعدون وأعوان، يتداركونها من «الخارج»، أثناء الأعمال، ويحضرونها إلى السجن بأمعاء البقر التي يلفونها حول أجسامهم.

وهذه الخمرة كانت تُغش ويُضاف إليها الماء، من قبل الوسطاء الذين يشتركون في عملية التهريب، كل منهم يقوم بذلك بدوره، لذلك

كان ينبغي على من يحتسيها أن يتناول كمية كبيرة منها لكي يسكر وكان هذا يدغدغ بشكل غامض وغريب كبرياء المساجين.

كان لعب الورق محظوراً في السجن، ولكن كان هنالك بعض المساجين الذين كانوا يلقبونهم بـ «حراس الألعاب» لأنهم كانوا يقبلون البقاء في غرفة الانتظار، ليترصدوا وصول «الماجور» ولينبهوا رفاقهم إلى ذلك. والمشاحنات كانت كثيرة الحدوث، وعند ذلك يعلو الصراخ والضجيج. وكان بعض المحكومين مشهورين بما يحفظون ويرددون من ألفاظ بذيئة وشتائم، يرتبونها على مستويات ودرجات مختلفة. فيتحلق كثير من السجناء حولهم، ليشاهدوا ذلك المشهد وليستمعوا إلى تلك المنافسة في فصاحة القذارة. وكان لكل مجموعة أبطالها وكانت تدعمهم بقوة بكثير من الصفير والصراخ.

وقد كتب «دوستويفسكي» عن ذلك، قائلاً:

«علمت فيما بعد، أن ذلك النوع من المشاهد التي تحدث فيها المشاحنات والخناقات. كانت بريئة تماماً، وأنها تحصل من أجل التسلية العامة». ولكن بعض المشاجرات العنيفة كانت تحدث في بعض الأحيان، وتستمر إلى أن يتعب المتشاجرون فينامون وقد أنهكهم التعب والنعاس. وبينما يأخذ بصيص الشموع يخمد وينطفئ، لم يعد هنالك في القاعة الواسعة سوى قرقعة السلاسل وهي تتحرك، وشخير النائمين، وعبر تلك الرائحة الحيوانية، وذلك البرد القارس، وفي ذلك الجو الموبوء الذي يشبه جو الإسطبل، كان «دوستويفسكي» يبحث عن النوم وعن النسيان وكان جاره في السرير القريب من سريره، يده تتدلى خارج السرير، وليس هنالك من شك، بأنه سيفتش له جيوبه، حالما يلاحظ أنه قد استغرق في النوم. وأخذ أحدهم يئن ويشكو وهو يحلم في نومه، على السرير الآخر المجاور، وأخذ سجين آخر يسعل في آخر القاعة، ويرسل أصواتاً وشهقات فظيعة. ونهض سجين غيره، واقترب، كمن يمشي في نومه، من السطل.

كان «فيدور ميخائيلوفيتش» محصوراً في وسط ذلك البؤس الفظيع والشامل. وأخذ يسبح عبر تلك الأجسام المكونة من لحم وعظم، وعبر ذلك الفكر المبتور والمعطل.

وتحت الفروة القصيرة، التي لا تكاد تغطي له ركبتيه، كان يتحسس بيده الإنجيل الذي أهدته إياه إحدى زوجات «ثوار كانون الأول».

وفي الصباح الباكر، يُقرع طبل الاستيقاظ، في مركز الحراسة ويفتح أحد الضباط باب السجن، فيدخل الهواء النقي بسرعة إلى الغرفة، ويطرد رائحة تلك الماشية الوسخة، ويثير عاصفة من البخار اللبني اللون عند أسفل الأسرّة. وكان المساجين ينهضون، غاضبين يرتعشون من البرد. فيعمد بعضهم، بفعل العادة إلى رسم إشارة الصليب، بينما يتشاجر آخرون في الوقت الذي كانت فيه لا تزال شمعة واحدة من الشحم تنير المكان.

وفيما بعد، وعبر الطنين البطيء الذي تحدثه السلاسل، يصطف المساجين حول دلاء ملئت بالماء. فيأخذ كل منهم بدوره الإناء، يسكب «بقاً» (قليلاً من الماء) في فمه، يتمضمض به، وينقله من جهة إلى أخرى في فمه، يبصقه في يديه، ويغسل به، بعد ذلك، وجهه.

وكان «دوستويفسكي» يقف في الصف منتظراً دوره يراوح مكانه وهو ينفخ بين أصابعه التي تجمدت من شدة البرد.

كان الطعام كريهاً: خبز وحساء بالملفوف تسبح فيه بعض قطع اللحم. وفي أيام الأعياد يتلقى المحكومون صحنا من البرغل المطبوخ وأثناء الصيام يعطى لهم الكرنب المسلوق بالماء.

وكتب «دوستويفسكي»:

«المحكومون بالسجن مع الأشغال الشاقة العاديون لم يكونوا يستطيعون أكثر منا الاكتفاء بهذا النظام، ولكنهم كانوا كلهم يقومون، داخل الثكنة، بتجارة بسيطة، يربحون فيها بعض «الكوبيكات»

ومن جهتي، كنت أشرب الشاي، وأحصل أحياناً لقاء بعض النقود، على قطعة من اللحم. وهذا ما أنقذني. وعلاوة على ذلك فقد كان من المستحيل الامتناع عن التدخين، مع أنه كان يمكن أن نصاب بالاختناق في مثل ذلك الجو. ولكن كان علينا أن نفعل ذلك خفية وبالسر».

استقبل «دوستويفسكي» و «دوروف» بحذر، من قبل رفاقهما في السجن. فالقادمان كانا شخصين مثقفين ومن طبقة النبلاء، وبالتالي فهما عدوان.

وعلاوة على ذلك، فإن جريمتهما غير معروفة ولا يمكن فهمها. فمن قتلا؟ وماذا سرقا؟

وقد كتب «دوستويفسكي» فيما بعد:

«كان من الممكن أن يأكلونا، لو تركت لهم الفرصة ليفعلوا ذلك، ولو فكرنا قليلاً، فأيّ حماية نستطيع أن نأمل الحصول عليها، لأننا كان علينا أن نعيش، نشرب ونأكل وننام مع هؤلاء الناس خلال عدة سنوات، وليس لدينا حتى الفرصة أو الإمكانية لكي نتظلم أو نشتكي من الإهانات والاعتداءات التي يلحقونها بنا، لا سيما وأنها كانت لا تحصى».

«أنتم نبلاء، فمكم قاسٍ ولسانكم سليط، لقد أشبعتمونا ضرباً وجلداً، سابقاً كنتم سادة، تعذبون أبناء الشعب، والآن أنتم أقل من أدنى واحد منا»: هكذا كان نموذج وموضوع لومهم وتوبيخهم لنا طوال أربع سنوات».

و «فيدور ميخائيلوفيتش» الذي كان يود أن يكتسب مودة وصداقتهم رفاقه، شعر بألم شديد، أكثر من أي كان، بسبب صلفهم وقسوتهم.

ومع ذلك، فإنه بنية حسنة وبكل صبر وأناة، أخذ يحاول أن يتشبه بهم وأن يتقبل أفكارهم، وخصوماتهم ومطالبهم. ولكن أولئك المساجين

العاديين أخذوا يقدرون أنه قد تجاوز الحد. ولأنه يتسوّل صداقتهم، فذلك يعني أنه لا يستحقها.

وذات يوم، وقد استاء المساجين من الطعام الذي يقدم لهم، قرروا أن يتقدموا بالشكوى إلى الماجور «كريفتزوف».

فانضم «دوستويفسكي» إليهم.

فصاح به أحدهم: «ماذا تفعل هنا، لقد خرج هو أيضاً من وكره!.. انظروا إلى قاتل الذباب!.. أنت، مع ذلك، تأكل حصتك من اللحم في المطبخ!..

- ولكن، هنالك جماعة منكم، يأكلون أيضاً هناك، على انفراد، ومع ذلك فليسوا مرضى أو ضعفاء.. وعلينا، باعتبارنا رفاق، أن نتفاهم..

- آه! كلا.. كيف يمكنك أن تكون رفيقنا؟...»

فاضطر «دوستويفسكي» إلى التراجع والانسحاب. وقد كتب فيما بعد:

«كل قادم جديد، بعد دخوله إلى السجن بساعتين، يجد نفسه وقد وضع في صف الآخرين بالذات. ولا يتم ذلك بالطريقة نفسها بالنسبة لرجل حسن التهذيب. فمهما كان منصفاً، ذكياً وطيباً، فسيرى نفسه مكروهاً ومحتقراً طوال سنوات بكاملها»..

وكان السجن يضم بعض «المثقفين» من أصل بولوني، سبق أن حكموا بالسجن مع الأشغال الشاقة لاشتراكهم في إحدى الثورات: وكان منهم الأستاذ السابق «جادوفسكي» الذي كان يلقبه المساجين بـ «القديس» لأنه كان يصلي كثيراً، و «بوغوسلافسكي»، الذي لقبوه بـ «المريض»، و «توكارجيفسكي» و «ميريتزكي» اللذين جلدا بالعصي قبل أن يتم إبعادهما إلى سيبيريا. ولكن هؤلاء أيضاً لم يتفهموا «دوستويفسكي» وبالحقيقة لم يحبوه أبداً.

فقد كانوا متحمسين لفكرة القومية البولونية، يكرهون روسيا والروس، ويفتخرون بإعلان هذه الكراهية في كل مناسبة. وكانوا يرفضون الاعتراف بـ «فيدور ميخائيلوفيتش» كاشتراكي وديمقراطي، وحتى بكونه أحد «الرواد المطالبين بالحرية». كانوا يعتبرونه ضعيفاً، ومجرداً من الشعور بالكرامة. فهم لا يتقبلون أن يكون رجل ما قد حكم بسبب جريمة ضد أمن الدولة، وبناء على إرادة الإمبراطور بالذات، يقضي عقوبة السجن مع الأشغال الشاقة، ويتحمل النفي والتعب والبرد والبؤس، والاختلاط بالمجرمين العاديين، ومعاشرتهم، ومع ذلك فهو يستطيع الامتناع عن إبداء أقل شكوى ضد السلطة المركزية، وينادي بالدور المسالم والمسيحي للملكية وللشعب اللذين أنكراه وأبعداه ظلماً ودون أي وجه حق. فهذا الخضوع إلى المذلة والإهانات، وهذا التقبل الهادئ والوديع لأقسى الآلام البشرية، وهذا الذل، والارتياح إليه بل والتلذذ به، كان يثير حفيظتهم، كوضع عبثي وغير معقول.

ومع ذلك، فإن «دوستويفسكي» كان بالفعل صادقاً عندما كان يدعي بأنه لا يحقد على أولئك الذين دمروا حياته.

فهنالك ضربات على درجة كبيرة من القوة، بحيث يبدو أي رد عليها، سخيفاً ومضحكاً. وهنالك إشارات خفية وعجيبة لا يمكن إلا الانصياع لها، لأنها تعيدنا إلى حجمنا الحقيقي والبائس. فنتحرك، نكتب، ونثرثر، وفجأة تنقض علينا يد ضخمة، ويطغى صوت قوي على صراخنا ولم نعد شيئاً، ونصبح سعداء لأننا لم نعد شيئاً، وألا ننتمي بعد ذلك لأنفسنا، وأن ندع أحداً من الآخرين يعمل ويلعب لنا، يخسر أو يربح لنا، ويهيئ لنا مستقبلاً يطفح بالفرح أو يشوبه العناء والبؤس. ويا له من غرور أحمق أن نطالب دائماً بالدور الأول! ويا لها من وقاحة أن نحاول على الدوام قهر القدر والتغلب عليه!

نعم، أحياناً يكون وجود الله بديهياً، واضحاً جداً، مخيفاً جداً، وشديد اللطف والعذوبة، لدرجة أنه يخرجك ويستبعدك من حياتك الخاصة. وهذا يمكن أن يدوم بضع لحظات، ساعات أو أيام. وبعد ذلك، نشعر كأن نظرةً قد تحولت، كأن رباطاً (رسناً) قد أفلت، فنصبح مسؤولين، ويجب على كل منا أن يعمل ويتصرف، وألا يعتمد ألا على نفسه.

عند ذلك تبدأ مأساة الإنسان الحقيقية.

وهذه «الغفوات» المفاجئة، في قلب الأحداث وزحمتها، التي تليها عودات قاسية من الوعي، ستعرفها جميع شخصيات «دوستويفسكي» مثلما عرفها، هو، نفسه. إذ إن «راسكولنيكوف» عندما يقتل المرابية العجوز، يشعر أنه مشلول، مرغم، و «معذور» كما لو أن أحداً ما قد أمره دون أيّ مقاومة، «كما لو أنه قد اقتيد، هو نفسه للإعدام... كما لو أن ذيل معطفه قد علق بين مسننات دولاب آلة، وأنه سحب وجر إليه، بكامله»...

ولكن، بعد ذلك الحدث، تتباعد مسننات الدولاب فيفلت الشخص، ويقف على قدميه، يحرك أطرافه، ويشعر أخيراً أنه حر.

لقد استطاع «دوستويفسكي» الفوز والتغلب على تجربة السجن ومحنته والأشغال الشاقة، لأنه، من البداية، كان قد تقلبها. فاستطاع أن يعود ويصبح هو نفسه، لأنه تخلى عن أن يكون هو نفسه لبعض الوقت. واستطاع أن يربح لأنه كان قد قبل أن يخسر.

كان «دوستويفسكي» تابعاً للفئة الثانية، المكونة من العبيد الأرقاء، والموضوعة تحت السلطة العسكرية. وهذه الفئة كانت تعتبر أكثر خطورة من الأولى أي فئة المناجم، والثالثة وهي فئة الطرقات، لأنها كانت خاضعة لتنظيم الأفواج التأديبية.

«دائماً في القيود الحديدية، دائماً تحت الحراسة، ودائماً تحت القفل والمفتاح»...

كل يوم، كان المساجين يرسلون إلى «الأشغال الشاقة». كانوا يستخدمونهم لنقل القرميد، أو لتدوير المطاحن اليدوية، أو لسحق بعض المواد القاسية.

وكتب «دوستويفسكي» إلى أخيه يقول:

«العمل شاق. وقد حصل معي أين عملت، وكنت متعباً جداً، والطقس سيئ للغاية، تحت المطر وفي الوحل، أو في البرد القارس الذي لا يطاق، في فصل الشتاء، وقد بقيت، مرةً، أنفذ عملاً إضافياً طوال أربع ساعات، كان الزئبق قد تجمد والبرد تجاوزت درجته ٤٠ تحت الصفر، وشعرت أن إحدى رجليّ قد تجمدت».

كان عمله المفضل هو نقل الآجر من على ضفاف نهر «الايرتيش» إلى الثكنة.

وقد قال:

«هذا التمرين يعجبني، وأن كان الحبل الذي يستخدم لربط القرميدات يجرح لي، على الدوام، كتفيّ. ولكن كان يحلو لي أن أفكر أني بهذا العمل أنمي قوتي العضلية»..

في الأيام الأولى، لم يكن يستطيع أن يرفع سوى ست قرميدات وزنها اثنا عشر ليبرة (أي ستة كيلوغرامات)، ثم أصبح يرفع ويحمل عشرة، وفيما بعد أصبح يحمل دزينة من تلك القرميدات.

وأمام المحكومين، كان النهر يجري، قوياً وهادئاً، والسهوب منبسطة تمتد على مدى البصر. والهواء عذباً ندياً، وأغاني الفتيات «الكرخيزيات» تتصاعد من الضفة المقابلة، وبعيداً تبدو خيمة مكونة من الجلود، والدخان يتصاعد منها بهدوء، وبالقرب منها امرأة «كرخيزية» تعمل وهي تحرس خرافها.

كل شيء يتحدث موحياً بالحرية، بالانطلاق والهرب، بالحياة المريحة والبسيطة. كان هنالك أزهار قد نبتت في شقوق ضفة النهر الصخرية. والقلب ينقبض عند التفكير بكل ما كان قد فقد وضاع.

كان «فيدور ميخائيلوفيتش» يحب أيضاً أن يجرف الثلج من أمام الأبنية الحكومية. والرفش ينغرز في الطبقة الرخوة، يغوص ويختفي فيها حديده، حتى نصابه الخشبي. دفعة بطيئة، ومكعب من المسحوق الأبيض يغادر الأرض محمولاً على الحديد العتيق الرطب وقد بلله الثلج، ومن جديد، يغوص الرفش في الكتلة التي يبهر بياضها الأنظار. ويمكن عدم التفكير بأي شيء. ويمكن أن تنسى تلك السلسلة التي تقيد قدميك المجروحين. ويمكن أن يخيل للمرء أنه حر، خلال إحدى اللحظات. ولكن يكون قد دوى أحد الأوامر، فيجب الانضمام إلى الصف، إحناء الرأس، والعودة إلى الثكنة لحضور التفقد.

وأحياناً، يقف أحد المارة من سكان المدينة، عند مرور صف المساجين، يشعر بالشفقة عليهم، فيناول أحدهم «كوبيكين».

والسلطات المحلية، باستثناء الماجور «كريفتزوف»، كانت متعاطفة مع «دوستويفسكي».

وبسبب سوء صحته، ودون شك أيضاً بفضل مساعي ووساطات أصدقائه في «بطرسبورغ» وفي «توبولسك»، فقد استدعي «فيدور ميخائيلوفيتش» ذات يوم، للعمل في مكاتب إدارة السجن.

وهناك تمتع بالراحة وبالسعادة الجسدية والغريزية خلال فترة استمرت ثلاثة أشهر. ولكن العقيد «مارتنس» ارتأى أن المجرم السياسي لا يمكن أن يستخدم في مكاتب الإدارة. فأعيد «دوستويفسكي» في الحال، وانضم إلى رفاقه السابقين.

كان ضباط الصف الذين يخدمون في السجن، من البحارة السابقين في أسطول «البلطيق». وقد جردوا من رتبهم، وأبعدوا إلى سيبيريا، لأنهم قاموا بحركة تمرد في «مدرسة البحرية». وبعد سنة من الإبعاد، عينوا «صف ضباط» وكلفوا بمراقبة المحكومين الذين يقومون بأعمال بسيطة وبمهمات خفيفة، داخل السجن.

وفي بعض الأحيان، كان «البحارة الصغار» كما كان المساجين يلقبونهم، هم الذين يحددون المستفيدين من هذه الحظوة. ولم يكن يفوتهم أن يضعوا اسم «دوستويفسكي» على قائمة هؤلاء، كلما تمكنوا من ذلك. وكانت الإدارة المركزية تغض الطرف عن هذه التجاوزات البسيطة.

وذات يوم، وكان «دوستويفسكي» قد بقي في الثكنة، بحجة أنه يقوم ببعض الأعمال في مركز الحراسة، دخل الماجور «كريفتزوف» فجأة إلى الغرفة، فرأى «فيدور ميخائيلوفيتش» مستلقياً على سريره الخشبي، وأخذ يصرخ:

«ماذا يعني هذا؟ لماذا لم يذهب إلى العمل؟

فقال البحار الذي يقوم بالخدمة:

- إنه مريض.

- كلام فارغ! أنا أعرف أنكم تتسترون عليه دائماً!

إلى مركز الحراسة! والجلد بالقضبان»!...

وبينما كان يجري الاستعداد لتنفيذ هذا الأمر، استطاع البحار إبلاغ ذلك إلى حاكم القلعة. فحضر الجنرال «دي غراف» في الحال إلى المكان، ومنع، بصورة علنية، الماجور «كريفتزوف» من إخضاع المرضى للعقوبات الجسدية.

وأصغى «كريفتزوف» للتأنيب، وهو يقف باستعداد، وقد احمر وجهه، واستبد به غضب شديد.

وكان رئيس أطباء مشفى السجن، الدكتور «ترويتزكي» يقدم أيضاً بعض المساعدات المفيدة للسجين «دوستويفسكي»، فقد كان يستقبله في المشفى، في فترات متقاربة، وبعد التظاهر بمعاينته، يستبقيه هناك لكي يرتاح، خلال بضعة أيام.

وكان «دوستويفسكي» يرتدي آنذاك ثوب المرضى الملوث ببقع القيح والبلغم، الجافة، ويعتمر الطاقية القطنية الوسخة وينتعل «شحاطة» بالية، وفي كل مكان على الجدران، على الأغطية و «الحرامات» تبدو البقع المشبوهة: أثار سحق البق، بقايا القيء، نتف من اللزقات والضمادات. وتنتشر في المكان، رائحة العفن الكريهة. وفي الليل، يوضع إناء كبير في الغرفة، مع أن المراحيض كائنة في الممر. على بعد خطوتين من الباب.

وهنالك مصباح صغير يضيء بنوره الضعيف جو تلك الغرفة التي تضم تلك الأجساد المعذبة التي تبحث عن النوم. وكان هؤلاء المعذبون يشكون بأصوات ضعيفة كأصوات الأطفال. وفي بعض الأحيان، كان ضابط الصف يستدعي حداداً لكي ينزع القيود الحديدية من رجلي أحد المرضى الذي فارق الحياة.

كانت زوجة «ترويتزكي» ترسل «لفيدور ميخائيلوفيتش» الشاي، وحتى الخمر، في معظم الأحيان، والصحيفة الفرنسية: «الشمال».

وقد كشف عن هذه التصرفات أحد زملاء «ترويتزكي». وأرسلت شكوى إلى العاصمة. فكلف أحد مستشاري محكمة الجنايات في «توبولسك»، بالذهاب إلى «أومسك» وإجراء التحقيق في هذا الموضوع، ولكنه لم يستطع الحصول على أي دليل حاسم، وكانت النتيجة أن القضية طويت وحفظت. وهذا هو كل ما حصل وعلى سؤال المستشار:

«هل كتبت شيئاً في السجن أو أثناء إقامتك في المشفى»؟

أجاب «دوستويفسكي»:

«لم أكتب شيئاً، ولا أكتب شيئاً، ولكني أجمع وثائق ومواد، سوف استخدمها فيما بعد.

- وأين توجد إذن هذه المواد؟

- في رأسي».

والحقيقة هي أنها كانت موجودة تحت وسادة مساعد الطبيب المناوب.

وبينما كان بعض العمال يعملون في هدم بناء على ضفة نهر «الايرتيش»، سقطت بلطة السجين «روجنوفسكي» في النهر. فطلب منه الحارس أن ينزل ويحضرها. فخلع السجين ملابسه وهو يشكو ويتذمر، ثم ربط سلاسله الحديدية ونزل في الماء. فأمسك به «دوستويفسكي» وأحد رفاقه، بواسطة حبل طويل. ولكن «الماجور» بدا فجأة، وهو سكران، كعادته:

«لا ينبغي أن يتوقف أحد عن العمل! وليتدبر الأمر، هو بنفسه هيا، اتركا الحبل»!

ولكن لا «دوستويفسكي» ولا رفيقه، انصاعا للأمر، فشحب وجه «كريفتزوف» وأخذ يرتجف بكل شحم خديه، وصرخ بأعلى صوته:

«إلى مركز الحراسة، بعد الانتهاء من العمل»!

وعند المساء، عاد «دوستويفسكي» إلى الثكنة، شاحب الوجه، متقلص الفم، شارد النظرات، تنم ملامحه عن الحيرة والارتباك. وفيما بعد، أثناء الليل، استيقظ بعض المساجين على أصوات غريبة كضباح أحد الحيوانات، كان «دوستويفسكي» يتدحرج على الأرض وهو يتلوى وقد أصيب بنوبة صرع حادة، وأخذ يضرب الجدار برأسه. فاضطروا إلى ربطه، وشد وثاقه.

فهل جلد «فيدور ميخائيلوفيتش»، بالفعل، بناء على الأمر الذي أصدره الماجور «كريفتزوف»، أم أن الحادثة التي سبق ذكرها ليست سوى أسطورة؟ الآراء موزعة ومختلفة حول هذا الموضوع.

وجلد رجل نبيل كان يعتبر حدثاً خطيراً، في أوساط المساجين، وفي السجن بصورة عامة. وعندما جلد النبيل البولوني «جادوفسكي» سمع جميع سكان «أومسك» بتنفيذ هذه العقوبة، واستنكروا قسوة «الماجور» غير المعقولة. والحال هي أن أيّ معلومات واضحة ومحددة، لم يحصل عليها سكان المدينة، بشأن عقوبة «فيدور ميخائيلوفيتش» وقد كتب الدكتور يانوفسكي ما يلي: «أبداً أني لم أسمع شيئاً كهذا، إن كان من «فيدور ميخائيلوفيتش» أو من أخيه «ميشيل» الذي كنت قد تطرقت معه إلى الموضوع، مع ذلك، أكثر من مرة، وبكل صراحة»..

(من رسالة إلى «ماريبكوف»، بتاريخ ١٢ آذار (مارس) سنة ١٨٨١)

ويضيف:

ومن جديد، أي منذ فترة وجيزة، توقفت في مدينة «جنيف» وهناك تحدثت مطولاً، خلال عدة ساعات مع كبير كهنتنا:

«آ. - ك. بيتروف» وكان يعرف «دوستويفسكي» بصورة شخصية، ويعرف أرملته. وهذا الرجل قال لي إن «فيدور ميخائيلوفيتش»، كثيراً ما كان يتحدث إليه عن كل شيء وبكل صراحة.. ولكنه لم يذكر ذلك أمامه ولم يورد أقل إشارة إلى هذا الأمر «المخيف والذي لا يمكن أن ينسى».

والبارون «فرانجيل» ليس أقل صراحة ووضوحاً، فقد قال:

«أستطيع أن أؤكد، بناءً على ما قاله «فيدور ميخائيلوفيتش» نفسه، أنه لا في السجن، ولا أثناء خدمته كجندي عادي، لم يسبق لأي رئيس أو لرفيق له في السجن، أو لأيّ عسكري أن رفع يده عليه».

و «إيميه دوستويفسكي»، ابنة «فيدور ميخائيلوفيتش»، احتجت بهذه العبارات على هيئة تحرير مجلة «العهد الجديد»:

«لا أدري من أين استطاعت أن تختلق هذه الأسطورة الأدبية وغير المعقولة والتي لا أساس لها، المتعلقة بالعقوبة الجسدية، التي يقال إنها يمكن أن تكون قد نفذت بحق والدي، في سجن الأشغال الشاقة».

وأياً كان الأمر، فممّا لا شك فيه أن محنة السجن مع الأشغال الشاقة، قد نمت لدى «دوستويفسكي» الاستعداد للإصابة بمرض الصرع.

وإذا كانت النوبة الأولى تعود إلى زمن وفاة والده، وإذا كانت الإصابات المتفاوتة شدتها قد هزت وزعزعت الكاتب الشاب الذي كان يقيم في «بطرسبورغ» فإنما في السجن ظهر هذا المرض اللعين، وأخذ لديه مداه الحقيقي.

وقد كتب «ميليوكوف» ما يلي:

«قبل عودته من سيبيريا، لم أكن أشك بشيء أو ألاحظ أي شيء ينم عن هذا المرض، ولكنه عندما عاد إلى «سان بطرسبورغ» لم يعد مرضه سراً خفياً على أحد».

وفي آذار (مارس) سنة ١٨٥٢، طلب الجنرال، حاكم قلعة «أومسك» من السلطات العامة السماح له بتغيير وضع السجينين «دوستويفسكي» و «دوروف»، وتحريرهما من قيودهما.

ومر الطلب على جميع الدوائر الإدارية، قبل أن يصل إلى الإمبراطور الذي رفض الموافقة عليه.

واستؤنفت الحياة رتيبة ومملة، كل يوم يشبه تماماً اليوم الذي سبقه: «كما تشبه نقطة الماء نقطة ماءٍ أخرى».

قبل موعد الأعياد، يقتاد المساجين إلى الحمامات، وأيّ حمامات، كان الحمام عبارة عن قاعة ضيقة، جوها حار للغاية، عابق بالدخان الأبيض. وحشر فيها ما يقرب من مائة سجين، أخذوا يتخبطون في الوحل، ويحاولون الصعود على بعض الدرجات، وهم يرشون على أجسامهم الماء

الوسخ، ويفركونها بأغصان وأوراق شجر السندر. كانوا عراة، فبدت أجسامهم مشوهة، وعلى ظهورهم التي طرّاها البخار الحار، برزت آثار الجلد بالقضبان وقد اندملت وأصبحت متورمة بنفسجية اللون. كانوا يصرخون، يهزون سلاسلهم ويطالبون بأواني إضافية ملأى بالماء.

وكتب «دوستويفسكي»:

«من خلال البخار الذي يكتنف الجو، كانت تبدو ظهور مجرحة ومنحنية، رؤوس حليقة، أيدٍ نحيلة وسيقان هزيلة ومقوسة..

وقد خطر على بالي، أنه لو كان علينا أن نلتقي جميعنا في جهنم، لكان المكان يشبه تماماً هذا الحمام الذي كنا آنذاك موجودين فيه.

كان الصوم الكبير، في السجن، يوقظ لدى «فيدور ميخائيلوفيتش» ذكريات تسبب له حزناً مؤلماً. كان يتصور نفسه طفلاً يدخل إلى الكنيسة التي تشع فيها الأنوار، وتدوي في أرجائها أناشيد جوقة المرتلين، فتبدو آنذاك كل روحه وكل جسمه، وكأنهما قد تجددا بهذه الذكرى العلوية، التي تسودها الأصوات العذبة وتعبق فيها رائحة البخور.

وفيما مضى، كان ينظر بعطف وشفقة، إلى الفقراء من عامة الشعب، الذين يتجمعون بالقرب من مدخل الكنيسة.

«كان يبدو لي آنذاك، أن من كانوا يقفون قرب الباب لا يصلون مثلما نصلي نحن في أماكننا داخل الكنيسة، وأنهم يصلون بخشوع وحمية، ويطيلون الركوع، مدركين بكل وعي لخضوعهم الشديد.

والآن، فقد أتى دوري لأشغل ذلك المكان، وفي أوضاع أكثر سوءاً ومذلة أيضاً، كنا مقيدين بالسلاسل والأغلال، وقد دُمغنا بعلامة الذل والمهانة، وكان المصلون يبتعدون عنا، ويبدو عليهم أنهم يخافون منا، ومع ذلك فقد كان البعض منهم يتصدقون علينا، وأني لأذكر أن ذلك كان بالنسبة لي وبشكل غريب ظريفاً للغاية»..

وبمناسبة الأعياد الدينية الكبرى، كان المساجين يرتدون ثياباً نظيفة، ويحاولون جاهدين على الخصوص أن يلاطفوا موظفي السجن، وان يظهروا لهم اللطف والمودة.. وكانت الوجبة التي تقدم لهم سخية ودسمة، وعلى موائد تسترها أغطية بيضاء.

ولكن، في مساء ذلك اليوم نفسه، كان المساجين يبدون سكارى، بشكل كريه، يتخاصمون ويتضاربون. وكان «الشراكس» الذين لا يشربون سوى الماء. يذهبون فيجلسون عند العتبة ويتأملون بفضول مشوب بالقرف مشاحنات أولئك السكيرين الذين كانوا يصرخون، يغنون، ويعزفون على آلة «البلاليكا».

والبعض يتقيؤون، بينما يلعب الآخرون، طوال الوقت، بالورق.

وقد كتب «دوستويفسكي»، فيما بعد:

«وشيئاً فشيئاً، يصبح هواء الغرفة فاسداً لا يصلح للتنفس، ومثيراً للغثيان. ومع ذلك، فلم تكن تخلو من مشاهد مثيرة للضحك، ولكني كنت أشعر أني حزين للغاية، ومشفقاً جداً على جميع هؤلاء البؤساء، لدرجة أني كنت أكاد أختنق».

في اليوم الثالث من العيد، قرر المساجين تقديم مسرحية. وأقيم المسرح في ثكنة الفئة العسكرية. وحجزت بعض المقاعد لضباط الصف، وبعض الكراسي للضباط، الذين كان هنالك أمل بأن يحضروا لمشاهدة المسرحية، وفي الجانب الخلفي، كان يتزاحم المساجين وقوفاً، حاسري الرؤوس الحليقة ووجوههم مجرحة.

«كان كل منهم يريد أن يبدو على أفضل شكل أمام السادة وأمام الزوار».

وأخيراً رفع الستار عن «ديكور» مرتجل ومؤقت وكان المساجين الذين يمثلون أدوار السادة الملاكين أو سيدات المجتمع، يجرون، كالآخرين، سلاسلهم على خشبة المسرح.

وكتب «دوستويفسكي»:

«كان ذلك بالنسبة لهم (أي بالنسبة للمشاهدين» تسلية ومتعة أن يروا، على سبيل المثال «فانكا» الفتى المشاغب أو «نييتسفيتاييف»، أو «بكلوشين» في بزة غير التي اعتادوا أن يروهم يرتدونها كل يوم، منذ عدة سنوات. إنه سجين مع الأشغال الشاقة، وليس سوى ذلك بقيوده الحديدية التي تحدث فرقعة، وها هو يبدو على المسرح، لابساً «رودنغوت» قبعة مستديرة ومعطفاً أنيقاً كأحد السادة».

وبعد انقضاء فترة الأعياد، تعود الحياة في السجن إلى سابق عهدها، فتضاف الأيام إلى الأيام، والشهور إلى الشهور. والرتابة القاتلة تغمر «فيدور ميخائيلوفيتش» والوحدة تضنيه، فليس هنالك أحد يستطيع أن يشكو له همومه ويبثه أشجانه. ولا شيء يستطيع قراءته سوى الإنجيل وبعض الصحف الفرنسية النادرة الوجود. وهذه العزلة كانت أسوأ أنواع العذاب.

فلو أنه استطاع أن يظل على اتصال مع ذويه، وحسب! ولكن كان ممنوعاً على المساجين المراسلة الخاصة، باستثناء بعض الحالات الاستثنائية والتي كانت تحدد بدقة وقسوة. و «ميشيل» من جهته لم يكن يرسل رسائل إلى سيبيريا، خوفاً من أن يتعرض للعقوبات وللانتقام. كان متزوجاً ورب أسرة. وقد تعرض للاعتقال ظلماً ودون وجه حق. ولذلك فهو يخشى أن يتعرض للشبهة وللاتهام، وأن يعرض أخاه، لهما أيضاً، فيما لو كتب له.

وحالما أخلي سبيل «دوستويفسكي»، وخرج من السجن، وجه عتاباً مؤثراً إلى أخيه «ميشيل»:

«... قبل أي شيء، دعني أسألك، بحق الله، لماذا لم تكتب لي حتى اليوم سطراً واحداً؟ ما كان بإمكاني أن أصدق أبداً أن هذا يمكن أن يحصل!.. لقد بعثت لك رسالة بواسطة هيئة أركاننا، ومن المؤكد أنها قد وصلتك، وانتظرت جوابها منك: ولكن لم يصلني شيء. أيمكن أن يكونوا

قد منعوك من مراسلتي؟ ومع ذلك فهذا أمر مباح ومسموح به: وجميع المحكومين السياسيين يتلقون بضع رسائل في السنة. وقد تلقى «دوروف» عدة رسائل. أعتقد أني أدركت السبب الحقيقي لصمتك. فأنت لم تذهب، بدافع من الكسل، للحصول على المعلومات من الشرطة، أو إذا كنت ذهبت لهذه الغاية، فقد اطمأنيت إلى أول إجابة سلبية أتتك من شخص ليس لديه معلومات صحيحة».

وقد برر «ميشيل» موقفه، فيما بعد، في رسالة لا يعرف عنها الكثيرون شيئاً، وكانت بتاريخ ١٨ نيسان (أبريل) سنة ١٨٥٦:

«بعد فراقنا بثلاثة أشهر، حاولت أن أحصل على إذن بالكتابة لك. ويشهد علي ضميري والسماء أني بذلت جهداً كبيراً وحماسة شديدة في مسعاي للحصول على ذلك الإذن، وعلى الرغم من ذلك فإني لم أستطع الحصول على شيء، كانوا يجيبوني ذاكرين أن ذلك مستحيل بموجب نصوص القانون، طالما أنت محتجز في سجن الأشغال الشاقة.. وبشأن المراسلة السرية، فقد كان لدي ما يكفي من المعلومات المتعلقة بها لكي لا أجازف بممارستها. ولذلك قررت أن أساعدك في أيّ فرصة تتاح لي، دون أن أعرضك ودون أن أعرض نفسي لعقوبة انتقامية، بسبب أبسط سطر تكتبه يدي.

يا أخي، ويا صديقي، لدي ستة أطفال، وكنت أجد نفسي، وربما لا أزال أجد نفسي، أن الشرطة تراقبني، أفلا تظن أن قراري بعدم مراسلتك، له ما يبرره، وأنك ينبغي أن تعذرني عليه»؟

ومما هو جدير بالذكر، أنه حتى بعد إخلاء سبيل «فيدور ميخائيلوفيتش» لم تكن، مع ذلك، رسائل «ميشيل» إلى أخيه أكثر عدداً.

كانت السنة الأخيرة التي أمضاها «دوستويفسكي» في السجن أقل مشقة، بالنسبة له، من السنوات الأولى، فقد توصل إلى اكتساب مودة

ورعاية بعض المساجين، واستطاع التعرف على بعض سكان المدينة، كما حصل على إذن بمطالعة بعض الكتب:

«سيكون من الصعب عليّ أن أعبر عن الانطباع الغريب الذي أحدثه لدي أول كتاب، بل عدد واحد من إحدى المجلات.. كنت أتمسك بالكلمات، أقرأ بين السطور، أحاول اكتشاف الفكرة الخفية والإشارات إلى الماضي، وأبحث عن آثار ذلك الذي كان في الماضي، في زمن شبابي، يثير ويحرك الأفكار والأذهان. وأي حزن انتابني عندما كان عليّ أن أعترف إلى أي حد كنت أظل غريباً عن الحياة الراهنة»..!

وأخيراً أصفرت أوراق الأشجار، وجفت الأعشاب ويبست في السهوب، وأخذ الثلج يتساقط، خفيفاً، تتلاعب به الرياح. واقترب موعد إخلاء السبيل والحصول على الحرية. و «دوستويفسكي» هادئ جداً. يلتقي به بعض المساجين، في الباحة، يهنئونه، فيجيبهم:

«وأنتم، سيأتي أيضاً دوركم.

فيقول أحدهم، وهو يتأمل السماء، بنظرات شاردة:

- أوه! أنا ليس بهذه السرعة، ما زال عليّ أن أمضي هنا سبع سنوات.

عشية اليوم الأخير، عند الغسق، قام «دوستويفسكي» كعادته، بجولة حول الحاجز، كان يودع تلك الأوتاد والأعمدة المسودة، وتلك الأكشاك القديمة، وقد انتابه شعور من الكآبة الشديدة، إذ إنه في داخل هذا الحاجز قتل شبابه ودفن آماله. وهو سيخرج من السجن، متعباً، فاتر الهمة والعزيمة، وقد تقدمت به السن، ومن جديد، سيكون عليه أن يناضل، يعاني ويتألم، أن يعيش.. ولكن من أجل أي شيء؟ ومن أجل من؟

في الصباح الباكر، قبل موعد الذهاب إلى العمل، قام «دوستويفسكي» بزيارة قاعات السجن، لتوديع رفاقه:

«كثير من الأيدي النحيلة والقاسية امتدت نحوي. ولكن أولئك الذين شدوا على يدي كرفاق، لم يكونوا كثيري العدد. كان الآخرون يدركون أني سأصبح بعد برهة قصيرة، رجلاً آخر.. وبعضهم أولوني ظهورهم، مصرين على عدم الرد على تحيتي.. آخرون حدجوني بنظرات تنم عن الكراهية».

بعد أن ذهب المساجين إلى العمل، توجه «دوستويفسكي» إلى المصنع. حيث قام «مساجين - حدادين» بنزع القيود من رجليه:

ضربة مطرقة وتسقط السلاسل، يلتقطها «دوستويفسكي» وينظر إليها طويلاً.

فردد المساجين:

- هيا!.. برعاية الله!.. برعاية الله!...

ولكن «دوستويفسكي» لم يتحرك. فقد تجمعت في حلقه رغبة شديدة بالبكاء وبالصراخ.

حر! إنه حر!.. وخرج من المصنع مترنحاً، وهو ينظر إلى السماء.

غادر «دوستويفسكي» السجن بتاريخ ١٠ شباط (فبراير) سنة ١٨٥٤. ولكنه لم يحول إلى «سيمييالاتنسك» إلا في شهر آذار (مارس). فأمضى ما يقرب من أسبوعين لدى أصدقائه «آل إيفانوف» في «أومسك».

كانت السيدة «إيفانوف» ابنة «أنانكوف» وهو أحد «ثوار كانون الأول». وقد التقت بدوستويفسكي» أثناء رحلته ومروره بمدينة «توبولسك». وطوال مدة بقاء الكاتب في السجن، كانت تقوم مع زوجها، بالتخفيف من معاناته وترسل له نقوداً وبعض الكتب:

«لقد كان «ك. ا. إيفانوف» أخاً حقيقياً بالنسبة لي. وقد فعل كل ما بوسعه أن يفعله من أجلي، وأنا مدين له بمبلغ ٢٥ روبلاً».

وأرسل «فيدور ميخائيلوفيتش» إلى «سيميبالاتنسك» برحلة، قام بها على مراحل، لكي يجند هناك ويخدم كجندي عادي، في الفوج السابع على خط سيبيريا.

كان يمشي مع المساجين الآخرين، سيراً على الأقدام. فمرت بهم عربة محملة برزم من الكابلات الحديدية، فصعد «دوستويفسكي» ورفاقه، وجلسوا على الرزم الحديدية وأخذت العربة تسير ببطء شديد، كان الهواء بارداً، وفي أعلى السماء أخذت الغيوم تهبط بانهيار صامت لا يسمع له صوت. وكان «فيدور ميخائيلوفيتش» سعيداً، متأثراً، وممتناً بشكل خفي وعجيب.

الكشف الثلاثي

«نيكراسّوف» في قصيدته: «التعساء»، باعترافه هو، يروي قصة إقامة «دوستويفسكي» في سجن الأشغال الشاقة: محكوم سياسي ذو صوت عذب و «يدين بيضاوين» رفضه في بداية الأمر رفاقه المقيدون بالسلاسل، ولكنه، ذات ليلة، قرب سرير سجين في النزع الأخير، يهيب بهم أن يحترموا اللحظات الأخيرة في حياة رفيقهم، فيلفت انتباههم، يكتسب احترامهم ويصبح معلمهم.

وعندما عاد «فيدور ميخائيلوفيتش» وظهر من جديد في «سان بطرسبورغ» أطلعه «نيكراسوف» على القصيدة. فقال «دوستويفسكي»:

«بالعكس، أنا الذي كنت مريداً بل تلميذاً لأولئك المحكومين بالسجن مع الأشغال الشاقة».

نعم، لقد كان مريدهم وتلميذهم، وما تعلمه في السجن دمغه وظل يؤثر فيه طوال حياته. وتلك السنوات الأربع كانت كخزان خفي تتغذى منه عبقريته، بعد ذلك الحين. وكان موقع تلك الفترة التي أمضاها في السجن، في وسط حياته، وهي تقسم حياته إلى فترتين متساويتين تقريباً: فهنالك «دوستويفسكي» ما قبل «منزل الأموات» و «دوستويفسكي» ما بعد «منزل الأموات» ومن المؤكد أن الشخصيتين ليستا مختلفتين بشكل أساسي. ولكن الثانية أكثر غنى من الأولى، والثانية تمسك بكل ما كانت تعد به الأخرى وتحتفظ به.

و «فيدور ميخائيلوفيتش» يلعن ويبارك، على التوالي، تلك «الفترة السيبيرية». وفي الرسائل التي كتبها بعد إطلاق سراحه، تتناوب الشكاوى بشكل غريب مع عبارات الامتنان، والخشوع المسيحي:

«أبداً لوحدي! وهذا طوال أربع سنوات، أربع سنوات! صدقاً، لو قلنا إننا كنا في وضع سيئ، لما كان هذا القول كافياً!..»

«والتأمل الدائم والمستمر الذي كنت أهرب عبره من الواقع المر، ما كان يمكن أن يكون عديم الجدوى: فأنا لديّ الآن رغبات وآمال، لم أكن فيما مضى أتبينها...»

«كان هنالك لحظات أكره خلالها أي شخص يأتي، إن كان بريئاً أو مذنباً، واعتبره كلص يمكن أن يسرق مني حياتي دون أن يعاقب على ذلك. أنا في حالة انتظار، وأتوقع لا أدري ماذا.. ويبدو لي أنه بعد قليل، وقليل جداً، سيقع حدث حاسم، وأني اقترب من أزمة حقيقية، وقد نضجت من أجل مستقبل خفي وعجيب، وأنه يتهيأ شيء عذب ولطيف جداً وواضح جداً، وربما كان مخيفاً، ولكن من المؤكد أنه لا يمكن تجنبه أبداً...».

«السجن قتل كثيراً من الأشياء لديّ، وفتح وأظهر أشياءً أخرى..»

«هذه محنتي وقد استحقيتها».

«أما الأربع سنوات، فأنا اعتبرها كفترة كنت أثناءها محتجزاً في تابوت، ومدفوناً وأنا حي! فيا لها من فترة رهيبة!... فليس لدي القوة التي تمكنني من أن أروي لك قصتها، يا صديقي..

فطوال تلك السنوات الأربع، لم تمر لحظة واحدة دون أن أشعر فيها أني كنت في السجن».

وروى «دوستويفسكي» في كتابه: «ذكريات من منزل الأموات» ماذا كانت بالنسبة له تجربة ومحنة السجن السيبيري. وقد اهتم بالحقيقة بأن يقدم نفسه تحت ملامح شخص اسمه «ألكسندر بيتروفيتش

غوربانتشيكوف»، «المحكوم بالسجن مع الأشغال الشاقة، من الفئة الثانية، لأنه قتل زوجته».

ولكنه، بالحقيقة، هو يروي، ما حصل معه في محنته، بشكل واضح وجلي.

وعندما نشر «فيدور ميخائيلوفيتش» كتابه، لم تكن أنظمة السجون وإجراءاتها قد بقيت على حالها، كما عرفها هو. إذ إن الإصلاحات التي أقرها «ألكسندر الثاني» قلبت النظام المتخلف والقاسي الذي وضعه «نيقولا الأول»، رأساً على عقب: مراقبة أكثر شدة ودقة على الموظفين الذين يشرفون على السجون، منع العقوبات الجسدية.. فكتاب «دوستويفسكي» كان إذن ينتقد أوضاعاً أزالها القيصر، بنفسه.

وسمحت الرقابة بنشر «الذكريات» بشرط واحد وهو: «حذف بعض العبارات غير اللائقة».

وعلاوة على ذلك، فقد اهتم «دوستويفسكي» بأن يضيف إلى نص كتابه بعض الملاحظات من المؤلف، مثل:

«أن ما ذكرته عن العقوبات الجسدية، كان يحصل في «زمني» وقد سمعت من يؤكد أن كل شيء قد تغير، أو أنه في الطريق إلى التغيير».

أو: «في زمني»، ليس «الماجور» وحده وحسب، بل كثير من المسؤولين التابعين والأدنى رتبة وبخاصة أولئك الذين أتوا من الصف، كانوا يستعملون هذه العبارة».

ولا ينبغي أن نعتقد أن «دوستويفسكي» بكتابه: «ذكريات من منزل الأموات، قد وضع خطأً تحت عملية جمع، ضمّ فيها مجمل تجاربه الأخيرة، فهذا العمل الرائع الذي يعبر عن الحقيقة البشرية، وعن النزاهة والاستقامة القاسيتين، هو أول مساهمة في إنتاج، أتاحته للمؤلف أربع سنوات من المعاناة والتأمل.

لقد رأي «دوستويفسكي» عالماً. فوصفه بمهارة وتفوق. ولكنه لم يسلم سوى قطع العملة الصغيرة، من كنزه الكبير. وقد تخلص منها كمن يضحي ليتجنب كارثة.

وبعد إنجاز هذا العمل، يستطيع أن يرتفع عالياً، وأن ينفصل عن الأصالة السيبيرية المثيرة للإعجاب، ويتناسى تلك الرؤوس الحليقة، والأفواه المشوّهة، والأحاديث البذيئة، لكي لا يفكر بعد ذلك إلا بدروس السجن، وبتعليمه الذي يفوق الوصف. لقد قال ما لاحظه. وبقي عليه أن يقول ما تعلمه. وهذه المهمة لن تكفيه كل حياته لكي ينجزها تماماً وبشكل جيد.

اللقاء مع الشعب، اللقاء مع روسيا، اللقاء مع الإنجيل. هذه المعجزة الثلاثية حصلت في مرقد نتن يقع في أبعد أعماق سيبيريا، حتى في الوقت الذي كان أقارب الكاتب وأصدقاؤه يعتقدون أنه قد قضي عليه نهائياً.

كانت النخبة المثقفة الروسية قد نمت على عجل، منذ مطلع القرن التاسع عشر، في قلب إمبراطورية واسعة، مترامية، الأطراف، لم تكن مستعدة، بعد، لاستقبالها، كانت نتاجاً صنعياً. وتنقصها التقاليد، التراث والسحر الذي ينجم عن الألغاز والأسرار الخفية.

ووجدت جماعة المثقفين نفسها، في بداية الأمر، موضوعة بين قطبين متساويي القوة. فوقها يوجد القيصر، الذي تقر سلطته وتصدق عليها الكنيسة. والقيصر هو الوحدة، السلطة العليا، المجمعة والمختصرة في كائن واحد. والتعبير الأعلى عن الحياة الوطنية. وتحتها يوجد الشعب. والشعب باهت وكئيب، يصعب فهمه وهو متحرك. وليس الذوبان والاختلاط به بأسهل من اغتصاب السلطة من الإمبراطور. والقيصر والشعب هما وحدتان خالدتان لا يؤثر فيهما مرور السنين، وهما يستمدان كل قوتهما من استمراريتهما نفسها. والقيصر والشعب لا يشرحان وضعهما ولا يعبران عن رأيهما. فهما

موجودان، لهما أسرارهما الخفية والعجيبة، وهذا كل ما هنالك. ويمكن أن تؤمن بهما، لأنهما حرفياً وبكل دقة «مختلفان» عنك.

وهذه الدعوة المدوّخة للجماهير هي ظاهرة مجهولة من قبل «الغرب» وهي لا تكون مقبولة إلا في بلاد تكون فيها الطبقات الاجتماعية متقابلة ومتعارضة: رجال الفكر (الطبقة المثقفة). الشعب. ثقافة أوربا، الراقية. جهل المتوحشين، التام. وبين هذين العالمين، لا يمكن أن يلاحظ أي انتقال. النخبة قليلة العدد، الشعب لا يحصى له عدد. وهذا العدد القليل من الرجال المثقفين، تبهرهم وتخدرهم الجماهير، وهم يخشون أن تبتلعهم، ويريدون أن يفهموها وأن «يعلموها» لكي يستطيعوا السيطرة عليها. وبقدر ما يتناقص ويقل فهمهم لها بقدر ما يتناقص ويقل تعليمهم لها، وبقدر ما يزداد إعجابهم بها.

وعندما كان «فيدور ميخائيلوفيتش» طفلاً صغيراً، جذبه فلاحو قرية «داروفوايي» العبيد (الموجيك)، ومرضى مشفى «ماري» وفيما بعد، في «سان بطرسبورغ» اهتم بالشعب، ولكن من وجهة نظر «مادية» بحتة: مطالباً بإلغاء الرق والعبودية، وإبطال العقوبات الجسدية، نشر التعليم المدرسي في الريف. ولكنه منذ أن دخل السجن، ظهر لديه ميل آخر. فها هو أخيراً أمام الشعب، وفي الشعب، ولكنّ هذا الشعب الذي يتحرق هو شوقاً للانضمام إليه، يرفضه. فهو «سيد»، ولا يمكنه أن يكون فلاحاً عبداً «موجيك» ولا يستطيع أن يصبح فلاحاً عبداً، بعد أن كان «سيداً».

وهذا الرفض، تقبله «دوستويفسكي» بحزن، ولكن دون حقد وعلى مدى أربع سنوات، عاش وحيداً في عزلة بين أولئك الرجال الذين ليسوا من عرقه. وطوال أربع سنوات ظل يعاني من تسلط وسواس ذلك العالم المحظور. وطوال هذه السنوات الأربع، ظل منحنياً على تلك الهاوية التي لا تريد أن تبتلعه. وهو محاط بأشخاص، كل منهم فظ متخلف، وهو يعاني من غبائهم، من بشاعتهم، ومن خبثهم وأذيتهم.

«بما أننا كائنات حية، فكيف يمكن ألا نقوم بأعمال سيئة ومخزية»..

ولكنه، شيئاً فشيئاً، اكتشف لديهم روحاً.

فقد كتب إلى أخيه:

«في الأشغال الشاقة، وجدت في النهاية رجالاً، رجالاً حقيقيين، صفات وسجايا عميقة، قوية وجميلة: ذهب تحت القمامة».

وهذا الكشف أغراه، لازمه وأصبح هاجساً يساوره على الدوام الشعب ليس ذكياً وليس متعلماً. والشعب هو كل من يعمل ويشتغل بيديه وكل من لا يفكر، وكل من يكتفي بأنه يحس ويشعر. والشعب هو التعبير عن الحياة العضوية الروسية. و «الموجيك»: (الفلاح العبد) هو طفل، أولاً وقبل كل شيء. ويحتفظ بداخله بالسذاجة غضة نقية، وبحقيقة الطفولة. لم تنله الثقافة، ولا الاتفاقات والأعراف الاجتماعية، حتى ولا الأكاذيب العلمية. وهو قريب من الله، وفي حوزته، دون أن يعرف ذلك بنفسه، سرّ الحياة، كما أرادها الله. والذهاب نحوه هو ذهاب نحو الله.

وهذه الفكرة سوف يتحدث عنها بإسهاب وينميها «دوستويفسكي» في رواياته، وفي مذكراته، في مناسبات ومرات عديدة. ولنتذكر الفلاح «ماريي». والصغير «فيدور» الذي ذعر عند سماعه صراخ: «إلى الذئب»! وركض نحو «ماريي»، فأمسك بكمه، وكيف لمس الفلاح شفتيه بإصبعه الضخم الملوث بالتراب، وأخذ يطمئنه بهدوء، قائلاً: «ليكن المسيح معك»..

وكتب «دوستويفسكي» في رسالته المؤرخة»: ٢٢ شباط (فبراير) ١٨٥٤: «يا له من شعب عجيب! وأنا لم أضع وقتي، فإذا كنت لم أدرس روسيا، فإني أحفظ غيباً وعن ظهر قلب الشعب الروسي، وقلة هم الذين يعرفونه مثلي»..

وهذا الشعب الروسي، سيحتفظ له «دوستويفسكي» بعد بعض الوقت بدور مسيحي، حقاً. وفي الوقت الراهن، فهو يكتفي بأن يحبه وأن يتذلل ويتواضع أمامه.

وقد روى «بيرتز» بعد بضع سنوات، أنه ذات يوم، وكان «دوستويفسكي». في منزل «آل سوسّلوف» أخذ طبيب شاب يعيب عليه أفكاره التصوفية عن مستقبل روسيا، وصاح الطبيب، أخيراً، بأعلى صوته: «من الذي أعطاك الحق بأن تتكلم هكذا باسم الشعب الروسي»؟

فرفع «دوستويفسكي»، بحركة مفاجئة، رفع كمي بنطاله عن كاحليه، حيث كانت لا تزال آثار القيد الحديدي، بادية العيان، وقال: «إليك من أعطاني هذا الحق».

هذه النظرة المثالية للشعب، وهذا الازدراء بالثقافة كانا يبدوان أكثر حدّة، لا سيما وأن «دوستويفسكي» كان منفصلاً عن العالم الثقافي. فهو لم يعد يتلقى رسائل، ولا يقرأ كتباً. والإنجيل هو زاده الروحي الوحيد، والإنجيل أصبح يمثل انتصار القلب (العواطف) على العقل. والتأمل في التوراة كان له، بالنسبة لدوستويفسكي» أهمية كبيرة جداً. إذ إن كل أعماله وكل حياته حملت منذ ذلك الحين أصداء وانعكاسات العقيدة الإنجيلية.

وهل كانت رواياته في الفترة الثانية سوى قصص رسل معاصرين مسّهم العفو، اندفعوا في غياهب الشك، وانتشلوا وطواهم النسيان، ثم عادوا ودُفعوا نحو المعرفة التي تفوق الوصف.

ودراسة النصوص المقدسة تنقل خطوط منظور المستقبل في عالم «دوستويفسكي». وأفراح وآلام مخلوقاته، لم تعد من عالمنا الأرضي تماماً. وتصبح رواياته ذات طابقين. في الطابق الأول، تنشط الحياة اليومية

بضوضائها ومتاعبها بما فيها من غيرة، ومسائل جسدية ومالية، ومراعاة ومجاملات وفي الطابق الثاني تتوالى أحداث مأساة الإنسان، الحقيقية: البحث عن الله، البحث عن الكائن الجديد.

وأن يقتل أحد الطلاب مرابية عجوز، وأن يكره أحد الأبناء والده لدرجة أنه يتمنى موته، وأن يتأوه ويشكو رجل فظ أمام باب غرفة زوجته المغلق بالمزلاج، كل هذا ثانوي في مجرى الحدث: والمأساة الحقيقية هي معنوية، بل أخلاقية تماماً ومصعّدة، وهي تحصل في أعلى موقع من النفس. بل في ذروة الروح. ومظاهر السعادة وحدها ومظاهر البؤس والشقاء وحدها التي يؤبه لها ويحسب لها حساب، ليست مما يتبدى ويظهر في هذا العالم. وليس الثروة أو الغنى، والرفاهية، والموقع الاجتماعي والوفاق المريح في الزواج هو ما يرغب به وينشده هؤلاء الأبطال الروحانيون فهم لا يريدون شيئاً من هذا العالم. إنهم يريدون الله.

إن «كيريلّوف» يصيح في كتاب: «المهووسون»: «لقد عذبني الله طوال حياتي» وهذا العذاب الرباني كان عذاب «دوستويفسكي».

و «فيدور ميخائيلوفيتش» لم يعرف أبداً وعلى الإطلاق، الإيمان الراسخ والمستقر جيداً، والحب الخامد الذي لا يكف عن دعوته إلى نفسه. فهو يريد أن يؤمن. ولكن نفاذ بصيرة شيطانية توقفه عند حافة العفو والحظوة. فهو يتساءل، ويسأل مستوجباً النصوص، ويناقش بدلاً من أن يتقبل ويؤمن.

وقد كتب إلى السيدة «فون فيزين»، بعد أن أطلق سراحه سأقول لك عني إني فتى من هذا العصر، فتى عديم الإيمان والشك حتى الآن، (وأعرف ذلك جيداً) وحتى نزولي إلى القبر. وأي عذاب مخيف يسببه لي الآن هذا التعطش، وهذا الشوق الشديد إلى الإيمان،

الذي يبدو أكثر قوة في نفسي لا سيما وأن الأدلة والحجج المناقضة هي أكثر عدداً! ومع ذلك، فإن الله يتيح لي أحياناً لحظات من السكينة وراحة البال التامة.

وفي مثل هذه اللحظات، إنما أنشأت في نفسي ممارسة للإيمان كل شيء فيها واضح ومقدس. وهذه الممارسة للإيمان، بسيطة جداً، وها هي: الإيمان بأن ليس هنالك أكثر جمالاً، أكثر عمقاً أكثر جاذبية وأكثر عقلانية وأكثر جرأة وشجاعة وأكثر كمالاً من السيد المسيح. لا يوجد أي شيء وحسب، ولكني أقول هذا بحب يتسم بالغيرة: لا يمكن أن يوجد هنالك أي شيء. وأكثر من هذا أيضاً: إذا برهن لي أحد ما أن السيد المسيح هو خارج نطاق الحقيقة، وإذا ثبت بشكل واقعي أن الحقيقة هي خارج نطاق السيد المسيح، لفضلت أن أكون مع السيد المسيح، بدلاً من أن أكون مع الحقيقة».

وهذا الحل الحذر حيال عقيدة الكنيسة، الرسمية، تبناه «دوستويفسكي» دون أن يعرف شيئاً عن «كيير كيفارد» (KIERKE GAARD)[1] وبالنسبة له، الإيمان لا يكتسب أبداً، يجب الدفاع عنه دائماً ضد العدو، وضد نفس الإنسان ذاته.

نشوة الإلهية يشوهها الشك، يأس غيبي (ميتا فيزيقي) يهزه التشدد والتعصب. الخطر يدفع للشيء المهدد ثمنه. والإيمان خطر ومجازفة. والكنيسة بقواعدها الموضوعة والمستقرة جيداً تخفف من حدة هذا الخطر.

١ـ «سورين كيير كيفارد» (١٨١٣-١٨٥٥) مفكر وعالم لاهوت دنماركي، ناضل في آن معاً ضد تحريف المسيحية من قبل المؤسسة الكهنوتية، وضد طموحات وإدعاءات الفلسفة. وجعل من القلق والحصر النفسي التجربة الأساسية بالنسبة للإنسان وقد غذى فكره التيار الوجودي له عدة مؤلفات عن القلق وعن اليأس. ـالمترجم.

والكنيسة هي الإيمان الموضوع تحت تصرف كل فرد من الناس والكنيسة، هي الراحة والرفاهية في الإيمان، والحال هي أن «دوستويفسكي» يكره كل ما هو مريح، فهو يريد أن يناضل بمفرده. ويريد أن يجد طريقه بنفسه.

ومما كتبه أيضاً:

«نشيد المدائح الذي نظمته أنا، قد عبر أتون الشك».

ونشيد المدائح هذا، سيكون في الواقع، كل ما أنتجه من أعمال، أو بالأحرى إن أعماله الحقيقية لن تبدأ ألا مع نغمات هذا النشيد الأولى.

سيميبالاتنسك
Semipalatinsk

«سيميبالاتنسك» هي عبارة عن بلدة أسيوية تتوقف فيها وتتجمع قوافل الجمال، ومنازلها ذات الطابق الواحد، مبنية من الجسور والجذوع الخشبية. ونوافذها تطل على باحات داخلية، لكي لا يراود المارة الإغراء بالتطلع والنظر إلى النساء المسلمات، وهن يعملن في غرف تلك المنازل. والأبواب منخفضة. لكي تتيح لرب الأسرة التحكم بسهولة برؤوس الدخلاء الذين يأتون إلى منزله، وتبين وجوههم عند دخولهم. وهنالك حواجز خشبية عالية تحيط بالشوارع التي لم تكن مضاءة، مساءً. وليس هنالك أي طريق مبلط. ولا أيّ شجرة أو دغلة عليق. الرمل، رمل جاف، وحارق، تغوص فيه الأقدام حتى الكواحل. ومع كل هبة ريح، يتناثر الرمل، يزوبع ويصفع الوجوه. وعند انهمار المطر لأول مرة، يتحول إلى وحل رمادي اللون، كثيف، يقسو بسرعة.

وهنالك سبعة مساجد، تجاور كنيسة مبنية بالحجارة وثكنة جنود الجبهة، المشاة، والصيدلية الحكومية والمدرسة الابتدائية. وهنالك دكان للخردوات، حيث يمكن شراء المسامير، العطور، بل والأطعمة أيضاً. وهذا كل شيء. والكتب قليلة، وعمل مصلحة البريد غير منتظم، بعض الصحف القليلة والنادرة الوجود يتداولها القراء من يد إلى يد. وهناك تسود الوحدة، النسيان التام، وتمتدّ الصحراء الواسعة.

ويتراوح عدد سكان هذه المدينة الصغيرة، بين خمسة وستة آلاف: ومعظمهم من الباعة التتر، من الجنود والموظفين.

وإلى ما بعد الضاحية القوزاقية، يرقد الرعاة الكرخيزيون، تحت خيامهم المصنوعة من جلود الماشية.

والبلدة يعود تاريخها إلى أكثر من مئة سنة. وقلعتها التي بنيت سنة ١٧١٨، لم تتغير كثيراً، منذ تاريخ بنائها.

وغالباً ما تقوم بعض العصابات من «الكرا - كرخيزيين» بهجمات للغزو والسلب والنهب، فيستدعى الجيش، ليصدهم بشكل أو بآخر ويقمع هجماتهم المتكررة.

ومنذ أن وصل «دوستويفسكي» إلى هذه البلدة، ألحق بالفصيلة الأولى في الفوج السابع المرابط على الجبهة السيبيرية.

والخدمة شاقة في الجيش السيبيري. والجنود يمضون طوال نهارهم في التدريب: السير على الأقدام، استخدام الأسلحة، التفقد التفتيش والاستعراضات. وفي الليل يرسلونهم للقيام بالحراسة، في أماكن مجهولة ونائية على جوانب السهوب: وهذه التدريبات وتلك الحراسة، أزعجت «فيدور ميخائيلوفيتش» وأنهكت قواه. وقد كتب إلى أخيه:

«وصلت إلى هنا في شهر آذار (مارس) وأنا لا أكاد أعرف شيئاً عن التمارين والتدريبات العسكرية، ومع ذلك، ففي شهر تموز (يوليو) على وجه التقريب، أصبحت كالآخرين، أقوم بالعمل الذي يطلب مني وأتقنه مثلهم.. فلكي يتعلم أحدنا يجب أن يبذل جهداً وأن يتعب. وأنا لا أشكو ولا أتذمر: إنها مصيبتي وقد استحقيتها».

وكان الفوج مشكلاً من عبيد أميين، وجنود محترفين، ومن محكومين بالنفي. والمستوى الثقافي في المعسكر لم يكن أفضل من مستواه في السجن. وعرف «دوستويفسكي» من جديد القاعة التي تنتشر

فيها الروائح الكريهة، والمشاحنات، والنوم المشترك، والاستيقاظ عند الفجر..

كان في السرير المجاور لسريره، مجند في السابعة عشرة من العمر، يدعى «كاتز»، فاتخذه «فيدور ميخائيلوفيتش» صديقاً له، واكتسب ثقته واقترح عليه إنشاء صندوق مشترك للمصاريف. كانا يذهبان بالتناوب لشراء ما يحتاجونه من المدينة، أو لجلب الملفوف والبرغل من المطبخ. وكانا يتعاونان في العمل على تنظيف ملابسهما وصبغ وتلميع نطاقيهما. ومما كان يوفره «كاتز» اشترى «سماور» وغالباً ما كان «دوستويفسكي» يستعيض عن وجبات قاعة الطعام الكريهة، ببضعة كؤوس من الشاي. إذ إن الطعام الذي كان يقدم للجنود في ذلك الفوج كريهاً للغاية. والنفقة الرسمية المخصصة للإطعام كانت محددة بأربعة «كوبيكات» لكل فرد. ولكن من هذه الأربعة «كوبيكات» كان آمر السرية والمحاسب وضابط الصف المشرف على التموين، يختلسون منها «كوبيكاً» ونصف. وهذه الاختلاسات الزهيدة كانت تؤمن لمرتكبيها مبلغ (٧٤٤) روبل في السنة. والجميع في بلدة «سيميبالاتنسك» كانوا يعرفون ذلك. ولكن فكرة استنكار هذا العمل لم تخطر على بال أحد منهم.

وبصبر لا حدود له أخذ «دوستويفسكي» يحاول جاهداً أن يكتسب ثقة ومودة رفاقه. كان يساعدهم في أعمالهم، يتقاسم معهم الأطعمة التي يحصل عليها من خارج المعسكر. بل كان، في بعض الأحيان يقرضهم نقوداً. ورؤساؤه كانوا مسرورين منه. وقد توسط له بعض الأصدقاء المقيمين في «أومسك» فسمح له بالإقامة في المدينة.

فاستأجر غرفة لا تبعد كثيراً عن الثكنة، في منزل أرملة أحد الجنود. و «الايسبا» البائسة. كانت مغروزة كيفما اتفق في الرمل، وخلفها يوجد حديقة صغيرة هزيلة ومهملة، فيها بئر مزود بمضخة يدوية قديمة.

وشغل «دوستويفسكي» غرفة منخفضة السقف، ومعتمة جداً. جدرانها مطلية بتراب غضاري، ومزينة ببعض الصور المرسومة على لوحات خشبية. وفيها كأثاث. مقعد مستدير، سرير، منضدة، كرسي، وصندوق كان بمثابة خزانة للملابس. وبالقرب من الباب، يوجد مدفأة روسية كبيرة. وكانت قطعة قماش سميكة ومربعة تفصل هذه الغرفة الصغيرة كستارة عن بقية المسكن. وكان «فيدور ميخائيلوفيتش» يدفع خمسة روبلات بالشهر، لصاحبة المنزل، لقاء السكن والطعام وغسيل الملابس. ولكن الأرملة كانت تكسب أيضاً بعض النقود بفضل ابنتيها، اللتين كانت تقوم بمهمة الوسيطة، بل القوادة، بالنسبة لهما.

وكثيراً ما كانت تقول:

«آه! يا سيدي، على أيّ حال، كان من الممكن أن ينتهي بهما الأمر إلى مضاجعة أحد كتبة الفوج، أو أحد ضباط الصف، لقاء نصف كيلوغرام من الفاكهة، بينما يكون الحال معكم، أيها السادة، أفضل بكثير، ويشكل بالنسبة لهما قضية رابحة وتكريماً مهماً»...

وبتاريخ ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٥٤، وصل إلى «سيميبالاتنسك» البارون «فرانجيل»، لكي يقوم بوظيفة النائب العام. كان في الثانية والعشرين من العمر، وجهه جميل متناسق، محاط بعارضين أسودين. وبزته التي أوصى عليها وخيطت له في «سان بطرسبورغ» بدت أنيقة للغاية.

وشعر هذا الشاب الطيب والنبيل بالذعر وهو يحل في هذه المنطقة النائية والموحشة، التي تبعد آلاف الكيلومترات عن العاصمة. فماذا سيحل به وكيف سيصبح، في أعماق هذه البلدة الضائعة في رمال الصحراء، بين أناس جهلة، دون أيّ تسلية سوى صيد الطيور أو صيد السمك، طوال سنتين من العمر؟

وقبل مغادرته «سان بطرسبورغ» زاره «ميشيل دوستويفسكي» وسلمه رزمة من الكتب، أرسلها معه لأخيه. ولم يكن البارون «فرانجيل» يعرف «فيدور ميخائيلوفيتش» ألا من خلال أعماله الأدبية. ومع ذلك، فإنه، بمصادفة غريبة، كان قد تواجد في ساحة «سيمونوفسكي» وقت «تنفيذ حكم الإعدام» الذي كان مقرراً بجماعة «بيتراشسكي». وكان لا يزال طالباً، آنذاك.

وقد كتب في مذكراته:

«رأيت كيف كان ما يشبه الأشباح، تصعد وتنزل عن منصة الإعدام، وكيف كانوا يربطون على أعمدة غرزت في الأرض، رجالاً يرتدون ثياباً بيضاء. وكيف أخذوا يفكونهم، وكيف أتت، بعد ذلك، العربات وأخذتهم، وأصبحت حينئذٍ الساحة خالية، فقد انصرفت الجماهير وتوزعت، والجميع أخذوا يرسمون إشارة الصليب على صدورهم، وهم يباركون ويشكرون رحمة الإمبراطور وعفوه».

وبعد أن قام البارون «فرانجيل» بزيارة تقليدية للحاكم، أرسل خادمه ليبحث عن «دوستويفسكي» ويستدعيه له.

فاستقبل «فيدور ميخائيلوفيتش» الخادم، بحذر شديد. فمن هو هذا «البارون»؟ وماذا يريد منه؟ ولقب «نائب عام» لا يعبر بالنسبة له عن شيء حسن ومريح. ومع ذلك، فقد قبل أن يلبي دعوته لتناول الشاي.

وفي الموعد المحدد، رأى البارون «فرانجيل» جندياً يرتدي معطفاً رمادياً ياقته حمراء اللون، يدخل إلى غرفته، وقد أحنى ظهره قليلاً، وتدلى ذراعاه بجانبي جسمه، كان شاحب الوجه، ضخم الأنف، تبدو على وجهه بقع من النمش، عيناه بلون الفولاذ الرمادي، تنظران مباشرة إلى الأمام، بحزن أليم. وشعره الأشقر بدا مقصوصاً حسب الطول النظامي المسموح به في الجيش. وهذا المجهول بدا مستاءً، قلقاً، ينتظر تفسيراً لدعوته لهذه

المقابلة. وعندما أبلغه البارون «فرانجيل» أنه التقى بأخيه في «سان بطرسبورغ» وسلمه الرسالة ورزمة الكتب، انفرجت أسارير «دوستويفسكي» وبدت على وجهه سيماء التعبير عن الامتنان الطفولي. وشعر بالارتياح، واسترخى، واستأذن بمطالعة الرسالة، في الحال، وبينما كان يطالعها، أخذت الدموع تسيل من عينيه.

و «فرانجيل» الذي كان قد تلقى، هو أيضاً، رسائل مهمة، أخذ يفض، بدوره، بعض المغلفات، ويتصفح بعض الأوراق، فقد كتب له أهله، وبعض أصدقائه، وأرسلوا له تلك الرسائل من «سان بطرسبورغ». وذكرى تلك الحياة السعيدة، جعلت قلبه ينقبض. فلكم كان يشعر بأنه وحيد، بشكل مفاجئ، حيال هذا الغريب! كانا هناك، كلاهما، في أعماق سيبيريا، بعيداً عن كل ما يحبانه، بعيداً عن كل أولئك الذين يمكن أن يتفهموهما، وحيدين منسيين، ضائعين.

والبارون «فرانجيل»، النائب العام عن صاحب الجلالة، وقد تخلى عن وقاره، أخذ يجهش بالبكاء، وألقى بنفسه بين ذراعي جندي الصف «دوستويفسكي»، فقد نشأت صداقة عظيمة بينهما.

وكتب «فرانجيل» إلى ذويه: «لقد أتاح لي القدر التعرف على رجل مدهش، بما يتمتع من مزايا عاطفية، ومن مزايا أخلاقية وعقلية: إنه كاتبنا الشاب والبائس «دوستويفسكي». فأنا مدين له بكثير من الأفراح والمسرات، وكلامه، نصائحه وأفكاره قد قوّت من عزيمتي ومنحتني شجاعة سوف تلازمني طوال حياتي، فبحق السماء، يا أبي العزيز، أرجو أن تبحث فيما إذا كان سيصدر أي عفو يمكن أن يشمله».

كما كتب أيضاً:

«أيمكن أن يكون هذا الرجل الذي يثير الإعجاب، محكوماً عليه بأن يذوي ويموت هنا، كمجرد جندي بسيط؟ سيكون هذا قاسياً وفي

غاية الظلم. وأنا حزين وأتألم من أجله، إني أحبه كما أحب أخي وأحترمه مثلما أحترم أبي».

وما عمله من أجله كان أكثر من محبته له، وأكثر من احترامه له، فقد بذل كل جهده، واستخدم جميع الوسائل لإشاعة البهجة والسرور في حياته.

فقد استقبل مجتمع كبار الموظفين في «سيميبالاتنسك» بالترحاب وبذراعين مفتوحين هذا النبيل الشاب، ذا الوجه النقي والظريف كالصورة المنقوشة على الوسام، والحركات الأنيقة، والملابس الأورُبية. وقد عرف الجميع، من اليوم الأول لوصوله، أنه اصطحب معه خادمه الخاص، وأنه استأجر منزلاً كبيراً وعربة جميلة وأن راتبه كنائب عام يسمح له بأن يعيش حياة البذخ والترف.

وكان الرجال يقولون بوقار وبلهجة جادة إنه من عائلة أرستقراطية، وإن مستقبله سيكون باهراً. والسيدات كن يتشوقن إليه، ويتحلقن حوله، أما الفتيات فكن يتصورن ملامحه لخطيب أحلامهن.

وبعد أن قام البارون «فرانجيل» بجولة في المنطقة، أخذ يبذل كل جهده لتقديم «دوستويفسكي» إلى معارفه الجدد، ويعرفهم عليه. وهذا المشروع كان دقيقاً وحساساً. فلا أحد يجهل أن «دوستويفسكي» قد أمضى عدة سنوات في سجن الأشغال الشاقة، وعلاوة على ذلك، فهو يرتدي بذة رمادية لعينة، ذات ياقة حمراء، تبدو بشعة في أكثر الأعياد والحفلات، بساطة وتواضعاً. وقد حاول البعض أن يشرحوا للبارون أن مرافقة سجين سابق ومعاشرته ليست أمراً مرغوباً، وأن النائب العام ينبغي أن يكون أكثر انتباهاً ودقةً من أي شخص كان في تحديد علاقاته واختيار معارفه. ولكن «فرانجيل» لم يشأ أن يسمع شيئاً من هذا القبيل. وظل مصراً على صداقته مع «دوستويفسكي» وعلى مرافقته له، لدرجة أن الجنرال

«سبيريدونوف» الحاكم العسكري وافق على استقباله في منزله الخاص، وقال:

«هيا! هيا!... اصطحبه، ولكن ليأت بكل بساطة وهو يرتدي ملابس التدريب».

والجنرال «سبيريدونوف» كان رجلاً طيباً، ودوداً، كريماً ومضيافاً. واكتشف بسرعة قيمة «فيدور ميخائيلوفيتش»، الكبيرة، وطلب منه أن يأتي لزيارته كلما شعر بالرغبة في ذلك».

وهذا المثال، الذي أتى من أعلى درجة في التسلسل الطبقي، فتحت جميع صالونات المدينة أبوابها للسجين السابق. و «بيليكوف» قائد الفوج، الذي كان فيما مضى، يستدعي الجندي «دوستويفسكي» لكي يقرأ له الصحف، لم يعد يفوت فرصة لكي يدعوه إلى مائدته. وكانت زوجة الملازم «ستيبانوف» تقرأ الأشعار التي تنظمها «لدوستويفسكي» وترجوه أن يصلحها لها. والعقيد «ميسّاروش» المقامر المهووس، الذي ينظم الاحتفالات والاستعراضات العسكرية في المدينة، لم يعد يستطيع، هو الآخر، أن يستغني عن «فيدور ميخائيلوفيتش».

وكان اللباس الرمادي الذي يرتديه الكاتب، والبذة الأرجوانية الأنيقة والبراقة التي يرتديها النائب العام، حاضرين، على الدوام في جميع المناسبات والحفلات الاجتماعية.

ومع ذلك فإن «دوستويفسكي» لم يكن يذهب إلا على مضض لتلبية دعوات القادة العسكريين والوجهاء المدنيين، من سكان المدينة. كان يشعر بملل قاتل في تلك الصالونات الريفية، ويفضل البقاء والتحدث طوال الأمسية مع صديقه الجديد.

ولا يكاد ينهي «فيدور ميخائيلوفيتش» خدمته، حتى يتوجه على الفور إلى منزل البارون «فرانجيل»، يجلس على إحدى الأرائك يفك أزرار

ياقة سترته ويشعل غليونه. وفي تلك الفترة، كان يفكر بكتابة رواية: «حلم العم سيلوستيبنتشيكوفو» وكتاب «ذكريات من منزل الأموات». كان مرحاً جداً، يدندن بألحان إحدى «الأوبيريتات» ويروي لصديقه الشاب بعض أحداث كتابه الجديد، ويصيح عندما يجلب «آدم» الخادم الذي يعمل كخياط وطباخ أيضاً، إلى الغرفة، طنجرة ملأى من الحساء بالسمك.

و «آدم» هذا، كان سكيراً قذراً وكئيباً، نكد المزاج، كبير الرأس أفطس الأنف. وكثيراً ما كان يذهب ويجلس تحت النافذة ويغني بصوت متأوه أغنية محزنة للغاية، لدرجة أن الصديقين، بعد أن ينبهاه عدة مرات، يسكبان على رأسه دلواً من الماء.

وبعد الانتهاء من تناول الطعام، يبقى «فيدور ميخائيلوفيتش» فترة طويلة، يتناقش فيها مع «فرانجيل» في بعض الموضوعات الأدبية. كان يقرأ له «الليالي المصرية»، لبوشكين، أو بعض صفحات «الأرواح الميتة». كان يلح عليه بأن يدع جانباً «كتب الأستاذ» الخاصة به، وأن يلتفت نحو الشعر. كما أن «فيدور ميخائيلوفيتش» كان في بعض الأحيان، يحدثه أيضاً عن نفسه، متذكراً طفولته، وصداقته الحميمة مع أخيه «ميشيل» وبداياته الأدبية.. ولكنه كان يتحاشى أيّ إشارة إلى قضية جماعة «بيترافيششسكي».

أخيراً، وفي وقت متأخر من الليل كان «فيدور ميخائيلوفيتش» يعود إلى «الايسبا» التي يقيم بها، والتي يغشى جوها الدخان، فيشعل شمعة مصنوعة من الشحم، ويبدأ بالكتابة.

وقد ألف القسم الأكبر من كتابه «ذكريات من منزل الأموات» في هذا البيت الوضيع، المبني من ألواح خشبية. على ضوء تلك الشمعة السيئة. وفي الخارج. كان جو الليل هادئاً. ويسمع هنا وهناك نباح أحد الكلاب. وكانت الأرملة تتقلب على فراشها، خلف الستارة الكثيفة، وهي تئن وتتأوه في منامها.

وبعد برهة، كان «فيدور ميخائيلوفيتش» يدفع الأوراق ويضع القلم.

لم يعد يستطيع العمل.

وقد كتب إلى «مايكوف»:

«لم أكن أستطيع عمل أي شيء، إذ إن ظرفاً معيناً، أو حدثاً ما، أتوقعه بعد أن انتظرته طويلاً، قد حصل أخيراً، بشكل مفاجئ فقلب كياني، شغلني وشغفني تماماً، فأصبحت سعيداً، وعاجزاً عن العمل».

«ماري دميتريفنا ايسّاييف»
Marie Dimitrievna Issaiev

حتى قبل وصول «فرانجيل» إلى «سيميبالاتنسك» كان «فيدور ميخائيلوفيتش» قد تعرف على «آل ايسّاييف».

كانت «ماري دميتريفنا ايسّاييف» امرأة شابة، في الثلاثين من عمرها تقريباً، مصابة بالتدرن الرئوي، شقراء، نحيلة، رقيقة الملامح، غليظة الشفتين. عند أقل بادرة تأثر، يطفر الدم إلى خديها، وتبرق حدقتاها بنظرات حادة. فهي عصبية المزاج، تشوبها حماسة مرضية. ووالدها، السيد «دوكونستان» وهو ابن مهاجر فرنسي، كان مديراً لمحجر صحي في «أستراكان» وبنات السيد «دوكونستان» الثلاث تلقين تعليماً مناسباً. وكن يذهبن إلى حفلات الرقص التي تقيمها الطبقة النبيلة، وماري كانت تجيد الرقصات الحديثة، وتمارسها برشاقة مدهشة. وبدت فخورة بما كانت تحققه من نجاح، وأخذت تحلم بمغادرة المناطق الصحراوية القريبة من بحر «قزوين»، لكي تحتل موقعاً مناسباً في المجتمع. واعتقدت أنها وفقت بزواج ممتاز، عندما تزوجت المعلم الشاب «ايسّاييف». والحال هي أن هذا الرجل المسكين، الذي لم يكن غبياً ولا شريراً، كان يحب احتساء الخمر بشكل يفوق الحد.

وبعد أن فقد مراكز عمله، الواحد تلو الآخر، انتهى به الأمر إلى الاستقرار، هو وزوجته وابنه، في مدينة «سيميبالاتنسك» الصغيرة. ولكن

هنا أيضاً، كما في الأماكن الأخرى، سبب له إدمانه على الخمر، وسكراته المعيبة، الطرد من المدرسة.

والمعلم السابق الذي لم يعد له دخل ثابت، ولا أمل محدد وواضح، أخذ يحاول أن يقضي بالكحول على تبكيت ضميره بشأن مصيره السيئ في هذه الحياة. وزوجته بكبرياء زاد من حدتها الحظ العاثر والمصيبة، كانت تحاول جاهدة أن تخفي عن أعين الناس حالة البؤس التي تعاني منها الأسرة. كانت ترقّع، تغسل، ترتب، وتعمل طوال النهار. وحيال أولئك السكان القرويين، المولعين بالثرثرة، ونقل الشائعات، كانت تتظاهر بأنها راضية عن حياتها الزوجية، وأن الأسرة تعيش في بحبوحة ولا ينقصها شيء. ومع ذلك، فإن زوجها كان آنذاك، يتسكع من الصباح وحتى المساء، في المدينة الصغيرة، عاطلاً عن العمل، منهاراً، يمضي وقته بالثرثرة الفارغة.. وكان أن التقى «بدوستويفسكي» عند المقدم «بيليخوف» وتعاطف الرجلان مع بعضهما بشكل عجيب: فأي سحر جذب «فيدور ميخائيلوفيتش» إلى هذا السكير؟ لا شك أنه كان يرثي لحاله، ولكن من المحتمل أيضاً أنه كان يتصور فيه صيداً سميناً لإحدى رواياته. هذا السكير الدامع العينين، الذي يتحدث خلال ساعات عديدة عن القدر ومصير البشر وعن تعاليم السيد المسيح، عن الخير والشر، عن الثقافة والهمجية، فهو سوف يتذكره لكي يصف وجه «مارمولادوف» الذي لا يمكن أن ينسى، وهو أحد أبطال رواية: «الجريمة والعقاب»، «مارمولادوف» الموظف المعزول، وزوجته مصابة بالتدرن الرئوي، وابنته تتعهر، والذي يدمن على تناول الكحول لكي يبلغ أقصى حدود الحزن:

«أتظن إذن، أيها التاجر الغشاش، أن نصف - زجاجتك هذه قد حققت لي ارتياحاً؟.. أنه الحزن، الحزن هو ما أبحث عنه في قاع هذا الكأس، الحزن والدموع»..

وكمـا اصـطحب «مـارمولادوف» الطالـب «راسـكولنيكوف» إلى منزلـه، كـذلك اصـطحب «ايسّاييف» «دوستويفسكي» إلى منزلـه وعرفـه على زوجته. ولكـن المقابلة كانت أكثر حميمية ووداً، مما بدت عليه في الرواية. فقد سُرّت السيدة «ايسّاييف» كثيراً بالتعرف على أحد رجال المجتمع، تستطيع أن تتحدث معه في شؤون الأدب والاستقبالات والسياسة والرقص.

وعقدت صداقة مع الجندي «دوستويفسكي» وتأثرت لما أصابه من محن وأكدت لـه مودتها ومحبتها. ومع ذلك، فحسب، رأي «فرانجيل» الخاص، فإنها لم تقع بشكل حقيقي، في حبه:

فقد كتب في مذكراته:

«لقد عرفت أنه مصاب بالصرع وأنه فقير، وكانت هي، نفسها تقول إنه ليس له أي مستقبل».

فكيف استطاع جندي الصف، هذا ذو الوجه العبوس، الذي تنم سيماؤه عن القلق والتشاؤم وذو الشعر القصير، أن يغري مخلوقة لم تكن تحلم ألا بالأبهة، والغنج والدلال «والغزل اللطيف على الطريقة الفرنسية»؟

وبالمقابل، فإن «ماري دميتريفنا» قد استمالت «دوستويفسكي» نهائياً وأسرت قلبه. فلأول مرة كانت تصغي إليه وهو يتحدث، امرأة، بمثل هذا التعاطف الذي يبدو حسياً، بشكل غامض، وكانت هذه أول مرة ترد عليه امرأة بهذه اللهجة التي تنم عن المشاركة والتأييد. كان كلا الاثنين قد قسا عليهما القدر، وأصبحا ضائعين في نظر الناس، وبالنسبة للاثنين، كانت أحلامهما قد تبددت أمام واقع لا فرح فيه ولا بهجة، وللاثنين، لم يعد المستقبل يعني شيئاً. وشفقة السيدة «ايساييف» ظنها «دوستويفسكي» حباً وليداً.

ومع ذلك، فهو نفسه، لم يكن يجرؤ على التصريح عن حبه لزوجة صديقه. ولكنه أخذ يكثر من زيارته، من اهتمامه وعنايته وتلميحاته. فنشأت بينهما بسرعة صداقة مضطربة ويائسة. وهذا الزهد، بل هذا التخلي الاختياري، كان يلهب رغبة الكاتب ويهيجها. وكان بالكاد يستطيع النوم، ولم يعد يعمل. وكل يوم كان البارون «فرانجيل» يتلقى على مضض بوح صديقه، الانفعالي والمشبوب العاطفة. وكان «دوستويفسكي» يتوسل إليه لكي يرافقه إلى منزله «آل ايسّاييف».

وبهذا الشأن، كتب «فرانجيل»:

«ولكن ذلك الوسط لم يكن محبباً لي، بسبب الزوج». وكان للسيدة «ايسّاييف» ولد في الثامنة من العمر، يدعى: «بول» أو بمزيد من الدلال والدلع: «باشا» وهو ولد شلش أسمر البشرة، شديد الحيوية كثير الحركة كالسعدان. ووافق «دوستويفسكي» على إعطائه دروساً، وأصبحت هذه الدروس ذريعة للمزيد من اللقاءات مع الأم.

آه! لو أنه كان حراً! آه! لو أنها كانت حرة!..

كان يحلم وينتشي بمشاريع عبثية وغير معقولة، يستاء ويرفض أن يصغي لنصائح «فرانجيل»، ويؤكد أنه لن يحب أبداً طوال حياته، كما يحب، في الوقت الحاضر.

وشيئاً فشيئاً، استمالت «ماري دميتريفنا» حماسة وشدة وله الطامح لحبها، ذي الياقة الحمراء. وبدت فخورة ومزهوة بهذا الولاء المدله والخجول. فقد وجدت من جديد شيئاً من تلك الحماسة والنشوة اللتين عرفتهما وتذوقتهما في حفلات الرقص التي كانت تحضرها أثناء شبابها. وكان نفاد الصبر المحموم يضنيها. وكان العاشقان منهمكين وهما في حالة الانتظار والتوقع، ينتشيان بنبلهما، ويعيشان نوعاً من قصة مرضية وصامتة، كانت نهايتها، بل حل عقدتها يبدو لهما مستحيلاً.

وبتاريخ ١٢ آذار (مارس) ١٨٥٥ وصل إلى «سيميبالاتنسك» الضابط المراسل «أخماتوف» حاملاً رسالة مثيرة: «لقد مات الإمبراطور «نيقولا الأول» يوم الثامن عشر من شهر شباط (فبراير) من السنة نفسها بالطبع، عند الساعة ١٢ و٢٠ دقيقة.

وتلقى السكان المسلمون في «سيميبالاتنسك» هذا الخبر بعدم الاهتمام. ولكن «الموظفين المثقفين» الذين عانى معظمهم من نظام الحكم، تحركوا وبدا عليهم النشاط. وأخذوا يتحدثون عن الصفات الحسنة واللطف المتنور والذكاء الإنساني لدى الإمبراطور الجديد. وأخذوا يعدّدون الإصلاحات التي يتوقعون أنه سيحققها في المستقبل القريب.

واستعاد «فيدور ميخائيلوفيتش» الأمل بخلاصه قريباً.

وذهب مع «فرانجيل» لحضور القداس الجنائزي الذي أقيم تكريماً للذي نفاه إلى سيبيريا. وفي الكنيسة، حول «دوستويفسكي» بدت الوجوه وقورة ومتجهمة، ولكن حسب قول «فرانيجل» فإن أحداً لم يكن يبكي.

منذ أيام الصيف الأولى، أصبح الحر لا يطاق في «سيميبالاتنسك». والرمل كان يحرق الأقدام عبر النعال، وميزان الحرارة يشير إلى ٣٢ درجة.

فقرر البارون «فرانجيل» استئجار أحد المنازل الريفية - وكان هنالك منزل واحد فقط، من هذا النوع في تلك المنطقة - وهو لا يبعد كثيراً عن المدينة، وقد أطلقوا عليه اسم: «حديقة القوزاق» وكان عبارة عن بناء واسع وقديم مبني من الخشب، سقفه مخرب وأرضيته محفرة، ولكنه يقع في حديقة فسيحة، تزينها الينابيع الغزيرة والبحيرات الملأى بالماء. وتنتهي بأرضٍ تنحدر بهدوء نحو ضفة نهر «الارتيش».

وفكر «دوستويفسكي» و «فرانجيل» بأن عليهما أن يغرسا الزهور على جانبي مماشي وممرات الحديقة.

وقد كتب «البارون فرانجيل» فيما بعد، ما يلي:

«إني أحتفظ بذكرى واضحة لفيدور ميخائيلوفيتش» حينما كان يساعدني في إرواء نبتات الزهور الصغيرة. كان يتصبب عرقاً، وقد نزع معطفه العسكري، ولم يكن يغطي جسمه سوى قميص كان قد حال لونه الوردي وبهت بسبب كثرة الغسيل. وفي عنقه كانت تتأرجح سلسلة صغيرة، غير متقنة الصنع، لا أدري من أين أتته، وهي مزينة بلآلئ صناعية صغيرة، من الزجاج الأزرق، وتحمل ساعة محلاة بالفضة، على شكل الهلال».

كان الصديقان يعيشان حياة هادئة، في «حديقة القوزاق» يستحمان، يدخنان، يطالعان الصحف القديمة، ويمارسان رياضة ركوب الخيل. ولكن «دوستويفسكي» كان خيالاً فاشلاً، وكثيراً ما كان يضحك ويسخر هو نفسه من فشله وعدم مهارته.

وحاولا أيضاً تدجين الأفاعي غير السامة التي كانت موجودة بكثرة تحت الشرفة. وكانا يغذيانها بالحليب، ويعودانها على أن تألفهما، وذات يوم، أتت بعض سيدات المدينة لزيارة «السيدين - الريفيين، ولما رأينهما محاطين بالأفاعي، هربن مذعورات. ومنذ ذلك اليوم لم يجرؤ أحد على المجازفة والحضور إلى هذا البيت المنعزل الذي يقيمان فيه.

وأثناء ذلك، كانت الأسابيع تمر بسرعة، وحب «دوستويفسكي» الشديد لماري دميتريفنا، يتزايد كثيراً. وكان يذهب بكثرة إلى منزل آل «ايسّاييف»، وفي كل مرة، حسب ما كتب «فرانجيل» كان يعود من هناك، وهو يشعر بنوع من النشوة».

وهذا يدعو إلى التفكير تلقائياً بالأمسيات التي كان يمضيها «فيدور ميخائيلوفيتش» سابقاً في صالون «آل باناييف». ومدام «باناييف» كانت بالنسبة له، مثلها في ذلك، مثل «ماري دميتريفنا» في الوقت الراهن، في وضع ممتع، لا يمكن الوصول إليه، فكلتاهما متزوجتان، والاثنتان

تستقبلانه في منزلهما، وكلتاهما أحبهما وهو متأكد تماماً أنه لن يستطيع أبداً أن يصبح عشيقهما.

وحياة «دوستويفسكي» الجنسية، حتى عودته إلى روسيا، لا نعرف عنها الكثير. فهل كان بارداً جنسياً؟ أم كان شهوانياً، مشبوب العاطفة؟. «وتشوكوفسكي» الذي سألته عن هذا الموضوع السيدة «كاشينا - ايفروينوفا» أجابها قائلاً:

«بالنسبة لي، فأنا متأكد تماماً أن «نيكراسوف» و «دوستويفسكي» لم يكونا يستطيعان الاستغناء عن النساء، حتى ولا لمدة أسبوع واحد».

ومع ذلك، فإن الدكتور «يانوفسكي» صديق «دوستويفسكي» في فترة شبابه، أكد قائلاً:

«لم أسمعه أبداً يقول بأنه توله حباً بأحد، ولا حتى بأنه أحب امرأة».

وقد كتب «ريزنكمبف» في مذكراته:

«كان لا مبالياً حيال النساء، بل كان ينفر تقريباً منهن». والحقيقة هي أنه لم يعرف لدوستويفسكي» حتى ولا علاقة واحدة بأيّ امرأة، قبل زواجه. ويبدو أن غريزته الجنسية قد تطورت ونمت في وقت متأخر. فهذا الرجل المريض، العصبي، الميال إلى الخيال، كان يعجب بالنساء عن بعد، ويخشاهن بشكل غامض، وربما كان يرغبهن ولكنه، على ما يبدو، كان يلوم نفسه لكونه يرغبهن.

وبطلات رواياته، باستثناء «نيتوتشكا»، شاحبات، باهتات وأدبيات. ينقصهن اللحم والدم والحضور. وهن من رجل لم يحب سوى في الحلم.

وهذا الكبت الغريب، وهذه المحاباة للأوضاع المضطربة، وللانفعالات ومظاهر المودة التي لا مستقبل لها، ولعدم الرضى وعدم الإشباع الحسي، جميعها تميز كل فترة شباب «دوستويفسكي» فهذا المتذمر،

الناقد الصبر يبحث عن عذاب الانتظار والتوقع. وهذا العفيف يتلذذ بملامسة المجازفة المحببة بارتكاب الخطيئة. وحتى مثل أبطاله، فهو يقبل العيش من أجل المستحيل.

ومع ذلك، فإن حب «فيدور ميخائيلوفيتش» البريء والغريب، قد انتهى، بأسرع مما كان يتوقع.

كان «ايسّاييف» قد حصل على وظيفة معاون في محكمة «كوزنيتزك» وهي بلدة تقع على بعد ٧٠٠ «فرست» أي ما يقرب من ٧٠٠ كيلومتر عن «سيميبالاتنسك». وقد أصبح الفراق محتوماً لا يمكن تحاشيه. وهذا الخبر أحزن «دوستويفسكي»، الذي قال، متأوهاً:

«لقد وافقت وقبلت ولم تحتج أو تعترض، وهذا هو الأمر المثير والمزعج، في الموضوع»!

وبدا يائساً، غاضباً، وهو يسير على غير هدى في الغرفة، كمن يمشي في نومه. ومن وقت لآخر، كان يتوقف لكي يشرح للبارون «فرانجيل» أن حياته قد دمرت، وأنه لم يعد يتمنى سوى الموت. ثم يعود إلى مسيرته الموحشة.

وحاول «فرانجيل» أن يواسيه، وسدد ديون «آل ايسّاييف» وعمل على تدبير وتنظيم أمر رحيلهم. وكان على الصديقين أن يرافقا المسافرين «لمسافة من الطريق» بعربتهما. ولم يكن مع «آل ايسّاييف» ما يكفي من النقود لاستئجار عربة مناسبة، فقد استأجرا عربة صغيرة مكشوفة.

وفي اليوم المحدد للسفر، دعا البارون «فرانجيل» المعلم وزوجته لتناول «شمبانيا» الوداع، واغتنم الفرصة ليجعل «ايسّاييف» التعيس، يسكر بشكل تام. وبعد ذلك اقترح عليه أن يركب معه في عربته، فوافق السكير الذي كان يكاد لا يستطيع الوقوف على قدميه، على الفور وبكل سرور.

أما «فيدور ميخائيلوفيتش»، فقد ركب في العربة الثانية، بين «ماري دميتريفنا» و «باشا» وهذا التبادل أرضى الجميع.

وسارت العربتان ببطء. واستسلم «ايسّاييف» للنوم، مستنداً على كتف البارون «فرانجيل» بينما أخذ «فيدور ميخائيلوفيتش» و «ماري دميتريفنا» يتحدثان بصوت خافت. وكانت تلك الليلة من شهر أيار (مايو) صافية الجو، الذي كان يعبق بأريج الزهور وعطرها، والظلام لا يكاد يلامس ذرا أشجار الصنوبر، وقد انتشر ضوء القمر على طول الطريق. وجمال ذلك المنظر، الهادئ، كان يزيد أيضاً من حزن الذين كانوا يتأملونه.

وأخيراً توقفت العربتان على جانب الطريق. وحانت ساعة الفراق.

كان السكير يشخر وهو قابع في زاويته، والصغير «بول» يتمتم وهو يحلم، مستغرقاً في النوم. أما «ماري دميتريفنا» و «دوستويفسكي» فقد ألقى كل منهما نفسه بين ذراعي الآخر، وتعانقا وهما يبكيان ويرسمان إشارة الصليب، ويقسم كل منهما للآخر بأنه لن ينساه، وأنهما سيستمران في تبادل الرسائل.

وأمسك البارون «فرانجيل» الزوج من وسط جسمه واقتاده من عربته إلى العربة الأخرى، دون أن يستفيق أو يفتح عينيه. وركبت الزوجة وابنها «باشا» بجانب السكير. عند ذلك، لوح السائق بسوطه وضرب به الحصانين، فانطلقت العربة عبر سحابة من الغبار. وهكذا، فقد انتهى كل شيء.

ومع ذلك فقد ظل «دوستويفسكي» واقفاً، في وسط الطريق، لا تبدر منه أيّ حركة، وقد أحنى وجهه نحو الأرض، وأخذت الدموع تسيل على خديه. فاقترب «فرانجيل» من صديقه، أمسكه من يده واقتاده، دون أن يتلفظ بكلمة، إلى العربة.

ولم يصل الرفيقان إلى «سيميبالاتنسك» إلا عند الفجر فاحتجز «دوستويفسكي» نفسه في غرفته، وأخذ يمشي ذهاباً وإياباً وفي كل الاتجاهات إلى ما بعد شروق الشمس. ثم ذهب إلى معسكر الصيف، للاشتراك في التدريب. وعند عودته، استلقى لكي ينام، دون أن يأكل أو يشرب شيئاً، ولم يستطع النوم، بل أخذ يدخن غليوناً بعد آخر، وهو يحدق في سقف الغرفة.

وبتاريخ ٤ حزيران (يونيو) كتب «دوستويفسكي» رسالة للسيدة «ايسّاييف» قال لها فيها ما يلي:

«لو أنك تعلمين إلى أيّ درجة أشعر أني وحيد، هنا. وبالحقيقة، فإن هذا يذكرني باللحظة التي ألقي علي القبض فيها، سنة ١٨٤٩ حيث دفنوني حياً في إحدى الزنزانات، بعد أن انتزعوني عنوة وحرموني من كل ما هو محبب ومفرح بالنسبة لي. لقد كنت قد اعتدت عليك وألفتك تماماً. وصداقتنا، أنا لم أعتبرها أبداً صداقة عادية. ولكني الآن، وقد حرمت منك، فقد فهمت كثيراً من الأمور عن خبرة وتجربة. لقد عشت خمس سنوات خارج نطاق المجتمع، وحيداً، ليس لدي أبداً أحد أفتح له قلبي وأبوح له بهمومي. وأنت، بالمقابل، استقبليني كأحد ذويك.. فكم سببت لك من متاعب وآلام بسبب طبعي القاسي، ومع ذلك فكنتما، أنت وزوجك تحبانني. وأنا أتفهم كل هذا، وأحسه، فلست بلا قلب، ومحروماً من العاطفة. أنت امرأة مدهشة لك روح لا مثيل لها، تتحلى بطيبة الأطفال. لقد كنت أختاً لي. ومجرد أن تكون امرأة قد مدت لي يدها، فهذا يشكل بالنسبة لي تاريخاً مهماً في حياتي.

وعند المساء، عبر الظلام، في الموعد الذي كنت فيما مضى أبثك أشجاني، وأبوح لك بأسراري وبهمومي، يستولي علي حزن أليم، لدرجة أني لو كانت دموعي سخية، لكنت بكيت كثيراً، ودون شك ما كنت

ستعتبرينني سخيفاً ومضحكاً. وفي الوقت الحاضر أعيش في عزلة، وحيداً تماماً. ولم أعد أدري إلى أين ألجأ وكيف أداري خجلي. كل شيء يثير سأمي هنا. فيا له من فراغ!...»

وبالواقع، فإن «دوستويفسكي» قد فقد كل حماسة للعمل، وكل بهجة ومرح، وحتى كل حس سليم. فهو حزين، حاد الطبع، غضوب، متطير. وبحجة أن «فرانجيل» يحب امرأة في الرابعة والثلاثين من عمرها، أماً لستة أطفال، وتسكن على مسافة ٤٠٠ «فرست» (أي ٤٠٠ كيلومتراً، تقريباً) من «سيميبالاتنسك» فهو يشبه قدر صديقه ووضعه، بقدره ووضعه آنذاك ويشكو ويتأوه على حظهما العاثر ومصيبتهما المزدوجة. ويفسر أقل وأبسط أحلامهما. ويشعر بمخاوف. وبأفراح ليس لها ما يبررها. ويبحث لنفسه عن تمائم وتعاويذ. وانتهى به الأمر حتى إلى التردد على إحدى المنجمات التي تدعي أنها تقرأ المستقبل وتطلع على الغيب، بواسطة بعض حبات الفاصولياء.

كانت الأخبار التي ترد من «كوزنيتزيك» سيئة. إذ أن «ماري دميتريفنا» تشكو من وحدتها، ومن فقرها ومن سكر زوجها. وإدمانه المتأصل والمستمر، على الكحول، ومن ثرثرات سكان تلك المدينة الصغيرة ومن الشائعات التي يروجونها.. ومتعتها الوحيدة هي التحدث إلى صديق «ايسّاييف» الجديد، وهو معلم شاب ظريف، يتحلى بالجدية وطيبة القلب.

فشعر «دوستويفسكي» بغيرة مفاجئة، شغلت باله وأخذت تعذبه:

فمن هو هذا المعلم الشاب؟ أتحب حقاً، هذا الشخص المجهول، الذي لا يعرفه؟ وهل نسيت الماضي؟ وتكاثرت الرسائل وازدادت طولاً وضخامة. و «دوستويفسكي» لم يعد يعيش إلا في انتظار البريد. وفقد الشهية للطعام وأخذ ينحف، ويعاني من أزمات ومن نوبات عصبية.

فقرر البارون «فرانجيل» أن يقوم بمساعدته فعمل على تنظيم لقاء بينه وبين السيدة «ايسايف» في «زمييف» وهي مدينة صغيرة تقع في منتصف الطريق بين «سيميبالاتنسك» و «كوزنيزيك» وأبلغت «ماري دميتريفنا» بواسطة رسالة، بتاريخ ومكان اللقاء.

ولكن السلطات العسكرية كانت تمنع الجنود من القيام برحلات بهذا الطول وبهذه الأهمية. ولذلك فقد استخدم البارون «فرانجيل» الحيلة. وأخذ يروي في كل مكان أن «دوستويفسكي» أصيب بنوبة صرع، وأنه يجب عليه أن يبقى في غرفته خلال يوم بطوله، لكي يرتاح ويستعيد نشاطه. و «لاموت» طبيب الفرقة الذي كان مطلعاً على المؤامرة، أيد تصريحات النائب العام. وتلقى الخادم «آدم» الأمر بإغلاق النوافذ وبمنع أياً كان من الدخول إلى المنزل.

وعند الساعة العاشرة مساءً، عندما أطفئت جميع الأنوار في تلك المدينة الصغيرة، انطلقت عربة «فرانجيل» وهي تقل الصديقين نحو «زمييف».

وكتب «فرانجيل» فيما بعد، متحدثاً عن هذه الرحلة: «لم نكن نسير على الأرض، كنا نطير كالإعصار، ولكن صديقي المسكين «فيدور ميخائيلوفيتش» لم يكن يشعر بذلك، وكان يؤكد أننا نسير ببطء شديد، كالسلحفاة، وكان يحث السائق باستمرار لكي يسرع في السير».

وللأسف الشديد! فبدلاً من السيدة «ايسّاييف» لم يجد «دوستويفسكي» و «فرانجيل» سوى رسالة من المرأة الشابة، تعتذر فيها عن عدم حضورها في الموعد الذي حدداه لها، لأن زوجها مريض جداً، ولا تستطيع أن تتركه.

كانت العودة موحشة: (٣٠٠) «فرست» (أكثر بقليل من ٣٠٠ كم) قطعاها بثمانية وعشرين ساعة، على وجه التقريب، والمجازفة بأن يعتبر

«دوستويفسكي» فاراً من الخدمة، كل ذلك كان دون طائل. ومن حسن الحظ أن أحداً لم يلاحظ غياب الصديقين.

ومع ذلك، فإن البارون «فرانجيل» لم يفقد الشجاعة ولا الأمل، فبعد فترة من الوقت، طلب إذناً بالسفر هو و «دوستويفسكي» لتمضية بضعة أيام في «زمييف»، عند بعض الأصدقاء «الذين يعملون كمهندسين هناك».

ومنحا الإذن بالسفر. فهيأ خادم «فرانجيل» لدوستويفسكي «ريدنفوت» تفصيلتها أنيقة. وكانت تلك هي المرة الأولى، منذ أن أخلي سبيل السجين السابق، أنه يرتدي ثياباً مدنية. وبدأ الصديقان رحلتهما وهما واثقان بأنهما سيحصلان على نتيجة حسنة، مكافأة لهما على جهودهما التي بذلاها.

وهذه المرة أيضاً، ومن جديد، كانت الليلة صافية الجو، هادئة، والطريق معبداً ومستوياً ليس فيه حفر ولا حجارة. وكانت العربة تسير بسرعة عبر مناظر كالتي تبدو لنا في الأحلام. وفجأة، وعلى مسافة خمسة «فيرستا» من المدينة لمحا فجراً دامياً في السماء. كان القرويون يحرقون أعشاب الخريف الضارة. كانت النار تضطرم، كالسيل المضيء، تنثر الشرارات، كالأفاعي، كالنجوم المتوهجة التي تسقط بعيداً، فتشعل حرائق أخرى. فأجفل الحصانان وخافا، وتجاوزا بسرعة الحرائق، التي كانت تبدو كالأتون الملتهب. وأخيراً اقتربت عربة المسافرين من مناجم الفضة القريبة من «زمييف».

كانت منازل العمال، الصغيرة تحيط بأحد المعامل. وبعيداً تبدو «فيلات» المهندسين وكبار الموظفين، وبعيداً جداً، في أعماق المنظر، يبدو النهر.

ولم يكد «دوستويفسكي» يصل حتى كتب «لماري دميتريفنا» يرجوها أن تحضر، لمقابلته بأسرع ما يمكن.

ولكن أربعة أيام مرت، دون أن تبدو من «ماري» إشارة تدل على أنها على قيد الحياة.

فلا بد من العودة إلى «سيميبالاتنسك» واستئناف الحياة الرتيبة في الثكنة العسكرية. يجب الانتظار. الانتظار، دائماً لا بد من الانتظار. ولكن «دوستويفسكي» كان قد عيل صبره وبدا مرهق الأعصاب.

وبتاريخ ١٤ آب (أغسطس) ١٨٥٥، تلقى «فيدور مخائيلوفيتش» أخيراً رسالة من مدينة «كوزنيتزيك». لقد مات زوج السيدة «ايسّاييف» بعد معاناة طويلة مع المرض. وروت «ماري دميتريفنا» كيف حدثت تلك الوفاة، وتلك الجنازة البائسة وعملية الدفن المحزنة. لم يكن معها نقود، فاضطرت إلى الاستدانة من الجيران لدفع أجرة عربة دفن الموتى. وأرسل لها شخص مجهول ثلاثة روبلات فقبلتهما على أنها صدقة.

فذهل «دوستويفسكي» كان يكن مودة حقيقية للسكير، ومع ذلك، فإن ارتياحاً غريباً، وفرحة خفيفة وخبيثة، قد بدرا في قراره نفسه: لقد زال العائق الأخير، و «ماري» أصبحت حرة، وسوف يستطيع أن يتزوجها ولم يكد يتصور هذه الفكرة، حتى استولى عليه السخط والغيظ! وفكر بأنه كثيراً ما كان يسخر من ذلك البائس، وكثيراً ما انزعج منه ولعن وجوده في المنزل واستنكره بل ربما كان قد تمنى، في سره، موته؟ وها هو الموت قد حصل. كما حدث ذلك لوالده، فيما مضى. وها هو، من جديد، يصبح مسؤولاً. وها هو، مرة أخرى مسؤول، خارج نطاق جميع القوانين.

كان «فرانجيل» بمهمة في «بيسك» فأرسل له «دوستويفسكي» رسالة مؤثرة، يرجوه فيها أن يرسل بعض النقود للسيدة «ايسّاييف»: «سأرد لك، بالتأكيد، هذه النقود، ولكن ليس في القريب العاجل.. ولكني لا أريد أن تشعر تلك السيدة أنها ممتنة مني ومدينة لي، في حين أني

لا أستحق ذلك، لأني أخذت هذا المبلغ من جيب شخص آخر، مع نيتي بأني سأرده، حقاً، ولكن بعد مهلة غير محددة..

وتوسل إلى صديقه أن يضيف «كلمتين» إلى المبلغ الذي سيرسله مراعاةً لحساسية الأرملة:

«يجب الانتباه والحذر عند التعامل مع شخص يكون مديناً لك بشيء ما: فهو حساس، ويحصل لديه على الدوام انطباع بأنه يعامل بإهمال، وأننا بنوع من الألفة، نحاول أن نجعله يدفع ثمن الخدمة التي قدمناها له».

«لقد أجبتها أن الخمسة وعشرين روبلاً، أتت فعلاً منك وليس مني»: هذا ما كتبه فيما بعد لفرانجيل. آه! يا إلهي، أيّ امرأة هذه!.. إنه لأمر مؤسف جداً. أنك لا تعرفها جيداً»..

والأمل بمخرج قريب كان يثير حبه ويزيد من حدته، وفاتح أخاه «ميشيل» بذلك، عندما كتب له:

«أصغ لي جيداً، يا صديقي: إني أحب هذه المرأة منذ زمن طويل، وأعرف أنه من الممكن أنها تحبني. ولن أستطيع العيش من دونها، وحالما تتحسن الأمور قليلاً بالنسبة لي، فسأتزوجها. وأنا أعلم أنها لن ترفض ذلك».

وبعد بضعة أسابيع، كتب لأخيه، مؤكداً:

«عن بعد، تبادلنا الاعترافات والأمنيات، العهود والمواثيق. إنها تحبني، وقد برهنت لي على ذلك».

والحقيقة هي أن البائسة لم يسبق لها أن كانت أكثر حيرة وتردداً، مما كانت عليه في اللحظة التي منحته فيها يدها ووعدته بالزواج. ولأنها دون سند تعتمد عليه، وليس لديها أي مورد، فقد تأثرت جداً بالشفقة التي أبداها «دوستويفسكي» نحوها. ولكنها لم تكن تحبه: فهو فقير، ومريض. وكانت الألسن النشيطة والثرثارة في المدينة قد أخذت تروي «للدوستويفسكي» أن السيدة «ايسّاييف» تفكر بالزواج بشخص آخر،

وبالواقع، فإن «دوستويفسكي» كان قد لاحظ في رسائل «خطيبته» الأخيرة تحفظاً سبب له الذعر.

وكتبت له «ماري دميتريفنا»:

ما العمل، إذا تقدم رجل في سن معينة، يتصف بمزايا حسنة، ويشغل وظيفة ثابتة ومضمونة، وطلب مني أن أتزوجه؟ فماذا أجيبه»؟

فهي تطلب منه أن ينصحها، على أنه صديق لها، وليس سوى ذلك. وهذا التصرف البارع حير «دوستويفسكي» وأحرجه فهو لا يستطيع، دون أن يتهم بالأنانية، الطلب من «ماري دميتريفنا» أن تقطع علاقتها بهذا الرجل الفاضل والموسر لكي تتزوجه، هو، السجين السابق، الجندي، بل والنفاية. ولكنه لا يستطيع أن يقبل أيضاً أن تقرر الزواج بشخص آخر، لأنها تحبه، ولا تزال تحبه أيضاً. وليس عن رغبة منها أو بملء رضاها، كانت قد تصورت إمكانية ذلك الزواج بشخص آخر. بل كان هنالك بعض عجائز الريف اللواتي أقنعوها، وجعلوها تفكر بتغيير قرارها. وقد استغلت العجائز فرصة غيابه، هو. كما استغلين أيضاً ضعف «ماري دميتريفنا» وفقرها. وهو لا يستطيع أن يدافع لديها عن فرصته، إلا ببضعة أسطر يلقيها على صفحة من الورق.

كانت كل دقيقة، بل كل ثانية، آنذاك، تكاد تقرر مصيره وهو هناك، في عزلة، وحيد، عاجز محروم من أي مورد، بين، أناس لا يتفهمونه. ومع ذلك، كان يعرف جيداً أنه لن يبقى على قيد الحياة، لو حدثت بينهما قطيعة نهائية.

«فرانجيل غادر سيبيريا إلى «سان بطرسبورغ». وكتب له «دوستويفسكي»:

«سأموت إذا فقدت ملاكي، أو أني سأصبح مجنوناً، أو سألقي بنفسي في نهر «الارتيش». فأنا لي حقوق عليها، حقوق، أتسمع، بل هل

تفهم؟... بحق السماء، اكتب لها رسالة إلى «كوزنتريك» واشرح لها بوضوح ودقة آمالي. وبخاصة إذا كان هنالك شيء قد تقرر بشأن مستقبلي. اذكر لها جميع تفاصيل القضية، فتنتقل بسرعة من اليأس إلى الثقة والأمل... ولكنك ربما كنت لا تعرف كيف تكتب لها؟ الأمر في غاية البساطة، وإليك ذلك: «فيدور ميخائيلوفيتش» أبلغني تحيتك، ولأني أعرف أنك تهتمين كثيراً بكل ما يتعلق به، فإني أسرع لأحقق لك فرحة كبرى، فهنالك أخبار طيبة وسارة جداً، وآمال كبيرة بالنسبة له...»

آه! لو أنه يستطيع فقط الحصول على رتبة في الجيش. وتوسل إلى «فرانجيل»، بأن يتوسط له من أجل ذلك. وبانتظار ما سيحصل معه، أرسل إلى السيدة «إيسّاييف» رسالة جنونية، تتناوب فيها التهديدات مع الشكاوى والتأوهات المستعطفة واحتجاجات الحب العنيفة، وبعد سنتين من الحب الشديد والشغف المكتوم، وعشرة أشهر من الفراق، لم يعد يستطيع الاستغناء عنها. فهو سيحصل على عفو، وسيغادر البلدات السيبيرية. وسوف يكتب: «أستطيع أن أنشر حتى ولو كان تحت اسم مستعار» وسيربح نقوداً، كثيراً من النقود. وسوف ينقذهما من البؤس والشقاء، هي وابنها.

وهدأ قليلاً من قلقه جواب السيدة «ايسّاييف» إذ إن «ماري دميتريفنا» أرادت أن تختبر» حب «فيدور ميخائيلوفيتش» لها، وحسب، لأنها كانت تشعر بالغيرة. فانتعش «فيدور ميخائيلوفيتش» وتأثر بل لقد فرح واستعاد الأمل واعتذر لها عن خشونته.

ولكن هذه الفرحة كانت قصيرة الأمد، ففي رسائل «ماري دميتريفنا» التالية أخذت تحدثه من جديد عن ذلك المعلم الشاب الذي عرفها زوجها عليه. وتمتدح طباعه وذكاءه. أما من جهتها، «فهي لا تستطيع أن تحقق السعادة لأي رجل». و «فيدور ميخائيلوفيتش» وهي «منكودان» سيئا الحظ، ومن المؤكد أنه من الأفضل لكل منهما...»

و «دوستويفسكي» وقد نفد صبره، قرر أن يجازف بكل شيء من أجل كل شيء. وللمرة الأولى، فكر بأن يتذرع بالمرض لكي يهرب من «سيميبالاتنسك»، ولكنه اضطر أن يعدل عن ذلك. فحصل أخيراً على إذن نظامي. وحصل اللقاء.

أخذت «ماري دميتريفنا» تلوي يديها وتتأوه، ثم تنتحب وتتوسل إلى الرب، ولكنها في نهاية الأمر اعترفت بأنها مغرمة بالمعلم الشاب: «فيرغونوف».

هي في التاسعة والعشرين، وهو في الرابعة والعشرين من العمر. وهي امرأة مهمة، متعلمة، متفهمة، وهو شاب من سيبيريا، معلم مدرسة صغير، بالكاد يعتبر متعلماً، ذو راتب ضئيل، ساذج، مزهو ومغرور بنفسه كالطاووس.

وأخذ «دوستويفسكي» يهاجم خصمه لكي يدافع عن فرصته وعن وضعه. هل هذا زوج مناسب بالنسبة لها؟ وهل يتفهمها؟ وهل تكون لديه القوة الكافية لحمايتها؟ وشباب هذا الغرّ هو ميزته الوحيدة. ولكن، فيما بعد، ومستقبلاً؟... ألن تعاني «ماري دميتريفنا» من فظاظة «فيرغونوف»؟ ألن تأسف على ضياع حبها لهذا الآخر الكائن أمامها، والذي يتوسل إليها أن تفكر جيداً للمرة الأخيرة؟

وبدت «ماري دميتريفنا» مرتبكة وحائرة، فهذه الشكوى الحارة أثرت بها وأغرتها تقريباً، فتمتمت: «لا تبك ولا تحزن، لم يتقرر كل شيء. أنت ولا أحد آخر».

فاستعاد «دوستويفسكي» شجاعته، وذهب لمقابلة الشخص الذي أغرى صديقته. وبدا «فيرغونوف» دون مستوى الوضع. فمنذ أن سمع أولى كلمات «دوستويفسكي»، أجهش بالبكاء وانهمرت الدموع من عينيه. وكتب «دوستويفسكي» فيما بعد:

«البكاء، هو كل ما يعرف أن يعمله».

وبعد مرور يومين، وقد اقنع «دوستويفسكي» الاثنين، عاد إلى «سيميبالاتنسك». ومن هناك أرسل للاثنين رسالة مؤثرة لإيضاح الأمور. ولكن العاشقين تمالكا نفسيهما، وجلب «دوستويفسكي» لنفسه جواباً حانقاً يعبر عن الغيظ، من قبل «ماري دميتريفنا»، ورسالة تطفح بالشتائم، من قبل «فيرغونوف».

وقد ذكر «دوستويفسكي» ذلك بكآبة وحزن، قائلاً:

«لقد حصل لي الشيء نفسه الذي حصل لـ «جيل بلاس» من قبل أسقف «غرناطة»، عندما قال الحقيقة.

لقد ضاع كل شيء. وتقبل «فيدور ميخائيلوفيتش» هزيمته بنوع من التلذذ الحزين. ومن جديد، أخذ يلامس قاع المصيبة وسوء الحظ. ومن جديد ألقى بنفسه في الظلام، وعند ذلك ولدت لديه فكرة التضحية التامة.

فهو لا يستطيع أن يكون زوجاً لهذه المرأة، ولكنه لا يزال يستطيع أن يسهر على سعادتها.

وتحمس لفكرة هذا الموقف الذي يتسم بالشهامة والفروسية.

وابتكر لنفسه مهمة مقدسة يقوم بها كملاك حارس لهذه المرأة. ولكنها. ربما رفضت القبول بأن يقوم بذلك، إيه، لا بأس، فهو إذن سيدهش الناس بأريحيته وطيبة قلبه ورقة عاطفته. ومنذ الآن، فهو صديق هذين المخلوقين اللذين جرحاه. وأخذ يقوم ببعض المساعي لإدخال ابن السيدة «إيسَايف» في فرقة الفتيان، في سيبيريا. واستنفر أصدقاءه في «أومسك» وفي «سان - بطرسبورغ» طالباً منهم الإسراع بتقديم المساعدة للأرملة الشابة. ووجه للبارون «فرانجيل» التماساً، يكاد لا يصدق: فهو يتوسل إليه «جاثياً على ركبتيه»، أن يدبر مركزاً أفضل، براتب أكثر قيمة، للرجل، الذي سيتزوج «ماري دميتريفنا»:

«وكل هذا من أجلها هي، ومن أجلها وحدها!... لكي لا تظل تعاني من البؤس والشقاء!... وبما أنها ستتزوجه، فعلى الأقل يجب أن يكون معهما نقود!... وهو، في الوقت الحاضر، أحب إلي من الأخ، وليس من الخطيئة في شيء، أن أطلب له أي شيء كان، فهو يستحق ذلك»!...

وهذا التعاطف الذي يبديه العاشق الذي خانه خصمه، سيجعل منه «دوستويفسكي» الموضوع الرئيسي في عمله: «مذلون مهانون»:

تقول بطلة هذه الرواية: «لقد خنتك، فغفرت لي كل شيء ولم تعد تفكر إلا بسعادتي»...

وكذلك، فالأمير «ميبسشكين» في رواية «الأبله»، على الرغم من حبه الشديد لنستاسيا فيليببوفنا»، يدعها تهرب مع «روغوجين» ويقيم مع منافسة علاقات ودية.

وبالنسبة «لدوستويفسكي» كما بالنسبة لأبطاله، تبدو المغامرة وكأنها إذن، قد انتهت.

ولكن حدثاً مفاجئاً أخيراً يعيد القضية برمتها إلى طاولة البحث، ويعيد طرحها من جديد.

فبتاريخ ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٥٦، عين «فيدور ميخائيلوفيتش» ملازماً ثانياً. وهذا التعيين الذي رفعه إلى هذه الرتبة أمن له مركزاً مرموقاً وراتباً كافياً، وأتاح له، على الخصوص، إمكانية الحصول على العفو التام والعودة إلى روسيا.

فاستعاد «دوستويفسكي» الأمل، وجدد طلبه للزواج.

وبتاريخ ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) حصل على إذن بالسفر إلى «كوزنيزيك». فوصل إلى هناك وقد هزه الفرح، واثقاً من فوزه فهو في وضع رائع. وعرض قضيته، ذاكراً بعض الأرقام والتواريخ. فتعرضت «ماري دميتريفنا» لعدوى هذه الحماسة.

لقد خلق كل منهما للآخر، ويجب أن يتزوجا. ولكن أين سيجدان النقود؟ (٦٠٠) روبل، على أقل تقدير. و «دوستويفسكي» لديه خطته، فلم يكد يصل إلى «سيمبيالاتنسك» حتى كتب إلى «فرانجيل»: «إذا لم يمنعني «ظرف طارئ» من ذلك، فإني سأتزوج قبل عيد المرفع (الكرنفال). وأنت تعرف بمن. فهي تحبني حتى الآن. وقد وافقت، وقالت لي: نعم... وقد تخلت في الحال عن أوهامها المتعلقة بحبها الآخر الجديد. وسبق لي أن عرفت ذلك منذ الصيف، من رسائلها... أوه! لو كنت تعرف أيّ امرأة هي!... ليس معي قرش واعتماداً على الحسابات الأكثر دقة، والصحيحة تماماً، يلزمني للمشروع كله (٦٠٠) روبل، نقداً. وأنا أنوي استدانتها من ك... «كوفريغين». ولكني، في البريد التالي، سأكتب إلى موسكو، أعني إلى خالي، وهو غني جداً، سبق له أن ساعد أسرتنا أكثر من مرة، وأطلب منه (٦٠٠) روبل، نقداً.

فإذا أرسلها لي، سأردها، في الحال إلى ك...»

ولكي يكون «دوستويفسكي» واثقاً من الحصول على الـ (٦٠٠) روبل من خاله، قرر أن يجعل أخته «بارب» تتوسط له، وتتدخل في الموضوع، ولذلك كتب لها الرسالة التالية:

«صديقتي، يا أختي العزيزة، لا تبدي الاعتراضات. ولا تحملين همي، فهذا هو أفضل ما أستطيع عمله، فهي المرأة التي تناسبني تماماً، فلدينا ثقافة متساوية، ونتفهم بعضنا جيداً... أنا في الخامسة والثلاثين من العمر، وهي في الثامنة والعشرين... وأعرف أنّ سؤالك الأول، كأخت طيبة، تحب أخاها، وتقلق على مستقبله وعلى مصيره، سيكون: «من أين وكيف ستعيشان»؟، لأن راتبي، بالتأكيد، لا يكفي لإعاشة اثنين... ولكني سأتدبر الأمر:

فأنا أعرف رجلاً غنياً وطيباً، تربطني به صداقة وطيدة! أريد أن أطلب منه قرضاً.. ولكن هذه النقود يجب أن أردها له.

ولذلك فإني أنوي أن أتوجه إلى خالي، وأن أكتب له، اروي له كل شيء، دون أن أخفي عنه شيئاً، وأن أطلب منه (٦٠٠) روبل.. وسأرسل الرسالة بالبريد. وأتوسل إليك أن تسلميه أنت بنفسك، هذه الرسالة، عندما يكون مزاجه رائقاً، وأن تشرحي له كل شيء.

وبتاريخ ٢٣ كانون الثاني (يناير)، أرسل النقيب «كوفريفين» الذي يعمل في معمل «الولتيسفك» الـ (٦٠٠) روبل التي طلبها منه «دوستويفسكي».

وبتاريخ ٢٧ كانون الثاني، حصل «فيدور ميخائيلوفيتش» على إجازة مدتها أسبوعان للقيام بالتدابير والترتيبات اللازمة لمشروع زواجه. وكتب إلى أخيه «ميشيل» راجياً إياه أن يرسل له بعض الحاجيات الضرورية: فستان، قبعة، وشاح مخملي، مناديل مقصبة: (نصف دزينة)، وطاقيتين، مزدانتين بشرائط زرقاء، أن أمكن. وكان يدرك تماماً أن أخويه وأختيه وخالاته وأخواله، سيكونون بالإجماع، متفقين على شجب هذا الزواج وعدم الموافقة عليه. ولكنه، لا يهتم ولا يبالي بذلك. وقبل أن يحين موعد حفل الزواج، ذهب إلى عيادة أحد الأطباء، فطمأنه الطبيب تماماً عن حالته الصحية.

وأخيراً، بتاريخ السادس من شباط (فبراير) سنة ١٨٥٧، وفي الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، بمدينة «كوزنيتزيك» عقد قران الملازم الثاني «دوستويفسكي» على السيدة «ماري دميتريفنا ايسّاييف» وفي الحال، سافر الزوجان الشابان إلى «سيميبالاتنسك» حيث كان على «دوستويفسكي» أن يتابع عمله.

ولكن التوتر العصبي الذي انتابه خلال تلك الأيام الأخيرة، كان أقوى مما ينبغي، وتلك التقلبات المفاجئة بين الأمل، واليأس مع الاستياء، وتلك الهموم والارتباكات، أنهكت أعصاب الكاتب وجسمه. وأثناء توقفهما في «بارناوول»، عصفت به وهزته نوبة صرع. وقد شهدت «ماري دميتريفنا» العروس، هذه النوبة.

و «دوستويفسكي» الذي عصف به الألم، أخذ يتلوى، يحشرج، ويضرب الهواء بيديه كالمجنون. بينما كان فمه يتقلص ويخرج منه زبد أصفر. وضغطت على بلعومه تقلصات مفاجئة. فأخذ يختنق، وكاد يموت، وهي هناك، أمامه، وقد تجمدت خوفاً وقرفاً.

كيف ستستطيع أن تحب هذا المخلوق الغامض والغريب، الذي تحول وعاد فجأة إلى الحالة الحيوانية الغريبة؟ فزواجها الأول ربطها برجل سكير، كان يعود إلى المنزل، حاسر الرأس، مشعث الشعر، يتصبب عرقاً، مترنحاً، تفوح منه رائحة الخمر، يتقيأ خفية، وزواجها الثاني ربطها بهذا المريض الذي يتلوى وهو يتدحرج على الأرض، يختنق، ويصيح كالمجنون. ففي هذه المرة أيضاً، ينتهي شهر العسل بالنسبة لها بمهزلة شنيعة. وهذه المرة أيضاً، تنهار أبسط أحلامها، وأشدها استحياءً، أمام واقع بشع ومخيف.

والطبيب، الذي استدعي على عجل، قرر دون مجاملة أو مواربة أن الحالة هي نوبة صرع، ونصح بوجوب تأمين راحة طويلة الأمد للمريض.

واضطر الزوجان إلى البقاء أربعة أيام في تلك البلدة وفي منزل أحد الأصدقاء المجاملين، وقد رثى لحالة الضابط، الذي أضنته مصيبته الجديدة،فقدْ فقد ثقة زوجته، رغماً عنه ودون أن يرغب بذلك وهو الذي كان يعتقد أنه أنقذها من حياة بائسة، فقد فرض عليها حياة أكثر بؤساً، وقضى على كل فرصة للحب بينهما، ومع ذلك، ينبغي عليهما العيش جنباً إلى جنب، وأن يتحمل كل منهما الآخر، ويكذب عليه، والتظاهر بأن كلا منهما يحب الآخر.

وكانتْ «ماري دميتريفنا» أكثر كبرياءً من أن تعترف بخطئها أمام الآخرين. فقد كتبت إلى أختها، تقول:

«لست محبوبة ومدللة وحسب من قبل زوجي الطيب جداً والذكي جداً، والذي يحبني كثيراً، بل إني محترمة جداً من قبل ذويه ومعارفه».

وبتاريخ ٢٠ شباط (فبراير) سنة ١٨٥٧، عاد «دوستويفسكي» وزوجته إلى «سيميبالاتنسك». وفي الحال كان عليهما أن يبحثا عن مسكن، وأن يدبرا نقوداً، وأن يرتبا حياتهما العائلية، الجديدة. وأصيبت الزوجة بالمرض، بسبب ما أصابها من إرهاق. وزيادة في سوء الحظ، فقد أعلن عن عرض عسكري، يحضره قائد اللواء. وحدث هرج ومرج وضجة كبيرة في المدينة كلها. ولكن الهدوء عاد فخيم عليها شيئاً فشيئاً. وأخذت «ماري دميتريفنا» تزين منزل «دوستويفسكي» وتوجد جواً يوحي بالارتياح حول هذا المخلوق، الذي تعرض لجميع أنواع البؤس، وعملت على استمالة مجتمع المدينة الصغيرة، وتوصلت إلى أن تنشيء في المنزل، ما يشبه الصالون الأدبي، حيث أخذ رواده يتحدثون حتى باللغة الفرنسية.

وفي أواخر شهر أيار (مايو)، حصل «فيدور ميخائيلوفيتش» على إجازة مدتها ثمانية أسابيع، لأسباب صحية، أمضاها في المنطقة المجاورة لمدينة «سيميبالاتنسك».

وفي غضون ذلك، كان ربيبه (ابن زوجته) «بول» قد قبل في فرقة فتيان «أومسك». وعاشت الأسرة حياة متواضعة.

وكان الوصيف «فاسيلي» يقوم بعمل سائق العربة والخادم، والطباخ، وخلد «دوستويفسكي» إلى الراحة، وسمن قليلاً، ولم يعد يفكر إلا بأعماله التي سينجزها في المستقبل.

الكاتب - الجندي

في «سيميبالاتنسك»، أثناء السنة الأولى من خدمته، منعت الحياة العسكرية «دوستويفسكي» من أن يتفرغ ويكرس وقته لعمله الأدبي. كما أن حبه، فيما بعد، «لماري دميتريفنا»، قد شغل ذهنه وباله تماماً، دون أي أمر آخر، ونادراً ما كان يكتب، وإذا كتب القليل، فعلى مضض، إنما كان يفعل ذلك:

«يا صديقي، لقد كنت مضطرباً جداً، مشوش الأفكار، خلال هذه السنة الأخيرة، وحزيناً جداً ومعذباً، لدرجة أنه كان يستحيل علي القيام بأي عمل».

وهذا التأكيد يبدو مبالغاً به، لأنه كان يفكر بكتابة رواية هزلية: «إني أؤلف رواية هزلية، ولكني حتى الآن، لم أكتب منها سوى بعض الفصول والفقرات المنفصلة والمتفرقة»..

وفي سنة ١٨٥٥، نظم «دوستويفسكي» بهمة ونشاط، قصيدة في موضوع وفاة «نيقولا الأول» الذي حكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة، ووجهت القصيدة إلى الإمبراطورة «أليكسندرا فيدوروفنا»:

كل شيء قد انتهى..

لقد رحل ولم يعد على قيد الحياة

كم أكن له الحب والتقدير

فأنا لا أجرؤ على أن ألفظ اسمه بشفتي الخاطئتين
وتشهد على عظمته أعماله الخالدة.

☆☆☆

كأرض يتيمة، أخذت روسيا تبكي وتنتحب
وقد استولى عليها الخوف والهم
فبدت هامدة جامدة كقطعة من جليد
ولكنك أنت... أنت وحدك، فقدت أكثر مما فقده الجميع...

وهنالك نحو مئة بيت على هذا النمط وبهذه اللهجة. وهذه القصيدة المطولة التي تتسم بالتفخيم والمغالاة، تبعتها سنة ١٨٥٦ قصيدة ثانية، تحية، هذه المرة، لتتويج «أليكسندر الثاني»:

«نحوك، يا ينبوع كل الرحمة،
«ينبوع الخشوع المقدس،
«ترتفع وتتصاعد توسلات وصلوات الشعب الروسي»..

وسنرى فيما بعد ماذا كان مصير هذه العرائض والتوسلات المستترة.

و «دوستويفسكي» وهو ينتظر نتائجها، أخذ يقوم بمشاريع وبمساعي مختلفة: كتب مقالة عن الفن وأهداها للأميرة «ماري نيكوليفنا» رئيسة الأكاديمية الفنية. وحماية صاحبة هذا المقام الرفيع، كان من الممكن، دون أي شك، أن تخفف من شدة الرقابة: «أريد أن أطلب الأذن بإهداء بحثي له، ونشره، دون ذكر اسم المؤلف».

والواقع هو أنه تخلى بسرعة عن هذه الفكرة، وتبنى فكرة أخرى: «الرسائل الريفية» وهي مجرد نقد أدبي لبعض المؤلفين المعاصرين.

وأخذ يطلع بسرعة على الأعمال الأخيرة التي نشرت آنذاك. «تورغينيف» يعجبني أكثر من الجميع، على الرغم من كل شيء، هذا

ما كتبه إلى «ماسكوف»، وأضاف: ولكن، مما يؤسف له أن يتعرض صاحب هذه الموهبة العظيمة، لكل هذا الإهمال. وأحبّ «ل. تولستوي» كثيراً، ولكن يبدو لي أنه لن يكون غزير الإنتاج (مع أني، بعد كل حساب، يمكن أن أكون مخطئاً) وأديباتنا، النسوة، يكتبن كنساء أي بطريقة ذكية، محببة، ولكنهن يجهدن أنفسهن ويسرعن بشكل مخيف للتحدث عن عواطفهن وعما تكنه قلوبهن. وأرجو أن تشرح لي من فضلك، لماذا الأديبة لا تكون أبداً فنانة قاسية وعنيفة»؟

واضطر «دوستويفسكي» إلى التخلي عن مشروع «الرسائل الريفية»، لعدم عثوره على الوثائق اللازمة: ليس هنالك صحف، والكتب قليلة جداً. ومما كتبه إلى أخيه: «وهكذا، فإن كل شيء لدي يموت: أفكاري الأدبية، مهنتي وموهبتي الأدبية»..

وأخذ يفكر أيضاً بإصدار مجلة، وبتأليف رواية عن الحياة في سيبيريا.

ولكن، في غضون ذلك، تذكر «ميشيل» قصة، كان «دوستويفسكي» قد كتبها قبل ثماني سنوات، عندما كان سجيناً في حصن «أليكسي»: وهي بعنوان: «البطل الصغير».

ولم يكن «دوستويفسكي» راضياً عن هذا العمل، وفي الرسالة الأولى التي وجهها إلى أخيه بعد خروجه من السجن، طلب منه عدم إعطاء المخطوطة لأحد. ولكن «ميشيل» لم يتقيد بهذا المنع، وعندما رأى أن الوقت المناسب قد حان للقيام بالمغامرة، قدم مخطوطة «البطل الصغير» إلى رئيس تحرير مجلة «حوليات الوطن». وأخبر في الحال أخاه «فيدور» بمسعاه، وأخذ ينتظر، بشجاعة، التوبيخ الذي سيوجهه له. ولكن «دوستويفسكي» لمجرد سماعه كلمة: «نشر» كاد يفقد وعيه السليم:

أيمكن أن تتاح له، بعد ثماني سنوات، قراءة نصه مطبوعاً وأن يعود إلى عالم الأدب، وأن يعيد ربط حاضره بالماضي؟..

وانهال سيل من الأسئلة على أخيه وعلى البارون «فرانجيل»: لماذا لم ينشروا حتى اليوم قصتي الخاصة بالأطفال؟ هل كانوا يرفضون السماح بنشرها؟ قل لي، من فضلك (وأتوسل إليك) هل أرادوا حقاً، وجدياً، نشرها؟، وإذا كانوا يريدون ذلك هل حاولوا طباعتها، وإذا كانوا لم يحاولوا ذلك، لماذا لا يحاولونه الآن»؟

وعليك أن تعترف معي أن مصير هذا النص الصغير (قصة للأطفال) يمكن أن تثير اهتمامي كثيراً، لعدة أسباب».

وأخذ يتذمر وقد نفد صبره، وهو يشعر في قرارة نفسه بالحماسة الفرحة التي يشعر بها الكاتب المبتدئ، وها هو كل مستقبله يطرح من جديد ويتأرجح في الميزان، ونشر «البطل الصغير» سيفتح الطريق، الذي ظل مغلقاً، خلال زمن طويل. ولأن مبدأ نشاطه الأدبي أصبح مقبولاً، فهو لن يخشى المستقبل، بعد الآن. إنه سيكتب، ولديه الكثير مما يجب عليه أن يكتبه! ولن تكفيه حياته كلها لينتج ثمار كنز تأملاته وتجاربه، ويجنيها.

وأخيراً، نشرت قصة «البطل الصغير» في مجلة «حوليات الوطن، في شهر آب (أغسطس) سنة ١٨٥٧، وهي تحمل التوقيع المستعار: «.M.Y».

وطلب «ميشيل» من أخيه أن يرسل له، على وجه السرعة الرواية الجديدة التي حدثه عنها في رسائله، لأنه يريد تقديمها إلى صحيفة، تتهيأ للصدور: «الكلام الروسي». ولأنه واثق من قضيته، فقد طلب من إدارة تلك الصحيفة سلفة قدرها (٥٠٠) روبل «لفيدور ميخائيلوفيتش»، وتعهد بتسليم مخطوطة العمل، قبل نهاية سنة ١٨٥٨. ولكن، في غضون ذلك، كان «فيدور ميخائيلوفيتش» قد أقام علاقة مع «بليشييف»، وهو أحد أعضاء

مؤامرة «سان بطرسبورغ» الذي نجا من محنة السجن وتعرض لعقوبة النفي، والانضمام كجندي صف في الفوج المقيم في معسكر «أورانبورغ».

ومنذ سنة ١٨٥٦ ، وافق «بليسشييف» على المشاركة في أعمال صحيفة الناشر «كاتكوف»: «رسول روسيا» وفي السنة نفسها، وعد «دوستويفسكي» «كاتكوف» بأن يقدم له رواية، بعد أن حثه على ذلك رفيقه القديم، وقد تلقى من أجل ذلك سلفة قدرها (٥٠٠) روبل.

وهذان العرضان، عرض صحيفة «رسول روسيا». وعرض مجلة «الكلام الروسي» أربكا «دوستويفسكي» كثيراً، فهو لم يكن يريد أن يبدأ إلا برواية، يكون هو نفسه راضياً تماماً عنها. والحال هي أن الكتاب الذي كان يفكر به منذ عدة سنوات، لا يمكن إنجازه، بالحقيقة، بسرعة ودون روية وتأني. وقد كتب إلى أخيه، ما يلي:

«فيما يتعلق بروايتي، لقد حصلت لها، بل لقد حصلت معي صعوبات وظروف مزعجة، وإليك أسباب ذلك: لقد قررت، وأقسمت، إني اعتباراً من الآن، لن أنشر شيئاً، إلا بعد أن أفكر به جيداً، وأتأمله وأتركه ينضج كما ينبغي، وإني لن أنشر شيئاً، بناء على موعد يحدد مسبقاً (كما فيما مضى) بحجة أنهم منحوني نقوداً كسلفة على ذلك العمل... ولذلك، بعد أن تبين لي أن لروايتي حجماً كبيراً وأنها تتجهز وتتجمع بشكل مدهش، يثير الإعجاب وأنه ينبغي، ينبغي تماماً (بسبب النقود) إنجازها بمنتهى السرعة، فوقفت متردداً، ووجدت نفسي مضطراً لتخريب موضوع أفكر به وأدرسه بروية منذ ثلاث سنوات، وجمعت له كثيراً من الوثائق (لا أستطيع حتى ترتيبها، أنا بنفسي، بسبب عددها الكبير) وقد أنجزت جانباً من العمل، لأني كتبت عدداً كبيراً من مشاهده ومن فصوله المختلفة. وأكثر من نصف العمل أُنجز على المسودة، ولكني أرى جيداً أني لن أستطيع حتى إنجاز هذا النصف ونقله على المبيضة في الموعد الذي سأكون فيه بحاجة

للنقود.. ولذلك فإن الرواية كلها، وجميع الوثائق والمذكرات المتعلقة بها قد رتبت، وهي محفوظة الآن، في أحد الأدراج»..

وبعد أن تخلى «دوستويفسكي» عن فكرة إنجاز الرواية، بدأ يفكر بكتابة قصتين، أقل أهمية من تلك الرواية، وهما: «حلم العم» و «قرية ستيبانتشكيوفو». ولكنه لم يكن راضياً عن عمله، وقد كتب إلى أخيه، بهذا الخصوص:

«إني لا أحبه، يقصد «حلم العم» ويحزنني التفكير بأني يجب علي أن أتقدم وأبدو أمام الجمهور في أوضاع وشروط سيئة إلى هذه الدرجة. ويستحيل على المرء أن يكتب ما يرغب تماماً بكتابته، يجب أن يكتب ما لم يفكر به أحد إذا لم يكن بحاجة للنقود. وأنا علي أن أبتدع قصصاً من أجل النقود، وهذا أمر، ويا للأسف! شاق للغاية»!

و «حلم العم» هي نوع من القصص الهزلية الثقيلة، موضوعها الرئيسي والمركزي زواج رجل عجوز بشكل إجباري ومتصنع. وفي قصة قرية ستيبانتشيكوفو يبرز «دوستويفسكي» ويصور شخصية مغامر، يدعى: «أوبيسكين» يحاول أن يتشبه بليبرالي بائس، وأن يقلده، وأن يخدع الناس بواسطة الكثير من الكلام الفارغ، ومظاهر العطف المحسوبة والمدروسة، وبالدموع والتنهدات. وهنالك من أدعى أن صورة «أوبيسكين» لم تكن سوى الصورة الكاريكاتورية والمجسمة للناقد «بيلنسكي». ويبدو، بالفعل، أن الأمر هو كذلك. وعلى أيّ حال، فإن هذا الراغب باللذة، الوقح، هذا المنافق الذي يدعي اعتناق الاشتراكية، هذا الغشاش المرن، الذي يدعو إلى مبدأ الفكر الحر، هذا الشيطان المرائي الذي يتظاهر بالورع والتقوى، يجسد ويصور مسبقاً ومنذ ذلك الحين شياطين الفترة المهمة، والرواية الكبرى: «الشياطين» (الذين بهم مسن من الشيطان).

وكان على «دوستويفسكي» أن يقول سنة ١٨٧٣ : «كتبت هذه القصة في سيبيريا ، بعد أن أمضيت فترة من الزمن في سجن الأشغال الشاقة ، بدافع فكرة واحدة وهي العودة إلى حرفة الأدب ، ومع الخوف الشديد من سلطة الرقابة... ولذلك فقد كتبت ، بصورة اضطرارية قصة صغيرة ، تتصف ببراءة السماء الزرقاء ، وبسذاجة تلفت النظر».

ونشرت قصة «حلم العم» سنة ١٨٥٩ في مجلة «الكلام الروسي» أما قصة «قرية ستيباتشيكوفو» ، بسبب سوء تفاهم مع مجلة «رسول روسيا» ، فقد نشرت فيما بعد ، في صحيفة «حوليات الوطن». وعلاوة على ذلك ، فلا بد من القول إن القصة لم تحظ بالنجاح الذي كانت تستحقه ، كان «دوستويفسكي» قد نسيه الجمهور والنقاد. وقد شطب اسمه من الأخبار اليومية والجديدة وبدا وكأنه من عصر آخر ، ومن عالم آخر. وبالنسبة له ، لم يعد الأمر يتعلق بمتابعة العمل في حرفة توقف عن العمل فيها ، بل بأن يعود أدراجه إلى بداياته وأن ينطلق مجدداً من الصفر ، وأن يستميل القراء ويكسب ودهم ، بكل صبر وأناة ، الواحد بعد الآخر ، وبصعوبة كبيرة ، كما أن عليه أن يستعيد صداقة أصدقائه الذين فقدهم.

وعلى الرغم من الديون الكثيرة التي كانت تثقل كاهله ، والطلبات المستعجلة ، وحالة الحيرة والشك التي كان لا يزال يعاني منها بشأن مستقبله ومصيره فقد استأنف النضال بشجاعة مدهشة.

وما كان يلزمه قبل كل شيء ، هو ترك الجيش ومغادرة سيبيريا. ومراحل هذه المسيرة نحو الحرية ، مثيرة جداً ، في بساطة وشدة دقتها ، كسجل الوقائع اليومية في إحدى السفن.

ومنذ سنة ١٨٥٥ ، كان «دويتسويفسكي» قد نظم قصيدته الأولى التي سبق ذكرها ، والتي أهديت للإمبراطورة. فعلم بها الجنرال «غاستفور» ، وطلب لمؤلفها رتبة ضابط صف «لتشجيع اجتهاده ومكافأته

على حسن سلوكه، ولتقدير تبكيت الضمير الذي يعاني منه بسبب الأخطاء الجسيمة التي ارتكبها في فترة شبابه».

وهذه الرتبة الأولى منحت لدوستويفسكي في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٥٥.

وفي سنة ١٨٥٦، نظم «فيدور ميخائيلوفيتش» قصيدة جديدة كانت هذه المرة، عبارة عن تحية ومديح للإمبراطور «أليكسندر الثاني» وسلمها للجنرال «غاستفور» الذي كان ذاهباً لحضور حفلات التتويج.

وعلاوة على ذلك، فقد أرسل نسخة من قصيدته إلى البارون «فرانجيل» وطلب منه العمل على إيصالها إلى صاحبها، في مقامه الرفيع.

«يسجل استلامها» كان هذا ما أمر به الجنرال «سوخوزانيت» الذي قدم له «غاستفور» قصيدة، بل عريضة «دوستويفسكي».

ودون أن ينتظر «فيدور ميخائيلوفيتش» هذه النتيجة البائسة فقد حاول في شهر آذار (مارس) سنة ١٨٥٦ القيام بمسعى جريء لدى الجنرال «توتلوبين» قائد فرقة الهندسة. كان الأخوان «توتلوبين» رفيقيه في مدرسة المهندسين، ومنذ ذلك الحين كان «المرشد» السابق قد تميز بشجاعته أثناء حصار «سيباستوبول» وحظي برعاية الإمبراطور، الذي منحه لقب «كونت».

وقد كتب «دوستويفسكي» إلى «فرانجيل»:

«لقد عرفت جيداً هذا الرجل فيما مضى، وأخوه رفيقي وصديق طفولتي. وقبل توقيفي ببضعة أيام، التقيت به، وتصافحنا بمودة وحرارة. إيه، وماذا في ذلك؟ ربما لن يكون قد نسيني»!

وإلى «توتلوبين» وجه رسالة مطولة ورائعة بأسلوبها الذي اتسم بالرشاقة والتوسل.

«إني أخشى، عندما تلقي نظرة على توقيعي وعلى اسمي، أن تكون، دون شك، قد نسيتني - وإن كنت فيما مضى (ومنذ زمن طويل)

قد حصل لي شرف معرفتك لي - إني أخشى، كما قلت من أن تستاء مني، ومن وقاحتي، وأن تلقي بهذه الرسالة، جانباً، دون أن تقرأها... ويمكن أن توجه لي إهانة إذا اعتقدت بأني أجهل طول المسافة التي تفصل بيننا. فقد حصل لي كثير من التجارب القاسية والبائسة في حياتي. وهي أقوى من أن تجعلني لا أفهم هذا الفرق»...

وتابع، راوياً قصة توقيفه، رحيله، إقامته في سجن الأشغال الشاقة:

«إني أعرف أني قد أدنت بسبب أفكاري، وبسبب بعض النظريات. ولكن الأفكار والقناعات تتبدل وتتغير، والرجل نفسه يتغير مع مرور الزمن. ولماذا يجب علي في الوقت الحاضر أن أعاني وأتألم من أجل أمور لم تعد موجودة، من أجل ما قد تغير لدي وفي نفسي، وأن أتعذب بسبب أخطائي القديمة التي أرى الآن جيداً مجانيتها، وعدم جدواها؟.. وأنا أرغب بأن أكون نافعاً ومفيداً. وأنه لأمر شديد القسوة، أن يكون لدى المرء قوة معينة في الروح وفي النفس، ورأس على كتفيه، وأن يتعذب بالبطالة، ولعدم قيامه بأي عمل... وفكرتي الوحيدة هي مغادرة الجيش والحصول على وظيفة مدنية، في أي مكان في روسيا، بل وحتى هنا، إذا اقتضى الأمر. إني أود الحصول على حق النشر. وأنا واثق تماماً، أني عن هذه الطريق فقط أستطيع أن أؤدي خدمة... وأنا أدرك أني بكتابتي هذه الرسالة قد ارتكبت خطأ جديداً، وأني خالفت النظام. ولكنك متسامح، وأنا أثق بتسامحك، واعتمد عليه».

وكان «توتلوبين» أكثر وأفضل من متسامح، لقد كان نشيطاً وفعالاً.

فقد استطاع بمزيد من السرعة أن يحصل على وعد من الدوق الأكبر «نيقنولا» بالذات بأن يتولى هو بنفسه الدفاع عن مصالح «دوستويفسكي» لدى وزير الحربية.

وبتاريخ ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٥٦ رفع «فيدور ميخائيلوفيتش إلى رتبة ملازم ثاني. وبعد انقضاء ستة أشهر تلقى من جديد حقوقه بالانتماء إلى الطبقة النبيلة:

«لقد تلقيت من جديد من القيصر حقي بالانتماء إلى الطبقة النبيلة، وهذا يعني أن غلطتي قد غفرت لي تماماً».

أخيراً، وبتاريخ ١٦ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٥٨، التمس «دوستويفسكي» الإذن بإحالته على التقاعد، لأسباب صحية، وقد انتظر نتيجة التماسه مدة تقرب من السنة. وفي ١٨ آذار (مارس) سنة ١٨٥٩، صدر أمر إمبراطوري، منح «دوستويفسكي» الإذن بمغادرة الجيش، والعودة للإقامة والعيش في روسيا. وقد حظّر عليه، مع ذلك، أن يقيم في «سان بطرسبورغ» أو في موسكو. وقد حددت إقامته في مدينة «تفير» الصغيرة. كما صدر الأمر إلى حاكم هذه المدينة، بموجب مذكرة تحمل تاريخ السابع من أيار (مايو) سنة ١٨٥٩، بتنظيم مراقبة سرية حول السجين السابق.

والخبر الجديد والمهم لم يتبلغه «فيدور ميخائيلوفيتش» رسمياً إلا بعد مرور أربعة أشهر، على توقيع الإمبراطور على ذلك القرار.

وبانتظار ذلك كان يتذمر وقد نفد صبره، ويتوه في مشاريع لا يحصى لها عدد. أيجمع قصصه في مجلدين، أم هل يؤلف رواية كبيرة...

وقد كتب إلى أخيه: «أنت لا تكف عن أن تردّد لي، إنّ «غونتشاروف»، على سبيل المثال، قد حصل على (٧٠٠٠) لروبل كمكافأة على روايته، وأنّ «تورغينيف» قد نال من أجل روايته: «مجموعة نبلاء» (لقد قرأتها أخيراً، وهي ممتازة) من «كاتكوف» (الذي أطلب منه (١٠٠) روبل على الصفحة)، (٤٠٠٠) روبل أي (٤٠٠) روبل بالصفحة. يا صديقي، أنا أعرف جيداً أني أكتب بطريقة أسوأ من طريقة «تورغينيف، ولكن ليس أسوأ بكثير، وأخيراً فإني يحدوني أمل قوي بأني سأتوصل إلى الكتابة

بشكل جيد مثله. فلماذا إذن، على الرغم من بؤسي، والضائقة التي أعاني منها، ينبغي علي أن أقبل (١٠٠) روبل، بينما يحصل «تورغينيف» الذي يملك مزارع يعمل فيها (٢٠٠٠) فلاح، على (٤٠٠) روبل؟

إن فقري يرغمني على التسرع والكتابة بسرعة للحصول على النقود، وبالتالي فإن هذه الطريقة تخرب وتفسد، على الدوام، أعمالي.

وأكثر من أي وقت مضى، كان بحاجة لهذه النقود. وأقل من أي وقت كان، هو يعرف كيف يحصل عليها. والنفقات التي تتطلبها الرحلة باهظة جداً، ومن أين سيتدبر وسائل العيش في «تفير»؟

طلب سلفة من الناشر «كوشوليف»، فأرسل له هذا الناشر (١٠٠) روبل، «ذابت بسرعة كالشمع» على حدّ تعبيره.

فبعد أن سدّد جميع ديونه، بقي معه بالكاد ما يكفي لدفع أجرة الرحلة إلى «كازان». فتوسل إلى «ميشيل» كي يرسل له (٢٠٠) روبل، باسمه إلى هذه المدينة:

«أنقذني أيضاً، مرة أخرى»!

أخيراً، وبتاريخ ٢٠ حزيران (يونيو) تلقى بطاقة المرور المؤقت رقم (٢٠٣٠) التي تسمح له بمغادرة «سيميبالاتنسك».

وكتب إلى «ميشيل» في اليوم الأول من تموز (يوليو):

«سأسافر غداً، الساعة السابعة، صباحاً»

فودع أصدقاءه، وأعطى لآمره السابق، بعض الصور والكتب، والأواني والأرائك، منضدة صغيرة، بذته الرسمية سيفه وكتافياته، وبعد أن تخفف هكذا من هذه الأثقال، غادر، يوم الثاني من تموز (يوليو) ١٨٤٥٩ مدينة «سيميبالاتنسك» التي عاش فيها أكثر من خمس سنوات.

كانت الرحلة طويلة وشاقة. وتوقف «آل دوستويفسكي» في «أومسك» لكي يصطحبا ابن «ماري دميتريفنا»، الذي كان هناك في

«فرقة الفتيان» وأمضيا بضعة أيام في المدينة. فاغتنم «فيدور ميخائيلوفيتش» فرصة هذا التوقف، لكي يرى مرة أخرى، ومن جديد الأصدقاء الذين ساعدوه أثناء السنوات التي قضاها في السجن. بل لقد قام أيضاً بزيارة السجن، وأمام حاجز الأوتاد الطويلة، وأمام الباب الكبير المغلق، وقف بوقار، واستغرق في التأمل.

وأخيراً بعد توقف آخر لمدة يومين في «تيومين»، وصل المسافرون إلى غابات الأورال. الطريق كان سيئاً، والحر شديداً، والأحصنة تشد بصعوبة، تحيط بها سحابة من الذباب. والصرير يتصاعد من العربة، مع كل جهد وحركة. وفجأة، عند أحد منعطفات الطريق، لمح «دوستويفسكي» علامة إرشاد: عمود يعلوه العقاب ذو الرأسين: إنها نقطة الحدود بين أوربا وآسيا. فأوقف السائق أحصنته، ونزل الجميع من العربة.

كانت اللحظة مهيبة. وهذا الخط التصوّري والوهمي، الذي اجتازه «دوستويفسكي» قبل عشر سنوات، ها هو قد وجده، ثانية، أمامه الآن. كان قد ذهب مقيداً بالسلاسل، مريضاً، نحو السجن. وطوال مدة سجنه، لم يعش إلا من أجل هذه اللحظة، التي يضع فيها من جديد قدميه على الأرض الروسية، وها هو قد حقق، بالفعل حلمه. ونزع «فيدور ميخائيلوفيتش» قبعته، رسم إشارة الصليب على صدره، وقال ببساطة:

«لقد أتاح لي الرب أخيراً أن أرى من جديد هذه الأرض الموعودة».

وغير بعيد عن علامة الإرشاد، كان هنالك كوخ لحارس للحدود، مشوه الجسم. فناداه «دوستويفسكي»، وأخرج من حقيبته زجاجة كحول وأقداح، وتبادل الأنخاب، أولئك الذين ينتقلون من عالم إلى عالم آخر، مع الذي كان عليه أن يبقى في مركز حراسته.

ثم ذهب «دوستويفسكي» وزوجته وابنها، ليقطفوا «الفراولة» أي حب التوت من أشجار الغابة.

«تفير»

عنـدما وصـل «آل دوستويفـسـكي» إلى «قـازان» لم يكـن بحـوزتهم سوى (١٢٠) روبلاً، من العملة النقدية.

والمئتا روبل التي وعد «ميشيل» بإرسالها إلى هـذه المدينـة لم تكـن قد وصلت بعد، ولم يستلمها «فيـدور ميخـائيلوفيتش» مـن شـباك البريـد إلا بعد عشرة أيام.

و «آل دوستويفسكي» الذين غادروا «سيميبالاتنسك» بتـاريخ ٢ تمـوز (يوليو) لم يصلوا إلى «تفير» إلا بتاريخ ١٩ آب (أغسطس).

ولكـن، لـيس في «تفـير» يمكـن أن يحظـى «فيـدور ميخـائيلوفيتش» بالراحة التي يتمناها. فالمدينة كئيبة الجو، قبيحة، ريفية الشكل والمظهر.

وكتب «دوستويفسكي» إلى «فرانجيل»:

«أنا محصور ومجمد في «تفير» وحالتي هنا أسوأ ممـا كانـت عليـه في «سيميبالاتنسك». فالجو فيها قاتم، بـارد والمساكن مبنيـة بالحجـارة، لـيس فيهـا أي نـشاط أو حيويـة، ولا يوجـد فيهـا حتـى أيّ مكتبـة. إنهـا سـجن حقيقي».

اسـتأجر شـقة صـغيرة مفروشـة، في البنايـة نفسها الـتي سـكن فيهـا «بوشكين» فيما مضى. وأتى أخوه الأكبر وأمضى بقربه بضعة أيام فانتعش «دوستويفـسـكي» واسـتعاد آمالـه، ولكنـه بعـد سـفر «ميـشيل» عـاد إلى تذمره، وعاودته كآبته المعهودة:

«لقد رحلت، وأعرف جيداً أننا لم نتعارف من جديد كما كان ينبغي، وأننا لم نتكاشف تماماً ولم يفتح كل منا قلبه للآخر. كما كان يجب علينا أن نفعل»...

إنه وحيد، يشعر بالسأم، ولديه انطباع بأنه يبدد ويضيع وقتاً ثميناً. ودعاه حاكم المدينة، الكونت «بارانوف» إلى منزله. وكانت زوجة «بارانوف» ابنة عم الأمير «سولوغوب». وكان «دوستويفسكي» قد سبق له أن التقى بها، في صالونات «سان بطرسبورغ» الأدبية.

وزادت ذكرى ذلك الماضي من حدة تذمره وتسرعه، فلم يعد يستقر في مكان ويجب أن تكون إقامته في «سان بطرسبورغ». فهو لا يستطيع العيش بعيداً عنها. ورسائله العديدة إلى «فرانجيل»، لا تتحدث عن أي موضوع آخر، ولمن عليه أن يتوجه ويتوسطه في هذه القضية: هل يتوجه إلى الأمير «دولغوروكي»، أم إلى الكونت «توتلوبين»، أم إلى الكونت «بارانوف» أم إلى «تيماشيف»، لكي يحصل على إذن من القيصر بالإقامة في العاصمة؟

وفي شهر أيلول (سبتمبر) أتى «فرانجيل» لزيارة «فيدور ميخائيلوفيتش» ولكنه بدا عاجزاً عن إعطائه نصيحة مجدية.

وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) أوعز الكونت «بارانوف» إلى «دوستويفسكي» بأن يقدم طلبه إلى الإمبراطور. وتعهد حاكم المدينة بإيصال الطلب إلى الإمبراطور بواسطة الكونت «أدلير بيرغ». فتردّد «دوستويفسكي»، وفي نهاية الأمر، أرسل عريضتين: إحداهما إلى «توتلوبين»، والأخرى إلى «أليكسندر الثاني».

وكتب إلى «توتلوبين» بتاريخ الرابع من تشرين الأول (أكتوبر):

«ها قد مضى شهر ونصف وأنا هنا، ولا أدري متى وكيف يمكن أن تنتهي هذه الصعوبات. والحال، هي أني يستحيل علي العيش بعيداً عن

«سان بطرسبورغ». فأنا مصاب بمرض الصرع، وبحاجة جدّية للمعالجة وللعناية الطبية. ولدي «ربيب» هو ابن زوجتي، يجب عليّ تربيته والسهر على تعليمه، وعلى تأمين حاجات زوجتي... أنقذني أيضاً مرة أخرى... فلو تحدثت عني إلى الأمير «دولغوروف»، ربما حصلت منه على أن يعمل على الإسراع بإنجاز قضيتي. كل أملي متعلق بك».

وبتاريخ ١٩ تشرين الأول (أكتوبر)، أرسل الكونت «بارانوف» رسالة «دوستويفسكي» إلى الإمبراطور:

«يا صاحب الجلالة، عليك وحدك يتوقف مصيري، صحتي وحياتي. اسمح لي بالذهاب إلى «سان بطرسبورغ» لكي أستشير فيها الأطباء. أعطني الحرية، والإمكانية، في حالة استعادتي لعافيتي، أن أصبح مفيداً لأسرتي وكذلك، بطريقة أو بأخرى نافعاً أيضاً لوطني...

«أيها العاهل، اللطيف والحليم جداً، لتغفر لي جلالتك أيضاً جرأتي على إرسال رسالتي الثانية، ولتتكرم بمنحي حظوة خاصة، بأن تأمر أن يُقبل «ربيبي» المدعو «بول ايسّاييف» البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة، في إحدى ثانويات «سان بطرسبورغ» على نفقة الدولة... فأنت بذلك تحقق السعادة لأمّه، التي تعلم ابنها كل يوم أن يصلي ويطلب التقدم والازدهار لجلالتك الإمبراطورية، ولأسرتها العظيمة.

«يا صاحب الجلالة، أنت كالشمس التي تسطع على الصالحين وعلى الأشرار. وقد سبق لك أن حققت السعادة للملايين من رعاياك، فلتكن أنت بمثابة العناية الإلهية ليتيم مسكين، لأمّه، ولمريض بائس لم يرفع عنه الحرمان من نعمة الكنيسة، وهو على أتم الاستعداد للتضحية على الفور بحياته من أجل الإمبراطور، المحسن الكبير بالنسبة للشعب...

«مع مشاعري بالتقدير العميق والإخلاص الحار واللا متناهي، أجرؤ على أن أؤكد لكم أني التابع الأكثر ولاءً وامتناناً لجلالتكم الإمبراطورية.

ف. م. دوستويفسكي»

وهذه الرسالة، التي يمكن أن تبدو معبرة عن العبودية الكريهة لأحد «الغربيين»، ليست بالنسبة «لدوستويفسكي» سوى التعبير الطبيعي والاعتيادي عن ثقته بالقيصر. فهو أمامه كطفل صغير.

وهو يبثه شكواه، كما يبث ابن بائس شكواه لوالده. وفي شهر أيار (مايو) سنة ١٨٤٩، عندما ألقي القبض على الثوري «باكونين» وزج به في سجن قلعة «بطرس - وبولس»، أرسل له القيصر «نيقولا الأول» الكونت «أورلوف» لكي يبلغه رسالة فحواها:

«الإمبراطور أرسلني إليك، وأمرني بما يلي:

«قل له أن يكتب لي، كما يمكن أن يكتب ابن إلى أبيه الروحي».

و «باكونين»، العدمي المحترف، الناكر لجميع الأعراف والتقاليد، الرسول الذي يدعو إلى الدمار الشامل والعالمي، انحنى أمام إرادة القيصر، وكتب اعترافه:

«نعم، يا سيدي، سأعترف لك، مثلما أعترف لأب روحي، ينتظر منه الإنسان الغفران، ليس هنا، بل في العالم الآخر. وأنا أرجو الله أن يلهمني كلمات بسيطة، صادقة، دون خبث ودون مداهنة جديرة بأن تستطيع الوصول إلى قلب جلالتكم..

وهكذا، فإن لا مكان للخجل أو للعار بين القيصر ورعاياه.

وعلى النسخة الأصلية من عريضة «دوستويفسكي»، كتب الأمير «دولفوروكي» بيده الجملة الآتية: «أمر الإمبراطور بما يلي: بشأن «بول ايسّاييف» يجب توجيهه وإحالته إلى من يعنيه الأمر. أما «دوستويفسكي» فقد قبل طلبه».

وبتاريخ ٢٥ تشرني الثاني (نوفمبر) ١٨٥٩، فقط أبلغ حاكم «تفير» رسمياً، القرار الإمبراطوري. فيا له من تأخير!

إنّ المراوحة عند عتبة الفردوس أكثر مدعاة للرعب، من أن يغوص المرء في الجحيم.

وكتب «دوستويفسكي» إلى «فرانجيل»:

«سوف نتحدث عن الماضي، عن تلك الفترة، حيث كان يحلو العيش كثيراً، عن سيبيريا، التي أصبحت عزيزة جداً علي الآن، وقد غادرتها»...

ولكي يتحمل «فيدور ميخائيلوفيتش» هذا البعد، أو بالأحرى هذا القرب من السعادة، كان ينبغي أن يحظى ببعض الراحة قرب زوجته. ولكن «ماري دميتريفنا» كانت مريضة، والمرض كان يزيد من حدة طبعها ومن نزواتها وغيرتها. فهي لم تكن تحب «دوستويفسكي» أبداً. وقد تزوجته في فترة من الإثارة الرومانسية. وهي لا تغفر له. كونها أخطأت بزواجها منه، فهو فقير وقبيح، وهو هزيل وسخيف. وحتى طيبة قلبه كانت بشكل غريب، لا تطاق، وعلى الرغم من ذلك، كان هنالك «ناس متميزون» يحبونه، يقدرونه يدعونه إلى منازلهم، ويغمرونه بالرعاية والمجاملة!

وبين الزوجين، لم يكن هنالك سوى المشاحنات المزعجة، والاعترافات المغتصبة، وعبارات اللوم والتوبيخ السخيفة. فهل أسرّت له، كما تدعي «ايمي دوستويفسكي» أنها خانته بعد زواجها، مع المعلم «فيرغونوف»؟ فالحكاية معقولة ويمكن تصديقها، ولكن ليس هنالك أيّ وثيقة تؤكد حصول ذلك.

و «دوستويفسكي» من جهته، شديد التكتم بشأن حياته العائلية الخاصة، فهو بالكاد يشير إلى ذلك في إحدى رسائله إلى «فرانجيل» بتاريخ ٢٢ أيلول (سبتمبر):

«ماذا أقول لك عني؟ لقد أخذت على كاهلي مسؤوليات عائلة، ولا أزال أحملها».

كما كتب أيضاً، في سنة ١٨٦٥ في رسالة، سنتحدث عنها لاحقاً:

«لم نكن سعداء، مع بعضنا».

كما أن عمله أيضاً لم يهيئ له الارتياح والتهدئة اللذين ينشدهما:

«يستحيل علي العمل بهدوء بسبب هذه الزيارات المتواصلة».

كما أن نوبات الصرع، أخذت تتزايد، وبواسيره تؤلمه بقسوة، ومع ذلك، فإنه بهمة كبيرة، صحح تجارب طباعة قصة «قرية ستيبانتشيكوفو»، وراجع مذكرات كتاب «منزل الأموات» كما أخذ يفكر أيضاً بأن يراجع ويصحح أعماله التي كتبها في فترة شبابه، لكي تطبع وتنشر من جديد: «سيرون أخيراً ما هي قصة «البديل»: (LE DOUBLE).

ومتى سأصححها إن لم أصححها الآن؟ ولماذا أضيع فكرة ممتازة، وشخصية رفيعة بأهميتها الاجتماعية، كنت أول من اكتشفها، وقدمها للجمهور؟

أما فيما يتعلق بكتاب «الأموات»: «إنهم ليسوا بلهاء، فهم يدركون أي فضول يمكن أن يثيره موضوع كهذا، في أعداد الصحف الأولى.. لا تعتقد أني أبالغ أو أتباهى. ولكني أعرف جيداً أهمية ومدى تأثير موضوعي، وأريد الحصول على ما أستحقه».

ولفظة «موضوع» التي يستخدمها «دوستويفسكي» في حديثه عن «ذكريات من منزل الأموات» فيها ما يكفي للدلالة على أن العمل كان قد بدا له في بداية الأمر، بحجم متواضع، وأنه أثناء كتابته قد توسع به، وجعله في الحجم الذي عرف به فيما بعد.

«سأبدأ بكتابة «منزل الأموات» بعد الخامس عشر من تشرين الأول (أكتوبر). عيناي تؤلمانني: ولا أستطيع أبداً أن أعمل على ضوء الشموع».

ومنذ سنة ١٨٥٠ ، على وجه التقريب، كان «ميشيل» المتعقل قد أنشأ مصنعاً للسجائر. وكانت هذه السجائر تباع في علب أنيقة، مرفقة بأشياء وهدايا تحدث نوعاً من المفاجأة. وكان نجاح هذا المشروع، في بداية الأمر، باهراً، ولكن هذا النجاح قد تلاشى بسرعة، وأخذ «المهندس - الشاعر» يفكر، عند ذلك، بتصفية مشروعه، بعد أن تكبد خسائر جسيمة. (ولكنه لم يصفّه، فعلاً، إلا في سنة ١٨٦١). وكانت خبرته التجارية تسمح له آنذاك بالإشراف على أعمال «فيدور ميخائيلوفيتش» ولكن هذا الأخير كان يتذمر أكثر مما ينبغي، وأجوبة «ميشيل» كانت تذخر بالاعتراضات والاحتجاجات الشديدة:

«أنا لا أفهم، يا صديقي، لماذا أنت قلق وتبدو عصبياً إلى هذا الحد. لقد قمت بعملك، وكتبت رواية، وسلمتني إياها، إيه، حسن، هذا رائع: اطمئن، وانتظر النتيجة، هذا إذا كنت على الأقل واثقاً بي».. (٢ تشرني الأول (أكتوبر) ١٨٥٩). «اليوم، تلقيت أيضاً منك قنبلة، يا صديقي العزيز» (٣ تشرين الأول ١٨٥٩).

أخيراً، تلقى «دوستويفسكي» بتاريخ الثاني من تشرني الثاني (نوفمبر) رسالة من «توتلوبين» تطمئنه تماماً: الأمير «دولغوروكي» لا يعارض في موضوع عودته إلى العاصمة.

وبتاريخ ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٥٩ ، وصلت إلى حاكم «تفير» مذكرة، تحمل في أعلاها عبارة: «الشعبة الثالثة، جاء فيها:

«لقد تكرم الإمبراطور فوافق على تلبية الطلب المرفق، شريطة أن تنظم مراقبة سرية حول «دوستويفسكي» في «سان بطرسبورغ» وكان هذا هو الشرط الوحيد.

وكان أصدقاء «دوستويفسكي» قد دبروا له منزلاً في العاصمة وفرشوه، وعينوا له طباخة.

وبالقطار، قام «دوستويفسكي» برحلته من «تفير» إلى العاصمة. وعلى رصيف المحطة، كان ينتظره أخواه «ميشيل» و «نيقولا» وكذلك الكاتب «ميليوكوف» وبعض معارفه، وقد أخذ الجميع يلوحون له بأيديهم بإشارات البهجة والفرح.

وتوقف القطار «فقفز «دوستويفسكي» على الرصيف:

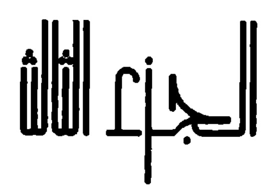
«ها هو»!

صياح، ضحكات، عناق ومصافحات:

«عشر سنوات! منذ عشر سنوات»!..

وقد كتب «ميليوكوف»:

لم يكن قد تغير، جسدياً، وكانت نظرته، حتى أكثر حدة من السابق، وقد بدا وكأنه لم يفقد شيئاً من طاقته».


الجزء الثالث

من الصحيفة إلى
«ذكريات من منزل الأموات»

كان عالم جديد هو الذي استقبل «دوستويفسكي» عند عودته إلى «سان بطرسبورغ». إذ إن روسيا في عهد «أليكسندر الثاني» ليس لها سوى علاقات قليلة مع روسيا السابقة في عهد «نيقولا الأول» فقد صرح الإمبراطور إلى ممثلي الطبقة الأرستقراطية في موسكو: «من الأفضل القيام بإلغاء نظام الرق والعبودية، من الأعلى، بدلاً من الانتظار أن يبدأ بإلغاء نفسه من الأسفل».

وفي سنة ١٨٦٠، كان تحرير العبيد، لم يعد سوى مسألة وقت، أي بضعة شهور. وأخذت «لجنة مركزية» برئاسة القيصر، تدرس وتتفحص آليات وإجراءات تحرير العبيد، دون دفع تعويضات للسادة الملاكين، ومع إتاحة الإمكانية للفلاحين بالحصول على ملكية الأراضي التي حرثوها واستثمروها.

وكان هنالك أيضاً إصلاحات تحررية مهمة، قيد الدراسة فالصحافة حصلت على استقلالية نسبية، والرقابة، خففت قيودها. وأعلنت إدانة واستنكار العقوبات الجسدية. وأخذ الناس يتحدثون عن إذاعة ونشر جميع جلسات المحاكم.

وهذه التغييرات المتسارعة، بعد عدة قرون من الجمود الاجتماعي، أثارت حماسة الرأي العام. والطبقة الأرستقراطية، وقد حرمت من

امتيازاتها، أصبحت بالطبع معادية تماماً للمبادرات الحكومية. ولكن الأوساط التقدمية لم تكن تدعم بقوة وتؤيد كثيراً العمل الشجاع الذي قام به «أليكسندر الثاني»، فهذا التنفيذ، الذي لم يكن مأمولاً، لبرنامجهم الخاص، لم يكن يرضيهم إلا بنسبة ٥٠٪ أي إلى النصف. وكانت سياسة المراحل، أو ما كانوا يسمونها: «عد النقاط، نقطة بعد أخرى» كانت تزيد من تذمرهم ومن نفاد صبرهم.

والإمبراطور، وقد أيقظ التعطش للتقدم الإنساني، وأثاره كان عاجزاً عن إروائه دون أن يتخلى عن امتيازاته الخاصة. ومن شهر إلى آخر، كانت مطالب المتطرفين تتجاوز كثيراً وبعنف وقوة، ما تنوي القيام به السلطة المركزية. ولأنهم قد مسوا بناء القياصرة القديم، لذلك فمن الأفضل هدمه تماماً ودفعة واحدة.

وكان كل شخص يعتقد أنه مدعو لمناقشة ولحل مسائل السياسة الداخلية. وكل منهم يريد معلومات سريعة ومؤكدة. ولم يعد لدى أحد وقت للتفكير. كان الناس يلتهمون الأخبار اليومية. وهي «نيئة تماماً»، لا ينتظرونها حتى تنضج، فهم يريدون الإطلاع بسرعة على كل شيء، كما يقبل الجائع على التهام الطعام.

وفي هذا الجو المحموم، كانت الصحافة تقوم بدور مهم ومفيد، فهي لم تعد وسيلة تسلية، بل وسيلة إعلام، لنشر المعلومات، وكانت تتحكم بمزاج النخبة المثقفة. وكانت بعض الصحف التقدمية، مثل: «المعاصر»، و «الكلام الروسي»، وفي لندن، صحيفة «هيرزين»: «الجرس» تهاجم نظام الحكم، وتستنكر فساده وتجاوزاته، وتطالب بانقلاب سياسي شامل. وهكذا، فبدلاً من أن تهدئ تنازلات «أليكسندر الثاني» غيظ الرأي العام ونقمته على الملكية وعلى الكنيسة، فقد شجعتهما بشكل عجيب وزادت من حدتهما.

وهكذا، ففي هذا العالم المزعزع، هبط «دوستويفسكي» فجأة، مع حبه الشديد للقيصر ولروسيا. فقد وصل من عصر آخر، ومن أرض أخرى. وحيا ببهجة وفرح الإجراءات الاجتماعية الأخيرة.

إن لديه ثقة كبيرة بمستقبل بلاده. وابتسم، ولكنه لاحظ أنه كان هو الوحيد الذي يبتسم، وعند ذلك، اندفع بقلب شجاع وزج نفسه في المعمعة.

وحيال معاصريه، استعاد موقفه السابق الذي كان يتخذه في الأربعينيات. كلا، إن السجن لم يغيره. فهو ليس محافظاً، إنه محافظ - روسي، وليس ليبرالياً، إنه ليبرالي - روسي.

وهذا المبدأ: «محافظ - ليبرالي - روسي» يفترض حصول مجموعة من الإصلاحات غير منسوخة عن إصلاحات «الغرب» بل مأخوذة من التراث التاريخي الروسي.

والشعب السلافي يتمتع بأصالة خاصة وأساسية، من المهم جداً المحافظة عليها بكل عناية. ومحبو السلاف الرجعيون هم موسكوفيون أكثر من كونهم روس. والليبراليون التقدميون هم أوربيون أكثر من كونهم روس. ويوجد بين هذين الوضعين المتطرفين، وضع وسط، هو وحده الصالح. و «دوستويفسكي» ينوي أن يقف فيه ويتبناه.

ومع ذلك فلم يتفهمه أحد، ولا أحد أراد أن يتفهمه، فبالنسبة للطلاب، هو السجين السابق، شهيد الحرية. وعندما طلبوا منه، فيما بعد، أن يقرأ في بعض الأمسيات الأدبية بعض المقاطع من كتابه: «منزل الأموات» فإنهم لم يصفقوا للكاتب، بل للنصير. والشهرة التي صنعوها له استندت على شيء من سوء الفهم، فهو ليس من جماعتهم. وهو يتألم لأنهم أحبوه من أجل أفكار لم تخطر على باله، أبداً، ومن أجل مثل أعلى لم يسبق له أن دافع عنه على الإطلاق.

وقد قال فيما بعد لـ «ستراخوف» كم كان يكره أن يقرأ بأعلى صوته مختارات معينة من كتابه: «منزل الأموات»: «... لأني أشعر وكأني أشكو سوء حالي، دون انقطاع، إلى الجمهور! وكما لو كنت أتذمر وأشكو على الدوام!.. وهذا ليس أمراً حسناً!..

هذا الوضع الزائف كان لا يطاق. وعملية إيضاح تفرض نفسها، وقرر «دوستويفسكي» وأخوه إصدار صحيفة.

والحقيقة هي أن فكرة إصدار الجريدة تعود إلى سنة ١٨٥٨ ومنهاج عملها كانت الرقابة قد وافقت عليه بتاريخ ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) من ذلك العام. ولكن في الفترة الواقعة بين سنتي ١٨٦٠ و١٨٦١، فقط وتحت ضغوط ضرورات أخلاقية ملحة، عاد الأخوان «دوستويفسكي» إلى التفكير بمشروعهما، وقاما بتنفيذه.

والصحيفة، أو بالأحرى المجلة الشهرية، أطلق عليها اسم «فريميا»: (الزمن).

ومديرها المسؤول هو «ميشيل دوستويفسكي»، وهو مكلف بجميع الشؤون الإدارية والمالية. بينما كان «فيدور دوستويفسكي» مسؤولاً عن الإدارة الفنية، الأدبية والسياسة، للمجلة الجديدة. وهو الذي كتب البيان الذي نشر في أول عدد من المجلة، وقد تضمن دفاعاً مطولاً عن الليبرالية الروسية:

«لقد أدركنا أخيراً، أننا نحن أيضاً أمة محددة ومعروفة تماماً، تتمتع بأعلى درجة من الأصالة، وأن واجبنا هو أن نضع لأنفسنا صيغة جديدة للحياة. وصيغتنا الخاصة للحياة، الصيغة الخاصة بنا، مستمدة من أرضنا، ومستقاة من روحنا ومن تقاليدنا الشعبية».

وفي العدد الأول من المجلة، الذي صدر في شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٦١، أوضح المحرر أن المجلة لا يمكن أن تكون مماثلة لصحف

«الغربيين» ولا لصحف محبي «السلافيين»: «والجمهور قد أدرك أننا مع «الغربيين» نحاول بعناد وإصرار أن نرتدي ثوباً قديماً لا يناسبنا يبدو ممزقاً من جميع جوانبه، ومع «محبي السلافيين» نحقق الحلم الشاعري ببعث روسيا حسب المفهوم المثالي للطباع والأخلاق الماضية».. وبفضل هذا الإيضاح الشجاع، وضعت مجلة «فريميا» نفسها تماماً بين نارين. واتفق «محبو السلافيين» مع «الغربيين» وتعاونوا على مهاجمتها.

ومع ذلك، فقد تكاثر قراؤها، وما تصدره من أعداد أخذ يتزايد حسب إيقاع مناسب. وحصل «دوستويفسكي» على مشاركة وتعاون كل من «تورغينيف»، «أوستروفسكي»، «نيكراسوف» والناقد «أبلون غريغوريف» والفيلسوف الشاب «ستراخوف».

ولكي يستميل «فيدور ميخائيلوفيتش» الجمهور، لم يتردد بنشر «جرائم لاسونير» ومقاطع من «مذكرات كازانوفا» وهو نفسه كان يقوم بعمل ضخم، فقد أخذ يكتب حكايات خيالية، مقالات في النقد الأدبي. ويطالب بكتابة الروايات المتسلسلة، ويصححها وقد اعتنى بكل ذلك بحماسة شديدة.

وكان يشتغل تقريباً في الليل فقط. فنحو الساعة الحادية عشرة في جو المنزل الهادئ، كان يجلس أمام «سماور» يفتح أوراقه، الشديدة البرودة، ويبدأ الكتابة وهو يشرب الشاي البارد والمركز كشراب السوس. وعند الساعة الخامسة، يأوي إلى سريره، وينام حتى الساعة الثانية بعد الظهر.

وقد أرهقه نظام العمل، هذا، وبدا أنه فوق طاقته الجسدية، فبعد ثلاثة أشهر من صدور العدد الأول من مجلة «فريميا» أصيب بالمرض، حقاً لقد شفي بسرعة، ولكن نوبات الصرع أخذ يتكاثر عددها: نوبة إلى نوبتين في الأسبوع. وكان يشعر مسبقاً، وبشكل غامض، بقرب حدوثها. وكانت شكوكه، قلقه واضطرابه يذوبان في انطباع عن تحالف علوي. فهو هادئ، وقد تخلص من أي هم، متهيئ للأفراح الشديدة، في الحياة

الثانية والعالم الآخر. وقد كتب في رواية: «الأبله»: «ولكن تلك اللحظات المشرقة والمتألقة، لم تكن سوى مقدمة للبرهة النهائية، تلك التي تتبعها، على الفور، النوبة. وتلك البرهة، من المؤكد أنه لا يمكن التعبير عنها.. وماذا يهم ذلك إذا كان مرضاً، إذا كنت في تلك الدقيقة، لدي إحساس غريب وغير منتظر أو معروف حتى ذلك الحين، بالإشباع والاتساق والسكينة، والذوبان في انطلاقة صلاة، مع أعلى حصيلة في الحياة»... وكان «فيدور ميخائيلوفيتش» يقول لأصدقائه: «في بعض اللحظات، كنت أنعم بسعادة غريبة بحيث لا يمكن تصورها في الوقت العادي، وأن الآخرين لا يتخيلونها. وأحس بانسجام تام في نفسي ومع العالم، وهذا الشعور قوي جداً وشديد العذوبة، لدرجة أنه من أجل بضع ثوانٍ من هذه المتعة والتلذذ، يمكن أن يعطي المرء عشر سنوات من عمره، بل وربما يعطي كل حياته».

عندما كان «فيدور ميخائيلوفيتش» يبلغ ذروة تلك النشوة الصوفية، عند ذلك كانت تهزه تشنجات نوبة الصرع، وتلقيه على الأرض، وهو يصيح والزبد يتدفق من فمه.

و «ستراخوف» الذي شهد إحدى نوبات «دوستويفسكي» يصفها لنا، هكذا: «توقف لحظة، كما لو أنه كان يبحث عن كلمة يعبر بها عن فكرة، وكان قد فتح فمه. فأخذت انظر إليه بانتباه شديد ومتزايد: كنت متأكداً بأنه يهم بأن يتلفظ بكلام غريب، بل وعجيب. وفجأة خرج من بين شفتيه المنفرجتين قليلاً، صوت غريب، غير معقول، امتد واستمر طويلاً، ثم انهار، فاقد الوعي، في وسط الغرفة.

وكان يحدث له أن يصاب ببعض الجروح، عندما يقع. وتبدو على وجهه بعض آثار وندبات تلك الجروح. وعندما كان يسترد وعيه تكون عضلاته متعبة بسبب التشنجات العنيفة التي تصيبه، ويشعر أن رأسه فارغ. وحسب اعترافه هو، كان يحصل لديه انطباع بأنه قد ارتكب جريمة فظيعة، وأن لا شيء

يمكنه أن يحله من خطيئته ويغفرها له. فهل كان موت أبيه، أم هل كان موت السكير «ايسّاييف»، هما اللذان يعذبانه هكذا؟ وهذا التعطش للعقوبة سيطر على كل حياة «دوستويفسكي» الخاصة والحميمية.

وبعد النوبات التي كانت تصيب «دوستويفسكي» لم يكن من النادر أن يفقد ذاكرته لبضعة أيام. وكان يبدو بمزاج كئيب ومتعكر، يكتب بصعوبة. وفي دفتر مذكراته، خلال سنتي ١٨٦٢ و١٨٦٣، نجد الملاحظات التالية، وقد كتبت باختصار شديد:

إصابات الصرع:

الأول من نيسان (ابريل): عنيفة.

الأول من آب (أغسطس): ضعيفة.

السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) متوسطة الشدة.

السابع من كانون الثاني (يناير): عنيفة.

الثاني من آذار (مارس): متوسطة الشدة.

وفي هذه الأوضاع والشروط الصعبة، ألف «دوستويفسكي» روايته الكبيرة الأولى، بعد مغادرته السجن: «مذلون مهانون». كما أنجز أيضاً كتابه: «ذكريات من منزل الأموات».

وقد بدأ نشر «مذلون مهانون» منذ مطلع كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٦١، في العدد الأول من مجلة «الزمن». وهذا الكتاب مزيج غريب من الخرافات والحيل الخيالية المكشوفة، على طريقة «أوجين سو»[1]. وملاحظات شخصية. وهي تشبه الاعترافات المقنعة، والرواية الاجتماعية المتسلسلة.

١- كاتب فرنسي (١٨٠٤-١٨٥٧) اشتهر برواياته المتسلسلة التي تبدا بوصف الحياة في احياء باريس الفقيرة وتنتهي بالتأكيد على بعض المطالب الاجتماعية، ومنها: اعاجيب وخفايا باريس (١٨٤٢) واليهودي التائه (١٨٤٤-١٨٤٥). -المترجم

«إيفان بيتروفيتش» «فانيا» مغرم بـ «ناتاشا ايخمينيف» وهي تحب شخصاً آخر: (أليوشا) ابن الأمير «فالكورسكي»، ولكن دعوى كريهة تفرق العائلتين. وما أهمية ذلك؟: «ناتاشا» تقرر الهرب من بيت أبيها، لتعيش حياتها مع الشاب الطائش والمتقلب «أليوشا» وحتى هنا. تسير الرواية وتتطور أحداثها على طريقة القصص القصيرة العاطفية التي تكتب في صحف ومذكرات السيدات.

ولكن يكفي أن يمس «دوستويفسكي» موضوعاً ويتطرق إليه، حتى يجعله مثيراً وجذاباً، وكأنه اعتراف انتزع منه بالذات. و «فانيا» المحب البائس الذي يطمح إلى الزواج بناتاشا، هو كاتب شاب لاقى كتابه الأول نجاحاً كبيراً ورواجاً في المكاتب. وهذا الكتاب الأول يشبه إلى حد كبير، كتاب «دوستويفسكي»: «الناس الفقراء، حتى ليلتبس الأمر، ويصعب التمييز بينهما:

«يصرح «فانيا» في «مذلون مهانون»: «لقد قدمت موظفاً متواضعاً، معذباً، بل وغبياً، بعض الشيء»..

(أو ليست هذه هي صورة «ماكار دييفوشكين»، في رواية دوستويفسكي» «الناس الفقراء»؟

وتسأل الصغيرة «نيلي»: «لماذا مات هذا الشاب بمرض السل»؟ (أو ليس المقصود هنا، الطالب «يوكروفسكي» في رواية: «الناس الفقراء»)؟

وأخيراً، وقعت مخطوطة «فانيا» تحت نظر الناقد ب، الذي «فرح بها كما يفرح الطفل بلعبة جميلة»، كما فرح سابقاً «بييلنسكي» عندما قرأ رواية «الناس الفقراء». والشبه بين «فانيا» وبين «دوستويفسكي» محسوس وواضح، منذ صفحات الكتاب الأولى.

ولكن، هنالك أكثر من ذلك: «فانيا» عندما علم بحب «ناتاشا» لأليوشا، ساعد محبوبته على الهرب مع الأمير الشاب وتكفل بحماية

زواجهما ومساعدتهما على ذلك. ثم ينقل أخبار «ناتاشا» إلى أهلها. ويقدم المساعدة للزوجين في جميع الظروف الصعبة. ويصبح ملاكهما الحارس، المحسن والأمين. وهذه الرعاية الحسنة التي يبديها الطامح المنبوذ، تذكر بشكل غريب ومذهل بموقف «فيدور ميخائيلوفيتش» حيال «ماري دميتريفنا» والمعلم «فيرغونوف».

«إني اعترف أن جميع هؤلاء السّادة الذين يبالغون بأريحيتهم، ويعلون من شأنها إلى درجة أنهم يعانقون عشيق خطيبتهم، ويصبحون كالخدم المرافقين له، لا يعجبونني أبداً. فإما أنهم لم يحبوا أبداً وإما أنهم لم يحبوا إلا بالعقل وحسب. وبعض الكتاب الذين يعرفون الحب الناجم عن العقل أكثر من معرفتهم للحب النابع من القلب، هم وحدهم الذين استطاعوا أن يبتدعوهم».. هذا كان رأي الناقد المتشدد: «دوبروليوبوف» بأريحية «فانيا» ولطفه ومراعاته. وهذا الحدث يبدو له مجرد ابتكار وإبداع أدبي، صرف من قبل المؤلف، في حين أن «دوستويفسكي» لم يسبق أبداً أن كان أكثر جدية وصدقاً.

يقول «فانيا»:

«سأرتب لكما كل شيء، كل شيء: المواعيد واللقاءات، وكل شيء... وسأنقل لكما رسائلكما. ولماذا لا أفعل ذلك»؟

فتجيبه «ناتاشا»:

«لقد خنتك، وغفرت لي كل شيء، وأنت لم تعد تفكر إلا بتحقيق السعادة لي!.. وكان من الممكن أن أكون سعيدة معك، يا صديقي الطيب! وأنا أحب «أليوشا» حباً جنونياً ولكن يبدو لي أني أحبك أيضاً أكثر، كصديق عزيز علي. ولا أستطيع العيش من دونك، فأنت ضروري لي، وأنا بحاجة لقلبك الذهبي»!..

ونكاد نظن أننا نسمع «ماري دميتريفنا» وهي تشكر «دوستويفسكي» على تفانيه وتضحيته، متوسلة إليه بألا يهملها، ولكنها

رافضة، هي نفسها أن تتخلى عن «فيرغونوف» شاكية وباكية كالمجنونة، في غرفة سيئة الأثاث وفي مدينة «كوزنيتسك».

ومهما كان الأمر فإن هذه الرواية تدل على تراجع واضح في عمل «دوستويفسكي». وهذه الرواية تتأرجح مترددة بين حبكتين غير متماسكتين: حبكة «ناتاشا» وحبكة «نيلي». كما أن الوضعيات والمواقف مصطنعة متكلفة. والشخصيات لا تبدو حية. و «فانيا» الذي يروي قصة «مذلون مهانون» ذو طبع لا يمكن تبينه، بسيط وباهت، هو طبع «الراوي الرمز» و «ناتاشا» محبة وعاشقة، على طريقة «دوستويفسكي» الأولى. فهي تحب «أليوشا» الذي لا يحبها إلا قليلاً، ولكنها تحب «فانيا» أيضاً، وهي تتألم لأنها تجعله يتألم، مع بقائها عاجزة عن التخلي عن المتعة المكتومة بتعذيبه... الخ. وهي الأخت الروحية لـ «فارنكا» في رواية «الناس الفقراء» ولـ «ناستنكا» في قصة «قرية ستيباتشيكوفو» فالكل، فتيات شابات ذكيات، شريفات، حساسات. وبلا لون أو رونق، على الإطلاق.

ووالد «أليوشا» من جهته، يبدو، من أول وهلة، أكثر أهمية، فهذا الطبع لشخص أرعن، يرتكب الأخطاء دائماً، وتغفر له أخطاؤه كلما أخطأ، يثير القارئ ويجذب انتباهه. وأليوشا نذل غير واع وحسن التهذيب فهو يعترف بأخطائه، يندم على ارتكابها، ولكن هذا الندم لا يشفيه. فهو متردد وضعيف الإرادة. وينقصه «الثقل» أي القيمة والأهمية بشكل مخيف. فهو يقول لناتاشا، متحدثاً عن فتاة أخرى:

«ماذا تريدين عندما أكون معك»، أشعر برغبة للتحدث عنها، ومعها أرغب بالتحدث عنك». وحزنه حار وشديد، ظريف للغاية، بحيث لا يمكننا أن ننقم عليه بسبب فظاعته وغرابة أطواره.

فهل هو المعلم «فيرغونوف» منافسه المتباكي والمرن الذي عرفه في مدينة «كوزنيتسك» الذي أراد أن يصوره بملامح «أليوشا فالكورسكي»؟

ربما كان الأمر هكذا، ولكن صورة الفاوي عولجت ورسمت هنا بمودة وتعاطف غريبين، كما لو أن «دوستويفسكي» كان قد قبل عذره وغفر له خطأه!

وفوق جميع هذه الوجوه بكثير، يجب وضع صورة «نيلي» الفاتنة. فهي قلب الكتاب وفاكهته الريانة والشهية. وإذا أردنا قول الحقيقة، فإن مغامرة هذه الفتاة المصدورة التي استقبلها «فانيا» في منزله، والتي اكتشفت أنها ابنة طبيعية للأمير «فالكورسكي» تنم عن رواية عاطفية، لها تتمة في عدد قادم. ولكن طبع الصغيرة «نيلي» نفسه، يبدو رائعاً في عذوبته ونقائه. و «نيلي» هذه يتيمة، نشأت عبر الكثير من الصراخ، وتلقت صفعات كثيرة من عجوز شريرة. ومع ذلك فهي ممتنة من هذه المرأة التي تعذبها، لأنها تبنتها وأسكنتها واحتفظت بها في منزلها. وهي تريد أن «تدفع» ثمن الخدمة التي قدمتها لها. وهي تريد أن تدفع، على الدوام، أن تدفع بشخصها، وبمظهرها وبحبها. وعندما انتزعها «فانيا» وخلصها من سيطرة العجوز «بوبنوف» واصطحبها إلى منزله، واعتنى بها وواساها، تعلقت به ومنحته حباً حقيقياً يكاد يكون كالعبادة، ولكنها بكبرياء تتسم بالعناد، امتنعت أن تعترف له بأنها تحبه. كان بؤسها والمصائب التي حلت بها قد قست مزاجها للغاية: كانت العجوز «بوبنوف» تصرخ: «يا لها من شيطانه عنيدة! فإذا ضربت أو تركت وشأنها، فهي لم تعد تفتح فمها إلا إذا امتلأ بالماء».

و «نيلّي» نفسها تقول: «مهما وبخت فإني ألزم الصمت عمداً، ولو ضربت فإني أظل صامتة، ولن أبكي مهما كان الثمن، فهم يغضبون أيضاً أكثر لأني لا أبكي»! وهي تنظر بكراهية إلى «ناتاشا» لأن «فانيا» يهتم كثيراً بهذه الدخيلة، وحسب. ومع ذلك فعندما يكون «منقذها» قد حدثها عن بؤس المرأة الشابة، والمصائب التي حلت بها، تحاول «نيلّي» بكل

ما لديها من إمكانية ووسائل لتحقيق بعض السعادة إلى هذه التي «عانت وتعذبت كثيراً».

ثم، بعد أن أدت مهمتها، تموت، منهكة، وقد حرقها حبها. وكان النقد قاسياً على رواية: «مذلون مهانون».

فقد كتب «دوبروليوبوف»:

«لن ينقم عليّ السيد «دوستويفسكي» فيما لو صرحت بأن روايته، هي بشكل ما «تحت مستوى النقد الفني».

كما كتب الناقد «كوشولو - بيزبورودكو»:

«الحالات والأحداث التي يستبعد حصولها، لا يمكن أن تكون أبداً أثراً أو نتيجة فنية.. كل هذا مصطنع بشكل يتجاوز كل الحدود.. والعيب الأكبر في هذه الرواية هو أن المؤلف لم يصف ولم يصور أو يرسم ولم يوضح وجها واحداً حياً، أو أي رمز أو شخصية أصيلة حقيقية»..

وكتب أيضاً «زارين»:

«إن خطر ما في الأمر، هو أننا لا نجد فيها شيئاً متيناً يمكننا أن نستند عليه. نسمع بأن أحدهم يشكو ويئن بسبب شيء ما. ولكن من هو هذا الذي يشكو ويئن؟ وما هو سبب شكواه وأنينه»؟

و «أبولون غريغورييف» ناقد مجلة «الزمن» نفسه، صرح بأن شخصيات رواية «مذلون مهانون» هي تماثيل «كالتي تعرض عليها الأزياء» و «كتب متجولة».

ويبتسم «دوستويفسكي» لهذه الإدانات: «بما أنه كان يلزم رواية للمجلة الجديدة، التي كان نجاحها عزيزاً علي أكثر من أي شيء، فقد اقترحت عملاً مؤلفاً من أربعة أجزاء. وأكدت لأخي، بأن لدي مخططاً لهذا العمل، جاهزاً منذ زمن طويل، وكان هذا غير صحيح.

وأنا أعترف تماماً أن في روايتي تماثيل تتحرك وتتصرف، وليس أشخاصاً ومخلوقات حية، وكتباً متجولة وليس شخصيات يحركها ويبث الحياة فيها الفن (ولذلك كان ينبغي أن يتاح لي الوقت لكي تختمر وتنضج أفكاري في ذهني وفي قلبي).. ونتج عن ذلك عمل وحشي، وهو مع ذلك يتضمن نحو خمسين صحيفة، أستطيع القول أني فخور بها».

وبالإضافة إلى ذلك، فإن النجاح الباهر بل الصاعق، الذي حققه كتاب «ذكريات من منزل الأموات»، قد كفر وعوض بسرعة عن فشل «مذلون مهانون». وقد أجمع النقاد، هذه المرة، على الاعتراف بمواهب المؤلف، العظيمة.

فقد كتب «ميليوكوف»:

منذ زمن طويل لم نعثر في أدبنا على عمل مثير أخاذ وجاذب للقارئ، مثل كتاب «ذكريات من منزل الأموات».

وأخذ بعض النقاد يشبهون «دوستويفسكي» بدانتي، ويمتدحون وصفه للحمامات، حيث تبدو الأجسام العارية، المشوهة، التي تكثر عليها ندبات الجروح، وهي تتخبط في جو يكتنفه بخار كريه الرائحة، يثير القرف والاشمئزاز. ويذكرون وصف المشهد، الذي يبدو فيه المساجين المقيدون بالسلاسل يمثلون بعض المواقف الهزلية ويثيرون ضحك رفاقهم الذين حلقت رؤوسهم. وكذلك مشاهد المشفى، وعمليات الجلد بالقضبان، ومشهد الرحيل..

وكان أحد موظفي لجنة المراقبة قد اعتقد في بداية الأمر أن عليه أن يطلب إجراء بعض التعديلات في النص: «ألا يمكن أن يفسر بعض القراء القليلي الحظ من الفطنة والذكاء العمل الإنساني جداً الذي تقوم به الحكومة في السجون، بأنه تخفيف للعقوبة المقررة على مرتكبي الجرائم الشديدة الخطورة»؟ هذا ما كتبه ذلك الموظف الديواني (البيروقراطي)

المجهول. وكان «دوستويفسكي» قد هيأ ملحقاً في كراس إضافي شرح فيه أن الحرمان من الحرية كان يجعل المساجين يقرفون من خبزهم المصنوع من الجودر (الشيلم) الذي يحظى، بحق، بشهرة كبيرة في البلاد. ولكن إدارة الرقابة، المركزية، تجاوزت تقديرات اللجنة، وسمحت بتاريخ ١٢ تشرين الثاني، سنة ١٨٦٠ بنشر كتاب «ذكريات من منزل الأموات» «بشرط وحيد وهو أن تحذف منه بعض العبارات غير اللائقة».

وجذب نشر كتابي «مذلون مهانون» و «ذكريات من منزل الأموات» في مجلة «الزمن» كثيراً من القراء الجدد للمجلة. ففي سنة ١٨٦١، ارتفع عدد المشتركين إلى (٢٣٠٠) وفي سنة ١٨٦٢ بلغ العدد (٤٣٠٢) مشترك. وكان «ميشيل» قد صفى مشروعه لصنع السجائر، لكي يكرس وقته للعمل في المجلة. وكان العاملون والمشاركون في تحريرها يتلقون منه ومن أخيه «فيدور ميخائيلوفيتش» التعليمات المتعلقة بمقالاتهم وموضوعاتهم. وكانت الجرأة والإيمان اللذان يثيران الإعجاب ويستحقان الثناء، تشجعان وتنشطان تلك المجموعة من النقاد والكتاب الشباب الذين كانوا يعملون من أجل روسيا، بل كانوا يعملون من أجل الناس ومن أجل العالم.

وأثناء ذلك، كانت، من حولهم، الأحداث السياسية تتوالى متسارعة. فبتاريخ ١٩ شباط (فبراير) أصدر «أليكسندر الثاني» مرسوماً حرر عبيد الإمبراطورية، بصورة نهائية. ولكن الإصلاح كان قد تأخر كثيراً، بل وأكثر مما ينبغي، وكان الناس قد سبق أن تحدثوا عنه كثيراً، لدرجة أنه لم يعد يرضي الرأي العام، ولا يجد فيه مفاجأة مفرحة. وكما قال «شيلغونوف»: «عندما لم يكن قد بقي سوى كتابة مرسوم التاسع عشر من شباط، كان قد أتيح للمجتمع الوقت الكافي للتفكير بشيء، بل وبأمور أخرى. وقد نشط المتطرفون للتصرف والعمل. و «هيرزين» الثوري المنفي، كتب في صحيفته: «الجرس» التي يصدرها في لندن:

«عندما بدأ الجنرالات والموظفون بتطبيق القانون الجديد على الشعب لاحظ الشعب أنّ الحرية لم تعط له إلا بالكلام، وليس بالفعل وبالواقع.. فقد حددوا للشعب حالة جديدة من الرق والعبودية، وعينوها له». (الأول من تموز (يوليو) سنة ١٨٦١).

وبتاريخ الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة نفسها:

«أصغوا جيداً. من جميع جهات وطننا الفسيح والمترامي الأطراف، من «الدون» إلى «الأورال» ومن «الفولغا» إلى «الدينيبر»، الأنين يزداد قوة، والثورة تنهض وتتشب. وهذا أول هدير من الموجة التي بدأت تزأر وتغلي والتي ستأتي بكثير من العواصف بعد هدوء كان يوهن العزائم، ويسبب الإحباط»...

ومنعت الحكومة صحيفة «هيرزين من دخول البلاد، ولكنها كانت تدخل بالسر وعن طريق التهريب، وتوزع من يد إلى يد. وكان شباب الجامعات يقومون بنشاط مكثف. فهو يريدون نظاماً جديداً، ولكن أي نظام يريدون؟ فهم أنفسهم لا يعرفون جيداً أي نظام يريدون. ولكن ليس لذلك أهمية تذكر.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٦١، انفجرت القضية التي دعيت «قضية الطلاب». كانت الأفكار التحررية، الليبرالية قد أدارت رؤوس طلاب الكليات، الذين كانوا يطالعون الصحف والمناشير الثورية، يعقدون الندوات والمؤتمرات، ينظمون المكتبات التي تضم الكتب والمؤلفات الممنوعة، وينشئون صناديق للمساعدات الاجتماعية، ويوزعون البيانات والمناشير الثورية. وانتهى بهم الأمر حتى إلى تشكيل محكمة سرية لمحاكمة الأعيان والإقطاعيين. وهذا الهياج الناشط على هامش السياسة الرسمية، كان يلهيهم عن دراستهم. ومدرجات الجامعات كانت أماكن للمناقشة وليس لتلقي العلم، فلم يعد أحد يتعلم، ولم يكن لديهم

ما يتعلمونه. وطلبت السلطات الجامعية من الإمبراطور أن يصدر مرسوماً تمنع بموجبه الاجتماعات، والتظاهرات وتشكيل الوفود. وأعلن الطلاب احتجاجات قوية ضد هذا المنع. واضطرت السلطات إلى تطويق مجموعات الثوار. في بعض الشوارع كان يلقى عليهم القبض، ويخلى سبيلهم مرتين أو ثلاث مرات في اليوم. وانتهى الأمر بالمسؤولين إلى احتجاز المحرضين في قلعة «بطرس وبولس». وقد سرهم هذا الاحتجاز الذي أكسبهم شهرة مفاجئة. وبالطبع لم تكن المدينة كلها تتحدث إلا عن شجاعتهم. وفي المواعيد المحددة لزيارة الموقوفين، كان جمهور غفير يتدافع بسرعة نحو السجن. وأرسل «ميشيل دوستويفسكي» إلى الشباب، باسم مجلة «الزمن» زجاجة كونياك وزجاجة نبيذ، وكمية كبيرة من اللحم المشوي. وعندما غادر المدينة الشباب الذين حكم عليهم بالنفي، رافقتهم إلى ما بعد الضواحي مجموعة من المعجبين والمؤيدين.

وفيما بعد، أغلقت الجامعة «بسبب إجراء بعض الإصلاحات» ولكن الأساتذة حصلوا على إذن بإلقاء المحاضرات العامة في قاعات الجمعية الوطنية. وتكفل الطلاب بتنظيم الدروس وبالمحافظة على النظام. ومع ذلك، فإن هذه الجامعة البلدية الجديدة، منعت أيضاً، بدورها، في اليوم التالي للأمسية الأدبية والموسيقية، التي أقيمت بتاريخ ٢ آذار (مارس) سنة ١٨٦٢. وفي تلك الأمسية، تلا الأستاذ «بافلوف» مقالة كانت كبقية فقرات البرنامج، قد وافقت عليها الرقابة مسبقاً. ولكنه تلاها بلهجة غيرت معناها. وعندما وصل إلى جملة: «منذ استلامه السلطة، الإمبراطور الذي يتمتع، في الوقت الحاضر، بالسيادة علينا، بكل نجاح وتوفيق. وجد الكأس قد امتلأ وطفح».. لم يدعوه يشرح أن «أليكسندر الثاني» قد سكب خارج الكأس «بعض قطرات المرارة الناجمة عن بقاء الرق والعبودية».

فقد قطعت الهتافات المدوية عليه الكلام.

وفي اليوم التالي، علم الناس أن الأستاذ المذكور قد أبعد من العاصمة. فتضامن زملاؤه معه، وتوقفوا عن إعطاء الدروس. وللتغطية على الحادث، ومنع أيّ ملابسات يمكن أن تنجم عنه فقد منعت الحكومة إعطاء الدروس العامة.

و «دوستويفسكي» الذي ساهم كخطيب في أمسية الثاني من آذار، سيتذكر القضية عندما سيتحدث ليصف قراءة عامة، في كتابه: «الشياطين».

«لم تسمح هتافات الجمهور بسماع الكلمات الأخيرة.. كان الشباب يصرخون، يصفقون. وكانت بعض السيدات تصيح: «كفاية! هذا يكفي! الأفضل عدم قول ذلك»! (من كتاب «الشياطين» - تحت عنوان: الحفلة).

وعلى الرغم من إغلاق الجامعة، فقد تابع المحرضون عملهم. وتكاثرت الجمعيات السرية. وأنشأ «تشيرنيشفسكي» و «أوتين» اللذان يعملان في تحرير صحيفة «المعاصر» وكذلك العميد في سلاح المدفعية «لافروف» جمعية: «الأرض والحرية» من أجل النضال ضد الحكومة الإمبراطورية، أسوأ عدو للشعب». وكانت المناشير التي تحمل النداءات والمطالب الثورية تدس تحت أبواب المنازل الخاصة:

«عاشت الجمهورية الاجتماعية والديمقراطية الروسية»!

وكذلك: «سيكون لنا صيحة واحدة: «إلى البلطات»! وعند ذلك، فليمت أعضاء الحزب الإمبراطوري، ولن نرثي لهم بعد الآن، لأنهم لا يرثون لنا الآن، اضربوهم في الساحات العامة، إذا تجرؤوا على الخروج إليها هؤلاء الأوغاد، اضربوهم في بيوتهم، اضربوهم في أزقة المدن الصغيرة، الضيقة، اضربوهم في شوارع المدن الكبيرة، العريضة. اضربوهم في القرى وفي الدساكر».

وأيضاً: «مئة ألف شخص في روسيا يعارضون تحقيق الخير العام: فلنغرق بالدم شوارع المدن، وعلينا ألا ندع حجراً ثابتاً فوق حجر»!

وعثر «دوستويفسكي» على أحد هذه النداءات «لروسيا الفتاة» معلقاً على قبضة باب منزله، فاستاء من ذلك، وشعر بالبؤس والتعاسة. وكتب فيما بعد في كتابه: «مذكرات كاتب»:

«وأنا، أنا الذي كنت، منذ زمن طويل، على خلاف بالفكر وبالعاطفة مع هؤلاء الناس، ومع روح وعقلية حركتهم، وها أنا فجأة، أجد نفسي منزعجاً وخجلاً بعض الشيء من رعونتهم..

ويمكن أن نتبين بوضوح نتيجة ذلك: الانخفاض المخيف في مستوى التربية والذكاء، الذي تدل عليه هذه النداءات».

وذهب إلى منزل «تشيرنيشيفسكي»، الذي يساهم بتحرير صحيفة «المعاصر» وعضو جمعية «الأرض والحرية» لكي يرجوه بأن ينصح مؤلفي النداءات ويحاول ردّهم إلى جادة الصواب.

فرد عليه الآخر، ببرود:

«ربما لن يكون لذلك أي تأثير، ثم يبدو أن هذه الظواهر، وهي أحداث ثانوية، ليس من الممكن تحاشيها.

وبتاريخ ١٦ أيار (مايو») اندلعت في «سان بطرسبورغ» حرائق هائلة وغريبة. وظلت أحياء بكاملها تحترق طوال أسبوعين، على الرغم من جهود رجال الشرطة ورجال الإطفاء.

وكتب «ستراخوف» عن تلك المناسبة: «أتذكر أني و «فيدور ميخائيلوفيتش» ذهبنا للقيام بنزهة خارج المدينة، للتسلية والترويح عن النفس. ومن ظهر المركب كانت تبدو من بعيد سحب الدخان التي كانت تتصاعد من ثلاثة أو أربعة أماكن في المدينة. ونزلنا في إحدى الحدائق، حيث كانت إحدى الفرق الموسيقية تعزف بعض الألحان، وشباب وفتيات من الغجر يغنون».

ولم تستطع الحكومة اكتشاف المسؤولين عن إشعال الحرائق ولكن الشبهات كانت تحوم حول «العدميين» (Les Nihilistes) أعضاء جمعية «الأرض والحرية».

وأغلقت صحيفة «المعاصر» ومنعت من الصدور لمدة ثمانية شهور.

وبعد ذلك بفترة وجيزة، زج الثوري «تشيرنيشيفسكي» في سجن قلعة «بطرس وبولس».

أما «دوستويفسكي» الذي أزعجته الأحداث السياسية، وأرهقه عمله كرئيس تحرير للمجلة، فقد قرر القيام برحلة إلى الخارج. ومنذ زمن طويل، كان الأطباء ينصحونه بالذهاب إلى أورُبا» لكي يرتاح هناك خلال بضعة أشهر. وكانت الرحلة أكثر كلفة من أن تستطيع «ماري دميتريفنا» مرافقة زوجها فيها، وعلاوة على ذلك، فهي لم تكن تريد أن تترك ابنها «بول» لوحده في «سان بطرسبورغ» في الوقت الذي كان فيه يحضر لامتحان الدخول إلى المدرسة الثانوية. وهكذا، فقد سافر «دوستويفسكي» إذن، بمفرده، بتاريخ ٧ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٢.

أول رحلة إلى فرنسا
القضية البولونية

وصل «دوستويفسكي» إلى باريس في نحو منتصف حزيران (يونيو) ولكنه لا يعرف أحداً في هذه العاصمة، ولا أحد يعرفه فيها. ولم يلتق لا بـ «هيغو» الذي نشر في تلك الفترة: «البؤساء»، ولا بـ «فلوبير» الذي نشر «سالامبو» ولا بـ «تيوفيل غوتيه الذي كان قد نشر للتو، «الكابتين فراكاسّ» ولا بـ «رونان» ولا بـ «سانت بوف» ولا بـ «تين». وانزوى في عزلة موحشة، آسفاً ونادماً على مغادرته روسيا. وحنينه إليها تحول بسرعة إلى مزاج سوداوي متعكر.

وكتب إلى «ستراخوف»، يقول:

«باريس مدينة كئيبة، جوها يبعث على الحزن، لو لم يكن فيها عدد كبير من الصروح والمعالم المدهشة، لكنت مت من السأم»..

ولم يمض في فرنسا سوى عشرة أيام، ومع ذلك، فقد أصبح يعرف أن «الفرنسي هادئ، شريف، مهذب، ولكنه متصنع ولا يحب سوى النقود».

وبمزيد من السرعة هرب من فرنسا إلى إنكلترا. وفي لندن التقى «فيدور ميخائيلوفيتش» العدمي هيرزين، وإن كانت آراؤهما السياسية مختلفة تماماً، فقد توصل الرجلان إلى التفاهم. وقد كتب «هيرزين» إلى

«أوغاريف»: «كان «دوستويفسكي» عندي بالأمس، إنه مخلوق ساذج غامض ومضطرب بعض الشيء، ولكنه لطيف جداً. وله ثقة مفعمة بالحماسة، بالشعب الروسي.

أما «دوستويفسكي» فقد بدا ليّن الجانب حيال «هيرزين» عندما زاره، ولكنه بعد بضع سنوات، لامه لكونه خان روسيا، فقد كتب في كتابه: «مذكرات كاتب: «هيرزين» لم يهاجر. فهو مهاجر بطبيعته، وقد ولد مهاجراً، وهؤلاء، بانفصالهم عن الشعب، فقد فقدوا بالطبع إلههم. ومن المسلم به أن «هيرزين» ينبغي أن يكون اشتراكياً، مدفوعاً فقط بمنطق الأفكار، وبغياب أي شعور أو عاطفة نحو وطنه.. وهو لا يؤمن بالرابطة العائلية، مع أنه كان، على ما يبدو أباً صالحاً وزوجاً صالحاً أيضاً.

وهو يستنكر الملكية، ولكنه مع الوقت استطاع أن يدير أعماله بشكل مدهش وكان مسروراً، ولم يشعر بالضيق في الخارج، بل كان ميسور الحال.

كان ينظم الثورة، ويدفع إليها الآخرين، وفي الوقت نفسه، يحب الرفاهية والأمن والهدوء ويرغب في تأمين كل ذلك في منزله».

وبفضل تعليقات «هيرزين» بدت لندن «لفيدور ميخائيلوفيتش» أقل كراهية، وأقل إثارة للسأم من باريس. «وشوارعها مضاءة بمجموعات من مصابيح الغاز، ليس لدينا فكرة عنها في بلادنا. وعند كل خطوة تجد المقاهي المزدانة بالمرايا وبالزخارف المذهبة. فيلجأ إليها الناس وهناك يجتمعون ويتحدثون».

ومع ذلك، فقد عاد إلى باريس في الثامن من تموز (يوليو)

وأثناء إقامة «دوستويفسكي» الأولى في باريس، كتب إلى «ستراخوف» كي يرجوه أن يأتي ليرافقه إلى سويسرا وإلى إيطاليا. فوافق «ستراخوف». وحددت مدينة «جنيف» مكاناً للقائهما. فذهب

«دوستويفسكي» إليها عن طريق «كولونيا» «دوسلدورف»، «ماينس» و «بال». والتقى بستروخوف في «جنيف»، بتاريخ ٢٢ تموز (يوليو).

وشعر الصديقان بالملل أثناء زيارتهما لهذه المدينة. ووصف «فيدور ميخائيلوفيتش» تلك البلاد، قائلاً عنها بأنها «معتمة وكئيبة». ومن «جنيف» ذهبا إلى «لوسيرن» ثم إلى «جنوى» ومن «جنوى» سافرا إلى «ليفورن» ومنها استقلا القطار إلى «فلورنسة». ولكنّ «دوستويفسكي» لا يجيد السفر. فهو يعبر البلاد، ويسير فيها، كمن يسير وهو نائم. ولا يستيقظ من نومه، ويتخلص من أحلامه إلا لكي يرشق بنظرة حادة برجوازياً ضخم الجثة، يجلس إلى مائدة في أحد المقاهي، أو صاحبة أحد المنازل المعدة للأجرة، وهي تتمخط وتشد أنفها. وبسرعة كبيرة. يتصور مآسيهما البائسة، أفراحهما البائدة، وما يساورهما من تبكيت الضمير. ويقلبهما، بل ويكاد يسلخهما كما تسلخ الأرانب من جلودها. ولكن البيئة، بل (الديكور) الذي يحيط بهما، يرتجف يتراجع ويضيع في الضباب. و «دوستويفسكي» لا يرى غير الإنسان، لا يرى ما خلفه أو ما وراءه. ونظرته تقتصر على الإنسان وحسب. فالمشهد أو الإطار، لا يعنيه ولا يهتم به. وإذا لاحظ شوارع مدينة «تورين» المستوية والمستقيمة وتحدث عنها، فذلك لكي يقارنها بشوارع «سان بطرسبرغ». ونهر «الأرنو»[1] يذكره بنهر «الفونتنكا» في روسيا. وكتب «ستراخوف»: فلا الطبيعة، ولا الأبنية ولا الأعمال الفنية تعنيه أو تهمه. كل انتباهه ينصب على الناس».

أخيراً، وبعد أن أمضيا أسبوعاً في فلورنسا، قرر «ستراخوف» أن يسافر إلى باريس، بينما قرر «دوستويفسكي» أن يعود إلى روسيا. وفور

١- نهر في إيطاليا يصب في البحر الأبيض المتوسط، طوله (٢٤١) كم، يمر في مدينتي «فلورنسا» و«بيز». -المترجم.

وصول «دوستويفسكي» إلى «سان بطرسبورغ» بدأ بكتابة ذكريات رحلته لنشرها في مجلة «الزمن»، وكانت بعنوان: «ملاحظات شتاء على انطباعات صيف»، وتضمنت سخرية لاذعة، فقد سخر فيها بشدة من البلاد التي زارها:

«لا يمكن أن تنتزع من أي فرنسي، أي من أي باريسي (لأن جميع الفرنسيين، أساساً، هم باريسيون) فكرة كونه أول رجل على سطح الكرة الأرضية، مع أنه، باستثناء معرفته لباريس، فإنه لا يعرف سوى القليل عن الكرة الأرضية، ولا يهتم أبداً بمعرفة أي شيء عنها».

«وفي كل سنة، في الوقت المناسب، يناقشون في مجلس النواب المسائل السياسية الأكثر أهمية، والباريسي يتأثر بلطف وهدوء. فهو يعرف أن تلك المناقشات تتسم بالفصاحة والبلاغة، ويسر ويفرح بذلك».

«هنالك حاجة أخرى مشروعة، وليست أقل ضرورة من غيرها، للبرجوازي، وبخاصة البرجوازي الباريسي، وهي التدحرج على الحشائش والأعشاب».

والحب؟ «عندما يريد البرجوازي أن يبدي عواطفه أو أن يخون زوجته، يناديها دائماً: «يا غزالتي، يا حلوتي»! وبالعكس، فإن المرأة المحبة في حالة ابتهاج ظريف تنادي بورجوازيها العزيز: «بيريبي»: (BIRIBI)[1]. وبالنسبة للباريسي، وفي أغلب الأحيان، فإن تصنع الحب، والتظاهر بذلك بشكل ناجح، يساوي تماماً الحب الحقيقي».

كل هذا فهمه «دوستويفسكي» منذ زيارته الأولى والقصيرة الأمد إلى باريس. ومن لندن، يأتي بصورة لمدينة كبيرة جداً، صاخبة، تذخر

---

١ - «BIRIBI» تعني اصلاً، بلغة «العسكر» الخاصة: «سرية تأديب» ولا بد من ان «دوستويفسكي» استخدمها هنا، بدافع المزاح والسخرية. -المترجم

بالحركة: «تلك السكك الحديدية التي أقيمت فوق البيوت، (وعن قريب، تحتها)، هذه المهارة بالمبادرات. وتلك الفوضى الظاهرة، والتي هي بالأساس النظام البرجوازي، في ذروته وأعلى درجاته. وذلك النهر، أعني به «التايمز» المسمم، وذلك الهواء المثقل بذرات وغبار الفحم. وتلك الساحات والحدائق العامة الرائعة، وتلك الأحياء الموحشة، كحي (HITECHAPEL) (وايتشابيل) وسكانه النصف عراة، الشرسون والجائعون. هذه المدينة بملايينها وتجارتها العالمية»..

واعتقد أنه قد دخل إلى معبد «بعل». فكل أورُبا. وكل «الغرب» بديا له وكأن التقدم قد أفسدهما. فهذه البلدان التي لا رب لها، هذه البلدان ذات الإنسان الملك، بلدان النقود والمال، والعدّ والحساب، والعلم، تختنق شيئاً فشيئاً تحت وفرة وغنى حيلها وألاعيبها المبتكرة. والسلامة هي في مكان آخر. السلامة والخلاص هما في شعب جديد، في الشعب الروسي، الذي لم تمسه الثقافة، والذي لا يزال يهيمن عليه إيمان الطفولة، البسيط، والذي ينتظر موعده، وساعته المناسبة عند أبواب التاريخ.

وروسيا سوف تنقذ أورُبا.

ومع ذلك، فمنذ مطلع سنة ١٨٦٣، وقفت كل أورُبا ضد روسيا. وعندما أتى القيصر إلى «فرسوفيا» سنة ١٨٥٦، وعد رعاياه البولونيين، بنسيان الماضي تماماً، ولكنه قال لهم: «لا ينبغي أن يكون هنالك تخيلات وأحلام، فحسب قناعتي، لا يمكنكم أن تكونوا سعداء ألا إذا ارتبطت بولونيا، كما ارتبطت فنلندة بالأسرة التي تشكل الإمبراطورية الروسية».

وصدر قرار إمبراطوري، سنة ١٨٦١، يمنح بموجبه لبولونيا الحق بتشكيل «مجلس الدولة» من أعضاء بولونيين، وبإيجاد مجالس مؤلفة من ممثلين منتخبين، من أجل الإدارة المحلية، وبالإضافة إلى ذلك، يجب إخضاع المحاكم، المدارس، والشؤون الكنسية والكهنوتية لإشراف لجان خاصة،

تشكل من أعضاء بولونيين. وعين بولوني هو المركيز «فيليوبولسكي» رئيساً للجهاز الإداري، والدوق الأكبر، «قسطنطين نيقولايفتش»، المؤيد للإصلاحات التحررية «الليبرالية» عين نائباً للملك، في بولونيا.

و «فيوبولسكي» كان معتدلاً، وفي بولونيا»، كما في روسيا، فقد زاد من حدة وحماسة المستائين، تلطيف النظام واعتداله، بدلاً من إخمادهما. وقد فسرت التنازلات التي قام بها الإمبراطور، بأنها علامات ودليل على الضعف. وحصل اعتداء على الدوق الأكبر «قسطنطين نيقولايفتش». وأخيراً اندلعت ثورة علنية، بتاريخ ١٣ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٦٣. وهاجمت مجموعات من الثوار المتمردين، جنود الجيش الروسي في عدة مواقع من بولونيا وليتوانيا.

وكان الرد قاسياً وقمعياً، لا شفقة فيه ولا رحمة. و «موارفييف» الذي لقب في ليتوانيا بـ «صاحب المشانق» كان يصرح بأنه لا جدوى من احتجاز الثوار كأسرى. وتميز الجنرال «بيرغ» في بولونيا بمذبحة «فيشو».

وتأثرت فرنسا وإنكلترا والنمسا من هذه الأعمال القمعية والانتقامية. ولكن روسيا أعارت أذنا صماء لاحتجاجاتهم وتهديداتهم.

وفي لندن، أيد الثوري «هيرزين» البولونيين: «إن مساندة الحكومة التي تسبب البؤس والشقاء للبولونيين ولنا، بقوة السلاح، لا يمكن أن تقوموا بها دون أن ترتكبوا جريمة مقصودة وعن وعي أو دون أن تتعرضوا للمذلة لقيامكم بمهمة ودور الجلادين غير الواعين لما يرتكبون من جرائم. وحيث الانضباط يستدعي الجرائم والقتل، فهو يكف عن أن يكون إجبارياً».

وهذا الموقف حيال القضية البولونية، كان خطأ في حسابات صحيفة «الجرس». والحقيقة هي أن استقلال «بولونيا» كان يفترض تمزيق الإمبراطورية الروسية، وبالنسبة لليبراليين، فإنهم باتباعهم نظام «هيرزين» وما كان يأمرهم به، يصبحون خونة بحق الوطن!

والكثيرون من بينهم لم يكونوا قد «تطوروا» بعد بما فيه الكفاية، لكي يضعوا مصالح الإنسانية، العامة فوق المصالح الوطنية. كانوا يهاجمون الروس والروس يقاتلون. والدماء الروسية تسيل غزيرة في بولونيا.

ورغبت بعض القوى الأجنبية بالتدخل لكي تفرض وساطتها. ولكن الكبرياء الوطنية تيقظت فجأة، والتقى الليبراليون ومؤيدو السلافيين، جنباً إلى جنب. وهبط بيع وتوزيع أعداد صحيفة «الجرس» بسرعة كبيرة، واضطر «هيرزين» إلى إيقاف دعايته.

وفي هذا الجو المحموم، كتب «ستراخوف» مقالته المهمة عن القضية البولونية، بعنوان: «المسألة المشؤومة». ونص هذه المقالة الذي بدا مبهماً ومشوشاً بعض الشيء، كان يدين البولونيين لأنهم يشاركون بالثقافة الغربية. واتباع البولونيين بحماسة للمذهب الكاثوليكي، وكبرياؤهم، واحتقارهم للأمم المجاورة لهم، كل هذا قُيّم واستنكر بقسوة في تلك المقالة. ولكن، لكي يوضح الكاتب بشكل أفضل العبثية المزعومة للمطالب البولونية، فقد تظاهر بأنه يتكلم باسم العدو نفسه. وهذه الدقة ضللت الجمهور، حيرته وأربكته، فمؤيدو «السلافيين» قدروا أنه لا يمكن تفسير مقالة «المسألة المشؤومة» إلا بأنها تشكل ردّة ودعوة للتخلي عن القضية الروسية، من قبل محرري الصحيفة. وهاجمت «صحيفة موسكو» بعنف مجلة «الزمن» بسبب هذه التظاهرة وتلك المقالة التي نشرتها لصالح بولونيا، وتأيداً لها. والبولونيون وأنصارهم اعتبروا «ستراخوف» أنه أحد أنصارهم ومؤيديهم. وفي فرنسا، نشرت «مجلة العالمين» المعادية للروس، المقالة وذكرت بأنها تتجاوب تماماً مع رأي العالم المتمدن.

وأخيراً، منع وزير الداخلية، بتاريخ ٢٤ أيار (مايو) سنة ١٨٦٣، صدور الصحيفة التي اعتبرت مذنبة لنشرها دسائس «مخالفة ومضادة لنوايا الحكومة، ولجميع الطموحات والتطلعات الوطنية».

وظلت مساعي وتفسيرات «ميشيل» وأصدقائه دون أيّ جدوى أو نتيجة، وفشلت جميعها. وكان «ستراخوف» حائراً و «دوستويفسكي» الذي شعر باليأس بسبب هذه الضجة الحمقاء، بينما كانت المجلة تقف عند عتبة النجاح، لم يعد يفكر إلا بالقيام برحلة ثانية، لكي يتسلى ويروح عن نفسه. فاستدان (١٥٠٠) روبل من «الصندوق الأدبي»، بضمانة جميع أعماله، متعهداً بتسديد المبلغ قبل حلول شهر شباط (فبراير) سنة ١٨٦٤. ولكنّ، «فيدور ميخائيلوفيتش» كان ينوي هذه المرة عدم السفر لوحده.

الرحلة الثانية إلى أورُبا
بولين سوسّلوفا

منذ أن غادر «فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي» «تفير» للإقامة في «سان بطرسبورغ» أخذ يعيش حياة ثقافية محمومة.

فعمله كروائي، وإدارة المجلة، وكتابة المقالات التي تفرضها بعض المناسبات كل ذلك كان يولّد لديه حالة من التوتر العصبي، بشكل دائم تقريباً. ولأنه كان منهكاً، قلقاً، فلكم تمنى أن يجد بالقرب من زوجته ترويحاً عن متاعبه الناجمة عن أعماله الأدبية والصحفية.

ولكن «ماري دميتريفنا» كانت مريضة. ويبدو خداها أجوفين وعيناها غائرتين في محجريهما، وكأن على وجهها قناع امرأة ميتة. وكان منخراها مضمومين وشفتاها رخوتين وكأنهما مفتوحتان، منذ ذلك الحين على النفس الأخير. وعلاوة على ذلك، فهي لا تحبه وقد صارحته بهذا الأمر، مواجهة وبأعلى صوتها. وكل مناسبة كانت تجدها مواتية لاستئناف الشجار القديم: «لم يكن ينبغي عليّ أن أتزوجك، كان من الممكن أن أكون أكثر سعادة لو لم أتزوجك، وأشعر أني عالة عليك، وأنا متأكدة من ذلك».. وكل واحدة من هذه الجمل، كانت تصدم «فيدور ميخائيلوفيتش» في صميم قلبه.

وقد كتب بصيغة حزينة إلى أرملة «بيلنسكي»:

«أنا متزوج ومريض، أحترف الأدب، وأدير إحدى الصحف»..

وكان بحاجة ماسة للراحة والاسترخاء، والهرب خارج الغرفة الخانقة الجو، حيث تلك المرأة التي أصبحت ذابلة، تحدثه عن ماضيها وتتهمه وتتهم نفسها أيضاً وهي تنتحب كمن أصيبت بالهستيريا! وهو متعطش لحب نقي، فتي وخفيف الظل. ويحلم بسماع ضحكات تتسم بالغنج والدلال، ورؤية غمزات حدقات العيون، الحادة والنفاذة، وسماع الكلام الرقيق والظريف. ولكم كان يود أن يحب بظرافة ولطف.

ومنذ سنة ١٨٦٠ كان قد تدلّه في حب الممثلة «شوبير»، التي كانت عابثة، لعوب ومرحة، ولكنه، لن يكون بالنسبة لها سوى الشخص الذي يهتم برغباتها وبتأمين سعادتها. ومع ذلك، فهو يقبل عن طيب خاطر القيام بهذا الدور، الذي اعتاد على القيام به. وبسرور منحرف وغير صحي ولا طبيعي أخذ يعمل كوسيط بينها وبين زوجها «يانوفسكي». ومن جديد، هو يحب دون أن يبوح بحبه، ويخلص لتلك التي لن تحقق له السعادة أبداً. مثلما فعل مع السيدة «يانييف»، وكما فعل مع «ماري دميتريفنا». فهو يعرف ويتذوق تجربة الحب الودي الذي لا يتعدى حدود الصداقة. ويجد فيها متعة ولذة. وهو يؤكد أنه لو كان لديه الموهبة اللازمة، لألف للمرأة الشابة الكثير من المسرحيات الهزلية الخفيفة. وكتب لها بتاريخ ١٢ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٠: «أحبك بعمق شديد وبكل حرارة، وقد قلت لك بأني لم أكن أحبك فقط لأني أهتم بنيل ثقتك، يا إلهي! كم حزنت عندما بدا لي أنك لم تعودي تريدين الاعتماد علي..

ولكن رسالتك قد أصلحت كل شيء، يا صديقتي الطيبة: فلتحقق لك السماء جميع أنواع المباهج والأفراح! إني مسرور للغاية لأني متأكد من أني لا أحبك! وهذا يتيح لي أن أكون أكثر إخلاصاً لك، دون أن أخشى شيئاً بالنسبة لعواطفي إلى اللقاء، يا حمامتي الصغيرة.

وبكل تقدير وتقديس أقبل يدك اللطيفة والصغيرة وأشد عليها بين يدي، من كل قلبي».

فكم من الوقت ظل «دوستويفسكي» متورطاً، يتخبط في هذا الكلام المنمق والمشوش؟ لا أحد يدري شيئاً عن ذلك.

ولكن، بعد فترة وجيزة سنحت له فرصة جديدة، لكي يحظى بالسعادة كان «دوستويفسكي» يدعى كثيراً لكي يقرأ مختارات من أعماله في أمسيات تنظم لمصلحة ومساعدة الطلاب الفقراء. ولم تكن الظريفة «بولين سوسلوفا» تتغيب عن أيّ حفلة من هذه الحفلات التي كانت تقام من أجل أعمال البر والإحسان. كانت ذات وجه شاحب، ملامحها قروية، نظراتها قاسية تنم عن الكبرياء، تتكلم ببطء وهدوء، حركاتها محسوبة ومرتبة. وقد كتب «روزانوف» الذي تزوجها فيما بعد:

«إنها تشبه «كاترين دي مدسيس»[1] وكان من الممكن أن ترتكب جريمة، طوعاً وبكل راحة بال، وأن تقتل أي شخص، ويمكنها أن تطلق النار عن رضى وطيب خاطر على «الهوغونيين»: (البروتستانت الفرنسيين) أثناء ليلة الـ (Saint-Barthelemy) «السان - بارتيليمي»[2] وبصورة عامة، كانت «بولين سوسلوفا» رائعة الجمال ومهيبة الجانب. وأعرف بعض الناس الذين أغرتهم تماماً وبصورة نهائية، بحيث إنها قد سيطرت عليهم».

١- «كاترين دي موسيس» (١٥١٩-١٥٨٩) ملكة فرنسا، زوجة هنري الثاني وام فرانسوا الثاني، شارل الرابع، وهنري الثالث في سنة ١٥٦٠ اصبحت وصية على العرش واهم شخصية سياسية في المملكة الفرنسية.

٢- «السان بارتيليمي» مذبحة البروتستانت التي حدثت في باريس ليلة ٢٣/٢٤ آب (أغسطس) سنة ١٥٧٢ بتحريض من «ماري دي مدسيس»، وذهب ضحيتها ٣٠٠٠ إنسان في باريس وحدها، وقد استمرت في الأيام التالية في بعض المناطق الريفية، في فرنسا». -المترجم

كان والدها، فيما مضى فلاحاً عبداً «موجيك» أمياً، ولكنه لسعة حيلته، وبطاقته القوية استطاع الحصول على وظيفة مشرف على الأعمال في ملكية سيده، فجمع ثروة بشكل مشروع واغتنى، وانتهى به الأمر إلى افتتاح معمل لحسابه الخاص. وأصبحت إحدى ابنتيه، وهي تدعى «ناديدا» أول طبيبة في روسيا. أما الثانية، وتدعى «بولين»، فقد حددت طموحاتها بالبقاء طالبة بشكل دائم.

وتمثل «بولين» تماماً ذلك النموذج للفتاة الكبيرة المهووسة التي تكثر من التسجيل وتكرره في مختلف الكليات، وتحضر محاضرة واحدة من كل عشر محاضرات، وتسجل بعض الملاحظات ورؤوس الأقلام ولكنها لا تقرؤها بعد ذلك. وتحضر للفحوص دون أن تحضرها أو أن تقدمها، ولكنها تواظب بشكل دائم على جلسات الأحاديث والثرثرة التي يقيمها الشباب الجامعيون. وتتحمس للسياسة، وهي تتزود بأفكار فارغة وبمشاعر خيالية. وهي تؤيد الثورة التامة، الاجتماعات والمناقشات وكذلك التظاهرات والتحديات، والحركات والنشاطات الثورية، والمطالب العامة، من أي نوع كانت. وهي نسوية جداً وبشدة وتؤيد الحركة التي تطالب بحقوق المرأة وبحريتها. وتدعو إلى الحب الحر، وإلى المساواة أمام القانون. وهي لا تؤمن بالله، وفيما بعد فقد وصفها تقرير مدير مدرسة «فلاديمير» كما يلي: «سوسلوفا» هي بالحقيقة مخلوقة لا يمكن الثقة بها. فهي أولاً، تضع على عينيها، بشكل دائم، نظارة سوداء، وثانياً، شعرها مقصوص وقصير. وعلاوة على ذلك، يبدو أنها مستقلة جداً في آرائها وأحكامها، وأنها لا تذهب أبداً إلى الكنيسة».

وقد تأثرت «العدمية» الشابة، بشدة بشهرة «دوستويفسكي» المتنامية. وبدا لها أن هذا المخلوق وحده، الذي تعذب كثيراً، وأحب كثيراً، والذي يعرف جميع الأهواء الإنسانية، هو الذي يستطيع أن يفهمها ويشفيها،

أي أن يخلصها من شكوكها. وبقربه، سوف يهدأ قلقها كفتاة شابة، فهو سوف يرشدها، ويوجه لها النصائح، وسيعطي معنى جديداً لحياتها المضطربة والفوضوية. وسيجعل منها امرأة مفيدة. وهي بحاجة إليه.

وتخلت عن أي شعور بالحياء، وعن التفكير بأي شيء، ووجهت له رسالة لا تتصف بالتعقل، فهي تتوسل إليه أن يستقبلها. وأخيراً فقد حملت له معها مخطوطة قصة، وطلبت منه أن يمنحها شرف العمل في مجلة «الزمن» والمشاركة في تحريرها.

ونشرت القصة في أيلول (سبتمبر) ١٨٦١، ولكن حتى شهر كانون الأول ١٩٦٢، ظل «دوستويفسكي» يقاوم هذا الحب الفتي والجديد الذي أخذ ينمو يوماً بعد يوم.

فهو أكبر منها سناً، وهو قبيح الشكل بوجهه المستدير وشاربه الأصهب، وجبينه الضخم، وعينيه البراقتين والقاسيتين كشظايا الزجاج. وبالمقابل فهي جميلة، قوية البنية، متكبرة. وهو رجل متزوج، مثقل بالهموم وبالديون وبالتجارب. وهي فتاة حرة، ساذجة، غزيرة الدم، تطفح بالحيوية والنشاط. وهذه العلاقة لا يمكن أن تكون إلا بائسة. ومع ذلك فهو يرغب كثيراً بالهرب من زوجته المريضة التي تحب المشاحنة والصراخ، والتي تسعل وتبصق كثيراً، ولا تريد أن تنهي حياتها وتموت! وكان يريد أيضاً أن ينسى ملاطفات الممثلة «شوبير» تلك الملاطفات التي تتسم بالغنج والدلال. ولكم كان يود أن يصبح محبوباً من القلب ومن الجسد. كان يود ويود.. فهو يود أن يستأنف حياته مع «بولين». فقد كان إغراء تلك البشرة الغضة، وذلك الجسم الجميل، وهذا الذهن الجديد المتفتح، أقوى من أن يستطيع مقاومته. فاستسلم مع الوعي الفظيع بجريمته.

والحقيقة هي أنها ليس هي التي سيفقدها، ولكنه سيفقد نفسه. فمنذ بداية هذه العلاقة، أخذت «بولين سوسّلوفا» تعامل بكراهية، هذا

الرجل الذي كان في الأربعين من العمر، عندما أغراها، كانت تأمل بكل سذاجة أنه سوف يهدئ ما ينتابها من شكوك ومن تشوش وقلق نفسي، وأنه سيجعل منها مخلوقة متميزة، تغمرها أسمى الأضواء، موعودة ببلوغ أسمى المواقع، ولكن ها هو، نفسه يتعثر ويسقط إلى قربها. بدلاً من أن يرفعها إلى قربه. كانت تتمنى أن يهيمن عليها بالعقل والروح، ولكن ها هي قد هيمنت عليه بالحواس. وقد كشف لها عن سعادة لم تعد تستطيع الاستغناء عنها، والتي تثير قرفها بشكل غريب. وأخذت تشعر أنها قد أذلت ودنست. ولا تريد أن ترى أمامها هذا الوجه الذي تكثر فيه بقع النمش، والشارب المبلل، والعينان المتوسلتان. ومع ذلك، فهي لم تعد تعيش إلا من أجل مقاربة هذا الرجل. فهي ترثي له، تحتقره وتكرهه. وهو عدوها الضروري الذي لا غنى لها عنه وقد سجلت فيما بعد في مذكراتها الخاصة: «في الليل، كنت أستيقظ وأتذكر برعب كل ما حدث في النهار، وكنت أركض في الغرفة، وأنا أبكي وأنتحب».

وعندما قرر «فيدور ميخائيلوفيتش» مغادرة روسيا، بعد منع مجلة «الزمن» من الصدور، وافقت فوراً على أن تتبعه.

ولكن، أثناء ذلك، بدت تصفية المجلة أكثر صعوبة وتعقيداً مما كان يظن، لذلك اضطر أن يؤجل سفره بضعة أيام. وكان يأمل أن تنتظر «بولين» بصبر انتهاء المحادثات بشأن أعمال التصفية، لكي يسافرا سوية في مطلع شهر آب (أغسطس). ولكن «بولين» اغتنمت في الحال الفرصة التي سنحت لها كي تهرب وتسافر لوحدها، وتصل إلى مدينة كبيرة لا يعرفها فيها أحد. فهي تريد محاولة الهرب أخيراً، والتخلص من تلك السيطرة المعيبة وهكذا، فقد أغلقت حقائبها، تركت عاشقها هناك، وانطلقت نحو باريس، حيث وعدها أن يلحق بها عما قريب.

وبعد بضعة أشهر، أي بتاريخ ١٩ آب (أغسطس) سنة ١٨٦٣، تلقت «بولين» رسالة من «دوستويفسكي»، يخبرها فيها عن قرب زيارته لها، فقد سافر متجهاً نحوها. وسيصل بعد بضعة أيام. ولكنه توقف في «ويستبادن». ومهما كان شوقه شديداً لرؤية «بولين» من جديد، فإنه لم يستطع مقاومة رغبته بتجربة حظه في لعبة «الروليت». وذهب من المحطة، إلى نادي القمار. ودخل إلى تلك القاعات الفسيحة، التي تنيرها المصابيح والثريات المشعة وتزين جدرانها المرايا القديمة.

وفي الوسط، بدا البساط الأخضر وكأنه ينير القاعة كلها بأشعة ابسنتية، وحول المنضدة الكبيرة التي يغطيها ذلك البساط، بدأت حلقة من الوجوه المتعبة الحائرة، وغير الواضحة المعالم بسبب ضعف الضوء الهابط من السقف. وقد أخذت عيونهم تنظر باهتمام شديد إلى حوض الروليت، اللامع. فهم يأملون، يتوسلون، يلعنون، ويحسبون بحرارة وحماسة، هذه العيون. وهي تخلق نوعاً من الهاجس الجمعي، لا يستطيع «دوستويفسكي» مقاومته. فجازف بمبلغ متواضع وربح، وضارب من جديد فربح أيضاً. وجازف بكل رصيده. فدفعت نحوه أداة المشرف على الروليت «كومة» من البدائل وقطع النقود: (١٠٤٠٠) فرنك، لقد أصبح غنياً، غنياً جداً! فأسرع بالخروج من نادي القمار، اشترى بطاقة في المحطة، وعاد إلى الفندق، كالمجنون.

ولكنه، لم يكد يغلق حقيبته، حتى ساورته رغبة جنونية: محاولة «تجربة حظه للفوز بالفرصة الكبرى وربح (١٠٠٠٠٠) فرنك» فعاد إلى نادي القمار. وهناك، أخذ يخسر ما يراهن عليه، مرة. بعد أخرى. وفي النهاية، بقي معه (٥٠٠٠) فرنك. فغادر النادي متعباً، وعلى الرغم من خسارته فقد كان سعيداً. وقرر مغادرة «ويسبادن» والسفر إلى باريس.

وكتب إلى شقيقة زوجته:

«لا ترو هذا إلى أحد أيتها العزيزة «فرفارا دميترييفنا» وأنا أفكر بـ «ياشا» (ابن زوجته، ربيبه بول ايسّاييف). فهو لا يزال ساذجاً جداً لدرجة أنه يمكن أن يتصور أن المرء يمكن أن يؤمن بسهولة معيشته بواسطة المقامرة.. ولا جدوى من إخباره بأن «والده» يذهب إلى نوادي القمار».

وسر ممارسة القمار، أصبح يعرفه الآن: «وهو كل ما هنالك من بساطة وغباء ينبغي فقط على المرء أن يظل سيد نفسه، متحكماً بأعصابه، مهما كانت وأياً كانت نتائج الجولات، يجب تجنب الاندفاع والحماسة».

وقد كتب «دوستويفسكي» فيما بعد في كتابه: «المقامر» «منذ أن اقتربت، بالأمس، من البساط الأخضر، وبدأت أتناول رزم الأوراق المالية، تحول حبي إلى الموقع الثاني.. أيمكن أن أكون قد أصبحت مقامراً»؟

وبتاريخ ٢٦ آب (أغسطس) وصل «دوستويفسكي» أخيراً إلى باريس. فكتب إلى «بولين» لتحديد موعد للقائهما. وكتبت «بولين» في مذكراتها، بتاريخ السابع والعشرين، أي في اليوم التالي لوصول «دوستويفسكي» إلى باريس: «تلقيت لتوي رسالة من «فيدور ميخائيلوفيتش»، وقد أرسلها، هذه المرة من باريس. وكم هو سعيد بأنه سيراني قريباً، فأرسلت له كلمة موجزة جداً، كانت مهيأة مسبقاً. أنا أرثي له كثيراً».

ومساء ذلك اليوم نفسه، التقى بها في ذلك النزل الصغير الكائن في شارع «سوفلو»، حيث كانت تقيم. وتقدمت نحوه، شاحبة جداً جافة العينين. والمشهد الذي تلا ذلك، موصوف في مذكراتها:

«قالت له، بصوت مرتعش: «نهارك سعيد» ولأنه بدا مرتبكاً وهو يضمها إليه، تمتمت:

«كنت أظن أنك ربما لن تأتي. فقد أرسلت لك رسالة.

- أيّ رسالة؟

- لأقول لك بألا تأتي.

- ولماذا؟

- لأنه قد فات الوقت على ذلك».

فاندفع إلى الوراء. وأحنى رأسه. فلم تعد ترى سوى شعره، وجبينه الضخم المقطب. وفجأة، صرخ بصوت أجش: «أصغي إلي يا «بولين» يجب أن أعرف السبب. فلنذهب إلى أي مكان، وسترويين لي كل شيء، وإلا فإني سأموت بسبب ذلك»!

وبكل هدوء، اقترحت عليه «بولين» أن ترافقه إلى حيث يقيم. «وفي الطريق، لزمنا الصمت، طوال الوقت. لم أكن أنظر إليه. وكل ما هنالك أنه كان من وقت لآخر يصيح بالحوذي، بصوت ينم عن نفاد الصبر واليأس: «بسرعة، بسرعة! فكان الرجل يلتفت وينظر إلينا بدهشة واستغراب.. وأحياناً، كان «فيدور ميخائيلوفيتش» يشد على يدي بقبضة يده بعصبية ظاهرة، فكنت أقول له: «أهدأ.. فأنا معك»..

ووصلا أخيراً إلى حيث يقيم. ودخلا إلى غرفته. فأغلق «فيدور ميخائيلوفيتش» الباب بسرعة، وانهار عند قدمي «بولين». «مقبلاً، ضاماً ركبتيها، وهو ينتحب بصوت عالٍ، ثم صرخ: «لقد فقدتك وكنت أعرف ذلك»!

ولم يسبق لها أن بدت له مرغوبة أكثر منها في تلك اللحظة التي كانت تبتعد فيها عنه. فهي هناك، أمامه، منتصبة القامة تماماً، ساكنة، لا تبدر منها أيّ حركة، محتمية بملابسها الواسعة والحريرية. وأخذ هو يتصور ذلك الجسد الذي يعرف جماله وامتلاءه الحار وقال، وهو يئن ويتأوه: «ربما يكون جميلاً، فتياً وفصيحاً، ولكنك، لن تجدي أبداً قلباً كقلبي»!

فأخذت «بولين» تهدئه وتواسيه بعذوبة مترفعة، وبعد ذلك عندما هدأ، واستطاع أن يتمالك نفسه، روت له بهدوء واختصار مغامرتها: أثناء

هذه الأشهر التي أمضتها بحرية في باريس، أحبت شاباً أسبانياً جميلاً، يدعى «سلفادور» وهو ذو وجه ينم عن الغطرسة، فمه أحمر، نقي، حيواني. و «زغب خفيف» يغطي شفته العليا، حركاته تنم عن ثقته بنفسه. وعندما ينظر إليها، تنهار من شدة فرحها. وقد استسلمت له دون تفكير، لكي تهرب وتتخلص من «دوستويفسكي». وقد أراحها حب «سلفادور» البسيط والبدائي من التعقيدات الثقافية والفكرية، والمتاعب الشديدة التي يهتم بها، بل ويرتاح إليها «فيدور ميخائيلوفيتش». وهي، الطالبة الأبدية، كان يلزمها شاب فظ وقوي وليس كاتباً عبقرياً. وكانت تتكلم وتتكلم، و «دوستويفسكي» يصغي إليها بوجه لا يبدو عليه أي أثر للحياة، كوجه الميت. وسألها، أخيراً:

«هل أنت سعيدة؟

- كلا.

- وكيف ذلك، أنت تحبين ولست سعيدة؟ أهذا ممكن؟

- إنه لا يحبني!

فصرخ، وهو يمسك رأسه بيديه، بحركة تنم عن اليأس:

- إنه لا يحبك! إذن فأنت تحبينه كعبدة؟ اعترفي أريد معرفة ذلك، بل أنا بحاجة لمعرفته. يمكن أن تتبعيه إلى آخر الدنيا، أليس هذا صحيحاً؟

- كلا.. إني.. إني سأنسحب وأنزوي في إحدى القرى».

تمتمت بذلك وهي تجهش بالبكاء.

لأنها قد بكت أخيراً. وأخذ «دوستويفسكي» ينظر إلى تلك الدموع بدهشة تتسم بالسرور والأمل. فهي وقد بكت أمامه، فهو لا يزال يستطيع أن يواسيها وأن كل أمل لم ينقطع بعد، وأنه لا يزال بإمكانه القيام بدور ما حيالها.

وشعر بتعاطف لا نهاية له يتولد لديه. فضمها بين ذراعيه وكأنها طفلة صغيرة، وقال لها:

«أوه! «بولين» لماذا أنت تعيسة إلى هذا الحد؟ كنت أتوقع تماماً أنك سينتهي بك الأمر إلى أن تحبي شخصاً آخر. وكنت أعرف ذلك. وأنك عن طريق الخطأ أحببتني، أنا»...

وهو سيصبح صديقها، لأنه لم يعد يستطيع أن يكون عشيقها. وسوف يحميها من الآخرين، بمتعة منحرفة وغير صحية، ويستأنف دوره كمرافق حميمي، ومساعد متحمس، مثلما كان مع السيدة «باناييف»، ومع «ماري دميترييفنا»، ومع السيدة «شوبير» وسيكون الجائع أمام المائدة العامرة، الممثل الصامت والشخص الثالث الثانوي وقال لها: «هيا ولنسافر إلى إيطاليا، سأكون أخاً لك»!

وتحدثت «بولين» عن ذلك. فيما بعد، قائلة:

«وعدته بالذهاب لمقابلته في اليوم التالي، كنت أشعر أني أصبحت أكثر هدوءاً وارتياحاً بعد أن تحدثت إليه. فقد تفهمني جيداً».

والحقيقة هي أنها كانت لا تزال مترددة في مرافقته، ولكنها وهي في غمرة ترددها وحيرتها، تلقت رسالة من أحد أصدقاء «سلفادور» يخبرها فيها أن «سلفادور» مصاب بحمى التيفوئيد، ويرجو «بولين» ألا تذهب لزيارته.

فانتابها الذعر، وأصبحت كالمجنونة، وأطلعت «فيدور ميخائيلوفيتش» على الخبر المحزن، فأخذ يواسيها: «المختصون بهذه الأمراض، في باريس، أطباء مهرة ومشهورون، والمناخ هنا صحي تماماً، وسيشفى «سلفادور» ويتعافى بسرعة، دون شك». وبأسرع أيضاً مما افترض، لأن «سوسلوفا» التقت، في اليوم التالي، بسلفادور في الشارع، وقد بدا نضر الوجه، حاد النظرات، أي سليماً معافى. وبعد تفسيرات ومناقشات حادة ومقتضبة قررت قطع علاقتها بالأسباني الجميل، ومرافقة «فيدور ميخائيلوفيتش» إلى إيطاليا.

وقال لها «فيدور ميخائيلوفيتش»: «أنا سعيد، ولكن، من هو الذي يستطيع أن يفهمك»؟

عند ذلك بدأت الرحلة الغريبة التي ستقوم بها تلك المرأة الفارسة (الأمازونية) وذلك الفتى المصاحب الشهواني والشبق: وتوقفا في «بادن - بادن»: وبدا «فيدور ميخائيلوفيتش» سعيداً للغاية، وظل يقامر ويلعب، باستمرار «بالروليت» على حد قول «سوسلوفا». وتناولا الشاي في غرفتها، ثم استلقت «بولين» على السرير، وأمسكت يد «فيدور ميخائيلوفيتش» بيدها، فأكد لها رفيقها الطيب بأنه «لم يفقد الأمل». وفجأة، ارتد إلى الوراء ومر بأصابعه على جبينه، وصرخ، بلهجة غريبة:

«أتعرفين ماذا حصل لي للتو»؟

- ما الذي حصل لك؟

كنت أنظر إلى وجهه، الذي كانت ملامحه متجهمة ومشوشة للغاية.

«لقد أردت، في هذه الدقيقة، أن اقبل رجلك.

فقلت له، وأنا مضطربة، بل وخائفة أيضاً، وضممت رجلي تحت جسمي:

- آه! ولماذا تفعل ذلك؟

- اشعر برغبة للقيام بذلك، وقد قررت تقبيلها»...

وأخيراً، لزم الصمت، ولكنه أخذ يدور في غرفة الفندق، الصغيرة، ويصطدم بقطع الأثاث.

فرجته «بولين» أن يغادر الغرفة، قائلة له:

«ارجع إلى غرفتك، أريد أن أنام».

فغادرها، ولكنه عاد في الحال، بحجة رغبته بإغلاق النافذة. واقترب منها، ونصحها بصوت خافت أن تخلع ملابسها وتتعرى. فأخذت

تنظر فوقها إلى ذلك الوجه المتوتر بتأثير الرغبة الشديدة وإلى تلك العينين الجائعتين النهمتين وإلى ذلك الأنف الذي انفتح منخراه:

- سأخلع ملابسي وأتعرى فيما بعد.. انصرف».

فانصرف، ككلب رشق بسطل من الماء. وعاد إلى غرفته، فاستلقى على سريره ونام، وأخذ يحلم بذلك الجسم الذي يتنفس، وهو حار جداً، بض وغض للغاية، على بعد خطوات منه.

هذا الشذا، بل ريح الطريدة، التي تثير الغرائز الجسدية، وهذا الشغف المعطل الذي يفرضه على نفسه كل هذا جعل صبر «فيدور ميخائيلوفيتش» ينفد وأثار غيظه ونقمته إلى حد الجنون فأخذ يبحث عن السلوى والراحة في ممارسة القمار. والقمار بالنسبة له كالجماع وكالممارسة الجنسية، التي يمنع من التمتع بها. ويجد في ترقب «الروليت» بذلك القلق الذي يعتريه، تلك النشوة وذروة المشاعر، التي عرفها وتذوقها بجانب «بولين». وكذلك الانطباع بتذوق فرحة خبيثة وفاسدة، بارتكاب جريمة ضد أحد ما، بأن يضرب، وبأن يقتل شيئاً جميلاً ومحفوظاً بحد ذاته. ويعود إلى الفندق، منهكاً، كأنه يعود بعد تمضيه ليلة غرامية.

وفي اليوم التالي، يبدو من جديد، هادئاً، وودوداً.

في «بادن - بادن» خسر «دوستويفسكي» (٣٠٠٠) فرنك. وكتب له «ميشيل» الذي كان مطلعاً على علاقته بـ «بولين»:

«كيف يمكنك أن تقامر، وأنت تقوم برحلة مع المرأة التي تحبها».

فرد «فيدور ميخائيلوفيتش» على أخيه، قائلاً:

«هنا، يربح المرء (١٠٠٠٠) فرنك وهو يلهو ويتسلى. لقد قمت بهذه الرحلة لكي أنقذك وأنقذ نفسي من البؤس والشقاء، وعلاوة على ذلك، فأنا أثق بطريقتي في مضاعفة المبلغ الذي أقامر به.

ولكي يتابع السفر، كان عليه أن يرهن ساعته ودبلة «بولين» في جنيف. ولكن مبلغ القرض الذي استلمه سمح لهما بالوصول على (تورين) فقط، حيث كان عليهما الانتظار إلى أن تصلهما المساعدة التي سترسل من «سان بطرسبورغ».

وفي روما، ساءت العلاقات بين العاشقين، فقد نفد صبر «فيدور ميخائيلوفيتش» واستاء من هذه المرأة التي تشاطره حياته، وتمتنع عليه ولا تستسلم له.

وقال لها، ذات يوم: أتدرين أن أيّ امرأة لا تستطيع أن تعذب رجلاً مثلما تعذبينني. وانتهى به الأمر إلى عدم الإلحاح عليها».

وفي روايته: «المقامر» التي روى فيها مغامرته الخاصة مع «بولين» نقرأ هذه الجملة:

«مرت هنالك لحظات، كان يمكنني أن أعطي فيها نصف حياتي، كي أستطيع أن أخنقها. وأقسم على ذلك. ولو كان أتيح لي أن أغمد ببطء خنجراً في صدرها، أعتقد أني كنت أفعل ذلك بمتعة وسرور. ومع ذلك، فإني أؤكد، وأقسم بشرفي، لو أنها في «شلانجنبيرغ» بالقوة، وحسب العادة، قالت لي بشكل حقيقي: «ألق بنفسك في «الهاوية» لكنت ألقيت نفسي فيها، في الحال، بفرح وسرور».

وفيما بعد، في مكان آخر، نجد هذه العبارة المهمة: «نعم، عدة مرات لم تنظر إلي باعتباري رجلاً»..

وهذا، على الخصوص، كان يعذبه كثيراً. فهو لم يعد رجلاً، بالنسبة لها. وهي لا تخشاه، بما أنها توافق على السفر معه.

وكتبت «بولين»:

«لقد قال لي «فيدور ميخائيلوفيتش» بأنه أمر مذل بالنسبة له أن يتركني هكذا (كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحاً، وكنت

مستلقية، عارية، في سريري) إنه أمر فيه مذلة له، لأن الروس لا يتراجعون أبداً.

وانسحب بعد هذه النكتة المؤسفة.

ولكن الزمن، والتفكير، والتعود، كل ذلك أتعب «دوستويفسكي» وخفف من حدة رغبته. لقد شعر بالسأم وبالملل، وأخذ يفكر بعمله، ولكم كان يرغب بالعودة إلى روسيا. لا سيما وأن حالة «ماري دميتربيفنا» الصحية، قد تدهورت بشكل مفاجئ.

و «فيدور ميخائيلوفيتش» لم ينس زوجته أثناء تلك الرحلة المثيرة والمتعبة.

فقد كتب إلى أخيه «نيقولا» بتاريخ ٢٨ آب (أغسطس) سنة ١٨٦٣: «إني أفكر كثيراً وفي معظم الأحيان بـ «ماري دميتربيفنا»، ولكم أود أن أتلقى خبراً حسناً عنها! كيف حالها؟

وفي رسالة إلى «بول ايسّاييف» تحمل التاريخ نفسه، كتب له: «عندما تعرف شيئاً ما عن أمك، اكتب لي لتخبرني به».

«اكتب لي شيئاً ما عن «ماري دميتربيفنا».

(من رسالة، بعث بها بتاريخ ٢٠ أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٦٣، إلى «ف. د. كونستان».

ومن روما، توجه «دوستويفسكي» و «بولين» إلى «نابولي» ومن «نابولي» رجعا إلى «تورين». وأخيراً، في نحو منتصف تشرين الأول (أكتوبر)، انفصل «فيدور ميخائيلوفيتش» ورفيقته عن بعضهما، بصورة نهائية: «بولين» عادت إلى باريس، بينما سافر «دوستويفسكي» إلى روسيا.

ولكنه، في طريقه، توقف في «همبورغ» مدينة المياه، وهناك خسر كل النقود التي بقيت معه لمتابعة رحلته. فاستولى عليه ذعر شديد، وكتب إلى «سوسّلوفا»، التي كانت هي أيضاً تشعر بضائقة شديدة، ومع ذلك،

فقد أسرعت ورهنت ساعتها وسلسلتها في بنك الإسعاف كما استدانت مبلغاً صغيراً من بعض الأصدقاء وتوصلت إلى إرسال مساعدتها الأولى إلى «فيدور ميخائيلوفيتش».

وعن هذا الرجل الذي أنقذته للتو، كتبت فيما بعد.

«عندما أتذكر كيف كنت، منذ سنتين، أعود فأشعر بالكراهية نحو «دوستويفسكي». فهو، كان أول من قتل الإيمان في قلبي».

ولكن، بتوالي وتبدل الظروف بشكل عجيب. كان المعلق العبقري على أعمال «دوستويفسكي» الناقدة «فاسيلي روزانوف» هو الذي تزوجته «بولين» سنة ١٨٨٠. في تلك الفترة، كانت في الأربعين من عمرها، بينما لم يكن «روزانوف» قد بلغ الخامسة والعشرين. فهو يعبدها، وهي تسخر منه. وبعد ست سنوات من حياة جهنمية، هجرته، وظل، لا يقبل أي عزاء عنها، وأخذ يتوسل إليها كي تعود إليه، فأجابته: «هنالك آلاف الأزواج في مثل وضعك، ولا يشكون ولا يصيحون. والرجال ليسوا كلاباً».

وروزانوف وقد جن جنونه، شكا أمره إلى والد «بولين» الذي كان يعامل ابنته، على أساس أنه يعتبرها «عدوة الجنس البشري». وفيما بعد، استعان الزوج البائس بأصدقائه، وحتى برجال الدرك. ولكن التي تلقت بوحه بأسراره التي تثير الشفقة، لم تكن سوى «أنا غريفوريفنا» أرملة «دوستويفسكي».

أما، «فيدور ميخائيلوفيتش» فقد ظلت علاقته بـ «بولين» تشكل أحد أهم وأكبر موضوعات أعماله الأدبية.

فهذه المرأة، الحارة والباردة، طوراً بعد آخر، ستكون «دونيا» أخت «راسكولنيكوف» في روايته: «الجريمة والعقاب» و «أغلايي» في رواية «الأبله»، و «ليزا» في «الشياطين» و «كاترين إيفانوفنا» في «المقامر».

ورواية «المقامر» هذه، كان يفكر بها، أثناء رحلته مع «بولين». ففي تاريخ ٣٠ أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٦٢، كتب إلى «ستراخوف»: «في هذه اللحظة، ليس لدي شيء جاهز، ولكن لدي مخطط لرواية، يمكن أن يكون جيداً وموفقاً على ما يبدو لي.. فأنا أصف، بل أصور رجلاً متضلعاً بكثير من المواد والأمور ولكنه ناقص في كل الأشياء. وهو في آن واحد ثائر ضد السلطة، ويشعر بالخوف أمامها.. ومع ذلك، فإن الحاجة للمجازفة والتعرض للخطر، يرفع من شأنه، في نظره هو والقصة ستعالج الثلاث سنوات التي مارس فيها لعبة الروليت، وحسب».

ومع ذلك، فإن «دوستويفسكي» عندما عاد إلى روسيا، لم يكن لديه الوقت اللازم لكتابة هذه الرواية. فقد ساءت كثيراً صحة «ماري دميتريفنا» ويجب نقلها بسرعة إلى موسكو، حيث المناخ صحياً أكثر وملائماً لحالتها من مناخ «سان بطرسبورغ» ورافقهما الفتى «بول ايسّاييف». ولكن «ماري دميتريفنا» كانت قد أصبحت حساسة وعصبية المزاج لدرجة أنها لم تعد تطيق حتى وجود ابنها بالقرب منها، فطلب منه «دوستويفسكي» أن يعود إلى «سان بطرسبورغ» وبالإضافة إلى ذلك، فإن «دوستويفسكي» نفسه، اضطر بعد فترة وجيزة إلى العودة إلى «سان بطرسبورغ»، حيث كان «ميشيل» يفكر بإصدار مجلة جديدة، أطلق عليها اسم «العصر» كي تحل محل مجلة: «الزمن».

وفريق المحررين، سيكون هو نفسه فريق تحرير «الزمن، ولكن «ميشيل» تنقصه النقود. فهو يشتري الورق بالدين، ويطبع المجلة بالدين، وينفذ بقية الأعمال اللازمة لإصدار المجلة، بالدين أيضاً، ودون أن يدفع للمحررين والكتاب ما يستحقون من أجور ومكافآت. وبعد متاعب وصعوبات متعددة، سمحت الرقابة بإصدار مجلة «العصر»، شريطة أن يلتزم المحررون بكل دقة بالخط المرسوم للمجلة»..

واعتباراً من تلك اللحظة، أخذ «دوستويفسكي» يقسم وقته بين مجلته، وبين زوجته المشرفة على الموت. وهذا التنقل المحزن باستمرار بين «سان بطرسبورغ» حيث تنتظره أخبار مشكلات إصدار وتوزيع المجلة، السيئة، وبين موسكو وتلك الغرفة المفروشة التي ترقد فيها «ماري دميتربيفنا» وهي نصف مجنونة، تقاوم الموت، وتلفظ أنفاسها الأخيرة ببطء شديد، واستمرت على هذه الحال، عدة أشهر.

وكانت المريضة تصرخ أحياناً: «يوجد شياطين! هنالك شياطين في الغرفة! فيضطر إلى فتح النافذة، والتظاهر بطرد الأشباح، بضربات قوية بالمنشفة، لكي تهدأ وتلزم الصمت.

وأمام الوجه الأصفر كالشمع، والذي تبدو على ملامحه أمارات الألم الشديد بسبب معاناة زوجة «دوستويفسكي». من مرض السل، كان يشعر بتبكيت الضمير المخيف، لهربه خارج روسيا، وبسبب علاقته مع «بولين»، هذه الخطيئة الكبرى التي يدركها ويشعر بها، هو وحده. وبالقرب من سرير زوجته البائسة، كتب اعترافات فظيعة، شكلت إحدى قمم أعماله الأدبية: «مذكرات كتبت في سرداب».

مذكرات كتبت في سرداب
المتوفيَان

«الرجل الذي يعيش في سرداب» والذي يروي «دوستويفسكي» اعترافاته، يشبه المؤلف تماماً، مثلما كان «بديل» غوليادكين يشبه غوليادكين. وهذا الرجل «التحت أرضي» يسكن في غرفة صغيرة مظلمة، مغثّة، تثير القرف والاشمئزاز، هي «قوقعته» وهو يعيش وحده وبمفرده، ليس له أصدقاء، ويقول: «أنا مريض، وشرير، وليس لدي ما يجذب أحداً إلي» ولكن إدراكه لحقارته يصبح مستحباً له، في سره. وهو ينشوي في وساوس مرحة من تبكيت الضمير، ومن الكراهية الهازئة، ومن مظاهر الجبن الفخمة، وهو يحب العودة إلى زاويته، في بعض «الليالي الكريهة في «سان بطرسبورغ» والتفكير بجميع الأعمال القذرة التي ارتكبها، وبكل المذلات والاهانات التي تعرض لها في النهار. ويشعر بمتعة غريبة بالقول لنفسه أنه وصل إلى أدنى درجة من الحقارة والنذالة، وأنه لن يصبح أبداً رجلاً كالآخرين. وأنه شيء خاص تماماً وغير عادي وخارق للعادة تماماً، وأنه بجانب الجمهور، خارج الجمهور، منعزل، وعلى هامش الخليقة «أنا وحيد، وهم متجمعون كلهم».

ومن وحدته وعزلته، يراقب رجال العمل، الذين يتحركون ويتصرفون، الرجال المباشرين والمبادرين، كما يسميهم هو نفسه. أولئك

الناس ذوي الأعصاب المتينة محرومون تماماً من التفكير. ولكي يستطيعوا أن يتصرفوا ويعملوا، ينبغي أن تكون رؤوسهم فارغة. فالذي يفكر لا يستطع إلا أن يظل ساكناً. لأن التفكير يقضم كأحد الحموض الإطار المصطنع الذي يجب أن يندمج به العمل. وروح العمل، نفسها، هي فشل للذهن. والعمل يفترض وجود قوانين ترشده وتقوده. والعمل ليس ممكناً إلا في عالم مبني بعناية وقوة. والعلوم الإيجابية والوضعية بوبت وصنفت تجارب، ووضعت مسلمات وقواعد متبعة، وأشادت أسواراً من الحجارة تحدد الأفق، وأمام هذه الأسوار، ينحني الشعب باحترام.

«ها هو جدار قوي، يستطيع المقاومة، وها هو جدار يمكن الاستناد عليه، وها هي إحدى الحقائق البديهية». وقطيع المغفلين والبلهاء، الذي يحتجزه هذا السور الحاجز، لا يفكر إلا بحقل فسيح لا حدود له، والعلم صنع سجناً. وأفراد القطيع لا يفكرون إلا بأعمالهم الصغيرة والبسيطة، التي أصبحت هكذا محمية. وهم يفركون أيديهم، لأنهم يشعرون بالدفء. وإذا ادعى فيلسوف ما، أو أي رجل يعيش في سرداب، تحت الأرض، ادعى إنكار الجدار، فإنهم يصرخون: «عفواً، إنه لمن المستحيل التمرد: اثنان في اثنين تساوي أربعة. والطبيعة لا تستشيركم، ولا تهتم برغباتكم، ولا بمعرفة فيما إذا كانت قوانينها تعجبكم أم لا. وأنتم مرغمون على قبولها كما هي، وبالتالي على قبول جميع نتائجها فالجدار هو جدار، الخ».

ورجل السرداب (وبالأحرى «دوستويفسكي») يرد بهذه الجملة المدهشة التي تثير الإعجاب: «ولكن، يا إلهي! أيّ قضية لي مع قوانين الطبيعة والحساب، إذا كانت هذه القوانين، لسبب أو لآخر، لا تعجبني؟ فأنا بالطبع لن أستطيع تحطيم هذا الجدار وهدمه بجبيني، إذا لم تكن لدي القوة الكافية لهدمه، ولكن لن أتصالح معه بحجة أنه جدار من

حجارة، وأن قوتي لا تكفي للقيام بذلك، كما لو أن هذا السور كان يشكل تهدئة ويوحي بأقل فكرة عن الطمأنينة للسبب الوحيد، وهو أنه مبني على أساس أن اثنين في اثنين يساويان أربعة».

وقد كتب «بودلير»: «هل هنالك مظاهر جنون حسابية، ومجانين يظنون أن اثنين واثنين تساويان ثلاثة»؟

والرجل الذي يعيش في سرداب تحت الأرض، المفكر والمتأمل، سينكر كل الأبنية الاصطناعية، سيدفع بقوة جانباً ويقلب جميع البديهيات، ويفكر، ويدرك ويتصور ما وراء حدود الرقم والمادة ويصرف النظر عن اعتراض القوانين العلمية ويتجاوزها. وسيعيش في المستحيل، وبالإضافة إلى ذلك، فإن الله يطلب المستحيل من خليقته، فأي صنم بائس يصبح الله، إذا قبل أن يرضى الإنسان بالإقامة في هذه الغرفة الدافئة التي حبس، هو، نفسه فيها، وإذا قبل أن ينام الإنسان متمتعاً بالرفاهية الحالية، إذا قبل أن يقلل الإنسان من قيمة نفسه ومن شأنها، وأن يتناسى جذوة الفكر، الإلهية، تلك، وذلك العقل، لكي يصبح عبارة عن آلة من آلات الدقة.

وقد كتب «دوستويفسكي»:

«كل قضية الإنسان، على ما يبدو، تكمن في محاولته أن يبرهن بنفسه ولنفسه أنه إنسان وليس دولاباً في آلة».

وهذا في العالم المعنوي والروحاني كما في العالم المادي. والمبادئ المعنوية، الروحانية والأخلاقية تقيد وتسجن المخلوقات والأفراد، تماماً كالمبادئ المادية. وتجاوز نسق هذه المبادئ، الراكد، هو بمثابة بلوغ الحقيقة العليا.

ولم يعد هنالك لا خير ولا شر، حالما يتحطم الإطار الأخلاقي. وكذلك، فالحال هي نفسها عندما تُخالف القوانين العلمية وتُنتهك، لم يعد

هنالك سوى البلبلة والفوضى. وإلى هذه البلبلة والفوضى، إنما يدعونا رجل السرداب.

ففي هذه الفوضى، يشعر رجل السرداب بالإحساس التام والشامل بالحرية. وهو يفضل الحرية على تمتعه بالرفاهية.

«الإنسان لا يحتاج إلا لإرادة مستقلة، مهما كلفه الأمر وإلى أي مكان اقتاده ذلك.. وأنا على قناعة تامة بأن الإنسان لن يتخلى أبداً عن الألم والمعاناة الحقيقية، أي عن الخراب وعن الفوضى».

وإنما بفضل المعاناة والألم، يقترب الإنسان مما لا يمكن إدراكه ومما لا يمكن بلوغه والوصول إليه، من الأعجوبة والمعجزة، وإنما بفضل المعاناة والألم يرتفع ويسمو فوق نفسه.

وبالواقع، فإن دروب الألم، ودروب الحرية، تؤدي إما إلى اكتشاف الله، وإما إلى تأليه الإنسان. فالإله - الإنسان. والإنسان - الإله. و «نيتشه» يلاشي الإنسان في الإنسان الأسمى ويحله فيه، في الإنسان - الإله. وبالنسبة لنيتشه، فإن نمو وتطور الإنسان الأسمى يجب أن يقضي على كل ما هو إنساني في الإنسان أو الرجل. والإنسان الأسمى ليس إنساناً متطوراً وحسب. إنه صنم. إنه إله لم يبق فيه شيء من أصله ومن منشئه الأرضي. ولدى «دوستويفسكي»، بالمقابل، تأتلف الروح البشرية مع الروح الإلهية وتتناغم معها. فالله لا يبتلع مخلوقه والإنسان لا يتلف ويفنى في الله. فالله موجود، والإنسان موجود، وهما محميان، أحدهما من الآخر، بوسيط مدهش يثير الإعجاب: ألا وهو السيد المسيح. وحرية الإنسان ربما كانت معاناة وألماً، ولكن في نهاية التجربة، وبعدها، مهما كان سافلاً، مشوهاً أو جريحاً، فهو يقع في نور السيد المسيح، الذي يفوق الوصف.

ربما كان قد أتيح «لدوستويفسكي»، أثناء نوبات الصرع التي كانت تصيبه، أن يرتفع إلى أعلى قمة في الجدار، وأن يقع نظره على

المساحة، والامتداد الفسيح، الممتنع والمحرم ولوجه والنظر إليه من قبل الناس، ويسقط، منبهراً، بل معمياً، وفي قلبه غصة وأسف على تلك الرؤيا العجائبية. ولكنه رأى، نعم لقد رأى!.. وهو أحد أولئك الذين، وحدهم رأوا!.. وهو يعترف بهذا في عمله: «رجل السرداب». و «رجل السرداب» يصبح بذلك مفتاح جميع أعماله الأدبية، لأنه في مسيرة أعماله كلها، يظل «دوستويفسكي» يتجاذبه التصور الطبيعي والتصور الفوطبيعي والعجائبي للعالم. فهو معلق بين السماء والأرض وكل منهما تجذبه إليها. وهو لا يختار بين عالم السببية وعالم «اثنان في اثنين يساويان ثلاثة» بل يقيم تقريباً توازناً بين البنيتين. وباجتهاد مرضي، يبذل جهداً كبيراً لإقحام قصة غريبة في كتلة الحقيقة والواقع، القاسية والكتيمة. وحول كابوس، بل حول رجل ثقيل ومزعج، يكدس تفاصيل مادية، لم يكن ليستنكرها كاتب كفلوبير. ويخيل للقارئ أنه يعتذر عن ذلك:

«أنتم ترون، ترون جيداً، فأنا لم أجن ولم أفقد رشدي، فكل هذا ممكن، وكل هذا حقيقي».

ومع ذلك، فالمجموعة الغريبة والشاذة تفرقع وتتقصف من جميع الجهات. وكل شيء يؤذي النظر والسمع في ذلك المشهد والديكور اللذين رتبا بعناية. والأحداث تتوالى بإيقاع كما يحدث في الأحلام. والمخلوقات تدفعها زوبعة لا تقاوم. تتحدث بأحاديث مطولة، وتلقي خطابات مملة، وتقرأ اعترافاتها بصورة علنية. فمتى تنام؟ ومتى تأكل؟ المؤلف نفسه لا يعرف شيئاً عن ذلك. ولا شيء يتعلق بشيء أو يتوقف عليه. ولا أحد يمكنه الاعتماد على أحد. والخير والشر يختلطان. و «الجدار» فيه ثغرات كبيرة جداً، والممثلون ذوو الوجوه الملطخة كثيراً، يقومون بأدوارهم بين كتل كثيرة من الحجارة، عبر ضوء بارد، ميت «فوطبيعي» وخارق للعادة، كأنه ينم عن نهاية العالم.

ومأساة هذه المخلوقات ليست مأساة محتملة وممكنة حسب القوانين العلمية، ولا يمكن تصورها إلا خارج هذه القوانين، وإلا في أنفسنا بالذات. ورجال ونساء «دوستويفسكي» ليسوا حقيقيين من الدرجة الأولى، بل من الدرجة الثانية. وهم ما يمكن أن نكون نحن، لو لم تعمل من أجلنا القواعد الاجتماعية وأنواع المنع، الجسدية والمادية، والعادة. إنهم مخلوقات مثلك ومثلي. ولكنهم مأخوذون قبل الفعل والعمل وقبل الكلام، وما يفعلونه هو ربما ما كان يمكن أن نفعله نحن، لو.. وما يقولونه هو ربما ما كان يمكن أن نقوله، نحن، لو.. و «دوستويفسكي» حذف «لو» وأنكر الشرط ونفاه. وجعل أبطاله يتصرفون ويتكلمون كما لا يتصرف أحد ولا يتكلم أحد إلا بالفكر. وشخصياته هي أفكار تتحرك في إطار المادة. ورجل السرداب: «راسكو لينيكوف» و «ستافروغين» و «كيريلوف» و «شاتوف» و «فيرخوفنسكي»، و «إيفان كرامازوف».

كل هذه الكائنات متجمرة، وقد تحولت إلى جمرة، حولتها إليها فكرة، وهي تحترق بها ومن أجلها. ومسائل الراحة والرفاهية والمال. والوضع الاجتماعي، لا تعمل عملها بالنسبة لها. وما هو موجود عند أقدامها، في متناول أيديها، بين أسنانها، تحت نظرها وأعينها، لا تبالي ولا تهتم به، بل وتسخر منه. وهي تجهل، بل تتجاهل حدود الواقع وحدود الحلم، وتنتقل بين هذا وذاك. فهي توسّع العالم.

كذلك هل من العبث وغير المعقول الإدعاء، كما فعل البعض، أن أبطال «دوستويفسكي» هم أساساً «روس» وأن مغامرتهم لا يمكن تصورها في بلاد أخرى غير روسيا.

ولا ينبغي أن نتصف بتلك السذاجة وأن نعتقد أن روسيا القرن التاسع عشر، كانت مسكونة بالهستيريين والمصابين بمرض الصرع والسل وأن الجمهور الروسي قد عرف ورأى نفسه في روايات «دوستويفسكي» وعلى

العكس من ذلك تماماً، فقد كان رد فعل القراء والنقاد، بالإجماع، يعبر عن أن «هؤلاء الناس ليسوا من بلادنا».

وبخصوص إحدى شخصيات رواية: «مذلون مهانون» (فقد كتب الكونت كوشلوى - بيزبورودكو» أنها أكثر تقبلاً في الخارج وفي بلاد أخرى، كفرنسا وإنكلترا وبلجيكا. منها في روسيا».

حقاً، إن محبة الأفكار العظيمة، والحماسة الفكرية والثقافية وتحولات وتقلبات الأمزجة، كل ذلك هو بالضبط من ملامح الطباع السلافية. حقاً، لدى «السلاف» الحقيقة الثانية تكون مطمورة على عمق هو أقل من عمقه لدى اللاتين أو السكسون، ولكن الفرق هنا هو في المستوى وليس في الطبيعية. ومخلوقات «دوستويفسكي» ليسوا، بالتأكيد وبكل دقة، روس، لأنها تهيمن عليها مشكلات عالمية، والأفكار التي تمثلها هي أفكار تتجاوز مجال الأدب الوطني.

وهي تتحدث عن قلق وهموم العالم، وليس عن قلق وهموم «الروسي» حيال الخليقة والخلق. ورجل سرداب «دوستويفسكي» يجتاز الحدود ويربط البلدان ويوجد بينها بشبكة سرية.

وأياً كان الأمر، فإن هذا الكتاب الذي نشر للمرة الأولى في مجلة «الزمن» لم يسترع انتباه النقاد. و «ابولون غريفوريف» وحده قال «لدوستويفسكي»: «يجب أن تكتب في هذا النوع، من الآن فصاعداً». وكان على «دوستويفسكي» ألا ينسى بعد ذلك أبداً هذه الكلمات البسيطة.

وأثناء ذلك لم تكن المجلة تصدر بانتظام. وكان المشتركون يحتجون على ذلك ويوجهون الرسائل والمطالب لرئيس التحرير. ومبيع أعدادها انخفض بشكل عمودي. و «ميشيل» ليس لديه حس عملي ولا أيّ مهارة في مجال الأعمال، وهو، منذ بعض الوقت، أخذ يكثر من الشراب لأكثر من سبب ودون روية أو تعقل، وترك أمور المجلة تسوء وتتدهور.

أما «فيدور ميخائيلوفيتش» فكان محتجزاً في موسكو. إذا إن حالة زوجته كانت تزداد سوءاً وخطورة من يوم إلى يوم، ولكنها مع ذلك، ظلت مصرة على عدم رؤية ابنها.

وفي رسالة إلى «ميشيل» بتاريخ ٢٦ آذار (مارس) سنة ١٨٦٤ يقول له فيها أخوه:

«هي تقول إنها سوف تستدعيه لتمنحه بركتها، عندما تشعر بدنو أجلها.

وكتب له في رسالة تحمل تاريخ الثاني من نيسان (أبريل) من العام نفسه، يقول:

«كل يوم نحن نتوقع موتها، آلامها فظيعة، وأنا أتحمل نتائجها».

وأرسل رسالة إلى «بول ايسّاييف» بتاريخ ١٠ نيسان (أبريل) سنة ١٨٦٤ قال له فيها:

«إن حالة أمك تزداد سوءاً كل يوم، والطبيب لم يعد يرد علينا، ويبدو أنه لم يعد مسؤولاً عن شيء، فعليك أن تصلي من أجلها، يا «باشا».

وبتاريخ ١٥ نيسان (ابريل) أصيبت «ماري دميترييفنا» بعارض مخيف: فقد أخذت تتقيأ دماً كثيراً، وكادت تختنق. فأرسل «دوستويفسكي» برقية ورسالة إلى أخيه: «أطلب منك أن ترسل «باشا» إلى هنا، ربما كان لديه سترة سوداء؟ وعليك أن تشتري له بنطالاً».

و «ماري دميترييفنا» التي كانت منهكة، ولكنها ظلت محتفظة بوعيها، ودعت جميع الموجودين بقربها، وأخذت تستعد للموت بشجاعة.

أخذت بعض الارتعاشات العصبية تهزها. وأصبح تنفسها متسارعاً وأجش، ومن حلقها بدأت تتصاعد قرقرة مخيفة «وبعد ذلك، ارتد وجهها النحيل والمصفر إلى الوراء، وانفتح فمها، وتقلص ساقاها بحركة عصبية، وأطلقت تنهيدة عميقة». وهكذا وصف «دوستويفسكي» فيما بعد،

احتضار «كاترين إيفانوفنا»، المريضة بداء السل، في رواية «الجريمة والعقاب».

ولفظت «ماري دميترييفنا» النفس الأخير، عند الساعة السابعة مساءً.

وكتب «دوستويفسكي» إلى أخيه «ميشيل» ما يلي:

«هذا المساء، عند الساعة السابعة، توفيت «ماري دميترييفنا» بعد أن تمنت للجميع حياة مديدة. لا تنسَهَا في صلواتك. لقد تعذبت كثيراً، لدرجة أني أتساءل من يستطيع أن يرفض مسامحتها وطلب الرحمة لها»..

وفي الليلة نفسها، وأمام جثمان زوجته، كتب «دوستويفسكي» هذه الجملة الغريبة في دفتره: «ماشا» (ماري) مستلقية على المنضدة، فهل سأرى «ماشا» من جديد، ذات يوم».

وهذه المرأة التي خانته وعذبته، وأثقلت حياته بعبء لا جدوى منه، لم يعد «دوستويفسكي» يستطيع أن يطيق التفكير بأنها قد فارقته، وانفصلت نهائياً عنه. فهي جزء كبير وكامل من حياته الماضية، وهي شبابه المستلقي هنا على المنضدة بأجفانها الثقيلة المغمضة وشفتيها المطبقتين. ولكم شعر، فجأة، بأنه وحيد، وأنه مرتبك وحائر، ولكم هو خائف من متابعة العيش في هذه الحياة، على هذا الشكل!

وبتاريخ ٣١ آذار (مارس)، كتب إلى «فرانجيل»:

«آه، يا صديقي، لقد كانت تحبني كثيراً، وكان حبي لها ليس له حدود، ولكننا لم نكن سعيدين سوية... وإن كنا تعيسين جداً في حياتنا العائلية، بسبب طباعها الغريبة، التي تتسم بالشك، وبالشذوذ المرضي، فإننا لم نكف أبداً عن محبة كل منا للآخر، بل، وكلما ازددنا بؤساً، كلما كان كل منا يزداد ارتباطاً وتعلقاً بالآخر. لقد كانت هي أشرف امرأة، والأكثر صدقاً وكرماً. من جميع النساء اللواتي عرفتهن في

حياتي... ولم أكن أستطيع أن أتصور إلى أي حد يمكن أن تصبح حياتي شاقة وفارغة، بعد أن تكون قد دفنت»..

وبعد تشييع جنازتها وإنجاز عملية الدفن، وتقبل التعازي عاد «فيدور ميخائيلوفيتش» إلى «سان بطرسبورغ»، حيث كانت تنتظره هناك شؤون المجلة ومشكلاتها. وبكل قواه، أخذ يحاول السيطرة على حزنه بالانهماك بالعمل.

ولكن، بعد ثلاثة أشهر. كان عليه أن يتعرض لحداد جديد. فبتاريخ التاسع من تموز (يوليو) تلقى منه «بول ايسّاييف» الرسالة التالية:

«عزيزي «ياشا» أرسل لي بعض الملابس، أخي يوشك أن يموت. لا تخبر أحداً بذلك. لقد كتبت إلى «نيقولا»، ربما أتيت إلى المدينة لبعض الوقت. لا تتحدث عن ذلك مع أحد.

عمك الذي يحبك كثيراً:

«ف. دوستويفسكي»

ويوم العاشر من تموز (يوليو) عند الساعة السابعة صباحاً، لفظ «ميشيل» نفسه الأخير، بعد معاناة طويلة من دمل ومرض في الكبد.

وهذه المصيبة زادت من حزن ومن يأس «دوستويفسكي». وخيل له أن القدر لم يترك له فرصة ليلتقط أنفاسه، بل إنه أخذ يلاحقه ويطوقه بشراسة مدبرة. فعندما ماتت زوجته، كان بقي له أخوه ليواسيه. أما الآن فلم يبق له أحد. فهو وحيد، وأكثر وحدة من أن يكون في السجن، وأكثر عزلة من أن يكون في سيبيريا. ولم يعد يعرف من أجل من سوف يعيش ولا من أجل أي شيء ينبغي عليه أن يعيش:

«لقد بقيت لوحدي، وشعرت بالخوف. لقد تحطمت حياتي وانقسمت إلى نصفين، في النصف الأول الذي انقضى كان كل ما عشت من أجله، وفي النصف الثاني، الذي لا يزال مجهولاً، كل شيء يبدو جديداً وغريباً،

دون أن يكون هنالك قلب يستطيع أن يكون، بالنسبة لي بديلاً، عن القلبين اللذين توقفا عن النبض والخفقان... فهل سأقيم روابط وعلاقات جديدة، وهل سأبتكر لنفسي حياة جديدة أعيشها؟ إن هذه الفكرة لوحدها، وبحد ذاتها تقرفني. فقد أدركت للمرة الأولى، أني لا أستطيع أن أستعيض عنهما بأحد، وأني لم أحب أحداً غيرهما، في هذا العالم، وأن حباً جديداً، لم يكن مستحيلاً وحسب، بل يكون كفراً وضلالاً.

وشعرت، حولي، ببرد قارس وبفراغ رهيب».

الأرمل

كان الميراث الذي تركه «ميشيل» لا يزيد عن ثلاثمائة روبل، لم تكفِ لتسديد نفقات دفنه. ولكنه كان مديناً بخمسة وعشرين ألف روبل منها خمسة عشر ألف بموجب سندات وكمبياليات، يجب تسديدها عند الطلب، وفي مواعيد محددة. ولم تكن المجلة تصدر إلا عن طريق الدين، على مسؤولية وذمة مديرها. وحالما رحل المدير، حصل الانهيار والإفلاس. فالصندوق فارغ ليس فيه روبل. والمشتركون الذين سددوا اشتراكاتهم يطالبون بأن تصلهم أعداد المجلة، ، وطباعة هذه الأعداد، وحدها تكلف ثمانية عشر ألف روبل وهذا المبلغ إذا أضيف إلى الخمسة عشر آلاف روبل الضرورية لتسديد الديون التي تستحق في مواعيدها، يجعل المبلغ المكشوف المطلوب من المجلة يرتفع إلى ثلاثة وثلاثين ألف روبل.

والحقيقة هي أنّ «دوستويفسكي» لم يكن ملزماً بتحمل مسؤولية تسديد الديون التي تستحق حسب السندات والكمبياليات. وكان يستطيع أيضاً التوقف عن إصدار المجلة، مع احتمال التعويض على الدائنين، عن طريق بيع اللوازم والمعدات بالمزاد العلني، ولكن ذلك يمكن أن يشكل إساءة لذكرى أخيه، ولذلك فقد امتنع عن تنفيذ هذا الإجراء، الذي بدا له محرماً. وتحمل المسؤولية التامة عن جميع الديون إن كانت نظامية ومشروعة وإن كانت مشكوك بصحتها ومشروعيتها.

وفعل أكثر من ذلك، فبدافع من أكرم الاهتمامات، أخذ على عاتقه إعالة أرملة أخيه وأولاده الأربعة، وتكفل بنفقاتهم.

وبعد أن اتخذ «دوستويفسكي» هذه القرارات، سافر إلى موسكو واستدان عشرة آلاف روبل من عمته العجوز «كومانين» وعاد إلى «سان بطرسبورغ»، وهو مصمم تماماً، على متابعة إصدار مجلة «العصر» مهما حدث وكيفما كانت الظروف. ولكنّ القضية كانت صعبة بصورة جدية، فالمجلة متهمة ومتوقفة عن الصدور، ويجب عليه أن يحصل لها على ترخيص جديد من الرقابة. وعدد الـ ٣١ من كانون الثاني (يناير)، لم يستطع إصداره إلا بتاريخ ٢٢ آذار (مارس) وعلاوة على ذلك، فقد منع «فيدور ميخائيلوفيتش» من التوقيع على مقالاته، إن كان بصفته محرراً أو ناشراً؛ أي كصاحب المجلة. كما أنّ المشتركين استاؤوا كثيراً من التأخير، وأخذوا يحتجون على ذلك، مشافهة وبصورة مباشرة أو بواسطة الرسائل.

وأثناء ذلك، كان «دوستويفسكي» ينهك نفسه في العمل. وكانت المجلة تطبع في ثلاث مؤسسات مختلفة وتجمع بعد ذلك. وكان فيدور ميخائيلوفيتش» هو المحرر الوحيد، وكان يصحح البروفات، يستقبل الكتاب والمؤلفين، يتناقش مع موظفي الرقابة، يعدل المقالات ويصحح أخطاءها، يبحث عن النقود في جميع أنحاء المدينة. وكان يعمل بانتظام حتى السادسة صباحاً، وينام خمس ساعات في الأربعة وعشرين ساعة.

وكتب، ذات يوم، رسالة إلى «فرانجيل»، قال له فيها:

«آه! يا صديقي، يمكنني أن أعود عن رضا وطيب خاطر إلى السجن وأن أمضي فيه السنين التي سبق أن أمضيتها فيه، لو أني أستطيع بذلك تسديد ديوني وأن أشعر أني حر من جديد...

ومن كل ما كان لديّ من احتياطي من القوة والطاقة لم يبق لي سوى إحساس بالاضطراب والقلق، قريب جداً من اليأس... والهمّ والمرارة،

وهيجان فارغ وبارد، كل هذا يسبب لي حالة غير طبيعية أبداً. وعلاوة على ذلك، فأنا وحيد...

ومع ذلك، فعلى الدوام يبدو لي أني أستعد للعيش والتمتع بالحياة، وهذا يثير الضحك، أليس كذلك؟ إنها حيوية هرّا...»

هكذا، وإلى هذا الحد كانت حاجته للتسلية والتهرب من همومه، وللإخلاص ولحرارة المودة والمحبة، لدرجة أنه أخذ يبذل الجهد، ويحاول شيئاً فشيئاً، أن يستعيد علاقاته مع القريبين منه وأن ينشئ صداقات جديدة، وهكذا أخذ يستأنف ببطء وهدوء حياته الاعتيادية، وتعرف على عائلة «كورفين - كروكوفسكي» التي كانت «أنّا» كبرى البنات في هذه العائلة قد أرسلت قصتين ظريفتين إلى مجلة «العصر».

و «أنّا» هذه فتاة ممشوقة القامة، طويلة، ناعمة الملامح، ذات شعر طويل، أشقر، وعينين «خضراوين كعيني حورية البحر» وهي ذكية، ذات استقلالية، تميل بها إلى الكبرياء، وهي مصممة على القيام بدور مهم إلى جانب رجل متميز واستثنائي.

وكان «دوستويفسكي» يعاني من ضيق غريب أثناء حضوره مع الجميلة «أنّا» ومع أهلها:

«كان يبدو على الدوام سيئ المزاج، يتلمس بعصبية لحيته الصغيرة الشقراء (عثنونه) ويعضعض شاربه، بينما تبدو على وجهه، أحياناً، بعض التشنجات العضلية اللا إرادية».

وذات يوم، شعر بالحاجة لأن يروي لتلك الآنسات، على الرغم من استياء والديهن، قصته التي كان سينشرها قريباً: «اعتراف ستافروغين». وتأثرت الفتاة بحماسة شديدة بهذه القصة. وشعر هو بذلك. وكانت «أنّا» فخورة ومزهوة لشعورها بأنّ رجلاً يتمتع بهذه الموهبة العالية يهتم بها. ولكنها كانت تعيب عليه احتقاره للشبيبة التي تشكل الطليعة، وللأفكار الجديدة.

وكان قد قال:

«كل الشبيبة الحالية عبارة عن أغبياء وجهلة، وبالنسبة لهم كلهم، فإن أيّ «جزمة» أكثر قيمة من «بوشكين».

فردت عليه الفتاة، قائلة:

- «بوشكين» لقد شاخ، بالفعل، وتقدمت به السن، بالنسبة لجيلنا».

فتحمس «دوستويفسكي» وغضب وأخذ يصرخ، وهدّد بالانصراف وانصرف أخيراً. ولكنه عاد في اليوم التالي، وملامحه تنم عن الندم على ما بدر منه.

ومع ذلك، فذات مساء، بينما كانت صغرى الأخوات: «سونيا» تعزف على «البيانو» معزوفة «السوناتة المؤثرة»، التي تعلمت عزفها لكي تسمعها «لدوستويفسكي»، كانت أختها الكبرى و «فيدور ميخائيلوفيتش» يجريان أحاديث مهمة وتوضيحات نهائية.

وقد همس لها «دوستويفسكي»: «افهميني جيداً، لقد أحببتك منذ أول مرة التقينا فيها... وليست الصداقة هي التي أكنّها لك، بل هو حب وشغف مشبوب، استوليا على كياني كله...»

والحال، هي أنّ «أنا» كانت تخشى أن تربط مصيرها بهذا الرجل المريض والعبقري. ورفضت أن تمنحه يدها. وبينما كانا يتحدثان هكذا بصوت خافت، كانت الصغيرة «سونيا» قد توقفت عن العزف وأخذت تصغي وتسترق السمع.

كانت هذه الفتاة الصغيرة، ذات الأربعة عشر ربيعاً تحبّ «دوستويفسكي» بشكل جنوني، وترفض طريقة أختها، وتستنكر حيلها وألاعيبها، ولكنه وهو الذي فهم جيداً روح «نيتوتشكا» والصغيرة «نيللي» وما يدور في ذهنهما، ها هو يبدو عاجزاً عن أن يتبين أي شيء على هذا الوجه النضر، الذي رافقته نظرته، وهو يتجه نحو الباب وقد

أحنى ظهره، وتدلى ذراعاه، مغلوباً على أمره، مرفوضاً، ومنبوذاً، نحو عزلته.

وكان مقدراً لسونيا أن تصبح عالمة رياضيات شهيرة، تحت اسم «صوفيا كوفاليفسكي». أما «أنا» فقد حققت حلمها في البطولة لأنها تزوجت متآمراً فرنسياً، يدعى «جاكولار»، حكم عليه بالإعدام وسجن في حصن قريب من الحدود الألمانية. وقد استطاع الهرب بفضل والد زوجته الشابة، الذي كان قد رشا أحد الخفراء بمبلغ عشرين ألف فرنك.

ومرة أخرى، يجد «دوستويفسكي» نفسه وقد أهانته امرأة، ويعود إلى عمله وقد تزايد غيظه، بخاصة وأن المجلة أخذت تتراجع، وتسوء أحوالها يوماً بعد يوم. وقد هبط عدد المشتركين إلى (١٣٠٠). والدائنون الذين جيّر لهم الكمبيالات وحولها إلى اسمه، أخذوا يطالبونه ويلاحقونه برسائلهم وبزياراتهم.

وفي أواخر الصيف، تلقى «دوستويفسكي» إنذاراً بأن عليه أن يسدد الديون، تحت طائلة المصادرة والسجن، وكانت الديون المستحقة تبلغ نحو ثلاثة آلاف روبل، وحاول «دوستويفسكي» أن يطمئن دائنيه لكي يمهلوه لبعض الوقت، ولكن أحوال المجلة، السيئة جعلتهم يبدون قساة في معاملتهم له.

وبتاريخ ٩ حزيران (يونيو)، أعلنت صحيفة «الصوت» توقف مجلة «العصر» عن الصدور.

وآنذاك أتى الناشر «ستيلوفسكي» لمقابلة «دوستويفسكي» وعرض عليه شراء حق نشر جميع مؤلفاته، لقاء ثلاثة آلاف روبل، وبالإضافة إلى ذلك، طلب منه أن يسلمه رواية لم تنشر قبل الأول من شهر تشرين الثاني، سنة ١٨٦٦، وإذا تجاوز هذا التاريخ فعليه أن يدفع غرامة مالية، وإذا لم يسلمه المخطوطة بتاريخ الأول من كانون الأول (ديسمبر) فإنّ

«دوستويفسكي» يفقد حقه على مؤلفاته الحالية والمستقبلية، وتصبح ملكاً خاصاً للناشر وحده.

وكان «ستيلوفسكي» يعتمد تماماً على التأخير الذي سيسمح له بأن ينشر دون أيّ مكافأة أو تعويض، أي دون مقابل، جميع روايات مدينه.

و «ستيلوفسكي» هذا كان محتالاً معروفاً في الأوساط الأدبية والفنية، وقد سبق له أن احتال على العديد من الكتاب والمؤلفين، ومنهم على سبيل المثال: «بيسمسكي» و «كريستوفسكي» و «غلنكا» واستغلهم بشكل بشع. وهو محتال دنيء، يربح ويجني المال على حساب بؤس الآخرين ومصائبهم، وكانت زيارته تعتبر إدانة وحكماً على من يزوره.

وأثناء ذلك، كان «دوستويفسكي» مشرفاً على الإفلاس والدمار، وبمصادفة غريبة، تطابقت تماماً مهلة الاثني عشر يوماً التي منحه إياها «ستيلوفسكي» للتفكير في الموضوع، مع فترة تأجيل المصادرة التي أتيحت له.

فوقع «فيدور ميخائيلوفيتش» له على عقد الاتفاقية.

ولكنه، في الواقع» لم يكن سيقبض سوى جانب بسيط من المبلغ الذي وعد به، لأن «ستيلوفسكي» كان قد اشترى بثمن زهيد عدداً من السندات التي وقعها «دوستويفسكي»، وما كان سيعطيه له بيد، بصفته ناشراً، يسترده بيده الأخرى باعتباره دائناً.

وبعد ذلك بقليل لم يبق «لفيدور ميخائيلوفيتش» سوى مبلغ نقدي لا يزيد على ١٧٥ روبل. ولكن، لا أهمية لذلك! فقد قرر السفر إلى الخارج.

وكانت ثلاثة آمال تراوده وتدفعه لمغادرة روسيا: فهو يريد أن يرى «بولين» من جديد، لأنه لم يستطع أن ينساها. وقد كتب إلى أختها، يقول: «إني ما زلت أحبها، وأحبها بقوة وعمق، ولكني كم كنت أود ألا أحبها بعد الآن. فهي لا تستحق مثل هذا الحب». وهو يريد أيضاً أن يجرب حظه في

«الروليت»، وأخيراً فهو يرغب بالعمل بجدّ لكتابة الكتب التي تلقى طلباً عليها.

وصل «دوستويفسكي» إلى «ويسبادن» بأواخر شهر تموز (يوليو) وكان على «سوسلوفا» أن تأتي لتلتقي به هناك، في الأيام الأولى من شهر آب (أغسطس). وأثناء ذلك، وبانتظار وصولها، كان «فيدور ميخائيلوفيتش» يتردّد على نادي القمار.

ومن جديد، ها هو البساط الأخضر الكبير الملقاة عليه الليرات الذهبية وقطع العملة المختلفة من ألمانية وهولندية وغيرها، وها هي تلك الوجوه الجادّة والمتجهمة والتي تبدو عليها أمارات الجشع والرغبة بالربح، وتلك الأيدي العصبية التي تمسك بحافة المنضدة، وكأنها تمسك بدرابزين هوة سحيقة. وها هو يسمع من جديد تلك الكلمات السحرية: إحدى وثلاثون، أحمر، مفرد وقيمة الرهان، أربعة، أسود، مزدوج وخسارة»...

وقد ورد في كتابه: «المقامر» ما يلي:

«كنت محموماً، أرسل بدفعة خفيفة تلك المجموعة من القطع الذهبية على «الأحمر» وفجأة أعود إلى رشدي. ولم تكن سوى لحظة وهي الوحيدة طوال تلك الأمسية: ارتعاشة باردة كالثلج تنتاب كياني، يداي وركبتاي ترتجف قلقاً، وعلى بصيص ذلك البريق من الوعي ونفاذ البصيرة، كنت استشفّ ماذا ستعني الخسارة، بالنسبة لي، في تلك اللحظة...»

وخلال خمسة أيام خسر «دوستويفسكي» الـ (١٧٥) روبل التي كانت قد بقيت معه. فرهن ساعته. ولم يسدد بعد قيمة فاتورة الفندق. فتنازل عن كبريائه، وأرسل نداء استغاثة إلى «تورغينيف» الذي كان يضمر له، مع ذلك، حقداً قديماً:

«إني خجلٌ ومستاء من نفسي لإزعاجك. ولكنك أنت، بالضبط الوحيد الذي أستطيع أن أتوجّه إليه حالياً، ثم أنت بالتأكيد أكثر ذكاءً

من الآخرين جميعهم. وهذا يجعلني أشعر بالراحة وأنا أكتب إليك. وإليك بماذا يتعلق الموضوع. وأنا أتكلم معك كرجل يتكلم مع رجل، وأطلب منك (١٠٠) «تالير» (عملة ألمانية)... وما العمل عندما نغرق عمودياً، ونفلس تماماً»؟

فأرسل «تورغينيف» (٥٠) «تالير» «لدوستويفسكي»

فردّ عليه برسالة قال له فيها:

«أشكرك على الخمسين «تالتر» يا صديقي الطيب جداً «إيفان سيرغييفتش» فهي لم تنقذني تماماً ولكنها ساعدتني على إصلاح أموري إلى حدّ ما.

وكان يشعر بالمذلة والقرف، وهو ينتظر وصول «بولين» التي ربما يكون معها بعض النقود. ولكن «بولين» وصلت إلى «ويسبادن» وليس معها حتى أجرة غرفة الفندق التي ستقيم فيها.

وعلى الفور، فكر «دوستويفسكي» بوجوب إعادتها إلى الوطن. وهذا الهروب من أجل الحب والغرام، الذي حلم به في ضوء من الفرح لم يكن سوى إقامة قصيرة الأمد في فندق بائس، يولي له صاحبه ظهره عند مروره، والخدم يهزؤون به وفي نهاية شهر آب (أغسطس) غادرت «بولين» و «يستبادن» إلى باريس. وبعد سفرها، رفض صاحب الفندق تقديم وجبتي الغداء والعشاء «لفيدور ميخائيلوفيتش»: «لست بحاجة للطعام لأنك لا تستطيع أن تكسب نفقات معيشتك. وستقدم لك الشاي فقط. وهذا كل ما هنالك فلا داعي للنقاش».

وكتب «دوستويفسكي» إلى «سوسلّوفا»:

«وهكذا، فمنذ البارحة، لا أتغذى إلا بالشاي، كما أنّ هذا الشاي كريه للغاية، وليس هنالك شيء نقضمه معه. ولا ينظفون لي حذائي ولا ملابسي، ولا يأتون عندما استدعيهم، والخدم يعاملونني باحتقار يصعب

التعبير عنه، وهو ألماني تماماً. وليس هنالك، بالنسبة للألماني جريمة أكثر فظاعة من أن يكون المرء فقيراً، ولا يسدد دينه في الموعد المحدد». وبدافع من آخر شعور بالكرامة، كان «دوستويفسكي» يغادر الفندق قبل موعد تقديم وجبات الطعام، ولا يعود إلا بعد أن يخيم الظلام، ولكنّ هذا التمرين اليومي كان يثير وينشط شهيته للأكل ولذلك اضطر إلى البقاء في غرفته. وأخذ يقرأ ويكتب، وأرسل عدداً كبيراً من الرسائل طلب فيها نقوداً، ومع ذلك لم يكن معه ما يشتري به الطوابع اللازمة لإرسال تلك الرسائل. وكان هذا أسوا ما في الأمر.

«ها هي ثلاثة أيام تمر، لم أتناول خلالها سوى الشاي صباحاً ومساءً والغريب في ذلك، أنني لا أشعر كثيراً بالجوع! والمزعج الآن، أنهم يخانقونني، ويرفضون، في الليل، إعطائي شمعة»...

وأخذ «دوستويفسكي» يطلب العون والمساعدة من «بولين» ومن البارون «فرانجيل» الموجود آنذاك في «كوبنهاغن»، ومن «هيرزين» الموجود في جنيف، ومن «ميليوكوف» ومن الناشر «كاتكوف» الذي يقيم في روسيا. ولكن «فرانجيل» في إجازة. و «هيرزين» يقوم بجولة في الجبل. و «ميليوكوف» الذي طلب منه «دوستويفسكي» أن يبيع أحد أعماله المستقبلية بمبلغ (٣٠٠) روبل، قوبل بالرفض من قبل «مكتبة القراءات»، ومن قبل صحيفة «المعاصر» ومن قبل «حوليات الوطن» أيضاً. كما أنّ «كاتكوف» الذي عرض عليه رواية مؤلفة من عدة أجزاء كي تنشر في صحيفة «المراسل الروسي» لم تبدر منه إشارة تدل على أنه على قيد الحياة. ومع ذلك، فإن فكرة الرواية مثيرة ومغرية، وقد كتب «دوستويفسكي» إلى «كاتكوف» عن ذلك، قائلاً:

«أحداثها تحصل في أيامنا هذه، وفي هذه السنة، بالذات: طالب شاب طرد من الجامعة، يعود أصله إلى البرجوازية الصغيرة، يعيش في فقر مدقع،

عزم على أن يتخلص دفعة واحدة من وضعه الشاق والسيئ: ونفذ ذلك العزم باستخفاف، وبطريقة تنم عن عدم استقرار أفكاره، وتحت تأثير بعض الأفكار «غير الناضجة» والغريبة، والتي تبدو خيالية كأنها تحلق في الجو، فقد قرر أن يقتل امرأة عجوز... تقرض النقود للناس لقاء رهن. والعجوز غبية، صماء، بخيلة وشريرة، تحصل على فوائد باهظة كاليهود، وتعامل أختها الشابة، التي تقوم بخدمتها، أسوأ معاملة. «فهي لا تصلح لشيء! وليست نافعة لأحد!... فلماذا تعيش»؟ وهذه التساؤلات تشوش ذهن الشاب. فيقرر قتلها، وسرقة أموالها لكي يستخدم هذه الأموال لتحقيق السعادة لأمه التي تعيش في الريف، ولكي يقي أخته من المشاريع الغرامية التي يهيئها لها أحد مالكي الأراضي والعقارات التي تعمل عنده كوصيفة، ولكي يستطيع إنجاز دراسته.

«ولكن الحقيقة الإلهية، والقانون الدنيوي يطبقان، وينتهي به الأمر إلى أن يضطر أن يشي عن نفسه ويبلغ عن جريمته، ويضطر حتى إلى المجازفة بالموت في الأشغال الشاقة، ولكن بدافع الأمل الوحيد بالمشاركة من جديد بحياة بني البشر. والشعور بطرده، وإقصائه وعزلته بين الرجال الآخرين، هذا الشعور الذي أحس به في الحال بعد أن ارتكب جريمته، عذبه إلى أقصى درجة. وقانون الحقيقة والطبيعة البشرية بل الإنسانية، كان هو الأقوى. وقرر المجرم تحمل العذاب لكي يكفر عن فعلته»...

وفي هذا العرض الموجز، نتعرف بسهولة على الملامح الأساسية لرواية «الجريمة والعقاب».

نعم، كان ذلك في تلك الغرفة الضيقة والمعتمة كخزانة في جدار، عندما كان محروماً من الغذاء ومن الضوء، وحتى ملابسه الداخلية لم تكن تغسل، وعندما كان يتسول ويطلب النقود، ذات اليمين وذات اليسار، لكي يستطيع العودة إلى روسيا، عندما كان في أدنى درجة من

البؤس والوحدة، أن حضر «دوستويفسكي» هذا الكتاب الذي كان لا بد من أن يحقق له الشهرة.

«ربما كان ما أكتبه الآن، متفوقاً على كل ما كتبته حتى الوقت الحاضر».

وفي غضون ذلك، كان «فرانجيل» قد عاد من «كوبنهاغن» ووجد رسالتي «دوستويفسكي» اللتين تعبران عن يأسه الشديد. فأرسل له، في الحال، النقود الضرورية للقيام بالرحلة، ودعاه للحضور وتمضية بضعة أيام عنده. فتقبل «فيدور ميخائيلوفيتش» بسرور هذه الفرصة التي أتيحت له لزيارة صديقه القديم.

ووصل إلى «كوبنهاغن» في الأول من تشرين الأول (أكتوبر) وغادرها في العاشر من الشهر نفسه، متوجهاً نحو «سان بطرسبورغ» ومنذ عودته إلى العاصمة تعرض للوقوع في ثلاث نوبات متوالية من الصرع.

وكتب إلى «فرانجيل»، يقول:

«ومع ذلك فأنا جالس ومنهمك في العمل».

والثلاثمائة روبل التي طلبها من «كاتكوف» وصلته أخيراً، بعد مرورها بـ:

«ويسبادن»، ولكن هذه النقود لم تعد تكفيه.

«إني أعمل لصحيفتك، وبالتالي فإني لا أستطيع قبول عروض أخرى تتيح لي تأمين معيشتي كيفما كان. والحال، هي أني لا أملك «كوبيكا» واحداً، وقد رهنت بعض ملابسي، ولذلك فإني أرجوك أن ترسل لي سلفه بمبلغ (١٠٠٠) روبل».

وكانت أسرة أخيه المتوفى تعيش في بؤس شديد. وهو نفسه أخذ يلاحقه من جديد بعض الدائنين الذين لم يسدد لهم ديونهم بعد.

«البعض منهم، مع ذلك، معقولون، فقد قبلوا عرضي بتقسيط الدفع على فترة خمس سنوات، ولكن البعض الآخر لم يريدوا سماع شيء. وقد انزعجت من ذلك كثيراً، وجعلني أبدو عصبياً لفترة طويلة من الزمن. ومع ذلك يجب علي أن أجلس وأن أكتب وهذا يبدو مستحيلاً، في بعض الأحيان».

وكانت نوبات الصرع تعيقه وتؤخر عمله أيضاً. وأخيراً، زيادة في نكد الطالع وسوء الحظ، فقد أرغمته بواسيره على أن يلزم سريره طوال أسبوعين. ومع ذلك، فإنه بفضل همة محمومة، توصل في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) إلى إنجاز القسم الأكبر من روايته.

ولكنه لم يكن راضياً عن هذا القسم، فحرق المخطوطة، وعاود الكتابة من جديد، ويشرح ذلك ويعلله، قائلاً:

«لقد أغرتني صيغة جديدة، وخطة أخرى، جديدة أيضاً». وأخذ يعمل ليلاً ونهاراً. ودمج في ترتيب واحد (أي بعملية مونتاج) الموضوع الذي حدث عنه «كرايفسكي»، والذي أعطاه عنوان: «السكيرون المساكين» (حلقة أو فصل «مارمولادوف») وموضوع الطالب، الذي رواه «لكاتكوف». وتخلى عن مشروع مذكرات «راسكولنيكوف» وتبنى الصيغة الروائية، وكان يتقدم بعمله بالتتابع وشيئاً بعد شيء، مع تقدم طباعة الكتاب. وأخذ يكتب كل شهر الفصول التي ستنشر في الشهر التالي: أي ما يساوي ست ملازم تطبع في أربعة أسابيع!

وكتب إلى «فرانجيل» بتاريخ ١٨ شباط (فبراير) سنة ١٨٦٦: «منذ أسبوعين، نشر الجزء الأول من روايتي في صحيفة «المراسل الروسي» وعنوانها: «الجريمة والعقاب». وقد سبق لي إن سمعت كثيراً من الثناء والمديح لهذا الكتاب، فهو يتضمن أشياء جريئة، وجديدة».

«الجريمة والعقاب»

مشكلة «راسكولينكوف»، بطل الجريمة والعقاب، هي مثل مشكلة «رجل السرداب»، أي مشكلة الحرية التامة: طالب فقير ومتكبر، يبحث عن مخرج ليتخلص من بؤسه وشقائه. وهو يعرف مرابية عجوز. فماذا تساوي حياة هذه المخلوقة المسيئة بالمقارنة مع حياته؟ فإذا قتلها واستولى على النقود، فإنه سوف يستطيع مساعدة أمه وأخته اللتين تقيمان في الريف، ويمكنه عند ذلك تسديد نفقات دراسته، ويصبح رجلاً مرموقاً، يقوم بأعمال الخير ويفيد جميع الناس القريبين منه: «مقابل حياة واحدة، آلاف الحيوات تنقذ من الفاقة والعوز ومن التحلل والسقوط»...

«وأيّ أهمية لها في ميزان الحياة هذه العجوز الساحرة والشريرة»؟

وبدت خطته منطقية بشكل مخيف، ومغرية بشكل خطير. «عاد إلى منزله، كما يعود من حكم عليه بالإعدام. فهو لم يعد يفكر، وعلاوة على ذلك، فهو لا يستطيع التفكير بأي شيء، ولكنه، بكل كيانه، شعر فجأة بأنه لم يعد لديه حرية الحكم أو الرأي ولا الإرادة، وأن كل شيء، قد قرر وسوّي هكذا للتوّ، بصورة نهائية».

الأحداث ترضخ بسهولة مواتية لكل مقاصده ونواياه، وهو منقاد بقوة مخيفة، كما لو أن طرف معطفه قد أمسكت به مسننات آلة قوية، وجذبته إليها، بكامل جسمه». فهو لم يعد بإمكانه أن يقاوم. فهو يضرب،

يقتل ويسرق، وبمساعدة غريبة من الظروف، لم يكن هنالك أي دليل خارجي يسمح للقضاة بأن يشكّوا أو يشتبهوا به.

ولكن، عند ذلك بدأت المأساة الحقيقية، الناجمة عن العقوبة الداخلية. «إذا كان كل شيء قد ارتكب عن معرفة وخبرة، وإذا كان لديك هدف مرسوم ومحدد بدقة، فكيف يحدث إذن، أنك حتى الآن، لم تلق حتى نظرة على محفظة النقود، لترى ماذا يوجد فيها، وكيف تظل جاهلاً ماذا ستدر عليك وتعطيك هذه القضية، ومن أجل أي شيء سببت لنفسك كل هذا العذاب»؟ هذا ما أخذ يفكر به «راسكولنيكوف».

وشيئاً فشيئاً، ومن سؤال إلى سؤال آخر، ومن نوبة ذعر إلى نوبة أخرى، توصل إلى اكتشاف الدافع الحقيقي لجريمته:

«أنا لم أقتل لكي أقدم المساعدة لأمي، كلا،

هذا ما اعترف به لسونيا

وأضاف قائلاً: وليس أيضاً لكي أبدو محسناً لبعض بني البشر، بعد أن أصبحت امتلك الوسيلة لأفعل ذلك، كلا، لقد قتلت بكل بساطة، قتلت من أجلي أنا، وحدي، ولم يكن يساورني القلق لكي أعرف في تلك اللحظة، فيما إذا كنت يمكن أن أصبح أحد المحسنين أم أني سأمضي حياتي كالعنكبوت اصطاد الضحايا بنسيجي، لكي أتغذى بقواها الحية. وعلى الخصوص، لم تكن الحاجة للنقود، هي التي كانت الأكثر إحساساً لديّ عندما قتلت، كنت أقل حاجة للنقود من حاجتي لشيء آخر...

كان علي أن أعرف شيئاً آخر، كان شيء آخر يدفع ذراعي، كنت أريد أن أعرف، بأسرع ما يمكن، فيما إذا كنت حشرة كالآخرين أم أني رجل. وهل سأستطيع اجتياز الحاجز، أم أني لا أستطيع اجتيازه؟ هذا ما تساءلت عنه. وهل سأجرؤ على أن انحدر وأستولي على السلطة، أم أني لن أجرؤ على ذلك؟ وهل أنا مخلوق مرتجف أو أن لي الحق»؟

وهكذا، فإن «راسكولنيكوف»، مثله في ذلك مثل «رجل السرداب» يختنق بين جدران الأخلاق الرسمية. ويحس في داخله بإمكانية تجاوز القطيع المجهول الذي يحيط به، وهو يشعر أنه مختلف عن الآخرين، وأنه مدعو لقدر خاص، ومعين لمغامرة الاستقلال الروحي الرهيبة. فهنالك رجال مثله لهم الحق بتجاهل جميع القواعد والتنكر لها. وبالنسبة لهم، يوجد أخلاق عليا، أو بالأحرى لم يعد يوجد هنالك أخلاق، بل حرية تامة، وبالنسبة لهم فإن أي جريمة لم يعد لها قيمة الجريمة، والعقاب لم يعد سوى كلمة فارغة من المعنى. وهكذا فإن «نابليون» دون شك، قد برر نفسه، أمام نظره هو، إذا كان، مع ذلك، قد شعر برغبة للقيام بهذا التبرير.

وتبادر إلى ذهن «راسكولنيكوف»: «(إنه سيد حقيقي، كل شيء مباح ومسموح له به، يدك «طولون» بقنابل مدفعيته وينظم مذبحة في باريس، ينسى جيشه في مصر، يستهلك نصف مليون رجل في حملة روسيا، ويتخلص من هذه القضايا، في «فيلنا»، بواسطة التلاعب بالألفاظ وإنما لهذا الرجل بالذات، بعد موته تقام التماثيل. وهكذا إذن، فكل شيء مسموح ومباح».

كل شيء مسموح به للبعض، كل شيء مسموح به لمن يريد أن يسمح لنفسه بكل شيء، لأن هذه الرغبة تكون قد أصبحت إشارة ودليلاً على الاستثناء.

وبالنسبة «لراسكولنيكوف»، العجوز هي العائق الأولي، والجدار المكون من اللحم، الذي ينبغي هدمه، اجتيازه، وتناسيه للدخول في درب الحرية. «ليست مخلوقة بشرية هذه التي قتلتها، بل مبدأ» وحالما قتل «راسكولنيكوف» هذا المبدأ، سيعرف موهبته كرجل مثالي وأسمى، وكإله. وسيرتاح، ويجد نفسه في الاستقلال الذي اكتسبه أخيراً.

والحال، هي أنه بالحقيقة، لم يسبق له أبداً أن كان أقل استقلالية منه، منذ هروبه إلى خارج الشرط البشري. وكان لديه

فكرة ثابتة تقضم الشعور نفسه وتفتنه بحريته. وهو الذي أراد الهرب من جميع القيود والضغوط الأخلاقية، فرض على نفسه للتو، قيداً جديداً. وليلاً ونهاراً. أخذ يشكو لنفسه ويقيم لنفسه الخطيئة التي كان يريد أن يصبح فخوراً بها. وليلاً ونهاراً، كانت الحجج نفسها والأجوبة نفسها تزعجه وتعذبه. وقد انفصمت شخصيته وازدوج، فأصبح محاميه الخاص ومحامي ضحيته. ولم يعد شخصاً فرداً، بل مكاناً للجدل والنقاش.

فالجريمة لا يمكن تبريرها في نظر الضمير، والوعي العميق، وشخصية مرتكب الجريمة تنحل وتضيع كجثة الضحية. وليس هنالك أي هدف سامٍ وأي مثل أعلى، وأيّ ديانة يمكن أن تسمح بالجريمة. وأياً كان يرفع يده على شخص قريب منه، فهو إنما يرفع يده على الله على نفسه هو بالذات. وعندما ترك «راسكولنيكوف» البلطة تسقط على رأس العجوز فليس تلك الأنثى الطماعة، هي التي قتل، بل لقد قتل نفسه، وبالأحرى، لقد قتل النور الإلهي الذي يسكنه.

وقد صاح:

«بعد كل شيء، أنا لم أقتل سوى قملة، يا «سونيا»، قملة قذرة، لا نفع منها، بل شريرة ومسيئة».

فأجابته «سونيا»

«هذه القملة كانت مخلوقاً بشرياً».

وأيّ حياة بشرية تساوي أكثر من أسمى أفكار أي شخص.

ولا شيء بشري يستحق موت إنسان، لأن هذا الإنسان، أياً كان وكيفما كان هو على صورة الله. نعم، وهذه «القملة غير النافعة والمسيئة» التي كانت المرابية، نعم وذلك النذل السكير الذي كان «مارمولادوف» وتلك العاهرة العاقلة «سونيا» جميعهم، نعم جميعهم، يحبهم الله، وهم على

صورة الله. وهذا أمر عظيم، ويصعب إدراكه وتصوره، ولكنهم بالنسبة لله، فهم موضوعون على مستوى «راسكولنيكوف».

وهكذا، فإلى ما وراء الجدار، يترنح «راسكولنيكوف» ويتردد محتاراً، فهو لم يعد في بيته في ذلك السهل الفسيح. وقواه التي كانت تكفي لحمله في المكان الذي يحيط به السور، تخور فجأة وتخونه هنا. وهو الذي كان يريد أن يكون إنساناً كاملاً ومثالياً، ها هو يرتجف ويشكو كالطفل عندما يكون في غرفة مظلمة.

فهو بعيد عن الجميع، وغريب عن الجميع وعن نفسه. وهو شخص آخر. والمحيطون به يعتبرونه مجنوناً. عند ذلك يهرب من هؤلاء الناس الذين لم يعد لديهم شيء مشترك معه، ويلتفت نحو التعساء، فهو يحب السكير «مارمولادوف» والأرملة المسلولة: «كاترين ايفانوفنا» و «سونيا» التي تتعهر لكي تطعم أخوتها وأخواتها. ولكن، هم أيضاً ليسوا أنداده المشابهين له تماماً. وجريمته عزلته في وسط التيار البشري. وجريمته حددته بنفسه هو فقط. والاعتراف التام والشامل وحده، والعقاب المثالي وحده، يمكن أن يدفعاه إلى الموقع الأكثر كثافة بين الجمهور، ومع ذلك فهو يخشى أن يكتشف، ويلقى عليه القبض ويحاكم. وهو يختلط برجال الشرطة، ويتكلم معهم عن الجريمة، وعن قتل العجوز. والقاضي «بورفير» الذي يشك به منذ زمن طويل، يداعبه، يحرجه، يمسك به ويحتجزه، ثم يطمئنه من جديد بدم بارد شيطاني. ويقول له:

«إذا ذهبت، فإنك ستعود: أنت لا تستطيع أن تستغني عنا... بل إني متأكد، أنك سينتهي بك الأمر إلى الرغبة بتقبل الألم والعذاب».

وتجربة الحرية قاسية جداً بالنسبة «للراسكولنيكوف». فبعد ألف معركة، هو الرجل المثالي والكامل، يسجد عند قدمي «سونيا» العاهرة، ويعترف لها بجريمته، فتنصحه بأن يشي بنفسه:

«أتريدينني أن أذهب إلى سجن الأشغال الشاقة، إذن، يا سونيا؟

فأجابته، قائلة:

- الذي ينبغي عمله هو تقبل العذاب، وبتقبله تكفر عن ذنبك»!

سوف يطيعها. وسيذهب ليركع في أحد مفترقات الطرق ويقبل «الأرض التي دنسها». ثم يذهب ليسلم نفسه في مخفر الشرطة.

«وبهدوء، بعد توقفات ومتابعات، ولكن بصورة واضحة ومقصودة، يلفظ اعترافه:

«أنا الذي قتلت بعدة ضربات بالبلطة العجوز التي كانت تقرض النقود لقاء الرهن، وأختها «اليزابيت» وأنا الذي سرقت نقودهما».

وسيحكم على «راسكولنيكوف» بالسجن مع الأشغال الشاقة، و «سونيا» العاهرة الصغيرة سوف ترافقه إلى سيبيريا.

وكتب «دوستويفسكي»:

«ولكنه، لم يندم على ارتكاب جريمته...»

وكان يتساءل:

«كيف يمكن أن يبدو لهم العمل الذي قمت به قبيحاً إلى هذا الحدّ؟

ألانه كان عبارة عن جريمة؟ وماذا تعني كلمة جريمة؟ ضميري هادئ ومرتاح. حقاً، لقد ارتكبت جريمة قتل... إيه، حسناً واحتراماً لما نص عليه القانون حرفياً، خذوا رأسي، وعلينا جميعاً ألا نتكلم عن هذا، بعد ذلك...».

وأخذ يفكر بأن العديد ممن أساؤوا إلى البشرية، لم تبرر أعمالهم ألا لأنهم أصروا وثابروا على السير على دربهم. والذي دانه، هو كونه ليس له حجم كبير. ولا قوة، والهيكل العظمي قد انهار.

«هكذا إذن، فما كان يعتبره كأنه خطيئته، كان كونه لم يستطع أن يثبت وأنه ذهب فوشى بنفسه واعترف بجريمته:

من هذا الكذب ومن هذه الشكوك، إنما يولد فجأة الإيمان. نعم فجأة، كما تشعل الشرارة «كومة» من القش. وفيما مضى، كانت «سونيا» قد قرأت له قصة بعث «لازار» في الإنجيل، حسب رواية القديس «حنا»: «أنا البعث والحياة. ومن يؤمن بي، وإن كان قد مات، فإنه سيحيا: وأياً كان يعيش ويؤمن بي، لن يموت أبداً، إلى الأبد». هذا الكلام، لم يكن قد فهمه آنذاك كما ينبغي وكما يستحق أن يفهم. وإنما الآن، فقط، هنا في سيبيريا أن صعدت إلى شفتيه كلمة البعث. فكيف حدث ذلك؟ «راسكولنيكوف» نفسه لم يشعر بهذا، ولكن، فجأة، أمسك به شيء وألقاه عند قدمي «سونيا»...

وأرادا أن يتكلما فلم يستطيعا. وطفرت الدموع من عيونهما. وبدا الاثنان شاحبين ومرتبكين، ولكن كان قد أخذ يسطع على وجهيهما المتعبين فجر مستقبل جديد، وبعث تام وعودة إلى الحياة».

هكذا، وبفضل «سونيا» العاهرة الصغيرة، عرف «راسكولنيكوف» أخيراً الحرية الحقيقية. وهذه الحرية ليست حرية تتسم بالكبرياء، فالإنسان ليس الله. والأقوى لا يوجد إلا إذا وجد الله. وإنكار الله، هو إنكار الإنسان لذاته. وأن يريد الإنسان أن يصبح إلهاً، فهذا يعني أنه يريد أن يموت كإنسان، وأنه يريد أن يذوب ويندمج في الكون، ويعني أنه يريد أن يكون، وألا يكون بعد الآن، في آن معاً.

وبالإجمال، فبين جدران الأخلاق الرسمية توجد حرية اختيار الخير، وهذه الحرية الصغرى تفترض إمكانية الخطيئة. والمرء يمكنه أن يرتكب الخطيئة ويسبب الشر والأذى، ولكنه يمتنع عن القيام بذلك لأنه «ممنوع»، ولأنه يعرض نفسه «للعقاب»، «للسجن» و «الجهنم» وأولئك الذين يحتقرون دروس أولئك الإدلاء والمرشدين المغفلين الذين تسبب لهم هذه الوصفات للطبخ الروحي، القرف والغثيان، المفكرون والأقوياء، هؤلاء يجتازون

الجدار. وعند ذلك يصبحون في مجال الحرية الثانية، الحرية النهائية. وهم لم يعودوا يعملون الخير انصياعاً لقاعدة تعلموها في طفولتهم. ولم يعودوا يخشون الأذى الذي تسببه الأعمال الانتقامية والعقوبات الأرضية أو عقوبات الآخرة، إنهم يقومون بعمل الخير أو الشر بملء إرادتهم، وحسب غريزتهم. والبعض يعتبرون أنفسهم رجالاً مثاليين وكاملين ويدمرون حياتهم العملية منذ قيامهم بتجاربهم الأولى. والآخرون يكتشفون عذوبة وحلاوة فعل الخير لوجه الخير. وهذا الخير الحرّ، هذا الخير الذي لا تمليه الضرورة، هذا الخير بدافع من مجرد المحبة، يقودهم بصورة خفية وغير محسوسة إلى اقتفاء أثر الله وإلى أن يحذوا حذوه، وينقذهم أخيراً.

والخلاص عن طريق الإيمان بالله، توصل إليه. «راسكولنيكوف» عن طريق تحويل الجريمة. لقد فعل الشر والأذى، واقترف الخطيئة بدافع الكبرياء. وأفسد الحرية التي كانت مقسومة ومخصصة له. وأراد أن يدمر ما كان لديه من نزعة إنسانية. وقد اعتقد أنّ غريزة الخير هذه. هي الأولى التي ستموت في قلبه حالما يجتاز الجدار. والحال هي أن غريزة الخير هي التي قاومت التجربة بشكل أقوى وأفضل، وهي التي تعذبه، وتحنيه نحو الأرض، من أجل أمنه وخلاصه.

والندم يكفر عن الخطأ، ويشتري الحرية. وفي خضوعه الذي استرده «راسكوانيكوف» يفهم نفسه ويفهم الله ويفهم نفسه في الله، في الناس وفي العالم. لقد وجد مكانه، ووجد حياته. «الذي يحافظ على حياته يفقدها والذي يفقد حياته بسببي سوف يجدها». (Matthieu) «متّى».

وهكذا فإن نتيجة «دوستويفسكي» الختامية تلتقي مع كلمات الإنجيل، نفسها.

وحول «راسكولنيكوف» الذي يشكل التركيز، والنقطة الحمراء الساطعة في الكتاب، تدور أقدار ومصائر خاطئين آخرين، مثله، خرقوا

وخالفوا قوانين الأخلاق العامة، وسيغفر لهم، مثله أيضاً. وفي بيت مشبوه وكريه، إنما التقى «راسكوانيكوف» بالسكير «مارمولادوف» زوج «كاترين إيفانوفنا» ووالد «سونيا». و «مارمولادوف» هذا، نذل ومتشدق، فقد وظيفته ومكانته، يبيع كل ما يملك ليشتري بثمنه الخمرة التي يشربها. وقد رهن ملابس زوجته، ويقبل أن تتعهر ابنته الكبرى لكي تكسب النقود التي لم يعد لديه الشجاعة لكي يكسبها. وهو يقيس بنوع من المتعة المعيبة عمق سقوطه، السحيق، واستحالة نهوضه في هذا العالم.

وهو يقول:

«ولكنه سوف يشفق علينا، ذلك الذي يشفق على الجميع والذي فهم كل شيء... وجميعهم، سوف يبدي رأيه فيهم، يقيمهم ويقرر مصائرهم، كلهم، وعندما ينتهي منهم، سوف يستدعينا، نحن أيضاً:

«هيا، اقتربوا أنتم أيضاً! تعالوا أيها السكيرون، تعالوا أيها الفاسقون»!.. ونتقدم جميعنا، دون أي خجل... ويقول لنا: «يا لكم من خنازير، صورتكم هي صورة الحيوان، وتحملون سمته، ولكن، مع ذلك، اقتربوا، فيصرخ عند ذلك الحكماء والعقلاء:

«أيها المولى، كيف تستقبل هؤلاء، أيضاً؟» فيجيبهم: «إذا كنت استقبلهم، أنتم أيها الحكماء، وإذا كنت أستقبلهم أنتم أيها العقلاء، فذلك لأنه لا يوجد بينهم حتى واحد فقط لم يعتقد بأنه يستحق الحياة الآخرة».

وهكذا فإن الخضوع فرصة للتكفير، لمن يمارسه. و «سونيا» العاهرة الصغيرة، تمارسه أكثر من أي شخص آخر. ويقول لها «راسكولنيكوف»: أنت أيضاً خالفت القاعدة، واستطعت أن تخالفيها. فقد رفعت يدك على نفسك أنت دمرت حياتك، حياتك الخاصة بك... (والنتيجة ذاتها تتم على هذا النحو) وبالتالي، فمن المناسب أن نذهب سوية، وأن نسير على درب واحد».

ولكن، في حين أنّ «راسكولنيكوف» يجني زهواً وكبرياء لا حد لهما لكونه دفع ووسع الحدود الإنسانية. فإن «سونيا» الصغيرة، تعرف سقوطها وانحطاطها، وتتقبلهما كمرض مفروض، بالضرورة، ولا بد منه. وهي تتعلق بإخلاص وصدق بالشخص الوحيد الذي لم يزدر بها ولم يحتقرها. وهي تشعر نحوه «بشفقة لا حدود لها» حسب التعبير نفسه الذي استخدمه «دوستويفسكي» وحيال هذا النقاء الذي تحتفظ به في قلب الخطيئة، نفسه، وحيال هذا التواضع الوديع، جثا «راسكولنيكوف» بكل وقار وخشوع:

«ليس أمامك سجدت، بل لقد سجدت أمام جميع الآلام البشرية...» وليس ذلك إلى هذا الحدّ، بسبب تعرضك للعار وبسبب خطيئتك قلت هذا، بل بسبب ألمك الشديد».

وأضاف وهو يتلفظ بكلماته بوضوح، ومقطعاً بمقطع، وكأنه أصيب بنوبة حادة:

«ولكن، قولي لي أخيراً، كيف استطاع هذا الوحل وهذه الدناءة أن يتعايشا لديك مع أكثر المشاعر والعواطف قداسة، والأكثر تناقضاً؟...».

ولصوفيا يعترف، كما مر معنا، «راسكوانيكوف» بجريمته:

فتجيبه.

«ماذا فعلت؟ ماذا فعلت ضد نفسك بالذات؟... كلاّ، كلاّ، لا يوجد الآن أحد في العالم أشد بؤساً وتعاسة منك...».

وجه الخاطئة الشفاف، هذا، وجه امرأة مدانة حسب قانون الأرض، ولكنها معذورة في نظر السماء، هي إحدى مخلوقات «دوستويفسكي» الأكثر سحراً وفتنة. إذ إن تواضعها، ولطفها وعذوبتها، تؤلمك، وتجعلك تشعر بشكل خفي وعجيب أنك مسؤول عما تعانيه من شدة وضيق. فذلك كما لو أنها استدعت إليها كل خطيئة بني البشر وحملتها على منكبيها،

متحملة مسؤوليتها. وكما لو أنها أنقذتنا، بإضاعتها لنفسها. ولكن، بالحقيقة، لن يضيع أحد من أولئك الذين يظنون أنهم قد ضاعوا.لأنّ لا أحد مذنب، أو الجميع...

وإلى جانب «سونيا» هنالك «دونيا»، شقيقة «راسكولنيكوف» «دونيا»، «دونيا»، اللطيفة، القانعة والراضخة، تعرف أيضاً حصتها من الخطيئة المتألقة. هي أيضاً، وقد قبلت أن تبيع نفسها لـ «لوجين» ذلك الوغد البارد، خاطئة وقديسة. خاطئة لأنها تريد أن تستسلم وتعطي نفسها لشخص لا تحبه. وقديسة لأنها لا تفعل ذلك إلا لكي تنقذ أخاها.

ويقول «راسكولنيكوف» لـ «دونيا»:

«هذا الزواج معيب، وعمل سافل ودنيء، وأنا أريد أن أكون سافلاً، ولكني لا أريد أن تكوني سافلة، أنت...».

وهنالك «خاطئ كبير» آخر، هو «سفيدر يغايلوف»، الذي عملت عنده أخت «راسكولنيكوف» كوصيفة، والذي لا حق الشابة بمبادراته وإغراءاته، وهو عديم الأخلاق ويتصف بوقاحة شديدة، فهو لا يؤمن بشيء ولا يخاف من شيء. وبالنسبة له، ليست حياة المستقبل والآخرة سوى «غرفة صغيرة» أي كما يقال: «غرفة الحمام» في الريف، يملأ جوها دخان كثيف، ويعشش العنكبوت في زواياها، وهذه هي كل الأبدية» وهو يحصل على متعته حيث يجدها ولا يهتم بالنتائج التي يمكن أن تجرها عليه نزواته. وقال عن زوجته المتوفاة: «تصوروا هذا: لقد ضربتها ضربتين فقط بالسوط» وقد اغتصب، سابقاً، فتاة صغيرة في الرابعة عشرة من عمرها، كانت صماء وبكماء، فشنقت نفسها، في مخزن الغلال، بعد انصرافه.

و «سفيدر يغاليوف» هذا لحق «دونيا» أخت «راسكولنيكوف» إلى «سان بطرسبورغ» لكي يحاول أن يحظى بها ويتمتع بمفاتنها، فاستدرجها

إلى إحدى الغرف وعرض عليها إنقاذ أخيها الذي اطّلع هو على اعترافه، شريطة أن تسلم له نفسها.

و «دونيا» وقد شعرت أنها وقعت في المصيدة، شهرت مسدساً وأرادت أن تقتل هذا الذي يلاحقها ويحاول إغراءها، ولكنها بعد ذلك ألقت السلاح بقرف واشمئزاز. وهو وقد رأى أنها لا تحبه بما يكفي لكي تقتله، تركها تتصرف بحزن وأسى.

وهذا الرفض، وهذه الكرامة التي عبر عنها الرفض، أرهقاه، هو الذي لم يسبق له أن أحب أحداً على الإطلاق، ولا كره أحداً ها هو يستيقظ على الشغف والحب الشديد. وهو الذي لم يعرف أبداً سوى الإحساسات الجسدية، فقد عرف أخيراً الاقتراب، بل المقاربة الرهيبة للعاطفة.

وفي ذلك المساء، وحتى الساعة العاشرة، ظل يركض، متنقلاً بين الحانات والمواخير».

ثم ذهب إلى منزل «سونيا» وسلمها مبلغاً كبيراً من المال، ثم ذهب بعد ذلك إلى منزل خطيبته، وهي فتاة هزيلة باعه إياها أهلها وقدم للأسرة مبلغ خمسة عشر ألف روبل كهدية. ثم ذهب واستأجر أخيراً غرفة في أحد الفنادق وحاول أن ينام.

ولكنّ الأحلام المزعجة والكوابيس أرهقته. ورأى في الحلم طفلة ترقد في تابوت، وعرف أن هذه الطفلة هي الفتاة التي انتحرت بسببه. وبدا له أيضاً أنه اكتشف فتاة صغيرة في الخامسة من عمرها، ملقاة ومتروكة في زاوية أحد الممرات، فاصطحبها إلى منزله. ولكن، ها هي تلتفت نحوه بوجهها الملتهب، وتبسط له ذراعيها!

فصاح وهو يرفع يده عليها: «آه! أيتها اللعينة»!

ولكنه في تلك اللحظة استيقظ من نومه».

وفيما بعد. وقد انتابته نوبة شديدة من الحمى والقرف، نزل إلى الشارع وانتحر.

«مارمولادوف»، «سونيا»، «دونيا»، «سفيدر يغايلوف» و «لوجين» جميع الأوغاد، كل الفاسقين، وكل التعساء، الذين يحيطون بوجه «راسكولنيكوف»، الكبير، يحملون في أنفسهم عذرهم. فهم يعرفون انحطاطهم وبالنسبة «الدوستويفسكي» القضاة وحدهم هم الذين يستحقون أن يحاكموا. ولا شيء سيئ وخسيس على سطح الأرض سوى الرجل المحروم من الرغبة، وسوى الروح الجافة، وسوى المثقف المغرور والمتكبر. وأيّ جريمة لا تقتل الحق بالحصول على العفو والغفران. والحب ينقذ كل شيء. الحب والتواضع. لأن الحب الإنساني يجب أن يكون متواضعاً.

وقد عيب على «دوستويفسكي» أنه لم يصف ويصورّ سوى مسوخ وأشخاص غير أسوياء ومرضى «Muse De Lazaret»، «Talent Cruel».

والدكتور «تشيج» (Jchyj) الاختصاصي الكبير بدراسة حياة «دوستويفسكي» وأعماله، يعتبر أنّ ربع شخصيات «دوستويفسكي» مصابون بأمراض عصبية ويحصي منهم ستة في رواية «الجريمة والعقاب» واثنين في رواية «الأخوة كارمازوف»، وستة في رواية «الشياطين» وأربعة في رواية «الأبله» وأربعة أيضاً في رواية «المراهق».

وبالحقيقة والواقع، فإن «راسكولنيكوف»، بصورة مستمرة «يرتجف من الحمى» أو «يقوم بالهذيان» و «سفيدر يغايلوف» لديه هلوسات مخيفة، تتعلق باللذة والمتعة. و «مارمولادوف» يقف عند عتبة الهذيان الكحولي. و «كاترين إيفانوفنا» في الطور الأخير من مرض السل.

وبصورة عامة، كما قال «سفيدر يغايلوف»: كل «سان بطرسبورغ» «مدينة مسكونة بأنصاف المجانين».

حقاً، إننا للوهلة الأولى. لا نرى أنّ لدينا شيئاً مشتركاً مع هذه المخلوقات التي تثير الحيرة والاستغراب، ومع ذلك، فهي تجذبنا، كقاع الهاوية. ونحن لم نلتق بهنّ أبداً، ولكنها مألوفة بالنسبة لنا بشكل خفي وعجيب. ونحن نفهمها ونحبها، وأخيراً نحن نعرف أنفسنا فيها. ذلك لأنها ليست غير سوية وغير طبيعية أكثر منا. فهي كائنة ما لا نجرؤ على أن نكونه. وهي تفعل وتقول، ما لا نجرؤ على فعله، ولا نجرؤ على أن نقوله. وهي تعرض في وضح النهار وتحت ضوئه، ما ندفنه ونخفيه، نحن، في خفايا وظلام ضمائرنا.

ولكن، ماذا عن أمراضها؟ وماذا عن مظاهر جنونها؟

إيه، حسن! ولكن هذه ليست سوى أعذار. ولكي يجعل «دوستويفسكي» القارئ يتقبل وجود هذه المخلوقات، ومنطق مناقشاتها وتصرفاتها وأفعالها، اضطر لأن يصورها مصابة بالجنون، بالسل، بالصرع وبالهيستيريا... فقد حملها وأثقلها لكي يخفف عنا، نحن. وقدم لنا هذا التنازل بإلصاقه بطاقة مرضية على ظهورها. وهذه الشخصيات التي ليست سوى أفكار متجولة، زودها بدفتر صحة: «إن ما أرويه هنا مقبول ومرضٍ تماماً، لأنه يتعلق بشخص غير متزن، وغير سوي».

وقد هاجم النقاد، في بداية الأمر، هذه الذريعة، ورفضوها، وأخذوا يتفحصون كتب «دوستويفسكي، كمؤلفات في علم النفس المرضي ولم يفكروا بكشف القناع وإزاحته، والنظر إلى الوجوه الحقيقية لأولئك الوحوش، والمخلوقات المشوهة وغير السوية، ليروا وجوههم الإنسانية، أي وجوهنا الخاصة، نحن.

وقد كتب الناقد «دي فوغويي»؟

«سنتساءل مرة أخرى فيما إذا كان للأدب الحق بأن يهتم ويتوقف كثيراً عند بعض الحالات الاستثنائية المرضية». فأين الاستثناء؟ وأين المرضى؟. ولكي يكون هنالك مريض، يجب أن يكون له جسم.

ومخلوقات «دوستويفسكي» ليس لها أجسام، وهي ليست سوى واسطة نقل لأفكارنا الخاصة، بل ليست سوى أفكارنا الخاصة. وإذا كان العالم الذي تتحرك فيه يشبه عالمنا، فذلك بعملية غش، وبحيلة ماهرة، من قبل المؤلف.

فتلك الغرف الباردة ذات الجو الصقيعي، والمواخير القذرة التي تنتشر فيها الروائح الكريهة، والأزقة المعتمة التي يكتنفها الضباب، والمصابيح المغروسة بشكل منحرف، في الوحل وتلك الملابس الداخلية البالية المنشورة على النوافذ، كل هذا يشكل بالأحرى، إطاراً، بل ديكور حلم من الأحلام، وهذا ليس وصفاً واقعياً، إنها رؤيا أوحى بها كابوس. وحتى التفاصيل التي يوضحها المؤلف بين ركام من الحشرات التي يكتنفها الظلام تصدم وتلفت النظر كإشارات إلى سادية فائقة الطبيعة. ولها معنى خفي وعجيب: «اللوحات التي تمثل آنسات ألمانيات» في منزل المرابية «قطع الخيار المستديرة، والبسكويت المسودّ، والسمكة المقطعة إلى شرحات» في الملهى، «والديوان المغطى بقماش مطبع ومشجر» في منزل «مارمولادوف»، و «ذلك الكلب اللعين الذي يغطيه الوسخ، وذنبه محصور بين قائمتيه، الذي مر به «سفيدر يغايلوف» وسبقه في اللحظة التي كان ذاهباً فيها لكي ينتحر... كل واحدة من هذه التفاصيل تهزنا كالصدمة الكهربائية. ولكنها لا توقظنا، فهي تستخدم فقط لكي تجعلنا نقدر حق قدره الطريق الذي نسير به ونقطعه من الواقع إلى الحلم. وهي وحدة القياس التي يقترحها علينا «دوستويفسكي» من وقت لآخر، بدافع الشفقة، ثم نستأنف سيرنا كمن يمشي في نومه.

ولكي يوفق «دوستويفسكي» جيداً في نشر كتبه، كان عليه أن يناضل ضد ناشره الذي كان يطالبه بإجراء بعض التعديلات. كان «كاتكوف» و «نائبه»: «ليونتييف» يريان أن فصل قراءة الإنجيل يمكن أن

«يسـاء تفـسيره»، وربمـا رأى الـبعض فيـه «بعـض آثـار العدميـة» وألح «دوستويفسكي» مصراً على عدم التعديل، ولكن دون جدوى.

«وبدأت العمل في تعديل ذلك الفصل، وكلفني هذا العمل من الجهد ومن الوقت ما يعادل كتابه ثلاثة فصول».

والحقيقـة هـي أنّ هـذا التـصحيح لم يمنـع النقـاد مـن وصـف «راسـكولنيكوف» بأنـه «عـدمي»: (Nihiliste) وقـد كتـب «ستراخوف» ما يلي:

«وهكذا، فللمرة الأولى، لدينا تحت نظرنـا «عدمي» يتألم، عدمي يعـاني مـن ألم إنـساني بـشكل عميـق». وشبه بعـضهم «راسـكولنيكوف» بالثوري «بازاروف» بطل إحدى روايات «توزغينيف».

والحـال، هـي أنّ بـين «بـازاروف» و «راسـكولنيكوف» المسافة طويلة جداً. إذ إن «بازاروف» رجل جديـد، بطـل زمنـه، وزمنـه فقـط بكـل دقة: إنه عدمي، بينمـا «راسـكولنيكوف»، بالمقابل، هـو لكـل الأزمنة. وليـست مـشكلة اجتماعيـة هـي الـتي تعذبـه، بـل مـشكلة غيبيـة (ميتافيزيكيـة) وهـو لـيس نتيجـة صـيغة فكريـة، بـل نتيجـة اسـتمرارية بـشرية. و «بـازاروف» لا يمكـن تـصوره إلا في إطـار القـرن التاسـع عـشر. بينمـا «راسـكولنيكوف» كـان مـن الممكـن أن يظهـر في القـرون الوسـطى، وكمـا في أيامنـا هـذه أيـضاً. «بـازاروف» رجـل. أمـا «راسكولنيكوف» فهو الرجل.

ومـع ذلـك، فـإن الطـلاب تبعـوا رأي النقـاد وتبنـوه، ولم يـروا في «راسكولنيكوف» سوى أداة لحملة شعراء على الشبيبة الجامعية. وبتوافق غريب، فقد انتحر طالب في موسكو، بعد فترة وجيزة من نشر الكتاب، وأتى هـذا الحـادث ليثبـت وجهـة نظـرهـم وانخفـض ولعهـم «بدوستويفسكي» إعجابهم به، بين عشية وضحاها.

أما الجماهير الواسعة، فقد تلقت رواية «الجريمة والعقاب» بحماسة بسيطة وساذجة. فهذا الكتاب الذي يشبه الرواية البوليسية، والقصة العاطفية، والقضية الفلسفية، أعجب به عدد كبير من الناس وكانوا راضين عنه. ولم يفهم جيداً وبشكل دائم، ولكنهم كانوا يبدون إعجابهم به بسلامة نية. وكان اسم المؤلف على شفة ولسان. وكان «دوستويفسكي» يذكر إلى جانب «تورغينيف» و «تولوستوي»، وكان هذا، بحد ذاته، مجداً عظيماً.

ومع ذلك فإن هذه الشهرة المفاجئة لم تنقذ «فيدور ميخائيلوفيتش» من ارتباكه ومن ضائقته المالية. وقد أخذ يقترب تاريخ الأول من شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، الذي يجب عليه أن يسلم فيه إلى الناشر «ستيلوفسكي» رواية لم تنشر قبل ذلك التاريخ. وهو لم يكتب بعد السطر الأول في هذا العمل الجديد. وفي الأول من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، قام «ميليوكوف» بزيارة «دوستويفسكي»: «كان يسير بخطى واسعة، جيئة وذهاباً في الغرفة، وهو يدخن سيجارة: وبدا مضطرباً جداً. فسألته:

«ماذا بك؟

فأجاب دون أن يتوقف عن المشي:

- هذا مخيف، لقد قضي عليّ.

- ماذا؟ ماذا هنالك، ماذا حصل؟

- أتدري أي عقد يربطني بـ «ستيلوفسكي»؟

- لقد حدثتني عن عقد، ولكني أجهل مواده، ومضمونه.

- إيه! انظر! إذن».

«واقترب من المنضدة، وتناول ورقة أعطاني إياها، ثم عاد ليمشي ويتجول في الغرفة.

«لقد ذعرت، ليس فقط، كان «دوستويفسكي» يتلقى بموجب ذلك العقد، مبلغاً زهيداً عن أعماله السابقة بل كان ملزماً أيضاً بأن يقدم في

مطلع شهر تشرين الثاني (نوفمبر) أي بعد خمسة أشهر من تاريخ توقيع العقد «رواية جديدة لم تنشر سابقاً، تتضمن على الأقل عشر ملازم مطبوعة من القياس الكبير، وعند عدم تنفيذ ذلك، فإن «ستيلوفسكي» يحتفظ لنفسه بحق نشر أعماله المستقبلية دون أي أجر أو أيّ مكافأة.

فسألته: «هل أنجزت قسماً كبيراً من هذه الرواية؟

- لم أكتب منها سطراً واحداً».

و «ميليوكوف» الذي بدا قلقاً ومستغرباً، اقترح جمع بعض الأصدقاء، وتوزيع العمل عليهم، لكل منهم فصل أو فصلين، وتأليف الكتاب بصورة مشتركة.

فردّ عليه «دوستويفسكي»، قائلاً:

«أبداً، إني لن أوقع باسمي على عمل الآخرين».

عند ذلك، نصحه «ميليوكوف» بأن يملي الرواية على سكرتيرة «مختزلة»، ولكن «فيدور ميخائيلوفيتش» بدا متردداً، فهل يستطيع التكيف مع هذه الطريقة الجديدة في العمل؟ وأين سيجد هذه السكرتيرة، التي تستطيع القيام بهذا العمل؟

فصاح «ميليوكوف» بأعلى صوته؟

«أنا سأهتم بذلك. وأدبر هذا الأمر!

وفي اليوم التالي، أي بتاريخ ٢ تشرين الأول (أكتوبر) ذهب «ميليوكوف» لمقابلة «أولشين» التي تنظم دورات تدريبية ودروساً في الاختزال للسيدات، وشرح لها القضية. وبتاريخ ٣ تشرين الأول (أكتوبر)، عند الساعة السادسة مساءً، اقتربت «أولشين» من إحدى طالباتها، وقالت لها، بكل بساطة:

«أنّا غريغوريفنا»، أتريدين أن تقبلي عملاً بسيطاً في الاختزال؟ فقد طلب مني أن أبحث عمن يمكنه القيام بهذا العمل، وقد فكرت بك».

«أنّا غريغوريفنا»

بتاريخ الرابع من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٦٦، غادرت «أنّا غريغوريفنا» سنيتكين» منزل أهلها، في الصباح الباكر، اشترت بعض الأقلام ومحفظة صغيرة من مكتبة في شارع «غوستني دفور» وسارت في زقاق «ستالارنيي» متجهة نحو منزل «دوستويفسكي».

و «أنّا غريغوريفنا» هذه، فتاة شابة في العشرين من عمرها، ذات وجه شاحب تضيئه عينان جميلتان، رماديتا اللون، يشع فيهما المرح والبهجة. وهي تنحدر من أسرة طيبة وعريقة. وأنهت دراستها في مدرسة «ماري» الثانوية، بتفوق وحصلت على ميدالية ذهبية. وإذا كانت أمها قد وافقت على أن تعمل ابنتها سكرتيرة لدى أحد الكتاب، فذلك لأن والدها كان في حياته معجباً جداً بـ «دوستويفسكي». والواقع، كيف يكون، «دوستويفسكي» هذا؟

يجب أن يكون معاصراً لأبي، سيداً بديناً وأصلع، أو طويل القامة، نحيل الجسم وقاسياً؟ وبدا عليها التأثر عندما فكرت بأنها ستتعاون مع مؤلف شهير «كدوستويفسكي». ألن يجدها حمقاء أكثر مما ينبغي؟ وهل سوف تستطيع أن تحدثه عن كتبه؟ ولم تتذكر أسماء بعض شخصيات رواية «الناس الفقراء».؟ فما العمل، لو سألها عن ذلك؟ فهل تعترف بأنها نسيتها، أم أن عليها أن تتظاهر بالشرود، وعدم الانتباه؟

وعند الساعة الحادية عشرة، توقفت أمام مبنى «ألونكين» وهو مبنى كبير مؤلف من عدد لا يحصى من الشقق والمساكن الصغيرة ويذكرنا تماماً بمنزل «راسكولينكوف» في رواية: «الجريمة والعقاب»

«المنزل رقم ١٣؟

فأجابها البواب:

- إنه تحت عقد القبة، في الطابق الثاني.

والمكتب الذي أدخلتها إليه الخادمة، كان غرفة واسعة، متواضعة الأثاث، فيها مكتب وأريكة وبضعة كراسي. ولم تكد تجلس حتى فتح الباب ودخل «فيدور ميخائيلوفيتش» وهو يعتذر عن تأخره، لأن هنالك من احتجزه لبعض الوقت.

وقد سجلت في مذاكراتها: «كان متوسط القامة، شعره كستنائي اللون، فاتح قليلاً، بل وأشقر تقريباً، مضمخ بدهن الشعر ومسرح بعناية. ولكن كانت العينان هما اللتان أدهشتاني أكثر، في ذلك الوجه. كان «دوستويفسكي» يرتدي سترة من الجوخ الأزرق، بدت بالية، بعض الشيء. ولكن ياقة قميصه وطرفي كمية، كانت بيضاء كالثلج».

وتقدم، وهو يبدو متعباً، حزيناً، شارد الذهن، والواقع هو أنه قد تعرض عشية ذلك اليوم لنوبة صرع عنيفة، ولم يكن قد ارتاح تماماً من تأثيرها بعد.

وبصوت خافت ينم عن الكآبة والأسى طلب من «أنّا غريغوريفنا» أن تجلس وأن تكتب ما يمليه عليها مما نشر في صحيفة «المراسل الروسي». وكان يقرأ بسرعة كبيرة، فاحتجت قائلة.

«لا أحد يتكلم هكذا، أبداً»!

وفيما بعد، وبينما كانت تنقل النص المختزل إلى الكتابة الدارجة والعادية، كان يمشي في الغرفة بكل الاتجاهات، متذمراً:

«ما أطول هذا! أيمكن أن يحتاج نسخه لكل هذا الوقت»؟

وبعد أن تفحص العمل، لاحظ أن سكرتيرته قد نسيت نقطة، وأنها لم تبين بوضوح إحدى إشارات التشكيل والتحريك.

«هذا غير مقبول! غير مقبول أبداً، على أيّ حال، يستحيل عليّ أن أملي شيئاً اليوم، ارجعي غداً».

وصاحت «أنّا غريغوريفنا» عند عودتها إلى المنزل: «آه! يا أمي! لا تحدثيني عن «دوستويفسكي»!

وعادت في اليوم التالي، وهذه المرة، كان العمل قد انتظم بشكل أفضل. و «فيدور ميخائيلوفيتش» أخذ يملي، وقد راق مزاجه الفصول الأولى من رواية «المقامر». ومن وقت لآخر، كان يتوقف ليروي للفتاة بعض ذكرياته: طفولته، توقيفه، منصة الإعدام، سيبيريا، وكانت تصغي إليه وهو يتكلم، وهي مسرورة ومتأثرة، فهذا الرجل الذي عانى وتألم كثيراً وفكر كثيراً، ها هو مع ذلك يهتم بها.

«كم صفحة أنجزنا بالأمس؟ هل سننهي العمل في اليوم المحدد»؟

كان العمل في الرواية يتقدم، وأخذ «فيدور ميخائيلوفيتش» يطمئن شيئاً فشيئاً. كان يشعر بمتعة غريبة وهو يعمل بجانب هذه الفتاة الشابة النضرة واليانعة جداً، والبالغة العذوبة واللطف. وإملاؤه عليها رواية غرامية، بحد ذاته، كان يضيف إلى المغامرة حرجاً عذباً. وبعنف وبمتعة شديدة يذكر «فيدور ميخائلوفيتش» وجه «بولين سوسّلوفا» الذي يتسم بالكبرياء، أمام هذه «الطفلة» المجتهدة. وأعطى حتى اسم خليلته السابقة، إلى بطلة الرواية.

والمعلم «أليكسي إيفانوفيتش» الذي يروي القصة، مغرم بشكل جنوني بـ «بولين» ابنة الجنرال «زاغور يانسكي»، الجميلة. وهي على علم بحب الشاب لها، وتسمح له بأن يحدثها عنه، ولكنها تعاملها باحتقار.

ويقول لها «أليكسي ايفانوفيتش»: «إيه، حسناً! أنا اعترف بأني إذ أكون عبدك فهذا أمر يسرني ويحقق لي متعة كبيرة، فهنالك لذة وأيّ لذة عند آخر درجة من المذلة والانحطاط... استغلي عبوديتي، استغليها واستفيدي منها! أتعلمين أني في يوم أو في آخر سوف أقتلك»؟

وعندما أوضحت له «بولين» أنها بحاجة للنقود، ذهب إلى الكازينو وقامر، بلعبة الروليت بمبلغ السبعمائة «فلوران» التي سلمتها له: فانتابته الحمى بشكل مفاجئ. «شعرت بما يشبه الرغبة بتحدي القدر، وبأن أسخر منه، وأن أمد له لساني». وخسر المبلغ كله، وغادر القاعة، حائراً منذهلاً ولكن «بولين» ألحت عليه، فعاد إلى الكازينو. وابتسم له الحظ هذه المرة: «كان صدغاي مبللين والعرق يتصبب عليهما، ويداي ترتجفان، وعرض علي بعض البولونيين الخدمة لكي يساعدوني، ولكني لم أكن أصغي لأحد، فالحظ لم يدع لي فرصة لذلك، وفجأة حدث هرج ومرج وتعالت الصيحات، والضحكات، وكانوا يصرخون: «مرحى! مرحى»! بل وكان البعض منهم يصفقون، فقد ربحت آنذاك ثلاثين ألف «فلوران» وأغلق البنك حتى اليوم التالي».

وأسرع إلى الفندق، ودخل إلى غرفته حيث كانت «بولين» تنتظره، فقالت له:

«لا أريد أن آخذ هذه النقود، دون أن أمنحك مقابلها شيئاً»

وأخذت تداعبه وتقبله، واستسلمت له.

وكانت تردد:

«أنت لطيف، لطيف جداً... حسناً! هل ستعطيني نقودي أي الخمسين ألف فرنك، الخاصة بي؟

وعندما حصلت عليها، ألقتها على وجهه وهربت.

بعد انصراف «بولين» سافر «أليكسي ايفانوفيتش» إلى باريس، حيث أنفق نقوده، مع إحدى النساء المغامرات، وفيما بعد، يعود إلى المقامرة لتأمين معيشته، فيخسر، ويربح ويخسر من جديد...

والحقيقة أنّ المرء ينتابه إحساس غريب، عندما يكون وحيداً، في أرض غريبة، وبلاد أجنبية، دون أن يعرف فيما إذا كان سيحصل على ما يأكله في ذلك اليوم، فيجازف بآخر «فلوران» يملكه، الأخير، بالضبط».

وتنتهي الرواية بهذه الجملة التي تثير الكآبة:

«غداً، غداً، كل شيء سينتهي»،

وبالإضافة إلى وجهي «يولين» و «أليكسي ايفانوفيتش» المركزيين، تضم رواية «المقامر» شخصية كبيرة الأهمية، تستحق الذكر، والإشارة إليها: هي خالة الجنرال، العجوز الغنية جداً: الـ «بابولنكا» التي ينتظر موتها بفارغ الصبر جميع أفراد الأسرة. وهي تحلّ فجأة، ذات يوم في مدينة القمار، مع حاشية مؤلفة من عدة خدم، وبناءً على أمرها، تنقل على كرسي متحرك إلى الكازينو، وهناك تبدأ المقامرة بحماسة: كانت الجدة لم تعد تستقر في مكان، وقد أخذت توجه نظراتها الملتهبة إلى الكرة التي كانت تقفز عبر أقسام الصينية المتحركة. بل وضربت المنضدة بقبضة يدها، عندما أعلن المشرف على اللعب ستة وثلاثين بدلاً من الصفر التي كانت تأمل ظهوره» وبعد أن حققت ربحاً مهماً، التهمته بسرعة خسارة ضخمة، غادرت الـ «بابولنكا» المدينة، بعد أن أفلست تماماً.

هذه الرواية السريعة والمتسارعة الأحداث والتي كتبت على عجل ندرك عند قراءتها أنها أمليت بسرعة وكيفما اتفق، تطلعنا جيداً على ولع «دوستويفسكي»، المزدوج: «بولين» والقمار.

ويعتقد القارئ أنه يطالع وهو يتصفح رواية «المقامر»، نسخة مطابقة لمذكرات «السوسّلوفا». جو حب العبادة غير المشبع، نفسه، قفزات المزاج نفسها، التحولات العنيفة والمدلهة، نفسها.

يقول بطل الرواية لمحبوبته:

«في حضورك أفقد كل كرامتي». وكان على «دوستويفسكي» أن يردد كثيراً هذه الجملة إلى «بولين».

وقد كتب «دوستويفسكي» في رواية «المقامر»:

«ضممتها بين ذراعي، قبلت يديها وقدميها، وجثوت على ركبتي أمامها».

وكتبت «سوسّلوفا» في مذكراتها:

«وقع عند قدمي، مقبلاً، ضاماً إليه ركبتي، وهو ينتحب بصوت عالٍ، وأخيراً، صاح: «لقد فقدتك، وكنت أعرف وأتوقع ذلك.

ويمكن إيراد الكثير من المقارنات. والأقوال المتشابهة.

أما ولعه بالمقامرة وبلعبة «الروليت»، فإن «دوستويفسكي» يشرحه لنا بعبارة مثيرة، تلفت النظر، «شعرت بما يشبه الرغبة بتحدي القدر، وأن أسخر به، وأن أمدّ له لساني». «الروليت» تسمح له بالمجازفة والتغلب على القدر، كما يتغلب القدر عليه وبفضل «الروليت»، اجتاز «الجدار». وسقط في مجال اللا معقولية ومخالفة المنطق والإمكانية التامة والشاملة والمصادفة و: «اثنان في اثنين يساويان أربعة» لم تعد تعني شيئاً. وأكثر الحيل والطرق براعة ألغيت بنزوات الحظ، التي لا يحصى عددها. ففي القمار، وفي القمار وحده، لا شيء يتعلق بأي شيء ولا يتوقف عليه.

والمقامرة، هي أول تجربة للحرية في العالم الفيزيائي.

وبتاريخ ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٦٦، وبعد خمسة وعشرين يوماً من العمل الجاد والموفق، أصبحت رواية: «المقامر» جاهزة

للطباعة. وفي اليوم الأول من تشرين الثاني (نوفمبر)، ذهب «دوستويفسكي» لمقابلة «ستيلوفسكي» وتسليمه مخطوطة الرواية. ولكن الناشر كان قد استبق الحدث: فقد سافر إلى الريف، وخدمه يجهلون موعد عودته، وفي دار النشر، رفض رئيس المصلحة قبول الرواية بحجة أنه لم يتلق أي أمر بشأنها. وعند ذلك خطرت «لدوستويفسكي» الفكرة بأن يذهب إلى مفوضية المنطقة، ويضع مخطوطته بين يدي المراقب، مقابل بطاقة موقعة ومؤرخة، بشكل رسمي.

وبذلك تكون الحيلة قد أحبطت واللعبة فشلت، لأن الشرط قد نفذ، ومع ذلك، فإن «دوستويفسكي» لم يكن راضياً ومرتاحاً تماماً.

كان قد اعتاد على تلك الفتاة التي كانت تأتي كل يوم إلى منزله وتناقشه بشؤون أبطال روايته، بحماسة الشباب. ومعها كان يبدو له العمل سهلاً ومسلياً، وكان يحلو بقربها التفكير والكلام، والعيش.

وكانت فكرة فراقها الفوري والمفاجئ، تحزنه. فقام بزيارة أمها، وعرض على الفتاة أن «تشاركه» في العمل، لإنجاز النصوص الأخيرة من رواية «الجريمة والعقاب». فوافقت «أنّا» على الفور وبتاريخ ٨ تشرين الثاني (نوفمبر)، أخذت تستعد لاستئناف عملها لدى الكاتب.

فاستقبلها وهو في حالة من الاضطراب الشديد، كان شاحب الوجه، منفعلاً جداً. نزع قبعتها عن رأسها واقتادها نحو الأريكة. وأخذ ينظر أمامه إلى ذلك الوجه النضر والنقي، الذي لم يؤثر به الزمن، ذلك الوجه البسيط الذي يمثل الفوز والانتصار. كم هي فتية! ولكم يحبها! ولكن بأي حق سيعمد إلى أن يعترف لها بحبه؟ هو الذي يبلغ عمره أكثر من ضعف عمرها، وهو المريض، الفقير الذي ترهق كاهله الديون؟ وانتابه الإحساس نفسه الذي شعر به حيال «أنّا كورفين - كروكوفسكايا»: فهو يخشى أن يقابل بالرفض. بل لقد كان متأكداً أنه سيقابل بالرفض. وقال:

«أصغي إلي، لقد فكرت برواية جديدة. ولكن نهايتها تسبب لي بعض الارتباك، لأن الحالة النفسية لفتاة شابة، لها علاقة قوية بها. ولو أني كنت في موسكو، لاستعنت بابنة أخي: «سونيا»، واليوم أرجوك أنت أن...»

وروى لها قصة رسام «رجل لم يعد شاباً، وباختصار هو رجل في مثل سني»... وهذا الرسام يعيش حياة شاقة، فقد والده، وفقد زوجته، وأقاربه، وأخته التي يحبها ويفضلها على الجميع. وهو وحيد، حزين وبائس، ومع ذلك، فهو متعطش لسعادة جديدة. والحال هي أنه في تلك اللحظة الحاسمة في حياته، يلتقي بفتاة وديعة ولطيفة، ذكية وحساسة: «فهل تعتقدين أنها يمكنها أن تحبه بصدق وإخلاص؟... ضعي نفسك مكانها، لدقيقة واحدة، وافترضي أن هذا الرسام هو أنا، وأني أبوح لك بحبي، وأني اطلب منك أن تكوني زوجتي، قولي، بماذا يمكن أن تجيبي»؟

وتوقف، منزعجا من جرأته. ألم يفسد صداقة غضة ولطيفة جداً بكلامه هذا؟ ألم يبعث الخوف في نفس هذه الفتاة، التي لم تكن تشك بشيء؟ ولكن، كانت «أنّا غريغوريفنا» وقد أخذت تنظر إليه بهدوء يتسم بالفرح، ثم قالت، بكل بساطة:

«سأجيبك بأني أحبك، وأني سأظل أحبك طوال حياتي»...

عائلة «ميشيل»، التي تكفّل «دوستويفسكي» بتأمين معيشتها، و «بول ايسّاييف» ربيبه، ابن زوجته المتوفاة، رأوا أنّ زواج الكاتب الجديد يهدد مصالحهم. فحاولوا إقناعه أنه من غير المعقول بل ومن المعيب، بالنسبة «لرجل تقدمت به السن» أن يتزوج مثل هذه «الفتاة الشابة» وهذا اللوم وهذه التعليقات كانت تعذب «فيدور ميخائيلوفيتش» لأنها كانت تتجاوب تماماً مع أكثر شكوكه ومخاوفه، حميميةً.

وقد سجلت «أنّا غريغوريفنا» في دفتر يومياتها، ما يلي:

«كانت فتوتي وصغر سني تقلقانه بشكل واضح».

كما كتب «دوستويفسكي» فيما بعد إلى «بولين سوسّلوفا». يقول لها:

«لاحظت أن سكرتيرتي تحبني كثيراً وبصدق وإخلاص، وإن كانت لم تقل أي شيء، على الإطلاق، ومن جهتي، فإن إعجابي بها يزداد يوماً بعد يوم. ولأني، منذ وفاة أخي، أصبحت الحياة ثقيلة علي، وأخذت أشعر بالسأم، فقد اقترحت عليها أن تصبح زوجتي، فوافقت على اقتراحي... وفرق السن كبير: «عشرون، وأربعة وأربعون»، ولكني أزداد كل يوم اقتناعاً بأنها ستكون سعيدة: فهي لديها قلب طيب وعاطفة قوية، وتجيد الحب».

ورسالته إلى «الصديقة الأبدية» تعبر عن ارتباك، وعن خجل مرضيين. فهذه السعادة السهلة والمجانية، وهذا الهدوء، وسنّ خطيبته، الغض... كل ذلك كان يزعج «دوستويفسكي» ويقلقه، كما لو أنه كان يهم بارتكاب عمل قبيح. ثم، بعد أن يرسو ويتوقف في المرفأ، ألن يأسف ويندم على خوضه عباب البحر وتعرضه لعواصفه الهوجاء؟ وماذا عن كل هؤلاء الناس، من حوله، الذين يبدون له دهشتهم؟ هؤلاء الناس الذين يضحكون ويهزؤون به، دون شك، حالما يوليهم ظهره، الذين يعتبرونه ويعاملونه على أنه «عجوز مجنون»، وأنه «ساديّ»!... كل هذا لا يبدو أنه يهمه!

فبتاريخ ١٥ شباط (فبراير) سنة ١٨٦٧، الساعة السابعة مساء، عقد قران «فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي» على «أنّا غريغوريفنا» في كنيسة «الثالوث الأقدس» وكتب «فيدور ميخائيلوفيتش» إلى «أنّا غريغوريفنا» في أول رسالة وجهها لها، بمناسبة عيد ميلادها:

«أنت كل شيء بالنسبة لي في المستقبل، أنت أملي وإيماني، أنت سعادتي، وكل شيء». والتي تلقت هذا التصريح بدت متأثرة وقلقة: فهل ستكون على مستوى مهمتها؟ وهل ستكون جديرة بتحمل المسؤولية التي ألقيت فجأة على كاهلها؟

لقد كانت وفية ومخلصة وعاقلة، كما كان يرغب ويتمنى. فهي منذ الخامسة عشرة من عمرها، كانت معجبة بزوج المستقبل وظلت معجبة به طوال حياتها، دون أن تفهمه كثيراً، وحاولت على الدوام أن تجعله سعيداً.

وكانت قد كونت لنفسها عنه صورة ملائمة ومريحة. فهي البرجوازية الصغيرة، لم تر فيه سوى برجوازي صغير. وهي الساذجة والمحافظة، بل والمتخلفة قليلاً، فقد صورته بملامح رب الأسرة الأريحي والطيب الخالي من كل العيوب، والمنزه عن جميع الغرائز المنحطة، محب ومحبوب، طيب للغاية وبسيط جداً بين جميع أولئك الناس المعقدين والأشرار. ومن صورة من عمل الرسام الشهير «رامبرنت» صنعت صورة مزخرفة ومزينة، ومن مخلوق عنيف وغامض، صنعت بطلاً للتمثيليات الهزلية التي تقدم لتسلية الأطفال الجانحين.

آه! كلا، إنها لم تكن ذكية جداً، كما أنها لم تكن متعلمة جيداً، على الرغم من حصولها على الميدالية الذهبية، ولكنها كانت تتمتع بحس عملي، يتغلب على جميع التجارب والصعوبات. وهي سكرتيرة بطبيعتها وكأنها خلقت لهذا العمل. وقد قال عنها أحد أصدقائها: «لو أنها لم تتزوج «دوستويفسكي» لكان من الممكن أن تفتح مكتباً لتبديل العملات حسب طريقة ومنظور «Newsky» «نيوسكي».

وهي لم تجلب إلى حياة «دوستويفسكي» أسباب اليأس وتحقيق النشوة، التي عودته عليها النساء. وهي لم تغن كنز وذخيرة مذكراته ومعلوماته، ولم تضف عليها شيئاً. ولكنها رتبت ونظمت تلك الذخيرة وذلك الكنز، باهتمام وعناية ربة البيت المثالية.

كانت شديدة التدقيق، مقتصدة، فاضلة، تحب دفاتر الحسابات، وتسجل في دفتر يومياتها حتى ثمن فنجان القهوة بالكريمة، أو قطعة

«الجاتو». وتتفحص عقود زوجها، تسهر على دفع الأجور، وتراقب ذلك بدقة، تحبط أعمال الدائنين وتفشل محاولاتهم النيل من زوجها، وهي تنسخ، ترتب وتنظم، منهمكة بالعمل في فلك ومدار العبقرية، كربة البيت في مطبخها، فهي نموذج المرآة التي «ترتب كل شيء ينبو عن مكانه أو يبدو مبعثراً في المنزل».

وهي، بطريقة ما، قد نفضت الغبار عن حياة «دوستويفسكي» وإلى جانب هذا الرجل العظيم، لم تكن الملهمة، بل الأخت المحبة، راهبة الشفقة والرحمة، ورسول الراحة والأمان. والحال، هي أن «دوستويفسكي» كان بحاجة إلى الراهبة التي تشفق عليه أكثر من حاجته إلى ملهمة.

وكانت بدايات «أنّا غريغوريفنا» في مرحلة الزواج، شاقة، إذ إنّ أخت زوجها وزوجة أخيه وأولادها، وابن زوجته «بول ايسّاييف» الولد الخبيث، الكسول والمتشدق، كل هؤلاء اعتبروا أنفسهم متضررين بسبب زواج «فيدور ميخائيلوفيتش» وأخذوا يهاجمون بعنف الزوجة الجديدة التي اعتبروها دخيلة على الأسرة.

و «بول ايسّاييف» الذي يقيم في منزل «دوستويفسكي»، أخذ يمنع الخدم من إطاعة ربة البيت الجديدة، ومن الانصياع لأوامرها ولتعليماتها، وكان يسرق السكر، ويلتهم خلسة القشدة (الكريمة) المخصصة لقهوة «عمه»، ويصرح وهو يهز كتفيه:

«إيه حسناً! يا بابا، عندما كنت أشرف على شؤون البيت لم يكن يختل شيء فيه»!

وكان يشكو «لدوستويفسكي» من الاهانات الوهمية والخيالية التي كانت لا تكف الزوجة الشابة عن توجيهها إليه، وهو «الابن» فكان «دوستويفسكي» يعاتب «أنّا غريغوريفنا» ويوبخها بلطف، على ذلك:

«أنّيت، كفي عن الخصام مع «بول» ولا توجهي له أيّ إهانة، إنه ولد طيب.

وأخذت المشاحنات العائلية تتزايد، شيئاً فشيئاً، وتأثرت بذلك صحة «فيدور ميخائيلوفيتش» كثيراً، وأخذ يتعرض لنوبات صرع بالغة العنف والشدة.

وبهذا الخصوص، كتبت «أنّا غريغوريفنا»، ما يلي:

«أمسكت «فيدور ميخائيلوفيتش»، وأجبرته بكل ما لديّ من قوة على الجلوس على الأريكة، ولكن كم كانت دهشتي شديدة عندما رأيت الجسم الذي فقد الإحساس، ينزلق على الأرض، في الوقت الذي لم تعد لدي القوة على الإمساك به ومنعه من السقوط، فدفعت المنضدة التي كان عليها مصباح مشتعل، كي أفسح المجال للمريض، وأتيح له إمكانية التمدد على أرضية الغرفة، الخشبية، ثم جلست بالقرب منه، طوال الوقت الذي استمرت فيه التشنجات، واضعة رأسه على ركبتيّ...

«واحسرتاه! فالأمر الذي سبب لي حزناً شديداً، هو أنه أصيب بعد قليل بنوبة جديدة أكثر عنفاً بكثير من الأولى. ولم يسترد وعيه وهو يصرخ من الألم، إلا بعد ساعتين. كان مشهداً مخيفاً، يبعث على الحزن والأسى»!

وبهذا الشأن، كتب «فيدور ميخائيلوفيتش» إلى «مايكوف»:

«لا شيء يمكن ألا يحتمل وألا يطاق، أكثر من الشعور بهذا الارتجاج في الأعصاب وفي الدماغ، ومعرفته. لقد بدأت، بالحقيقة أفقد الذكاء، والقدرة على التفكير».

ونصحه الأطباء بالسفر إلى الخارج ولم تتردد «أنّا غريغوريفنا» في تأييد مشروع هذا الهروب الترفيهي. و «دوستويفسكي» نفسه لم يكن

ليطلب شيئاً أفضل من الهرب، لأن دائنيه كانوا يضايقونه بإلحاحهم الشديد.

ومع ذلك، فإنه عندما أعلن عن رغبته بالسفر لأفراد الأسرة، قوبل باحتجاج شاركوا به جميعهم: ألم يسبق له أن وعدهم، بأنه سيستأجر دارة «فيلا»، يذهب أفراد الأسرة لكي يرتاحوا فيها في فصل الصيف؟ وإذا كان قد عدل عن هذه الفكرة فعليه أن يعوض عليهم وأن يترك لهم من النقود ما يكفي لتأمين معيشتهم أثناء غيابه. وأخذ كل منهم يحسب ما يحتاج إليه، فبلغ المجموع ألف ومئة روبل.

والحال، هي أنّ «دوستويفسكي» لم يكن يملك، بالضبط سوى ألف روبل، فقال لزوجته:

«أنت ترين، يا عزيزتي «أنّيت» أن القدر ضدنا، فإذا سافرنا في الربيع إلى الخارج، فإننا سنحتاج ألفي روبل، ونحن بالكاد نملك نصف هذا المبلغ ولكننا إذا بقينا في روسيا، فسوف نستطيع العيش باطمئنان لمدة شهرين»...

وفي غضون ذلك، عاود الدائنون هجومهم، وأخذوا يهددون «دوستويفسكي» بالسجن.

وقد كتب بهذا الخصوص:

«ربما كان السجن من أجل الديون مفيداً جداً بالنسبة لي، من وجهة نظر معينة، لأني أستطيع أثناء ذلك تجميع المعلومات والأفكار والوثائق أي جميع المواد اللازمة لكتاب ثانٍ عن «منزل الأموات» أي ما يعادل ربحاً يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف روبل. ولكني كنت قد تزوجت للتوّ، ثم هل يمكنني أن أتحمل حرارة الصيف في «بيت تاراسوف» (السجن من أجل الديون)»

فاقترحت «أنّا غريغوريفنا»، بناء على نصيحة أمها، على «دوستويفسكي» أن ترهن جميع المفروشات التي تملكها هي، لتسديد

نفقات السفر، مفضلة أن تتخلى عن جهاز عرسها كله، على أن تتحمل المضايقات التي يسببها لها أفراد الأسرة. فأي حلّ آخر بقي هنالك، طالما أن رجال الأمن، يمكن أن يأتوا بين يوم وآخر لإلقاء القبض على «فيدور ميخائيلوفيتش». فقبل «دوستويفسكي» على مضض أول تضحية تقدمها له زوجته الشابة.

وبتاريخ ١٢ نيسان (أبريل) أتى بعض الخبراء لتقدير قيمة المفروشات البائسة التي تخص «أنّا غريغوريفنا». وبتاريخ ١٤ نيسان، الساعة الخامسة، بعد الظهر، غادر الزوجان المدينة التي لن يعودا إليها إلا بعد أربع سنوات.

دوستويفسكي ولعبة الروليت

كنت وحيداً، دون ثروة، مع مخلوقة شابة، تتلقى بفرحة ساذجة فكرة السياحة والتجول في العالم برفقتي، ولكني كنت أرى أيضاً أن هذه الفرحة الساذجة تكشف عن حماسة واندفاع وعن نقص في الخبرة والتجربة، وهذا أمر كان يزعجني ويعذبني. وكنت أخشى من أن تشعر «أنّا غريغوريفنا» بالملل، وهي بقربي وبرفقتي».

من «سان بطرسبورغ» ذهب الزوجان إلى برلين، مروراً بـ «فيلنا»، ولكن برلين بدت «لفيدور ميخائليوفيتش» مدينة باردة جداً، فارغة، ومملة للغاية لدرجة أنه لم يمكث فيها سوى ثمانية وأربعين ساعة، وسافر بسرعة إلى «دريسد»: («لقد أثار هؤلاء الألمان المكتئبون والمتجهمو الوجوه، أعصابي لدرجة أثارت سخطي وغضبي»). ومنذ أن وصل «دوستويفسكي» إلى «دريسد» استأجر منزلاً فيه ثلاث غرف. وأسرع فاشترى لزوجته قبعة مصنوعة من القش الإيطالي الأبيض، مزينة بشرائط سوداء، والتي كانت تسمى «قبعات اتبعوني».

وقد تحدثت «أنّا غريغوريفنا» عن ذلك، وكتبت في مذكراتها:

«الأمر الذي أدهشني كثيراً، أن زوجي لم يكن يستاء أو ينزعج من قيامه بمثل هذه المشتريات». وبسرعة كبيرة، وضع «آل دوستويفسكي» برنامجاً ثابتاً لتنظيم الوقت: كان «فيدور ميخائيلوفيتش» يعمل في الليل، ثم

ينام فلا يستيقظ إلا في الساعة الحادية عشرة، لتناول طعام الإفطار. وعند الساعة الثانية بعد الظهر، يرافق زوجته إلى صالة عرض اللوحات الفنية، ويشرح لها لوحة «المادونا» لرفائيل ولوحة «تيتيان» (Titien) «المسيح وقطعة العملة» ولوحة من أعمال الرسام «رويسدايل»: (Rusdaél) تحمل اسم «الصيد».

وفي الساعة الثالثة يتناول الزوجان طعام الغداء في أحد المطاعم، ويتابعان تمضية يومهما بنزهة في الحديقة الكبيرة، حيث تعزف إحدى الفرق الموسيقية بعض الألحان والمعزوفات الخفيفة».

وقد كتبت «أنّا غريغوريفنا»: «كان «فيدور ميخائيلوفيتش» يتمتع بثقافة موسيقية جيدة، وهو معجب بـ «بيتهوفن» وبـ «منديلسون» وبـ «روسيني» ويقدرهم حق قدرهم، ولكنه لم يكن يطيق «موزار».

وعند الساعة التاسعة، كان «فيدور ميخائيلوفيتش» وزوجته يعودان إلى مسكنهما لتناول الشاي. وقد اعتاد «دوستويفسكي» أن يقرأ قليلاً قبل أن يبدأ العمل. وكانت «أنّا غريغوريفنا» تفتح دفتراً صغيراً، وتسجل فيه انطباعاتها اليومية. بالإشارات والرموز الاختزالية.

وكان يوجد كل شيء في هذا الدفتر الذي يتضمن مذكرات ساذجة وظريفة لفتاة شابة: أطباق وجبات الطعام، ثمن البيض وغيره من المواد الغذائية، النص الممتع للأحاديث والثرثرات، ووصف مظاهر نوبات غضب العزيز «فيديا»، وكذلك الحديث عن بعض رواد المطاعم وطريقة جلوسهم وتناولهم الطعام والشراب. ومما يدهش عند التفكير بأنه في الوقت الذي كان فيه يحضر كتابه «الأبله» كانت زوجته، صديقته، والمؤتمنة على أسراره، تسجل في دفترها الصغير:

«استيقظت باكراً، فنهضت، وأخذت اغتسل، فاستيقظ «فيديا» ولكنه لم يزعل مني». أو أنها تكتب: «بالأمس أيضاً، عندما أعارني «فيديا» مشطه، طلب مني أن أداريه وأعتني به».

والحال، هي أن شعري كان مشعّثاً جداً، والذي حدث هو أني نسيت كل ما أوصاني به، وكسرت ثلاثة أسنان من المشط، وأن أسرح شعري. فأخذت أبكي، وفكرت بمغادرة المنزل، حاملة المشط معي، وأن أظل أمشي حتى المساء».. ودون أن تبدر منها أيّ إشارة إلى ولادة العمل الجديد. كانت «أنّا غريغوريفنا» تقبع خارج مختبر «دوستويفسكي». فقد أحبت الرجل، دون أن تتفهم الفنان.

ولو أنها تزوجت بقالاً، لما كتبت شيئاً يختلف عما كتبته!

وكان زوجها يقول لها، أحياناً: «عزيزتي أنّيت، إنني يمكن أن أعطي الكثير لكي أعرف ماذا تسجلين هنا، بهذه الخطوط المعقوفة»؟

ونحو منتصف الليل، كان «فيدور ميخائيلوفيتش» يأتي ويقبل زوجته قبل أن يعود إلى عمله. ويجلس على حافة السرير. وهذه اللقاءات الليلية كانت المكافأة للزوجة الشابة. وقد كتبت «أنّا غريغوريفنا» عن ذلك، فقالت: (لم تكن تلك أكثر من بعض البوح والمسارات المطولة، بعض الكلمات العذبة واللطيفة، وضحكات وقبلات».

ويغادرها أخيراً، تاركاً هناك تلك الفتاة، بل تلك الطفلة الجاهلة، واللطيفة، ويتجه نحو المنضدة، حيث تنتظره مذكرات وملاحظات وأوراق روايته المقبلة.

«دوستويفسكي» هرب من روسيا لكي يعمل، ومع ذلك، فإن عمله لم يكن يتقدم. ومن جديد، أخذ هذا الهروب إلى المنفى، الذي تمناه كثيراً، يعذبه آنذاك.

وقد كتب، بهذا الشأن إلى «مايكوف»، قائلاً:

«إن روسيا ضرورية بالنسبة لي وليس لي غنى عنها، ضرورية جداً من أجل عملي الأدبي... وكسمكة حرمت من الماء، فإني أفقد كل قواي وجميع وسائلي»...

ماذا أتى يعمل في «دريسد»؟ وأين سيجد النقود لكي يعود إلى «سان بطرسبورغ»؟ هنالك أمل وحيد: «لعبة الروليت». ومع ذلك، فإنه لم يكن يجرؤ بعد على أن يحدث زوجته عنها. ولكن مزاجه كان قد ساء. وأصبح غضوباً وحقوداً، يهاجم الزواج والألمان، بل والمناظر، وكل ما يراه ويقع تحت نظره.

وقد سجلت «أنّا غريغوريفنا» هذه الملاحظة:

«إنه ينتقد كل شيء: لماذا مماشي وممرات الحديقة، كلها هكذا مستقيمة؟ لماذا توجد بحيرة في هذا المكان، لماذا هذا، ولماذا ذاك»؟

وأخيراً، قرر «فيدور ميخائيلوفيتش» أن يطلعها على فكرته، فوافقت عليها وأيدتها، لأنها كانت تخشى أن يتشاجر معها أو أن يصاب بنوبة صرع حادة لو أنها رفضتها. وقد أيدتها مخالفة بذلك عقلها وقلبها، وهي تعلم أنها تصرفت ضدهما.

وكانت حمى القمار قد استولت على «دوستويسفكي» وسيطرت على ذهنه وعلى حواسه تماماً، لدرجة أنه يقبل أن يترك زوجته الشابة لوحدها في «دريسد» في مدينة مجهولة من قبلها ولا تعرف أحداً فيها، ويذهب مسرعاً إلى «همبورغ».

«فيديا» قال إنه إذا ربح فإنه سيأتي ليصطحبني، وإننا سوف نقيم في «همبورغ» فكم سيكون ذلك جميلاً! وفضلاً عن ذلك، ربما كان من الأفضل الا يذهب أبداً».

وسافر أخيراً، في ١٦ أيار (مايو) عند الساعة الثالثة بعد الظهر، ورافقته زوجته إلى المحطة، وهي تذرف الدمع.

وفي اليوم التالي أي في ١٧ أيار، وفور وصله تقريباً إلى «همبورغ»، كتب لها، يقول:

«لماذا فارقت عزيزتي «أنيت».. لقد أدركت أني لا أستحق ملاكاً بهذه العذوبة، وبهذا الجمال، وبكل هذا النقاء الذي تتحلين به، وأنه، فوق

كل ذلك، يؤمن بي. فكيف استطعت أن أفارقك، وأتركك بمفردك؟ وإلى أين أنا ذاهب؟ ولماذا ذهبت؟.. الله وهبني إياك، كي أستطيع بواسطتك التكفير عن ذنوبي وخطيئاتي الضخمة، بتقديمك له، نامية، محفوظة، وخالصة من كل ما هو دنيء ومنحط، يمكن أن يسيء إلى الروح وإلى النفس، وأن يقتلهما. وأنا.. أنا آتي لأزعجك وأنغص عليك عيشك بأشياء وأمور بليدة وسخيفة، كسفري إلى هنا»!

وبتاريخ ١٨ أيار (مايو) رسالة جديدة: «بدأت ألعب وأمارس القمار، منذ الصباح، وعند الظهر كنت قد خسرت ستة عشر ليرة.. وبعد الغداء، عدت وفي نيتي أن أكون متعقلاً بقدر ما يمكنني، وحمداً وشكراً لله، فقد استرديت كل ما كنت قد خسرته وربحت فوق ذلك مئة «فلورين» (نقد فضي هولندي). وكان من الممكن أن أربح ثلاثمائة، لأنها كانت في يدي، ولكني جازفت بها وخسرتها. أصغي الآن، يا أنّيت، إلى النتيجة التي توصلت إليها: عندما يكون المرء متعقلاً، قاسي القلب، بارداً، ومتروياً، حكيماً بشكل «فوق - بشري» على نحو يفوق قدرة البشر، عند ذلك يستطيع بالتأكيد، ودون ظلّ لأي شك، أن يربح كل ما يريد.. وباختصار أريد أن أثابر بقوة تفوق العادة على أن أكون وأن أظل متعقلاً ورزيناً».

ولكن قوته خذلته وتخلت عنه، دون شك، لأنه في اليوم التالي اعترف إلى عزيزته «أنيت» قائلاً:

«يوم البارحة كان مشؤوماً تماماً، فقد خسرت كل شيء، وما خسرته يفوق إمكاناتي. ومع حالة أعصابي هذه، يا ملاكي، لا ينبغي أن أمارس القمار. لقد مارسته، ولعبت طوال عشر ساعات تقريباً، وأنهيت اللعب وأنا خاسر... واليوم أريد القيام بآخر محاولة بما بقي معي: قطرة ماء... وفي وضعنا، شيء غريب، بالحقيقة. فهل يدور في خلد أحد من أقاربنا وأصدقائنا، في «سان بطرسبورغ» أننا في هذا الوقت، مفترقان عن بعضنا، ولماذا افترقنا؟

ولكي يرتاح مما اعتراه من تأثر وانفعال، ذهب ليتنزه في الحديقة، وزار القاعة العامة، واستمع إلى الموسيقا «التي كانت أفضل بكثير من موسيقى «دريسد». وهو مريض بسبب ما يعانيه من تبكيت الضمير. ويحاول أن يؤكد لنفسه أنه يقامر لكي ينقذ من الفقر والبؤس عزيزته «أنيت» وجميع أفراد الأسرة، الذين يقيمون في «سان بطرسبورغ». ولكنه، وبمنتهى السرعة، لم يعد يستطيع أن يكذب على نفسه: فالمقامرة وحدها هي التي تهمه وهو يحب القمار للقمار، والمقامرة لمجرد المقامرة. وهو لم يعد يعيش إلا من أجل تلك الدقيقة التي تتسم بالقلق واللهفة الشديدين، والتي فيها الكرة وقد انطلقت، تجذب الأنظار وتحملها معها في دوار من انعكاسات الألوان: أسود، أحمر، مزدوج، مفرد، ربح أو خسارة.. كل الوجود معلق على دوران الدولاب. والبهجة والألم مضغوطان إلى أقصى حد. ويخترقه إحساس زائد الحدة، ويبلله العرق. ويرتجف، ولم يعد يفكر بشيء. وقد كتب رجل السرداب:

«في كل مكان، وطوال حياتي، كنت أتجاوز الحدود».

وتجاوز الحدود، ملامسه الخطر، والمجازفة بالكل من أجل الكل، أليست هي الطريقة الوحيدة للعيش؟ ولكن، هناك، في مدينة «دريسد» توجد امرأة شابة، تبكي وقد استبد بها القلق، وتسجل في دفترها الخاص: «خسائر جديدة! فماذا سينتج عن ذلك»؟!

وكأنه قد تنبه إلى ذلك وعلم به بشكل خفي وعجيب، فأخذ يعيب على نفسه لا مبالاته. وعاهد نفسه بأن يعود حالما يحقق بعض الربح.

ولكن، للأسف، فقد كتب بتاريخ ٢٠ أيار (مايو): «ما زلت على الدوام في الموقع نفسه وعلى الحالة إياها، ولم أحصل على أيّ نتيجة، بحيث أني لا أستطيع السفر حتى الآن. فبماذا سيأتيني اليوم المقبل»؟

و «اليوم المقبل» لم يأته بشيء يستحق الذكر: «ملاكي العزيز، البارحة شعرت بألم مخيف. وفي الحال، بعد كتابة رسالتي لك، ذهبت

إلى مكتب البريد، وهناك، قيل لي بأنه لا يوجد لديهم رسائل منك. فارتعش ساقي، ولم أستطع تصديق ذلك.. فقد ظننت أنك مريضة جداً، ومشرفة على الموت. وخلال ساعة تقريباً أخذت أمشي في الحديقة، وأنا أرتجف. وبعد ذلك ذهبت إلى نادي القمار إلى «الروليت» وخسرت كل ما كان معي.. فعدت ثانية ورهنت ساعتي.. أصغي إلي، لقد انتهى اللعب وانتهت المقامرة، وسأعود بأسرع ما يمكن. ولذلك عليك أن ترسلي لي على الفور، عند استلامك هذه الرسالة، نقوداً لتأمين نفقات سفري»..

وبعد أن أرسل «دوستويسفكي» هذا الالتماس، رجع إلى «الروليت» ولعب بعشرة «غولدين» (وحدة النقد الهولندي) من العشرين التي كانت قد بقيت معه. فابتسم له الحظ لبعض الوقت فربح ثلاثين «فريدريك» ذهبية، أي ما يعادل (٢٠٠) «غولدين»، ولكنه بدلاً من أن يغادر القاعة، أصر على العناد وضارب فخسر كل ما كان قد ربحه:

«إني أدرك أنه لا يمكن عمل أي شيء إذا كنت لا تستطعين أن تتحملي غيابي وأنك تخافين كثيراً عليّ.. فكري قليلاً بتعقل، يا عزيزتي: أولاً، فإن انزعاجي الشديد من افتراقنا أعاقني، بل ومنعني من أن أنهي هذا اللعب الملعون، بربح مناسب، وأن أعود إليك: لم يكن ذهني حراً ومرتاحاً.. وعشرين مرة، عندما كنت اقترب من منضدة القمار، يتبين لي أن اللعب إذا كان يتم بهدوء، بأعصاب مرتاحة وبدم بارد، وبتفكير، فلا يكون هنالك أيّ إمكانية للخسارة».

أرسلت له «أنّا غريغوريفنا» نقوداً، وبتاريخ ٢٥ أيار (مايو) ذهبت إلى المحطة لتستقبل الزوج المبذر. ولكن «فيديا» لم يكن في القطار. فعادت المرأة الشابة، كالمجنونة إلى المسكن، حيث سلمت لها رسالة تحمل تاريخ ٢٤ أيار (مايو):

«أنّا، يا صديقتي، يا زوجتي، اغفري لي، لا تعتبريني وغداً. لقد ارتكبت جريمة، وخسرت كل النقود التي أرسلتيها لي، حتى آخر «بنيغ»: (جزء من مئة من المارك الألماني). لقد تلقيت النقود البارحة، والبارحة، خسرتها على الفور. «أنيت» كيف أستطيع أن انظر إليك الآن؟ وما هو رأيك بي.. أوه! يا صديقتي، لا تتهميني بصورة قطعية ونهائية!.. أنا أكره القمار، وليس اليوم وحسب، بل بالأمس، وقبل الأمس، كنت ألعنه. وحالما تستلمين رسالتي، أرسلي لي نقوداً».

وبتاريخ ٢٧ ايار (مايو) عاد أخيراً «دوستويسفكي» إلى «دريسد» كانت زوجته تنتظره على رصيف المحطة. وبدا شاحب الوجه، غائر العينين نحيل الجسم. ألقت نفسها بين ذراعيه. ومن النظرة الأولى، أدرك أنها حقاً، قد سامحته وغفرت له.

وفي اليوم نفسه، سلمت «أنّا غريغوريفنا» إلى «دوستويسفكي» رسالة استلمتها عنه أثناء غيابه. والحقيقة، هي أنها فتحتها قبله، لأنها عرفت خط «سوسلّوفا»، ولكنها استطاعت أن تعيد إلصاق المغلف بمهارة.

وقد سجلت في مذكراتها، ما يلي:

«إنها رسالة تنم عن الغباء والغلاظة، وتبرهن تماماً عن تفاهة ذكاء هذه المخلوقة».

وقرأ «دوستويسفكي» الرسالة، فبدا عليه الاضطراب. و «أنّا غريغوريفنا» التي كانت تأكلها الغيرة، بذلت جهداً كبيراً لكي تبدو وكأنها لا تعرف شيئاً عن مضمون الرسالة، وأنها لم تلاحظ شيئاً.

وقد كتب «دوستويسفكي» إلى «مايكوف»، ما يلي:

«لقد أثبتت «أنّا غريغوريفنا» أنها أكثر عمقاً. وأفضل مما كنت أعتقد».

وأثناء ذلك، كانت الهموم، الندم، والسأم كل هذه العوامل قد عكرت مزاج «فيدور ميخائيلوفيتش». فهو يفكر بالنقود التي خسرها، ويتهم نفسه بأنه أساء اللعب، ويعزو فشله وخسارته إلى تسرعه وإلى قلقه ومخاوفه. ثم، هو لم يذهب لممارسة لعبة «الروليت» الا خلال يومين أو خلال ثلاثة أيام، على أكثر تقدير، وبمبلغ ضئيل. آه! لو أنه يستطيع أن يمضي أسبوعين في إحدى مدن القمار، عند ذلك يمكنه أن يهاجم الحظ بدم بارد، كالرجل الآلي. وعليه إذن أن يسافر إلى سويسرة، ليتوقف في «بادن - بادن». كان ذلك. برأيه في منتهى الحكمة. وعرض هذه الخطة على زوجته، فوافقت عليها، وهي مقتنعة بها، أو لأنها ملت من هذه الأمور.

ولم يكد يحصل على وعد بالإقامة لبعض الوقت في «بادن - بادن» حتى اطمأن وعاد إلى استئناف عمله. فكتب مقالة عن «بيلنسكي»: «آه! كنت أتصبب عرقاً وأنا أكتبها، لقد أنهكتني كتابتها.. كان أسهل علي كتابة عشر صفحات من إحدى الروايات من كتابة صفحتي هذه المقالة.

والحقيقة، هي أن «دوستويسفكي» لم يكن لديه بعد رأي واضح ومحدد بهذا الرجل الذي أعجب به وكرهه، على درجة متساوية في الحالتين. كان يريد أن يعبر عن عرفانه وامتنانه، للناقد الذي شجعه، في بداياته، ولكن بعض الحقد كان لا يزال يكبح حماسته. واضطر إلى أن يعيد خمس مرات كتابة «مقالته» وعندما عاد «دوستويسفكي» إلى «دريسد» بعث على الفور رسالة إلى «كاتكوف»، لكي يتوسل إليه أن يرسل له الخمسمائة روبل، الضرورية لمتابعة رحلته. ولكن الزوجين لم يستطيعا مغادرة «دريسد» إلى «بادن - بادن»، إلا بتاريخ ٣ تموز (يوليو).

وفي «بادن - بادن» كان «دوستويفسكي» يصطحب زوجته إلى قاعات المقامرة، ويشرح لها طريقة عمل «الروليت». كانا يقامران، يربحان» وفي الحال، يخسران ماربحاه. وفي اليوم التالي، أخذ «فيدور

ميخائليوفيتش» عشرة «دوكا» (نقذ ذهبي قديم)، وترك زوجته وحدها في غرفة الفندق.

كانت الساعة عند ذلك تشير إلى الرابعة، وفي الساعة السابعة لم يكن قد عاد. و «أنّا غريغوريفنا» كانت مستلقية على السرير، وقد استبد بها القلق، بينما كان الظلام، من حولها، يخيم ببطء.

وفي الساعة الحادية عشرة، عاد أخيراً، شاحب الوجه، شارد النظرات، أشعث الشعر، وربطة عنقه مفكوكة، ومنحرفة: لقد خسر وقرر أن يلقي محفظته القديمة بعيداً ويتخلص منها، لأنها بالتأكيد شؤم عليه.

وفي اليوم التالي، المنهاج نفسه، ذهب إلى الكازينو ومعه خمسة «دوكا» وظلت تنتظره. وعاد:

«هل خسرت؟

فأجابني وقد بدا عليه الاضطراب:

- نعم».

وخلال عشرة أيام، بدد «دوستويسفكي» كل ما كان يملكه الزوجان، وعند ذلك، بدأ بالنسبة لهما، عيش جنوني، يتسم باليأس دام قرابة شهر. «فيديا» رهن خاتم الزواج في «بنك الإسعاف» وأخذ يقامر، يخسر يربح، «يفك» الخاتم، يرهنه من جديد.

ويعود إلى الفندق، شاحب الوجه مرتبكاً، بحيث أن زوجته ظنت أنه قد خسر في القمار كل ما كان معه من نقود:

ولكنه كان يحمل ستة وأربعين قطعة ذهبية، وبفرحة محمومة، أخذ يروي لزوجته ويصف لها أطوار جولة اللعب:

«لقد حالفني الحظ، بشكل لا يصدق. راهنت على «الأحمر» وربحت في جميع الدورات. ولم يكن هنالك أحد إلا ودهش كثيراً من ذلك».

وكانت تصغي إليه، وهي معجبة به. وقد سجلت في مذكرتها: «يا لها من فرحة! فها هي معيشتنا قد تأمنت لبعض الوقت». ومع ذلك، فإنها، عند المساء، التقت بزوجها، وهو يجلس باسترخاء على أحد مقاعد الحديقة. كان بعض المقامرين قد دفعوه جانباً، فاستاء، وخسر.

ومرة أخرى، لأن جاره بجانب المنضدة، وهو إنكليزي، كانت رائحة عطره قوية، لم يستطع السيطرة على أعصابه، فأخطأ في اختيار رهانه.

ولكن، فليبتسم له الحظ، وها هو عند ذلك يستعيد أمله، ويشتري فواكه، وزهوراً وسكاكر.

وبتاريخ ١٥ تموز (يوليو) كان بحوزة «فيدور ميخائيلوفيتش» أربعة آلاف فرنك. وبعد ثلاثة أيام أي في ١٨ من الشهر نفسه، لم يبق في كيس نقود العائلة سوى أربعة وعشرين قطعة ذهبية.

وخلال بضع ساعات، أباد «دوستويسفكي» هذا المبلغ الاحتياطي المتواضع. فمثل أمام زوجته وأخذ يتوسل إليها أن تعطيه شيئاً لكي يرهنه في «بنك الإسعاف». فنزعت «أنّا غريغوريفنا» قرطيها، تأملتهما لحظة، أغرورقت عيناها بالدموع، ووضعت القرطين، في اليد الممدودة نحوها.

«جثا «فيديا» على ركبتيه أمامي، قبل يدي، وقال لي إنه لم يعرف في حياته أحداً أفضل، ولا أعزّ عليه مني».

فتركها، وأغلق الباب على هذه المرأة المسكينة، التي جلست متهالكة على أحد الكراسي وأخذت تبكي وتنتحب كالفتاة الصغيرة. كان يشعر بتكبيت الضمير: فهو شرير، لص ونذل، وهو يعرف ذلك. وإدراكه لهذه الخسة وشعوره بها، كل هذا كان بالنسبة له، مستحباً بشكل خفي وعجيب. كان يسرع نحو «بنك الإسعاف» ثم نحو صالة المقامرة، وهو يرتجف كأحد المجرمين. وبقدر ما يكون وضعه ميؤوساً

منه، بقدر ما تجذبه الطاولة الخضراء. وكلما ازداد وضعه سوءاً كلما ازداد جذب الطاولة الخضراء له، شدة وقوة. وفي مثل هذه الدقائق، إنما تصبح المقامرة التحاماً، بل مجابهة حقيقية وجسماً لجسم مع الحظ. اربح، وسيعفى عنك ويغفر لك. اخسر، فتصبح قاتلاً. فهذه هي عبرة «راسكولنيكوف» والمغزى الذي استخلصه قبل دخوله سجن الأشغال الشاقة.

«عاد «فيديا» بعد ساعتين، وقد خسر النقود التي حصل عليها من رهن «القرطين». ألقى بنفسه على كرسي، وأراد أن يجلسني على ركبتيه، ولكني انزلقت عند قدميه وحاولت أن أهدئه. فأقسم لي بأنه قامر اليوم للمرة الأخيرة، وأنه سيقلع عن ذلك، بعد الآن. وغطى وجهه بيديه وأخذ يبكي، نعم، لقد بكى. وقال لي: «لقد أخذت منك، لقد سرقت حليتك الأخيرة، وخسرتها».

كان ينتحب، كتلميذ أمسك به متلبساً بارتكاب خطأ شنيع، هذا الرجل الذي كان في السادسة والأربعين من العمر، هذا الكاتب المشهور أمام «الصبية» التي تزوجها.

ولكنه، منذ اليوم التالي، استجدى خمسة فرنكات، ثم رهن على التوالي خاتم زواجه، خاتم زواج زوجته، ووشاحاً لها. ومساء التاسع عشر من تموز (يوليو) ربح من النقود ما يكفي لاسترداد الخاتمين ولكنه في اليوم التالي أي في العشرين من تموز، خسر كل شيء، ورهن ثانيةً الخاتمين.

وفي غضون ذلك، تلقت «أنّا غريغوريفنا» رسالة من أمها:

«إذا لم نرسل إلى «ك». النقود الضرورية لكي نسترد مفروشاتنا، فإنه سيحتفظ بها نهائياً. ويكون هذا مخيفاً! هذه المفروشات التي حصل عليها أهلي بكثير من العناء والجهد، وأعطوني إياها، أيجوز أن نفقدها الآن؟!...» ولم تكد تنتهي من قراءة الرسالة، حتى دخل «دوستويسفكي» إلى الغرفة، شاحب الوجه، متقلص العضلات، أحمر العينين.

«كل شيء كان قد انتهى.. فقد خسر كل ما كان معه من نقود، وكان حزيناً جداً، لدرجة أني خفت من أن تصيبه نوبة صرع».

فأُرسلت الرسائل إلى «كاتكوف» وإلى «ماما» أي إلى السيدة «سنيتكين» واقترض ثلاث قطع ذهبية من الكاتب «غونتشاروف» الذي كان يصطاف في «بادن - بادن»، وعثر على رجل يقرض النقود، لقاء الرهن، فرهن عنده «فروته»، واستدعى «يهودياً صغيراً أعطاه سبعة «فلورينات»، على أن يرهن عنده معطفه. وستة «فلورينات» لقاء رهن أحد فساتين «أنيت» ولقاء رهن ثوب عتيق أقرضه اليهودي «فلونين». واضطروا لإخراج هذه الملابس خفية لكي لا تطلع على ذلك صاحبة المنزل:

«وضعتها في صرة، بشكل أصبحت أصغر ما يمكن وخبأها «فيديا» تحت معطفه».

ومن جديد: المقامرة، الخسائر، والأرباح الزهيدة: «عاد إلي «فيديا» المسكين حزيناً، يائساً، وقال لي إنه سيصاب بالجنون، أو أنه سيطلق النار على نفسه»...

لم تدفع الأجرة لصاحبة المنزل، ولم يعد هنالك شيء يؤكل، ولا حتى شاي يمكن أن يشرب. والغرفة باردة الجو. وبعض الأطفال يلعبون ويصخبون في الباحة المجاورة. وهنالك بيطار يقيم ويعمل تحت نافذة الغرفة، ومطرقته تطرق السندان، بشكل منتظم: فهذه الضجة، وتلك الحرارة المنبعثة من دكان البيطار، والورق العفن الملصق على الجدران، الذي ينام عليه الذباب. كل ذلك كان يجعل اليأس يستولي على «أنّا غريغوريفنا»، وعلى الأرض، في إحدى الزوايا الملابس الداخلية الوسخة. فنهضت، لكي تهيئ ما يلزم لغسيلها، وعلى ملامح وجهها سيماء الموت».

وبعد ذلك ببضعة أيام، ربح «فيديا» ما كان كافياً لاسترداد الملابس المرهونة، وتلقت «أنيت» مئة وخمسين روبلاً من أمها. وبعد أن تناول «فيديا» طعام العشاء، ذهب «ليفك» الخاتم والمشبك والقرطين» ويستردها.

«نحو الساعة الثامنة، عاد «فيديا» واندفع نحوي وعيناه مغرورقتان بالدموع، وحركاته تنم عن اليأس الشديد، واعترف لي بأنه خسر كل النقود، أي كل ما أعطيته إياه لكي يسترد الأشياء المرهونة.. وطلب مني من جديد أعطيه النقود اللازمة لاسترداد تلك الأشياء، ولكني لأني لم أعد أستطيع أن أثق به، فقد رافقته في مشواره، للقيام بذلك.. وفي الطريق، كان «فيديا» يقبل يدي، ويطلب مني أن أصفح عنه، كما لو أنه كان بالحقيقة قد ارتكب خطيئة كبيرة».

وكتب «دوستويسفكي» إلى «مايكوف»:

«لقد رهنت «أنّا غريغوريفنا» كل ما كانت تملك من حلى وملابس فيا لها من ملاك! فكم عملت على مواساتي، وكم شعرت بالملل في مدينة «بادن» اللعينة، وفي الغرفتين الصغيرتين اللتين استأجرناهما فوق «كور» للحدادة والبيطرة»!

وبالإضافة إلى «غونتشاروف»، كان الروسي الآخر والوحيد الذي التقى به «دوستويسفكي» في «بادن - بادن» هو «تورغينيف» ومنذ زمن طويل كان «فيدور ميخائيلوفيتش» مدينا لتورغينيف بمبلغ «٥٠ تايلر»: «وأنا، حتى اليوم، لم أردها له»! فنصحت «أنّا غريغوريفنا» زوجها أن يذهب ويزوره لكي يثبت له أنه لم ينس ذلك الدين.

وعمل «دوستويسفكي» بنصيحة زوجته على مضض وكره منه، فهو لا يحب «تورغينيف» بسبب تصرفاته المتكلفة، التي يريد أن يبدو بها وكأنه أمير كبير. وكانت معانقاته التي تتسم بالتنازل، تثير قرف واشمئزاز «دوستويسفكي»، الذي لم يعجب بكتاب «تورغينيف» الأخير: «دخان» ولم يقدره حق قدره، وقد احتفظ منه بذاكرته بهذه الجملة: «لو أن روسيا اختفت من على سطح الكرة الأرضية، فلن تكون هنالك خسارة ولا أي اضطراب أو ضرر للبشرية». ومنذ بداية لقائهما، ساءت لهجة الحديث، وتحول إلى نقاش حاد.

«لقد قال لي أنه ملحد تماماً. ولكن، يا إلهي، لقد أعطتنا «الألوهية» السيد المسيح، أي تمثيلاً بالغ السمو للإنسان، لا يمكن أن نفهمه إلا بالتقديس، ولا يمكن أن نشك بأنه المثل الأعلى الخالد للبشرية! ولكن ماذا أعطانا، بالمقابل كل أولئك: جماعة «تورغينيف» و «هيرزين» و «أوتين» و «تشيرنيشفسكي»؟... فهم كلهم قابلو الإثارة سريعو التهيج، بشكل معيب، ومتكبرون ببلادة وغباء، لدرجة أننا نعتقد بأننا في حلم. فماذا يأملون؟ ومن سيتبعهم»؟

ولكنّ الأكثر مدعاة للرفض، وعدم القبول هو أن «تورغينيف» يحتقر روسيا، مع إدعائه بأنه يحبها.

«وبين أشياء وأمور أخرى، قال لي بأننا يجب علينا أن ننحني ونتذلل أمام الألمان، وأن ليس هنالك طريقاً، مشتركاً للجميع سوى الحضارة، وأن جميع المحاولات الروسية نوعياً، والمستقلة، هي فظة، بليدة وغبية. وقال لي إنه يكتب مقالة مطولة عن جميع «السلافيين» أنصارهم. فنصحته، أن يطلب، لكي يسهل عليه العمل، منظاراً من باريس. فقال لي: «ولماذا»؟ فأجبته: «لأنك، في مكانك الحالي، بعيد جداً عنا، وعليك أن توجه المنظار نحو روسيا، وأن تتفحصنا: وبغير ذلك، فإنه سيكون من الصعب عليك أن ترانا».

وعند سماع «تورغينيف» هذه الكلمات، احمرّ وجهه، وأخذ يعض شفتيه لكي لا يرد. ولكن «دوستويسفكي» وقد تذكر الصحافة الرديئة التي استقبلت كتاب: «دخان»، استأنف كلامه، بسذاجة مصطنعة ومخادعة:

«لم أكن أتصور أن عدم نجاح كتابك: «دخان» وكل تلك المقالات الشريرة، سيغيظك إلى هذه الدرجة. وأؤكد لك أن ذلك لا يستحق الاهتمام والعناء. فلا تفكر به!

فصاح الآخر:

- ماذا بك؟ أنا لست مغتاظاً أبداً»!

وعندما فكر «دوستويسفكي»، بأن ينتقد الألمان، لكي يغير موضوع الحديث، أجابه «تورغينيف» بصوت مرتعش، من شدة الغضب: «عندما تعبر عن رأيك بهذا الشكل، فإنك تهينني شخصياً. وعليك أن تعرف بأني قد استقريت هنا بصورة نهائية، وأني أعتبر نفسي ألمانياً، وليس روسياً، وأنا فخور بذلك».

وعاد «دوستويسفكي» إلى مسكنه، وهو مسرور جداً لأنه أغاظ ذلك الأرستقراطي الذي اقتلع من جذوره، أنكر أصله وتخلى عن وطنه.

وبمطلع شهر آب (أغسطس) وبفضل ما أرسله له «كاتكوف» الذي طلب منه «فيدور ميخائيلوفيتش» من جديد، أن يمده بمبلغ (٥٠٠) روبل كسلفة وجد الزوجان نفسيهما في وضع يسمح لهما بالسفر إلى جنيف، ولكن، بعد دفع الديون، لم يبق معهما سوى (١٤٠ فرنكاً). والرحلة تكلف (١٠٠) فرنك، وبزيارة قصيرة، قام بها «فيديا» إلى قاعة «الروليت»، هبط الاحتياطي إلى (١٠٠) فرانك، بالضبط.

وكتبت «أنّا غريغوريفنا» بهذا الخصوص:

«عند سماعي هذا الخبر، استبد بي الغضب: أيمكن أن يكون المرء غافلاً وعديم التبصر، إلى هذا الحدّ؟ أردت أن أوبخه، ولكنه ركع طلب مني العفو والسماح».

ورهن للمرة الأخيرة القرطين مقابل (١٢٠) فرنكاً، واسترد الخاتمين لقاء (٢٠ فرنكاً).

«عند ذلك، ذهب «فيديا» إلى قاعة الروليت، فرجوته ألا يتأخر هناك.. وعاد «فيديا» بعد عشرين دقيقة، وروى لي بأنه بدل النقود التي كانت معه بنقود ألمانية، وأنه خسر الكل. فنصحته بألا يحزن، وبأن يساعدني على توضيب الحقيبة».

الفصل التاسع

المنفي

عندما وصلت «أسرة دوستويفسكي» الصغيرة إلى جنيف، كان قد بقي معها ثلاثون فرنكاً. فاستأجرت غرفة مفروشة في منزل فتاتين مسنتين، يقع عند زاوية شارعي «غليوم - تيلّ» و «بارتولييه». وبعد أربعة أيام، لم تعد ثروة الأسرة تزيد على ثمانية عشر فرنكاً. وليس هنالك أمل بوصول نقود، سوى نحو خمسين روبل التي وعدت بإرسالها والدة «أنّا غريغوريفنا». فقرر «فيدور ميخائيلوفيتش» أن يطلب مساعدة من صديقه «مايّكوف»:

«أنا أعرف، يا عزيزي «أبولون نيقولايفتش»، أنك أنت أيضاً، ليس بحوزتك نقوداً جاهزة تستطيع التصرف بها، ولذلك ما كان، ينبغي لي أن أتوجه إليك بأي طلب، ولكني أكاد أغرق، بل غرقت تماماً وبكل معنى الكلمة».

فأرسل له «مايّكوف» على الفور مئة وخمسة وعشرين روبلاً، لم تلبث أن ذابت، كما يذوب الشمع بالقرب من النار.

وفور وصول «دوستويفسكي» إلى جنيف، استأنف عمله الذي كان قد توقف. فأنجز تلك المقالة التي كان يكتبها عن «بييلنسكي» والتي لم تنتشر أبداً. وأخذ يطالع الصحف الروسية، ويقرأ بعض أعمال «بلزاك»، «جورج صاند». وحضر أيضاً مؤتمر السلام.

ورأى «غاريبا لدي» عند مروره في شارع «الجبل الأبيض» الذي كان مزيناً باللافتات والأعلام. كان البطل الإيطالي يقف في عربة مكشوفة، ويلوح بقبعة صغيرة غريبة الشكل، رداً على تحية الجماهير وهتافاتها له. وفيما بعد، استمع في قاعة المؤتمر، إلى سيل من الخطابات. أثارت غيظه واستياءه:

«يستحيل أن يتصور أحد ماذا قال هؤلاء السادة الاشتراكيون والثوريون - الذين رأيتهم للمرة الأولى بلحمهم وعظامهم وليس في الكتب - وكم استطاعوا أن يوردوا من الأكاذيب، من أعلى ذلك المنبر، على مسامع (٥٠٠٠) مستمع. وسخافة وضعف، وعدم تناسق وانسجام كل ذلك، ولا معقوليته وما تضمن من تناقضات كل هذا كان لا يمكن تصوره. وهؤلاء الأوغاد، مع ذلك يثيرون الناس العاملين. وهذا يثير الحزن ويدعو إلى الأسف. فقد بدؤوا بقولهم لنا بأنه لكي يسود الأمن والسلام في الدنيا، ينبغي القضاء على الإيمان المسيحي، وتدمير الأمم الكبيرة، والاستعاضة عنها بأمم صغيرة، وإلغاء رأس المال لكي يصبح كل شيء مشتركاً للجميع، وهذا كله دون أن يقدموا أي دليل يستندون عليه».

وأثناء ذلك، كان الشتاء قد أخذ يقترب، فالسماء اكفهرت وتلبدت بالغيوم، وهبت الرياح، وأخذ الناس يسرعون في سيرهم في الشوارع. وانزعج «دوستويفسكي» من هذا الطقس «الفاسد» وأخذ يتألم وقد عاودته نوباته المؤلمة، وكذلك كراهيته التي لا مرد لها، للأجانب ولكل ما هو أجنبي وغريب:

«كل شيء هنا كريه، بشع، فاسد، وباهظ الثمن. والجميع سكارى. وفي لندن نفسها، لم أر هذا العدد الكبير من السكّيرين الذين يصرخون، غاضبين، ويخيفون الناس. وأقل كتلة من الحجارة، عندهم «أنيقة ومهيبة».

«أين الشارع الفلاني؟ انظر، أيها السيد، تسير باتجاه مستقيم، وعندما تمر بالقرب من ذلك المنهل الأنيق والرائع، تتجه»...الخ...»

وذلك المنهل الأنيق والرائع، ليس سوى صنبور كريه الشكل من طراز قديم وبالٍ، متزعزع وينم عن ذوق سقيم، ولكن محدثك لا يستطيع أن يفوّت الفرصة التي أتيحت له لكي يتفاخر بذلك، حتى وإن كان الأمر لا يتعلق بالنسبة له إلا بأن يدّلك على الشارع الذي سألته عنه».

والحديقة الإنكليزية لا تساوي الساحات والميادين البائسة الموجودة في موسكو. وبصورة عامة، فالمدينة هي «معبد السأم».

وحيال هذا التعكّر الذي طرأ على مزاج «فيدور ميخائيلوفيتش» فقد نصحته زوجته بالذهاب إلى مدينة المياه: «ساكسون - لي - بان»، التي لا تبعد أكثر من مئة كيلومتر عن جنيف، والتي تحظى قاعات المقامرة فيها بشهرة عالمية. فهي تعرف أن «فيديا» ينبغي أن يتعرض لخسارات لا تعوض، ولا يمكن أن تغفر له، وعذاب جديد من تبكيت الضمير لكي يعود لاستئناف عمله. وكانت محاولاته المدمرة في لعبة الروليت تهدئه بشكل غريب، فيستعيد ثقته بنفسه، ويفكر بالتعويض، وبالتكفير عن فشله، بالانصراف إلى العمل بهمة ونشاط.

وعندما كانت زوجته تقترح عليه أن يجرب حظه، كان يوافق بسرور. ووصل إلى «ساكسون - لي - بان» في اليوم الخامس من تشرين الأول (أكتوبر) وكان ينوي أن يغادرها في اليوم التالي بعد أن لعب جولة في «الروليت». ولكنه، في اليوم السادس من تشرين الأول، كتب رسالة، جاء فيها ما يلي:

«آنيت، يا عزيزتي، لست سوى فظ وغشيم، فالبارحة عند الساعة العاشرة، حصلت على ربح صاف، قدره (١٣٠٠) فرنك. واليوم، لا أملك «كوبيكاً واحداً، فقد خسرت الكل، الكل تماماً. وهذا، لأن ذلك

الخادم الوغد، في فندق «ساكسون - لي - بان» لم يوقظني، كما كنت أمرته، لكي أسافر الساعة الحادية عشرة إلى جنيف.

فنمت حتى الساعة الحادية عشر ونصف. ولم أستطع عمل أي شيء، ولا يمكنني أن أسافر إلا، عند الساعة الخامسة. وفي الساعة الثانية، ذهبت إلى «الروليت» وخسرت كل ما كان معي، كله»...

وصحت توقعات «أنّا غريغوريفنا»، لأن «دوستويفسكي» منذ عودته، بدأ العمل، بهمة متزايدة. وكان الأمر يتعلق أولاً بكتابة «قصة بسيطة، دون مغزى ولا طموحات، وتعتمد فقط على الأحداث وطباع الشخصيات، التي عليها أن تتصرف من تلقاء نفسها دون أن تكون مدفوعة بأيّ فكرة».

وأراد أن يستخدم قضية «أوميتزكي» التي قرأ تقريراً عنها في صحيفة «الصوت»: «فتاة أذلّها أهلها، فأشعلت النار أربع مرات في ملحقات منزل العائلة. ولكن لم يكن هنالك سوى نقطة انطلاق واحدة. وكان «دوستويفسكي» يتذمر لأنه لم يستطع أن يرتب شيئاً حول وثيقة هذا الحدث.

وبتاريخ ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) عاد «دوستويفسكي» إلى «ساكسون - لي - بان»، بعد أن أرهقه العمل والمرض.

«آه! يا عزيزتي، ما كان ينبغي أن تدعيني أذهب إلى «الروليت»! لأني بمجرد اقترابي منها، يتوقف قلبي عن الخفقان، وترتجف يداي وقدماي، وتصبح باردة كالثلج. وصلت إلى هنا الساعة الرابعة إلا ربع، وعلمت أن «الروليت تعمل حتى الساعة الخامسة، وكنت أعتقد أنها تتوقف عن العمل الساعة الرابعة. لقد بقي معي إذن ساعة، فأسرعت إلى هناك. ومن الجولة الأولى خسرت (٥٠) فرنكاً، ثم استرديت فجأة وبسرعة، خسارتي، مع بعض الربح، دون أن أدري كم ربحت، لأني لم أعد النقود. وبعد ذلك خسرت كثيراً، وبشكل مرعب، أي كل ما كان معي تقريباً.

وفجأة، وبالرهان الأخير، ربحت من جديد نقودي أي (١٢٥) فرنك وفوقها (١١٠) فرنكات. أي أن كل ما معي الآن (٢٣٥) فرنك. «آنيت، عزيزتي، لقد تساءلت فيما إذا كنت سأرسل لك (١٠٠) فرنك، ولكن هذا قليل جداً. يجب أن أرسل لك على الأقل (٢٠٠) فرنك. ومن جهة أخرى، فقد عاهدت نفسي، أني في المساء، أي من الساعة الثامنة إلى الساعة الحادية عشر، سأصير يهودياً حقيقياً: سأقامر بالطريقة الأكثر عقلانية، وأقسم لك على ذلك.. إلى اللقاء، يوم الثلاثاء، بكل تأكيد»..

ولكن، منذ يوم الاثنين، تغيرت اللهجة:

«آنيت، يا عزيزتي التي لا مثيل لها، لقد خسرت كل شيء، الكل. أوه! يا ملاكي، لا تحزني ولا تقلقي. كوني واثقة، أن الوقت الذي سأكون فيه أستحقك وجديراً بك، سيأتي قريباً، ولن أجردك بعد ذلك مما تملكين من مفروشات وحلى. كلص بائس وقذر. والآن هنالك الرواية، والرواية وحدها سوف تنقذنا».

لقد رهن خاتم زواجه ومعطفه الشتوي. فهو بحاجة إلى خمسين فرنكاً، كي يستطيع العودة إلى جنيف. وبالنسبة للمستقبل، فهو سيتدبر الأمر: سيطلب المساعدة من «كاتّكوف» ومن الشاعر «أوغاريف» الذي التقى به في جنيف، وسيرهن الخواتم والقرطين، إذا لزم الأمر.

«سأنقذ وأصلح كل شيء، في المرة الماضية عدت منهكاً. تالفاً، ولكن الآن، قلبي عامر بالأمل...

ملاحظة: لا تظني، حباً بالمسيح، أني سأقامر بالخمسين فرنكاً التي هي لك»..

هذه المرة، لم تتميز عودته بالعمل النشيط والمكثف، بل بتخريب بداية روايته. فبعد أن قرأ ما كتبه، وجده سيئاً جداً، فحرق المخطوطة.

والحال، هي أنه كتب لتوه إلى «كاتّكوف»، يرجوه أن يرسل له كسلفة (١٠٠) روبل، كل شهر، و (٢٠٠) روبل في شهر كانون الأول (ديسمبر). و «كاتّكوف» الذي برهن على أنه «رجل لطيف» لبى له طلبه، شريطة أن يسلمه «فيدور ميخائيلوفيتش» القسم الأول من مؤلفه بتاريخ الأول من كانون الثاني ١٨٦٩.

وفي أواخر كانون الأول (ديسمبر) لم يكن هنالك شيء جاهز. ومع ذلك، فقد خطرت على بال «دوستويفسكي» فكرة مدهشة، كتب عنها إلى «مايّكوف» قائلاً: «إنها فكرة تقديم رجل يثير الإعجاب من جميع وجهات النظر. ولا يوجد شيء أصعب من ذلك، في زمننا. وأنت ستقبل ذلك بسهولة، دون شك. وهذه الفكرة سبق أن ساورتني تحت صيغة فنية معينة، ولكن في صيغة معينة وحسب، وكان ينبغي إعطاؤها كل مداها، والتوسع فيها. وضائقتي وحدها هي التي دفعتني لاستغلال هذا الموضوع، الذي لم ينضج جيداً، بعد. وقد جازفت كما في «الروليت»: ولكن، ربما ينضج وينمو تحت قلمي، وأثناء الكتابة».

وأثناء ذلك، كان مخطط الكتاب يتوضح شيئاً فشيئاً، ويبرز للعيان: فإلى جانب البطل، تبرز بطلة وشخصيات أخرى، جذابة ومثيرة، كالبطل تقريباً. «القسم الأول يبدو لي ضعيفاً. ومع ذلك، فلم نفقد شيئاً، حتى الآن، على ما يبدو لي.. والقسم الأول ليس سوى مقدمة.. وعنوان الرواية: هو «الأبله»...

وفي رسالة أخرى، يوضح «دوستويفسكي» الصعوبات التي يلاقيها في عمله، ويحددها:

«لا يوجد في العالم سوى وجه واحد يثير الإعجاب بصورة تامة وإيجابية. إلا وهو وجه السيد المسيح.. وفي الآداب المسيحية، من بين الشخصيات التي تثير الإعجاب، أكثرها نجاحاً، شخصية «دون كيشوت»

ولكنها ليست مثيرة للإعجاب إلا لأنها في الوقت نفسه مضحكة. وشخصية «البيكويك» (Le Pickwick)، في أحد أعمال «ديكنز» (Dickens) (وهي دون مستوى شخصية «دون كيشوت» بكثير، ومع ذلك فهي تثير الإعجاب) هي أيضاً مضحكة، ولا تؤثر عليك إلا بهذا الجانب من طابعها. و «جان فالجان» هو أيضاً محاولة جريئة. ولكنه يثير المودة والتعاطف، بسوء طالعه، وبالمصائب الرهيبة التي تحل به، وبالظلم الذي يلحقه به المجتمع. وعندي، أي في عملي، لا شيء يشبه كل هذا، لا شيء على الإطلاق، ولذلك فإني أخشى إخفاقاً، لا تجدي فيه أيّ حيلة، ولا مناص منه. وبعض التفاصيل يمكن أن تكون مقبولة. ولكن يخشى أن يبدو العمل، في جملته ومجموعه، مملاً».

النفي، البؤس والمرض، يبدو له أن جميع مصائب الأرض، تلاحقه وتنصب عليه. وهذا ما كان يمنحه بشكل خفي الهمة، لكي ينجز مشروعه بشكل جيد. الطقس بارد، ولا يوجد سوى مدفأة سيئة في الغرفة، والنوافذ ليست مزودة بدرفات مزدوجة، كما هي الحال في روسيا. وأن كان يخصص جانباً ضخماً من دخله لشراء الحطب، فإنه لم يتوصل إلى رفع درجة الحرارة إلى أكثر من خمس درجات. مئوية فوق الصفر، وهو يكتب، مرتدياً معطفه الشتوي الضخم وما كان يرسله «كاتكوف» من نقود، تبتلعه النفقات خلال أيام الشهر الأولى، وعند ذلك تتوالى الزيارات إلى «بنك الإسعاف». وفي هذه الحالة من الضيق المادي والمعنوي، علم «دوستويفسكي» بالنبأ المهم، بل والعظيم: «أنّا غريغوريفنا» حامل.

فانتشى «دوستويفسكي» فرحاً، وشعر بالزهو والكبرياء، لكونه سيرزق طفلاً: (ومنذ ذلك الحين كنا نحب الصغير الذي سيولد» وتقرر أن المولود إذا كان بنتاً، فسوف تسمى «سونيا» كذكرى «لسونيا مارمولادوف»، وإذا كان صبياً، فسوف يدعى «ميشيل» كذكرى لأخ «فيدور ميخائيلوفيتش».

وبالتوفير من النفقات اليومية، اتفق مع قابلة وممرضة، للعمل على العناية بزوجته الحامل. وقبل بضعة أيام من الولادة. انتابه هوس، بل جنون حقيقي. وأصيب بنوبة صرع عنيفة، في إحدى الليالي. وبعد النوبة، استغرق في النوم، ولكن زوجته التي كانت تتألم بقسوة، أيقظته، فرد عليها قائلاً:

«لكم أرثي لك، وأشفق عليك يا عزيزتي»!

ثم وضع رأسه على الوسادة، واستغرق في النوم، من جديد. وفي صباح اليوم التالي، أسرع ليحضر القابلة، لم تكن قد غادرت سريرها، بعد. وأخذ يقرع الجرس، يصيح ويهدد، فوعدته بالذهاب إلى قرب سرير «آنيت»: «هنالك متسع من الوقت، يجب الانتظار سبع أو ثماني ساعات، سأعود».

ولكنها لم تعد، فأسرع «فيدور ميخائيلوفيتش» بالذهاب لكي يحضرها، فوجدها تتناول طعام العشاء عند بعض الأصدقاء. وأحضرها. «لا ينبغي أن نتوقع شيئاً قبل ساعة متأخرة في الليل». وللمرة الثالثة، نحو الساعة التاسعة، ذهب وأزعج السيدة المسنة التي كانت تلعب الورق. فصاحت:

«أف، أوه! هؤلاء الروس! هؤلاء الروس!

ومع ذلك فقد تبعته، ولكنها منعته من الدخول إلى الغرفة، حيث كانت «أنّا غريغوريفنا» تعاني من آلام المخاض الأخيرة، فاحتجز «فيدور ميخائيلوفيتش» نفسه في الغرفة المجاورة، وجثا على ركبتيه وأخذ يصلي. وفجأة، عبر الأنين القوي المتصاعد، سمع صرخة حادة. صرخة طفل وليد، فقفز نحو الباب، فتحه بدفعة من كتفه. وانحنى بجانب السرير وأخذ يقبل يدي الأم الشابة، الغضتين.

«صبي، أليس كذلك؟

فأجابته الممرضة:

- فتاة، فتاة رائعة».

وتناول الصرة التي لفت بها الطفلة الوليدة، التي قُدمت له، وقبلها صائحاً:

«آنيت! انظري ما أجملها!

فأخذت القابلة تردد، وقد أدهشتها كثيراً هذه الفرحة الغامرة

- أفٍ، أوه! هؤلاء الروس! هؤلاء الروس!

وقد استخدم «دوستويفسكي» فيما بعد انطباعاته، لكي يصف وضع زوجة «شاتوف» لطفلها، في روايته: «الشياطين»:

كان «شاتوف» في غمرة انفعاله وحماسته، يتلفظ متلعثماً بكلمات مشوشة وغامضة: «كان يوجد مخلوقان بشريان، وفجأة، أصبح هنالك مخلوق ثالث.. روح جديدة، تامة، ومنجزة، بشكل لم تستطع أيّ يد بشرية أن تخلق مثلها.. فكرة جديدة وحب جديد.. لدرجة أن هذا مخيف أيضاً.. وليس هنالك أعظم منه في العالم»..

ومنذ الأيام الأولى، أخذ «دوستويفسكي» يولي حب العبادة لابنته، بصورة بلغت البلاهة والحماقة: فهو يؤكد أنها آنذاك، أصبحت تعرفه، وأنها تبتسم له، وتفهمه. ويحضر حمام الطفلة واغتسالها. يلفها في أقمطتها ويثبت، هو بنفسه الدبابيس الخاصة بتلك الأقمطة. يحملها، ويهدهدها بين ذراعيه. وإذا صرخت؟ فإنه يترك عمله، في الحال، ويسرع نحوها، وهو قلق عليها.

وكتب إلى «مايّكوف» ما يلي:

«هذا الشيء الصغير ذو الثلاثة أشهر، التافه الحجم، الذي يشبه فتاتة من الخبز، هو طفلة رضيعة، أصبح لها وجه، وطابع حازم خاص بها.. فهي لا تبكي، ولا تقطب ملامحها عندما أقبلها، وتكف عن البكاء والصراخ، عندما أنحني عليها».

ولأن ما أرسله «كاتكوف» قد أنفق بسرعة لدفع أجرة الممرضة، والقابلة، وصاحبة المنزل، فقد قرر «دوستويفسكي» العودة إلى «ساكسون - لي - بان» ليجرب حظه مرة أخرى.

ولم يمر وقت طويل، على ظهور النتيجة، فقد كتب «دوستويفسكي» بتاريخ ١٦ نيسان «أبريل»:

«آنيت، يا ملاكي العزيز، لقد خسرت كل ما كان معي من النقود!

وحالما وصلت، خسرت الكل في نصف ساعة! إيه! فماذا أقول لك الآن، لك أنت يا ملاكي السماوي، الذي أعذبه إلى هذا الحد؟

سامحيني، يا آنيت، فقد سممت حياتك، ومع ذلك، فهنالك «سونيا»! لقد رهنت خاتم الزواج.. أرسلي لي نقوداً بأسرع ما يمكن. ليس من أجل المقامرة (وكان بإمكاني أن أعدك بذلك، ولكني لم أعد أجرؤ أن أعدك: فقد كذبت عليك، أكثر من مرة).. أرسلي لي (١٠٠) فرنك، فيبقى معك (٢٠) وربما أقل أيضاً. لذلك، عليك أن ترهني شيئاً ما. ولكني أريد العودة، بأسرع ما يمكن، إلى قربك».

وبانتظار ما سيأتيه من جنيف، قامر بالنقود التي حصل عليها من رهن خاتم الزواج، وخسرها. وبقي معه (٥٠) سنتيماً.

وكتب في مساء ذلك اليوم نفسه إلى زوجته، ما يلي:

«يا صديقتي، سيكون هذا هو الدرس الأخير، الدرس النهائي والمرعب».

ولكنه، أضاف:

«اعلمي، يا ملاكي، أنه لولا هذه المغامرة الخبيثة والمبتذلة، ولولا تلك النفقة التي لا جدوى منها، والتي خسرت فيها (٢٢٠) فرنكاً، ربما ما كانت لتخطر على بالي تلك الفكرة المدهشة التي راودتني، والتي

ستساهم في تحقيق السلامة العامة والنهائية لنا، جميعاً. نعم، يا حبيبتي، أعتقد أن الله، برحمته الواسعة والتي ليس لها حدود، ربما فعل ذلك من أجلي، أنا المقامر الصغير البائس، وأنه أوحى لي بذلك، لكي ينقذني من ممارسة القمار، وينقذك أنت «وسونيا» وينقذنا كلنا، ويساعدنا على تأمين مستقبلنا.

وكان هنالك رسالة يريد «دوستويفسكي» أن يبعث بها إلى «كاتكوف» لكي يعتذر له عن تأخره بتسليمه مخطوطة رواية «الأبله» وليعرض عليه تسوية يعد فيها ناشر كتبه بموافقته على نشر الطبعة الثانية من الرواية كضمانة للسلف، التي يكون قد تلقاها منه. ويرجوه فيها أيضاً أن يرسل له على الفور مبلغ ثلاثمائة روبل. وهذا المبلغ الذي سيصل بالتأكيد إلى جنيف قبل الأول من أيار (مايو) سوف يسمح «لدوستويفسكي» وزوجته بالإقامة في «فيفي» (Vevy) حيث المناخ أفضل من مناخ جنيف. وفي «فيفي» سوف يكتب أشياءً مهمة وجميلة. وأخيراً، عندما ينهي كتابة الرواية، سوف يسافر الزوجان إلى إيطاليا..

وعاد، مزهواً وفخوراً بمشروعه الجديد، ولكن، بعد ذلك ببضعة أيام، أصيبت الصغيرة «سونيا» بالبرد أثناء إحدى النزهات، وأخذت تسعل. وأكد الطبيب الذي استشير بشأنها، بأن ليس هنالك ما يدعو إلى القلق، الذي يتجاوز الحد المعقول. فلم يطمئن «دوستويفسكي» تماماً، ولم يعد يريد أن يكتب شيئاً، بل ظل يجلس قرب سرير «سونيا» يراقبها وهو ينتظر، وقد تحققت هواجسه، فقد توفيت الصغيرة يوم ٢٤ أيار (مايو) وكان حزن «فيدور ميخائيلوفيتش» شديداً، فقد أخذ يبكي ويصرخ أمام الجثمان الصغير، وينحني على ذلك الوجه الناعم والغض، وعلى تلك اليدين الصغيرتين، ويغمرها كلها بالقبلات. وساعد زوجته على إلباس «سونيا» فستاناً من الساتان الأبيض، وعلى ترتيب كل استعدادات حفل التشييع

والدفن. وعندما سقطت أولى دفعات التراب على غطاء التابوت الخشبي، وسمع الصوت الذي أحدثته، أعتقد أنه يتلقى ضربات قوية على صدره، وأنه يقتل، ويدفن هو بدوره أيضاً.

كان قد وضع كل أمله وكل فخره في هذه الطفلة. وكان يتصور المستقبل الذي ينتظرهم، الثلاثة بأمسياته وسهراته العائلية، والقراءة والمطالعة المتنوعة، والكثير من بواعث ومظاهر السعادة، التي أصبحت فجأة، مستحيلة التحقيق. وهو لم يحصل على الكثير من الأفراح في حياته، وكانت قد حصلت له فرحة شديدة ونقية جداً، لدرجة أنه بدا له أن وضعه قد تحسن، وأصبح أفضل مما كان عليه. ولكن ها هي حتى هذه الفرحة نفسها، قد انتزعت منه وحرم منها. وهكذا، فقد انتهى، انتهى كل شيء: ولن يرى أبداً بعد الآن ذلك الوجه الصغير والجميل، ولن يتأمل بعد اليوم تقطيبات ذينك الحاجبين الصغيرين، الخفيفة، ولن يتحسس بأصابعه ذلك العنق الدافئ.. ولم يعد يستطيع أن يرى طفلاً يمر في الشارع دون أن يتذكر في الحال الطفلة التي رحلت.

وكانت هذه الذكرى تؤلمه، وتكاد تمزقه، وللمرة الأولى، راودته فكرة الثورة والتمرد على الله.

وكتب، فيما كتبه إلى «مايّكوف»:

«آه! يا «أبولون نيقولايفتش»، وماذا يهم أن يكون حبي لطفلي الأول، سخيفاً ومضحكاً! وما هي الأهمية في كوني تحدثت عنه بطريقة سخيفة ومضحكة في الأجوبة العديدة التي أرسلتها إلى الأشخاص الذين وجهوا لي التهاني بمناسبة ميلاد طفلتي! فأنا وحدي الذي كنت أبدو لهم سخيفاً ومضحكاً. ولكن لك، ولك أنت، لم أعد أخشى أن أكتب. وقد قيل لي، لتعزيتي، إني سأرزق أيضاً أطفالاً فيما بعد. ولكن أين «سونيا»؟ أين تلك المخلوقة الصغيرة، التي من أجلها، كنت أقدم نفسي كي أصلب، وأقول

هذا بجرأة وصراحة، لو أني استطعت بذلك أن أنقذ حياتها؟.. ولكن، دعنا من هذا الموضوع، فزوجتي هنا، وهي تنتحب وتبكي. وبعد الغد سنسافر أخيراً، ونفارق «قبرنا» الصغير، ونذهب إلى أي مكان».

وفي أواخر شهر أيار، غادر «دوستويفسكي» وزوجته جنيف، حيث كل شيء كان يذكرهما بالصغيرة «سونيا» وعبرا البحيرة، للإقامة في «فيفي» (Vevy).

ولكن، حتى في «فيفي»، فقد ظل حزن «فيدور ميخائيلوفيتش» و «أنّا عريغوريفنا» يتزايد. وأخذت حياتهما تبدو لهما عديمة الجدوى. وقد كتبت «أنّا غريغوريفنا» في مذكراتها:

«كانت كل أفكارنا وجميع أحاديثنا تتمحور حول ذكرى «سونيا» وتتركز على الأيام السعيدة التي أمضيناها بالقرب من سريرها، عندما كانت تنير حياتنا».

كما كتب «فيدور ميخائيلوفيتش»:

«إنني لن أنسى أبداً، وأبداً، لن أكف عن الشعور بالألم وبالعذاب، حتى ولو رزقت بطفل آخر، فإني لا أدري كيف سأستطيع أن أحبه. وأين يمكنني أن أجد هذا الحب؟ أنا بحاجة لسونيا. وأنا لا أستطيع أن أفهم أنها لم تعد على قيد الحياة، وإنني لن أراها أبداً، بعد الآن».

وفي الليل، كانت «أنّا غريغوريفنا» تعاني من الكوابيس، فتبكي وتنتحب. وأمها التي أتت من «سان بطرسبورغ»، أخذت تحاول تعزيتها، ولكن دون جدوى. ومدينة «فيفي» الصغيرة ليس فيها شيء من وسائل اللهو والتسلية. والمناظر الجميلة والمدهشة، حول البحيرة الزرقاء والملساء، والبخار المتصاعد منها كالدخان، والجبال التي تغطيها الثلوج البيضاء. تحت سماء صافية، كل هذا الهدوء وهذا الجمال الذي يسحر السياح ويخلب لبهم. كان يثير قرف واشمئزاز «فيدور ميخائيلوفيتش». فمرض،

ومرضت زوجته أيضاً. وبدا له أنه لن يشفى ويستعيد صحته، طالما أنه لم ينجز روايته:

«إنـي أكـره روايـتي، لدرجـة أنهـا تـثير لـدي الغثيـان، وقـد أرغمـت نفسي، بشـكل مرعب، علـى العمـل، ولـكـن دون أيّ نتيجـة أو جـدوى.. وإذا اسـتطعت أن أصـحح روايـتي وأنجزهـا، فـإني سـأتعافى وأسـتعيد صـحتي، وإلا، فإني سأضيع، لا محالة».

وأثناء ذلك، كانـت شـرطة «سـان بطرسـبورغ» تحتجـز رسـائله وتقيم رقابة حوله، كانت تزعجه وتثير أعصابه. وكـاهـن «جنيـف» الأرثوذكسي كـان عمـيلاً للـشرطة الـسرية. وقـد علـم «فيـدور ميخـائيلوفيتش» بواسـطة رسالة من مجهول، بأنه سوف يفتش على الحـدود، عنـد عودتـه إلى روسـيا، وكما أن ذلك قد حصل عـن عمـد، فقـد تلقـى في الفـترة نفسها، كتابـاً لم ينشر، بعنوان: «أسـرار قصـر القيـاصرة» وقد ورد فيه ذكـر «دوسـتويفسـكـي» وزوجتـه الأولى، بـين الأبطـال المنفـيين. وورد في الكتـاب أيـضاً الإدعـاء بـأن «فيـدور ميخـائيلوفيتش» قـد تـوفي، وأن زوجتـه، قـد لجـأت إلى أحـد الأديـرة. وهذا الزعم المسيء أزعج «دوسـتويفسـكـي». وأثار حفيظته، خاصة وأنـه غير معقـول. فكتـب تكـذيباً لـه، ولكنـه لم يرسـله مـع أن مـسودته ظلـت محفوظة، وقد جاء فيها، ما يلي: «إن كل إساءة مهما كانت غير معقولـة، فإنها تحقق غايتها والهدف منها».

وفي مطلـع شـهر أيلـول (سـبتمبر) غـادر «دوسـتويفـسـكـي» وزوجتـه سويـسرة، إلى إيطاليـا. وتوقفـا أولاً، في «ميلانـو»، ولكـن «فيـدور ميخائيلوفيتش» شعر فيها بالملل، بسرعة. فـالمطر ينهمـر فيهـا طوال الوقت. ولا يوجـد فيهـا كـتب روسـية، «ولا شـيء روسـي! ولم أحـصل علـى كـتاب روسي أو على أيّ صحيفة روسية، منذ ستة أشهر... وفكـرة روايـة «الأبله» قد أخفقت، وفشلت تماماً».

وأخذ يتوسل إلى صديقه «مايّكوف» بأن يطلعه على كل ما يحدث في روسيا. فأخبره صديقه، بصدور صحيفة جديدة، تحمل اسم: «الفجر» و «ستراخوف» الذي كان يساهم في تحرير صحيفتي «الزمن» و «العصر» يتولى رئاسة تحريرها. فتأثر «دوستويفسكي» بذلك، وشعر بالزهو والفخر، وكتب إلى «ستراخوف» قائلاً له:

«وهكذا، فإن إداراتنا وعملنا المشترك سوية، لم يذهبا سدى.. وأن يبدأ هذا المشروع الجديد، حيث كنا قد توقفنا، فهذا يجعلنا نشعر بسعادة غامرة»!

ومن «ميلانو» ذهب «دوستويفسكي» وزوجته إلى «فلورنسا» حيث استقرا نهائياً، وأقاما في نزل غير بعيد عن قصر «بيتي». وهذا التغيير، والتنقل بين المدن والبلدان، كان يواسي ويسلي «فيدور ميخائيلوفيتش» وزوجته. وزارا سوية الكنائس والمتاحف.

وكان «دوستويفسكي» شديد الإعجاب بـ «رفائيل» رسامه المفضل. وأخيراً، اكتشف مكتبة مهمة، مشتركة بصحيفتين روسيتين. فكان «فيدور ميخائيلوفيتش» يرتادها يومياً، ويمضي فترة بعد الظهر في قاعة المطالعة.

وكان ما يرسله «كاتّكوف» من النقود يصل بانتظام، كما كان يتمنى ويرغب «دوستويفسكي». والعمل في الرواية أخذ يتقدم.

وأراد «دوستويفسكي» أن ينجزها وينتهي منها فقرر أن يستعجل نهايتها، بشكل مفاجئ: «إذا كان هنالك قراء يتابعون مطالعة رواية «الأبله»، فسوف يدهشون قليلاً، من هذه النهاية غير المتوقعة. ولكنهم، عندما يفكرون جيداً، سوف يدركون، بأنه لم يكن هنالك نهاية أخرى ممكنة».

«الأبله»

كانت مجلّة «المراسل الروسي» قد بدأت نشر رواية «الأبله» منذ مطلع شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٦٨. وكان «دوستويفسكي» يقول عن روايته إنه لم يسبق له أبداً أن عالج موضوعاً أكثر أهمية وغنى من موضوعها، ولكنه لم يستطع التعبير عن الجزء الثاني من فكرته. والحقيقة هي أن رواية «الأبله» تظل، مع روايتي «الشياطين» و «الأخوة كرامازوف» أحد أعماله المهمة والرئيسية:

الأمير «ميسشكين» المريض بالصرع، يعود من عيادة في سويسرة حيث عالجه أحد الأساتذة، بدافع الشفقة. فهو يتيم، ولا يملك شيئاً سوى صرة ملابس هزيلة، ولا يعرف شيئاً من أمور المعيشة والحياة. وقد قال له الطبيب: «لقد حصلت لدي القناعة التامة، بأنك طفل حقيقي، أي طفل في المعنى التام والمطلق للكلمة، وليس لك من الشخص البالغ والراشد سوى القامة والوجه. وفيما يتعلق بنمو وتطور الطباع والروح والنفس وربما حتى بنمو وتطور الذكاء، لست رجلاً كاملاً وستبقى هكذا، حتى لو عشت ستين سنة».

وهذا «الطفل» الذي بلغ السادسة والعشرين من العمر، مهذب، دون تزلف أو مجاملات، خجول، طيب القلب وساذج، وهو لم يعش أو على الأقل، لم يعش عملياً وبالفعل. وقد انقضت حياته في تأملات داخلية. وانزوى

خارج الأسوار الاجتماعية، وخارج عالم الـ «اثنين في اثنين تساوي أربعة». وهو نقي طاهر ومجرد من أي تماس أو اتصال مع البشر. وعندما يقع بينهم، في إحدى تلك المدن الكبرى، التي يسكنها الجشعون، الغشاشون، الشهوانيون، المهرجون والسكيرون، يبدو كدخيل هناك.

وكانت زيارته الأولى، عند وصوله إلى «سان بطرسبورغ»، إلى الجنرال «ايبانتشين»، الذي ينتمي إليه بقرابة بعيدة، والذي يأمل أن يتلقى منه بعض النصائح بشأن عدة قضايا وأمور شخصية.

ولم يكد «ميسشكين» يخرج من عزلته، حتى برهن على رعونته وعدم مهارته فقد أجرى حديثاً مطولاً مع الخادم المكلف باستقبال الزوار. وارتكب عدة أخطاء أمام «سكرتير» الجنرال، وكسر فيما بعد، مزهرية من الخزف الصيني، أثناء إلقائه خطاباً يحفظه غيباً. وهذه المزهرية الصينية هي عبارة عن رمز. وهي تمثل عالم المادة الذي يصطدم به، يدفعه بقوة ويقلبه، عندما تقتاده قناعاته.

ومع ذلك، فإن هذا الشخص الجذاب الذي يكسر الأواني الخزفية، هذا المتشدق الساذج والأخرق، لا يثير حفيظة مجاوريه. لأن البساطة التي تتسم بسلامة النية، ودون قصد خفي، التي يقارب بها الناس ويتحدث إليهم، تهدئ الناس الذين كان من الممكن أن يكونوا معادين له. فهم يسخرون منه ويضحكون، حقاً. ولكنهم يغفرون له خرقه ومخالفته للياقة والتقاليد كما تغفر للأجنبي أخطاءه اللغوية. وهم يشعرون أنه من بلد أو من مكان آخر. ويبدو أنه من العبث وغير المعقول أن يطلبوا منه سلوكاً وطريقة في التعبير، يجهلونها في بلاده. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا «المسافر» «عابر السبيل» هذا والمار، الذي يبدو لأول وهلة، محروماً من أي تعليم أو معرفة، هو، في الواقع، غني بعلم خاص. ولديه معرفة لا يستطيع أن يدركها «المحتجزون ضمن الجدار» في هذا العالم. وهو يتمتع بالذكاء

الرئيسي. فقد قالت له ابنة الجنرال: «إن الذكاء الرئيسي نامٍ» ومتطور لديك، أكثر من أي واحد منهم، وأنت تملكه على درجة، لم يتصوروها أو يلمحوها حتى ولا في أحلامهم، لأن هنالك نوعين من الذكاء: الذكاء الرئيسي، والذكاء الثانوي، أليس كذلك»؟

والحقيقة هي أن الرواية كلها ترجع إلى ما يلي: «إدخال، بل إقحام الذكاء الرئيسي في مجال الذكاء الثانوي». وهذا الذكاء الرئيسي، وهو الذكاء الكائن خارج قوانين السببية وقوانين التناقض، وخارج قواعد الأخلاق، وهو الذكاء الخفي والغامض، ذكاء الشعور والعاطفة، سيحدث اضطراباً وتشويشاً في الوسط الذي سينتقل إليه. وفي هذا الجو المغلق، يفتح وصول «ميسشكين» ما يشبه الدعوة، إلى الهواء. ويُحيّا، في بداية الأمر، وصوله بقهقهات الضحك. فهو فظ و «أبله» وأحمق، وأمه نفسها كانت تعامله، فيما مضى باعتباره مغفلاً. ولكن، شيئاً فشيئاً، هذا الأحمق، الأبله، يطرح ثانية للبحث المبادئ الأكثر ثباتاً واستقراراً. وهذا الضعيف العقل يجعل الرجال العقلاء ينصرفون إلى التفكير. وهذا الدخيل يصبح ضرورياً، لا يمكن الاستغناء عنه. وهذا الضعيف يروض الأقوياء. وهو يروضهم دون أن يقصد ذلك. وهو على ثقة، أن الجميع طيبون من حوله، وأن الجميع يحبونه. وبمعاملته المخلوقات الأكثر فساداً والأكثر شراً، كمخلوقات تتصف باللطف وبالتقوى. يستميلها، ويجعل منها حلفاء له. ويصبح الناس طيبين، لأنه يتمنى أن يكونوا هكذا، ولأنه يعتقد أنهم هكذا. فهو في مركز حقل للقوى، ومنه تنبعث آليات جذب خفية وعجيبة. ويعرف بعض المتكبرين بركة التواضع، وكثير من الأنانيين ينفتحون على التوبة والندم، والمستاؤون يستعيدون براءة الطفولة، وسلامة النية التي تتسم بها. والعار والكراهية يختفيان لبعض الوقت عن نظره. وحياة كل فرد من الناس تأخذ معنى لم يعد أرضياً. وفي نظر الذين يحيطون به، هو دليل على

حياة أخرى، ولعالم آخر، محتمل وممكن. وهو يؤثر على أولئك الذين يرونه. فلم يعودوا كما كانوا تماماً بعد أن عرفوه.

ولكن الذين يشعرون بالمزيد من القوة بسحر حضوره هم العنيفون، الضالون، جميع أولئك الذين «تجاوزوا الحدود» فمن كان هو أول من فهمه؟ أنه «روغوجين» البائع، الفظ، الذي سيقتل خليلته في نهاية الكتاب. و «نستازيا فيليبوفنا» أيضاً، العاهرة. ولماذا؟ ولكن ذلك بالضبط لأن تلك المخلوقات قد تحررت تماماً من جميع مبادئ الأخلاق الدارجة. لقد اجتازت الجدار. حقاً، لقد ضلت الطريق خارج تلك الأسوار التي كانت تحتجزها سابقاً. ولكن هؤلاء الذين حاولوا الحصول على الحرية، الذين تعذبوا، وأحدثوا الشر والأذى هم أقرب إلى الحقيقة، ويستحقون الحقيقة أكثر من أولئك الذين لم يعملوا شيئاً في محاولتهم لتعلمها. الانفعال يعذر، بل يصلح عذراً لكل شيء.

والانفعال حتى الإجرامي أفضل من السكينة والهدوء.

وفضلاً عن ذلك، كان بين أصدقاء «ميسشكين» إلى جانب أولئك الذين هربوا من «العالم - السجن» هنالك أولئك الذين لم يدخلوا إليه، بعد: الأطفال. الأطفال يتحلون بروح مرنة لا تعرف القهر والضغوط. إذ إنه لم يتح لهم الوقت لكي يكونوا لأنفسهم عن العالم رؤية جامدة. فكل شيء حركة، وكل شيء فرص بالنسبة لهم. ولا شيء يتعلق بشيء أو يتوقف عليه. وكل شيء يمكن أن يولد كل شيء. وهذه المخلوقات الجديدة، هذه «العصافير» هي، بالفطرة، ما يجهد الآخرون أنفسهم لكي يصيروا عبر تجارب ومحن رهيبة. إنهم يعيشون بالقرب من الطبيعة، بالقرب من الله، وفيما بعد، سوف يؤمنون بقواعد بني البشر، وسيضلون بالنسبة للحرية، أو من أجلها. وسيصنع منهم أهلهم ومعلموهم، شيوخاً قبل أن يتقدموا في السن، أقوياء في العلم، مفكرين باردين لدرجة التجمد. بورجوازيين

حساسين يهتمون بالراحة والرفاهية، وحوش، بشكل أشخاص مشوهين. ولكنهم في الوقت الحاضر، ما زالوا فارغين، خالين وسريعي العطب. ولأنهم فارغون وسريعو العطب فهم أصدقاء «ميسشكين». و «ميسشكين» هو مثلهم «صغير» ضائع بين حاشية وأتباع «الكبار».

ويقول:

«الأشخاص الكبار لا يعرفون أنه في إحدى القضايا، حتى التي تبدو أنها الأكثر صعوبة، يستطيع أحد الأطفال أن يعطي نصيحة بالغة الأهمية. أوه! يا إلهي! عندما ينظر إليك هذا العصفور الصغير الجميل، بكثير من الثقة والسعادة، فلكم نخجل من أن نخدعه أو نغشه. وأنا اسميهم عصافير صغار، لأن العصافير الصغيرة، هي أجمل وأفضل ما في العالم.. أما «تيبو» (معلم المدرسة)، فكراهيته كانت هي الغيرة وحسب: ففي البداية كان يهز رأسه مندهشاً وهو يرى أن الأطفال يفهمون تماماً كل ما كنت أقوله لهم، بينما كان لا يتوصل لأن يجعلهم يفهمون منه شيئاً، وبعد ذلك سخر مني عندما قلت له إننا لا نعلمهم شيئاً، لا هو ولا أنا، بل كانوا هم، على العكس، الذين يعلموننا».

والمفكرون أقاموا مقابل السماء، سوراً من الحقائق البشرية، تخفيهم عن الأنوار العليا. وكبرياؤهم الخاصة بهم، تقف حائلاً بينهم وبين الحقيقة. «لقد أخفى على العقلاء وعلى الأذكياء ما أظهره للأطفال».

وبين جميع هؤلاء الثائرين، وجميع هؤلاء المتمردين، يوجد نوع من الأخوة الخفية والعجيبة. فهم الضائعون في لا نهائية العاطفة، مرتبطون ببعضهم بتيارات «تخاطرية» (تناقل وتبادل الخواطر) ويدركون ما يجول بخواطر بعضهم، قبل الفعل. ولديهم الحدس التنبؤي بالمستقبل. فلا شيء يدهش ولا شيء يصيب هؤلاء المنظرين المنتشين، بأيّ خيبة أمل. وهكذا فعندما سئل «الأبله» فيما إذا كان يعتقد أن من الممكن أن يحصل الزواج بين «نستازيا فيليبوفنا» و «روغوجين»، أجاب، بكل بساطة:

«نعم، أعتقد أنه يمكن أن يتزوجها، وربما ليس فيما بعد الغد بل قبل ذلك، ولكنه، بعد ثمانية أيام، يمكن أن يقتلها».

وتقول شخصية أخرى من شخصيات الكتاب: «أنا خائف، لا أدري لماذا، ولكني خائف: يخيل لي أن هنالك شيئاً في الجو، مصيبة تطير في الهواء كالخفاش، وأنا خائف، خائف جداً»..

و «نستازيا فيليبوفنا» تتوقع تماماً موتها. وقد كتبت بخصوص «روغوجين»: «يمكنني تماماً أن أقتله، فأنا أخاف منه كثيراً، لدرجة أني أستطيع أن أقتله.. ولكنه سيقتلني أولاً»..

والأمير «ميشكين» وقد لمح سكيناً على منضدة «روغوجين»، يدرك أن تحت نظره السلاح نفسه الذي سيستخدمه القاتل، فيما بعد:

«هل تستعملها لقص الصفحات؟

- نعم، لقص الصفحات.

- ولكنها.. جديدة جداً».

وعند خروج «الأبله» من عند مضيفه، أخذ يتساءل:

«ولكن هل تقرر أن يرتكب «روغوجين» جريمة قتل»؟

وفيما بعد، سيذهب إلى عند «روغوجين»، دون أن يستدعى للقيام بذلك، بل لأنه «حدس» وحسب بأن مصيبة قد وقعت. وسينتظره «روغوجين» أمام منزله، فقط، لأنه «توقع» زيارة وقال له: «ليون نيقولافيتش»، اتبعني، يا صديقي، ينبغي أن تفعل ذلك».

ومع ذلك، فإن هذه المخلوقات التي لديها عن قدرها الخاص بها وعي تشعر به عن طريق الهلوسات، لا تعرف أن تتخلص من الخطر الذي يترصدها. فهي لا تعرف ولا تستطيع، بل ويخيل لنا أنها لا تريد أن تتجنب الهاوية التي تتقدم نحوها. وهؤلاء هم عبيد لبصيرتهم وبعد نظرهم. وهم لا يسيطرون على حياتهم، إنهم يشعرون بها. وهؤلاء تواقون للانطباعات

القوية، لا يرغبون السعادة ولا اليأس ولا يرغبون إلا بالوعي وبالشعور بأنهم موجودون، وعلى قيد الحياة. وأي ألم يبدو لهم صالحاً لتثبيت حدود هذا الوجود. أنا أتألم، إذن أنا موجود. وأنا أتغلب على الآلام والعذاب، إذن سأكون وسأصير وأياً كان يدع الأحداث تهزه، يتجه نحو الله، وأياً كان يريد أن يحمي نفسه منها، يبتعد عنه. «من يحافظ على حياته يفقدها، ومن يفقد حياته، بسببي، سيجدها».

والرواية ليست سوى سلسلة متتابعة من الكوارث، وكل منها متوقعة من قبل «الشخصيات الحساسة» وأي منها لا ترفض بصورة إرادية وأبطال «دوستويفسكي» لا يميلون إلا لمن سيسبب لهم الضياع. فالأمير «ميسشكين» «الرجل الطيب بشكل مطلق»، حل لتوه في منزل الجنرال «ايبانتشين». ولم يكد ينضم إلى الأسرة، حتى أخذ يتدخل بجميع المشكلات والمكائد. ويهتم بما لا يعنيه، وبما يهدد طمأنينته وحياته. وحالما لمح على إحدى الصور وجه «نستازيا فيليبوفنا» الذي تنم ملامحه عن الألم. قرر أن يعطي اسمه إلى هذه الخاطئة الكبيرة.

ومع ذلك، فهو لا يجهل أن هذه الرغبة عبثية وغير معقولة. فهو يزاحم «روغوجين» الفظ والكئيب، على المرأة الشابة ويحاول انتزاعها منه، وعندما يعدل عن ذلك وينسحب أخيراً، يعرف جيداً أنه بذلك يرسل «نستازيا فيليبوفنا» إلى الموت. وهذه الأخيرة تتبع «روغوجين» لأن هذه هي أكبر غلطة تستطيع أن ترتكبها. و «روغوجين» يقتلها، لأنه يدرك أنه سيظل نادماً على هذا العمل طوال حياته. ويتصالح القاتل والرجل الطيب تماماً، أمام الجثمان، لأنه قد تولد لديهما أخيراً إحساس، بأنهما نفذا أمراً محتماً، لا مفر منه.

كان «روغوجين» يتلفظ بصوت عالٍ بكلمات غير متجانسة.. عند ذلك مد «الأمير» نحوه يده المرتجفة، ولمس رأسه بلطف وهدوء، ثم داعب شعره وخديه.. وكان هذا هو كل ما كان يستطيع أن يعمله».

وهذا الكتاب الذي يذخر بالانفعالات والخواء، يبدو أنه أول أكبر رواية حب، كتبها «دوستويفسكي». ومع ذلك، فإن الحب، وأنماط الحب التي تشكل لحمة رواية «الأبله» أو المغفل، ليس لها ثمناً حقيقياً، فهي عوائق ينبغي اجتيازها وليست محطات للاستراحة، يمكن أن تعلق عليها الآمال. وهي مراحل في مسيرة إلى الحقيقة. وهي ليست الحقيقة. والحب لدى «دوستويفسكي» لا يعبر أبداً عن راحة النفس أو عن راحة الجسد، والرغبة لا تحظى بالإشباع أبداً. والفعل الحسي والجنسي ليس كاملاً. بشكل حقيقي، على الإطلاق. والمرأة لا وجود لها، بالنسبة له، إلا باعتبارها كعنصر كاشف. ومكانها بين الرجل والله، ليس عديم الجدوى. فهي هناك لكي توقظ الرجل على الألم، لكي تعذبه، لكي تصرعه، لكي تنهضه وترفعه، ولكي تجذبه خارج نطاق القوانين الأخلاقية، ولتلقي به وهو يختلج ويلهث، وقد استولت عليه الدهشة، وبدا جديداً تماماً، في عالم الحرية، الذي يفوق الوصف. وهي تمثل الإغراء، بل الغواية، التي بها يعلن الهدوء النهائي.

فتّش الكثيرون، عبثاً ودون جدوى، في روايات «دوستويفسكي» عن امرأة تكون الموضوع الرئيسي أو المحور المركزي، في العمل، نسخة مطابقة لـ «أنا كارينيا» أو لـ «لناتاشا» بطلتي «تولستوي» أو لـ «تاتيانا» بطلة «بوشكين» أو لـ «مدام بوفاري» أو لـ «أوجيني غرانديه» فروايات «دوستويفسكي» الكبرى، روايات «رجولية» (أبطالها ذكور). والإناسة (علم الإنسان) لدى «دوستويفسكي» لكي نستعمل هنا تعبير «بيرديابيف» نفسه، هي إناسة مذكرة. والنساء بالنسبة له، ليس لهن قيمة خاصة، إنهن وسائل، ولسن هدفاً وغاية، وفي معظم الأوقات، المرأة «تخدم» رجلين في آن واحد. وكل من هذين الرجلين يبدو منجذباً إلى هذه المرأة نفسها لأسباب مختلفة. وكما أن كل رجل يستطيع أن يحب امرأتين في آن معاً. فالمرأة

تمهد وتهيئ لازدواج الشخصية المذكرة. حب شفقة، حب متعة. «ميشكين» يحب «نستازيا فيليبوفنا» ويحب أيضاً ابنة الجنرال «ايبانتشين» الظريفة «أغلاييه».

وجمال «أغلاييه» يغريه ويجذبه. ولكنه يشعر بشفقة لا حدود لها لوجه «نستازيا فيليبوفنا» الذي تعبر سيماؤه عن الألم الشديد وهو يقول:

«إني لم أستطع تحمل رؤية وجهها، فأنا أخاف من وجهها، وأنا لا أحبها عن حب، بل بدافع من الشفقة».

ولو أرغم على الاختيار بين «نستازيا فيليبوفنا» و «أغلاييه»، فإنه سيلتفت نحو الأولى. «فلم يرَ أمامه سوى المجنونة، اليائسة، التي بقي لديه عنها انطباع محزن أنها تعيسة جداً»!

أما «نستازيا فيليبوفنا» فقد بدت مترددة بين الأمير المريض، الفاضل، والطيب القلب لدرجة البلاهة، وبين القاسي والشهواني: «روغوجين» ولكل من جسدها وقلبها دور في قدر ومصير هذين المخلوقين المشدودين إليها. وهي تفقد أحدهما بجسدها، والآخر بقلبها. ومع ذلك، فإنها بعد أن ماتت، لاحظ عاشقاها اللذان تصالحا، أنهما تقدما خطوة نحو الخلاص الواحد نفسه.

وهكذا، فبالنسبة «لدوستويفسكي» كل حب يُكرس ويهدى لمخلوق، ليس مسروقاً من الله. إذ إن الحب الأرضي (على سطح الأرض)، ولأنه ناقص، غير ناجز، عابر ومؤقت، يسبب العذاب، سخيف يثير السخرية، فهو يهز النفوس والأرواح ويهيئها للحب الوحيد الذي لن يخيب أملها.

والأمر الذي ينبغي ملاحظته والإشارة إليه، من جهة أخرى، أن حب القريب هو العون الوحيد الذي تستطيع شخصيات «دوستويفسكي» أن تطلبه الواحدة من الأخرى. «ميشكين» القديس، لا يجيد التصرف وهو

لا يجيد سوى الحب. وعندما يحاول التصرف، يخطئ. فهو ليس فقط، لا يتوصل إلى مساعدة أحد. ولكنه يشوه أيضاً الأوضاع والمواقف الأكثر صحة وسلامة، ويسيء إليها. ومرور هذا «الرجل الطيب للغاية» عبر الكتاب، ينتهي بجريمة قتل، وبثلاث أو أربع مآسي عائلية. أما «الرجل الطيب للغاية»، فيصاب بالجنون. فهو لم يستطع العيش في ذلك الجو الذي لم يكن جوه. وهو لم يستطع التكيف مع الشرط البشري، ولم يستطع أن يصبح رجلاً. ومع ذلك، فإن ضياعه قد أنقذ المحيطين به. وحضوره قد أغنى عدة حيوات، وأيقظ بعض الضمائر ونبهها إلى المشكلات الرئيسية.

«أقول لكم هذا، بالحقيقة، إذا كانت حبة القمح التي تسقط في الأرض لا تموت في الأرض، فإنها تظل وحيدة بمفردها، أما إذا ماتت، فهي ستعطي كثيراً من الغلال».

وهكذا فإن هذه الفقرة من الإنجيل، تبدو كأنها الخاتمة الخفية لرواية «الأبله».

وشخصية «الأبله» ربما كانت، الأقل إنسانية من جميع تلك الشخصيات التي تخيلها «دوستويفسكي». «أليوشا كرامازوف» رجل طيب، ولكنه لا يجهل شيئاً عن السوء والشر، ويعرف أهواء وانفعالات ومغريات الجسد والنفس، ويسيطر عليها. و «أليوشا كرامازوف» هو كائن كامل. ولكن الأمير «ميششكين» هو وجه من خارج نطاق الأرض (كأنه من كوكب آخر). مجرد من أيّ حساسية جسدية أو جنسية. وهو، بالذات، يقول:

«لا أستطيع أن أتزوج أيّ امرأة، فأنا مريض».

وهذا المخلوق «الفوق - طبيعي» والخارق للعادة، كان لا بد، مع ذلك، من إعطائه، روابط مع العالم المحسوس. وهذه الفكرة يجب تزويدها بجسم وبوجه، وبصوت وبماضٍ. ولإغناء هذا البطل الذي ليس له ثقل

ولا حجم، يضع «دوستويفسكي» شخصيته الخاصة، ويستخدمها في مشاركة هذا البطل.

«ميسشكين» مصاب بالصرع، وهو يشعر، مثله في ذلك مثل «دوستويفسكي» بتلك الفرحة الكبرى، التي تحصل قبل النوبة. ومثله أيضاً، هو ينتظر، يتوقع ويأمل تلك اللحظة الثمينة، التي تظهر له فيها ويتجلى، في ومضةٍ، انسجام وتناسق العالم، التامان والعلويان: «في تلك اللحظة، يبدو لي أني أفهم كلمة الحواري، العجيبة:

«لن يكون هنالك زمن بعد ذلك»! وهذا المرض يبقيه بصورة مستمرة في نوع من حالة النوام المتألق. يصبح العالم فيها، بالنسبة له شفافاً. وهو يرى فيما وراء الكائنات والمخلوقات. ويعيش بصورة خفية وعجيبة، في المستقبل. وذكريات الأمير مستعارة من ذكريات «دوستويفسكي» نفسها. والأمير يروي، بالفعل، قصة رجل، تلي عليه قرار الحكم بإعدامه رمياً بالرصاص، باعتبار أنه مجرم سياسي: «وبعد عشرين دقيقة، ورد العفو عن هذا البائس: فقد مُنح تخفيف عقوبة الإعدام إلى السجن مع الأشغال الشاقة. ولكن، بين تلاوة قرار الحكم بالإعدام، وتلاوة قرار تخفيف العقوبة، انقضت عشرون دقيقة، أو على الأقل ربع ساعة، عاش خلالها ذلك السيئ الحظ، وهو متأكد من أنه سيموت بعد بضع لحظات».

ويلي ذلك الوصف الصحيح لعملية إعدام «البيتراشفيستيين» (Les Petrachevtsy).

أمر ثانوي شخصي، آخر: «ميسشكين» لا يطيق رؤية لوحة معلقة في منزل «روغوجين»، وهي نسخة عن لوحة: «النزول عن الصليب» للرسام «هولبين»..: «لو تأملَ رجل هذه اللوحة، لفقد الإيمان»! هذا ما صرح به الأمير، بأعلى صوته.

والحال، هي أننا نقرأ في مذكرات «أنّا غريغوريفنا»: «ونحن في طريقنا إلى جنيف، توقفنا، يوماً، أمضيناه في «بال» لزيارة متحفها الذي توجد فيه لوحة، تحدث أحدهم عنها لزوجي. وهي من عمل الرسام «هولبين»، وتمثل السيد المسيح، الذي كان قد تحمل عذاباً يفوق طاقة البشر، وقد أنزل عن الصليب، وترك هناك عرضة للتعفن والتفسخ.. كنت أكثر ضعفاً من أن أطيق النظر إليها لفترة طويلة، لذلك ذهبت إلى قاعة أخرى.. وعندما عدت كان زوجي لا يزال هناك، في مكانه نفسه، مسمراً ومتأملاً، وقد بدت على وجهه علامات التأثر، وتعابير الرعب، التي سبق لي أن لاحظتها كثيراً، في بداية نوبات الصرع التي كانت تصيبه».

وقال لها هذه الجملة «إن لوحة كهذه، يمكن أن تجعل المرء يفقد الإيمان»..

أما موقف الأمير، نفسه، حيال خصمه ومنافسه «روغوجين» فهو يذكرنا بالموقف الذي اتخذه «دوستويفسكي» حيال منافسه «فيرغونوف» في سيبيريا.

«لست عدوك، ولا أريد أن أعيقك عن أي شيء... فإذا كنتما، قد تفاهمتما، واتفقتما سوية الآن، فعلاً، فإني لن أبدو أمام ناظريها أبداً، ولن أقوم بزيارتكما، بعد الآن».

نعم، وعلى مدى طول الكتاب، نشعر أن «دوستويفسكي» يحاول جاهداً، الإكثار من تجميع التفاصيل المادية. والأمور الدقيقة، والملاحظات الشخصية لكي يبرر أمام أنظار جمهور لا يتمتع بالمعرفة والخبرة الكافية، تلك القصة التي تبدو وكأنها من عالم آخر. وهو يدخل إلى عالم «الاثنين في اثنين تساوي أربعة» شخصيات تصورها وصممها تحت علامة ودلالة «اثنين في اثنين تساوي ثلاثة». ويحاول جاهداً التوفيق بين من لا يمكن التوفيق بينهم. ومع ذلك، فليس هنالك شخصية ثانوية في هذه الرواية، تقف

بقدميها، بشكل حقيقي على الأرض. و «روغوجين» «نستازيا فيليبوفنا»، «هيبوليت»، «ليبيديف» «أغرييه» و «ايغولفين»، كل هؤلاء، جميعهم يساهمون في التنوير للتعبير والكشف عن كابوس مخيف.

ويتساءل الأمير: «ألا يستطيع «روغوجين» أن يطيق الضوء»؟ فهو يود أن يعرف جيداً وبدقة نفسية خصمه ومنافسه. ألا يوجد لدى هذا الرجل سوى الهوى الأعمى؟ وهل هو عاجز عن التحمل والمعاناة وعن التأقلم والانسجام مع العذاب والألم؟. وتقول «نستازيا»: «روغوجين» صموت وهو يظل صامتاً بشكل مخيف، وعيناه وحدهما تتكلمان» ويبدو أن هذا الرجل لا ينتمي لنفسه. ومن بداية الكتاب، نشعر أنه معلق، مجذوب، ومتجه نحو جريمته. وهو يقتل تلك الفتاة، التي ظل يشتهيها، ويرغب بوصالها، زمناً طويلاً، في اللحظة نفسها التي استسلمت له فيها. وذلك لأنه كان يأمل أن يفهمها بل وأن يحتويها في عناقهما والتحام جسميهما. والحال هي أن التحام جسميهما نفسه، هو الذي أبعد أحدهما عن الآخر. و «روغوجين» و «نستازيا فيليبوفنا» محتجزان كل منهما في عزلته الخاصة. والإشارات والتحركات البشرية لا تكفي للتقريب بينهما. كان «روغوجين» وهو منحنٍ على ذلك الوجه، على تلك الأنفاس، يتألم لشعوره بأن المخلوقة التي يضمها إليه، بعيدة جداً عنه. فهي ليست له تماماً. ولن تصبح أبداً له تماماً. ففي ذات يوم أو في يوم آخر، سوف تفارقه أيضاً. والموت وحده يستطيع أن يجعله يحتفظ بها. وضربها بطعنة خنجر في قلبها. وبعد ذلك، أخذ ينتظر زيارة الأمير.

كان شرشف أبيض يغطي الشخص النائم، ولكن أطراف جسده كانت ترتسم جانبياً وتتراءى بشكل غامض.. كان المخدع في حالة من الفوضى الشديدة: على السرير، على الأرائك، على أرضية الغرفة الخشبية، وفي كل مكان، تناثرت الملابس، كيفما اتفق، وكان هنالك فستان رائع

من الحرير الأبيض، وبعض الزهور والشرائط. وكان يبدو طرف رجل عارية، وقد خرج من تحت كدسة من الدنتيلا، التي بدت كبقعة بيضاء عبر الظلام: وكانت تلك الرجل تبدو كأنها رجل تمثال من الرخام. وبدا سكونها يبعث على الخوف. وبقدر ما كان الأمير ينظر، بقدر ما كانت تزداد وحشة وكآبة الانطباع الذي يحدثه لديه الصمت المخيم على الغرفة. وفجأة، استيقظت ذبابة، طارت، وهي تطنّ!، فوق السرير، وحطت على الوسادة. فارتعش الأمير».

لم يفاجأ الأمير باعتراف «روغوجين» وعندما قال له الآخر: «لا ينبغي أن ندعهم يأخذونها»، أجابه:

«كلا، كلا، ولا حتى مقابل أي شيء في العالم! كلا، كلا، كلا»! وشيئاً فشيئاً، انقلب الاثنان وسقطا وغاب كل منهما في اللاوعي. وعندما أتى رجال الشرطة لإلقاء القبض على «روغوجين» وجدوه، يرسل الصراخ والعويل، وهو جالس بالقرب من السرير.

وأثناء ذلك، كان الأمير يداعب بلطف وهدوء، شعر القاتل ووجهه. أما «نستازيا فيليبوفنا» فقد توقعت الموت، منذ بداية المغامرة.

فقد قالت، وهي تبتسم، قبل الذهاب إلى الكنيسة: «أنا شاحبة كامرأة ميتة. والواقع أنه لم يكن هنالك أي مخرج سوى الموت، من التمزق التي تعاني منه تلك الروح الخاطئة. إذا إن «نستازيا فيليبوفنا» تحب «روغوجين» كحيوان يشعر أنه منجذب نحو حيوان آخر، بتأثير رائحته وقوتها. فهي تحب «روغوجين» ومع ذلك، فهي تعترف أن هذا الرجل الفظ غير جدير بها ولا يستحقها. والأمير وحده يستطيع إنقاذها من التدهور والانحطاط. ولكن شعور الأمير، شديد القرب من الشفقة والرحمة، ولذلك فهو لا يرضيها. فهي مزهوة ومتكبرة، ولا تتقبل صدقة الشفقة والرحمة. وبرد الفعل، أدى بها الأمر إلى محبة عارها الذي يمنعها من أن تصبح

محبوبة بالشكل الذي تتمناه وترغبه. وقالت لها «أغريبه»: «لا تستطيعين أن تحبي سوى خزيك وعارك. والفكرة الثابتة والمسيطرة عليك بأنك امرأة ضالة وقد ضعت، وأن أحدهم قد جعل منك امرأة قضي عليها وأصبحت منتهية. ولو كنت أقل قذارة ودنساً، أو لو أنك لم تكوني كذلك أبداً، لكنت أكثر بؤساً وتعاسة». وهذا التعطش إلى المذلة والخضوع يتمازج بشكل غريب لدى «نستازيا فيليبوفنا» مع زهو وغرور لا حدود لهما. وبالفعل، فهي تريد تماماً أن تتواضع وتتذلل، ولكنها لا تريد أن يذلها أحد. وهذه الملاحظة تبدو صحيحة بالنسبة لجميع مخلوقات «دوستويفسكي».

وحول هؤلاء الثلاثة أبطال، يتحرك جمهور رائع من الطفيليين، والوقحين المتكبرين والفاشلين.

«ليبيديف» مستخدم ذليل، قواد متملق، مراب وشاهد زور ولكنه يجيد تماماً شرح الرؤيا ووصف نهاية العالم، ويبدي أسفه وحزنه بعبارات منمقة على مصير «دوباري»، وقد قال لـ «روغوجين»: «إذا جلدتني بالسوط، فسيكون ذلك دليلاً على أنك لا ترفضني وتطردني! اجلدني، فالضرب بالسوط هو استعادة للملكية».

وهنالك أيضاً الجنرال «ايفولغين» المستقيل من الخدمة والبائس» الذي يكذب لمجرد التمتع بالكذب، وينتهي به الأمر إلى عدم التمييز بين الكذب والحقيقة.

وهنالك الجنرال «ايبانتشين» المتعب المغرم المهم بـ «نستازيا فيليبوفنا» وهنالك أيضاً «غانيا» العاشق الآخر، الذي يطمح لنيل رضى ومحبة «نستازيا فيليبوفنا» ولكنه لا يفكر بالزواج منها إلا لكي يؤمن لنفسه وضعاً مرموقاً. «نعم، أولاً، هل تستحق خمسة وسبعون ألف روبل» عذاباً كهذا!؟

وهنالك الجميلة «أغلاييه» التي تهزأ بالأمير وتحبه حب العبادة، وهنالك أخيراً وعلى الخصوص وجه «هيبوليت»، الغريب الذي يثير الانتباه،

وهو شاب مصدور، أصبحت ساعاته في هذه الحياة معدودة، ولذلك يشعر بالحاجة لقراءة اعترافاته بصورة علنية.

وبواسطة هذا الشاب المشرف على الموت، يطرح «دوستويفسكي» مشكلة المعنى النهائي والأخير للحياة.

و «هيبوليت» مثله في ذلك مثل المؤلف نفسه، ممزق بالصراع بين الفكر والمادة.

أيوجد شيء خارج الجدران؟ وهل يوجد قوة تستطيع اختراق ومخالفة قوانين الطبيعة؟ وهل الأعجوبة ممكنة أم أن كل شيء مرتب ومقرر، مثل «اثنان في اثنين تساوي أربعة»؟

ويلتفت «هيبوليت» نحو السيد المسيح، التعبير عن الفكر المنتصر. ويفكر بتلك اللوحة التي لمحها في غرفة الانتظار في منزل «روغوجين»: «وجه السيد المسيح شوهته بشكل فظيع الضربات التي تلقاها وهو متورم وفيه جروح دامية وملتهبة، وعيناه جاحظتان، يبدو فيهما حَوَل وتشعان ببريق كامد وميت، إنهما كابيتان، ولكن، هنالك أمر غريب: عندما تنظر إلى جثمان هذا الرجل الذي تعذب كثيراً، يطرح نفسه عليك سؤال غريب، مثير وخاص: لو هكذا كان الجسد (ولا بد من أن يكون مماثلاً لهذا) الذي رآه تلامذته وحواريوه والنساء اللواتي تبعنه واللواتي يقفن عند قاعدة الصليب، وجميع الذين يؤمنون به ويعبدونه، كيف استطاعوا أن يفكروا عند رؤيتهم مثل هذه البقايا، أن هذا الشهيد يمكن أن يبعث حياً؟ وإذا كان الموت مخيفاً إلى هذه الدرجة، يقول المرء هذا في سره رغماً عنه، وإذا كانت قوانين الطبيعة بهذه القوة، فكيف يمكن الفوز، والانتصار عليها؟ وكيف نتغلب عليها، في حين أن هذا نفسه لم يتغلب عليها، وهو الذي كان يجعل الطبيعة تنصاع له وتطيعه عندما كان على قيد الحياة، والتي كانت تخضع له، عندما كان يصرخ: (Talifa Koumi).

ويعيد إلى الحياة فتاة شابة، ويقول إلى «أليعازار» أن يخرج فيخرج «أليعازار» من قبره»؟

وبالواقع، فإن قوانين الطبيعة، وقواعد «الاثنين في اثنين تساوي أربعة» لم تتراجع أمام أعجوبة ومعجزة السيد المسيح. وقد استولت على الإنسان العجائبي، كمجرد رجل عادي، وكل قوة الفكر لم تستطع أن تمنع المسامير من تمزيق تلك الراحتين المثقوبتين، ولا أن تمنع الرمح من اختراق تلك الخاصرة اللاهثة، ولا الشوك من تجريح ذلك الجبين الذي كان يحمل الناس والعالم، ولا البصاق من أن يسيل على ذلك «الوجه» المعبود.

وهكذا، تتخذ الطبيعة، بالنسبة لهيبوليت، «شكل آلة عصرية وحديثة، طحنت، ابتلعت، مزقت، والتهمت المخلوق العجيب والمدهش، العزيز للغاية، والذي يساوي وحده، أكثر من الطبيعة كلها، ومن جميع قوانينها. تلك الطبيعة، التي ربما لم تخلق إلا لكي تنتجه».

فالنظم والأساليب الفلسفية، والأديان ليست شيئاً يذكر مقابل المادة والعدد. والسيد المسيح بعث حياً، كما يقال. ولكن نهايته المفجعة، قد أصبحت فشلاً للإيمان. والموت يسود الكون ويسيطر عليه.

إيه حسناً، بما أن الأمر هو هكذا، ولأنه يوجد، لوحده، «محرك أول» مجرد من الإحساس، يطحن دون تمييز الطيبين والأشرار، الأطفال والشيوخ، البورجوازيين البلداء، والعباقرة المتميزين، فلم يبق علينا إلا أن ننحني أمامه، كما أعطى السيد المسيح، نفسه المثال على ذلك. ولكن تقبل «المحرك الأول» لا يعني عبادته.

وقد صرخ «هيبوليت»:

«ألا يمكن أن يلتهمني أحدهم، دون أن يطلب مني أن أبارك الذي التهمني»؟

وإذا أخطأ، وجدّف كفراً، بتكلمه بهذا الشكل، بماذا يكون مسؤولاً عن خطئه؟ «وإذا كان صعباً إلى هذا الحد، بل ومستحيلاً تماماً أن أفهم ذلك، أيمكن أن أكون مذنباً لأني لم أستطع أن أدرك امراً يتجاوز حدود الفهم؟ ونحن نخفض أكثر مما ينبغي العناية الإلهية، عندما ننسب لها أفكارنا، بدافع الغيظ من فهمنا لها».

وهذه الجدلية اليائسة هي جدلية رجل السرداب: «فم مغلق، وصرير أسنان واستغراق في الخمول، حالماً بأنه لا يمكن حتى الاستياء من أحد»..

ليس بالتفكير يمكن الرد على هذا الهجوم المنطقي. والإيمان لا يكتسب باستنتاج بعد استنتاج. كما تحل إحدى المسائل ولا يكتسب بالذكاء، بل بالشعور. وبعد بضعة أيام، عندما سأل «هيبوليت» الأمير عن موضوع معنى الحياة. أجابه «ميسشكين» بهذه الكلمات: «امض في طريقك، واغفر لنا سعادتنا». ومن كان عاجزاً عن الشعور بهذه السعادة بمنأى عن أي مبرر أو سبب، وضد أي سبب، عليه أن يمضي في طريقه، ويترك الآخرين وشأنهم. لأن الإيمان عدو لـ (اثنين في اثنين تساوي أربعة). وليس بتطبيق مبادئ الـ (اثنين في اثنين تساوي أربعة) يمكن إظهاره لقلب الذي لا يؤمن وتلك هي الطريقة التي تستخلص من حادثة «هيبوليت» التي تثير الإعجاب.

وهذه القصة التي يكثر فيها الهذر والأطناب، السيئة التوازن، اللاهثة، تستمر في جو حلم سيئ ومزعج. وفي كل صفحة ما هو مستبعد الوقوع يرافق «الحدث الثانوي المعاش». وفي كل صفحة، يبدو واضحاً الجهد الذي يبذله مؤلف متحمس لفكرة، ويحاول جاهداً ألا يعجز بعد ذلك عن قول ما يريد قوله.

وكتب «دوستويفسكي» إلى «ستراخوف»:

«أن ما يسميه معظم الناس، خيالي ووهمي واستثنائي، هو بالنسبة لي الواقع والحقيقة الأكثر عمقاً. وليس بالرواية أتمسك بشكل أساسي، بل بالفكرة».

وقد أربك النقاد وحيرهم هذا الكتاب الذي يصعب تفسيره، ويتعذر تصنيفه مع أي جنس أدبي. وقد تجاهله بعضهم، حتى إنهم لم يتطرقوا إلى ذكره أبداً. والبعض غضبوا وأعلنوا غيظهم: «يا إلهي! ما الذي لم يختلقه السيد «دوستويفسكي» في هذه الرواية التي هي بالحقيقة أسوأ من كل ما نشره.. وأرى في هذا العمل، تلفيقاً أدبياً، تضمن جمهرة كبيرة من الطبائع والأحداث غير المعقولة، ومجردة من أي اهتمام فني. ويوجد في عمل السيد «دوستويفسكي» صفحات بكاملها لا يمكن فهمها»! كان هذا هو رأي الناقد «بورينين».

«الزوج الأبدي»
إعداد وتحضير رواية: «الشياطين»
الحرب

كتب «دوستويفسكي»: «أشعر أن الجمهور كان أقل تأثراً واهتماماً برواية «الأبله» من تأثره واهتمامه برواية: «الجريمة والعقاب» وأنّ كبريائي وكرامتي في الميزان، ومعرضتان للخطر: ولذلك، فإني أريد من جديد، أن أجذب نحوي الانتباه».

وهكذا، فإنه لم يكد ينتهي من تأليف رواية «الأبله»، حتى بدأ العمل بتأليف رواية أخرى: «الزوج الأبدي».

ومبلغ الـ (٧٠٠٠) روبل التي كان سيحصل عليه «دوستويفسكي» عن رواية «الأبله»، تقلص كثيراً، بسبب السلف المتعددة التي استلمها مسبقاً من مكافأته على هذا العمل. وقد استخدم قسماً من ذلك المبلغ لاسترداد الأشياء التي كانت مرهونة في «سان بطرسبورغ»، ولمساعدة «ربيب» «فيدور ميخائيلوفيتش» (ابن زوجته المتوفاة)، وأسرة أخيه «ميشيل». أما الباقي. وهو مبلغ زهيد، فقد خصص لتأمين نفقات إقامة «دوستويفسكي» وزوجته، في «فلورنسا».

وفي مطلع سنة ١٨٦٩، لاحظت «أنّا غريغوريفنا»، إنها، للمرة الثانية، حامل. وعلى الرغم من المتاعب والصعوبات المالية، التي أخذت تبدو آنذاك،

فقد فرح «دوستويفسكي» وابتهج. وأخذ يشمل «آنيت» بعناية فائقة، جعلتها تبتسم. وقرر أنّ المولود سيكون بنتاً وأنها ستدعى: «ايمي»: (محبوبة). وأخفى عن زوجته كتاب: «الحرب والسلم»، لأن «تولوستوي» يروي فيه احتضار الأميرة «بولكونسكي» التي توفيت بسبب الولادة.

وكتب إلى «ستراخوف»، يقول:

«إني أنتظر هذا المولود بتأثر وبفارغ الصبر، وبخوف، وبأمل وخجل».

أخيراً، ولأنه كان يخشى أن تلد امرأته في بلاد لا تعرف فيها أحداً، ولا يعرفها فيها أحد، وحيث لا يفهمها الأطباء جيداً، فقد قرر مغادرة «فلورنسا» والذهاب إلى «براغ» المدينة السلافية، التي كانت تبدو له في غاية الطيب والجمال، ولأنها كانت مقر المؤتمر السلافي الذي عقد سنة ١٨٦٧.

وتمت الرحلة عن طريق «فينيسيا»، حيث زار «دوستويفسكي» كنيسة «سان- مارك» وقصر «الدوجات»: «القضاة الأوائل في جمهوريتي فينيسيا وجنوى»، مروراً بمدينة «بولونيا» حيث أبدى إعجابه برائعة رافائيل: «سانت سيسيل»: «Lasainte Cecile» الشهيرة، ومروراً بمدينة «تريستا» ومدينة «فيينّا». ولكن الزوجين لم يجدا مسكناً في «براغ»، ولم يعثرا حتى على غرفة شاغرة. الأمر الذي اضطرهما إلى العودة إلى مدينة «دريسد» حيث يستطيعان الإقامة في مدينة، لهما فيها، على الأقل بعض المعارف.

ووصلا إلى «دريسد» في شهر آب (أغسطس) وفي شهر أيلول (سبتمبر) وضعت «أنّا غريغوريفنا» بنتاً.

«منذ ثلاثة أيام، ولدت ابنتنا «ايمي». وكل شيء تم على أفضل وجه: المولودة ناصحة، بصحة جيدة وجميلة».

نعم، هذا صحيح، ولكن أجرة المسكن لم تدفع، والطبيب والقابلة والمتعهدون ينتظرون أن تسدّد حساباتهم، وقد بقي معنا، بعد كل حساب ومن كل ما كان معنا، ثلاثون «تالير» في محفظة نقود العائلة.

فكتب «دوستويفسكي» إلى مدير صحيفة «الفجر»، متوسلاً إليه أن يمنحه سلفة على روايته المقبلة. ولكنّ النقود تأخر وصولها.

وكل يوم، كان «دوستويفسكي» يذهب إلى كوة المصرف، وكل يوم كان الموظفون يصرفونه، صفر اليدين، وانتهى بهم الأمر إلى أنهم أخذوا يسخرون منه.

«كيف أستطيع أن أكتب الآن؟ إني أسير في كل اتجاه، وأشد شعري، وفي الليل لا أستطيع أن أنام! وكلما فكرت بضائقتي المادية يستبد بي الغضب! وعليّ أن انتظر! آه. يا إلهي! إني أقسم لك، وأقسم صادقاً، إنه يستحيل علي أن أصف لك بالتفصيل، بؤسي الحالي. وأنا أخجل من ذلك... وفوق كل هذا، يطلبون مني أعمالاً فنية، تتصف بالصفاء والشفافية، وشعراً ينظم بسهولة، ومن دون جهد من دون إثارة وحماسة، ويذكرون لي كمثال، «تورغينيف» و «غونتشاروف»! فلينظروا إذن في أيّ شروط وأيّ أوضاع، أعمل أنا! وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) لم يكن «دوستويفسكي» يملك، حتى (٥) (تالير)، لكي يرسل مخطوطة عمله إلى صحيفة الفجر.

«ليس معي، ولا أستطيع أن أدبر النقود اللازمة، لكي أرسل مخطوطتي إلى رئيس تحرير الصحيفة. والمخطوطة ضخمة وثقيلة، ويطلبون (٥) «تالير» لكي يرسلوها... وأنا بحاجة لخمسة «تالير» لإرسال المخطوطة، ولكننا، نحن أيضاً نحتاج للنقود لتأمين معيشتنا. آه! إنّ هذا بالغ القسوة»!.

وأخيراً، منحته صحيفة «الفجر «سلفة» جديدة. ورواية «الزوج الأبدي» بعد أن لفت وحزمت جيداً، أخذت طريقها، من «دريسد» نحو روسيا.

وهذه الرواية تبدو وكأنها «محاكاة» يحاكي بها «دوستويفسكي» نفسه، أو أحد أعماله، ويقلده. وفي حياة كل كاتب، تمر لحظة يحاول محاكاة وتقليد عمل له، «وأن يكتب على غراره ومنواله».

يتلقى ذات يوم «الغاوي»: «فيلتشا نينوف» زيارة رجل يعتمر قبعة محاطة بقماش «الكريب»، والذي كان، منذ بعض الوقت يبدو وكأنه يتبعه، ويلاحقه إلى كل مكان يذهب إليه. وعرف «فيلتشا نينوف» «تروسّوتسكي» الذي كانت زوجته، خليلة له، قبل تسع سنوات.

وقال «تروسوتسكي»:

«لم أكن أفكر بالدخول، وإذا كانت الأمور قد اتخذت هذا المنحى، فقد حصل ذلك بمحض المصادفة.

- كيف، بمحض المصادفة؟ ولكني رأيتك من نافذة غرفتي، وأنت تعبر الشارع، على رؤوس أصابع قدميك»!

كانت زوجة «تروسوتسكي» قد توفيت، وتركت له فتاة، هي الصغيرة «ليزا»، التي ولدت بعد «رحيل» «فيلتشا نينوف» بثمانية أشهر، وهي، بالإضافة إلى ذلك، توفيت أيضاً، بعد فترة وجيزة، دون أن يبدو أبداً على «تروسّوتسكي» أنه قد تأثر أو حزن بسبب وفاتها و «فيلتشا نينوف» يعتقد أنّ «تروسوتسكي» نموذج «للأزواج الأبديين»: «ومخلوق كهذا يولد ويكبر، فقط، لكي يتزوج ويصبح التابع المتممّ لزوجته».

وتنشأ بين الرجلين ألفة غريبة، مكونة من الكراهية والشفقة.

ولا يحدث بينهما سوى مشاهد ومشاحنات تثير القرف يتبادلان خلالها اللوم والتوبيخ، وتبكيت الضمير، والصفح والغفران، اللذين ترافقهما الدموع، والقبلات والمعانقات، التي لا يستطيع «فيلتشا نينوف» أن يتهرب منها، لكونه يشعر بأنه مذنب، ويدفع «تروسّوتسكي» الانحراف والفسق إلى مداهما، لدرجة أنه يصطحب رفيقه إلى الريف وإلى منزل أسرة خطيبته الجديدة. وأمام «ناديا» الطالبة الشابة، يقوم «فيلتشا نينوف» بدور الغاوي المبرّأ. ويتعرف «تروسّوتسكي» بشيء من الغيظ على بدايات خيانة مماثلة لتلك التي تعرض لها. وعند العودة إلى «سان بطرسبورغ» يعتني بـ

«فيلتشا نينوف» الذي أصيب بالمرض في غضون ذلك: فهو يسرع إلى المطبخ، يشعل النار ويوقظ البواب، و «فيلتشا نينوف» الذي تأثر من ذلك كثيراً، يتمتم «أنت... أنت... أنت أفضل مني... أني أفهم كل شيء، وشكراً».

ولكنه، لم يكد يستلقي لينام، حتى هزّه حدس وحس داخلي. فمدّ ذراعيه، وتلقى في الحال ضربة بسلاح حاد، على يده اليسرى. وكان أمامه «تروسوتسكي» حاملاً بيده «موس حلاقة». ولكن فيلتشا نينوف» استطاع أن يتغلب على خصمه.

وفيما بعد، سيلتقي، على رصيف إحدى المحطات، بامرأة شابة، متوسطة الجمال، يجري خلفها ضابط ثمل، يكثر من الضحك والصراح، فتجمع حولهما المتسكعون الفضوليون، وأخذوا يقهقهون ضاحكين، فكادت تحصل مشادة ومشاجرة بين الطرفين. ولكنّ «فيلتشا نينوف» تدخل، وأعاد النظام إلى نصابه. فبالغت المرأة الشابة في تقديم شكرها له، وشكت من أنّ زوجها قد اختفى «في الوقت الذي كانت فيه بحاجة ماسة له». ولكن الزوج يحضر أخيراً، وبشكل مفاجئ: أنه «تروسوتسكي».

تبادل الخصمان بعض الكلمات والعبارات العادية والمبتذلة.

ثم مدّ «فيتشا نينوف» يده «للزوج الأبدي» الذي رفضها، وأخذ يتمتم، متلعثماً:

«وليزا! والصغيرة «ليزا»!

وكانت شفتاه، خداه وذقنه قد أخذت ترتجف، والدموع تطفر وتسيل من عينيه».

وتحرك القطار، فوثب «تروسوتسكي» إلى إحدى الحافلات أما «فيلتشا نينوف» فقد بقي وحيداً وحائراً على رصيف المحطة.

هذه القصة القصيرة، التي كتبت بعناية بأسلوب يتسم بالحيوية، تتعارض مع الطريقة الغامضة والمشوشة التي كتبت بها رواية «الأبله». ومع

ذلك، فإن رواية «الزوج الأبدي» تعرض بشكل موجز جميع موضوعات وأفكار «دوستويفسكي» المهمة، ولكنها غير مشروحة وموسعة عبر حبكة القصة وعقدتها. والأمر، يبدو، بدلاً من ذلك، عبارة عن تتابع وتوالي ملاحظات، دون نتائج وخواتم مباشرة،. وفي قصة «الزوج الأبدي» لم ينجز «دوستويفسكي» سوى نصف عمله المعتاد. فقد دلّ وأشار إلى سبل وطرق التفكير، دون أن يرافق القارئ في المسيرة على طول تلك الطرق الخفية، والعجيبة. والكتاب، كما هو، وعلى علاته، يظل «ملخصاً» مدهشاً ومثيراً للإعجاب لفن «دوستويفسكي». ومشهد الاغتيال الفاشل يجد مكانته بين أكبر المشاهد التي وصفها المؤلف.

وقصة «الزوج الأبدي» وقد أنجزت، صححت وأرسلت، أخذ «دوستويفسكي» يتطلع نحو مشاريع أكثر أهمية واتساعاً.

وبدأ يفكر بكتابه:: «حياة خاطئ كبير» على شكل عمل كبير مؤلف من خمس روايات، ومخصص لإثبات «وجود الله» وتقديم البراهين على ذلك. وكان ينبغي أن يكون البطل الرئيسي نسخة مطابقة للقديس «تيخون زادونسكي». ولكن جانباً من الأحداث، يحصل في أحد الأديرة ولم يكن «فيدور ميخائيلوفيتش» يريد كتابة هذا العمل الروسي بنوع خاص إلا بعد أن تستقر إقامته في روسيا. وملاحظاته سيستخدمها، فيما بعد لكي يصف ويصور الناسك، بل الشيخ الروحي «زوسيم» (Zosime) في رواية: «الأخوة كرامازوف» وبعض الشخصيات، في رواية: «المراهق».

وقد كتب، ما يلي:

«هذه الفكرة هي كل ما عشت من أجله. ولكني، من جهة أخرى، لكي أكتب هذه الرواية، يجب أن أعود إلى روسيا...

ويجب علي أيضاً، ليس أن أرى ديراً وحسب، بل يجب أن أقيم فيه لبعض الوقت».

وكتب، أيضاً:

«المشكلة الرئيسية التي ستكون مطروحة في جميع أجزاء العمل، هي التي عذبتني عن وعي أولاً شعورياً ودون وعي، طوال حياتي كلها: ألا وهي: «وجود الله. والبطل سيكون، طوال حياته، وعلى مداها، تارة ملحداً، وتارة مؤمناً، وتارة متعصباً ومتزمتاً، وتارة صاحب بدعة وهرطقة، وتارة، ملحداً، ثانية ومن جديد. والوجه المركزي والرئيسي في الجزء الثاني، سيكون: «تيخون زادونسكي» ولكنه سيقدم تحت اسم آخر، بالتأكيد».

وبانتظار ذلك، أخذ يعالج موضوعاً آخر عن الثورة الاجتماعية.كان شقيق «أنّا غريغوريفنا» قد أتى لزيارة شقيقته وزوجها، في مقر إقامتهما في «دريسد»، أثناء العطلة المدرسية. والشاب «سنيتكين»، الطالب في المعهد الزراعي في «بيتروفسك» كان مطلعاً تماماً على الحركات «العدمية» (Nihilistes) في الجامعات.

والقصص التي رواها أثارت حماسة «دوستويفسكي» وأحزنته.

ووجه الطالب «إيفانوف»، الذي تحدّث عنه «سنيتكين»، بدا له جذاباً بصورة خفية. و «إيفانوف» هذا، كان «رجلاً يتمتع بذهن قوي ومعنويات عالية، وطباع متينة وصلبة، وقد رفض بصورة صريحة وقاطعة قناعاته ومعتقداته القديمة وتنكر لها».

وهذا الخائن لقضية الثورة، نفذ به حكم الإعدام من قبل رئيس «رابطة النظام الشعبي»: «نيتشاييف»، وبمساعدة أربعة من أعوانه.

وقد أذهل «دوستويفسكي» خبر قتل هذا الإنسان وأرعبه. وكانت كراهيته للأفكار الجديدة تتزايد، من يوم لآخر. والشعور بعدم المسؤولية الذي اتسمت به طموحات وغرور الشباب الجامعين، كان يزعجه ويرهق قلبه، فقرر أن يقوم بضربة كبيرة، وباستخدامه للوثائق التي كانت

تنشرها الصحافة، ولأحاديث «سنيتكين» بالذات، قام بتأليف هذا الكتاب الذي يتضمن نقداً شديداً ومخيفاً: «الشياطين».

«إن ما أكتبه مغرض، يتضمن نية مبيتة، وأنا أريد التعبير عن أفكاري بحماسة وقوة. آه! إنهم سيصرحون، بل وسينبحون ضدي: العدميون والغربيون! وسيقولون عني إني رجعي! ولكن، ليأخذهم الشيطان، فسأعلن جميع أفكاري»! (من رسالة، كتبها بتاريخ ٦ نيسان (أبريل) سنة ١٨٧٠).

وجاء في رسالة تحمل تاريخ ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٧٠: «أحد الأحداث الرئيسية في قصتي، ستكون الجريمة، المعروفة جيداً في موسكو، وهي قتل «ايفانوف» من قبل «نيتشاييف».

«أريد أن أعرّف الشبيبة الحالية على آرائي، بكل صراحة، ودون مواربة».

ومن رسالة، بتاريخ ١٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٧٠ ومع ذلك فقد بدا العمل شاقاً. وخطته سارت بشكل سيئ، والأبطال الأوائل والرئيسيون، بدوا باهتين حيال بعض الشخصيات الثانوية.

«لقد أعجبني البطل الجديد، لدرجة أني عاودت كتابة كل ما كنت قد كتبته، سابقاً».

وكانت تنهال على دفتره مجموعة من الملاحظات والمعلومات وتتجاور مع كلمات وعبارات غامضة، وخطوط ناجمة عن اختيار وتجربة الأقلام والريش، وكتابة بعض الحسابات:

«بعد ذلك ن- ف «نيتشاييف) سافر فعلاً، ولكنه عاد وقتل «شاتوف»...»

«ستافروغين» إذا كان يؤمن، لا يصدّق أنه يؤمن، وإذا كان لا يؤمن، لا يصدّق أنه لا يؤمن»...

وأحياناً، كانت الإشارة إلى مشهد، تسبقها هذه الكلمات: «هنا»، «رئيسي»، «مهم»، «قيم وثمين»، «تعبير مختلف» بديل يلفت النظر، وجدير بالملاحظة»... وجاء فيما كتبه «دوستويفسكي»:

«هل تصدقونني إذا قلت لكم إني أعرف جيداً أنه لو كان لديّ سنتان أو ثلاث سنوات، مؤمنة ومضمونة المعيشة فيها بشكل جيد، لتأليف هذه الرواية، كما هي الحال بالنسبة لتورغينيف، لغونتشاروف» أولتولستوي، لكنت كتبت، أنا أيضاً، عملاً، يمكن أن يظل الناس يتحدثون عنه حتى بعد مرور مئة سنة»!

وهو مهتم بهذا العمل الانتقادي أكثر من اهتمامه بأيّ رواية أخرى من رواياته، وقد اهتم به لأنه يعرض نفسه للشبهات وللخطر بكتابته إياه، ولأنه بذلك يجازف بخسارة قسم كبير من جمهوره، أو بحصوله على حظوة عالمية كبيرة، وعندما أرسل الصفحات الأولى إلى صحيفة «المراسل الروسي» التي ستقوم بنشر كتابه، أكثر من التوصيات:

«أرجو المحررّ المحترم أن يدقق جيداً الجمل التي كتبت باللغة الفرنسية، في الرواية، أعتقد أنه ليس هنالك أخطاء، ولكني يمكن أن أكون مخطئاً»...

ويضيف أيضاً:

«في مكان معين، استخدمت العبارة التالية: «وضعنا أكاليل الغار على رؤوس قذرة ومقملة». أرجوك ألا تحذف كلمة: «مقملة».

وبعد منتصف الليل، عندما يرقد كل من في المنزل، كان «دوستويفسكي» وهو يجلس أمام أوراقه، وفنجانه الممتلئ بالشاي البارد، يتخلص من غيظه. ويكتب كما لو أنه كان يضرب، كما لو أنه كان يعضّ، إنه يخوض المعركة الكبرى في حياته المهنية. ولكن، هل ستكون لديه القوة لمتابعة النضال حتى النهاية؟

وعاودته نوباته، بعد فترة طويلة من الراحة والهدوء.

«أليس هذا الوضع قاسٍ وفظيع؟ فأنا جالس هنا، على أريكتي، أشعر أنّ رأسي ثقيل، وأطرافي محطمة، وأني عاجز عن القيام بأيّ جهد مهم... وبالقرب مني، الصغيرة تصرخ وتبكي، وليس معي نقود لأشتري لها دواءً من الصيدلية».

وهو يسجل بدقة نوبات الصرع التي تنتابه:

«نوبة عنيفة...»، «نوبة عنيفة بعض الشيء»، «نوبة حادة عند الساعة السادسة صباحاً... وفي المساء، خاصة، على وميض الشموع، حزن مرضي. انعكاس بريق أحمر (ليس لوناً) على كل الأشياء»...

«وفي الساعة الثالثة صباحاً، نوبة عنيفة بشكل مخيف، عند المدخل... وقعت وأصبت بجرح في جبيني. دون أن أتذكر شيئاً ودون أن أفهم شيئاً. جلبت الشمعة السليمة والمشتعلة في الغرفة، أغلقت النافذة، وبعد ذلك فقط، أدركت أني قد تعرضت لتوي لنوبة شديدة، أيقظت «آنيت» وحدثتها عن ذلك. فبكت كثيراً، عندما رأت وجهي... حاولت أن أهدئها، وفجأة أصبت بنوبة جديدة... وعندما عدت إلى وعيي، كان رأسي يؤلمني بشكل فظيع، ولم أكن أستطيع التكلم بشكل سليم، أمضت «آنيت» بقية الليل معي:

(رعب صوفي، شديد)

ولكي يروّح عن نفسه، هرب إلى «همبورغ». وهناك خسر كل ما كان يحمله من النقود. وأصيب بنوبة حادة، في الفندق، وقع وأصيب بجرح في عنقه: «وبعد مرور أسبوع، كان لا يزال أثر الجرح واضحاً».

عاد إلى «دريسيد» مرتبكاً وخجلاً، كهرّ ملسوع.

وبتاريخ ١٧ تموز (يوليو) ١٨٧٠، سجل «دوستويفسكي» في دفتر مذكراته: إني أناضل، وأعمل بصعوبة كبيرة في القسم الأول من الرواية،

وأشعر بالإحباط وباليأس. فقد اندلعت الحرب و «آنيت» متعبة جداً. والصغيرة «ايمي» تبدو عصبية، ولا تطاق»...

اجتاح الجيش الألماني فرنسا، وبدا جميع سكان مدينة «دريسد» هائجين مضطربين. ووسائط النقل صادرتها السلطات العسكرية. وتوقفت الخدمات البريدية. ولم تعد الصحف تصل من برلين.

«إنها الحرب! فأرجو ألا يزعجوني ويعرقلوا عملي»!... «وعلى نهر الرين، من الجانبين، وعلى ضفتيه، تجمع أكثر من ثلاثمائة ألف جندي... انخفضت قيمة العملة، وارتفع ثمن كل شيء. فلا هؤلاء ولا أولئك، يستطيعون تحمل حرب طويلة الأمد، ومع ذلك فهم يريدون أن يتعاملوا لفترة طويلة. فماذا سيحدث؟ غداً أو بعد غد، ستحصل، دون شك، المعركة الحاسمة».

وبتاريخ ٧ آب (أغسطس)، سجل أخيراً، هذه الجمل المقتضبة: «الرواية أهملت نهائياً (وهذا أمر مزعج)!. وبالأمس تعرض الفرنسيون لهزيمة كبيرة. والآن، أخذوا يعيدون تجميع صفوفهم أمام مدينة «ميتز» (Metz) وعلى ما أعتقد، فهم مترددون، لا يدرون ماذا عليهم أن يفعلوا ولا إلى أين يذهبون، إنهم يضيعون الوقت».

ولكن، في رسائله، إنما يجب البحث عن شهادة على ردود فعله المؤيدة للفرنسيين، أثناء تلك الحرب:

«إنها لجميلة، تلك المدرسة الألمانية، التي تمارس التعذيب والسلب والنهب، كزمرة من قبائل «الهون»: (Les Hvns) الشرسة! والبروسيون يتصرفون بشكل أسوأ من أولئك الأشرار المتوحشين!... وأنهم الأساتذة والدكاترة والطلاب، على الخصوص، هم الذين يتحمسون، يتبجحون ويتشدقون، وليس عامة الشعب.

وأنا أرى هؤلاء الناس، كل مساء، في قاعة المطالعة. وقبل البارحة، أخذ عالم متميز وذو تأثير كبير، كلّل الشيب رأسه، يصرخ بأعلى صوته:

«فلتقصف باريس بالقنابل، يجب القيام بذلك»! وهذه نتيجة حماقتهم، إن لم تكن نتيجة علمهم».

وبعد مرور بعض الوقت، كتب:

«كلا، إن ما يبنى بالقوة، وبحد السيف، لا يمكن أن يستقر ويدوم. وبعد كل هذا، فهم يصيحون: «ألمانيا الفتية»!

ولكن، على النقيض من ذلك، فهذه أمة قد أنهكت واستنفدت قواها، لأنها تعتمد على فكرة السيف والدم والعنف، وتثق بها، وليس لديها أقل فكرة أو مفهوم عما هو الانتصار الفكري والروحي، وتضحك ساخرة منه، بشراسة عسكرية.

كلا، فهذه أمة ميتة. أمة بلا مستقبل»!..

وقد أثار إنشاء «كومونة» باريس: (La Commune)

غضب «دوستويفسكي» وغيظه ضد الاشتراكيين:

«... رجال هذه الحركة، لا يعملون شيئاً سوى الإشادة بالفردوس الأرضي، والدعوة له (بدءاً من التجمعات الإنتاجية) ولكنهم ما إن يصلوا إلى السلطة حتى يظهر عجزهم عن قول أي شيء إيجابي... إنهم يقطعون رؤوساً. لماذا؟- لأنّ ليس هنالك شيء أسهل من القيام بذلك. أما قول شيء ما فهو أكثر مشقة وصعوبة... والحريق الذي حدث في باريس هو بشاعة وعمل فظيع. «هجومنا المفاجئ لم ينجح؟ إيه، ، حسناً! فليمت العالم، لأنّ «الكومونة» (وهي حكومة باريس الثورية، سنة ١٨٧١) هي أهم وفوق سعادة العالم وسعادة باريس».

«الغرب أضاع السيد المسيح (بسبب خطأ المذهب الكاثوليكي) ولذلك فإن «الغرب» يموت لهذا السبب، وليس لغيره».

وهكذا، فإن الأحداث السياسية تعيده إلى غضبه الشديد ضد الاشتراكية الفرنسية. والبلاد الأجنبية (أي خارج روسيا) تبدو له كسجن

لن يستطيع الهرب منه أبداً، وأثناء ذلك، كان بقاؤه في ألمانيا سنة أخرى، سيكون عذاباً لا يطاق.

وحصل لديه انطباع بأنه لم يعد يتذكر وطنه، وأنّ هذا الوطن لم يعد يذكي موهبته ولا يغذيها، وأنه رجل ضّال وضائع، مثل جميع أولئك الذين اقتلعوا أنفسهم من أرضهم.

ومن «فلورنسا» سبق له أن كتب: «تورغينيف» في البلاد الأجنبية، أي خارج روسيا «يجفّ» ويفقد موهبته، مثلما لاحظت ذلك صحيفة «الصوت»! وأنا لا أخشى الإصابة بـ «الجرمنة»، لأني أكره كل أولئك الألمان الجرمانيين، ولكني بحاجة لروسيا. ومن دون روسيا، كل قواي وكل موهبتي، سوف تزول وتختفي. وأنا أشعر بذلك، أشعر به بكل كياني».

ومن «دريسد» تتوالى الشكاوى: «لو أنكم تعلمون كم أشعر بالملل وبالضيق، وكم أتشوق للعودة إلى روسيا».

أو: «إنه لأمر حقيقي، أني أهم بالابتعاد، ليس عن العصر، وليس عن معرفة الأحداث الروسية... بل عن تيار الحياة، السريع».

أو: «بسرعة! بسرعة إلى روسيا! يجب أن أتخلص أخيراً من البلاد الأجنبية اللعينة ومن نزواتها وأوهامها»!

ولكن أين يجد النقود اللازمة للقيام بالرحلة؟ ويحاول أن يطلب نقوداً من «ستيلوفسكي»، الذي يقوم بنشر رواية «الجريمة والعقاب» في كتاب مستقل، ولكنّ الغشاش الخبيث يرفض أن يلبي له طلبه. عند ذلك، وجّه «مايكوف» طلباً إلى صندوق جمعية الأدباء من أجل قرض بمبلغ (١٠٠) روبل، كي يستطيع «دوستويفسكي»، العودة إلى الوطن. ولكن لجنة الصندوق رفضت بعبارات صريحة الموافقة على إعطاء هذا القرض.

وبهذا الخصوص، كتب «دوستويفسكي»:

«لو أن أحد «العدميين» (Un Nihiliste): طلب منهم قرضاً، لما أجابوه بهذا الشكل».

وزيادة في الضيق والمصيبة، كانت «أنّا غريغوريفنا» قد حملت، من جديد.

وبتاريخ ٢٩ حزيران (يونيو) كتب «دوستويفسكي» في دفتر مذكراته: «إنها ضعيفة، عصبية المزاج، تنام قليلاً، أيمكن أن تكون حاملاً؟

وكتب أيضاً:

«إني خائف! خائف جداً، ويائس تماماً، لأني لا أتوصل لإنجاز هذا الكتاب»...

ولكي تطمئنه، «أنا غريغوريفنا» أوحت له أن يذهب ويجرب حظه بالروليت في «ويستبادن»، فذهب. وهكذا استؤنفت المهزلة الأبدية:

دخل «دوستويفسكي» إلى قاعة الروليت، تابع الجولة، قامر ذهنياً، ثم جازف برهان بسيط، ربح وربح أيضاً، وفكر بالانسحاب بعد أن ربح مبلغ (١٨) «تالير» (نقد ألماني). ولكنه في تلك اللحظة دفعته حماسة غريبة وغير معقولة إلى تحدّي المصادفة والتغلب عليها، فعاد إلى البساط الأخضر، وتوالت الخسائر بإصرار وعناد.

وفي الساعة التاسعة مساءً، كان قد خسر كل ما ربحه، ولم يعد معه ما يستحق الذكر، فأخذ يتأمل ذلك المستطيل من الجوخ الأخضر، وتلك الثريات والوجوه التي تشبه وجوه جثث الأموات، ثم هرب مسرعاً، لا يلوي على شيء، كالمجنون. كان يشعر بالخجل وبالعار ويتألم، وهو يفكر بزوجته وبابنته الصغيرة، اللتين تنتظرانه:

«كنت أتألم كثيراً، لدرجة أني أسرعت في الحال، لزيارة أحد الكهنة...

وفي الطريق، وبينما كنت أسير مسرعاً عبر الظلام، في شوارع مجهولة، لا أعرف عنها شيئاً، كنت أفكر: «إنه رجل دين، خادم الرب، وسأتحدث إليه ليس باعتباره رجلاً عادياً، بل باعتباره كاهناً يتلقى اعترافي».

كان يسير ويقفز في المدينة التي استسلمت للنوم، وهو يتصبب عرقاً، حاسر الرأس، مشعث الشعر، باحثاً عن طريقة عبر أزقة مظلمة.

وصل أخيراً أمام معبد. فبدا له أنها كنيسة روسية، أراد أن يدخل إليها، ولكنّ هذا كنيس.

«كان ذلك بالنسبة لي مثل «دوش» بارد. أسرعت إلى فندقي. الآن، الساعة تشير إلى منتصف الليل، وأنا أكتب لك...

أرسلي لي ثلاثين «تالير» سأتدبر أمري لكي يكفيني هذا المبلغ...

«آنيت»، أركع عند قدميك وأقبلك. لا تظني أني أصبحت مجنوناً، يا آنيت. هنالك عمل كبير يتحقق لديّ، طرافة حمقاء ومحتقرة ظلت تعذبني منذ عشر سنوات، قد انطفأت وتبددت...

الآن، كل شيء قد انتهى. وهذه، بالنهاية آخر مرة، تماماً. أتصدقين يا آنيت أنّ يديّ الآن قد أصبحتا حرتين؟ كانتا مقيدتين بالميسر.

وفي الوقت الحاضر، لن أفكر إلا بعملي، ولن أحلم بممارسة الميسر طوال ليال بكاملها، كما كان يحدث لي، لذلك فإن عملي سيتحقق بشكل أفضل وبمزيد من السرعة، والله سيباركني».

هذا الوعد، الذي سبق له أن ردّده كثيراً، لا ينبغي أن يكون بعد الآن كلاماً فارغاً، غير ذي جدوى. فقد احترم «دوستويفسكي» كلمته، وحافظ على وعده، ولم يذهب بعد ذلك إلى «الروليت» أبداً.

وقد سجلت ذلك «أنّا غريغوريفنا» في مذكراتها:

«لم يعد إلى الروليت أبداً، وأن كان قد تواجد عدة مرات في «ايمس» وكان معه ما يكفي من النقود لكي يذهب إلى «موناكو».

ولكنّ القمار لم يعد يجذبه. فهو لم يعد يذهب ليقامر، وحسب، بل إنه لم يعد يتحدث عن ذلك أبداً. ويبدو أنّ... هوس المقامرة كان، بالنسبة له نوعاً من المرض، شفي منه، ولم يبق منه أي أثر في العشر سنوات الأخيرة من حياته».

كيف يمكن تبرير هذا التحول المفاجئ الذي حصل لدى «دوستويفسكي»؟ لا شيء، لا في رسائله، ولا في مذكرات زوجته، ولا فيما كتبه عنه أصدقاؤه، يسمح بتفسير ذلك. فهل حصلت لديه القناعة بالتخلص من تلك العادة السيئة، عن طريق العقل، أم عن طريق العاطفة والقلب؟

يبدو لنا أنّ الأهمية الكافية والمطلوبة، لم تعط لحادثة الكنيس: فقد كان «دوستويفسكي» قد تعرض لخسارة جسيمة.

وهو في غمرة استيائه واضطرابه، وانهيار معنوياته، لم يجد له ملجأ سوى الكنيسة الأرثوذكسية، ولم يفكر إلا بها. والحال هي أنّ هذه الكنيسة نفسها، رفضت عليه وحرم منها: أعتقد أنه ذاهب نحو «المخلّص»، فوجد أولئك الذين صلبوه. وليس هنالك من شك، بأنه لدى مخلوق مريض، عصبي، متطير إلى تلك الدرجة التي كان «دوستويفسكي» يعاني منها، تكفي ذكرى تلك الحادثة لطرد أشد الإغراءات رقة وجاذبية.

وعاد «فيدور ميخائيلوفيتش» إلى «دريسد» وقد هدأ وارتاح باله، بتأثير مغامرته الأخيرة. وانكبّ على العمل، ولم يعد لديه سوى فكرة واحدة: العودة إلى روسيا قبل أن تضع زوجته مولودها.

وإدارة صحيفة «المراسل الروسي» التي سبق لها أن أرسلت له سلفه «بمناسبة الأعياد» وعدته بسلفه جديدة قيمتها (١٠٠٠) روبل، سترسلها له في شهر حزيران (يونيو).

وكتب «فيدور ميخائيلوفيتش» رسالة إلى «كاتكوف» يتوسل إليه فيها أن يسرع بإرسال مساعدته له. وكتب أيضاً إلى «مايكوف» لكي يرجوه بأن يستأنف محادثاته مع «ستيلوفسكي». إنه سينقذ نفسه، وسينقذ كل عائلته بفضل عمله. والكتاب الآخرون، من أمثال: «تورغينيف»، «تولوستوي» و «غونتشاروف» يتقاضون على أعمالهم مبالغ ضخمة، لماذا تدفع له على أعماله مبالغ أقل أهمية مما يدفع لهم؟ فهل يتمتعون بموهبة كبيرة إلى ذلك الحدّ؟

«أتعلمون، أنّ أدبهم هو أدب مالكي العقارات، هذا الذي يقدمونه لنا. وقد قال هذا الأدب كل ما كان لديه ليقوله (وبشكل مدهش، يثير الإعجاب، لدى ليون تولوستوي، وأنا أعترف بذلك).

ولكن هذا لا ينفي أنّ كلام مالك العقارات، هذا، كان آخر ما يمكن قوله»...

أما هو، فسيقول «الكلام الجديد» وسيدهش العالم! ولكن، حباً بالسماء، ليدعوه وشأنه كي يشتغل بأمن وهدوء في بلاده!

والنقود التي أرسلتها له صحيفة «المراسل الروسي» وصلت في الأيام الأخيرة من شهر حزيران (يونيو) سنة ١٨٧١. وفي الحال تم استرجاع الملابس المرهونة، وتسديد الديون. وبدأت الاستعدادات للرحلة الكبرى.

وقبل الرحيل بيومين، سلم «دوستويفسكي» زوجته عدة لفّات من ورق بحجم كبير، وطلب منها أن تحرقها. فهو يعرف أنه سيتم تفتيشه بالتأكيد، وبكل دقة، عند الحدود الروسية. ولا يريد أن تقع هذه المسودات في أيدي السلطات، كما حصل له عند إلقاء القبض عليه، سنة ١٨٤٩. فأشعلت «أنّا غريغوريفنا» المدفأة، وهي حزينة، وانحنت نحو اللهب. وبسرعة، لم تعد مخطوطات: «الأبله»، «الزوج الأبدي» والنسخة الأولى من «الشياطين»، سوى «كومة» من الرماد الأسود تخترقها الشرارات السريعة.

وبتاريخ ١٧ تموز (يوليو)، مساء، غادر «فيدور ميخائيلوفيتش» وأسرته «دريسد» باتجاه «سان بطرسبورغ».

وقد فتشت بالفعل حقائبهم عند الحدود. وتفحصها الموظف المسؤول بعناية فظة. وأخذ «دوستويفسكي» وزوجته يتذمران حيال حقائبهم المفتوحة. وقد طال أمد هذه العملية، لدرجة أنها لو استمرت بضع دقائق أخرى لفاتهما القطار.

وتمتمت الصغيرة «ايمي»: «ماما أعطني قطعة خبز لأكلها» وهز الموظف كتفيه وسمح للمنفيين بالصعود إلى حافلتهم، وانطلق القطار.

وقد أخذت تبدو، عبر زجاج النوافذ الذي يغطيه الغبار، الأراضي الروسية وهي تسير القهقرى بسرعة كبيرة والسماء الروسية بغيومها الهزيلة التي تمزقها الرياح.

درب ضيق، يمر عبر جشمة من التراب، يتوغل بين الحشائش والأعشاب، ويؤدي إلى كوخ سقفه من القصب والأعشاب اليابسة. وقروية، بجانب سكة القطار الحديدية، تلوح بمنديل أحمر. وعلى رأسها وشاح وسخ. وتحمل خرجاً مصنوعاً من قشور شجر السندر، وتنتعل حذاءً صنع من «المرس» المجدول. أخذت تصرخ، وتضحك، ثم توارت عن الأنظار، وقد أخفتها سرعة القطار ودخانه.

وها هي روسيا تتقدم، روسيا الحقيقية، ليس روسيا المثقفين والمفكرين الساخطين والثوريين، و «الممسوسين»، بل روسيا الأرض وروسيا العمل والإيمان، روسيا التي ستنقذ روسيا الأخرى.

«دوستويفسكي» متأثر جداً، ينظر إلى زوجته وإلى ابنته، إنهما متعبتان، ترقدان جنباً إلى جنب.

ومرت قرية وكنيستها ذات السقف الأخضر، الجو حار. وفي الحافلة انتشرت رائحة الزيت الزنخ، وعرق الأجسام، والفحم. ولكن «فيدور

ميخائيلوفيتش» لا يبالي بذلك ولا يهتم به. فقد حصل لديه انطباع بأنه يغادر السجن للمرة الثانية، وأنه للمرة الثانية أيضاً يولد من جديد، ويعود إلى الحياة. ألن يكون لديه شعور، مثلما كان لديه شعور عند عودته من سيبيريا، بأنه قد نام خلال عدة سنوات، وأنه استيقظ في وسط عالم أصبح غريباً بالنسبة له؟ كلا، كلا، لقد تبع التيار، وظل روسياً. وكتبه تثبت ذلك، وستبرهن عليه، وكتاب «الشياطين» هل هو سوى دفاع عن روسيا ضد الشياطين الذين تكلم عنهم القديس «لوقا»؟

«كان هنالك، على الجبل، قطيع كبير من صغار الخنازير، ترعى الأعشاب. والشياطين توسلوا إلى يسوع أن يسمح لهم بالدخول بين صغار الخنازير والانضمام إليها. فسمح لهم بذلك، فغادر الشياطين ذلك الرجل، ودخلوا بين صغار الخنازير، فاندفع القطيع من أعلى المرتفع الوعر، وسقط في البحيرة وغرق»...

«الشياطين»

إذا كانت رواية: «الجريمة والعقاب» هي قصة رجل تجاوز قواعد الأخلاق الشخصية، وأخذ أخذ يبحث عن الحرية، انتهى أخيراً إلى التعسف وارتكاب جريمة قتل، فإن رواية «الشياطين» هي مغامرة شعب ينكر ويتجاهل مبادئ الأخلاق الاجتماعية، فيضل ويضيع وهو يأمل أن يحقق الخلاص وينقذ نفسه.

وجريمة القتل هي، بالنسبة للفرد، ما هي الثورة بالنسبة للجماعة. و «راسكولنيكوف» يريد أن يثبت لنفسه أنه ليس حشرة قذرة أو شخصاً سافلاً، وأنه يشتري بعمل ذميم يستحق العقاب الحق بالاستقلال التام، ويصبح، بشكل من الأشكال إلهه الخاص به. والغوغائيون، دعاة التمرد والثورة، يريدون أن يمنحوا الجماهير قيمة وكرامة «فوق - بشريتين» تفوقان طاقة البشر، ويجعلوها تستحق التحرر، عن طريق ارتكاب المذابح، وتأسيس ديانة الجمهور، أو الطبقة، بدلاً من الإيمان بالله. ومثلما يفقد «راسكولنيكوف» المارق والمرتد عن الدين، الحرية تماماً، في اليوم التالي لارتكابه خطيئته ويصبح عبداً لفكرة ثابتة، كذلك الشعب الذي ينتفض ويثور، لا يلقى في نهاية تجربته سوى العبودية المذلة والحزن والأسى.

نعم، فبالنسبة «لدوستويفسكي» يمكن أن يكون الإغراء الخالد والأبدي: «كل شيء مباح ومسموح به». شخصياً أو جميعاً، فردياً أو

جماهيرياً. والتجربتان متوازيتان في أدق تفاصيلهما وأقل خفاياهما شأناً، وكلتاهما تؤديان إلى الفشل نفسه، وتنتهيان بالخيبة في مجالات لا نهاية لها. وليس هنالك حرية من دون الله.

وأياً كان يبحث عن الحرية خارج نطاق وقدرة الله، يحكم على نفسه بإنكار ذاته. والاشتراكية مسألة دينية، ويجب أن تعالج وتعامل باعتبارها هكذا، وعلى هذا الأساس.

وبالفعل فإن الاشتراكية، «الاشتراكية الروسية، لا تطمح فقط إلى تأمين رفاهية الطبقة العاملة وتنظيمها، ولا تطمح إلى تنظيم حياة الإنسان على هذه الأرض، وحسب، بل هي تطمح إلى إدخال وتحديد كل حياتنا في تلك السعادة الفورية. والاشتراكية ليست مرحلة في قدر ومصير البشرية. أنها ديانة البشرية، وغاية البشرية. وليست الصيغة المماثلة للديانة المسيحية، بل هي تحل محلها. ليس هنالك إله، ولا خلود للروح، ولا خلاص وافتداء، ولا سعادة خارج السعادة المادية، الحقيقة الملموسة، التي يستطيع التوصل إليها كل إنسان.

«سوف نعطيهم سعادة المخلوقات الواهنة والضعيفة».

كل شيء يبدأ وكل شيء ينتهي هنا، على الأرض. والعالم يتحول إلى «قرية نمل»، إلى محشر بشر. والقيم الفردية، والحياة الخاصة والحميمية، والطموحات والميول الروحية والفكرية، والتطلعات والآمال السامية والعلوية، تفنى وتبيد في ذلك المستنقع المكون من البطلان، من العدمية، وعدم الأهلية. والدولة تتكفل بتزويد القطيع الذي يثير الشفقة والرثاء، بالزاد لمعيشته اليومية، وبالجحور، وبمسرات بسيطة، لأيامه، والإنسان يعتقد أنه سعيد.

ولكن الإنسان ليس بحاجة لأن يكون سعيداً وحسب. والخبز اليومي ليس الغذاء الوحيد الذي ينشده ويطمح إليه. فهو يتعطش إلى

الاعتقاد، بل إلى الإيمان، في كل لحظة، أنه يوجد حبور سامٍ، عجيب، يصعب تصوره، عذب للغاية، لن يحرم منه ولا يستبعد عنه. وهو متعطش إلى شيء ما، لا يستطيع الحصول عليه، لا بالعمل ولا بالحيلة، متعطش إلى ما لا يقاس، إلى ما يصعب فهمه ولا يدرك، إلى اللانهائي، إلى المطلق، إلى الله.

ويقول «ستيبان تروفيموفيتش» في آخر فصل من رواية «الشياطين»: «كل قانون «الوجود البشري»، والحياة الإنسانية، يرتكز على أن الإنسان يستطيع على الدوام أن ينحني أمام شيء عظيم للغاية. وإذا حرم بنو البشر من هذا العظيم للغاية، فإنهم لم يعودوا يريدون العيش، ويموتون حزناً ويأساً».

حقاً، إنه في الفترة التي كان «دوستويفسكي» يكتب فيها رواية: «الشياطين»، لم تكن الحركة «العدمية» (Nihiliste) قد اكتسبت الأهمية، والإدارة المحددة والمنظمة، كما كان يفترض المؤلف، في كتابه. ومعاصرو السبعينيات في ذلك القرن، لم يكونوا يعرفون ثوريين حقيقيين وناجزين، من أمثال: «ستافروغين»، و «كيريلوف» «شاتوف»، «شيفاليف» و «فيرخوفنسكي».

والكتاب كله يهيمن عليه شبح «فيرخوفنسكي» المثير للقلق. و «دوستويفسكي» وصفه وصوره، اعتماداً على الوثائق التي كانت بحوزته والعائدة إلى «نيتشاييف» وبالاعتماد على الذكريات الشخصية التي احتفظ بها عن المتآمر «سبيشنيف» ؛ هذا نفسه، الذي كان يقول عنه، فيما مضى: «أتفهمون الآن، أن معي إنساناً شريراً (شيطاناً) بجانبي»؟

وبالواقع، فإنه «فيرخوفنسكي» شيطان حقيقي. فقد كتب المؤلف: «أولاً، هو يسحر ويفتن، وبعد ذلك يغيظ ويزعج بسبب المبالغة بالتدقيق في تلفظه بالكلام، وبالتصنع الشديد في كلامه، الذي يهيئه على الدوام،

بشكل مسبق». وهو تارة يكون مجاملاً وتارة أخرى، يبدو وقحاً للغاية. وهو لا يعتمد على كلام أو على إشارة ولا يثق بذلك، كلا، إنه يحسب، يعد ويتوقع، ويلقي شباكه بشراسة متعمدة ومطمئنة. وفي المدينة الريفية الصغيرة، حيث شكل حلقة «عدمية» يتظاهر بأنه ينزوي وينحني أمام «ستافروغين» الجميل، ولكن، بالحقيقة، إنما له هو «فيرخوفنسكي» ينصاع المتآمرون وفي المجموعة الثورية، كل فرد فيها يكرهه ويخشى شره. وفكرته عن الثورة مخيفة للغاية:

«أنصارنا ليسوا فقط أولئك الذين يذبحون ويحرقون، ويطلقون الرصاص من مسدساتهم حسب الطريقة التقليدية، أو أولئك الذين يعضون ضباطهم. فهؤلاء يزعجوننا، على الأكثر.. ومعلم المدرسة الذي يهزأ مع تلاميذه، بربهم وبأصلهم، هو من أنصارنا والمحامي الذي يدافع عن قضية القاتل المتعلم، لأن هذا يتمتع بثقافة تفوق ثقافة ضحيته، وأنه لكي يحصل على النقود، لا يستطيع الامتناع عن القتل، فهذا أيضاً من أنصارنا. والتلاميذ الذين يقتلون فلاحاً عبداً «موجيك» لكي يشعروا ببعض الإحساسات ويختبروا أثرها، هم من أنصارنا».

«سنشعل ثورة، ينقلب فيها كل شيء من أساسه».

وماذا، بعد ذلك، سيقيم «فيرخوفسكي» المساواة التامة بين بني البشر، مستوحياً ذلك من النظام الذي دعا إليه «شيغاليف» أحد أعضاء اللجنة.

ويقول:

«في البداية، سينخفض مستوى التربية والعلوم والمواهب. إذ إن المستوى العالي في العلوم والفنون لا تستطيع بلوغه إلا العقول المتفوقة، ونحن لا شأن لنا بالعقول المتفوقة، وماذا نعمل بها؟.. يجب القيام بإبعاد هؤلاء الناس، أو الحكم عليهم بالموت. ولنقطع لسان «شيشرون» ولنقلع عيني

«كوبيرنيك» ولنرجم «شكسبير» بالحجارة، هذا هو مبدأ «شيفاليف» ونظامه»!

وبسبب هذا الخنق المنظم للفكر، يفقد الإنسان كل حس بالكرامة، وكل روح ورغبة بالبحث، ويصبح بيدقاً بين بيادق، بل أحمق بين حمقى آخرين.

والقوة الأكثر أهمية، الاسمنت الذي يربط ويمسك بكل شيء معاً، هو الخجل، بل العار من أن يكون للمرء رأي، يستقل به لنفسه».

والإنسان البدائي البسيط يخاف من ألا يكون يشبه جاره، بأن يكون له فكر خاص به، وبأن يكون وحيداً، منفرداً ومسؤولاً، والعبودية ستفتت هذه المسؤولية وتوزعها على جمهرة من الرؤوس المتساوية. وبفضل هذه التسوية، لم يعد هنالك شخصية متميزة. والأخلاقية نفسها تصبح غير شخصية. وكل الوجود، بل الحياة كلها، تجري فيما وراء الخير والشر وفي الجانب الآخر منهما.

ومع ذلك، فلكي يظل الإنسان ذلك المسخ، بل ذلك الوحش الصنعي ينبغي المحافظة عليه من كل ما يمكن أن يوقظ لديه التعطش إلى نعمته المفقودة. ويجب الحفاظ عليه من الحب ومن العائلة:

«لأنها لا تكاد تبدو العائلة والحب، حتى تكون قد بدت الرغبة بالتملك وحيازة الأملاك. سنقتل هذه الرغبة، وسنفسح المجال للسكر، وللغيبة والوشايات، للسعاية والنميمة، وسوف نسمح بالفسق الجامح، دون قيود، وسوف نقضي منذ الطفولة على أيّ عبقرية أو نبوغ. ولتوحد مخارج الجميع، مساواة تامة وشاملة».

ومن وقت لآخر، ولتحاشي أن يشعر «القطيع» بالملل، تنظم فتنة صغيرة، تقمع بسرعة. وعلى هذا الشعب المستعبد، تهيمن أقلية مستبدة: «يجب أن يكون هنالك رؤساء للعبيد».

وهكذا، فإن الثورة ضد الحكم الفردي المستبد تؤدي إلى حكم مستبد جديد.

عند خروجي من الحرية التي لا تقيدها حدود، دخلت أخيراً في استبداد لا يقيده حدود».

والمبدأ الوحيد الذي سيقضى عليه في المشاحنة، سيكون المبدأ الديني. والعالم سيغير سيده على الأرض وسينكر حتى وجود الله. ولكن من سيكون السيد الجديد؟

يقول «فيرخوفنسكي» إلى «ستافروغين»:

«سيحل الليل ويخيم الظلام على روسيا. وستبكي الأرض الآلهة القديمة.. وعند ذلك، سنوجه النداء.. لمن؟ إلى ولي العهد، ابن القيصر، الأكبر: «إيفان»

وابن القيصر الأكبر «إيفان»، هو «إيفان ستافروغين» ولايفان ستافروغين» هذا، إنما يقدم «فيرخوفنسكي» الكون كهدية. ويقترح عليه أن ينسج أسطورة حول شخصه، الذي سيغري جماله القوي، الجماهير الغفيرة.

والأرض كلها سترسل تنهيدة الارتياح. وتتنفس الصعداء، لقد صدر للتو، قانون عادل. وسيضطرب البحر حتى أعماقه، وسيهدم الكوخ الخشبي القديم، وعند ذلك، سنفكر ببناء منزل من الحجارة».

فيجيب «ستافروغين»: «جنون»!

ولكن أليس تاريخ روسيا كله سلسلة من نوبات الجنون؟ والواقع هو أن «فيرخوفنسكي» يكن لستافروغين نوعاً من الحب الشيطاني والعبادة المتذللة. ولنفكر في المشهد الذي يقفز فيه خلفه، ويشده من كمه، وبالكاد يجيبه الآخر:

«أنت مؤسس ومنشط، أنت الشمس: هذا ما يقوله له «فيرخوفنسكي»، ويضيف: وأنا دودة تملكها على الأرض»..

ويقبل يده، فجأة. ويبدو إذن أن رسول التسوية، هذا، يشعر على الرغم من كل شيء، بالحاجة لأن يؤمن بأحد ما، يتفوق عليه، ويكون أعلى منه، وهذا الثائر المتمرد، يبدأ بأن يبحث لنفسه عن سيد. وهذا الوقح يريد أن يعبد ذلك الذي يحتقره:

«أنا مهرج مضحك، أعرف ذلك، ولكني لا أريد أن تكون، أنت أفضل جزء من ذاتي، مهرجاً، أيضاً».

ويضيف:

«سأذهب إلى أي مكان معك، وسأتبعك كالكلب الأمين» لا شيء أكثر غرابة وإثارة للنظر من هذا الاشتهاء الخفي للمذلة والترجي لدى شخص ملحد. والحب هو بالتأكيد حاجة حيوية، لأنه، حتى لدى «فيرخوفنسكي» موجود وباقٍ. وماذا يهم إذا كانت العاطفة التي يكنها لستافروغين، تبدو سخيفة ومضحكة، بل ومخجلة وقبيحة في تطبيقاتها!

ويعترف «فيرخوفنسكي» بضرورة انحنائه أمام شخص ما، أكبر منه. وهذا يكفي لإدانة كل نظامه الاجتماعي،.

أما إله «فيرخوفنسكي»، أما «إيفان» ولي العهد، وابن القيصر الأكبر، فقد بدا وجهه، في بداية الأمر، عسيراً على الفهم والتفسير، لأن الناشر «كاتكوف» كان قد رفض نشر فصل رئيسي من رواية «الشياطين». يحمل عنوان: «اعتراف ستافروغين». وكان لا بد من مرور نصف قرن، قبل أن ينكشف السر الحقيقي، لهذا الشخص.

«ستافروغين» مثله في ذلك مثل «راسكولنيكوف» فهو «هدام جدران». و «راسكولنيكوف» هز مفاهيم الأخلاق القديمة. وقد عانى وتعذب لكي يحظى بحرية وهمية. وناضل ضد نفسه وضد الله، بحماسة مشوبة بالتعصب. وقد صفح عنه، وعثر عليه واسترد من قبل السيد المسيح، لأنه دون أن يعرف ذلك، فقد بحث عن السيد المسيح.

ولكـن «ستافروغين» لا يبحـث عـن شـيء. و «راسـكولينكوف»، عندما يؤمن يصدق ويعتقد أنه يؤمن. وعندما لا يؤمن، يصدق ويعتقد أنه لا يؤمن أما «ستافروغين فعندما يؤمن لا يصدق ولا يعتقد أنه يؤمن وعندما لا يـؤمن، لا يـصدق ولا يعتقـد أنـه لا يـؤمن». «راسـكولنيكوف» شـغوف ومتحمس للنفي. أما «ستافروغين» فهو معتاد على النفي. وهو لا يحب» رأيه، لأنـه لم يـدفع ثمنـه مـا يـكفي مـن العـذاب ومـن المعانـاة. وقـد استقر لديـه بالتأثير المتبادل والخفي. وأن يكون الله غير موجود، وأن الأخلاق «عبثية» وغير معقولة، وأن «كل شيء مباح ومسموح به». وأنه ليس هنالك عقوبة ضمنية وداخلية، فكل هذا يبدو له كبديهية أولية.

ومع ذلك، فإذا كان رفض المبدأ الروحي، لا يحدث أي تأثير لدينا، وإذا لم يكـن علينـا أن نـدافع عـن أنفسنا ضـد تقلبـات الإيمـان، فكيـف يمكننـا أن نحـب، أن نكـره، أن نأمـل، وأن نبقـى علـى قيـد الحيـاة؟ وإذا كان لا شيء يبقى سوى إرادتنا ونيتنا الحسنة، فباسم أي شيء يمكننا أن نـرفض تنفيـذ نيتنـا الحـسنة؟ وهـذا الجاحـد الهـادئ قـد أمـات لديـه جميـع الينابيع والمصادر الحارة للحياة وللوجود. وهو لا يعرف تماماً لماذا هـو موجـود في الـدنيا، ولا يحـاول أن يعـرف ذلـك. وهـو يعيش بـدافع الـسأم، يجـر نفسه ويتـسكع مـن يـوم لآخـر، والـسأم يجتاحـه بـصورة خفيـة وغـير محـسوسة. والسأم ينشأ مـن الجحـود وعـدم الإيمـان. فمـاذا نعمل ومـاذا نقـول، ويكـون يـستحق عنـاء العمـل والقـول، لأننـا لا نعملـه ولا نقولـه إلا لأنفـسنا؟ «ستافروغين» يحـاول أن يـتخلص مـن كآبتـه، وتبـدو لـه جميـع التـسليات صـالحة مـن أجـل ذلـك، لأنـه لا يحـترم شـيئاً. وكـل مـا يمكنـه أن يزعـزع هـدوءه، يتلقـاه بامتنـان مخيـف. يتلقـى صـفعة، ولكنـه لا يفكـر بـأن يـرد عليها، لكـي يشعر حتـى أعماقه بالإحساس الجديد بـالغيظ وبالمذلـة: «إذا كان بهذا نكظم غيظنا، فالرغبة تتجاوز كل ما يمكن أن نتصور». وهو

يسرق بوقاحة تبدو له لذيذة، ويمارس المبارزة، لكي يعرف الغضب والعار في أقصى درجاتهما. ويأمر بجلد فتاة صغيرة بالسوط، بعد أن يتهمهما بسرقة لم ترتكبها، ثم يغتصبها، ولا يحاول القيام بأي مسعى لمنعها من أن تنهي حياتها فهو يراها تدخل إلى كوخ حقير، يلقي نظرة على ساعته، ينتظر نحو عشرين دقيقة، ثم يقترب من الباب، يلقي نظرة عبر احد الشقوق: «أخيراً، رأيت ماذا كان ينبغي أن أرى».

فالصغيرة شنقت نفسها.

«وآنذاك، وأنا أتناول الشاي، وأتبادل الأحاديث والثرثرة مع بعض الرفاق، للمرة الأولى في حياتي، كونت لنفسي هذه الفكرة، وهي أني لم أكن أعرف ولم أكن أشعر ما هو الخير والشر، وأني لم يكن لدي إحساس بذلك وحسب، بل إنه لا يوجد لا خير ولا شر».

ويضيف: «كنت سئماً من العيش، لدرجة أني أصبت بما يشبه الخبل والخمود وهذا السأم يخنقه، و «ستافروغين» يتقلب، كالمريض الذي يحاول أن يجد «أفضل وضع» على السرير».

وهذا الوضع، بحث عنه في بداية الأمر في التضحية المقرفة بحياته العاطفية. فقد تزوج امرأة عرجاء، حمقاء وبشعة. «وفكرة زواج شخص «كستافروغين» بمخلوقة منبوذة كهذه، كانت تثير أعصابه» وهو لم يتزوجها باندفاعة جنون، ولا نتيجة مراهنة سكير، كلا، فقد تزوجها بكل برود، وبوقاحة، لكي يرى.. ولكن السخافة البشعة للعرس لم ترضه. ومل بسرعة من فعلته السافلة الجديدة.

وأخذ يبحث على خطيئة أخرى يمكنها أن تلهيه عن هدوئه. الزواج ثانية، بزوجة أخرى؟ فكر بذلك برهة، ثم تخلى عن هذه الفكرة. كان شبح الفتاة الصغيرة يتراءى له كثيراً في أحلامه. ومع ذلك فإن القلق الذي تسببه له هذه الرؤى اليومية، لم يشفه من السأم. والقلق نفسه أصبح سأماً.

عند ذلك، انطلق في النضال السياسي. ولكن للأسف، فإنه بين المتمردين، الثائرين، أيضاً، لم يكن مرتاحاً، لأنه «لا يؤمن».

ويصيح «فيرخوفنسكي»: «أوه! كن أكثر غباءً وبلادة، يا «ستافروغين»، كن أكثر غباءً وبلادة»! و «ستافروغين» لا يؤمن لا بالديانة المسيحية ولا بالديانة الاشتراكية الروسية. وتنظيم وإقامة الفردوس الأرضي، على طريقة «شيغاليف» لا يغريانه أبداً، والوعد بأن يصبح ذات يوم «ولي العهد» إيفان، يجعله يهز كتفيه. فما جدوى كل هذا؟ المذابح، وتشكيل خلايا عمالية على أنقاض الحضارة وتنصيب دكتاتورية جديدة على قطيع من الأغبياء والمغفلين، كل هذا لن يشفيه من سأمه. والندم وحده يمكن أن يواسيه. الندم، يعني التوبة أيضاً، والمذلة. فلينشر اعترافه وليجابه الضحك والشتائم، وليتعذب، وسيجد النور. و «راسكولينكوف» نجا وحظي بالخلاص، عندما اعترف بغلطته، ورغب بالحصول على الصفح والمغفرة. ومجرد الرغبة بالصفح والمغفرة، هي مكافأة سماوية.

ولكن «ستافروغين» وهو يهم بالاستسلام لعذاب الضمير، يعود إلى لا مبالاته المخيفة.

وحول «ستافروغين» و «فيرخوفنسكي» تجمع بعض الثوريين الهزيلين والمهووسين. وكان المتآمرون متأكدين من أن حلقتهم ليست سوى واحدة بين مئات من الحلقات والجمعيات المماثلة لها، والمنتشرة في جميع أرجاء روسيا. وقد لمح لهم «فيرخوفنسكي» بكلام غامض، وجعلهم يعتقدون، أنه موفد إليهم من قبل اللجنة المركزية، وهو لا يتحدث إلا عن علاقات سرية، عن أوامر عليا، وعن اتصالات وعمل على جعل أعضاء المؤامرة، كل منهم يشك بالآخر. وغرس في أذهانهم الخوف من الخيانة. وهكذا فقد سيطر عليهم، لأنه لم يعد هنالك، من حوله، أحد يثق بأحد.

وبعد فضيحة دبرها «فيرخوفنسكي»، وإشعال إحدى الحرائق، وارتكاب جريمة قتل. خاف أعضاء المجموعة، أنفسهم، من أعمالهم: «إلى أين سيؤدي بنا هذا»؟ ولكي يستعيد «فيرخوفنسكي» سيطرته التامة عليهم، أكد لهم أن أحد جماعتهم، وهو «شاتوف» يفكر بأن يشي بكل الزمرة، وأنه من المهم جداً قتله، والحقيقة هي أن «فيرخوفنسكي» يعتمد على جريمة جماعية لكي يقوي ويثبت اتحاد كل هؤلاء الأنذال. وحالما ترتكب الجريمة، سيصبحون مرتبطين فيما بينهم بدافع الخوف والكراهية.

و «شاتوف» الضحية المسمى من قبل «فيرخوفنسكي» هو «أحد الخياليين الروس المتعلقين بالمثالية، الذين تثيرهم فجأة أيّ فكرة قوية، فيسقطون على الفور». كان فيما مضى ليبرالياً مقتنعاً، ولكنه نبذ نهج شبابه وما فيه من شطط وأخطاء، ووجد نفسه في معارضة واضحة مع «فيرخوفنسكي» ومع ذلك فإن هذا التحول في آرائه أقلقه وشوش أفكاره، لدرجة أنه لم يعد يعرف بماذا يثق، على ماذا يعتمد، ومن يصدق، وكيف يستخدم حياته. وأصبح منهكاً، وحيداً، ولذلك لم تكن لديه الشجاعة لكي يغادر حلقة «فيرخوفنسكي» مع أنه كان يلعنه.

ويقول: «ماذا نبذت ومن رفضت؟ أعداء الحياة الناشطة والحية، أولئك الذين يدعون الليبرالية، المتخلفين والرجعيين الذين يخشون استقلاليتهم الخاصة، خدمة الفكر المستضعفين، أعداء كل حرية وكل مسؤولية، الدعاة والمبشرين العجزة، بالجيف وبالعفن؟ فماذا يوجد لديهم. الشيخوخة وعجزها، الخمول المزوق بالذهب، العجز الأكثر بورجوازية وشدة، المساواة التي تثير ظاهرة الحسد، المساواة دون كرامة شخصية، مساواة كما يفهما أحد الخدم أو كما كان يتصورها أحد الفرنسيين في ٩٣.. ولكن أسوأ ما في الأمر هو أنه لا يوجد في كل مكان سوى أنذال، أنذال، أنذال»!

بالنسبة لشاتوف، كما بالنسبة لدوستويفسكي، الاشتراكية تنضم إلى الإلحاد. والاشتراكية ملحدة، لأنها تريد أن تبني عالمها حسب قوانين العلم. والحال، هي أن الشعوب تتكون وتعيش حسب قوانين أخرى خفية وغامضة. وتاريخ شعب ما يعود إلى البحث عن الله، وبشكل أدق، «الله الخاص به».

ويقول «شاتوف»:

«إن هدف كل حركة شعبية، هو البحث عن «إلهها» وحسب، عن ربها الخاص، عن الله الذي لها.. وكل شعب كان له على الدوام، إلهه الخاص به. ويعتبر دليلاً على الانحطاط، بالنسبة للشعوب، عندما يصبح لهم آلهة مشتركة. وبقدر ما يكون الشعب قوياً، بقدر ما يكون له حصراً إلهه الشخصي. وحالما يكف شعب كبير عن الاعتقاد بأنه القادر على بعث العالم وإنقاذه بواسطة الحقيقة. فهو يكف على الفور من أن يكون شعباً كبيراً، ولم يعد سوى مادة عرقية، تعبر عن خاصية الشعوب».

وحسب رأي «شاتوف» كل شعب له «إلهه»، والحال هي أنه لا يوجد سوى إله حقيقي واحد. إذن فجميع الشعوب فيما عدا واحد، واقعون في الخطأ. ولكن أي شعب هو الذي يحظى بالإله الحقيقي؟ فيجيب «شاتوف»: «إنه الشعب الروسي، لأنه الشعب المسيحي الوحيد الذي لم تفسده الحضارة، لأنه الشعب الوحيد الساذج والسليم النية، الشعب الوحيد، «الطفل» على وجه الأرض.

وهكذا، فإن «شاتوف - دوستويفسكي» يسند للشعب الروسي دوراً مسيحياً «متعلقاً بالسيد المسيح» حقيقياً. ومثلما يعتبر الشعب العبري نفسه أنه الشعب المختار، كذلك فإن الشعب الروسي، برأي «دوستويفسكي» يجب أن يعتبر المنقذ المقبل للعالم.

وفي حين أنه حسب العقائد المسيحية، ظهور السيد المسيح جعل أيّ فكرة مسيحية (متعلقة بالسيد المسيح) مستحيلة، ورفع البشرية بكاملها

إلى مرتبة «الجنس المختار». ويصر «دوستويفسكي» على أن يحتفظ للشعب الروسي وحده، بميزة كونه محبوباً من الله. وسريرة السيد المسيح، والإيمان المسيحي بها لم يعودا عالميين، بل وطنيين.

وهنالك من أراد أن يرى في هذا الموقف «تهويداً جديداً للديانة المسيحية». وهذا النقد ليس مبرراً تماماً. إذ إن «دوستويفسكي» لا ينكر ولا ينفي أنّ جميع الشعوب، قد أرشدت إلى حقيقة الله. وهو لا يتقبل ذلك الإعلان، بل الإدعاء، العرقي بكل دقة وصراحة، الذي تفترضه وتتضمنه الديانة اليهودية. ولكنه يدعي أنه على مر العصور، فقد أثبتت جميع الأمم بالتناوب، فيما بينها أنها غير جديرة بالقيام بدورها، بل بمهمتها المسيحية وأن روسيا وحدها ظلت تسير في طريق الله، لأنها لم تصب بالتقدم ولم يؤثر فيها.

«وهكذا، فإن روسيا لم تكن وحدها قد وليت دوراً مسيحياً، ولكنها كانت الوحيدة التي حافظت عليه.

ومهما كان الأمر، فإن فكرة الشعب صاحب الله أو حامله والحائز عليه خطيرة جداً، لأنها تؤدي لعبادة الشعب للشعب. وبهذا الخطأ إنما وقع «شاتوف».

فعندما سأله «ستافروغين»:

«أتؤمن، أنت نفسك، بالله، أم لا»؟

تمتم «شاتوف»:

«أنا أؤمن بروسيا.. أنا أؤمن بمذهبها الأرثوذكسي..

ويلح «ستافروغين»:

- ولكن بالله؟ بالله؟

- أنا.. ساؤمن بالله»! (يقول المؤلف: أنا الذي وضعت الخط تحت هذه العبارة)

و «دوستويفسكي» مثله في ذلك مثل «شاتوف» ذهب إلى الله عبر الشعب، وبينما لم يكن الشعب، بالنسبة لدوستويفسكي سوى مرحلة، فإنه كان بالنسبة لشاتوف غاية ونهاية.

وعنده، تختلط العناصر الشعبية والدينية ببعضها، لدرجة أنه لم يعد يستطيع التمييز بينها. و «شاتوف» يجسد خطأ النحل والملل الروسية، جامعاً بين الوثنية «عبادة الأصنام» القروية وبين شعائر عبادة المسيح، الإنجيلية. وهو النموذج الأصلي المحتذى لأصحاب البدع المتحمسين لها، الذين يجعلون الإيمان الأرثوذكسي يقتصر على حدود روسيا. ويثقلونه بطقوس غريبة، بخفايا وعجائب تزيد عما جاء في التوراة وتتجاوزه. تخنقه، تحت ذريعة المحافظة عليه. وقلقه ينجم بالضبط من كونه لم يعد يجد المسيح عبر تلك الاختلاقات الأسطورية المتخلفة والغريبة. والإيمان هو أبسط بكثير، وأكثر يسراً وسعة، مما يتصوره! والسعادة قريبة جداً، بحيث إنه يبحث عنها، خبط عشواء، وتلمساً، كالأعمى.

وسيتبين له ذلك، عندما تعود زوجته، التي خانته فيما مضى مع «ستافروغين»، لكي تضع مولودها، عنده، في منزله، فيستقبلها بنوع من النشوة الخجلة. ويحيطها بعناية فائقة، يندهش منها، هو نفسه، وعندما يولد الطفل، وعندما يرى أمامه هذا المخلوق الذي أعطي فجأة للحياة، تهزه غبطة واستبشار غريبين، من رأسه حتى أخمص قدميه. فيصيح:

«إن أعجوبة ظهور مخلوق جديد، على سطح الأرض، كبيرة ومعجزة يصعب تفسيرها.

فتصرح القابلة، التي تؤيد الأفكار الاشتراكية:

- ما هذا الهذيان الذي يثرثر به؟ فهذا ليس سوى تطور ونمو لاحق يحصل في الجسم».

ولكن «شاتوف» لا يصغي لها: فقد تبدت له معجزة، وقد آمن، وسيؤمن على الدوام، من الآن فصاعداً. وللمرة الأولى، منذ سنوات، يشعر بالسعادة، ويعترف بأنه سعيد.

وفي الليلة نفسها، يستدعى بناءً على أوامر المجموعة الثورية، ويقتله «فيرخوفنسكي» وأعوانه.

وفي غضون ذلك، يهرب «ستافروغين». ولإزالة الشبهات عن نفسه يقرر «فيرخوفنسكي» إلقاء المسؤولية التامة عن ارتكاب الجريمة على كاهل أحد أعضاء المجموعة، الذي يدعى «كيريلوف».

و «كيريلوف» هذا، مصاب بشكل من أشكال مرض الصرع، وهو معتوه، وقد أقسم على الانتحار «لكي يبرهن لنفسه على استقلاليته» ولأنه قرر أن يموت، فليس هنالك سوى أن يجعله يوقع على اعتراف يتهم فيه نفسه بأنه قتل «شاتوف». فوافق «كيريلوف» على هذا الخداع.

و «كيريلوف» هو، بالتأكيد، أحد الوجوه الأكثر غرابة وإثارة للانتباه، في عالم «دوستويفسكي». فهو ملحد، مثل «ستافروغين»، ولكنه على النقيض من هذا الأخير، يضفي على الإلحاد، كل الحماسة التي يضفيها البعض على الإيمان. ولكن منطقه الأخرق، يثير الدوخة والدوار فهو يقول:

«إذا كان الله موجوداً، فكل شيء يتعلق به ويتوقف على إرادته، ولا أستطيع أن أفعل شيئاً دون إرادته. وإذا لم يكن موجوداً، فكل شيء يتعلق بي ويتوقف على إرادتي. وأنا ملزم بتثبيت استقلاليتي وتأكيدها»..

والحالة هذه، فما هي أعلى درجة في التمرد وعدم الخضوع لأحد، بالنسبة لإنسان ما؟ إنها نكران ونفي وجوده. وإذا كان الإنسان يستطيع، بملء إرادته، أن يضع حداً لحياته، فذلك يعني أنه حرّ، وأنه هو الإله بالذات.

«إذا كان الله غير موجود، فأنا الله». ويضيف «كيريلوف» هذه الجملة المدهشة، وغير المتوقعة:

«الإنسان لم يخترع الإله، إلا لكي يستطيع أن يعيش دون أن يقتل نفسه»..

وهكذا، فإننا نعود، بهذا الانعطاف، إلى جدلية رجل السرداب. فالإنسان لم يصنع لنفسه وثناً. ولم يرفع جدران الديانة إلا لكي يدافع عن نفسه ضد الحرية التي تخيفه. وجعل من نفسه سجيناً خوفاً من الاستقلالية. وتواضع وخضع أمام ما خلقه هو بالذات. ولكنه هو، أي «كيريلوف» سينتصر ويتغلب على العادة، و «كيريلوف» يستعيد الموضوع القديم المتعلق بصلب السيد المسيح، الذي عالجه «هيبوليت»:

«إذا كانت قوانين الطبيعة لم تراع هذا ولم تنقذه.. إذن فالكرة الأرضية كلها ليست سوى أكذوبة، وتستند على الكذب، وتنكشف كسخرية سخيفة».

لأن المبدأ الإلهي، في صيغته القديمة، عبثي وغير معقول، ولأن الإنسان بالذات هو إله، دون أن يريد ذلك، فيجب أن نجلب إلى العالم الدليل على النظام الحقيقي. وانتحار «كيريلوف» الذي لم يبرره أي سبب خارجي، سيكون التبرير، بل التأييد لتلك الحرية التامة والشاملة التي تجعل من الإنسان سيد الكون.

«الذي يكون الأول يجب عليه حتماً أن يقتل نفسه، وإلا فمن الذي يمكنه أن يبدأ؟ ومن الذي يمكنه أن يبرهن ويثبت؟ وسأقتل نفسي حتماً، لكي ابدأ ولكي أبرهن وأثبت»...

«سأبدأ، سأفتح الباب».

وبعد تضحيته، سيفهم الناس، سيهدمون جدران الأخلاق المسيحية ويصبحون، بدورهم، آلهة.

«سيكون هنالك إنسان سعيد وفخور، سيكون غير مبالٍ إن عاش أو لم يعش».

وفي إلحاد «كيريلوف» من الغريب واللافت للنظر أن نلاحظ إلى أي حد يظل مشبعاً بالعقيدة التي يستبعدها. وهو يقتل نفسه لينقذ بني البشر، مثلما صلب قديماً السيد المسيح ليخلصهم.

والحقيقة، هي أن «كيريلوف» تلازمه على الدوام صورة السيد المسيح. وهو متشوق إلى أن يصعد، بدوره، على الصليب، وأن يتألم عن الآخرين، وأن يدفع من دمه ثمناً لسعادة الآخرين، وهذا الحب المنتشي للأقرباء، يصنع من هذا الملحد وجهاً مسيحياً، على وجه التقريب، ونقول على وجه التقريب، لأن «كيريلوف» يعترف بالسيد المسيح، دون أن يعترف بالله. وعلينا أن نتذكر الآن هنا، رسالة غريبة، كتبها «دوستويفسكي» في سيبيريا وأرسلها إلى السيدة «فون فيزين»:

«لو أن أحداً ما برهن لي أن السيد المسيح خارج الحقيقة، وإذا كان ثابتاً بالفعل أن الحقيقة خارج السيد المسيح، لكنت فضلت أن أبقى مع السيد المسيح، بدلاً من البقاء مع الحقيقة».

وهكذا، فإن «دوستويفسكي» ممزق بين أرثوذكسية «شاتوف» المسيحية، ومسيحية «كيريلوف» الملحدة. ولكن، في الحالتين، تظل صورة السيد المسيح. مقدسة لا تمس. السيد المسيح مع الله، أم السيد المسيح من دون الله؟ هذه المشكلة، التي عذبت «دوستويفسكي» طوال حياته تعذب شخصياته أيضاً. و «كيريلوف» لكي يتخلص من هذا العذاب، يطلق الرصاص على رأسه.

وهنالك انتحار آخر يشير إلى نهاية سياق حياة أحد الزنادقة الملحدين. «ستافروغين» بعد أن أوشك على الخلاص، يضع حداً لحياته بغباء وبلادة. وقد كتب، ما يلي: «أردت اختبار قوتي وتجربتها في كل

مكان، ونظرت إلى منكرينا بكراهية، لأني كنت أتطلع إلى آمالهم وأشتهيها».

وشخصيات الكتاب الأخرى تتزوي وتزول إزاء بعض هذه الشخصيات الملهمة. ومع ذلك، يجب الإشارة إلى والد «فيرخوفنسكي» «ستيفان تروفيبوفيتش» كمفكر فاشل، كثير التذمر والشكاوى، متعلق بالمثل وبالأفكار الخيالية، يتصفح ويفخم كلامه، وهو نسخة منقولة عن الأستاذ «غرانوفسكي» أحد مؤسسي الليبرالية الروسية. وإلى جانبه، تبدو متهللة صورة «الكاتب الكبير» «كرمازينوف».

وبواسطة «كرمازينوف» رسم «دوستويفسكي» صورة «تورغينيف» الكاريكاتورية، البشعة. فكرمازينوف، مثله في ذلك مثل «تورغينيف» روسي - أورُبي، و «دوستويفسكي» يطلق من فمه كلمات «تورغينيف» نفسها: «أصبحت ألمانياً، وأنا فخور بذلك، كما قال، أيضاً:

«ها قد انقضت سبع سنوات وأنا أقيم في «كارلسروه» وعندما قرر المجلس البلدي في السنة الماضية، تمديد خط جديد للمياه، شعرت في أعماق قلبي، أن مسألة تمديد خط المياه، هذه، كانت أعز علي من كل مسائل وطني العزيز». ولكي يبرز «دوستويفسكي» أوجه الشبه بين «كرمازينوف» و «تورغينيف» يهب «كرمازينوف» وجهاً «نضراً، تزينه خصل كثيفة من الشعر الأبيض، تتسدل من تحت قبعته، وتلتف حول أذنيه الصغيرتين النظيفتين والموردتين» ويعطيه صوتاً معسولاً، وحاداً بعض الشيء. وأخيراً يجعله يقرأ في أحد المجتمعات عمله الأخير، الذي يحمل عنوان «شكراً» والمستوحى نصه من بعض صفحات كان «تورغينيف» قد خص بها صحيفة الأخوين «دوستويفسكي» بالذات.

وقد عرف «تورغينيف» نفسه في هذا التهجم الهزلي، وشكا منه، فيما بعد، في رسائل وجهها لبعض أصدقائه:

«لقد سمح «دوستويفسكي» لنفسه بشيء أسوأ من الكاريكاتير، فقد عرضني تحت ملامح «ك» المؤيد بصورة سرية لحزب «نيتشاييف». والغريب في الأمر فقط، أنه اختار في تحريفه ومحاكاته الساخرة القصة الوحيدة التي أعطيتها إلى الصحيفة التي كان يصدرها سابقاً، وهي قصة وجه لي من أجلها الكثير من رسائل الشكر والتهنئة، والامتنان»..

وعلاوة على ذلك، فلم يكن هنالك حاجة لهذه المشكلة لكي يثور ضد «دوستويفسكي» غضب وغيظ «مؤيدي الغرب». إذ إن نشر رواية: «الشياطين» قد استقبل برد فعل عنيف من قبل الصحافة والقراء اليساريين. وذلك التهجم الجنوني على الأفكار الليبرالية والتحررية، بدا لهم كنوع من الكفر والإلحاد، همجياً ومناقضاً لقواعد الفن والأدب. وإنه لأمر يدعو إلى الحزن والأسف، أن ينتقل بمثل هذا الاستخفاف. محكوم سابق بالسجن والأشغال الشاقة، إلى المعسكر المعادي. ومما يثير الاحتقار أن يتنكر متآمر سابق، للمؤامرات، إلى هذه الدرجة. وقد صرح «نيكيتين» بما يلي:

«إن رواية السيد «دوستويفسكي» تثبت بطريقة لا تقبل المناقشة، ما كان، علاوة على ذلك، بديهياً في السابق، منذ أن نشر كتابه الأول: «الناس الفقراء»، وهو عدم تمتع المؤلف بأي خيال خلاق ومبدع».

ويضيف:

«وفي رواية: «الشياطين» يتأكد إفلاس وانهيار مؤلف رواية «الناس الفقراء» على الصعيد الأدبي».

وفي مجلة «الإشعاع» نجد هذه الجمل:

«لو كان لديك الصبر لتقرأ، حتى نهايته عمل أحد كتابنا. الذي كان شعبياً جداً، فيما مضى، لشعرت، بالإضافة إلى غيظك وغضبك، بالشفقة، وربما حتى بالحزن. وسوف تشعر بالأسى وبالألم، وأنت تشاهد سقوط وانهيار مؤلف، لا شك أنه حسن الموهبة، وسقوطه كإنسان.. نعم،

إن أردنا ذلك أو لم نرده، يجب أن نعترف إنه مع رواية «الجريمة والعقاب»، فقدنا السيد «دوستويفسكي» السابق... والآن، فإن النقاد لم يعودوا يستطيعون النظر إليه وتقديره، سوى باللامبالاة، بالازدراء، أو بالشفقة»..

ومحرر صحيفة «العالم الروسي» الذي كتب أن رواية «الشياطين» تعتبر بين أجمل الأعمال الأدبية، وأكثرها تعبيراً عن الموهبة، التي صدرت في السنوات الأخيرة، هاجمته وسخرت منه الصحافة الليبرالية.

أما «ستراخوف» فقد كتب لدوستويفسكي» بشأن رواية: «الشياطين» رسالة ظريفة، تستحق أن نذكرها ونتحدث عنها:

«فيما يتعلق بغنى وتنوع الأفكار، فأنت، بشكل واضح، أول كاتب في روسيا. وإذا قورن بك «تولوستوي» نفسه، فإنه يبدو ركيكاً ورتيباً.. ومع ذلك، فأنت تربك وتعقد كثيراً أعمالك. ولو أن سياق رواياتك وحبكاتها أكثر بساطة، لكان تضاعف تأثيرها. فرواية «المقامر» ورواية «الزوج الأبدي» على سبيل المثال، قد أحدثتا انطباعاً جيداً، وحاسماً للغاية، في حين أن ما تحدثت عنه في رواية «الأبله» لم يفهم تماماً.. وبالعشر من مقدرتك وأهليتك فان أي كاتب فرنسي أو ألماني ماهر، كان يمكنه أن يحقق لنفسه الشهرة في نصفي الكرة الأرضية، ويدخل كنجم من الدرجة الأولى في تاريخ الآداب العالمية»...

و «دوستويفسكي» يعترف بعيوبه، ويشكو منها، بتواضع ظريف» فقد كتب:

«بالنسبة لي، فإن عدة روايات مختلفة، تضغط وتتجمع في رواية واحدة، ولهذا السبب فإنها تبدو وكأنها ينقصها التجانس والانسجام وحسن الإيقاع»..

«إن قوة الإيحاء هي دائماً أكثر شدةً من وسائل التعبير (لدى «فيكتور هيغو» على سبيل المثال، كان الحال هكذا، ونجد أيضاً لدى

«بوشكين» آثاراً لهذا التثاني والازدواج) وهذا الأمر هو الذي أضلني وجعلني أتوه وأضيع»...

وبالحقيقة، فإن رواية «الشياطين» هي جزء، بل مقطع من كتاب: «حياة خاطئ كبير»، الذي ورد ذكره سابقاً، والذي لم يكتب أبداً. وفي دفاتر ملاحظات ومذكرات تلك الفترة، نعثر على أسماء أشخاص أحياء، لعبوا دوراً ثانوياً في بعض الأحيان في حياة «دوستويفسكي» أو عناوين كتب، أو ذكر لبعض أحداث فترة شبابه. وهذا التحضير لسيرة ذاتية في كتاب «حياة خاطئ كبير» دفع بعض المفسرين والمؤولين إلى التساؤل فيما إذا كان «دوستويفسكي» نفسه لم يرتكب «خطيئة كبرى».

وتؤكد الروايات والأقاويل الشفهية أن «دوستويفسكي» اعترف ذات يوم إلى «تورغينيف» «بعمل سافل بين جميع الأعمال الأخرى».

فسأله «تورغينيف»:

«لماذا قلت لي هذا؟

- لكي أثبت لك إلى أي حد أحتقرك».

وكتب «ستراخوف» سنة ١٨٨٣ إلى «تولستوي» متحدثاً عن «صديقه» «دوستويفسكي» وكان «ستراخوف» قد جعل من نفسه، كاتب سيرته المتحمس:

«كان شريراً، حسوداً وفاسداً.. لاحظ أن شبقيته وشهوانيته الحيوانية لا تقدران أيّ فكرة أو قيمة للجمال أو لجاذبية وسحر النساء. وأكثر الشخصيات الأكثر شبهاً به، هم أبطال «مذكرات كتبت في سرداب» و «سفيدر يغايلوف» في رواية: «الجريمة والعقاب» و «ستافروغين» في رواية «الشياطين».

و «ستراخوف» يردد على مسامع من يريد أن يسمعه أن «دوستويفسكي» قد اغتصب فتاة صغيرة. واتهاماته أكدها «فانفيروف» و «فيسكوفاتوف».

وكتب «تورغينيف»:

«روى لي «فيسكوفاتوف» ذات يوم، أن «دوستويفسكي» قد تباهى بأنه.. في الحمام، مع فتاة صغيرة، كانت إحدى المربيات قد جلبتها له».

أما «بولغاكوف» فقد اقتصر حديثه على القول بأن «هذه، ربما لمن تكن نميمة وافتراء».

وليس هنالك وثائق تساعد على البت بهذا الجدل، وتوضح الحقيقة، ولكن الهاجس الجنسي والشهواني لدى «دوستويفسكي» يسمح، بالحقيقة، بجميع الشكوك.

ومنذ رواية «نيتوتشكا تنيزفانوفنا» أخذت تساوره وتتسلط عليه فكرة الشبقية والملذات الجسدية الطفولية.

«حسناً، افعلي الآن بي ما تشائين، عذبيني، اضطهديني، اقرصيني، أرجوك، اقرصي، اقرصيني مرة أخرى. يا صغيرتي العزيزة، اقرصيني»...

«كنا نتعانق، نقبل بعضنا، نبكي ونضحك. وقد تورمت شفاهنا، بسبب عنف القبل». (وهذا يتعلق بفتاتين، بالكاد بالغتين).

و «ليزا» في رواية: «الأخوة كرامازوف» وهي في السادسة عشرة من عمرها، تبدو مصابة بالهستيريا كهاتين الفتاتين، ويقول عنها إيفان: «إنها في السادسة عشرة من العمر، ومع ذلك فهي تعرض نفسها.

فيصيح «أليوشا»:

- كيف، تعرض نفسها؟

- إيه، يعني كالنساء العاهرات»....

وفي رواية: «الجريمة والعقاب»، «سفيدر يغايلوف» يغتصب فتاة في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر، صماء وبكماء. «وذات يوم، عثر عليها مشنوقة في مخزن الغلال». وفي الليلة نفسها التي يهم فيها «سفيدر

يغايلوف» بالانتحار، يحلم بهذه الطفلة التي أساء إليها واغتصبها. وهذا هو الحلم نفسه الذي يراه «ستافروغين» بطل رواية «الشياطين» لأنه هو أيضاً اغتصب فتاة صغيرة، وضحيته شنقت نفسها مثلما فعلت الفتاة التي اغتصبها «سفيدر يغالوف».

وهذا الموضوع الذي يعود من كتاب إلى آخر، في فترة لا تتعدى خمس سنوات، ألا يتحكم به ويدفع إلى الحديث عنه أي شاغل حميمي، أو أيّ ذكرى خاصة؟

وقد ذهب «دوستويفسكي» إلى حد رواية هذه القصة في الصالون الأدبي الذي تديره السيدة «كورفين كروكفسكي»، وأمام بعض الفتيات أيضاً!

و «صوفيا» الصغيرة التي تبلغ من العمر أربع عشرة سنة، سجلت هذا الحدث في مذكراتها. وبطل الرواية يستيقظ من حلم سعيد، وقد أزعجه شعوره بمسؤولية خفية، وبخطيئة قديمة لا تغتفر، وكتبت «صوفيا»: «فهو يتذكر أنه مرةً، بعد ليلة فسق ودعارة، اغتصب فتاة صغيرة، في العاشرة من عمرها، بعد أن دفعه إلى ذلك رفاقه السكارى»..

فهل كان «دوستويفسكي» منحرف الأخلاق مثل «سفيدر يغايلوف» و «ستافروغين» وعلى شاكلتهما، أم أن الأمر لديه لا يتعلق سوى بتوارد خواطر أو برغبة مكبوتة. وقد سجل «جيد» في مذكراته:

«إنه لا يصف أو يصور نفسه، ولكن ما يصفه ويصوره، كان من الممكن أن يكونه، لو أنه لم يصبح هو نفسه تماماً».

ولماذا لا نتقبل الفكرة القائلة أن «دوستويفسكي» قد اشتهى فتاة صغيرة، وأن هذه النزعة وحدها كانت كافية بتسميم حياته؟ وهذا الاغتصاب الذي كان من الممكن أن يقترفه يتذكره، بل يعرضه ويذكره في هلوسات مؤلمة، يتحمله ويتكلف به، بل ويتهم نفسه به بنوع من المتعة المرضية. ويتذوق فرحة تذلله أمام شخص آخر، وأي آخر؟!

إنه «تورغينيف» المخلوق الذي يكرهه ويحتقره أكثر من أي شخص في العالم.

وقد كتب:

«إني أفهم جيداً، أن المرء يمكنه أحياناً، بدافع الغرور وحسب أن يتصدى لتحمل مسؤولية جريمة، بل وأتبين جيداً من أي نوع يمكن أن يكون هذا الغرور».


الجزء الرابع

«المراهق»

بتاريخ ٨ تموز (يوليو) ١٨٧١، وصل أخيراً «آل دوستويفسكي» إلى «سان بطرسبورغ». وعند مرورهم أمام كاتدرائية «الثالوث المقدس» حيث احتفل بعقد قرانهما، التفت «فيدور ميخائيلوفيتش» نحو زوجته، وقال لها:

«إيه، حسناً، يا آنّيت! ومع ذلك، وعلى أيّ حال، فقد عشنا سعداء، خلال هذه السنوات الأربع!... فماذا تخبئ لنا إقامتنا في «سان بطرسبورغ»؟، فكل شيء يبدو أمامنا غامضاً، يكتنفه ضباب كثيف».

وبعد أن سدّد «دوستويفسكي» ديونه، ودفع نفقات السفر لم يبق في جيبه سوى بعض الروبلات. وعلاوة على ذلك، فإن بعض الحاجيات وأدوات المطبخ، التي أودعت لدى امرأة عجوز، قد اختفت بعد وفاة تلك المرأة. والملابس التي رهنت عند أحد المرابين، بيعت بعد انقضاء المهلة المحددة لتسديد الفوائد والديون. كما أنّ كتب «دوستويفسكي» كان قد بعثرها وباع بعضها ربيبه «بول» عندما شعر بحاجته للنقود.

وبعد بضعة أيام من وصول العائلة إلى العاصمة، أخذ أقارب «دوستويفسكي» يتوافدون لتحيتهم والسلام عليهم، واستمر ذلك لفترة طويلة: معانقات، أسئلة واستفسارات، وثرثرات.

وابن زوجته «بوب» كان قد تزوج، وزوجته جميلة وفاتنة. وابن «اميلي فيدوروفنا» أرملة أخيه ميشيل، وهو ولدهما البكر، أصبح عازف بيانو

مشهور، وولدهما الثاني يعمل موظفاً في أحد المصارف، بينما كانت ابنتهما تعمل بالاختزال...

وهذه الزيارات المستمرّة أرهقت «أنا غريغوريفنا». وقد كتبت عن ذلك، في مذكراتها: «بالأمس، لأني كنت مريضة، وأعاني من بعض الآلام، كان زوجي يصلي آناء الليل وأطراف النهار، أن تنتهي تلك الأزمة، بشكل مرضٍ وسعيد». وبتاريخ ١٦ تموز (يوليو)، وضعت أخيراً مولوداً ذكراً، أطلقا عليه اسم «فيدور».

«وفي تلك اللحظة كان يلف في أقمطته، بينما كان يصرخ بصوت قوي ينم عن سلامة صحته».

وفي أواخر شهر تموز (يوليو) سافر «دوستويفسكي» إلى موسكو، لكي يتناول مكافأته من إدارة صحيفة «المراسل الروسي». وبعد عودته، استقرت الأسرة وأقامت في منزل يقع في شارع «سير يوخوفسكايا». وكان «دوستويفسكي» يأمل أن يتمتع هناك بهدوء نسبي، لكي يتابع عمله. لكن، ويا للأسف! ففي شهر أيلول (سبتمبر) أعلنت إحدى الصحف أنّ الروائي «دوستويفسكي» قد عاد إلى الوطن، بعد أن أقام في الخارج، فترة طويلة. ولم يكن الأمر بحاجة لأكثر من ذلك، لكي ينتبه الدائنون، ويتسارعوا للمطالبة بتسديد الديون، حتى إنّ «فيدور ميخائيلوفيتش» ألفى نفسه مهدداً بالسجن من قبل دائن يدعى: «هنترستان» الذي قال له:

«كما ترى، فأنت كاتب روسي موهوب ومشهور، بينما لست أنا سوى بائع ألماني صغير، ولكني أريد أن أبرهن لك على أني أستطيع أن أزج في السجن روائياً روسياً مشهوراً بسبب الديون المستحقة عليه، وعليك أن تكون متأكداً من أنني سأفعل ذلك».

وكانت «أنا غريغوريفنا» هي التي تولت الدفاع عن زوجها: فقد أكدت لهنترستان المخيف، أن «فيدور ميخائيلوفيتش». ينوي تقبل عقوبة السجن التي

يتحدث عنها البائع، وأنه سيتابع الكتابة بهدوء واطمئنان، أثناء إقامته في السجن. وقالت له: «وعلاوة على ذلك، فستكون ملزماً بأن تؤمن له المواد اللازمة لمعيشته». فشعر الألماني، عند ذلك بالخوف، ووافق على تسوية معينة للموضوع.

ومنذ ذلك الحين- كانت «أنّا غريغوريفنا» هي التي تستقبل دائماً دائني «دوستويفسكي». وقد كتبت عن هذا الموضوع، في مذكراتها: «يا لها من نماذج مدهشة تلك التي وفدت على منزلنا، في تلك الفترة! تجار وسماسرة محترفون، يحملون سندات «كمبيالات» تدفع لأمرهم، أرامل بعض المستخدمين والموظفين، أصحاب غرف مفروشة للأجرة، ضباط متقاعدون، جميعهم ينتمون إلى أدنى طبقات المجتمع. ومعظمهم كانوا قد اشتروا تلك السندات والإيصالات بثمن زهيد، لا يساوي كسرة خبز، ويطالبون بتسديد قيمتها بالكامل. وجميعهم يهددوننا بمصادرة أثاث المنزل أو بالسجن، ولكني كنت قد أصبحت أعرف جيداً كيف أتحدث إليهم وأرد على تهديداتهم. كانت حججي المقنعة هي نفسها التي استخدمتها مع «هنترستان».

وقد أثبتت هذه المرأة الشابة أنها تاجرة من الطراز الأول، وأنها تتمتع بقوة كبيرة، بجانب زوج حالم، مستسلم، يثق ليس بها وحسب، بل بالجميع، وعلاوة على ذلك فهو مريض.

وكانت «أنّاغريغوريفنا» تتابع معركة النضال اليومي بحماسة وكيل أعمال عصري ومتمرس. وعندها كانت تتحطم وتتبدّد الأمور المزعجة والمنغصة للحياة وللمعيشة. وكانت هي التي تدقق الحسابات، وهي التي تحدّد وتسدّد النفقات. ولا يتم أي شيء من دون موافقتها. وفي سنة ١٨٧٣ قررت التحضير لإعادة طباعة ونشر رواية «الأبله» ورواية «الشياطين». فاشترت بنفسها الورق، وتفاوضت مع صاحب المطبعة، وقامت بتصحيح البروفات. وكانت تستقبل مندوبي المكتبات، وترفض مطالبهم عندما كانوا يحاولون الحصول على حسومات تزيد على ٢٠٪:

«إن ثمن عشر نسخ هو خمسة وثلاثون روبلاً، ولكن بعد حسم ٢٠٪ فلن تدفعوا لي سوى ثمانية وعشرين روبلاً».

- لماذا يكون الحسم قليلاً إلى هذا الحدّ، ألا يمكن أن تحسمي لي ٣٠٪.

وعندما كان يقول لها المندوب، ذلك، كانت تجيبه، بحزم:

- هذا مستحيل!

- اجعليه ٢٥٪ على الأقل.

«فكنت أقول له، وأنا أشعر بقلق شديد، لأني كنت أفكر: «إنه يهمّ بالانصراف، وسيذهب وهو أول المشترين! ولكنه، من جهته، كان يقول:

«إذا كان ذلك مستحيلاً، حسناً، إذن هاك»!

وتقدم وسلمني لنقود.

فسررت جداً، لدرجة أني أعطيته ثلاثين كوبيكاً، أجرة العربة التي ستقله إلى المكتبة التي يعمل لحسابها».

وبدت العملية ناجحة بشكل رائع: ففي نهاية السنة تبين لأنا غريغوريفنا أنها باعت ثلاثة آلاف نسخة. والخمسمائة نسخة التي بقيت، بيعت، بعد ذلك، في السنوات التالية.

وأثناء ذلك، وفي أواخر سنة ١٨٧٢، عرض الأمير «ميسشيرسكي» صاحب صحيفة «المواطن» على «دوستويفسكي» منصب رئيس تحرير صحيفته، براتب قدره (٣٠٠٠) روبل في السنة. كان الفشل الذي منيت به روايته: «الشياطين» قد أيقظ لديه الرغبة بمباشرة النضال حتى الموت ضد الأفكار الليبرالية. ومنذ بعض الوقت، كان قد أخذ يفكر، بأن يصدر مجلة، يطلق عليها اسم: «صحيفة كاتب» حيث يستطيع أن يشرح أفكاره ويبدي رأيه في أحداث تلك الفترة. وهكذا فإن العرض الذي قدمه له الأمير «ميسشيرسكي» سوف يتيح له أن يحقق حلمه بطريقة أخرى. وبدلاً من مجلة مستقلة، سيكون تحت تصرفه زاوية مهمة في صحيفة أسبوعية واسعة

الانتشار. فقبل العرض. ووافقت الرقابة على تعيين «فيدور ميخائيلوفيتش» في مركز رئيس تحرير صحيفة «المواطن»، ولكنها أبدت بعض التحفظات بشأن النشاط التالي، الذي سيقوم به، هذا الشخص، في المستقبل»...

وكان الفريق الأدبي الذي يعمل في هذه الصحيفة، مؤلفاً من كتاب ينتمون إلى أقصى اليمين، من أمثال: «مايكوف»، «فيلييوف»، «ستراخوف» و «بيلوف... وكان اتجاه الصحيفة محافظاً، بشكل واضح، ومعادياً للغرب ولأوربا. وسوف يزداد هذا الاتجاه وضوحاً ورسوخاً، تحت إشراف «دوستويفسكي».

وفي الأيام الأولى، ظنّ «فيدور ميخائيلوفيتش» أنّ إدارة صحيفة «المواطن»، ستترك له بعض أوقات الفراغ والراحة، لكي يستطيع متابعة الكتابة والتأليف. ولكنه وجد نفسه بسرعة مضطراً بأن يضحي تماماً بنشاطه كروائي في سبيل نشاطه كصحفي. وكان عمله في وظيفته الجديدة يستغرق كل وقته: كان يستقبل المؤلفين، يقرأ المقالات ويصححها (وخاصة تلك التي يكتبها الأمير «ميسشيرسكي) ويراجع تجارب الطباعة، يملي الرسائل، يتابع أخبار السياسة ليطلّع على ما يجد فيها، وفوق ذلك، كان عليه أن يكتب زاويته:

«مذكرات كاتب».

وفي علاقات «دوستويفسكي» مع الأمير «ميسشيرسكي» وبتعامله معه برهن على أسلوب مرن وعلى دبلوماسية، بدت مدهشة لدى هذا المندفع والمتحمس. وكان الأمير «ميسشيرسكي» مولعاً بالكتابة، ويحب أن يكتب دائماً، ولكنّ «دوستويفسكي» كان يضطر دائماً لتعديل وتصحيح المقالات التي يكتبها ويرسلها له، وكان يعتذر عن ذلك بحيل مختلفة تنم عن المجاملة:

«عزيزي الأمير: إنّ جوابك لصحيفة «أخبار سان بطرسبورغ» كتب بطريقة ظريفة وواضحة، ولكنه جاف بعض الشيء، ويتسم بالإثارة (وربما

أثار الجدل والشجار) وربما بدت لهجته غير سارة... أرسل لك الجواب الذي كتبته أنا، وقد أدخلت فيه بعض المقاطع من جوابك. ولكني ربما أكون قد ارتكبت بعض الأخطاء، لذلك أكون ممتناً جداً منك إذا استطعت مراجعة نص الجواب الذي كتبته»...

ومع ذلك، فقد كان على «فيدور ميخائيلوفيتش» أن يعاقب، هو شخصياً في أحد الأيام، عن خطأ بسيط ارتكبه النبيل، صاحب صحيفة «المواطن».

فقد كان الأمير «ميسشيرسكي» قد أرسل إلى «دوستويفسكي» مقالة ورد فيها كلام وجهه الإمبراطور إلى النواب الكرخيزيين. وكان «فيدور ميخائيلوفيتش» يجهل أنّ كلام الإمبراطور وكلام أفراد أسرته، ممنوع نشره دون الحصول على إذن مسبق من وزير البلاط. وأوعز بطباعة المقالة، مهملاً التقيد بالإجراءات المتبعة في هذه الحالة.

وهذه المخالفة كلفته دفع غرامة قيمتها (٢٥) روبل وتمضية (٤٨) ساعة في السجن. ولكن ماذا كانت هذه بالنسبة للأشهر العديدة التي أمضاها في سجن «أليكسي» سنة ١٨٤٩؟! وتحمل «دوستويفسكي» عقوبته بسرور، والتي أمضاها في مركز التوقيف الكائن في شارع «الهال» (Des Halles). وإلى هناك أحضرت له زوجته شيئاً من الطعام وبعض الملابس. وأتى العديد من أصدقائه لزيارته، في اليوم التالي. وقد استغل فترة توقيفه لإعادة قراءة رواية «البؤساء» ومما قاله بهذه المناسبة: لقد أتاحوا لي بتوقيفي بعض السعادة، لأنني لولا ذلك لما وجدت الوقت اللازم لأقرأ ثانية، وبأي اهتمام وبأيّ فائدة! هذا العمل العظيم»...

و «بمذكرات كاتب» التي نشرت بعد ثلاث سنوات في كتاب مستقل، دشن «دوستويفسكي» جنساً أدبياً جديداً، يمزج فيه بين الخواطر الوجدانية الحميمية وبين الجدل والمناقشات في السياسة الخارجية. والموضوعات اليومية الدائمة، والاهتمامات والمشكلات الراهنة، وبين

الأحداث والوقائع المختلفة والتخيلات الرومانسية. وهي عبارة عن أحاديث متنوعة، وفي موضوعات مختلفة، مع القارئ. إنها أحاديث، بل محادثة، لأنّ «دوستويفسكي» ينقضّ في كل لحظة على الخصم، ينتزع الاعتراض من شفتيه، يسرق الفكرة من ذهنه ويردّ عليه بحماسة مخيفة. وما يورده في أحاديثه كتبه بأسلوب سهل ومألوف، مسترسل ومشوش بعض الشيء، ولكنه يرتفع ويتعالى أحياناً فيتسم بالبلاغة التوراتية. وهو هنا، أمامنا، يبدو مرتبكاً لكثرة ما لديه من أفكار وكلام، ومتخبطاً في قناعاته الخاصة، مراوحاً، متنبئاً، مخطئاً، مستاءً ومصراً على خطئه بنوع من الحرد الطفولي.

كان «دوستويفسكي» يشغل منصبه كرئيس تحرير، منذ سنة، عندما تلقى زيارة «نيقولا أليكسييفيتش نيكراسوف» شاعر البسطاء والمتواضعين، المشهور، والصديق المريح للمعذبين في الأرض، الذي كان رفيق «دوستويفسكي» في فترة الشباب، ثم أصبح عدوه في المجالات الأدبية. ولم يكن قد التقى به منذ عدة سنوات، والحال، هي أنه كان بحاجة، وبصورة سريعة لرواية بقلم كاتب كبير، وتحمل توقيعه، لكي ينشرها في صحيفة «حوليات الوطن». ولذلك فقد قرر أن يتناسى الخلاف والمشاحنات القديمة. وأن يطلب هذه الرواية من «دوستويفسكي».

وعرض «نيكراسوف» مبلغ (٢٥٠) روبل، كمكافأة مقابل كل فصل أو ملزمة بينما كان «كاتكوف» لا يدفع له مقابل ذلك سوى (١٥٠) روبل. وقد أغرى هذا العرض «دوستويفسكي»، فاستشار زوجته، وبناء على نصيحتها، وافق على أن يقدم له الرواية في العام المقبل.

ولم يكن لهذا المشروع سوى سيئة واحدة ولكنها مهمة: وهي أنّ صحيفة «حوليات الوطن» كانت صحيفة يسارية، ومحرروها، في معظمهم، أعداء متخاصمون مع «دوستويفسكي» وكان يخشى أن يطالبوه بالانصياع والخضوع التام لأفكارهم وكتب إلى زوجته، يقول: «يستطيع الآن

«نيكراسوف» أن يزعجني، بصورة جدية، إذا طرحت وكتبت شيئاً يتعارض مع ميولهم... ولكن، حتى ولو كان علينا أن نتسول، فإني لن أستسلم لهم ولن أتنازل، قيد أنملة».

ولكي يكرس «دوستويفسكي» كل وقته وجهده لكتابه الجديد فقط، فقد قرر التخلي عن عمله كرئيس تحرير لمجلة «المواطن»، حتى إنه استأجر بيتاً ريفياً في منطقة «ستارايا روسّا» التابعة لحكومة «نوفغورود» حيث سبق له أن أمضى فصل الصيف، سنة ١٨٧٢.

وقد كتبت ابنته «ايمي دوستويفسكي» بهذا الخصوص، ما يلي: «كل شيء كان صغيراً في ذلك البيت، الغرف صغيرة، ضيقة وسقوفها منخفضة، ومفروشاتها من الطراز الإمبراطوري القديم، وتزينها مرايا خضراء اللون، تعكس الوجوه التي تملك الجرأة على النظر إليها، بصورة منحرفة ومشوهة، وعلى الجدران ألصقت قطع من الورق على قماش، وقد علقت هناك وتدلت وهي كناية عن لوحات فنية، تعرض على أعيننا المندهشة، أعين الأطفال المولعة بالنظر إلى كل شيء، نساءً صينيات بشكلهن الغريب وأظافرهن الطويلة، وأرجلهن المحصورة في أحذية صغيرة كأحذية الأطفال. وكان هنالك شرفة مسقوفة ومغطاة بزجاج ملون بألوان مختلفة، كنا نفرح كثيراً بالجلوس عليها، و «البليياردو» الصيني الصغير، بكراته الزجاجية وأجراسه الصغيرة، كان يسرنا أن نلعب به ونتسلى أثناء تلك الأيام الطويلة التي تنهمر عادة فيها الأمطار الغزيرة، في فصل الصيف في منطقتنا الشمالية. ووراء المنزل، كان هنالك حديقة فيها أحواض ومساكب صغيرة زرعت فيها مختلف أنواع الزهور»...

وكان «دوستويفسكي» كعادته، يشتغل في الليل، ويأوي إلى سريره، الساعة الخامسة صباحاً، يستيقظ، الساعة الحادية عشرة، وينادي الأطفال الذين يسرعون ليرووا له ما حصل معهم من أحداث بسيطة في

صبيحة ذلك اليوم. وبعد تناول طعام الغداء، يأوي إلى مكتبه، بصحبة زوجته حيث يملي عليها ما كتبه في تلك الليلة.

«أيه، آنيت، ما رأيك بهذا؟

- أقول بأنه جميل»!

حتى إنه كان يحصل أحياناً أن تنفجر المرأة الشابة بالنحيب، باكية عند سماعها بعض المقاطع المؤثرة. ولم يكن «دوستويفسكي» يعرف مكافأة على عمله أهم من تلك الدموع. ومع ذلك، فإنه كان يحتجّ:

«أمن الممكن أن تكون هذه القراءة قد أحدثت لديك تأثيراً قوياً إلى هذه الدرجة؟ لكم أنا آسف لذلك، إني أسف جداً»!

كان الكتاب الذي يؤلفه «دوستويفسكي»، أثناء تلك العزلة العائلية في ستاريا روسّا» عملاً ضخماً ومطولاً، كان يكتبه اعتماداً على ما تجمع في أدراجه وفي دفاتره من محتويات يصل بينها وتربطها ببعضها رابطة رومانسية. وهذه القصة غير المتوازنة، تتضمن عشر روايات في رواية واحدة. ويشعر من يقرؤها أنّ المؤلف قد الصق أطراف قصص لم تنشر، ووصلها ببعضها، وأنه جمع بعض مقاطع المقالات، ومشاريع الدراسات، وضمها إلى موضوعات أخرى. والمجموع يبدو مشتتاً، ينم عن التسرع في كتابته، ومع ذلك فهو يتصف بالعبقرية وبالنبوغ.

و «المراهق» مثله في ذلك، مثل جميع روايات «دوستويفسكي» الكبيرة، يروي قصة النضال في سبيل الحرية: «راسكولنيكوف» يقتل لكي يبرهن لنفسه على أنه حرّ، يتمتع بحريته، والأحمق لا يجد الحرية إلا في الجنون، والشياطين يلاحقون الحرية عبر الثورة. وبطل رواية «المراهق» يريد أن يشتري الحريةَ بنقوده. وغنى رجل كروتشيلد، هو أكبر ضمانة وأشدها وثوقاً للقوة والاستقلالية.

«إن فكرتي هي أن أكون «روتشيلد»، أن أكون بغنى «روتشيلد»، ليس غنياً وحسب، بل مثل «روتشيلد»، تماماً، وبالتحديد»!...

هكذا يعبر عن فكرته الفتى «أركادي دولغوروكي»، الابن غير الشرعي للملاّك «فيرسيلوف» من فلاحة عبدة. وهو لا يعرف والده ولا أمه. يدخل كأحد الأيتام في مدرسة داخلية خاصة لرجل فرنسي جاهل وقاسٍ، هو السيد «توشار». وهذه المدرسة هي عبارة عن مؤسسة ارستقراطية مخصصة «للأمراء ولأبناء أعضاء مجلس الشيوخ. ويطلب «توشار» مبلغاً إضافياً لكي يقبل في مدرسته ولداً غير شرعي. ولأنه لم يحصل على هذا المبلغ الإضافي، فقد أخذ يثأر لخيبته وينتقم من تلميذه، وكان يقول له:

«مكانك ليس هنا، بل هناك، ويشير له إلى غرفة صغيرة معتمة، «ليس لك الحق بأن تجلس بجانب الأولاد النبلاء وأنت من أصل محتقر، وليس أكثر ولا أفضل من أصل أي خادم». وكان يضربه، ويعرضه لسخرية رفاقه. وبدلاً من أن يتمرد «أركادي» الصغير ويثور كان يحاول أن يفشل «توشار» ويتغلب عليه، بانصياعه وبخضوعه وصبره. «لقد ظل يضربني طوال شهرين تقريباً. وأتذكر أني طوال الوقت، كنت أريد أن أسترضيه، لا أدري بأيّ وسيلة، كنت ألقي بنفسي على يده لكي أقبلها، وكنت أقبلها وأنا أجهش بالبكاء. (فهو يحب وضاعته): «لقد أذليتني، حسناً! فأنا سأذل نفسي بنفسي، وأكثر من إذلالك لي! هاك، انظر، وتأمل بإعجاب! «توشار» كان يضربني ويريد أن يثبت لي أني خادم وابن خادم ولست ابن أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وأنا، من جهتي، لبست في الحال لبوس أحد الخدم... «لقد أردت أن أكون خادماً، انظر، فأنا خادم، وأردت أن أكون وغداً حقيراً، فأنا وغد حقير»...

فهنالك نوع من الكبرياء، في المذلة عندما تبلغ أقصى درجة لها. وبتقبل الإهانة، يدهش من يتقبلها الشخص نفسه الذي يوجهها له. ومشهد النذالة التامة هو استثنائي، كمشهد الشجاعة الطيبة والجميلة. والموقفان

يتبعان اهتماماً متساوياً ومتماثلاً في الإخراج. ونادراً ما يشعر المرء بعدم الجدارة أو بالفخر والزهو بنفسه.

ويعترف «دولغوروكي»، قائلاً: «منذ أن استيقظ وعيي بشكل حقيقي، كرهت البشر، وأنا لا أستطيع أبداً أن أثق تماماً حتى بأحد أقربائي، أو بالأحرى أنا أستطيع ذلك، ولكني لا أريده وأمتنع عن ذلك خفية وبصورة عجيبة... فأنا مرتاب وحذر، صموت ومنطوٍ، منغلق على نفسي... وكثيراً ما أشعر بالرغبة بالانفصال وبأن أقطع علاقتي، فوراً مع المجتمع... ولا أرى أي سبب أو مبرر يدفعني لعمل الخير لبني البشر. وبنو البشر ليسوا جديرين بما يكفي من الإعجاب، لكي نهتم بهم»...

وذات يوم، دفعته انطلاقة حماسية، فامتدح صديقه «فاسين»، فقال: «إيه! لقد شعرت، مساء ذلك اليوم نفسه، أني أصبحت أحبه أقل مما كنت أحبه، سابقاً. لماذا؟ فقط، لأني بامتداحي له، قد خفضت من قدري، أنا أمامه».

وكذلك: «منذ أدنى الصفوف في المدرسة، فإني لم أكن أكاد أدرك أنّ أحد رفاقي سيتجاوزني ويسبقني في الدروس، أو بسرعة إجاباته، أو بقوته الجسدية، حتى امتنع، في الحال، عن مرافقته وعن التكلم معه»...

هذا الخادم يريد أن يكون السيد. أو بالأحرى، هو يريد أن يكون في آن معاً، خادماً وسيداً. سيداً بمظهر خادم.

وبقدر ما كان يعاني ويزداد تألماً في النهار، بقدر ما كان يبدو له ممتعاً أن يتصور مستقبلاً يطفح بالفرح، بالنشاط والحيوية. ولم يكن يبحث عن الألم للألم بحد ذاته، بل لأنه كان يعطي لفكرته عن السعادة في المستقبل، ثمناً، وبريقاً جديداً. والألم، بالنسبة له، مثله في ذلك مثل جميع شخصيات «دوستويفسكي»، ليس غاية، بل وسيلة.

فالألم يشتري كل شيء، ويدفع ثمن كل شيء. وبالأساس هو العملة الوحيدة التي يقبلها «دوستويفسكي» في رواياته، ولنفسه هو،

بالذات أيضاً. ولكم يجيد المساومة، والدفاع عن نفسه، واستخدام الحيل، عندما يتعلق الأمر بتحقيق الهناء، والسعادة القصوى، لنفسه ولأبطاله عن طريق المعاناة وتحمل العذاب! إنه مثل أولئك السماسرة الذين لا يترددون بمغادرة الدكان، لكي يعودوا في الحال، ويتباكون، ويغضبون، ويتظاهرون بأنهم قد انصاعوا لضمائرهم، مع ذلك، لأنهم حققوا صفقة جيدة ورابحة. وهو «جلاد النقود»، عديم الاهتمام، واللا مبالي الدائم والمبذر غير القابل للإصلاح، يبرهن على أنه تاجر مساوم من الطبقة الأولى، حالما لم يعد يسدّد الحساب بقطع كبيرة من النقود و «أركادي» الصغير أصبح يعرف أنّ الثروة ليس لها قيمة عاطفية إلا بقدر ما تكون قد اكتسبت بمشقة: «لم أكد استلقي ليلاً، واختبئ تحت الأغطية، منعزلاً في وحدة تامة، بعيداً عن ذهاب وإياب الغرباء، عن جلبتهم وضوضائهم، حتى أبدأ بإعادة تنظيم الحياة على أساس آخر».

لديه فكرته. ولكن ماذا يمكن أن تكون فكرة إنسان ذليل إنسان مهان. إنه يريد أن يتجاوز كل الناس، وأن يهدم الأسوار، وأن يسحق الحجج والبراهين، وأن يكون مرهوب الجانب، محترماً، مطاعاً، مثلما يخشى هو، ويحترم ويطيع. ولكن ما هي الوسيلة التي تتيح له تنفيذ مشروعه؟ ليس عليه سوى أن ينظر حوله لكي يقدّر الدور الكبير والمهم الذي تقوم به الثروة والغنى، في المجتمع. فوحده الرجل الغني يستطيع أن يفعل كل ما يرغب به.

ووحده الرجل الغني يستطيع شراء الأجساد، والضمائر، والعفو والغفران. وأخلاق كل فرد تتعلق بثروته. وفيما بعد رقم معين، الأخلاق لم يعد لها وجود. والمفاهيم الأخلاقية التي يريد أن يسحقها «راسكولنيكوف» تحت جسم ضحيته، «أركادي» يريد أن يسحقها تحت ثقل ووطأة ذهبه. والجريمة بالنسبة لأحدهما، والنقود بالنسبة للآخر، هما الوسيلتان للهروب إلى خارج القطيع.

محاولة «راسكولنيكوف» مأساوية. أما محاولة «دولغوروكي» فهي سخيفة ومضحكة. ولكنّ المحاولتين تقصدان الهدف نفسه، والفشل نفسه ينتظرهما. الاثنان انطلقا نحو مغامرة الإنسان المثالي والكامل والاثنان توقفا في الطريق بفعل ذكرى شخصهما البشرى، وبفعل انتباه الله ومشيئته الخفية والعجيبة.

ولنصغ إلى «دولغوروكي»: «أتعلمون كيف وبماذا سأستخدم ثروتي؟ فأيّ لا أخلاقية فيما إذا من عدد لا يحصى من الأيدي اليهودية، القذرة والمسيئة، سقطت تلك الملايين بين يدي إنسان وحيد، يعيش في عزلة، ثابت مستقيم وعاقل، ويوجه إلى الناس، في هذا العالم، نظرة ثاقبة»؟

وماذا نقرأ في رواية: «الجريمة والعقاب»؟

«من جميع قمل العالم، اخترت القملة الأكثر ضرراً، وبقتلها، كنت أفكر بأن آخذ منها، ما أحتاجه بالضبط للقيام بخطواتي الأولى»...

وأيضاً: «مئة، ألف عمل خير، أو مبادرات نافعة وممتازة بواسطة تلك النقود التي تكتنزها العجوز. اقتلها وخذ ما تخبئ من ذهب، لكي تستطيع بعد ذلك أن تعمل وتكرس الجهد والمال لخير البشرية العام والشامل». أليست، بالضبط، نغمة الجرس، نفسها؟

والواقع، هو أنّ لا «راسكولنيكوف» ولا «دولغوروكي» يتطلعان إلى الخير العام للبشرية أو يهتمان به، وليس أيضاً رفاهيتهما الشخصية هي التي يرغبان تحقيقها. وما يأملانه، هو القدرة بصورة مستقلة عن كل ما تتيحه من حاجات مادية، وبصرف النظر عنها. القدرة من أجل القدرة بحد ذاتها.

ويقول «راسكولنيكوف»: «ليس من أجل مساعدة أمي أبداً، قتلت، كلا، وليس أيضاً من أجل أن أبدو محسناً للبشرية، بعد أن حصلت على الوسائل، التي تساعدني على القيام بذلك...

كان ينبغي عليّ أن أعرف حينئذ، وبأسرع ما يمكن، فيما إذا كنت حشرة كالآخرين، أم أني رجل»!

ويقول «المراهق»: لست بحاجة لنقود، أو بالأحرى، ليست النقود هي التي احتاجها، ولا حتى القدرة، فأنا بحاجة فقط لما يكتسب ويمكن الحصول عليه بالقدرة، ولا يمكن أن يكتسب من دونها: الوعي الهادئ والوحيد بالقوة»...

نعم، إن أقصى درجة في المتعة، هي في البقاء بسيطاً متواضعاً فوق أكداس من الذهب، المتعة بالانزواء والتواري، في حين أنّ لنا كل الحقوق بالحصول على الرفاهية ووسائل البذخ، وأن نبدو فقراء، بينما تكون صناديقنا الحديدية ملأى بالأوراق النقدية!

إنه الإشباع، بل الرضى الحميمي والقذر بعض الشيء لرجل السرداب، الذي نجده ثانية هنا. ويفكر «المراهق» هكذا: (لو كانت لدي القدرة، وحسب، لن أكون بحاجة لها بعد ذلك، وأنا متأكد أني، من تلقاء نفسي وعن طيب خاطر، سأشغل في أي مكان، الموقع الأخير، ولو كنت «روتشيلد»، لسرت مرتدياً معطفاً عتيقاً ومرقعاً، وحاملاً بيدي ممطرة، وماذا يضيرني إذا دفعني الناس في الشارع، أو إذا اضطررت إلى الركض على الوحل، لكي لا تدهسني العربات؟ إن إدراكي بأني «روتشيلد» يمكن أن يكون كافياً ليحقق لي فرحتي، في ذلك الوقت».

وأيضاً: «أوه! يستطيع ذلك الجنرال الوقح أن يوجه لي إهانة في محطة الاستراحة، حيث كنا، نحن الاثنين ننتظر الحصول على أحصنة ولكنه لو كان يعرف من أنا، لأسرع وربط، هو شخصياً، الأحصنة على عربتي المتواضعة، وساعدني على الصعود إليها».

وعندما يملّ «المراهق» من قدرته، يفكر بأن يوزع نقوده، ويقول: «لأن مجرد إدراكي، بأنه كان بين يدي عدة ملايين، وأني ألقيتها في الوحل، سوف يغذيني في صحرائي»...

وهكـذا، فكمـا أنّ «راسـكولنيكوف» لـيس بحاجـة للنقـود المسروقة، كـذلك فـإن «دولغـوروكي» لـيس بحاجـة للنقـود المكتسبة. والاثنان، كلاهما يناضلان ليحصلا فقط على «الشعور الهادئ والمتوحد بـالقوة، «راسـكولنيكوف» يبحـث عنـه بكبريـاء وكمتكـبر، بينمـا «دولغــوروكي» يفعــل ذلــك بتواضــع ومذلــة وكخاضــع وذليــل. و «راسـكولنيكوف» يـسرق، يقتـل، ويجـازف بتعـريض نفـسه للنفـي إلى سيبيريا، لكـي يشتري القـوة والقـدرة. أمّـا «دولغـوروكي» فيختـار طريقـة متعقلة ودون فخر أو مجد: تجميع وتكديس المال والنقـود. والمراهـق يفكـر «بـأن النقـود هـي الوسيلة الوحيـدة الـتي تـسمح للمعـدمين الأكثـر عجـزاً بالوصول إلى الموقع الأول. ولكن كيف يمكن أن يحصل المرء على الثروة، ويغتني؟ ويدرس محيطه وجميع الـذين يحيطـون بـه. الكل يـأملون الحصول علـى الثـروة، علـى البحبوحـة ورغـد العيش. وجميعهم يمكـن أن يعملـوا أي شيء لكي يحصلوا على ذلك.

أينبغـي أن يبيع الإنسان نفسه؟ و «أنّـا أنـدرييفنا» تبيـع نفـسها بفرحـة القلـب. وهــل يجــب تزييــف حوالــة (شـيكاً) أو أحــد ســندات الأســهم؟ و «ستيبيلكوف» سـوف يزيفهـا. وهـل يجـب تنظـيم عمليـة احتيـال وابتـزاز والقيـام بهـا؟ ولـن يتراجـع «لامبير» و «تريشاتوف» حيـال تنفيـذ هـذا المشروع. و «المراهق» ليس من هذا الجنس لـيس مـن القساة والكواسـر. فهـو بـسيط، وضيـع. واسـتقامته ليـست سـوى خـشية وتخـوف. وهـو لـن يكتـسب نقـوده بالمخـاطرة وبتعـريض نفـسه للخطـر. بـل سـيوفرها ويجمعهـا قرشـا فقرشـاً. ويحـدد وجباتـه ويجعلـها تقتـصر علـى الخبـز والمـاء. وبعـد انقـضاء شـهر، يكتشف أنّ المحاولـة قـد نجحـت تمامـاً، وإن كـانت معدتـه قـد تـأثرت، بل وتـضررت قلـيلاً بهـذا «الـرجيم» والحميـة القاسـية. والتجربـة الثانيـة الـتي يفرضها الصغير «أركادي» على نفسه، فتقضي بأن يحـرم مـن نـصف نقوده

المخصصة لنفقاته الشخصية، وخلال سنتين يكون قد تجمع معه سبعون روبلاً. وهذه المثابرة التي تشبه مثابرة النمل، تشجّع تماماً على التفاؤل بالمستقبل الذي سيتاح لهذا الفتى.

ولكن، ويا للأسف، فإن الإنسان ليس إرادة موجهة وحسب.

ومثلما يعرف «راسكولنيكوف» فجأة، في صعوده نحو حالة الإنسان المثالي، الكامل والأسمى، أنه «حشرة كالآخرين» كذلك، فإن بعض المشاعر التي تنتمي بكل مذلة وتواضع إلى الأرض، هي التي تجعل «أركادي» يتعثر. وليست «فكرة» أخرى هي التي تفوز وتنتصر على «الفكرة الكبرى» التي يحملها «راسكولنيكوف» و «المراهق» إنها الحياة. وهما لا يستسلمان حيال الجدلية المعادية، بل حيال ما هو بشري ومعرض للموت في داخلهما، أي حيال نفسيهما بالذات.

وإخفاق «المراهق»، الأول، حدده وأشار إليه لقاؤه بـ «رينوتشكا». فقد عثر على طفل ملقى أمام باب بيت «نيقولا سميونوفيتش»، الذي يقيم عنده «أركادي»، في موسكو. وهموا بإرسال الطفل إلى «ملجأ اللقطاء»، عندما تدخل «دولغوروكي»، وتكفل بدفع أجرة المرضعة، وكافة النفقات الأخرى. وذهب نصف رأسماله في هذا المشروع. ولكنّ «رينوتشكا» ماتت بعد فترة وجيزة.

لقد أثبتت لي مغامرتي مع «رينوتشكا» أنّ أي مبدأ لا يمكن أن يقودني أو أن يوجهني، لدرجة أني لا أتوقف فجأة إزاء أي حدث مهم وألا أضحي له، في الحال، بكل ما كنت قد قمت به من عمل ونشاط من أجل الفكرة، طوال سنوات عديدة».

وهذا التراجع الأول «للفكرة» سيتبعه تراجعات أخرى، أقل أهمية وتقديراً.

«لماذا لا ألهو وأتسلى؟ فالحياة طويلة. والفكرة ستظل معي، على الدوام، فأنا لا أستطيع التخلي عنها، وليس عليّ إذن سوى عدم الاهتمام بها خلال ربع ساعة».

و «الفكرة» تنتظر.

أما «المراهق» فهو ينفق النقود التي يجنيها، في المدينة، على تسليات سخيفة وغير معقولة، كالمراهنات، والمقامرة، وشراء الملابس واستئجار العربات. ويشارك بحماسة في بعض الحيل والمؤامرات، ويتصل ببعض الأوغاد ويتحالف معهم، ويتقبل أخيراً إفلاس وانهيار ذلك الحلم، الذي كان يسكره وينتشي به، فيما مضى، وهو يعيش العزلة، منفرداً في «سردابه». و «روتشيلد» المستقبل يعدل عن أن يكون إنساناً مثالياً أسمى. وعدوله، بل تخليه، هذا، هو أقل مدعاة للتأثر وإثارة للشفقة، من تخلي «راسكولنيكوف» أنه لم يدفع ثمنه الآلام نفسها، ولكنه نشأ عن صراع في معركة أخلاقية مماثلة.

وإلى جانب هذا المخلوق المنكمش، وضع «دوستويفسكي» وجه «فيرسيلوف» والد «أركادي دولغوروكي»، ذلك الوجه الكبير والمخيف. و «فيرسيلوف» هذا، هو بشكل من الأشكال «تركيبة» من جميع النماذج «الدوستويفسكية» وهو نموذج ذو طابع يبدو خفياً وعجيباً بالنسبة للكاتب، كما يبدو كذلك أيضاً، بالنسبة للقارئ.

و «فيرسيلوف» مثله في ذلك، مثل معظم أبطال روايات «دوستويفسكي» خبر الازدواجية في الحب. فهو يحب «كاترين نيكولايفنا» بشغف ووله، ويحب أم «المراهق» بدافع الشفقة. وهو شبق وشهواني. وهو «نبي نساء». ولكنّ حبه يبدو بلا أمل، لأنه يستحيل على «فرسيلوف» الهروب نحو آخر، وأن ينسى نفسه من أجل آخر. فلا الشبق ولا الشفقة تقربان أبداً بين مخلوقين. ولا الشبق والشهوانية ولا الشفقة هما الحب الحقيقي. وإن كان لكل منهما جانبه بل حصته في هذا الشعور، وهذه العاطفة. فالحب، هو أولاً وقبل كل شيء إعطاء الذات، والحال هي أنّ الشفقة تفترض تفوق الأحد على الآخر، والشهوانية تفترض أنانية مطلقة.

وبالنسبة للماجن، الفاسق، الاقتران ليس سوى ذريعة للحصول على المتعة واللذة، وهو لا يفكر إلا بنفسه، في تلك المتعة. والفسق هو العزلة الأكثر تماماً وشدة، التي يمكن أن يقع فيها كائن أو مخلوق.

وفي هذه العزلة، يضيع الإنسان نفسه ويزدوج. يصيح «فيرسيلوف»: «قلبي ممتلئ بالكلام، ولا أستطيع قوله. ويبدو لي أني انقسمت إلى اثنين... نعم، حقاً، لقد انقسمت إلى اثنين. ومن هذا الأمر، أشعر بالحقيقة، بخوف شديد. ذلك. كما لو أنّ «ليمك» بديلك، الشخص الذي يشبهك كل الشبه، يقف بجانبك.

وأنت بالذات، ذكي وعاقل، والآخر يريد تماماً ارتكاب بعض الأخطاء غير المعقولة»...

والتعسف يؤدي إلى تدمير الشخصية، وإلى ظهور الشبيه «البديل»، الشيطان، وظهور «غوليادكين» وهو يكشر معلناً عن الجنون.

و «فيرسيلوف»، المتشدق المتذبذب، ينهك نفسه بإلقاء الخطب وبالأحاديث المطولة عن دور روسيا، وعن الرفاهية العامة لكل البشرية، وعن محبة الله: «بنو البشر المهملون سيلتصقون ببعضهم، في الحال، بمزيد من الشدّة، ومن التعاطف والحنان... وسوف يحبون الأرض والحياة، ويعزّونهما بحماسة شديدة، في حدود كونهم سيعتادون، بالتدريج، على أن يروا فيهما، أصلهم ونهايتهم».

وهو يتكلم، ويتكلم كثيراً، ولكنه، في الواقع، لا يؤمن بشيء «فيرسيلوف» لا يميل ولا يتجه نحو أي هدف محدد، وعاصفة، بل فورة من المشاعر المتناقضة تعطل عقله عن العمل». هكذا يعبر «المراهق» عن رأيه. وهو نفسه، لا يتوصل، مع ذلك، إلى بلوغ «الهدف النهائي». ويتخلى عن الفكرة، ويسجل اعترافه؛ فقد كتب:

«الحياة السابقة والقديمة قد انتهت، والجديدة تكاد تهم بأن تبدأ».

وهذا يجعلنا نفكر تلقائياً بنهاية رواية: «الجريمة والعقاب»: «كان قد أخذ يسطع على وجوههم التي أضناها التعب، فجر مستقبل جديد، وبعث تام وعودة إلى الحياة».

وتلقى النقاد بالتأييد والإعجاب، عمل «دوستويفسكي» الأخير. وقد كتب أحد محرري الأخبار، ما يلي:

«بعد أن تطالع هذه الرواية، تجد نفسك مدفوعاً إلى هذا الالتزام المحتم والذي لا مفر منه، وهو: أن تفكر، وتفكر، وتفكر كثيراً»...

ويروي «دوستويفسكي» أنّ «نيكراسّوف» نفسه، قد قرأ الكتاب بسرعة في ليلة واحدة: «الأمر الذي لم تكن سني وحالتي الصحية تسمحان لي به!... وأيّ عذوبة وأيّ حيوية في أسلوبك! وحيوية كهذه، وأنت في هذه السن، نادرة جداً، وليس لها مثيل لدى أي كاتب. و «تولستوي»، في روايته الأخيرة، يردّد تقريباً، ما قرأته له سابقاً، ولكنّ ما كتبه فيما مضى كان أفضل مما قرأته له فيما بعد»!..

أما «تورغينيف» العدو الدائم، فقد أسرّ إلى «سالتيكوف» قائلاً: «لقد ألقيت نظرة على تلك البلبلة والفوضى، يا إلهي ما هذا التشويش والكلام المتنافر، وما هذه العفونة المرضية وما هذا الهذر الذي لا جدوى منه، ويا لها من محاباة مثيرة للتحليل المتعلق بعلم النفس»!

وهذا لم يمنع «تورغينيف» نفسه، من أن يخاطب «دوستويفسكي» بعد سنتين من ذلك التاريخ، بالعبارات التالية: «لقد كلفت «مجلة العالمين» السيد «أميل دوران» بوضع دراسة عن الكتاب الروس، الأكثر أهمية... وأنت ستكون، بالتأكيد، في الصف الأول بين زملائك»...

وأثناء سنوات العمل، هذه، كان «فيدور ميخائيلوفيتش» يعيش برفقة زوجته وأطفاله في «ستاريّا روسّا» ولم يكن يتغيب إلا لكي يذهب

لمقابلة ناشري مؤلفاته، في «سان بطرسبورغ» أو في موسكو، ولمعالجة التهاب أصيب به في البلعوم، في مدينة «ايمس» (E M S) الألمانية.

إنه سعيد، وبنشوة حقيقية، إنما كان يتحدث عن أبنائه: «لقد جلسوا في الصالون، واستولوا على الكرسي، وأخذوا يلعبون... والأولاد أكلوا من لحم العجل، و «بسكوت» وشربوا حليباً، ثم ذهبوا للنزهة. وبعد ذلك أخذوا يجمعون الثلج، ويلعبون به».

وكذلك: «لقد حلمت بأن «فيدور» صعد على كرسي، ووقع وأصابه بعض الألم. حباً بالله، لا تدعيه يصعد على كرسي، وقولي للمربية أن تكون أكثر انتباهاً»!

وهو لا يزال يحبّ زوجته، كما أحبها في الأيام الأولى من تعرفه عليها ويوقع الرسائل التي يوجهها لها، بعنوان كتابه نفسه: «زوجك الأبدي». ومما كان يكتبه لها: «وفوق ذلك، يا حبيبتي، كم أنا بحاجة لك، وكم أنت لازمة بل ضرورية لي، في هذه اللحظة، أتفهمينني؟ أحقاً إنك ترينني في أحلامك؟ ربما لم أكن أنا الذي ترينه؟ أقبل قدميك الصغيرين، وأقبل «كل شيء» فيك، أقبله بشكل مرعب ومخيف»...

أو: «أنيت، يا وثني، يا عزيزتي... لا تنسيني. وأنه لأمر حقيقي وصحيح أنك وثني وصنمي الذي أعبده، وأنت معبودتي ربي وإلهي. وأنا أعبد كل ذرة في جسمك وفي روحك، وأقبلك كلك، كلك، لأن كلك لي، لي»!

وكان يهتم بفساتين «أنا غريغوريفنا» بحنان وعطف مؤثرين: «وبالمناسبة، فإنّ «آل شتاكنسشنيدر» قالوا لي إن «الحرير المقلم» لم يعد «دارجاً» في باريس، ونادراً ما ترتدي السيدات ملابس صنعت منه، بسبب بعض العيوب الموجودة فيه، وأن القماش الأسود «الدارج» في الزي حالياً، يسمونه «الجوخ: وجميع السيدات يسرعن لاقتناء الفساتين المصنوعة منه، وقد أطلعوني على نماذج منه تشبه الحرير غير الصقيل».

وفي سنة ١٨٧٥، ذهب إلى «سان بطرسبورغ» لكي يصحح «بروفات» طباعة كتابه، فالتقى هناك بـ «نيكراسوف» الذي امتدحه وأثنى عليه، بشأن كتابه الأخير، والتقى أيضاً بـ «ستراخوف» وبـ «مايكوف»، اللذين أثنيا عليه، كذلك، ولكن بشيء من البرود.

وقد كتب، إلى زوجته، متحدثاً عن الناقد الأول:

«نعم، يا «أنيت» إنه خريج مدرسة إكليريكية، سيئ، ولا شيء أكثر من ذلك. وسبق له مرة أن تخلى عني بعد فشل صحيفة «الزمن» ولم يعد إليّ إلا بعد نجاح رواية: «الجريمة والعقاب».

ورحلة «دوستويفسكي» التي قام بها إلى «ايمس»، ولأسباب صحية» أتعبته، وكانت بشكل خاص شاقة بالنسبة له:

«لكم أودّ أن أراك وأقبلك! فأنا هنا، أشعر بسأم قاتل ومميت».

وكان يشرب الماء بمقادير قليلة، ويستمع للموسيقا في الحديقة. ويطالع: «إني أقرأ كتاب أيوب» وهو يثير لدي حماسة غير صحية، بل مرضية. فأترك المطالعة، وأتمشى زهاء ساعة في الغرفة، وأنا أكاد أبكي، تقريباً».

وفي تلك الفترة نفسها، نشرت صحيفة «المراسل الروسي» الخبر التالي:

«لقد علمنا أنّ كاتبنا المشهور «فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي» مصاب بمرض خطير».

فذعرت «أنّا غريغوريفنا» عندما قرأت هذا الخبر، وأرسلت برقية إلى «ايمس». فطمأنها «دوستويفسكي» في الحال:

«آه! إنها لمصيبة أن يكون المرء رجلاً عظيماً ومشهوراً».

كان هذا ما كتبه لها، ثم أسرع بالعودة إلى ستاريا روسّا» وتواجد من جديد، بفرح، في مدينة المياه، الصغيرة، هذه، المبنية بيوتها من الخشب، وبحديقتها الكبيرة، وبالكازينو الموجود فيها والذي يجلس فيه

السباحون الذين ليس لديهم أي عمل. وكان يشارك الأولاد في ألعابهم، ويصطحبهم في نزهات طويلة، على ضفة النهر. ويحيط بعنايته الخرقاء وغير الموفقة، «أنّا غريغوريفنا» التي حملت من جديد. وبعد شهر، أي بتاريخ العاشر من آب (أغسطس) ١٨٧٥، وضعت مولوداً ذكراً، سمي: «أليكسي». وقد كتبت عنه أخته «ايمي»:

«إنه يبدو قوياً وبصحة جيدة، ولكن له جبين غريب، بيضوي الشكل، وبارز التقاطيع».

وبعد ميلاد «أليكسي» قررت الأسرة مغادرة «ستاريا روسّا» والعودة إلى العاصمة. ذلك لأن «فيدور ميخائيلوفيتش»، وقد أنجز رواية «المراهق» أخذ يفكر من جديد بفكرته المتعلقة بمشروعه القديم: «مذكرات كاتب»، على أن يصدرها على شكل صحيفة دورية.

ومنذ بدايات شهر تشرين الأول (أكتوبر) أخذ يحضر العدد الأول من هذه الدورية التي ينوي أن يحررها بكاملها هو بنفسه. وبتاريخ ٢٢ كانون الأول (ديسمبر) طلب من «الإدارة العليا للصحافة» الترخيص بإصدار صحيفة شهرية، قال عنها في طلبه: «سأروي فيها كل انطباعاتي ككاتب روسي، كل ما أراه وما أسمعه وما أقرأه»... ومنح هذا الترخيص، شريطة ألا تنشر المقالات قبل أن تعرض على الرقابة.

وصدر العدد الأول في شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٧٦، وبصدوره، يكون قد انفتح أمام «دوستويفسكي» مجال آخر، ودخل في مرحلة جديدة من حياته.

«صحيفة كاتب»

بدت مقالات «صحيفة كاتب» كامتداد حقيقي، واستمرار للمقالات التي كان «دوستويفسكي» ينشرها في صحيفة الأمير «ميسشيرسكي» التي كانت تحمل اسم «المواطن». والمجموع يشكل حسب تعبير «دوستويفسكي»: يوميات، بل مذكرات شخصية، وحميمية، بكل معنى الكلمة، أي تقرير مفصل عن كل أكثر ما عناني، وما اهتممت به شخصياً».

ولكن اللهجة نفسها التي عليه أن يتبناها، كانت تربكه، فقد كتب: «أتصدقونني» أني حتى بعد إصدار العدد الثالث، لم أجد بعد الصيغة المناسبة للصحيفة، ولا أدري أبداً فيما إذا كنت سأجدها.. وهكذا فإن لدي عشرة أو خمسة عشر موضوعاً (على الأقل) عندما أجلس لأكتب. ومع ذلك، فإن موضوعاتي المفضلة أضعها جانباً واستبعدها بصورة تلقائية. لأنها من الممكن أن تشغل حيزاً كبيراً، وتتطلب مني مزيداً من الحماسة.. وبهذه الطريقة، فإني لا أكتب ما يعجبني ويرضيني. ومن جهة أخرى، فإني تصورت بالمزيد من السذاجة أن الأمر يتعلق «بصحيفة» حقيقية. تتضمن «مذكرات» تروي الحقائق المجردة، وهذا مستحيل، فلا يمكن إلا إصدار «صحيفة» تروي مذكرات مرتبة، بل ومزيفة، لكي يطالعها الجمهور..

وهـذه المـذكـرات المزيفـة، وهـذه الـصحيفة الـتي ستنـشر ليقرأهـا الجمهور، تتضمن مع ذلك الجانب الأساسي في الفكر الدوستويفسكي.

وعاد «فيدور ميخائيلوفيتش» إلى الحديث، في صحيفته، مؤيداً عقيدة «الإقليميين»، وأخذ يهاجم «مؤيدي الغرب» لأنهم يحاولون تحويل روسيا إلى ملحق تابع للبلدان الأورُبيـة. ويهـاجم «الـسلافيين» ومؤيـديهم، لأنهـم يظلـون مبهورين وشبه منومين بلوحة لروسيا القديمة التي تعود إلى العهود السابقة: (La Russie Antepetrovienne) والمزدانة بجميع أكاذيب الأسطورة.

أفـلا يمكـن أن يكـون لروسـيا تقـدم خـاص لا يكـون هـو «التقـدم الأورُبي» نفسه، وبالذات؟ ألا يوجد بالنسبة لها سوى هـذا الخيـار العبثـي وغير المعقول بين العبودية إزاء «الغـرب» والعبوديـة حيـال ماضيها، الخـاص بهـا؟ ألا يمكن أن يوجد، بالنسبة لها، طريق خاص، تستطيع، حتى في أيامنا هـذه، بالـذات، أن تنطلق وتـسير فيـه؟ بلـى. وهـذا الطريق، الـشعب هـو الـذي يحـدده ويبينــه لهــا. والــشعب ســوف ينقــذ روســيا، لأن الفلاحــين العبيــد: (Les Moujiks) «الموجيك»، احتفظوا ببساطتهم، وبجهلهم، وبإيمـانهم بحقيقـة السيد المسيح، دون أن تمس أو تشوبها أيّ شـائبة. وهـم محميـون مـن العدوى الأورُبية بتخلفهم.

وقد كتب «دوستويفسكي»

«يدعي البعض أن الشعب الروسي. لا يعرف الإنجيل، وأنه يجهل حتى الوصايا التي تشكل أساس إيماننا. نعم، حقاً إن الأمر هو هكذا، ولكنه يعرف السيد المسيح، ويحمله في قلبه إلى الأبد».

لا يحتـاج المرء لأن يتعلم، لكـي يؤمن. والإيمـان لـيس نتيجـة تفكـير واستدلال وبرهنة، بل نتيجة تهيؤ، واستعداد «حسيين، بدنيين». وليس له أيّ علاقة مع عمليات الذهن. فهو ينبع مـن القلـب، ويمكـن القـول أنـه ينبـع مـن الجسم. ويوجد لدى الإنسان «الروسي» ميل فطري، ونـزوع إلى الألم، يقربـه

من السيد المسيح، ويعطيه السيد المسيح. وقد كتب «دوستويفسكي»: «إن الشعب الروسي يتذوق نوعاً من اللذة في الألم» وكتب أيضاً: «أعتقد أن الحاجة الروحية الأكثر عمقاً في تجذرها لدى «الروسي» هي حاجة لألم لا ينضب معينه، ولكل لحظة، وفي كل مكان وكل شيء».

والروسي مستاء من نفسه على الدوام، يكره نفسه، ويحتقر نفسه، وليس لديه أي أثر من ذلك «الرضى الساذج»، الذي يجعل الوجوه تبدو نضرة، متألقة. ولأنه يتخلى عن هذا الرغد، والرفاهية المعنوية، والأخلاقية، ولأنه «ينسى أو يتناسى أي معيار أو مقياس في أي شيء»، ولأنه قلق، هش وعطوب، تائه في وسط الكون، فهو (أي الإنسان الروسي) بل «الموجيك» أي الفلاح العبد الروسي، محبوب من الله.

وحتى السّكر، وإدمان الخمر، والسرقات، والصلافة واحتقار الأعراف والتقاليد، والبؤس، الخزي والعار، والكذب، لدى الإنسان الروسي، ليست من الأمور التي ينبغي أن تخشى أو أن تبعث على الخوف، فهي ناشئة عن ذلك التهيؤ والاستعداد لبلوغ منتهي الذروة وهو وضع سيدمغه ويظل متصفاً به إلى الأبد. وتلك الصفات والأعمال التي يقوم بها «الإنسان الروسي» هي كانتفاضات الحيوان الجريح. وهي الإشارات والدلائل على قرب ظهور موهبته وتحقيق قدره ومصيره.

ويضيف «دوستويفسكي» إلى ذلك:

«إنه سوف ينقذ نفسه، وينقذنا معه، لأنه، ومرة أخرى سوف يأتي النور من الأسفل».

وهذه العبارة، التي تلقاها الثوريون، خطفاً وبسرعة، تتعارض تماماً مع الثورة. وليس للشعب الروسي قيمة حقيقية سوى في الأرثوذكسية، ونظام الحكم القيصري. ولا يتصور «دوستويفسكي» أو يتبين توازناً آخر للأمة. فالقيصر هو التعبير السامي عن الشعب، بمجموعه، وعن جميع

التطلعات والطموحات الشعبية. والمذهب الأرثوذكسي مغروس بقوة، وبصورة فطرية في الذهن الشعبي العام، بحيث إن السيد المسيح يصبح بذلك، كأنه إله وطني. «من ينكر أو يجهل المذهب الأرثوذكسي، لن يستطيع أبداً معرفة شعبنا».

إنه المسيح الروسي الخاص بـ «شاتوف» هو الذي يبدو ماراً في «الصحيفة»، بعد أن بدا، ماراً في «الممسوسون»: «أنا أؤمن بروسيا.. وأؤمن بمذهبها الأرثوذكسي».

لا يمكن الإيمان بأحدهما دون الإيمان بالآخر.

ودور الشعب، هذا، المتعلق بالاعتقاد بالسيد المسيح والإيمان به، ليس، علاوة على ذلك، مقتصراً ومحصوراً ضمن حدود روسيا. والشعب الروسي لن ينقذ روسيا وحسب، ولكنه سوف ينقذ العالم. ولماذا؟ ذلك لأن الشعب الروسي وحده يملك تلك الهبة من الجاذبية الشاملة والعالمية، الضرورية لأيّ عملية مسيحية، تتعلق بالإيمان بالسيد المسيح. و «الروح الروسية، بل عبقرية الشعب الروسي، ربما تكون هي الأكثر قدرة وأهلية، بين العبقريات الأخرى على أن تحمي، وتحافظ في داخلها على فكرة الاتحاد العالمي وعلى فكرة الأخوة». فالفرنسيون، والألمان، والإنكليز، ليسوا جديرين أو قادرين على أن يتماثلوا ويتماهوا مع أمة مجاورة لهم. ولكن الروس يتمتعون بمرونة نفسية وروحية، تسمح لهم بتقمصات وتجسدات تكاد تكون تامة في عبقرية الشعوب الأجنبية».

«وبالنسبة للروسي الحقيقي، فإن أورُبا، باعتبارها موطن القبيلة الآرية الكبرى ومنطقة نفوذها، فهي عزيزة عليه، بقدر ما هي عزيزة عليه روسيا، نفسها». والروسي الحقيقي لا يرغب بسعادة عرقية تقتصر على الأرض التي ولد ونشأ فيها، وضمن حدودها فقط. فهو يطمح لتحقيق السعادة لكل البشرية. وغاية «الروسي» ومقصده، هما، بشكل لا يقبل

الجدل أو النقاش، وحدة أورُبا كلها، بل العالم بأسره» والموعد، بل الساعة التي سيدخل بها بتثاقل الفلاح القروي «ماريي» في التاريخ العالمي، أصبحت قريبة.

ومنذ الآن، وحيال أورُبا خاملة، محرومة من الله، قضى عليها التقدم روحياً، أخذت روسيا تنظم وترتب شؤونها: فقد ألغي الرق والعبودية. وشكلت لجان وهيئات المحلفين، بجانب محاكم الجنايات، وهذان الإجراءان يشكلان شاهد تقدير حيال الضمير الشعبي. والحركة النسائية تتقدم وتنمو، وهذا يعتبر أيضاً دليلاً على التجديد.

«أحد أكبر آمالنا، وأحد رهانات بعثنا ونهضتنا، هي المرأة الروسية.. وطابع مطالبها، واضح، صريح صادق، وجريء».

وحرب «المشرق» ترفع إلى الذروة حماسة «دوستويفسكي» الوطنية:

«نعم، القرن الذهبي والقسطنطينية، كل هذا لنا». وعبر حماسته يصل إلى حد يبرر معه إراقة الدماء: «الحرب تبرد وتنقي الهواء الذي نتنفسه، والذي نكاد نختنق فيه، مرضى بالتحلل والتفسخ، وحالات الخمول الذهني والنفسي». وكتب فيما بعد: «ماذا هنالك أكثر صحية ونقاءً من هذه الحرب التي تخوضها اليوم روسيا»؟ «اسألوا الشعب، اسألوا الجنود، لماذا ينهضون، ولماذا يذهبون ويسافرون، وماذا ينتظرون ويتوقعون من الحرب الحالية. سوف يجيبكم الجميع، بلسان واحد، وكرجل واحد، أنهم يذهبون لخدمة السيد المسيح ولتخليص وإنقاذ أخوانهم المظلومين».

والواقع، هو أنه يرى في تلك الحملة استجابة لفكرته عن إيمان الشعب الروسي بالسيد المسيح: والشعب الروسي ذهب ليقاتل أعداء السيد المسيح. وأولئك الذين يقاومونه يجهلون أنه يجلب لهم الفرح، عبر الحقيقة ومعها.

ولكن، ماذا عن المذابح في تلك المعارك الدامية؟ «دوستويفسكي» لا يهتم ولا يبالي بها. فهل نسي تلك الجملة التي كتبها، بخصوص حرب

سنة (١٨٧٠): «كلا، أن ما بني بالقوة، ومجد السيف، لا يمكن أن يستقر ويدوم»؟ وكان يمكنه أن يجيب مثلما أجاب «راسكولنيكوف» بأنه لم يقتل «مخلوقات بشرية»، بل «مبادئ». وبالنسبة له، فإن الفكرة العظيمة عن الاتحاد، والتحالف العالمي في السيد المسيح تصلح كعذر يبرر الوسيلة التي تستخدم لفرضهما.

والحال هي أن تلك المذبحة التي ترتكب باسم الديانة المسيحية تعتبر مغالطة منطقية. إذ إن السيد المسيح أراق دمه وضحى به لكي ينقذنا ويخلصنا، ولكن هل يكون علينا أن نريق دم الآخرين لكي ننقذ السيد المسيح ونخلصه؟

وقد كتب «دوستويفسكي»: «لتكن ملعونة الحضارة إذا كان من أجل المحافظة عليها، يجب «سلخ» بعض بني البشر» وماذا نقول عن المسيحية، إذا كان يجب «سلخ» الكثيرين من أجل إعادتها وإحيائها على الأرض؟ فكان جواب «دوستويفسكي» ينم عن التهرب: «ربما كان ذلك يثير الحنق والغضب، فيما لو فكرنا به بصورة مجازية، ولكن عملياً، هكذا» ولكنه منحصر وتستبد به فكرة رؤيته للمستقبل الروسي، بشكل أقوى مما ينبغي، بحيث لا يستطيع التوقف عند مناقشات غيبية (ميتافيزيقية): «فلتدوي أصداء انتصاراتنا فوق آسيا كلها، ولتبلغ الهند! وليرسخ لدى أولئك الملايين من المخلوقات البشرية الإيمان بمناعة القيصر الأبيض، وبعدم إمكانية قهره والتغلب عليه»!

هذا بالنسبة لآسيا! وماذا عن أوربا؟ إيه! ولكن أوربا، هي أيضاً سوف تنقذ.

«أوربا مليئة بالألغام، وربما ستنهار غداً، دون أن تترك آثاراً، إلى الأبد»...

وألمانيا «أمة ميتة، وليس لها مستقبل»..

والفرنسيون يضيعون أنفسهم بأنفسهم».. واليهود «متعجرفون، كريهون»... والإنكليز أصحاب حوانيت وبائعو العقلانية»...

وأورُبا بكاملها لم تعد سوى مقبرة يرقد فيها «أعزاء متوفون» والمسيح الروسي هو الذي سيبعث إلى الحياة، تلك الجحافل والأعداد الغفيرة، مثلما بعث إليها «أليعازار». والحال هي أن أورُبا تكره روسيا: «وكل السلافيين، بصورة عامة، وهي على استعداد لحرقهم بالماء الحار، كما يحرق عش من البق في خشب سرير امرأة عجوز».

ينبغي إذن استخدام القوة، لفرض سعادة جديدة على أورُبا. ولكن، ألم يسبق للكثلكة (مذهب الكاثوليك) أن حققت الاتحاد في المسيح؟ كلا. إن الكثلكة قد أضاعت المسيح. فقد نادت البابوية في روما أولاً بضرورة امتلاك البلدان والشعوب بصورة مؤقتة. وهذا الموقف غير الديني، أدى إلى إقامة ملكية في روما، ينبغي أن يرأسها البابا». والمثل الأعلى الأرثوذكسي يفترض، بالمقابل، اتحاد البشرية، الديني في المسيح، وبعد ذلك الاتحاد السياسي والاجتماعي الذي ينجم بصورة طبيعية عن ذلك الاتحاد الروحاني».

وبالإجمال، فقد حصل انعكاس في نظام وترتيب الوجهين، أو الطورين بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية. وهذا المأخذ، بل المطعن كان كافياً في ذلك الوقت، لإذكاء غيظ «دوستويفسكي» ونقمته.

وهو لم يلاحظ أنه بمناداته بتولي المسيح الروسي، يبتعد هو أيضاً عن العقيدة المسيحية أكثر من أولئك، الكاثوليكيين الذين يدينهم. وهو لا يفهم أنه يحدد دور المسيح، باعترافه به كقوة عرقية. و «جنون» شاتوف، ها هو يجعله جنونه، وها هو يتبنى براهين وحجج إحدى شخصياته، وهي حجج مخادعة ومموهة.

حقاً، إن البشرية بكاملها، بالنسبة للسيد المسيح، هي الشعب المختار. ولكن البشرية بكاملها، فيما عدا الشعب الروسي، نسيت بل

تناست الكلام الإلهي. ويعود إلى الشعب الروسي أن يذكرها به. وفي سبيل عظمة الله الكبرى ومجده، سينتهي العالم، روحانياً إلى روسيا وحدها. وسيكون ذلك الحكم الثالث، حكم التناغم والانسجام في التجمع التام للشعوب السلافية تحت سيطرة روسيا.

وهكذا، فلدى «دوستويفسكي»، تمتزج السياسة والديانة وتتكاملان. وحماسته تمنعه من أن يفصل أحد وجهي المشكلة، عن وجهها الآخر.

وهو يهاجم أورُبا بعنف، ويصفها بأنها «بابل» الجديدة، ويهاجم العلم والديمقراطيات، ومبدأ المسالمة والتهدئة.. أنه ثائر الأعصاب. يرى، يتوقع ويتنبأ، وبلاغته تحمله وتدفعه إلى ما بعد وإلى ما يزيد عن فكره الخاص.

والواقع هو أن رواية «الشياطين» كتاب تنبّؤي «يتضمن تنبؤات»، وكتاب «مذكرات أو صحيفة كاتب» يتضمن سلسلة من التوقعات، لم يتحقق بعد، سوى القليل منها.

ونبتسم عندما نقرأ المقاطع التي تتحدث عن احتلال القسطنطينية، وعن القيصر الأبيض، وعن مهمة الشعب الروسي، المسيحية.

و «صحيفة كاتب» ليست بياناً سياسياً، اجتماعياً، دينياً، وحسب، فهي تتضمن عدداً كبيراً من المقالات التي يسجل فيها «دوستويفسكي» انطباعاته، عن إحدى القضايا الجنائية، عن زيارة لملجأ اللقطاء. أو عن قصيدة للشاعر «نيكراسوف».

وهو يروي ذكريات طفولته. ويتحدث عن الكتاب الذين عرفهم فيما مضى، والذين، رحلوا، الواحد تلو الآخر، وتركوه، وحيداً: والموت صالحه تقريباً مع «بيلنسكي» ومع «نيكراسوف»، ووفق بينه وبينهما.

ويحصل معه أيضاً أن ينشر تخيلات محزنة ومأتمية، مثل «بوبوك»: (Bobok) وهو حوار بين أموات في إحدى المقابر، أو بعض القصص المدهشة

التي تثير الإعجاب، مثل: «حلم رجل سخيف ومضحك» أو قصة «الحلوة»: (La Douce).

و «الرجل المضحك» يجد نفسه منقولاً إلى كوكب غريب وعجيب، فيبدو له إنه جنة الفردوس، الطبيعة فيها حفية جميلة وكريمة، والمخلوقات طيبة، مرحة، بسيطة، وتتمتع بعقلية جيدة. وهذا الغريب يتكفل بإفساد تلك المخلوقات، فعلمها الحزن، الخجل والعار، الجريمة، والعلم، فتحولت الجنة إلى جحيم. وعندما حاول «الرجل السخيف والمضحك» إعادة «أبناء الشمس» إلى جادة الصواب لكي يستعيدوا سعادتهم السابقة، «يكتفون بالضحك، ساخرين به» وأخذوا يتهمونه بأنه «مجنون زاهد».

أما قصة «الحلوة» فهي حوار بين أحد مقرضي النقود، لقاء رهن، وهو رجل صموت وشرير، يتزوج فتاة شابة في السادسة عشرة ويعاملها بقسوة وبتعالٍ، لكي يبرهن لها على تفوقه المعنوي والأخلاقي.

وفي إحدى الليالي، تقترب الشابة خفية من السرير الذي يرقد عليه زوجها، بعد أن أرهقتها معاملته لها، وأتعبها موقفه منها، وتدنو منه، ممسكة بيدها مسدساً. فيراها، ولكنه يتظاهر بأنه مستغرق في النوم، وتضع فوهة المسدس على صدغ الرجل. فلا يتحرك، بل ظل ينتظر، وهو يشعر أن صراعاً عنيفاً يمزق تلك التي كانت تريد أن تقتله.

«ولكن، أما زلتم تسألون لماذا لم أمنعها من ارتكاب خطيئة شائنة ومعيبة؟.. كنت تائها أنا نفسي، شخصياً، من هو الذي كان يمكنني أن أنقذه»؟

وأخيراً فتح عينيه. لم تعد هناك، فقد ذهبت. عند ذلك، قال في سره إنها أصبحت تعرف أني لست جباناً، ولن يفوتها أن تعود إليّ من تلقاء نفسها. ولكنها بدت منهكة القوى، عاجزة عن التفكير، وقالت، متنهدة: «كنت أظن أننا يمكن أن نظل هكذا» أي منفصلين دائماً، بكل الحب

الذي يكنه لها، تتوارى «الحلوة» هاربة لأنها لم تعد تستطيع أن تبادله العاطفة نفسها. ومن شدة يأسها وقرفها، تلقي بنفسها من النافذة، حاملة أيقونة بين ذراعيها.

ويختتم «دوستويفسكي» القصة، صائحاً:

«قضاء وقدر! مصيبة مكتوبة، أوه، أيتها الطبيعة! الإنسان وحده على الأرض. هذه هي المصيبة! أيوجد هنا، إنسان واحد حي؟ هكذا يصرخ بطل الأساطير الروسية. وأنا أصرخ بذلك مثله، فأنا لست بطلاً، ولا أحد يجيبني أو يرد علي».

وهاتان القصتان تعودان لفكرة واحدة. ففي الحالتين، هنالك «رجل من «سان بطرسبورغ» قلق، ساخط، مزهو وفخور، يفسد ويخرب سعادته وسعادة الآخرين، لأنه يرفض تقبل الحياة، كما هي تتاح له أن يكون بسيطاً منذ البداية. أن يكون طفلاً وأن يحب تلك هي المبادئ. التي يبسطها ويتوسع في دراستها على مدى عمله كله.

وشيئاً فشيئاً، يبدأ قراؤه بفهمه. وقد تجاوز نجاح «صحيفة كاتب» كل توقعاته وآماله.

ومنذ السنة الأولى، بلغ عدد المشتركين بالصحيفة ألفي مشترك، ومثلهم أيضاً كانوا يشترون أعدادها. وفي السنة التالية ارتفع عدد المشتركين إلى ثلاثة آلاف، وعدد مشتري أعدادها وصل إلى أربعة آلاف. وبعض الطبعات، كانت تعاد طباعتها ونشرها مرتين، ثلاث وخمس مرات. وأخذت سمعة «دوستويفسكي» ونفوذه المعنوي يتأكدان من شهر إلى آخر. وأصبح «فيدور ميخائيلوفيتش» بالنسبة لقسم كبير من الشبيبة المثقفة، كمجبر للروح وكنبي. وكان بريده يحمل له موجة من الأسرار الخاصة والحميمية، ومن المعضلات والمشكلات العاطفية، والشكوك الدينية، والمآسي المعيبة.

«لقد تلقيت مئات الرسائل من جميع جهات روسيا، واطلعت على أشياء وعلى أمور لم أكن أعرفها. ولم أكن أعتقد، فيما مضى، أنه يوجد في مجتمعنا، مثل هذا العدد الكبير من الناس الذين يشاطرونني أفكاري وآرائي».

وإن كان وقت الفراغ لدى «دوستويفسكي» ضيقاً ومحدوداً، فإنه كان يرد على جميع الرسائل، ويتكفل حتى بجميع المهمات التي تطلب منه. فإذا كتبت له إحدى الفتيات أنها لا تحب خطيبها وتريد متابعة دراستها، فهو يؤمن لها، في الحال، الحماية بواسطة شخصية تتمتع بنفوذ كبير: «بالنظر لطموحك، يستحيل عليك أن تصبحي زوجة تاجر... لا ينبغي، مهما كلف الثمن، أن تشوهي حياتك، فإذا كنت لا تحبينه فلا تتزوجيه. اكتبي لي ثانية، إذا رغبت بذلك»...

وإلى صاحبة رسالة أخرى، أجاب، بما يلي:

«لا ينبغي أن يتم الزواج من دون حب، ولكن، فكري جيداً: ربما كان أحد أولئك الرجال، الذين من الممكن أن يحبوا فيما بعد. وإليك نصيحتي: اطلبي من أمك مهلة للتفكير (دون أن تعديها الآن بشيء) وادرسي جيداً هذا الرجل، وحاولي أن تحصلي على معلومات صحيحة عنه»..

وشكت طالبة له فشلها ورسوبها في الامتحانات، فلم يتردد في مواساتها: «أنا أسف جداً لرسوبك في امتحان الجغرافيا، ولكن هذه مسألة بسيطة جداً، لا ينبغي المبالغة بتقدير أهميتها. وأنت كتبت لي رسالة تنم عن اليأس»..

وإلى فتاة تذهب إلى سيبيريا، كراهبة متطوعة لأعمال البر والإحسان، يرسل مباركته التي تتسم بالتعاطف والتأثر.

ويبتهج لسعادة أم شابة: «إنه لأمر يبعث على السعادة أن ترزقي أطفالاً، إنهم يضفون صبغة إنسانية على حياتنا، ويسعدونها. ولا شك أن الأطفال يشكلون عبئاً، ولكنه عبء ضروري، ولا غنى عنه».

وإلى طلاب موسكو، بعث برسالة تعاطف مطولة: «تسألونني أيها السادة: «إلى أي حد نحن جماعة الطلاب، مذنبون»؟ وها كم جوابي: لستم مذنبون بأي شيء. وكل ما هنالك، أنكم أبناء هذا المجتمع، الذي تهملونه وتتخلون عنه في الوقت الحاضر، وهو نسيج بل سلسلة من الأكاذيب. إلا أن طالبنا، عندما ينفصل عن هذا المجتمع ويتخلى عنه، لا يتجه نحو الشعب، بل إلى جهة ما، نحو الخارج، والأجنبي الغريب، ونحو التأوربية (اعتناق المبادئ الأورُبية).. مع أن خلاصنا وسلامتنا وأمننا، في الشعب»..

ولكن سلطة «دوستويفسكي» الجديدة لا يعبر عنها حجم مراسلاته وحسب. فقد توسعت دائرة علاقاته الاجتماعية. وأخذ يدعى إلى كل مكان، ويلبي معظم الدعوات. أما زوجته التي أنهكتها أعمال المحاسبة وإرسال الصحيفة، فلم تكن ترافقه إلا نادراً، في الزيارات التي يقوم بها. وخلال بضع سنوات، كانت هذه المرأة الشابة قد تخلت عن ميلها للتأنق، وعن كل طموحاتها. وهي نفسها تعترف بأنها لا تأمل بأن تحظى بإعجاب زوجها سوى بواسطة «روحها». وأخذت تهمل العناية بنفسها وبهندامها، وترتدي الثياب المرقعة، والملابس الداخلية المصنوعة من القماش السميك والخشن، وكان زوجها يحاول أن يعيد لها الميل إلى الأناقة والتبرج، دون أن يوفق إلى ذلك:

«أتعلمين، يا أنيت، أن «فلانة» ترتدي فستاناً رائعاً، وكان شكله بسيطاً جداً، مرفوعاً ومجمعاً من الجهة اليمنى، ومن الخلف، من الجهة اليسرى، ولكن يبدو لي أنه كان أيضاً مرفوعاً. ويجب أن تصنعي لنفسك فستاناً مثله، وسترين كم سيناسبك ويليق بك»!

كما كان يقول لها أيضاً: «أنت لا تدرين أيّ أعجوبة هما عيناك، وابتسامتك، انطلاقك وحماستك الملهمة في المحادثة. وكل الخطأ ينجم عن كونك لا تخرجين كثيراً لكي تشاركي في النشاطات الاجتماعية.. لأنك

لو تدبرت أمورك قليلاً، لكي تقومي ببعض الزيارات، وارتديت ملابسك بعناية، فإنك ستدهشين أنت نفسك، كم سترين أنك شابة وجميلة بشكل عجيب».

ولكنها لم تكن تفهمه. فقد اقتادها بقوة نحو عالم كتبه، المجازي، لدرجة أنها لم تعد تستطيع العودة إلى العالم الواقعي والمادي. فهي لا تتمتع بالمرونة التي يتمتع بها «دوستويفسكي» الذي يرحل ويتنقل بسهولة بين عالم الواقع والأمور الواضحة والبديهية وعالم التخيلات والشؤون الفوق - طبيعية دون أن يتخلى أبداً وبصورة تامة، عن أحدهما، لكي يعود إلى الآخر.

وفي «الصالونات» يبدو «دوستويفسكي» كما كان في سابق عهده، على التوالي، تارة حفياً بشوشاً وغضوباً، وتارة، رفيقاً ودوداً وحقوداً مبغضاً.

وقد كتبت السيدة «و. ا. شتاكنسشنيدر» عنه، ما يلي: كنت دائماً أندهش من تواضعه الشديد، لدرجة أنه كان يخيل لي أنه يجهل قيمته الخاصة، وهذا ما كان يفسر، علاوة على ذلك، نزقة وشدة حساسيته، وقابليته للتأثر، أو بشكل أكثر دقة، توقعه الدائم للإهانة والإساءة. وعلى الدوام، كان يرى شتيمةً، حيث لا يلاحظ من يكون واثقاً من نفسه، أي شيء يشبه ذلك.. وفي بعض الأحيان كان هنالك، كقطرة من الغيظ تتكون في صدره. وتحدث تأثيرها بشكل مفاجئ، وكان عليه أن يتخلص منها، ضد إرادته ورغماً عنها. أما أنا، فكنت أعرف دائماً، بسبب «تكشيرة» معينة تبدو على شفتيه أو عند ظهور تعابير خاطئة في عينه، إنه يهم بالتلفظ بكلام خبيث وسيئ).

وفي بعض الأخيان، كان يستطيع أن يتمالك نفسه، وأن يكتم غيظه. ولكنه عند ذلك يصبح متجهماً، صموتاً وسيئ المزاج».

والواقع هو أن عبقرية «دوستويفسكي» كانت تشكل له عذراً، في نظر الناس، عن سوء طباعه، وتجعلهم يغفرونه له.

وهذه الطباع السيئة تصبح على وجه التقريب سمة كاريكاتورية، بارزة، وضرورية لصورة النابغة والعبقري، وبدلاً من أن تؤذيه أو أن تسيء إليه، كانت على النقيض من ذلك. تقربه من قرائه.

وفي سنة ١٨٧٨، تلقى «سجين الأشغال الشاقة السابق» من المجمع الإمبراطوري للعلوم، المذكرة التالية:

«يرغب المجمع الإمبراطوري للعلوم أن يعبر لك عن احترامه تقديراً لأعمالك الأدبية، ويسره أن يبلغك أنه قد اختارك وعينك عضواً مراسلاً في فرع اللغة والأدب الروسيين». وأتى فيما بعد، مربي الدوقين الكبيرين: «سيرج و «بول» وطلب منه، باسم الإمبراطور» أن يجري بعض المحادثات مع تلميذيه الشهيرين.

وهكذا، فقد تذوق «دوستويفسكي» متعة مجد أصبح مقبولاً ومستقراً، بصورة نهائية. وقد نجح بتسديد معظم ديونه. وأمن بواسطة شقيق زوجته، منزلاً ريفياً في «ستاريا روسيا». وأصبحت «صحيفة كاتب» تدر عليه دخلاً مرموقاً. وماذا يلزمه أكثر من ذلك؟

لقد تركت لنا ابنته «ايمي دوستويفسكي» صورة ظريفة لأبيها، في تلك الفترة:

«كان فيدور ميخائلوفيتش» ينام في مكتب عمله على أريكة كبيرة. وفوق الأريكة علقت نسخة فوتوغرافية للوحة «رافائيل» الشهيرة: «السيدة العذراء»: (La Madone De Saint-Sixte). وكانت نظرته الأولى عند استيقاظه. يوجهها إلى تلك الصورة الجميلة. وكان ينهض، فيغتسل «مستهلكاً كثيراً من الماء والصابون والكولونيا»، ثم يرتدي كامل ثيابه، من رأسه إلى أخمص قدميه، لأنه كان يستنكر استخدام الرجل للمبذل (الروب دوشامبر) والخف (الشحاطة).

ومنذ الصباح يكون قد ارتدى ملابسه بشكل تام، وانتعل حذاءه، وعقد ربطة عنقه، على قميص أبيض جميل ياقته مكوية وصلبة» كان يعتني كثيراً بستراته وبنظافتها، ويقول: «البقع تزعجني. ولا أستطيع العمل إذا كان على سترتي أيّ بقعة»...

وبعد أن ينجز «فيدور ميخائلوفيتش» زينته، يذهب إلى قاعة الطعام ليتناول الشاي. كان يحتسي كأسين، ويحمل معه الثالث إلى مكتبه. المنضدة مرتبة بشكل دقيق، وقد اصطف عليها كما تصف أدوات الجراحة على المنضدة في غرف العمليات: علبة السجائر، الرسائل، الكتب، كما كان للصحف مكانها الخاص. وكانت «أنّا غريغوريفنا» تأتي، وتلتحق بزوجها في مكتب العمل، فتجلس قبالته، وتضع على اسكملة دفترها، أقلامها وممحاتها، فيملي عليها «دوستويفسكي» الصفحات التي كتبها في الليلة الفائتة. وكانت «أنّا غريغوريفنا» تختزلها، ثم تنسخها بعد ذلك. وكان «فيدرو ميخائيلوفيتش» يراجع النسخ ويصححها.

وفيما بعد، كان هنالك الغداء، النزهة، وشراء الحلوى للأولاد، ثم طعام العشاء، واحتساء الشاي، ومن جديد، يذهب «دوستويفسكي» لينزوي في مكتبه، من جديد، لكي يعمل. وكانت هذه الحياة المنتظمة، والمثمرة، ترضيه وتخلب لبه. وكان يبدو أن لا شيء يمكن أن يقضي على عذوبتها. ولكن، كان مكتوباً على «دوستويفسكي» أن يناصبه القدر العداء وبشدة، حتى آخر أيام حياته.

فبتاريخ ١٦ أيار (مايو) أصيب ابنه «أليوشا»، الذي لم يبلغ الثالثة من عمره، بنوبة صرع حادة. استمرت ثلاث ساعات وعشر دقائق، وفارق الطفل الحياة، دون أن يسترد وعيه.

فأصيب «دوستويفسكي» بذعر شديد، بسبب هذه الوفاة، التي اعتبر نفسه مسؤولاً عنها، لأن الطفل مات بسبب مرض ورثه عنه. والحداد

الجديد أعاد إليه، وحدد لديه بوضوح، ذلك المفهوم للمسؤولية الشاملة. وأن البراءة كلمة عبثية وغير معقولة: «فكل منا مذنب حيال الجميع، بالنسبة للجميع، ومن أجل كل شيء».

ويوم الدفن، صعد أفراد الأسرة إلى إحدى العربات ووضع التابوت الصغير بينهم. وقد كتبت «ايمي دوستويفسكي» عن ذلك، ما يلي:

«في الطريق، بكينا كثيراً، وتلمسنا التابوت الصغير الأبيض، الذي تغطيه الزهور، وأخذنا نستذكر ونستعيد جميع كلمات الطفل، المفضلة». وآنذاك، كان العشب، قد نبت بين القبور والأشجار تغطيها الزهور، والعصافير تزقزق وتغرد على أغصانها كانت الدموع تنهمر على وجنتي والدي. وكان يسند زوجته التي كانت تجهش بالبكاء، دون أن تستطيع تحويل نظرها عن «العلبة الصغيرة» التي أخذت تختفي شيئاً فشيئاً، تحت الأرض».

وهذه المحنة الأخيرة، كان على «دوستويفسكي» أن يتغلب عليها كالمحن الأخرى. وسيشفى من ذلك، بفضل العمل. وسوف ينقذ نفسه وأسرته، بتأليفه كتاب «الأخوة كرامازوف».

تكوّن وولادة «الأخوة كرامازوف»

في عدد كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٧٧ من «صحيفة كاتب» أعلن «دوستويفسكي» لقرائه أنه قرر أن يوقف، لبعض الوقت صحيفته الدورية، «لكي يشتغل بعمل فني، كان قد تصوره شيئاً فشيئاً وبصورة تلقائية، خلال تلك السنتين اللتين كان يصدر فيهما صحيفته».

والكتاب الذي يشير إليه، سيكون، مثله في ذلك مثل كتاب «المراهق» حلقة في العمل الضخم الذي لم ينجزه، والذي أعطاه عنوان: «حياة خاطئ كبير». وكان عليه أن يتحدث فيه عن وجود الله، وأن يعالج هذا الموضوع: «هذه المشكلة التي عذبتني لا شعورياً، وشعورياً وعن وعي، طوال حياتي».

و «فيدور ميخائيلوفيتتش» يعرف أنّ عمله الأدبي ما زال «ناقصاً». وأنّ لديه اعترافاً أخيراً ونهائياً مفروضاً عليه. وقد حان الوقت تماماً لأن يشرع به. وسيكون «كلمته الأخيرة».

فانزوى وانفرد بنفسه، وأخذ يجمع المذكرات والملاحظات والمعلومات. وسيحتاج إلى ثلاث سنوات لكي ينجز مشروعه.

«لقد تصورت، وسأبدأ قريباً رواية كبيرة، يكون فيها، بين الشخصيات الأخرى كثير من الأطفال»...

هذا ما كتبه، بتاريخ ١٦ آذار (مارس) ١٨٧٨.

ويفتتح مفكرته عن «الأخوة كرامازوف»، بهذه الكلمات: «الحصول على المعلومات اللازمة لمعرفة فيما إذا كان يمكن البقاء مستلقياً على الخط الحديدي، بينما يمر أحد القطارات، فوقك، بأقصى سرعة».

«الاستعلام بشأن موضوع عمل الأطفال في المعامل، وموضع المدارس، والذهاب إلى إحدى المدارس».

«وإلى أحد ملاجئ اللقطاء».

وفي غضون ذلك، تعرف «دوستويفسكي» على الأستاذ الشاب والمشهور «فلاديمير سولوفيوف» (ابن المؤرخ المعروف). واستمع إلى محاضرات هذا الأستاذ، في «سان بطرسبورغ»، واكتشف أنّ هنالك قرابة روحانية، لا يمكن إنكارها، تجمع بينهما، ألم يختار «سولوفيوف» كموضوع لأطروحته الجامعية: «أزمة الفلسفة الغربية»؟

أو لم يهاجم بعنف، وحتى الأعماق المبدأ «الوضعي القديم»[1] في الفلسفة الأورُبية؟ ألم ينادي بقيام «ميتافيزيقيا» (تفسير فلسفي لما وراء الطبيعة) جديدة؟ وعلاوة على ذلك، فإنّ وجه الشاب يدعم أحاديثه ويؤيدها بشكل مدهش. إذ إن جماله الملهم والموحي يغري ويقنع أكثر معارضيه، والمختلفين معه، صلابةً وعناداً. ويؤكد «دوستويفسكي» أنّ له «رأس السيد المسيح، الشاب» في اللوحة التي رسمها الرسام الإيطالي الشهير «هانيبال كراكسي» وبسرعة، وبعد فترة وجيزة، نشأت صداقة عالية المستوى بين الفيلسوف الشاب والكاتب العجوز، ولكن في هذه الرابطة الغريبة كان يبدو أنّ الكاتب العجوز، هو التلميذ.

١- «الوضعية»: فلسفة اوغست التي تقصر عنايتها على الظواهر والوقائع اليقينية، مهملة كل تفكير تجريدي في الأسباب المطلقة، والوضعية هي كل فلسفة تعتمد على معرفة الوقائع وعلى التجربة العلمية، كفلسفة «سبنسر» وستيورات ميل» و «رزيان».

والواقع، هو أنه بفضل مناقشات «دوستويفسكي» المطولة مع «سولوفيوف» استطاع أن يكوّن ويرتب ويوضح «مذهبه الفكري» (إيديولوجيته) الخاصة. وكان رفيقه الشاب يساعده لكي يترجم بكلمات مجردة البلبلة الفلسفية التي كان يتخبط فيها منذ سنوات عديدة.

وبشأن مشكلات العقيدة الأرثوذكسية، حصل «دوستويفسكي» على المعلومات من وكيل رهبانية «سان- سينود» «قسطنطين يوبيدونوستزيف». ولكنه اهتم أيضاً بنظرية «فيدوروف» المتعلقة بالعمل المشترك. وقرأ نصوص الطوباوي[1] «تيخون زادونسكي»، وهو أسقف، عاش في القرن الثامن عشر؛ وكان «دوستويفسكي» قد كتب إلى «مايكوف» سنة ١٨٧٠: «أريد أن أجعل من «تيخون زادونسكي» وجه روايتي الجديدة، الرئيسي والمركزي».

وبعد وفاة الصغير «أليكسي»، ألحت «أنّا غريغوريفنا» على زوجها لكي يرافق «سولوفيوف» في رحلته إلى أوبتينا بوستين» لأنها كانت تأمل أنّ تغيير الجو، ونمط الحياة سوف يواسي «فيدور ميخائيلوفيتش» ويسليه عن أحزانه. لا سيما وأنّ «دوستويفسكي» كان، على الدوام يرغب بالقيام بزيارة دير «أويتينا يوستين» الذي سبق أن لجأ إليه، كل منهم بدوره: «غوغول»، «ليونتييف» و «ليون تولستوي» ووافق «دوستويفسكي» على السفر، نزولاً عند رغبة زوجته، وبعد إقامة قصيرة في موسكو، استقل الصديقان القطار إلى «سيرغييفو». ومن هناك، استقلا عربة، سارت وهي تتأرجح بهما على طرقات ضيقة ووعرة، تزيد مسافتها على ١٢٠ كيلو متراً. وبعد مسيرة استغرقت زهاء يومين، وصلا إلى «أويتينا بوستين». فاستقبلهما رهبان الدير بالترحاب وبالمودة. «أعطى المرشد الروحي، ومعلم الذمة «أمبرواز» حديثين خاصين لفيدور

١- شخص من الأموات اقرت الكنيسة انه من الأبرار. وفي رتبة دون رتبة القديسين -المترجم

ميخائيلوفيتش». وكان على هذه الزيارة أن تزيد من تحديد وتوضيح صورة وجه الأب «زوسيم» (Zusime) في ذهن «دوستويفسكي»، بحيث أن هذا الوجه بدا وقوراً وجديراً بالتقدير والاحترام، في رواية: «الأخوة كرامازوف».

ومن المفيد أن نذكر أنه منذ سنة ١٨٧٧، أي قبل سنة من رحلة «دوستويفسكي» إلى «أويتينا يوستين»، كان قد قام برحلة إلى «داروفوايي» (Darovoie) مسقط رأسه، ومربع طفولته. وشاهد من جديد الغابة ذات الأشجار الضخمة، المسيل، وقرية «تشيرو ماشني»، الصغيرة. وتحدث كثيراً وثرثر مع قرويين تقدمت بهم السن، وتجعدت وجوهم، وهم من كانوا في الماضي البعيد فتياناً وجناتهم مورّدة، وحارّة كالنار، وشعرهم أشقر وناعم كالحرير، والذين كانت ضحكاتهم تمتزج وتتجاوب مع ضحكاته. لقد راجع وأجمل ذكرياته، أنعش وجدد المهمة وإيحاءاته، مستعيناً بالمصدر الأساسي، وبالينبوع بالذات. وأصبح جاهزاً، مستعداً.

ومع ذلك، فإن هذا العمل الذي سيستغرق ثلاثة أعوام، بدا مفروضاً، وملزماً لدوستويفسكي» أكثر من أي عمل آخر، فهو لا يريد أن يخرب هذا الكتاب الذي يجب أن يكون تتويجاً لجميع أعماله. ولكنه كان يخشى من أن تكون السن قد أضعفت ملكاته المبدعة والخلاقة. ويخشى من أن يكون المرض قد خرب ذاكرته. وبدا خائفاً من أن يموت قبل أن يقول كل شيء: «لقد لاحظت منذ زمن طويل، أني كلما تقدمت في السن، كلما أصبح العمل، بالنسبة لي أكثر صعوبة». أو: «أني أفكر دائماً بموتي... وأتساءل ماذا سأترك لك وللأولاد»... وكذلك: «الآن، أحمل على ظهري عبء «آل كرامازوف» هذا العمل الذي يجب إنجازه بشكل متقن. ومن الأهمية بمكان أن أجعل منه عملاً فنياً، وهذا أمر صعب، خطر وجريء، أمر مقدر وحتميّ: فهو يجب أن يرفع أسمي عالياً، وأن يثبته، وإلا فلم يعد هنالك أي أمل».

«الأخوة كرامازوف»

«آل كرامازوف» يقيمون في مدينة ريفية صغيرة، العجوز «كرامازوف»، وهو كمهرج وقح وشهواني، قد دمر حياته في أعمال الفسق والدعارة الخفية والسرية، ومن الزوجة الأولى، التي كانت تكيل له الضرب بالعصا، رزق ابنه «ديمتري»، وهو فظ جامح، تنتابه رغبات مفاجئة بالاستقامة والشرف والامتياز الغيبي. ومن الزوجة الثانية، الكثيرة الصراخ والمشاكسة والمصابة بالهستيريا، رزق ابنه «إيفان»، وهو مثقف نزق، سريع التأثر والانفعال، ذو ذهن معذب، مدمر ومخرب، بطل وشهيد السلبية، النفي والإنكار. والصغير «أليكسي» يبدو أنه قد نجا من «اللعنة» الوراثية التي أصابت «آل كرامازوف». فهو يتمتع بطيبة ذكورية تتناقض مع طيبة «الأبله»، الخنثى وعديمة الجنس. وهو مبدأ الكتاب، الإيجابي والنواة المضيئة التي تدور وتتراقص حولها الشخصيات الأخرى، كالذبابات الصغيرة السوداء، ولكن، إلى هؤلاء الأخوة الثلاثة، يجب أن نضيف السافل والكريه «سميردياكوف» ابن العجوز «كرامازوف» من فتاة حمقاء وخرساء، كان قد اغتصبها بالعنف والتحدي، ذات مساء. وهذا الولد غير الشرعي، المصاب بالصرع، يعمل كخادم في منزل والده، وهو بارد الأعصاب، عديم التأثر، دعيّ ومغرور، محتال ومكّار. وهو معجب بإيفان. ولكنّ «إيفان» ينزعج ويثور لكونه يتعرف فيه على صورته الخاصة المجسمة والكاريكاتورية.

وبين هذا الأب وهؤلاء الأخوة الأربعة، هنالك امرأة: «غروسشنكا»، يتصارعون مع بعضهم من أجل نيلها والحصول عليها.

وأثناء ذلك، يقوم «سميردياكوف» بقتل العجوز «كرامازوف» معتقداً أنه ينصاع ويلبي رغبة خفية يكتمها «إيفان». ولكنّ «ديمتري» هو الذي يتهم بارتكاب الجريمة. وبعد أن يحكم بالسجن مع الأشغال الشاقة يكون عليه أن ينفى إلى سيبيريا. تلك هي القصة.

وتهيمن عليها مشكلتان، مشكلة الغواية والإغراء، ومشكلة اللّه: «غروسشنكا» والسيد المسيح.

وبين هذين القطبين، تتأرجح وتتذبذب شخصيات الكتاب. فبعضها، كالعجوز «كرامازوف» وضعت تحت إشارة الشبقية وتأثيرها، والملذات الجسدية وحدها فقط والبعض الآخر، كالمرشد «زوسيم» تحت علامة وتأثير الديانة وحدها فقط، ولكن بين هذين الضدين والنقيضين، يقدم لنا بتدرّج علمي وبارع، أرواح الشخصيات وممثلي الأدوار الأخرى. و «سميردياكوف» «إيفان» «ديمتري» و «أليوشا» يمكن أن نقول إنهم المظاهر أو الجوانب التي تتضح وتتجلى شيئاً فشيئاً لفرد واحد بنفسه يتخلص متحرراً من الحيوان ويتحقق في «الإنسان الجديد». والأربعة أخوة هؤلاء، هم مخلوق واحد محسّن ومجدد. وتدرجهم في المسافة والحيز، ليس في الواقع، سوى تدرج في الوقت والزمن. ويقول «أليوشا» إلى «ديمتري»: «إنّ مقياس درجات ورتب النقائص والرذيلة، هو نفسه، مقياس واحد بالنسبة للجميع، وأنا على أول درجة وأنت أكثر ارتفاعاً، لنقل، ربما كنت على الدرجة الثالثة عشرة وبتقديري أن ذلك سيّان تماماً، ويعني الشيء نفسه».

وفي هذه «الدرجة الثالثة عشرة» يوجد أيضاً امرأة: «غروسشنكا» يقول عنها أحد أقاربها: «إنها عاهرة، لا أريد أن يكون لي قرابة بها» ويصرح العجوز «كرامازوف»: «إنها مومس». ولكنه يضيف: ربما تكون «أكثر

قدسية» من جميع، رهبان الدير. وتردّ شخصيات أخرى: «هذه الفتاة حيوان»... «هذه الفتاة ملاك». و «ديمتري» يصيح: «نعم، ها كم ما هي: إنها نمر. ملكة الوقاحة وعدم الحياء، المرأة الجهنمية تماماً، ملكة جميع النساء الجهنميات، المندفعات بانفلات وغضب على الناس في هذا العالم». أما «اليوشا» فإن ما يلفت نظره بقوة، على الخصوص هي «تعابير السذاجة والتسامح والعطف البادية على ذلك الوجه». فمن نصدق؟ نصدق الجميع. لأنّ «غروسشنكا» تستحق جميع الأحكام والآراء: «غروسشنكا» الفتاة الشابة، البغيّ الشريرة، الحيوان، القديسة، تتجمع فيها تناقضات بنات جنسها، المتعددة. والنساء هن مثلها، يصبن بالإنهاك عبر الانتظار، يأسفن عند تحقيق رغباتهن، يتحرقن شوقاً لتسليم أنفسهن، ويلومونك لأنك أخذتهن. وهن تارة قاسيات لكي يحصلن على المتعة عندما يصبحن لطيفات، بعد ذلك، وتارة لطيفات لكي يحصلن على المتعة عندما يصبحن قاسيات فيما بعد. ولديهن أنماط فاسدة ومنحرفة، من الحياء، وأنماط. بريئة من المتعة واللذة، يكذبن على الرجال، على الله، وعلى أنفسهن. ولسن مستغرقات في الحياة، هن يتلاعبن بالحياة، ويقفن أمام الحياة مثلما يقفن أمام المرآة. يتصنعن الحركات، ويغيرن التعابير والمواقف لكي يشعرن بوجودهن. والثبات، بالنسبة للرجل، هو الدليل على واقعه وحقيقته الخاصة، أما المرأة فبالتغيير إنما تثبت وتؤكد وجودها. والرجل يريد أن يكون واحداً. أما المرأة فتريد أن تكون متعددة. والرجل لا يشعر بأنه قوي إلا في إدراكه التام لمزاياه ولعيوبه. أما المرأة فلا تشعر بأنها قوية إلا بعدم إدراكها المشوه الذي ليس له شكل محدد. وكل شيء ممكن معها. ولا شيء مؤكد وموثوق معها. ينبغي تحاشيها والهرب منها أو الكف عن محاولة السيطرة عليها.

وجمال «غروشنكا» سحر العجوز «كرامازوف». فهذا العجوز السّكير الشحيح والفاجر، يبدو أنه صورة لوالد «دوستويفسكي» رسمت

بالزفت حتى بدت سوداء. «لقد كان رقيق العواطف، انفعالياً. نعم كان انفعالياً وشريراً». هذا ما كتبه «دوستويفسكي» عن شخصيته، هذه. وتذكر «ايمي دوستويفسكي»: «كنت أعتقد، على الدوام، أن «فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي» كان يفكر بوالده، وهو يرسم ملامح وجه العجوز «كرامازوف».

وأمام «غروسشنكا» لم يعد العجوز «كرامازوف» سوى مهرج مضحك يسيل لعابه وهو يتمتم. ويتنازل لها عن حصة «ديمتري» من الميراث. ويظل كل يوم يأمل أن تزوره. ويتجول، متنقلاً من غرفة إلى غرفة وقد لازمته الرغبة بلقائها.، وهو ينتظر وينتظر. ولكن «غروسشنكا» لا تستسلم له، ولا لديمتري الذي وقع في حبها. وهي تسخر من الأب ومن الابن. ومع مرور الأيام، تتزايد كراهية كل منهما للآخر. وقد كتب «دوستويفسكي» بهذا الشأن، ما يلي: «كان أحدهما يتفحص الآخر، وكل منهما يحمل سكيناً جاهزة في قرابها».

وكان هنالك فكرة قد أغوت «راسكولينكوف» لدرجة أنها حرمته من أيّ استقلالية. أما ديمتري ووالده، فمخلوقة هي التي أغوتهما، وجعلت منهما عبدي شهواتهما. وقد صرح «ديمتري» قائلاً: «الجمال شيء مخيف وفظيع»! نعم، ذلك لأن سلطته على الرجال تساوي أو تزيد أحياناً عن سلطة الفكر. وجنون العجوز «كرامازوف» وابنه، الجنسي والشهواني يماثل جنون «الممسوسين» السياسي. ففي الحالتين، تعيد الرغبة بإشباع حاجة دنيوية، بعض أبناء البشر إلى حالة البهائم والحيوانات. وفي الحالتين يؤدي الطموح لاجتياز جميع الحدود الأخلاقية. إلى الانحراف وإلى الجريمة.

فها هو الأب يصيح: «أما ديمتري، فسأسحقه، كما تسحق البقة» و «ديمتري» يقول عن والده: «لا أدري، ربما سأقتله، وربما لن أقتله. وأخشى ألا أستطيع تحمل رؤية وجهه في هذه اللحظة، وأكره تلك الحدقة الدرقية

في عنقه، وأنفه وعينيه وابتسامته الوقحة، إني أشمئز منه. وهذا هو ما يخيفني»...

وأثناء ذلك، يستمر «ديمتري» بمراقبة والده والتجسس عليه، خوفاً من أن تأتي «غروسشنكا» لزيارته، بعد أن أغراها بوعوده بإعطائها الكثير من النقود. وفي إحدى الليالي، يفاجئ الخادم «غريغوري» «ديمتري» في الحديقة، فيوجه له «ديمتري» ضربة على رأسه بعصاه الضخمة ويهرب. ويلتقي بـ «غروسشنكا» في أحد الفنادق: «عند ذلك، تبدأ حفلة تسودها العربدة دون ضابط أو تحفظ». خمور، أغاني مشتركة، رقصات.. وبعد أن سكرت «غروسشنكا» تماماً صرحت لدميتري أنها تحبه، وأنها تريد أن تتزوجه:

«وإن كنت متوحشاً، فأنا أعرف أنك شريف. ينبغي أن نعيش باستقامة وشرف، من الآن فصاعداً.. ولنكن شرفاء وطيبين، وعلينا ألا نكون أشبه بالحيوانات والبهائم.. اصطحبني إلى مكان بعيد، وبعيد جداً، أتسمع، وتفهم ما أعني؟ لا أريد أن أبقى هنا، أريد الذهاب، بعيداً، بعيداً»..

ويبدو أن قرب وقوع الكارثة هو الذي أثار مشاعر وعواطف هذين الشهوانيين، ودفعها إلى الذروة. وشعورهما المسبق بمصير رهيب دفعهما إلى إذكاء حماسة فرحتهما الآنية، في تلك اللحظة. كانا مرحين، مبتهجين، لأنهما يدركان بأنه لم يعد لهما الحق بأن يتمتعا بالمرح وبالبهجة. وهذا واقع وحقيقة وهو أنه لدى «دوستويفسكي»، جميع الأفراح التي ليست أفراحاً روحانية تماماً وبكل دقة، كأفراح «آخر الليل» أو أفراح آخر كتاب، فهي تبدو لنا هشة وسريعة الزوال، بشكل غريب. ففي اللحظة نفسها التي نشهد فيها البهجة التي ينعم بها الأبطال، بشكل مفاجئ، نتأذى من هذه البهجة، لأننا نعرف أنها مذمومةٌ ومحكوم عليها بالزوال. وبدقة وتفنن الجلاد الذي ينفذ عملية التعذيب، ينمي «دوستويفسكي» سعادة ضحاياه ويستثمرها،

قبل أن يعاقبها. فهو لا يضرب بشرة، أو جسداً متعباً، ومريضاً. بل يختار اليوم الذي يكون فيه هذا الجسد في أوج صحته، وفي أقصى درجات تفتح آماله، لكي يوجه له الضربة القاضية ففي بحران الغرام وهذيانه، وديمتري في غاية البهجة والسعادة، يأتي رجال الشرطة، ويلقون عليه القبض، ويوجهون له تهمة قتل والده. وقد احتج كثيراً وبقوة أمام لجنة التحقيق، ولكن دون جدوى، فقد كانت جميع الأدلة ضده.

والحقيقة، هي أن الخادم، الابن غير الشرعي «سميردياكوف» هو الذي قتل والد «ديمتري». وهذا المهرج يقوم، في الرواية بدور الشبيه، أو البديل الجهنمي، هذا الدور العزيز على «دوستويفسكي» وأي عذاب بالنسبة لرجل شريف أشد وأقسى من أن يلتقي في طريقه بمن يجسد كل ما يرقد ويكمن فيه من أشياء قذرة، يكتمها ولا يعترف بها، ويتناساها، منها ما يدل على الغباء، ومنها ما يدل على الجبن والخوف.. فأنت هادئ ومطمئن. مقتنع بنفسك ومتقبل لها. وفجأة، يبرز أمامك شخص، مكونة روحه، بل نفسه من كل ما رفضته ونبذته، من نفسك، شخص هو فضالتك وحثالتك، ومكب أوساخك (مزبلتك). وهو أنت بالذات في كل ما لديك من عيوب ومساوئ. ومن فمه يخرج أجمل كلامك كسخافات تنم عن الغباء والحمق. وفي رأسه أجمل أفكارك تتحول ضدك.

وهكذا، فإن أكبر الأخوة «كرامازوف» يسير وهو يقتاد سعدانه الخاص بمقوده. وهو يكرهه، والآخر يبدو معجباً بهذه الكراهية. ويذله، والآخر يحب هذه المذلة. ولكي يؤدي خدمة «لإيفان»، الذي سيحرمه زواج والده من حصته من الميراث، «سميردياكوف» يقتل العجوز. ويقتله دون أن يكون «إيفان» قد طلب منه. بصراحة، أن يفعل ذلك، وقتله لأنه كان يعتقد بأنه ينصاع لرغبة يكتمها سيده، فحققها له..

وما لم يكن سوى أمل غامض في ذهن «إيفان كرامازوف» أصبح فجأة، ذلك الفعل القبيح الذي أرعبه. وبفضل «سميردياكوف» الذي نفذ نية «سيده» الجرمية، لم يعد «إيفان كرامازوف» مذنب حلم، بل مذنب فعل. و «سميردياكوف» هو صلة الوصل التي حصلت بين الفكرة والفعل. و «سميردياكوف» هو نفي عدم المسؤولية الذهنية والروحانية. و «سميردياكوف» هو عقوبة المفكر الحر.

لقد قال «لإيفان»: «أنت نفسك كنت ترغب بقوة، بموت والدك.. وكنت عاجزاً عن قتله، أنت بنفسك، ولكنك كنت تتمنى أن يقتله شخص آخر. فيتساءل «إيفان» ويفكر، ويضطرب: «نعم، كنت أنتظر وأتوقع ذلك، إذن هذا صحيح؟ أردت أن اقتله».. ويقول فيما بعد: «أكنت إلى هذا الحد، أتمنى موت أبي»؟ هذا الانتظار، بل هذا التوقع وحده، وهذه الفكرة بحد ذاتها تسبب لإيفان الشعور بالإثم، وتثبت نيته الجرمية. ويقول له «سميردياكوف» ويردد ذلك: «لقد قتلت، أنت القاتل الرئيسي، ولم أكن أنا سوى مساعدك».. ويبوح الخادم لسيده ويوضح له مكونات قراره.

فإذا كان قد قتل، فذلك لأنه لم يكن هنالك ما يعترض سبيله لتنفيذ عملية القتل. وبفضل أحاديث «إيفان» المثقف، فقد فهم «سميردياكوف» أن «كل شيء مباح» ومسموح به في هذا العالم. وليس هنالك إله، وليس هنالك جهنم. «وإذا كان الله غير موجود، فليس هنالك فضيلة، وليس لها فائدة أو جدوى. هكذا فكرت، وهذا هو الاستدلال الذي كونته لنفسي».

و «سميردياكوف» وقد أنكر قواعد الأخلاق العامة، واجتاز الجدار، فقد أخذ يخلط بين الحرية والتعسف والاستبداد، ولا يميز بينهما. فهو يقتل. وبفعلته، يربط بالشر «إيفان كرامازوف»، الذي كان يؤكد أن كل شيء مباح ومسموح به» و «ديمتري كرامازوف» يصيح: «لماذا يوجد رجل كهذا»؟

و «إيفان» ليس مذنباً في نظر القانون البشري ولكن لا شيء يبرر موقفه حيال نفسه. وبعد أن أنكر وجود الله، يجد نفسه أمام «سميردياكوف». وبدلاً من الإنسان المثالي، الأسمى، يكتشف السعدان. وبدلاً من السلم النيّر والمضيء، يكتشف الهاوية السحيقة. وبدلاً من العقل السامي، يكتشف الجنون المطبق. وهذا الرجل الذكي المتعلم والملهم يتعذب ويعاني من الهلوسات. ويزدوج. يرى الشيطان، وهذا الشيطان، هو نفسه بالذات: «أنت أنا نفسي، ولكن بشكل آخر، وبصورة أخرى.. أنت تعبر عن أفكاري الخاصة.. ولكنك تختار فقط أكثر أفكاري سخافة وحمقاً، أنت غبي وسوقي مبتذل»!

و «إيفان كرامازوف» هو «دوستويفسكي» «الذي ظل الله يعذبه طوال حياته». وإنكار «إيفان كرامازوف» التجديفي، هو إنكار وجحود «دوستويفسكي» في أوقات الشك؛ وقد سجل الملاحظة التالية: «هؤلاء الحمقى، المغفلون لم يفكروا وحتى لم يحلموا بقوة النفي التي تغلبت عليها». وعندما يصرح «إيفان كرامازوف»: «أيمكن أن نتقبل التوافق والانسجام الشاملين والعالميين لقاء دموع طفل صغير واحد، يسقط شهيداً»؟ أليس «دوستويفسكي» بالذات، هو الذي يتلفظ بهذا الكلام؟

وبالواقع، فإنه يبدو تماماً أن «إيفان كرامازوف» يقوم، بنظر «دوستويفسكي» بالدور نفسه الذي يقوم به «سميردياكوف» بنظر «إيفان كرامازوف»: و «إيفان» بالنسبة «لفيدور ميخائلوفيتش» هو تجسيد لذلك الجانب من نفسه، الذي يبدو له شنيعاً وكريهاً. و «إيفان» هو كل ما يود المؤلف الذي ابتدعه، أن يرفضه وينبذه من نفسه. و «إيفان» هو عقوبة مبتكرة.

وفوق هذه الكائنات والمخلوقات اللعينة والرجيمة، هنالك وجهان صبوحان ومشرقان، يفرضان نفسيهما على القراء: «أليوشا» والمرشد

«زوسيم» و «أليوشا» هو أصغر الأخوة «كرامازوف»، وهو راهب، حديث العهد، في دير هادئ، جدرانه عالية وبيضاء. ومع ذلك فهو ليس ديناً، متصوفاً، بكل معنى الكلمة.

وقد كتب عنه «دوستويفسكي» ما يلي:

«أليوشا» لم يكن أبداً متعصباً، متزمتاً، ولا حتى، على ما أعتقد، زاهداً متصوفاً. وباعتقادي أنه كان خيراً، إنسانياً، ومحباً لبني البشر، وحسب، وكل ما هنالك أنه بدا متقدماً على زمنه.

فهذا الفتى هو إذن متوازن تماماً، منغرس بشكل جيد على الصعيد الواقعي. وله ثقة تامة بالله، ومطمئن بهذه الثقة، بكل استقامة وشرف، وبشكل صحي. وهو بالحقيقة يؤمن بالمعجزات والعجائب، ولكنها لا تسبب له أي اضطراب. فهي التتويج لإيمانه، وليست الأساس لهذا الإيمان. ولدى الشخص الواقعي، ليس الإيمان هو الذي يتولد من المعجزة، بل المعجزة هي التي تتولد من الإيمان.

وهكذا، فإن «أليوشا» شخص «واقعي» (يؤمن بالأمور الواقعية) وهو إنسان كامل. وطيبته ليست ذات طبيعة ملائكية، وهي لا تفترض كطيبة «ميسشكين» جهلاً تاماً واستثنائياً، بالشر. فقد عرف «أليوشا» الشر، وليس بعاجز عن فهم عيوب ورذائل أخوته ووالده، وما هو بغريب عن الخاطئين الذين يحيطون به. فهو من هذا العالم. وليس له منه سوى المزيد من الكفاءة والقدرة على التغلب على جميع الإغراءات والغوايات، وإفشالها.

وعلاوة على ذلك، ألم يقل الأب «زوسيم» المرشد نفسه الذي يقيم في الدير: «إليك فكرتي بشأن موضوعك: «ستغادر جدران هذا الدير، وسوف تقيم بين الناس، في هذا العالم، كرجل دين. وسيكون لك خصوم عديدون، ولكن أعداءك، أنفسهم: سوف يحبونك. وستجر عليك الحياة كثيراً من المصائب، ولكنك في البؤس والشقاء، سوف تجد الغبطة

والسعادة، وستبارك الحياة، وترغم الآخرين على مباركتها، وهذا هو الأمر الأساسي».

أليس «شيدلوفسكي» صديق «فيدور ميخائيلوفيتش» في طفولته الذي رسم «دوستويفسكي» عن وجهه، وجه «أليوشا» الجميل، أو «سولوفيوف» الفيلسوف الذي له رأس يشبه رأس السيد المسيح؟ الاثنان، دون شك.

وكذلك، فإن الطوباوي «تيخون زادونسكي» والأب «أمبرواز» في «أوبتنا بوستين، قدما ملامح المرشد «زوسيم» الرئيسية.

فقد كتب «دوستويفسكي»:

«المرشد، هو ذلك الذي يتمثل روحك وإرادتك، في روحه وإرادته». وهو مدير التوعية والإرشاد، البالغ القدرة، الذي تتخلى له عن مصالحك واهتماماتك الأكثر سرية وحميمية. وهو يهيمن على الدير عن طريق الاعتراف الذي يدين له به جميع الرهبان، القدامى والجدد. ويهيمن على الشعب بنفاذ بصيرته وبعد نظره، التامين، وبالمهارة التي تتحلى بها مواعظه ونصائحه الهادئة والوديعة.

وبخصوص المرشد «زوسيم»، يروي الكثيرون، أنه لكثرة ما استقبل، منذ سنوات عديدة، جميع أولئك الذين يأتون ليفتحوا له قلوبهم، طامعين بنصائحه ومواساته ومتشوقين لها، فقد اكتسب، في نهاية الأمر نفوذ البصر وثقوب الفكر. ومن النظرة الأولى يلقيها على أحد المجهولين، كان يكتشف لماذا أتى، وإلى ماذا يحتاج وماذا يلزمه، وحتى ما هي المشكلة التي تعذب ضميره». ومع ذلك، فإن المرشد «زوسيم» مثله في ذلك، مثل تلميذه الشاب، «أليوشا» الذي يشمله برعايته، كان رجلاً قبل أن يكون قديساً، عاش بين أمثاله من بني البشر. وخدم في الجيش. وقرر أن يلتحق بالرهبنة، ليس بدافع من اليأس، أو بدافع من التفكير بل بدافع من «الحب». وعقيدة «زوسيم» هي عقيدة حب وبهجة وفرح.

وقد كتب «دوستويفسكي»:

«والمدهش، في الأمر، أيضاً، هو أن «المرشد» كان أبعد ما يكون عن القسوة، بل لقد كان يبدو مرحاً مبتهجاً».

والمرشد اعتبر كلام أخيه الشاب أنه كلامه هو: «الحياة جنة، نحن فيها جميعنا، ولكننا لا نريد أن نعرف ذلك.. وكذلك: كل واحد منا مذنب أمام الجميع، بالنسبة للجميع، ومن أجل كل شيء»..

ومودة شاملة وعالمية تجمع بني البشر. وخسة كل واحد يؤثر وقع صداها في الآخرين. والشر ليس محدوداً بالمجرم وبضحيته المباشرة، فهو يمتد ويتسع كبقعة الزيت. وأولئك الذين رغبوه دون أن يرتكبوه يصابون به. وأولئك الذين عرفوا بتلك الرغبات، دون أن يدينوها، يتألمون بسببها أيضاً. وحتى أولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن الحادث، يمكن أن يكونوا ضالعين فيه، بشكل غامض.

فنحن، جميعنا مسؤولون، ملوثون، تعساء. فقد سرقنا، مع ذلك اللص، الذي نجهل شكل وجهه، وقتلنا مع ذلك الذي قتل أحد والديه، الذي حدثتنا عنه الصحف، واغتصبنا مع ذلك الشهواني، طالب المتعة واللذة، وجدّفنا مع ذلك المجدف.. وكل منا ينوء تحت وطأة خطيئة العالم القديمة. ومع ذلك، فإننا جميعنا سوف ننجو، ويتم إنقاذنا. وقد صرح «زوسيم»: الإنسان لا يستطيع اقتراف جريمة يمكنها أن تستنفذ حب الله الذي لا نهاية له.. وعليك أن تؤمن أن الله يحبك بشكل لا يمكنك تصوره، وأنه يحبك في خطيئتك، ومع خطيئتك.. والحال، هي أنك إذا كنت تحب، فقد أصبحت إلى الله. فالحب يكفر عن كل شيء، وينقذ كل شيء.

والأب «زوسيم» لا يدعو المؤمنين لاتباع قاعدة دقيقة وشديدة في الحياة، ولا إلى زهد رهباني، ولا إلى توبة باكية. فهو يطلب منهم الشيء القليل: أن يعترفوا بأخطائهم، وأن يحبوا. والذي يحسب حسابه ليست

النتيجة التي يمكن الحصول عليها، بل الجهد الذي يبذل. والفخور المتكبر، عندما يحني رأسه، يصبح أقرب إلى الله من الخادم الذي يقع جاثياً على ركبتيه، وذلك، لأن المتكبر، كان عليه أن يتصارع مع نفسه لكي يقدم لله هذا الدليل على التواضع، في حين أن الآخر، سجد بفعل العادة، وحتى دون أن يفكر بالحركة أو بالمبادرة التي يقوم بها.

«اعملوا ما تستطيعون عمله، وسيؤخذ ذلك لكم بالحسبان، ويقدر حق قدره.. وما يبدو لكم سيئاً فيكم، يتطهر، حالما تلاحظوه.. وفي اللحظة التي ترون فيها، برعب، أنكم على الرغم من جهودكم ليس وحسب لم تقتربوا من الهدف، بل لقد ابتعدتم عنه. في تلك اللحظة، وأقول لكم هذا مسبقاً، تبلغون الهدف وترون فوقكم قوة الرب العجيبة والخفية، التي تكون دون علمكم، قد أرشدتكم بواسطة الحب»..

«زوسيم» و «أليوشا» ينعمان بالإضاءة الطوباوية نفسها. فهما يحبان، وهذا يكفي لاكتساب مودة الناس البسطاء والأطفال.

(كل كتاب العاشر مكرس لصداقة «أليوشا» مع أطفال البلد).

غير أن المفكرين والمثقفين هاجموا هذه الفلسفة الهادئة. و «إيفان كرامازوف» وضع مقابل وضد إيمان أخيه، الهادئ والمطمئن، مجموع أدلة «المفتش الأكبر» وبراهينه الشيطانية. و «أسطورة المفتش الأكبر» كما رواها «إيفان» لـ «أليوشا» هي ذروة أعمال «دوستويفسكي» جميعها. فهي تلخص كل شيء، وتوضح كل شيء. وهي بالتأكيد تشكل كلمة «دوستويفسكي» الأخيرة.

في «اشبيلية» وفي عهد محاكم التفتيش، يظهر السيد المسيح بين الجماهير، فيعرفه الجميع، على الفور، ويتزاحمون حوله، ويتسوّلون منه عجائبه ومعجزاته. فيحقق لهم يسوع المعجزات المطلوبة. عند ذلك يعمد «المفتش الأكبر» وهو عجوز في التسعين من عمره، ذو وجه نحيل وجاف، وعيناه غائرتان، إلى توقيف «المخلص»، ويلقي القبض عليه.

وفي الليل، دخل «المفتش الأكبر» إلى السجن الذي ألقي فيه، بناءً على أمره، السيد المسيح. وقال له:

لماذا أتيت لتزعجنا؟ لأنك تزعجنا، بالفعل»!

ونظم العجوز ضد يسوع، قرار اتهام مخيف. والحقيقة، هي أن «المفتش الأكبر» لا يؤمن لا بالله ولا بالإنسان. وهو لا يؤمن بالله، لأنه يرفض الإصغاء للإله - الإنسان:

«ليس لك الحق بأن تضيف كلمة واحدة على ما سبق أن قلته».. وهو لا يؤمن بالإنسان، لأنه يؤكد أن العقيدة المسيحية تتجاوز قوى البشرية، الأخلاقية والمعنوية.

وهو ينبذ ويرفض اتحاد المبدأين: الإنساني والإلهي، في حضن الحرية. قال السيد المسيح: «أريد أن أجعلكم أحراراً». ولكن بإعلانه هذه الحرية، بالاختيار بين الخير والشر، فقد ثبت يسوع مسؤولية الإنسان ووضحها. وحكم على الإنسان بعذاب الضمير. واحتفظ له بجهاز، بل بنظام كامل لأنواع مختلفة من العذاب، حيث تتشابك بصورة مبهمة، بحيث يصعب التفريق بينها: تبكيت الضمير، الغواية والإغراءات، والآمال. والحرية لا تدرك من دون الألم. وهي لا تشترى إلا بالألم. والمسيحية هي أولاً، ديانة الألم.

وهكذا، يجد الإنسان نفسه موضوعاً أمام مأزق، أو الخيار الصعب بين أمرين أحلاهما مر، والاثنان في غير مصلحته، فمن جهة! الاستقلالية مع أنواع العذاب المعنوية والنفسية والأخلاقية، ومن الجهة الأخرى، الرفاهية مع الاستسلام والخضوع. فأيهما سيختار؟

المفتش الأكبر اختار له، فقد أكد أن السيد المسيح أفرط في تقدير قوى المخلوقات، عندما فرض عليها الاختبار المتعلق بالحرية. إذ إن الإنسان أضعف مما ينبغي بالنسبة للوعي التام، أو من أجله. «فهل نسيت أن الإنسان

يفضل الراحة، بل وحتى الموت على حرية التمييز بين الخير والشر»؟ وغاية الإنسان الكبرى، بل والقصوى هي أن يكون سعيداً. وعلى الكنيسة أن تنظم سعادته على الأرض. والكنيسة تحب الإنسان، أكثر مما أحبه السيد المسيح الذي حمله عبئاً، هو أثقل مما ينبغي بالنسبة لمنكبيه.

«لأنك كنت تقدره (أي الإنسان) أعلى مما ينبغي، فقد تصرفت دون شفقة عليه، وطلبت منه أكثر مما ينبغي». وهذه الفكرة، كما وردت في الأناجيل، لا يمكن أن تتحقق ألا من قبل بعض الأفراد المختارين، أي من بعض من هم من النخبة. فهي أرستقراطية والحال، هي أن الديانة الأرستقراطية مستحيلة، فالديانة، وأيّ ديانة تتوجه للجماهير، فينبغي إذن أن تقترح وتعرض نمطاً من الحياة، يمكن تطبيقه على الجماهير. ويجب أن تحمل التشجيع والعون إلى المغفلين، والجبناء، والفاسدين والمرضى. وينبغي أن تكون في متناول آخر وأدنى النماذج البشرية.. يجب أن تكون مألوفة و «عامية». وبدلاً من الحرية والشك والحيرة، والعذاب النفسي والروحاني، قدم «المفتش الأكبر» للإنسان تنظيماً إقليدياً «نسبة إلى إقليدس» للكون. وهنا، يلتقي «المفتش الأكبر» مع نظرية «شيفاليف». فهو يعتني بالجماهير، ويدافع عن الجائعين والضعفاء، وهو يعدهم، ليس بالخبز السماوي، بل بالخبز الأرضي. «لقد وعدتهم أنت بالخبز السماوي، ولكن هل يمكن مقارنته بخبز الأرض، في نظر هذا الجنس البشري، الضعيف، الفاسد أزلياً، والجاحد، الناكر للجميل، باستمرار وإلى الأبد؟.. أما نحن، فالضعفاء هم الأعزاء علينا».

وديانة الخبز الأرضي، هذه، هي اشتراكية «المسوسين» الملحدة.

وينادي «المفتش الأكبر» بسيادة وهيمنة أنواع من السعادة البسيطة والهزيلة، ضد طموحات النفس، الكبيرة، ومناقضة لها: «سوف نمنحهم سعادة هادئة وصامتة، متواضعة، السعادة التي تناسبهم، باعتبارهم

مخلوقات ضعيفة.. حقاً، أننا سنجعلهم يشتغلون، ولكن، أثناء أوقات فراغهم سوف ننظم حياتهم ومعيشتهم، حسب طريقة لعب الأطفال، مع أغاني طفولية وجوقات للغناء والأناشيد الجماعية، والرقصات اللطيفة والبريئة. أوه! وسنسمح لها حتى بارتكاب الخطيئة، لكوننا نعرف أنهم ضعفاء وعزل، لا حول لهم ولا قوة»..

وباسم حرية الذهن البشري، إنما نبذ السيد المسيح، في الصحراء، الغواية الأولى، وتغلب عليها: وهي غواية وتجربة «الخبز الأرضي». وكانت هذه، حسب رأي «المفتش» غلطته الأولى.

والغلطة الثانية كانت أنه أراد أن يكون محبوباً بكل حرية. ولكن بني البشر لا يستطيعون أن يؤمنوا حسب قلوبهم وعواطفهم. فهم يحتاجون إلى يقين وإلى شيء مؤكد وثابت. والحال، هي أن الوعد الإلهي غير مفهوم بالنسبة لهم. وهو مغلف، ويكتنفه كثير من الغموض والظلام، وأكثر مما ينبغي من التحفظات والتلميحات: «لقد اخترت كل ما هنالك من شاذ وغريب، معمى وملغز، وغير محدد بوضوح، أي كل ما يتجاوز قوى الإنسان وقدراته». والإنسان يريد أن يكون هنالك من يرعبه ويستعبده، وأن يبرهن له، في كل لحظة، على «ضرورة» العبادة، وأن عليه أن يعبد ويتعبد. والسيد المسيح أتاح لهم أن يصلبوه، كما يصلب اللص، وسال دمه على خشبة التعذيب، ومات، تحرسه وتسهر عليه، نساء يبكين بدموع غزيرة. ولأنه أراد ألا يكون حب الإنسان مستوحى من المعجزات والأعاجيب، فقد أبعده عنه، وفقده. «كان يلزمك، بل ينبغي لك، حب حر، وليس فورات وهذيانات رقية وعبودية تصدر عن عبد رق مرعوب. وهنا أيضاً، فقد كونت فكرة أسمى مما ينبغي عن بني البشر»..

وهكذا، فإن الغواية الثانية، غواية السلطة، أكملتها غواية المعجزة.

هذه الغوايات الثلاثة التي نبذها السيد المسيح، وتغلب عليها، يتقبلها «المفتش الأكبر». فهو يصحح عمل السيد المسيح، ويؤسسه على الخبز الأرضي، على السلطة وعلى المعجزة. «وبنو البشر فرحوا وابتهجوا لكونهم اقتيدوا من جديد، كقطيع من الماشية، وتخلصوا من تلك الهبة المشؤومة والمؤذية التي كانت تسبب لهم الكثير من العذاب والآلام».

وبدلاً من أن تكون المسيحية ديانة نخبة مختارة فقد أصبحت ديانة الجميع. والكنيسة تخالف الله لكي تكسب حب الإنسان، ومحبة بني البشر. وهي تستخدم السيد المسيح، لتغطية وحماية نظام لم يعد روحانياً. بل أصبح اجتماعياً. وأقامت «الشيوعية المسيحية». فهي تصف وتطلب واجبات محددة، تفسيرات وشروحات شائعة وبورجوازية ووعود بالمغفرة والحل من الخطيئة وبالعفو، وبالحياة الأبدية، لكي تطمئن رعيتها، وهي تعرض وتقترح على الجماهير، بطقوسها وأعيادها وباعترافاتها، العلاقات والأدلة الرسمية على الوجود الإلهي. وهي تحول أعجوبة خارقة للعادة إلى مجموعة صور متجانسة لعمليات تناول القربان المقدس. وتستعين من أجل ذلك بالأجراس، والبخور، وبرسم اللوحات وبالنقوش وصنع التماثيل. وهي تستدعي وتجمع كل الفنون، وكل الحواس لكي تسحر الجماهير. وهي تنقص من قدر الله، فهي تعرضه وتقدمه وتجزّئه كأيّ بضاعة. وكذبتها الثلاثية. بل تجديفتها الثلاثية مصممة بمهارة ونجاح بحيث لا يفكر أحد بأن يستنكرها.

والكنيسة تنكر المسيح، مع إطرائها وتبجيلها في الوقت نفسه، لعمله. وهي الملجأ الأخير للإلحاد. وبنو البشر يمكن أن يحرقوا السيد المسيح، بدلاً من أن يتخلوا عن العقائد السهلة التي وضعها وصاغها لهم «المفتش الأكبر». «سوف يتزاحمون وينضمون متلاصقين بنا، خائفين، كمجموعة فراخ صغيرة وضعيفة، تحت جناحي أمها»...

ويقول «المفتش الأكبر» موجهاً كلامه للسيد المسيح: «إذا كان هنالك من استحق المحرقة أكثر من الجميع، فهو أنت. غداً سأحرقك».

وبدلاً من أن يرد عليه السيد المسيح، اقترب منه وقبل شفتيه النحيفتين، فارتعش «المفتش» بتأثير تلك القبلة، ثم فتح الباب وقال: هيا، انصرف، ولا تعد.. لا تعد إلى هنا، أبداً».

فانصرف السجين.

هذا الطلاق بين الدين والكنيسة، بل هذا الاختلاف التام بينهما، مما يبدو غريباً، ولافتاً للنظر أن نذكر، أن «إيفان» الملحد، هو الذي يقدمه باسمه. وهكذا، فإنه لا يهاجم السيد المسيح، بل الكنيسة، وهو لا يدافع عن الإلحاد، بل يدافع، اضطراراً وبلا تعمد، عن الإيمان الحقيقي. وبشكل أفضل مما يمكن أن يقوم به أي كان، فهو يلفت الانتباه إلى الجمال الأخلاقي السامي الذي يتمتع به السيد المسيح: تلك الرغبة بأن يكون محبوباً لذاته، وحسب.

إنها «التيوقراطية، التربيبة»[1] الكاثوليكية، وحدها، هي التي، حسب رأي «دوستويفسكي» كانت المذنبة لأنها سرقت كلام السيد المسيح لغايات استعمارية. ولكن الأرثوذكسية البيزنطية يمكن أن تتهم بالذنب نفسه. وأيّ منظمة كنسية أو كهنوتية، تستحق فعلاً أن تلام لاتباعها نظاماً قيصرياً استبدادياً. وطوال تاريخ الكنيسة، وعلى مدى هذا التاريخ، ظلت الكنيسة تناضل ضد غواية التنكر لحرية الذهن والفكر، لأن ليس هنالك شيئاً أقل تطابقاً مع طبيعة الإنسان، من هذه الحرية. ومع ذلك، فإن أعجوبة السيد المسيح الحقيقية، هي أعجوبة الحرية. ومشهد آلام السيد المسيح، وصلبه ليسا هنا، إلا لإلقاء الضوء للإنسان على استقلاليته

١ـ حكومة إلهية، يشرف عليها رجال الدين. ـالمترجم.

التامة في الاختيار. والحقيقة الإلهية المنتصرة كان من الممكن أن تطالب بانتساب وإذعان النفوس والأرواح دون حب. وخارج نطاقه. أما الحقيقة الإلهية التي صلبت، أذلت، عذبت ومزقت، وغطاها الصديد والبصاق، فهي لا تفرض نفسها على الإنسان. والإنسان لا يؤمن بسبب «هذا»، ولكنه يؤمن رغماً عن «هذا». وقرار الإيمان أمام هذه الميتة، الشبيهة بالميتات الأخرى، هو قرار حر تماماً. وإلى هذا الإيمان الحر، غير المفهوم، وغير المقبول منطقياً، إنما يدعونا «دوستويفسكي» ولكن، حيال مشكلة الله، ما هو موقف «إيفان كرامازوف» الدقيق والمضبوط؟ «إيفان» يرفض التفسير الإلهي للعالم. وهو يستدعي ذكرى جميع الآلام البشرية. والتكفير عن الخطايا في الحياة الآخرة والأبدية لا يبرر، في نظره «ضرورة» العذاب الجهنمي الحالي: «ماذا تفيدني أو تعنيني كل أنواع العذاب، الجهنمية التي يتعرض لها المدانون الهالكون، إذا كان الطفل الصغير، قد سبق له أن عذب، حتى الموت»؟ «وأين يكمن إذن الانسجام والتوافق، إذا كان لا يزال هنالك أيضاً جهنم؟ أنا أريد أن أسامح وأغفر، وأن أصالح وأتصالح، ولم أعد أريد أن يظل هنالك عذاب وتعذيب». وتفسير الكنيسة «تبسيطي» وينبغي أن يكون هنالك شيء آخر، غير هذا المبدأ، بل هذا المثل القائل: «أعطِ تعط». ولكن ماذا؟

«كيف يمكنني أن أدرك شيئاً عن الله الذي هو أعلى بكثير مما ينبغي، بالنسبة لي؟

وهكذا، فإن هذا الملحد لا ينكر وجود الله، ولكنه ينكر إمكانية إدراكه. ومجرد الرغبة بالله، فهذا يعني أن المرء لم يعد ملحداً، والتجديف وشتم الله، فهذا معناه أنك تؤمن بالله، وذلك الجحود، وهذا النكران الحماسي الذي يبديه «إيفان» موجه ضد إله الكنيسة وضد الله الإداري، المألوف، والمصطنع الذي تحدث عنه «المفتش الأكبر» والخاص به.

و «إيفان» لا يقبل أن يفرض عليه إله يبدو مفهوماً وجلياً للذهن البشري. «فالله ليس شيئاً من هذا العالم». ولا يمكن أن يكون إلا لغزاً، توقعاً وأملاً، والكنيسة أفسدت هذا الأمل، عندما حددته وأوضحته.

ولكن «إيفان كرامازوف» بعد أن وصل، بهذا الشكل، إلى عتبة الإيمان الحقيقي، تراجع. فهو يعجب بكون فكرة الله استطاعت أن تنبت وتظهر في ذهن الإنسان، البليد. فهل الله هو الذي خلق الإنسان، أم الإنسان هو الذي خلق الله؟ «إيفان» لا يريد معرفة ذلك. وحيال هذا العالم الخائب، الفاشل. وحيال هذا الإله الذي لا يفكر حتى بتوضيح عمله، يعدل «إيفان» عن الدخول ويعيد البطاقة التي تسمح له بذلك»: «أنا لا أقبله، ولا أريد أن أقبله» ويتخلى عن الله بدافع حبه للبشرية، مثلما فعل «مفتش» أسطورته، الأكبر.

و «إيفان» وقد رفض الله، فقد انتهى به الأمر إلى عبادة الشيطان و «إيفان كرامازوف» هو الشيطان. وهو يرى الشيطان أثناء هذيانه، وهذا الشيطان هو «إيفان» بالذات. والشيطان يعرف الله، ومع ذلك فهو ينكره وينبذه.

ويقول لإيفان: «كنت هناك، عندما كانت «الكلمة الإلهية المجسدة» وهي تلفظ النفس الأخير على الصليب، تصعد إلى السماء، حاملة في حضنها روح اللص الطيب «لص اليمين» الذي صلب.. ولكم وددت في تلك اللحظة، أن انضم إلى تلك الجوقات من المنشدين والمرتلين، وأن أصلي صلاتي، واصرخ بأعلى صوتي، صيحة النصر.. ولكن، تقديراً مني لواجباتي.. كان علي أن أكبت حركة، بل مبادرة جميلة، وأن أظل في خزيي وعاري».

وبفضل الشيطان، اكتشف «إيفان» أخيراً أسباب ودوافع إلحاده. كان بدافع الرغبة بمقارنة نفسه بالله، بالاستغناء عن الله والحلول محل

الله أن رفض أكبر أبناء «كرامازوف» الإيمان الذي يتبعه ويتعقب خطاه.
ونجد هنا ثانية موضوع الإنسان المثالي والأسمى، العزيز على «دوستويفسكي»: «الذهن البشري سيكبر وسيرتفع حتى يبلغ درجة الغطرسة الشيطانية وستكون تلك أزمنة الإله البشرية» ومع ذلك، ففي قلب هذا الإلحاد، نفسه، لم يكن «إيفان» مرتاحاً. فقد ألقى فنجان شاي على رأس الشيطان، «كامرأة». وطرده، طرد نفسه، بالذات، ذلك لأنه من الصعب إنكار حضور، ندرك بأنفسنا لزومه السري.

ومما كتبه «باسكال» (Pascal)[1]:

«قال بعضهم: ارفعوا نظركم نحو الله، ترون ذلك الذي تشبهونه، والذي خلقكم لكي تعبدوه. يمكنكم أن تصبحوا شبيهين به، فالحكمة تساويكم به، إذا أردتم اتباعها».. ماذا سيصبح الإنسان إذن؟ هل سيصبح مساوياً للرب أم إلى البهائم والحيوانات؟

وفي سياق الرواية، يقول الأب «زوسيم»: «يوجد في جهنم أناس عاشوا بغطرسة وشناعة، على الرغم من كل معرفتهم بالحقيقة». «إيفان» هو أحد أولئك الذين يسيرون بملء إرادتهم نحو جهنم. و «إيفان» مريض بالله. فهل سيموت بهذا المرض؟

«أليوشا» يتأمل أخاه ويتفحصه بذعر وشفقة. وينتهي به الأمر بتقبيل شفتيه بهدوء، كما فعل السيد المسيح مع «المفتش الأكبر» وهذا الرد هو الوحيد الذي يستطيع المسيحي تقديمه للملحد.

لأنه لا يستطيع مقابلة المنطق إلا بالحب. والإيمان لا يفسر ولا يشرح، ولا يوصى أو يؤمر به. «مروا من أمامنا، واغفروا لنا سعادتنا»: هذا ما قاله «الأبله» إلى «هيبوليت» الجاحد، وغير المؤمن.

١- «بليز باسكال» (١٦٢٣-١٦٦٢) عالم، فيلسوف وكاتب فرنسي له مؤلفات عديدة في الرياضيات والفيزياء وفي الفلسفة والديانة. -المترجم

وكان «أليوشا» يفكر هكذا: «الله سينتصر، و «إيفان» إما سيبعث حياً في نور الحقيقة، وإما أنه سيموت في ظلمة الكراهية. ويصلي من أجل أخيه، لأن ليس هنالك في العالم وسيلة أخرى لإنقاذه.

وهذا الكتاب الضخم لا يلخص كل أفكار «دوستويفسكي» وحسب بل طريقته ونهجه أيضاً. ففي أي مكان أو أي عمل آخر، لا يبدو تجاذب المؤلف بين ما هو خيالي وبين ما هو واقعي، أكثر وضوحاً منه في رواية «الأخوة كرامازوف». وماذا عن البيئة والإطار؟ لم يكد يفكر بهما. والشخصيات؟ لقد ورد في مكان ما من الرواية أن العجوز «كرامازوف» له «جيوب صغيرة تتدلى تحت عينيه الصغيرتين اللتين تنمان عن الحذر والخبث».. وجوزة عنق (تفاحة آدم) بارزة، تعطيه سمة «شهوانية» بشكل بشع».

أما «أليوشا»، فهو «ذو قامة رشيقة، أشقر الشعر، وجهه متناسق، وإن كان متطاولاً بعض الشيء، وجنتاه موردتان، عيناه لونهما، رمادي غامق وهما براقتان ومنفتحتان تماماً، وعلى وجهه تبدو سمات التفكير والهدوء». وهذا كل ما هنالك. وبعد قراءة عشر صفحات، نكون نسينا هذه الصور التي رسمت على عجل، وضحينا بتلك الوجوه والأجسام، في سبيل فكرة من الأفكار التي يذخر بها الكتاب. ويكون انفعال الأبطال، أهواؤهم وحماستهم قد طغت على أجسادهم وغطتها وقضت عليها. فنحن حيال صراع أفكار. ونعيش في عالم، لم نعد نأكل ولا نشرب ولا ننام فيه، حيث الأحداث الكثيرة تتوالى وتتراكم في بضع ساعات، وحيث تزور توقعات مرعبة العقول والقلوب البشرية، وحيث يختلط الليل والنهار، وحيث كل فرد يتكلم لكي يقنع نفسه، أكثر من محاولته إقناع الآخرين.

والفوضى في كل مكان، وفي كل مكان أيضاً القلق. والذي يعذب تلك المخلوقات، ليس المرض، أو الخوف مما سيأتي به الغد: إنه الله.

وبمنة من مبدعها، فقد تخلصت من المتاعب والمشكلات البسيطة اليومية لكي توضع عارية قبالة «السر الخفي والعجيب». وحياتهم الناشطة تناظر وتماثل حياتنا الداخلية والعميقة.

فهذه المخلوقات هي نحن بالذات، منظورين وملاحظين من الداخل. وبفضل هذه الطريقة في «أخذ المناظر» والتقاط الصور، فما يكون الأكثر قرباً ممن يقوم بالتصوير، هو العذاب، بل الألم الأكثر لا شعورية، والأكثر بعداً عنه، هو الجسم، اللحم، والبشرة، والملابس وضوء النهار. وإنجاز الصورة وإيضاحها وضبطها يتم على عالمنا الخاص والحميمي. والعالم الخارجي يظل ضبابياً مشوشاً كالحلم. وعندما تعرض علينا هذه التجربة، بل هذا الاختبار لأنفسنا، لكي نراه، لا نعرف أنفسنا أكثر مما نعرفها على صورة شعاعية.

وهذه الصورة أو وجهة النظر عن «الرجل السردابي» أو داخلية الإنسان، تفسر بالمودة المحمومة التي يكنها المؤلف «لمخلوقاته» أي للشخصيات التي يبتدعها. ويبدو كما لو أن هنالك أزمة، أو نوبة صرع على وجه التقريب، تلقي به في قلب العالم نفسه الذي يصفه وبصورة لنا. فهو يدخل فجأة ومباشرة في ظلمات الأحشاء الداخلية لذلك العالم. وعيناه تألفان في الحال تلك الظلمات، فيرى ويفهم وكما أن حياة بكاملها يمكن أن تمر وتنقضي في بضع ثوانٍ عبر حلم من الأحلام، كذلك فإن حادثة غريبة أو مغامرة عاطفية وروحانية، بأبحاثها، بخيباتها وآمالها. تبدو له، في لمح البصر. ولكنه، عندما يعود إلى سطح الماء، بعد أن غاص فيه، مع غنيمته من الأفكار، وعندما يحاول أن ينظم ويرتب، حسب قوانين الفن، قصة عاشها خارج نطاق الزمن، وخارج نطاق المكان، وخارج مبادئ السببية والتناقض، تبدأ متاعب ومخاوف المؤلف. فالمقصود هو أن يجعل مأساة من مآسي الحياة الثانية واضحة وجلية، لقراء لا يملكون الفكر

الثاني. والأمر يتعلق أيضاً بجعل الضمير المشترك يتقبل ما هو لا شعوري. وجعل اللاشعوري شعورياً واعياً. والمقصود كذلك هو جعل الناس يهتمون بما هو، بالحقيقة أنفسهم، بالذات.

و «دوستويفسكي» الواقع بين المتخيل الوهمي وبين الواقعي، يبذل جهداً كبيراً لكي يدخل في إطار المنطق، المتين، مادة ملاحظته، المتملصة والتي لا تقبض. ولكن المهمة شاقة.

والأمور التي يستبعد حدوثها كثيرة جداً في الرواية. والعدد الكبير من الأحداث التي تؤلف رواية «الأخوة كرامازوف» ضغطت وحصرت في بضعة أيام. والشخصيات تروي أحاديث مطولة تستغرق عشر صفحات، وتلتقي لكي تتحدث عن الله «على الطريقة الروسية» و «سميردياكوف» تبدر منه ردود متأنقة، والفظ «ديمتري» يصيح: «كلا، إن الإنسان واسع، واسع أكثر مما ينبغي. كان علي أن أضيقه. والأبطال لديهم كما هي العادة، معرفة تنبؤية، ببعضهم: «زوسيم» يصرح لأليوشا أن «ديمتري» مرصود لمصير مأساوي. و «أليوشا» يقبل كتف والده وهو يودعه لأن لديه إحساساً بأن هنالك كارثة ستقع قريباً. و «إيفان» يسافر إلى «تشير ماشني»، لأنه يدرك بأن هناك جريمة يجري التحضير لارتكابها.

والهلوسة، الحلم، والجريمة، كل هذا عملة رائجة، تكثر في الرواية. ولكي يجد «دوستويفسكي» عذراً لأبطاله يبرر به أعمالهم وتصرفاتهم، يتذرع بكل بساطة بعامل الوراثة أو بالمرض: «ولكن، لا، هؤلاء ليسوا مخلوقات سوية مثلي ومثلك... بلى. إنهم مختلو التوازن، مأفونون»!.. فهو يخدع القارئ ويغشه بشأن هوية شخصياته التي ابتدعها. ورغبة منه لكي يجعل الأمور «تبدو حقيقية»، فهو يكثر من استخدام التفاصيل المادية. وجريمة اغتيال العجوز «كرامازوف» رويت بعناية اختصاصي في هذه الأمور. كما أن التحقيق والاستجواب، والمرافعة والدفاع

يدل الحديث عنها على أن من كتبها، معتاد على حضور المحاكمات وعلى متابعتها: «لا أظن أني وقعت في أخطاء تقنية أو فنية في سردي لتفاصيل قصتي، فأنا، منذ البداية حصلت على المعلومات الصحيحة واللازمة، من اثنين من المدعين العامين، في «سان بطرسبورغ».

وكما أن «دوستويفسكي» لم يشأ أن يختار بين الثورة والحكم القيصري كذلك، فهو لم يشأ أن يختار أيضاً بين ما هو وهمي، متخيل، وبين ما هو واقعي. فهو يبحر، متنقلاً بين هذا وذاك. وهو مع هذا الجانب ومع الجانب الآخر. ويوفق بين ما لا يمكن التوفيق بينهم. وهذا الفن الازدواجي والهجين، احتاج إلى ما يقرب من أربعين سنة من العمل، لفرضه على الجمهور.

وما أهمية ذلك؟! فبرواية «الأخوة كرامازوف» ربح «دوستويفسكي» الجولة.

احتفالات تكريم «بوشكين»

«الأخوة كرامازوف» رفعت شهرة ومجد «دوستويفسكي» إلى الذروة. وأخذ القراء يبدون إعجابهم به ويعتبرونه نداً، ومساوياً لـ «تورغينيف» ولـ «تولستوي». بل أصبحوا أيضاً يؤمنون به أكثر من إيمانهم بـ «تورغينيف» أو بـ «تولستوي».

شباب دون فرح أو بهجة، حكم جائر، سجن الأشغال الشاقة، المرض، القمار، الديون، الحرمان، العمل بناء على الطلب. لقد اجتاز جميع هذه التجارب والمحن، كما يجتاز المرء خندقاً أو أخدوداً، وبرز فجأة في السهل منهكاً، دامياً، وقد نجا. ولكنه أصبح عجوزاً، متنوراً، وقد انكشفت بصيرته وتخلص من الأوهام، ولكنه مع ذلك يشعر بالقرف والتقزز. وتلك الفترة من الهدوء المفاجئ، كانت تعلن عن موته. فمنذ ما يقرب من سبع سنوات وهو يعاني من انتفاخ في الرئتين. في أعقاب نزلة حادة والتهاب في القصبات والمجاري التنفسية، لم تستطع المداواة التي أجريت له في «ايمس» أن تشفيه منها، والمرض الذي بدا له بسيطاً، في أول الأمر، أخذ يقلقه فيما بعد، وصار يتحدث عنه، بكياسة عصبية، في رسائله:

«جزء معين مُن رئتي قد انزاح من مكانه، وكذلك القلب الذي يشغل وضعاً في مكان آخر، وكل ذلك بسبب انتفاخ رئتي»...

«إني أفكر دائماً بالتحضير للمستقبل، وبخاصة بشأن الوسيلة التي تمكنني من شراء إحدى المليكات. فهل تصدق أني أصبحت مهووساً بهذا الموضوع؟ إني أرتجف قلقاً على مستقبل الصغار».

«كل الناس متأكدون أننا نملك الكثير من النقود، ولكن ليس لدينا شيء»!

وعمله الضخم لم يدرّ عليه سوى ما استطاع أن يسدّد به الديون لحشد من الدائنين. وهو بحاجة للنقود، وهي لازمة له، وبسرعة بسرعة. وافتتحت زوجته مكتبة، بدا دخلها مرموقاً، منذ البداية. أما هو، فقد أخذ يفكر باستئناف إصدار «دوريته»: صحيفة كاتب، وبتأليف الجزء الثاني من رواية: «الأخوة كرامازوف» الذي سيكون «أليوشا» مجسداً روسيا الجديدة.

و «أليوشا» الروسي الشاب، سيكون هكذا النقيض لديمتري الروسي العجوز، ولإيفان، «الأوربي».

والروسي الشاب يحقق أمنه وسلامته في هذا العالم، كما نصحه المرشد الروحي «زوسيم». وخلال مناقشة حامية، يصرح «دوستويفسكي» للكونت «ميلشيور دي فوغويي» بأنّ الشعب الروسي يملك، في آن معاً، عبقرية جميع الشعوب، وعبقريته الخاصة. ولهذا فإن الشعب الروسي يستطيع أن يفهم الجميع دون أن يستطيع أحد أن يفهمه.

وهذه الكبرياء الوطنية لاقت قبولاً وتقديراً كبيراً من قبل المقامات العليا. وبعد فترة وجيزة، وبناء على طلب «دوستويفسكي»، أوقف وزير الداخلية المراقبة السرية التي أقيمت حول الكاتب، منذ أن أخلي سبيله من السجن.

وبتاريخ ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٧٧، سجل «دوستويفسكي» في دفتره:

١- كتابه: «الساذج الروسي».

٢- تأليف كتاب عن يسوع- المسيح.

٣- كتابة مذكراتي.

٤- كتابة قصيدة لسوروكوفين.

ملاحظة: كل هذا يمثل، بل يتطلب عشر سنوات من النشاط والعمل، وأنا الآن في السادسة والخمسين من العمر»!

وفي شهر أيار (مايو) سنة ١٨٨٠، أرسلت «جمعية أصدقاء الأدب الروسي» دعوة إلى «فيدور ميخائيلوفيتش» ترجوه فيها أن يلقي خطاباً بمناسبة تدشين تمثال لبوشكين. وتبلغه أنّ حفل التكريم سيقام في موسكو.

و «بوشكين» كان على الدوام، بالإضافة إلى «غوغول» المعلم المعلن لدوستويفسكي». ألم يكن «هيرمان» بطل رواية: «لا دام دي بيك» (بنت البستوني) هو الذي أوحى بشخصية «راسكولنيكوف»؟ ألم تكن «شياطين» «بوشكين» هي التي قدمت عنوان وفكرة كتاب «دوستويفسكي»: «الشياطين» أو ليست «مسارّة النفس» (المونولوج) في رواية «الفارس البخيل» هي التي أيقظت، لدى «دولغوروكي» في رواية «المراهق» ذلك الحب للمال وللقدرة غير المحدودة؟

كان «دوستويفسكي» يكنّ «لبوشكين» نوعاً من العطف المشوب بالغيرة والحسد. وكان يخشى على «معبوده» من خيانة أو نذالة الخطباء الآخرين. كان «مؤيدو الغرب» يشيدون بـ «بوشكين» ويمجدونه، باعتباره «أورُبياً» عظيماً. ولم يكن «مؤيدو السلافيين» يجرؤون على الاعتراف به كروسي عظيم. وكان الجمهور ينتظر كلمة حاسمة عن الشاعر، يمكن أن توفق بين الطرفين. وكان لدى «دوستويفسكي» حدس، يشبه النبوءة، بأنه مدعو ليلفظ تلك الكلمة.

ولكنّ قيامه بالرحلة من «ستاريّا روسيا» إلى موسكو، كان يقلق زوجته. فقد كان «فيدور ميخائيلوفيتش» متعباً. وانتفاخ الرئة لديه. حسب رأي الأطباء، قد ازداد بشكل مخيف، حتى أصبح يهدّد حياته. وقد كتبت «أنّا غريغوريفنا» بهذا الخصوص، ما يلي: «لقد حدثني ابن عمي «سنيتكين» عن ذلك وقال لي: لقد أصبحت الأوعية الدموية لديه هشة ونحيلة جداً، لدرجة أنها يمكن أن تتقطع، في أيّ لحظة لو قام بأي مجهود جسدي».

وكان «دوستويفسكي» يتمنى ويحب أن ترافقه زوجته إلى موسكو. ولكن نفقات الرحلة والإقامة، في تلك الحالة، كانت تتجاوز إمكانات الأسرة، المتواضعة. وهكذا فقد انفصلت «أنّا غريغوريفنا» عن زوجها، وبقيت لوحدها، مع وعده لها بأنه سيرسل لها يومياً أخباراً عن حالته الصحية.

ومنذ وصول «دوستويفسكي» إلى موسكو، استقبله بحفاوة كبيرة «مؤيدو السلافيين» وأقاموا له الحفلات الفخمة. وكانت الأوساط الثقافية والفكرية تنتظر بفارغ الصبر افتتاح تلك الاحتفالات الأدبية، الذي حدد موعده في ٢٦ أيار (مايو) وهو تاريخ ولادة «بوشكين». ولكن الإمبراطورة توفيت قبل ذلك الموعد ببضعة أيام. فأعلن عن حداد رسمي لمدة أسبوعين.

و «دوستويفسكي» الذي كانت تستدعيه أعماله وقلقه على أسرته، كي يعود إلى «ستاريا روسيا، أراد في بداية الأمر أن يغادر العاصمة. ولكن أصدقاءه أوضحوا له أن سفره سيعتبر بمثابة انسحاب، وهزيمة معيبة. وكتب لزوجته بهذا الخصوص ما يلي: «سيقولون بأن ليس لديّ كمواطن الجرأة الأدبية لأهمل أعمالي، من أجل حدث كبير، له مثل تلك الأهمية، وذلك التأثير على المدى البعيد.

وحضوره في موسكو كان ضرورياً، لا سيما وأنه سيتيح له الفرصة لكي يدافع علناً، وأمام حشد من الجمهور عن فكرة «روسيا - الأورُبية»

وهي التي يناضل من أجلها منذ ثلاثين سنة. ومما كتبه أيضاً: أن الخصوم، والطرف المعادي، عامةً: «تورغينيف، كوفا لويسكي، وكل الجامعة، تقريباً يرغبون بإصرار التقليل من أهمية «بوشكين» ومن تجسيده للأمة الروسية، بإنكارهم الجنسية نفسها. ونحن، من جهتنا، ليس لدينا من نقابلهم ونعارضهم به سوى: «د.ا س. أكساكوف... ولكن «إيفان أكساكوف» عجوز تقدمت به السن كثيراً، حتى أنّ موسكو قد ملت منه. أما أنا، فإن موسكو لم تسمعني أبداً، ولم ترني، ولن تهتم بأحد سواي».

فهو سيبقى إذن، ولكن هل سيكون معه من النقود ما يكفي ليدفع نفقات إقامته في الفندق؟ ولكنّ أصدقاءه طمأنوه: فقد تكفلت البلدية بتسديد كل نفقات إقامته.

ولكنّ «دوستويفسكي» يبدو منزعجاً مذعوراً: «وأنا الذي، سبق لي، وقد استأت من القهوة التي قدمت لي أن أعدتها مرتين، لكي تكون أكثر كثافة! ولا بد أنهم قالوا عنه في المطعم: «إنه يتكلف ويتصنع ذلك، ليظهر أهميته، ولكن، ماذا يكلفه ذلك»؟!

وجاء في أخبار «سان بطرسبورغ» الأخيرة، أنّ تدشين تمثال «بوشكين»، قد أرجئ إلى مطلع شهر حزيران (يونيو) وبانتظار هذا الموعد، انصرف المندوبون إلى القيام بالزيارات الودية، وبحضور المآدب وحفلات العشاء، وتبادل الأحاديث التحضيرية للاحتفالات. وكان «دوستويفسكي» يدعى إلى تلك الحفلات ويستقبل بالترحاب أينما ذهب، وقد دهش، هو نفسه، من شعبيته. وكتب بهذا الخصوص:

«لقد تحدثوا عن أهميتي الكبيرة كفنان، وكمفكر عالمي، وكصحفي، وكروسي».

وكان يبدي إعجابه بكل بساطة وسذاجة. بجمال الصالونات التي يدعى إليها وبالترف البادي فيها، وبوفرة وتنوع الأطعمة والمآكل التي تقدم له:

كان طعام العشاء في غاية الترف والبذخ، وقد قدم في صالون مستقل وخاص (ولا بد من أن ذلك قد كلف الكثير من النقود) وبأي ظرف ولباقة، لدرجة أنهم، قدموا، بعد الانتهاء من تناول الطعام، وفي الوقت نفسه مع القهوة والمشروبات الروحية، مائتي «سيجار» من النوع الممتاز، الغالي الثمن. نعم، لقد كان كل ذلك جميلاً ومنظماً، بشكل مختلف عما هي الحال في «سان بطرسبورغ»... وقد ألقيت ستة خطابات، تكريماً لي، وكان بعضها أطول مما ينبغي».

وأثناء ذلك، ومع اقتراب موعد التدشين، كان يتزايد نشاط المجموعات الأدبية. ومظاهر الخصومة والتنافس الشديدين بين «أنصار السلاف» و «أنصار الغرب» تزداد حدة ووضوحاً. و «كاتكوف» زعيم الحركة اليمينية، الذي أخطأ بعدم إعلانه عن الاحتفالات، في صحيفته: «أخبار موسكو» فقد استبعد ولم يدع لحضور تلك الاحتفالات. وأخذ أنصار «تورغينيف» يهيئون لفوز زعيمهم، بتوزيعهم الدعوات بمهارة، وبدعوتهم لمجموعة كبيرة من المصفقين المأجورين. وقد كتب «دوستويفسكي» بهذا الشأن: «إني أخشى، بسبب اختلاف الآراء، أثناء كل هذه الأيام، من أن ينتهي الأمر، ويؤدي بهم إلى المشاحنة والعراك.

وفي اليوم الخامس من حزيران (يونيو). افتتحت الاحتفالات بتكريم «بوشكين» بإقامة قداس ارتسامي. وبعد القداس اقترب «دوستويفسكي» من السيدة «سوفورين» وسألها، قائلاً: «عندما سأموت، هل ستشهدين جنازتي ودفني، وتصلين من أجلي، مثلما صليت من أجل «بوشكين».

وفي اليوم التالي، وضع مندوبو الكتاب أكاليل الزهور حول تمثال الشاعر. وبعد ذلك عقدت جلسة أكاديمية، تقليدية في إحدى كليات الجامعة حيث أعلن عميدها أن «تورغينيف» قد عين عضواً فخرياً في جامعة

موسكو. فهتف الطلاب للروائي العجوز الذي كانوا يرون فيه «خلفاً لائقاً ومباشراً لبوشكين».

وبهذه المناسبة، كتب «ستراخوف» ما يلي:

بما أن «تورغينيف» كان، في تلك الاحتفالات، الممثل الأكثر أهمية «لمبدأ مؤيدي الغرب وأنصاره»، كان من الممكن أن نظن أن هذه الحركة الأدبية ستقوم بالدور الأكبر وتحقق الفوز والانتصار في المبارزة الفكرية التي ستبدأ، بعد قليل».

وبعد الجلسة التي عقدت في الجامعة، ذهب المندوبون إلى الوليمة التي أقامتها البلدية في نادي «النبلاء». وكانت الأنخاب والخطابات، جميعها تشير إلى «بوشكين» على شرفه، وتكريماً له، ولكن، لم يجرؤ أحد أن يحدد ويوضح ماذا كان الشاعر يمثل بالنسبة للأمة الروسية. وفي المساء، قرأ «دوستويفسكي» في جلسة علنية وعامة: «مشهد الراهب بيمين»، وكان التصفيق يطغى على صوته. وقد كتب عن ذلك، ما يلي: «ولكنّ «تورغينيف» الذي قرأ بشكل سيئ للغاية، استعيد، وطلب منه إعادة بعض المقاطع، أكثر مما طلب مني».

وأثناء فترة الاستراحة، اندفعت بعض السيدات نحو «فيدور ميخائيلوفيتش» وهنّ يصحن: «أنت نبيّنا، وقد أصبحنا في وضع أفضل، بعد أن قرأنا رواية: «آل كرامازوف»!

وفي اليوم التالي، أي السابع من حزيران (يونيو) عقدت جلسة «جمعية أصدقاء الأدب الروسي» الرسمية والاحتفالية، في نادي النبلاء، أيضاً.

وبدأ «تورغينيف» خطابه أمام حفل من المستمعين المصممين مهما كلفهم الأمر، على إبداء حماستهم له. فكيف يمكنهم ألاّ يحبوا هذا العملاق الضخم، بلحيته البيضاء ووجهه اللطيف والمتعب؟ كانت حركاته

أنيقة، كلامه جميل، منتقى ومدروس، وله وقع موسيقي. ولكنه أثار مسائل مربكة وحساسة: «هل يعتبر «بوشكين» شاعراً قومياً يلخص ويمثل عبقرية شعبه؟ أنا لا أؤكد ذلك، ولكنني لا أسمح لنفسي بنفيه، هذا ما صرح به «تورغينيف» وأنهى خطابه بمديح تأبيني من شعر «نيكراسوف» شاعر الثوار والمتمردين.

وهذه الحيلة الماهرة أثارت غيظ «دوستويفسكي» وكان غاضباً ومستاءً من سماعه الهتافات الكاذبة والجنونية التي يستقبل بها كلام خصمه. لأنّ تورغينيف كان خصمه تماماً، في ذلك اليوم، كما كان في الماضي وبدا وكأن الاحتفال بتكريم «بوشكين» قد آل وتحول إلى مبارزة بين فكرتين، وبين رجلين. و «بوشكين» هو ذريعة لرهان المعركة، وللمجازفة بخوضها. وقد كتب «دوستويفسكي»: «لقد خفض «تورغينيف» من قيمة «بوشكين» ومن قدره، برفضه إعطائه لقب الشاعر القومي، أو الوطني» وأضاف، متحدثاً عن المعجبين بعدوّه:

«إنهم ليسوا سوى مصفقين مأجورين، أما المعجبون بي فمتحمسون حقيقيون». ويواسي نفسه، في المساء، بإلقائه كلمة، لاقت استحساناً كبيراً وقوبلت بتصفيق حادّ، تحدث فيها عن رأيه الخاص بـ «بوشكين» ولكنه، في اليوم التالي، إنما كان ينوي الانتقام، ويأخذ ثأره الحقيقي.

وكانت الجلسة الثانية قد حدّد موعدها في الثامن من حزيران (يونيو) وكان على «اسكاكوف» أن يلقي خطابه قبل «فيدور ميخائيلوفيتش»، ولكن، بعد تغيير مفاجئ طرأ على البرنامج، فقد كان «دوستويفسكي» هو الذي ألقى خطابه، أولاً.

كانت القاعة تغص بالمدعوين، والجو حار. وبعد انقضاء فترة الحماسة، الأولى، تبين أنّ معظم مستمعي جلسة الأمس قد اعترفوا أنّ «تورغينيف» بدا في خطابه، متحفظاً بعض الشيء حيال الشاعر. فماذا

سيقول «دوستويفسكي»؟ هل سيستطيع أن يشرح ويفسر مغزى وقيمة «بوشكين» الحقيقيين؟

أخذت الدقائق تمرّ، والمنصة خالية، ولكن ها هو «دوستويفسكي» يبدو فجأة، أنه هناك على تلك المنصة الكبيرة، مقابل الجمهور الذي يصفق ويهتف له. ووجهه الداكن، المغضن، الذي تبدو عليه أمارات التعب، ينحني شكراً للتصفيق ولهتافات التأييد التي توجه له. وكان جسمه الصغير والنحيل، يبدو وكأنه يعتمد على دعم ملابسه كي يستطيع التماسك والوقوف على قدميه. كان يمسك أوراق محاضرته بيديه الكبيرتين وأصابعه النحيلة. وأخذ ينتظر.

ولأن الهتافات ظلت مستمرة، فقد بدرت منه إشارة عفوية يطلب بها الصمت والهدوء، وحيا جمهور المستمعين، ومر بيده على لحيته الشقراء.

وجاء، فيما كتبه لزوجته، بهذه المناسبة:

«ما هي نجاحاتي في «سان بطرسبورغ»؟ لا شيء! صفر بالمقارنة مع النجاحات التي حققتها هنا الآن».

وأخيراً، صمت الجمهور. وبدأ «دوستويفسكي» بإلقاء خطابه، بصوت خافت ولاهث، ولكنه أخذ يقوى ويرتفع شيئاً فشيئاً، حتى شمل القاعة كلها وهيمن عليها. وهذا الرجل المريض، هذا الرجل العجوز المتعب، أين وجد الطاقة والقدرة كي يتكلم بصوت عالٍ، ويصيح هكذا، من أعلى تلك المنصة؟ فأيّ قوة مدهشة حلت بهذا الجسم وأثارت حميّته، وأشعلت تلك النظرة، وألهمته ذلك الكلام؟ وهو لم يتجنب، كما فعل «تورغينيف» مشكلة «بوشكين» الأساسية.

ماذا يعتبر «بوشكين»؟ «بوشكين هو التجسيد للروح الوطنية، مع كفاءته العجيبة والخارقة للعادة لفهمه وتمثله لعبقرية الشعوب الأخرى. و «بوشكين» هو روسيا بكل ما فيها من الصفات والمظاهر الأكثر عالمية

وشمولاً. فإيطاليو «شكسبير» يتكلمون كالإنكليز. ولكن «بوشكين» من جهته، أليس إسبانياً في عمله: «دون جوان» وإنكليزياً في «وليمة أثناء وباء الطاعون» وألمانيا في: «نبذة أو مقطع، من فوست» وعربياً في «محاكاة القرآن الكريم، واستلهامه» وروسياً في «بوريس غودونوف»؟

نعم، إنه كل هذا، ولأنه كل هذا ولأنه يعرف ويستطيع أن يكون كل هذا، فهو روسي.

وللمرة العاشرة، يعود «دوستويفسكي» إلى الموضوع القديم الذي ناقشه، وتوسع في عرضه في رواياته وفي «صحيفة كاتب»: «إنّ مدلول الإنسان الروسي، هو بشكل جليّ وواضح، أورُبي وعالمي. وأن يكون المرء، روسياً حقيقاً، روسيا تماماً، فهذا يعني فقط (واحفظوا هذا جيداً وتذكروه) إنه أخ لجميع بني البشر، يمثلهم جميعاً، أو يوحدهم كلهم في شخصه، إذا شئتم»!

فجميع شعوب «الغرب» القديمة، عزيزة على الشعب الروسي الفتيّ. والشعب الروسي الفتي سوف ينقذ تلك الشعوب القديمة، والعجوز، الذي تقدمت به السن، لأنه بفضل بساطته، بل بسذاجته المدهشة، التي تثير الإعجاب، يظل هو الملاذ الأخير للسيد المسيح. ولماذا لا نكون نحن الذين سنحتوي ونمتلك كلمة السيد المسيح، الأخيرة؟

وهذا الخطاب يبدو أقل أهمية بالحجج والبراهين التي يعرضها، منه في الانفعال الذي يظهره لدى قائله. فقد كتب لكي يلفظ ويقال، وليس لكي يقرأ. و «دوستويفسكي» يقوله بشكل مدهش وممتاز. وكل مرحلة من خطابه كانت تعقبها عاصفة مدوية من التصفيق والهتافات.

فإن تحدث عن «التاتيانا» لبوشكين وهي الفتاة الروسية تماماً وبامتياز تعالت صيحات الفرح من أفواه النساء. وإن أمر، مع «بوشكين»:

«تواضع وتذلل، أيها الرجل الفخور

وقبل كل شيء، حطم كبرياءك وغطرستك!

تواضع وتذلل، أيها الرجل الحقير الذي لا يساوي شيئاً

وقبل كل شيء، اعمل واتعب في الأرض التي تزرعها»!

أحنى الرجال رؤوسهم، مثلما يفعلون عند إصغائهم لموعظة دينية.

وشعر «دوستويفسكي» بالنشوة، لكون المستمعين قد فهموه وأعجبوا به، وإن جميع هؤلاء المجهولين ذوي الوجوه القلقة والمتلهفة يؤيدونه في كل ما يقوله، وإنه قد هيمن عليهم.

وقد جاء، فيما كتبه، بعد ذلك، إلى زوجته:

«كل ذلك بسبب رواية «الأخوة كرامازوف».

ووصل أخيراً إلى الجمل الأخيرة: «لقد مات «بوشكين» وهو في عز الشباب وعند تفتح قواه وازدهارها، وليس هنالك مجال للشك، في أنه حمل معه إلى القبر، سراً عظيماً، وها نحن، علينا الآن، أن نحاول اكتشاف ذلك السرّ، من دونه وبعد رحيله».

وتوقف، وبدا وجهه شاحباً، والعرق يسيل في تجاعيده، وعيناه أضناهما التعب. ونحو ذلك الجسم المنهك، تصاعد صراخ حاد وثاقب وأخذ الرجال والنساء، وقد وقفوا جميعهم، يصفقون، يصرخون، ويهتفون. وبعض الخصوم والأعداء أخذوا يتعانقون ويقسمون، بأنهم سيكونون أحسن حالاً، وسيتناسون الأحقاد القديمة. وكان الشباب يهتفون بصوت عالٍ: «النبي، النبي»!

وعلى الرغم من جهود المكلفين بالمحافظة على النظام، فقد صعد بعض المستمعين إلى المنصة، ووجد «دوستويفسكي» نفسه بينهم وهم يتدافعون حوله، فبدا منذهلاً، مضطرباً، وهو يرى موجة من الملابس والوجوه والأذرعة، تحيط به وتدفعه إلى اليسار وإلى اليمين، تنحني على قدميه، وتقبل يديه: «أنت نابغة وعبقري! بل أكثر من عبقري»! وتوالت

الهتافات خلال ما يقرب من نصف ساعة. وأخيراً قررت اللجنة المشرفة على النظام، تعليق الجلسة. ولكنّ الجمهور اقتحم مدخل الكواليس، وتراكض الطلاب وهم يصيحون ويهتفون. وسقط أحدهم وهو يبكي وينتحب، عند قدمي «دوستويفسكي» وبدا فاقد الوعي. و «تورغينيف» وقد ترغرغت الدموع في عينيه ضم خصمه بين ذراعيه وعانقه. وكان «أكساكوف» يتعتع ويتلعثم من شدة فرحته. وأعلن «توربيف» بصوت جهوري، أنّ «جمعية أصدقاء الأدب الروسي، قد انتخبت، بالإجماع، دوستويفسكي» عضواً فخرياً.

و «دوستويفسكي» الذي أنهكه الانفعال والتعب، كان يبتسم يبكي، يشد على الأيدي التي تمتد نحوه. وكانت ساقاه ترتجفان، وشعر بدوار خفيف ينتابه عبر تلك الرائحة والحرارة، وتزاحم الناس حوله، ولكن الاستبشار والحبور اللذين شعر بهما كانا يدعمانه ويقويان عزيمته.

واستؤنفت الجلسة بعد توقف استمر نحو ساعة. وصعد «أكساكوف» إلى المنصة وصرح بأنه لن يلقي خطابه: «إني لن أستطيع أن أتكلم بعد خطاب «فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي»، إذ إن كل ما كتبته ليس سوى قراءات وتعليقات ضعيفة على بعض موضوعات هذا الخطاب العبقري الذي استمعنا إليه».

وطغى على صوته دوي قومي من التصفيق والهتاف، وتابع بعد ذلك:

«في تقديري أن خطاب «فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي» يشكل حدثاً مهماً في آدابنا... ومعنى «بوشكين» ومدلوله الحقيقي، قد توضحا، ولم يعد هنالك مجال لمناقشة هذا الموضوع»...

وأراد «أكساكوف» أن يغادر المنصة، ولكن الجمهور احتج واعترض على ذلك، وأرغم الخطيب على إلقاء كلمته.

أثناء ذلك، أخذت السيدات تتشاور وتجمع النقود. بخفاء وسرية، وذهب منهن وفد إلى أقرب محل لبيع الزهور. وعند اختتام الجلسة، طلب الجمهور من «دوستويفسكي» أن يصعد إلى المنصة، وعندما بدا هناك، انطلقت نحو مئة امرأة نحوه، ورفعن وراء رأسه إكليلاً ضخماً من الغار، يحمل لافتة كتب عليها: «باسم المرأة الروسية التي أثنيت عليها وقلت عنها كثيراً من الكلام الجميل»، والمشاهدون، الذين وقفوا جميعهم، أخذوا يصفقون ويهتفون بحماسة شديدة، تجاوزت الحد المعقول. وأخذ بعضهم يتمخطون ويمسحون دموعهم، ويلوحون بقبعاتهم. أما «دوستويفسكي» فقد أغرورقت عيناه بالدموع.

وهكذا، فبفضله، لم يعد هنالك لا «سلافيون» ولا «غربيون»، ولا شيء، سوى «روس». وشعب بكامله، كان منقسماً فيما مضى، تآخى في الحب، وشعب بكامله أنقذ ونجا بفضل كلامه وبفضل إيمانه. «اعترفي، يا أنيت. إن هذا يستحق تحمل عناء البقاء هنا، إنه ضمانة المستقبل، وضمانة كل شيء، حتى لو أنني مت للتو..

وفي جلسة المساء، بدا «دوستويفسكي» متعباً، خائر القوى ومع ذلك فقد قرأ قصيدة لبوشكين، بعنوان: «النبي». وها هو. من جديد على المنصة، وقد بدا نحيلاً، ضامر الصدر، منكمش الجسم. ولكن أعجوبة الوحي تزوره مرة أخرى، فيقوى صوته، ويرتفع ثاقباً، مؤثراً، قوياً وحيوياً. وقد كتب عنه أحد المشاهدين، ما يلي: «كانت يده اليمنى ممدودة نحو الأسفل، كما لو أنه كان يريد أن يمتنع عن الحركة التي كانت تراوده وتطلب منه أن يقوم بها. ونبرة صوته كانت قوية إلى حد الصراخ».

وعندما لفظ المقطع الأخير من القصيدة، المؤلف من أربعة أبيات:

«انهض، أيها النبي! انظر. إصغ.

تشبع بإرادتي واقتنع بها،

و، بتجوالك عبر الأراضي والبحار،

أشعل بكلمتك الإلهية المقدسة قلوب البشر»!

هزت المجلس هتافات صاخبة. فقد كان «دوستويفسكي» بالحقيقة، هو النبي، بالنسبة لهؤلاء الناس المجهولين الذين يصغون له.

وعاد إلى غرفته في الفندق، منهكاً، يشعر بثقل في رأسه وبألم في عينيه. واستلقى على السرير، وحاول أن ينام، ولكن الإحساس الذي يكاد يكون جسدياً، بالسعادة الغامرة، الذي انتابه، منعه من النوم.

فنهض، ارتدى ملابسه، تناول إكليل الغار، الذي قدم له في النهار، وطلب عربة لتقله إلى تمثال «بوشكين».

كان الجو، في تلك الليلة، حاراً، والسماء صافية زرقاء، وليس هنالك نسمة ريح، والشوارع مقفرة. وعندما وصل «دوستويفسكي» إلى ساحة «سياسكايا» نزل من العربة وتقدم نحو التمثال، الذي كان منتصباً، عالياً وأسود، على قاعدته الغرانيتية. فأخذ «فيدور ميخائيلوفيتش» يتأمل ذلك الوجه البرونزي، وتلك العينين المنطفئتين اللتين تنظران إلى الأرض، ثم رفع الإكليل بصعوبة، ووضعه على قاعدة التمثال.

ووقف برهة، مستغرقاً بالتفكير، والتأمل، أمام معلمه، وأخذ يقدر ويقيس بفكره الطريق الذي سار فيه وقطعه، منذ ذلك اليوم، حيث كان طفلاً، وسمع بوفاة الشاعر، حتى الدقيقة الحالية، التي هو فيها أمام تمثال «بوشكين» ولكنه أصبح عجوزاً، وقد تقدمت به السن كثيراً: فقد بلغ التاسعة والخمسين، متعباً جداً، وقريباً جداً، هو نفسه من النهاية.

وأخذ يستعيد ذكرى غرف مشفى «ماري» الصغيرة، ويتصور منظر شجرات الزيزفون في قرية «داروفواي» والممرات الطويلة في مدرسة الهندسة العسكرية. ومخبأ «بيتراشيفسكي» والمعاقل المظلمة، وتلك الأعمدة الثلاثة المغروسة في الثلج أمام صف من الجنود. والرياح، البرد، وظلام الليل. سيبيريا..

و «سيميبالاتنسك».. الهروب نحو «زعييف» في عربة «فرانجيل».
وضحكات «بولين» الصاخبة. و «الروليت» وهي تدور وتدور. و «أنّا غريغوريفنا» وهي تبكي. وقبراً صغيراً في مقبرة نائية مجهولة.

مدناً وأصواتاً، عيوناً والمصباح الموجود على المكتب. ووجه أحد الأشخاص، المتجهم والفظ، من الذين يقرضون النقود مقابل الرهن. وضجيج أحد القطارات، وسماء روسيا، الشاحبة، التي تتقدم، تجذبه وتأسره. وضوضاء كصخب أمواج البحر، تتصاعد من جماهير غير مرئية: «أنت رجل نابغة، أنت أكثر من نابغة»! لقد ناضل وكافح كثيراً! وعانى وتألم كثيراً! وهذه الفرحة الكبرى بكون الناس قد فهموه، عرفها وشعر بها في وقت متأخر جداً! فهل سيتاح له الوقت لينعم ويتمتع بها كما يشتهي ويريد؟

ونهض. كان القمر ينير بهدوء أسطحة المنازل، وبلاط الشوارع، وأدار «دوستويفسكي» ظهره للتمثال، واتجه نحو العربة التي كانت تنتظره عند زاوية الساحة.

النهاية

بتاريخ ١٠ حزيران (يونيو) ١٨٨٠، غادر «فيدور ميخائيلوفيتش» موسكو، منتصراً. ولكن تلك الإقامة القصيرة فيها قد أرهقته أكثر من سنة من العمل، ومع ذلك فقد كان واثقاً من نفسه، مرتاحاً مسترخياً وسعيداً. إلا أنه لم ينخدع بشأن القيمة الحقيقية لتلك المعجزة التي حققها. وعند عودته إلى «ستاريّا روسيا»، كتب إلى صديقته الكونتيسة «تولستوي» وهي عمة الكاتب: «اطمئني، فعما قليل ستسمعين بما سيعلنه الجمهور من سخريات. فلن يغفروا لي ما قلته لا في الكنائس المختلفة ولا في الأوساط الأدبية المغلقة وبالفعل، فبعدا انقضاء موجة الحماسة الأولى، استعاد الأعداء رباطة جأشهم. ويخيل للمرء أنهم نقموا على الخطيب، كونه قد سحرهم وخلب لبهم.

وقد كتب «سالتيكوف» إلى «أوستروفسكي»: «لقد بدا واضحاً وبديهياً أنّ الماهر «تورغينيف»، و «دوستويفسكي» المجنون، قد استطاعا تحويل الاحتفال لمصلحتهما.

وظهرت في الصحف بعض المقالات المتحفظة بشأن «فيدور ميخائيلوفيتش» ؛ فقد كتب محرر اليوميات، في صحيفة «القضية»، ما يلي: «إن خطاب السيد «دوستويفسكي... يؤثر ويعمل عمله على الأعصاب، أكثر مما يؤثر على الذهن أو الذكاء» وكذلك: «إنّ بطل ذلك الكلام

العبثي وغير المعقول، هو صاحب الغاية منه، وهو السيد «دوستويفسكي» وليست هذه أول مرة يحشر فيها نفسه، متصوراً أنه رجل إعلامي. ولكي يكون من رجال الإعلام، فهو بحاجة للعلم وللمعرفة، وللتطور الثقافي والفكري، والاطلاع على مجريات وأحوال السياسة، وأخيراً، للحد الأدنى من مفاهيم ومبادئ الحسّ الاجتماعي».

ومما قراه الناس في صحيفة «مراسل أورُبا»: «ما هذا الكلام الفارغ وغير المعقول الذي ورد في ذلك الخطاب»؟! وكذلك: «سيكون مما نتمناه، ألاّ ينسى السيد «دوستويفسكي» في هذه المقبل، الحقائق والوقائع التاريخية الأولية، ومبادئ الحسّ السليم».

وبدا «دوستويفسكي» مضطرباً، ومستاءً للغاية من هذا التحول المفاجئ في الآراء، لدرجة أنه تعرض مباشرة، وعلى التوالي لنوبتين حادتين من الصرع، اضطر بعدهما إلى ملازمة السرير لمدة أسبوعين دون أن يقوم بأي عمل أو نشاط.

وبتاريخ ٢٦ أب (أغسطس) كتب إلى «و. ف. ميلّر»: «فيما يتعلق بخطابي الذي ألقيته في موسكو. أنت رأيت، كيف أثار عليّ الصحافة كلها: حتى ليعتقد المرء، أني ارتكبت سرقة، أو عملية احتيال، أو زورت بعض الأوراق النقدية. التي تصدرها الدولة، وقدمتها لأحد المصارف»...

وقرر أن يردّ على أكبر مهاجميه، وهو الأستاذ «غرادوفسكي» الذي نشرت مقالته: «الحلم والحقيقة الواقعية» في صحيفة «الصوت» ولكن ردّ «دوستويفسكي»، وخطابه في الاحتفال بتكريم «بوشكين» نشرا في العدد الوحيد من دورية: «صحيفة كاتب» الذي صدر سنة ١٨٨٠، ولم ينشرا في أيّ صحيفة أخرى.

وهذا العدد الوحيد لاقى إقبالاً منقطع النظير، من قبل القراء، ورواجاً لم يسبق له مثيل، فقد بيع ما يزيد على ستة آلاف عدد في بضعة

أيام، ولذلك جرى التحضير لطبعة ثانية وستباع جميع أعدادها، أثناء فصل الخريف.

وطمأن «دوستويفسكي» وهدأ من قلقه إقبال القراء على اقتناء عمله ومطالعته. وأخذ يفكر ويحضر لإنجاز رواية «الأخوة كرامازوف»، التي لم يكن قد كتب جزءها الرابع.

وقد كتب ما يلي:

من ١٥ حزيران (يونيو) وحتى الأول من تشرين الأول (أكتوبر) كتبت عشرين صفحة من روايتي، ونشرت «صحيفة كاتب».

وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) أرسل خاتمة رواية «الأخوة كرامازوف» إلى رئاسة تحرير صحيفة «الساعي الروسي»، مع هذه الكلمة: «ها هي روايتي قد انتهت إذن، لقد اشتغلت بها ثلاث سنوات، ونشرتها خلال سنتين. وهذه لحظة مهمة بالنسبة لي». كان قد استقر في «سان بطرسبورغ» منذ مطلع فصل الشتاء، وأخذ يزور أصدقاءه، ويشارك في بعض القراءات.

وقد كتب «شتاكنشنيدر»: قدمت اليوم «الخزينة الأدبية» قراءة في قاعة سيئة الإضاءة، تصعب القراءة فيها، وحيث لا يستطيع جميع الحاضرين، سماع القارئ، إيه! أما «دوستويفسكي» المريض، وعلى الرغم من كون حنجرته متعبة، ويشكو من انتفاخ في الرئتين، فقد كان صوته مسموعاً أكثر وبشكل أوضح وأفضل من الآخرين. فيا لها من أعجوبة! يبدو أنه لم يعد هنالك روح في ذلك الجسد، إنه نحيل جداً، صدره ضامر وصوته خافت هامس، ولكنه لم يكد يبدأ الكلام حتى بدا وكأنه قد كبر جسمه وازداد نشاطه. فمن أين تأتيه هذه القوة، وهذه المقدرة»؟...

والحقيقة هي أنّ محبة الجمهور لدوستويفسكي وتعاطفه معه يبدو أنهما أفضل طب ودواء، بالنسبة له. وأهمل متابعة العلاج في «إيمس» لكي

ينصرف إلى العمل، إذ إنّ عدة مشاريع كانت تشغل باله: فهو ينوي إصدار دوريته: «صحيفة كاتب» خلال سنتين، على أن يبدأ بعد ذلك، الجزء الثاني من رواية «الأخوة كرامازوف» وقد كتب إلى أمين تحرير صحيفة «الساعي الروسي»:

«اسمح لي بألا أودعك، فأنت تعلم جيداً أنّ لدي نيةً أكيدة بالعيش، وبالاستمرار بالكتابة عشرين سنة أخرى».

ومنذ مطلع شهر كانون الثاني (يناير) ١٨٨١، باشر «دوستويفسكي» بتحرير العدد الأول، في تلك السنة، من «صحيفة كاتب». وكان يبدو بصحة جيدة، وأخذ يرافق أصدقاءه ويتبادل الزيارات معهم. حتى أنه وافق على القيام بدور الناسك في مسرحية: «موت إيفان الرهيب» لتلستوي، عند عرضها في اجتماع فني، تقرر أن ينعقد في شهر شباط (فبراير). ووافق أيضاً على أن يقوم بقراءة إحدى القصائد، بمناسبة ذكرى وفاة «بوشكين»، في ٢٩ كانون الثاني (يناير). غير أنّ حادثاً بسيطاً، قبل هذا الموعد ببضعة أيام، أثار قلقه ومخاوفه.

ففي ليلة ٢٥ إلى ٢٦ كانون الثاني، بينما كان يعمل في مكتبه، وقع قلمه على الأرض وتدحرج تحت الخزانة. فنهض «دوستويفسكي» وحاول زحزحة الخزانة ليعثر على القلم، ولكنه عند أول جهد بذله، شعر بسائل حار يصعد إلى فمه. فمسح شفتيه: إنه دم، ومع ذلك فقد كان النزيف ضعيفاً جداً، لدرجة أنه لم يعره أي اهتمام، حتى أنه لم يفكر بإيقاظ زوجته.

وفي اليوم التالي شعر أنه معافى ونشيط تماماً، وكان ينتظر أخته «فيرا» على العشاء، وكانت قد وصلت قبل بضعة أيام إلى «سان بطرسبورغ». وقد وعد نفسه بأن يستعيد معها ذكريات طفولتهما في موسكو وفي «دارو فوايي»، وبالفعل، فقد بدأ العشاء في جو مرح، وأخذ

«دوستويفسكي» يتحدث عن ألعاب الأطفال في مشفى «ماري» والاستعدادات المحمومة من أجل الذهاب لقضاء العطلة الصيفية، وعن المناقشات الأدبية مع «ميشيل». كان مسروراً، ويضحك من المزحات والنكات التي يلقيها هو.

وأثناء ذلك، كانت «العمة فيريا» تبدو منزعجة من تلك الأحاديث كانت أخواتها قد أوفدنها من موسكو لمناقشة قضية تتعلق بالميراث، مع أخيها، والموضوع يتعلق بميراث وتركة «كومانين» التي أحدثت تصفيتها خلافاً وانشقاقاً بين أفراد العائلة، وكانت في عجلة من أمرها للتطرق لهذا الموضوع ومناقشته. فقاطعت «دوستويفسكي» لكي تتكلم هي، بدورها. ولأن هذا الهمّ يشغل بالها، فقد تحمست، وطالبت بحصتها من الميراث، واتهمت «دوستويفسكي» بمعاملة أخواته «بقسوة» وأخذت تبكي وتنتحب، بعد ذلك.

و «دوستويفسكي» وقد نفد صبره، غادر غرفة الطعام ولجأ إلى مكتبه، بينما قامت «أنا غريغوريفنا» بتوديع «فيرا» ورافقتها إلى الباب الخارجي.

وجلس «دوستويفسكي» إلى منضدة عمله، ضاماً رأسه بين راحتيه، كان لا يزال يسمع وشوشات المرأتين في الرواق، وقد استولى عليه قرف وسأم شديدان: هذه الأمسية التي أفسدت، وهذه الدموع والتأنيب والاتهام واللوم، من أجل بعض النقود!...

وفجأة، شعر بسائل حار أخذ يجري على يديه، ألقى نظرة عليهما، كان الدم يغطيهما، فمدّ إصبعه إلى فمه إلى شاربه، شعر بأنهما رطبان ولزجان. فأرسل صرخة، فركضت «أنا غريغوريفنا» مسرعة، وجدته واقفاً، شاحب الوجه، ولحيته ملطخة بالدم.

«طبيب، بسرعة»!

ولكن حتى قبل وصول الطبيب، كان النزيف قد توقف. وغسل «دوستويفسكي» يديه ووجهه، ونادى الأولاد لكي يريهم الصور والرسوم المنشورة في مجلة هزلية.

وعندما أتى الطبيب، شاهد رجلاً هادئاً، يبتسم له ويرجوه أن يفحصه بعناية، وحسب. ولكن أثناء الفحص، حصل نزيف آخر وفقد «دوستويفسكي» الوعي. وعندما عاد إليه وعيه، تمتم، قائلاً: «أنّا، أرجوك، أرسلي في طلب كاهن، على الفور، أريد أن أعترف، وأن أتناول القربان المقدس.

وبعد الاعتراف وتناول القربان المقدس، بدت حالة المريض وكأنها قد تحسنت. وبارك زوجته وأولاده، ثم استلقى بهدوء على الأريكة في المكتب، واستغرق في النوم، وإلى قربه زوجته والدكتور «فون بريتزيل».

وفي غضون ذلك، تم استدعاء الأستاذ «كوشلاكوف» والدكتور «بفيفير». وضآلة كمية الدم التي فقدها «فيدور ميخائيلوفيتش» طمأنتهما، وقالا: «إنه سيشفى» واليوم التالي، بدت الحال أفضل مما كانت عليه: فقد استيقظ «دوستويفسكي» نشيطاً وفي حالة حسنة. وطلب «بروفات» طباعة «صحيفة كاتب» وناقش زوجته في موضوع نقلها على صفحات وترتيب صفحاتها.

ولأنّ خبر مرضه قد انتشر في المدينة، فقد أسرع أصدقاؤه لعيادته. وكان من الضروري ربط جرس الباب، لأن رنينه المتواصل، أخذ يزعج «فيدور ميخائيلوفيتش» ويثير أعصابه.

وطلبت «أنّا غريغورفنا» من مستأجري الطابق العلوي ألاّ يمشوا بأحذيتهم، في المنزل.

وأكل «دوستويفسكي» قليلاً من «الكافيار» وشرب كأساً من الحليب وأخذ يتمتم: «أفكّر بالأولاد، وبمستقبلهم، عندما يصبحون كباراً».

وفي ليلة ٢٧ إلى ٢٨ ، أيقظ زوجته، كان مصباح صغير فقط ينير الغرفة.

«إيه حسناً، ماذا هنالك، كيف حالك، وبماذا تشعر يا عزيزي؟

فتمتم بصوت خافت:

- أتعلمين، يا أنيت، أني منذ ثلاث ساعات مستيقظ ولا أستطيع النوم، ولا أكف عن التفكير، ولكن أصبح من الواضح الآن، بالنسبة لي، أني سأموت اليوم.

- يا عزيزي، لماذا تفكّر هكذا؟ لقد تحسنت صحتك الآن، ولم يعد يحدث معك نزيف. فقد حدث على الأرجح تخثر، كما قال الدكتور الأستاذ «كوشلاكوف» وهو «كالسدادة» يمنع النزيف فحباً بالله، لا تعذب نفسك، بالأوهام والشكوك، فستشفى وتعيش إني أؤكد لك ذلك!

- كلا، أنا أعرف ماذا بي وماذا هنالك، ولا بد من أن أموت اليوم، أشعلي شمعة يا أنيت، وأعطني الإنجيل».

كان «دوستويفسكي» في معظم الأحيان، عندما لا يتوصل لاتخاذ قرار ما يفتح بالمصادفة وكيفما اتفق كتاب التوراة القديم الذي كان معه في السجن، ويقرأ الأسطر الأولى التي يقع نظره عليها. وهذه المرة أيضاً، فقد تناول الكتاب الضخم، بغلافه المصنوع من الجلد الأسود، فتحه وناوله لزوجته:

«اقرئي».

فأعلنت «أنا غريغويفنا»، قائلة:

- هذا إنجيل القديس «متّى» «Matthieu»، الفصل الثالث، الفقرة ١٤» وأخذت تقرأ:

«أنا الذي يجب أن أعمد من قبلك، وأنت تأتي إليّ. فأجابه يسوع: «لا تمسك بي وتحتجزني في هذه الساعة، لأننا هكذا يجب علينا أن نقيم تماماً العدالة في كل مجال».

فابتسم «فيدور ميخائيلوفيتش» وقال:

«أتسمعين: «لا تمسك بي وتحتجزني» هذا يعني أني سأموت».

فأخذت «أنّا غريغوريفنا» تبكي، والدموع تنهمر من عينيها، فحاول أن يهدئها ويواسيها، بكل لطف ومودة، ثم استغرق في النوم، وهو لا يزال يمسك بيده يد زوجته.

واستيقظ، نحو الساعة الحادية عشرة صباحاً، ورفع رأسه قليلاً عن الوسادة، وحصل له، عند ذلك نزيف خفيف وسريع:

«عزيزتي المسكينة، كم من الهموم أترك لك، وأنا أفارقك... وكم ستكون صعبه معيشتك في هذه الحياة»!...

ونادى أولاده لكي يعطيهم نصائحه وتوصياته الأخيرة»:

«ليكن لديكم ثقة مطلقة بالله، ولا تيأسوا أبداً من رحمته وعفوه. أنا أحبكم كثيراً، ولكن حبي ليس شيئاً يذكر بجانب الحب العظيم الذي يكنه الله لبني البشر، وهم خليقته».

وقبلهم، ومنحهم بركته، وناول كتاب «توراته» إلى ابنه «فيديا».

وأثناء ذلك، كانت قوى «دوستويفسكي» تضعف بسرعة. وعند المساء، نهض عن أريكته، ولكنه من جديد، بدا وكأنه يكاد يختنق وسال خيط من الدم من بين شفتيه على قميصه. فأعطته «أنّا غريغوريفنا» بعض قطع الثلج ليمتصها. ولكنّ النزيف لم يتوقف، فأرسلت من يستدعي الطبيب. بينما كان «دوستويفسكي» يغمغم بجمل غير مترابطة، ويصعب فهمها، وكانت زوجته تسجلها على قطعة من الورق: «لقد دمرتكم بمرضي... اشطبي ما تجدينه غير مناسب ولا فائدة منه... ماذا يقولون عني؟... النهاية، إنها النهاية، وعما قليل سأغوص، سأدفن، وأغيب»...

وسقط ثانية، دون وعي، على وسادته. وقد جثت زوجته وجثا أولاده حوله، وهم يبكون وينتحبون. وكان بعض الأصدقاء والأقارب

ينتظرون آخر أخبار المريض. وبدأت برقيات التعاطف والمودة، ترد من جميع الجهات.

وعند الساعة السابعة مساءً، دعي الزائرون للدخول إلى الغرفة، التي كانت معتمة. وقنديل السهر ينير قليلاً الجانب الداخلي في ذلك الكهف الذي يخيم فيه الظلام والصمت. كان «دوستويفسكي» ممدداً على الأريكة، مرتدياً جميع ملابسه، ورأسه ملقى على الوسائد.

ولم يكن يرى سوى وجهه الأبيض والجاف، الذي كان يبدو كقناع من الورق. وعلى لحيته بدت بقعة حمراء بعض الشيء. وجفون عينيه المطبقة، تلتقي تماماً عند قمة الحدقتين.

وكانت قرقرة غريبة تخرج من بين شفتيه. وتنفسه كان يتوقف ثم يعود ويعمل، لاهثاً كالصفير ومضغوطاً. وبدا وكأنه يحاول أن يتكلم، ولكن لم يعد أحد يفهم كلامه.

ووصل الطبيب عند الساعة الثامنة مساء، ولم يستطع أن يلتقط سوى دقات قلب المريض الأخيرة. ولفظ «فيدور ميخائيلوفيتش» النفس الأخير، الساعة الثامنة وستة وثلاثين دقيقة، دون أن يستردّ وعيه.

والجثمان، بعد أن غسل وألبس ملابس أخرى جديدة، مُدّد على المنضدة، بانتظار إحضار التابوت. وغطي المتوفى حتى الزنار بغطاء مذهب أحضر من الكنيسة المجاورة للمنزل.

وكانت يداه المنضمتان على صدره تسندان إيقونة. وفي إحدى زوايا الغرفة، يشتعل قنديل صغير. وقد انتشرت في جو الغرفة رائحة البخور والشمع والكولونيا. وجلس رسام بجانب المتوفى. وأخذ يرسمه.

وأثناء ذلك كانت الخدمات الدينية تتوالى. والوفود تصل تباعاً يرافقها كاهن مرشد وجوقة من المرتلين، وتطلب السماح لها بإقامة صلاة جنائزية على روح المتوفى. وكان من بين تلك الوفود ممثلو الطلاب. وممثلو

تلاميذ البحرية... والكاهن يقرأ الصلوات والحاضرون ينشدون سوية ويردّدون التراتيل.

كان الجو حاراً، والهواء ثقيلاً جداً، لدرجة أنّ شعلة (المصباح الصغير) كانت تنطفئ أحياناً. وقد تكدست في الغرفة الأكاليل الجنائزية، وباقات الزهور وطاقات الرياحين والأغصان الخضراء التي تزينها اللافتات. وأخذ بعض المعجبين يقبلون يدي الجثمان، ويتوسلون إلى الأولاد لإعطائهم زهرة يحتفظون بها كذكرى لأبيهم.

وكانت «أنا غريغوريفنا» تنتقل من غرفة إلى أخرى شاردة الذهن، كالمجنونة. فهي متضايقة وتشعر بالألم بسبب تلك الحشود من الغرباء، الذين يستمر تدفقهم على منزلها، ويمرون من أمام زوجها. وكان بعضهم يأتون عن طريق الدرج الرئيسي، والبعض الآخر يأتون عن طريق درج الخدمة المنزلية. وكانت حشود الزائرين تلتقي ثم تنقسم تفترق أمام النعش، فمن هم، هؤلاء المجهولون؟ ولماذا لا يطردون؟ وكان يخيل لأنّا غريغوريفنا أنّ كل هؤلاء الناس يشكلون حائلاً بينها وبين «فيدور ميخائيلوفيتش» ويتدخلون بينهما وأنه لم يعد ذلك الرجل الذي تحبه وتعزه، والذي كان نزقاً غضوباً، عاطفياً، سخيفاً ومضحكاً، مريضاً عطوفاً، حنوناً ومحباً. فهو لم يعد يخصها. فقد أخذوه منها، وأصبح ملكاً يخص الجماهير.

وفي منزل «آل دوستويفسكي» الصغير، مرّ ممثل وزير الداخلية والدوق الأكبر (ديمتري كونستانتينوفيتش» وبعض العلماء، وكثير من الطلاب ومن السيدات النادبات الباكيات.

وقدم السيد «ن. س. أبازا» إلى «أنّا غريغوريفنا» رسالة من وزير المالية، ذكر فيها أن الإمبراطور قد خصص لأرملة وأبناء الكاتب الكبير راتباً قدره ألفا روبل. وهذا الخبر أفرح «انّا غريغوريفنا» كثيراً، لدرجة أنها اندفعت بسرعة إلى المكتب لتبلغه لزوجها. وقد كتبت، فيما بعد.

«ولم أتذكر، أنه لم يعد في هذا العالم، وأنه قد رحل عنه، إلا عندما عدت إلى الغرفة، التي كان جثمانه مسجى فيها، فأخذت أبكي بمرارة وحزن».

وفي غضون ذلك، اقترح رهبان دير القديسة «لوردا اليكسندر نويسكي» على «أنا غريغويفنا» أن يدفن «دوستويفسكي» في مقبرتهم الخاصة. وأكدوا لها أيضاً رغبتهم بأن يسددوا نفقات القداس الجنائزي الذي سيقام على شرف «الحارس الغيور للديانة الأرثوذكسية الحقيقية»، وتكريماً له».

وتذكرت «أنّا غريغوريفنا»، يوماً في الماضي البعيد، مزحت فيه مع «دوستويفسكي» في موضوع دفنه، وقالت له: «إني أفضل أن تدفن في دير «أليكسندر نويسكي» فأجابها ضاحكاً: «كنت أعتقد أنهم لا يدفنون فيه سوى الجنرالات، من قادة المشاة والخيالة.

- إيه، حسناً! ألست جنرالاً، وقائداً من قادة الأدب»؟

وشيع الجثمان يوم السبت، الواقع في ٣١ كانون الثاني (يناير) ومنذ الصباح الباكر، تجمع جمهور غفير وملأ الشارع المقابل للمنزل، وكان قد هيئت عربة جنائزية لنقل الجثمان إلى مثواه الأخير، ولكنّ المعجبين بدوستويفسكي استولوا على التابوت وحملوه على أكتافهم إلى الدير. وقد شارك في موكب التشييع ما يقرب من ثلاثين ألف شخص. وسار في موكب الجنازة اثنان وسبعون وفداً، يحملون أكاليلهم. وتبعتهم خمس عشرة جوقة من المنشدين، وهم ينشدون ويرددون التراتيل والترانيم الدينية. وكان هنالك إكليل مزدوج على شكل شريط من مختلف أنواع الزهور والغار والرياحين، يبلغ طوله نحو ستين متراً، يفصل الموكب عن بقية جمهور المشيعين.

وبعد ساعتين من السير، وصل أول الموكب إلى المكان الذي يقصده. ووضع النعش في وسط كنيسة «الروح القدس».

وفي اليوم التالي، الأول من شباط (فبراير) سنة ١٨٨١ تدفق على دير «اليكسندر نويسكي» جمهور من الأصدقاء، ومن الفضوليين. فاضطر رجال الشرطة لإغلاق الأبواب. وبالكاد استطاعت «أنّا غريغوريفنا» الدخول إلى الكنيسة: «لقد أجبتهم أني الأرملة وأنّ هذه التي ترافقني هي ابنتي. فلم يكتموا عني أنّ عدداً معيناً من أرامل «دوستويفسكي» سبق لهن أن حضرن إلى الكنيسة، بعضهن أتين لوحدهن، والبعض الآخر، مع أولادهن».

ووصلت «أنّا غريغوريفنا» أخيراً إلى مكانها. وبدأت عند ذلك الإجراءات والطقوس الدينية. والنعش الذي كان موضوعاً على منصة عالية في وسط جناح الكنيسة، اختفى تحت أكاليل الزهور. وكان أحد رؤساء الأساقفة يشرف على تنفيذ ومراعاة الطقوس والشعائر الدينية المسيحية. وكان رئيس الأكاديمية الكنسية وممثل «الأرشمندريت» «سيميون» يشهدان التبريكات النهائية. وقبل صلاة الجنازة والغفران العلني العام، ألقى الأسقف «يانيشيف» موعظة أشاد فيها بمناقب «دوستويفسكي» المسيحية.

وبعد الاحتفال الجنائزي، رفع نعش «فيدور ميخائيلوفيتش، من جديد وحمله المعجبون به إلى خارج الكنيسة.

كانت المقبرة مدفونة تحت الثلج، وأغصان الأشجار تنحني تحت حملها الثقيل الأبيض. وجميع الأصوات بدت وكأن البرد القارس قد لطفها وخفف من حدتها.

وكان بعض الفضوليين قد وقفوا في أعلى المباني وعلى أسطحة المنازل، ونزعوا قبعاتهم عند اقتراب موكب الجنازة.

والقبر الذي خصص لدوستويفسكي يقع بجانب قبر «جوكوفسكي». وأمام القبر المفتوح، ألقى الكتاب: «يا لم»، «ميلير»، غاييدوبوروف» و «سولوفيوف» مراثيهم، وخطاباتهم التأبينية:

ومما قاله «سولوفيوف» في خطابه:

«لقد آمن بالقوة اللانهائية والإلهية التي تتمتع به الروح الإنسانية التي تنتصر وتتغلب على أي عنف خارجي، وعلى أي ضعف أو انحطاط داخلي... ونحن وقد اجتمعنا على محبته ومن أجلها، فلنحاول أن نجعل حباً كهذا يربط ويصل فيما بيننا جميعاً، لأننا، عند ذلك فقط نكون قد أدينا ما علينا وبرأنا أنفسنا- بالنسبة لأعماله العظيمة، ولمعاناته، وآلامه الشديدة والقاسية- «حيال الدليل، والمرشد الروحاني لروسيا».

وأخذ بعض المجهولين يلقون الزهور على النعش. وكان القبر أضيق من أن يتسع لتلك «الغابة» من الأوراق والأزهار.

وانتزع معجب مجهول ومتخفٍ، بسرعة بعض أغصان الغار وخبأها تحت معطفه. كان الجو بارداً. وحان وقت المساء. وعند الساعة الرابعة بعد الظهر، غادرت «أنا غريغوريفنا» المقبرة، خائرة القوى وقد أنهكها التعب والجوع. ولكن بين الصلبان، كان لا يزال أشخاص، كالأشباح السوداء، يتجولون، وقد رفعوا ياقاتهم، وبدت وجوهم على شاكلة تلك الشخصيات الباهتة والضعيفة التي وصفها «دوستويفسكي» في كتبه

وهم أيضاً، سينصرفون عما قليل، وستغلق الحواجز والأبواب، وهناك، في آخر الممشى، ستضاء نوافذ الحارس.

عند ذلك ستبدأ حياة «فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي» خارج الزمان وخارج المكان، ولكن في قلوب الذين أحبوه.

بعد الموت

منذ أن توفى «دوستويفسكي» كانت «أنا غريغوريفنا» تذهب كل يوم، مع أولادها إلى المقبرة، وعندما تعود إلى المنزل، مقرورة من شدة البرد تجد في الصالون زواراً غرباء، لا تعرف كيف تتخلص منهم. كان هنالك، بينهم شماس ثرثار، يشيد بلهجة جادّة ومقنعة بمناقب «فيدور ميخائيلوفيتش» المسيحية، ولم ينصرف إلا بعد أن وضعت له في يده قطعة ذهبية من النقود. وكانت هنالك عجوز مجنونة، عرضت أن تترك مليوناً لأولاد الكاتب المشهور، إذا وافقت «أنا غريغوريفنا» على مساعدتها، للحصول على حصتها، من ميراث كبير. وكان هنالك شخص متواضع ذو وجه لطيف، وأسلوب مرن ينم عن الكياسة والمجاملة، أخذ ينصح الأرملة الشابة بأن تتزوج مرة أخرى، وقال لها:

«لقد أحدثت انطباعاً حسناً ومهماً لدى شاب يتمتع بمظهر جيد».

وكان هنالك ناشرون يحاولون الحصول على حق إعادة نشر أعمال «دوستويفسكي» الكاملة. وكان هنالك أيضاً الأستاذ «فاغنر»، من جامعة «سان بطرسبورغ»، وهو عالم روحاني معروف، أتى يطلب من «أنا غريغوريفنا» الإذن باستدعاء روح زوجها. فمنعته، بصريح العبارة، أن يفعل ذلك. ولكنها، في تلك الليلة نفسها، رأت «فيدور ميخائيلوفيتش» في منامها، وصاحت عندما استيقظت: «يا الهي! ماذا حصل؟ ماذا رأيت، في

الحال؟ لقد رأيته، هو»... وفي تلك اللحظة، جلست ابنتها في سريرها، الذي كان بالقرب من سرير أمها، وتمتمت: «ماما، لقد رأيت، قبل قليل، أبي في الحلم، كان يبدو وكأنه نهض من جهة ما، وبدا لي شاحب الوجه، تماماً»...

وكانت زيارات الناس الثقلاء والمزعجين، ومناقشات شؤون العمل، والصلوات اليومية، كل ذلك كان يجعل «أنّا غريغوريفنا» في حالة قصوى من التوتر العصبي. وكانت تشعر بأنها تكاد تفقد صوابها، وأنها، في بعض الأوقات، ستصاب بالجنون. وكانت تتصور أنّ زوجها لم يمت، وأن هنالك من يقتادها كل يوم إلى قبر شخص آخر، لكي يجعلها تقوم بالنزهة وحسب. وأنّ «فيدور ميخائيلوفيتش» لا يزال في مكتبه، وكانت تسمعه وهو يقلب أوراقه، ويمشي بخطواته الثقيلة والواسعة، بين المنضدة والخزانة.

أما الأشخاص الذين يقدمون لها تعازيهم، فلم يكونوا سوى بعض أطباء الأمراض العقلية، المكلفين بإرسالها لكي تحتجز، لبعض الوقت.

وفي الأول من آذار (مارس) عند عودة أنّا غريغويفنا» من المقبرة، وجدت في المنزل جنرالاً عجوزاً، كان يعرف «دوستويفسكي». ولم يكد يبدأ حديثه حتى أتت الخادمة مسرعة إلى الغرفة، وصاحت: «لقد قتل الإمبراطور»! فأصيبت «أنا غريغوريفنا» بنوبة عصبية، والجنرال العجوز، أغمي عليه وهو جالس على الأريكة.

وقد كتبت «أنا غريغوريفنا، بهذه المناسبة:

«لقد كان من الممكن أن يشفى زوجي، ويستعيد صحته، ولكن ذلك ما كان يمكن أن يدوم طويلاً، لأنّ الاعتداء الذي حصل في الأول من آذار (مارس) كان سيحدث لديه تأثيراً مدمراً، لأنه كان يحب القيصر، الذي حرر الفلاحين، حباً يقرب من العبادة».

لقد أيقظ موت «دوستويفسكي» ولع الجمهور وشغفه بمؤلف «الأخوة كرامازوف» وفي بضعة أيام، نفذ كل ما كان من كتبه في المكتبة. وأخذ الناشرون في «سان بطرسبورغ» وفي المناطق الأخرى، يطلبون من «أنّا غريغوريفنا» أن تأذن لهم بإعادة طباعة:

«ذكريات من منزل الأموات» و «صحيفة كاتب» ولكنها رفضت أن تأذن لهم بذلك، وقررت، بناء على نصيحة الوصي على أولادها، نائب عام «سان- سينود»، «يوبييد ونوستزيف» أن تقوم، هي بإعادة طباعة ونشر أعمال زوجها، الكاملة، وكان ينبغي أن تسبق هذه المجموعة من الكتب، لمحة عن حياة مؤلفها وعن ذكرياته، وقد عهد بذلك إلى الكاتبين: «ميلر» و «ستراخوف». وقد حقق هذا العمل نجاحاً باهراً، وبلغت أرباحه الصافية (٧٥٠٠٠) روبل.

والطبعة الثانية (بستة مجلدات) الرخيصة، نشرت سنة ١٨٨٦، وأخيراً، في سنة ١٨٩٣، حصل مدير صحيفة «النيفا»، مقابل (٧٥٠٠٠) روبلاً. على حق نشر روايات «دوستويفسكي» على شكل نشرات ملحقة مجانية، توزع مع أعداد صحيفته. فارتفع بسرعة عدد مشتركي «النيفا» من (٧٠٠٠٠) إلى (١٩٠٠٠٠). ولكن، خلال عدة سنوات أصبح من المستحيل التفكير، بإعادة طباعة ونشر أعمال «دوستويفسكي» مرة أخرى.

وفي سنة ١٨٨٣، افتتح معجبو «دوستويفسكي» اكتتاباً لإقامة نصب تذكاري للرجل العظيم. والنصب الذي اختير، بناءً على مسابقة أجريت لهذا الغرض، يزينه تمثال نصفي «لدوستويفسكي» رأت زوجته أنه لم يكن ناجحاً تماماً، وأنه أضخم مما ينبغي، ولكنه كان قد حظي بإعجاب اللجنة وبموافقتها.

والألفا روبل التي بقيت في الصندوق، بعد تنفيذ إشادة النصب التذكاري، حولت إلى سندات (أسهم)، ودخل هذه السندات أو الأسهم،

خـصص للإنفـاق علـى إحـدى المـدارس الـتي ينبغـي أن تحمـل اسـم «دوستويفسكي». وفي «ستاريا روسّا» أشيدت المؤسسة التعليمية الجديدة. وقبل أن يتولى إدارتها الأب «جان روميا نتزيف» الذي كان صديقاً حميماً «لفيدور ميخائيلوفيتش». وأخيراً في سنة ١٨٨٧، وضع الدوق الأكبر «فلاديمير أليكسندروفيتش» المدرسة تحت حمايته ورعايته.

وكانت «أنا غريغوريفنا» تغتنم أوقات الفراغ القليلة، بل النادرة، التي كانت تتركها لها قضايا وأعمال النشر، والمدرسة والتظاهرات الأدبية، وتستغل تلك الأوقات النادرة، لكي ترتب وتصنف الوثائق المتعلقة بحياة «فيدور ميخائيلوفيتش». وكانت رسائل الأصدقاء، والمسودات وتجارب الطباعة (البروفات) تتجاور في مصنفاتها، مع شرائط الأكاليل الجنائزية التي قدمت تكريماً لذكرى زوجها. وذات مساء، التقت في منزل إحدى رفيقاتها في المدرسة، بـ «سيزوف» محافظ متحف موسكو، التاريخي، فطلبت منه أن يمنحها ركناً في المتحف لكي تودع فيه ما جمعته من وثائق وصور وكتب تتعلق بذكرى زوجها. وبعد أسبوع، أبلغت الأرملة الشابة، أنه قد وضع تحت تصرفها ركناً خاصاً في مبنى المتحف. فأوصت «أنّا غريغورفنا» في «سان بطرسبورغ» على صنع خزانة خاصة، من خشب السنديان الصقيل والداكن اللون، التي كلف نقلها إلى موسكو (١٢٠٠) روبلاً.

ومنذ سنة ١٨٨٦، أخذت ترسل إلى المتحف الطرود والصناديق التي تحتوي الكثير من الكتب والصور والمخطوطات.

ومنذ ذلك الحين وصاعداً، لم يكن عليها أن تعيش إلاّ لكي تنظم وتثبت شهرة ومجد زوجها، بعد وفاته. وقد صرحت إلى «غروسمان»، سنة ١٩١٦، قائلة: «إني لا أعيش في القرن العشرين، بل في السبعينيات من القرن التاسع عشر. وأصدقائي هم أصدقاء «فيدور ميخائيلوفيتش»، وعالمي هو عالم معاصري «دوستويفسكي» الذين رحلوا، فأنا أعيش معهم»...

ويقول «غروسّمان»: «هذه المرأة ذات الشعر الذي وخطه الشيب، وتضمه طاقية خفيفة، وصاحبة الوجه الذي تنم سيماؤه عن السأم، ولكنه ساحر وجذاب، ذات العينين الصافيتين، البراقتين اللتين تنمان عن الذكاء، بالإضافة إلى ابتسامتها العذبة، أخذت تريني، كما تفعل ذلك لأي معجب بأعمال «دوستويفسكي» مخطوطات مذكراته، والذخائر الثمينة المخبأة في «محفوظاته» (أرشيفه) والرسائل العديدة التي وجهها لها زوجها».

نعم، لقد تخلت «أنا غريغوريفنا» عن كل نشاط حياتي وشخصي، وبكل روية وتصميم، لكي تكرّس نفسها وكل جهدها لإحياء شعائر وطقوس «دوستويفسكي»، فهي تريد أن تحمي «فيدور ميخائيلوفيتش» بعد موته، مثلما حمته خلال السنوات الأخيرة من حياته، وهي تريد أن تناضل في سبيله، وأن تفوز وتنتصر من أجله، وأن تهيئ له خلوداً هادئاً ورغداً. وكما فعلت فيما مضى حيال الدائنين ومضايقاتهم لزوجها. فقد أخذت تجابه بحزم مغتابيه الذين يشنعون عليه، وكاتبي سيرة حياته الذين لا يتحلون بالدقة والأمانة.

في سنة ١٨٩٨، حصلت سيدة نمساوية، هي السيدة «هوفمان» التي سبق لها أن كتبت عدّة دراسات عن «دوستويفسكي» باللغة الألمانية، بفضل توسط سفارة بلادها، في الموضوع، على إذن بمراجعة وثائق ومحفوظات (أرشيف) قضية «بيترافيشسكي»، الموجودة في ديوان الشعبة الثالثة. ولكنها لم يسمح لها بمراجعة تلك الوثائق وتفحصها إلا بحضور «أنا غريغوريفنا»، التي كانت هي الوحيدة التي سمح لها بأن تحصل على نسخ من تلك الوثائق. وكان على «أنا غريغوريفنا» أن تعود خمس مرات إلى ذلك الديوان لكي تنسخ الشهادات التي أدلى بها «دوستويفسكي» بكاملها. وفي اليوم الأخير، كانت السيدة «هوفمان» ترافقها. وعند خروجهما من الديوان

سلّمت «أنّا غريغوريفنا» المخطوطات للزائرة النمساوية، كي تستطيع ارتداء معطفها. وعندما طلبت من السيدة «هوفمان» أن تعيد لها الأوراق رفضت هذه إعادتها، وصرحت بأنها سترسل كل هذه الأوراق مساء ذلك اليوم نفسه، إلى ناشر أعمالها، في فيينا. فردت عليها «أنّا غريغوريفنا» أنه لا يجوز أن تنشر هذه الوثائق في الخارج مترجمة إلى لغة أجنبية، قبل أن تنشر بلغتها الأصلية، في روسيا. ولكنّ «النمساوية» كانت تتمسك بغنيمتها، وتشد عليها بيديها الاثنتين، وتتكلم بلهجة حادة وبصوت عال. وهذه الخناقة الفظة بين المرأتين حول موضوع يتعلق برجل متوفى، لم تنته إلا عندما هددت «أنّا غريغوريفنا» السيدة «هوفمان»، باستدعاء الشرطة لكي تلقي عليها القبض بتهمة السرقة. عند ذلك، خافت السيدة النمساوية، وأعادت لها أوراقها. فعملت «أنّا غريغوريفنا» طوال النهار حتى نسختها، وأرسلت، مساء ذلك اليوم نفسه، النسخة إلى «منافستها». ومع ذلك، فبفضل شهرة السيدة «هوفمان»، نشرت الترجمة الألمانية للوثائق، قبل أن تقرر الصحف الروسية نشر نصها الأصلي.

لم تكن السيدة «دوستويفسكي» تحب أولئك الذين يكتبون سير حياة الأشخاص المشهورين، ولا الذين يكتبون المذكرات و «يفبركونها» كما يحلو لهم. والعدد الكبير من «المذكرات» التي نشرها بعد وفاة «دوستويفسكي» الذين عرفوه قليلاً أو كثيراً، كان يثير غضب هذه السيدة التي تدعي أنها هي الوحيدة التي تعرفه جيداً، فالعاملون في الطباعة، ورفاقه في المدرسة، وأصدقاؤه وزملاؤه في المجال الأدبي، ورفاقه في سيبريا لم يصفوا ويصوروا في كتبهم وجه «دوستويفسكي» الحقيقي.

وكتبت «أنا غريغوريفنا» بهذا الخصوص، ما يلي:

«في كل مرة أقرأ في إحدى الصحف أنّ الشخص الفلاني قد تحدث في «مذكراته» عن زوجي، كان قلبي ينقبض، ويتبادر إلى ذهني:

«هنالك أيضاً بالتأكيد، بعض المبالغات والاختلاقات، أو ربما مجرد أقاويل، لا أساس لها من الصحة». ونادراً ما كنت أخطئ في تكهناتي... وكنت على الدوام تقريباً، أصاب بالذهول بسبب تلك اللهجة التي أصبحت دارجة، وتسود الحديث في المذكرات التي تكتب وتنشر عن «دوستويفسكي». فقد كان جميع من يكتبونها، يصورونه، كما لو أنهم يفعلون ذلك باتفاق مشترك فيما بينهم (وذلك، على الأرجح، لأنهم يقيمونه ويحكمون عليه، اعتماداً على أعماله) على أنه رجل كئيب، يبدو مرتبكاً في المجتمع وبين الناس، وأنه متكبر للغاية، ومصاب بجنون العظمة».

ولأن «أنّا غريغوريفنا» كانت شديدة الاهتمام بأن تترك للأجيال القادمة صورة مشرفة لزوجها، فقد ثارت على ذلك التصور المضطرب والخاطئ لدوستويفسكي. فهل كان قليل الكلام، علناً وبين الناس؟

فذلك لأنه يكون قد صعد لتوه على أحد الأدراج، وهو متعب، لا يستطيع التقاط أنفاسه، أكان يبدو صموتاً، قليل الكلام؟ ذلك لأنه كان مريضاً...

ولكن ماذا كانت تلك الملاحظات البسيطة وغير المؤذية، على المتوفى، بجانب الاتهام الرهيب، الذي سيوجهه له، «ستراخوف» الذي كان أول من كتب سيرة حياته؟

ففي سنة ١٨٨٣، وافق «ستراخوف» على كتابة «مذكراته» عن «فيدور ميخائيلوفيتش» لقاء أجر مرتفع جداً. وبتاريخ ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة نفسها، وجه إلى «تولستوي» رسالة تنم عن كراهيته الشديدة للمتوفى. وهذه الرسالة نشرتها سنة ١٩٣١، صحيفة «العالم المعاصر»، في عدد تشرين الأول (أكتوبر) ولم تعلم بها «أنّا غريغوريفنا» إلا بعد سنة، من ذلك التاريخ، عندما كانت ترتب وتصنف بعض قصاصات الصحف.

وهذا هو المحصل الأساسي لنص الرسالة:

«أكتب لك، يا صاحب القدر الرفيع، يا «ليف نيقولا يفيتش» رسالة صغيرة، وإن كان موضوعها مهماً جداً... فأنت قد تلقيت، بالتأكيد سيرة حياة «دوستويفسكي» (التي أطلب منك أن توليها الانتباه وحسن الالتفات). وأرجو أن تقول لي رأيك فيها. وأنا بهذه المناسبة، مهتم جداً بالاعتراف لك فطوال الوقت الذي كنت أكتبها فيه، كان عليّ أن أقاوم القرف الذي كان يتصاعد في داخلي، وحاولت أن أسحق هذا الإحساس السيئ وأن أتغلب عليه. ساعدني على إيجاد مخرج! فأنا لا أستطيع أن أعتبر «دوستويفسكي» رجلاً طيباً، ولا رجلاً سعيداً (والصفتان، بالواقع، يلتبس الأمر بينهما).

فقد كان شريراً، غيوراً وحسوداً، فاسداً. وأمضى كل حياته في انفعالات وإثارة وغضب، وهي صفات كان من الممكن أن تجعله يستحق الشفقة، وربما جعلته يبدو سخيفاً ومضحكاً، لو لم يكن شريراً وذكياً، إلى ذلك الحد... كانت تجذبه التصرفات والأعمال الوضيعة وكان يفتخر بذلك. وقد روى لي «فيسكوفاتوف» ذات يوم، أنه تباهى بكونه... في حمام مع فتاة صغيرة، أحضرتها له إحدى مربيات الأطفال... والشخصيات التي تشبهه أكثر من غيرها، هي شخصية بطل «مذكرات كتبت في سرداب» وشخصية «سفيدر غايلوف» في رواية: «الجريمة والعقاب» وشخصية «ستافروغين» في رواية: «الشياطين»... وكان بإمكاني أن أسجل وأصف هذا الجانب من طباع «دوستويفسكي». وقد تبدت لي عدة حالات أكثر عنفاً وتأثيراً من الحالة التي حدثتك عنها، والقصة، كان من الممكن أن تكون أكثر صحة ودقة بكثير من تلك التي رويتها لك.

ولكن، فلتدفن هذه الحقيقة»!

وكان هذا، هو جواب «تولستوي»: «تقول لي إنك تصالحت مع «تورغينيف». وأنا أحبه الآن، كثيراً. وهذا أمر غريب وطريف، ذلك لأنّ ليس له عيوب وأنه يقودك في الطريق الصحيح، ليس مثل بعض المخادعين الذين لا يقودونك إلى أي مكان، إن لم يكن إلى الحفر العميقة. و «تورغينيف» سوف يعيش إذن، بعد «دوستويفسكي» (ويبقى ذكره خالداً أكثر منه) وذلك لن يكون بسبب فنّه، ولكن لأنه ليس له عيوب».

وبتاريخ ١٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨٣ أجاب «ستراخوف» على رسالة «تولستوي»: «إنّ تصورك لدوستويفسكي قد أوضح لي بالحقيقة شخصيته، ولكني وجدت هذا التصور مراعياً ومجاملاً له أكثر مما ينبغي. فأي تحوّل مفاجئ يمكن أن نأمل من شخص، في الوقت الذي لا يمكن فيه لأي شيء أن يجتاز خطأ معيناً في روحه؟ وأقول: «أي شيء» بالمعنى الصحيح والدقيق للكلمة، وإنما هكذا، فهمت أنا روحه».

وقبل ذلك بعام (أي بتاريخ ٦ تشرين الأول «أكتوبر» ١٨٨٢)، كتب «تورغينيف» إلى سالتفكوف»، بخصوص «دوستويفسكي»، ما يلي:

لقد راعى «ميخائيلوفيتش» جيداً خط عمله، الأساسي والتزم به. وكان عليه أن يتذكر، إنه حصل في الأدب الفرنسي أن كان فيه وجه، يشبهه كثيراً، أي المركيز «دي ساد» المشهور جداً... وإذا فكرنا أن جميع الأساقفة الروس، أقاموا القداديس لـ «ساد» الخاص بنا، بل وقد ألقوا بعض العظات والخطب الأخلاقية عن الحب العالمي والشامل الذي يحظى به هذا الصديق للجنس البشري!...

فإلى أين نحن ذاهبون؟

وكان تصاعد هذا التهجم على «دوستويفسكي» الذي ينم عن الحسد، يثير غضب «أنا غريغورفنا». وكانت رسالة «ستراخوف» على الخصوص تزيد من حدة غضبها وغيظها. وقد صرحت بذلك إلى

«غروسمان» قائلة: «كنت كأني قد أصبت بالعمى» بسبب ذلك، من شدة استيائي وغضبي، فيا لها من افتراءات غير معقولة!... ولو أنّ «نيقولا نيقولا يفيتش» كان لا يزال على قيد الحياة، لكنت ذهبت إليه، على الرغم من تقدمي بالسن، وصفعته لأعاقبه على خسته ودناءته».

ألم يكن «ستراخوف» خلال أكثر من عشر سنوات، مساعداً «لدوستويفسكي» وصديقه والرجل الموثوق من قبله، الذي يعمل تحت حمايته، ولماذا لم يرفض أن يكتب سيرة حياته، طالما أنه يشعر «بالقرف» من متابعة عمله في كتابتها؟ وكيف استطاع أن يتهم «فيدور ميخائيلوفيتش» بالأنانية، في حين أنه ظل طوال حياته، يعاني من الفاقة والحرمان لكي يرسل المساعدات لعائلة أخيه «ميشيل»؟ وكيف استطاع أن يقول عن هذا الكاتب إنه شرير، مع أنه كان يساعد جميع الذين كانوا يراسلونه ويطلب لهم الدعم والتأييد من بعض الشخصيات المهمة وصاحبة النفوذ، من أمثال: «يوبييدونوستزيف» أو «فيشنيفرا داسكي»؟ أما حادثة الحمام، فهي ليست سوى خبر تافه رواه أحدهم لدوستويفسكي فأراد أن يستخدمه في رواية: «الشياطين». ولكنّ أصدقاءه نصحوه بألاّ يفعل ذلك، لأنه لن يغفر «النصير المرأة» «دوستويفسكي» بأن يقدم مربية أطفال كقوادة، تقدم أطفالها إلى أحد الفاسقين. والحقيقة، هي أنّ «ستراخوف» لم يكن سوى كاتب من النسق الثاني، حسود، دنيء، مكار وطفيلي، بل متآمر ودساس أيضاً. و «فيدور ميخائلوفيتش» كان قد عرفه جيداً ووصف شخصيته، عندما كتب عنه، سنة ١٨٧٥ ما يلي: «نعم، يا آنيت، إنه خريج مدرسة إكليريكية، سيئ جداً، ولا شيء أكثر من ذلك... وقد سبق له أن تخلّى عني، مرة، بعد فشل وانهيار صحيفة «العصر» ولم يعد إليّ إلا بعد نجاح روايتي: «الجريمة والعقاب».

على أنّ «آنّا غريغوريفنا» في دفاعها عن زوجها، قد تجاوزت الحد المعقول. فهي «تبسط» «دوستويفسكي» إلى أقصى حدّ وقد مرّ معنا أنه ينبغي التفكير بـ «أخلاقية» «دوستويفسكي» ومغزاه. «فدويستويفسكي» كان في آن معاً، خليقاً وقادراً على القيام بأعمال جيدة وعظيمة، وبأعمال شريرة وسيئة بسيطة وصغيرة، بتصرفات تنم عن إخلاص شديد، وعن شيء من الأنانية البسيطة وعن العواطف النبيلة وعن بعض العيوب الصغيرة، وكان هنالك الشر المغلوب والمسيطر عليه. وجرائم أبطاله، التي تتسم بالسادية، لم يرتكبها هو، ولكنه حلم بها، وقد ساورته وشغلت باله واستهوته، فتخلص منها في رواياته. وإذا كان قد استطاع أن يبدي ويبرهن على هذا القدر الكبير من العبقرية والنبوغ، فذلك لأنه كان يأوي في داخله، بل في قراره نفسه جميع عوامل الضعف وجميع عوامل الجمال لدى الإنسان. فقد كان الإنسان العالمي، ليس بالذكاء، بل بالقلب والعاطفة. فهو لم يستطع أن يتجسد ويتحقق في «ستافروغين» «الشيطان» ولا في «ميسشكين»، «القديس»، ذلك لأنه كان هذا وذاك، في آن معاً، وبوعي متساوٍ. وهذه الثنائية موجودة عبر كل أعماله. فهو يتأرجح بين عالم الفسق الحسي والجسدي، وعالم التخلي والزهد، الروحاني. ويتردد بين النظام القائم والنظام الجديد الذي يصعب تصوره ولا يدرك. وهو النفي نفسه، وبالذات «للاختيار» إذن، لا ينبغي أن يدهشنا كون هذا المؤيد والداعي المسيحي للسلام، يشيد بحرب المشرق، وكون هذا الحالم والمتخيل، المصاب بمرض الصرع، يملأ كتبه بالتفاصيل المادية والواقعية. و «دوستويفسكي» يزدوج، كأبطاله. وحالماً يقترح حلاً «لمشكلة الحياة». نستطيع أن نكون متأكدين أن هذا الحل ليس حله، ولا من إبداعه. وعمل «دوستويفسكي» بمجموعه ليس جواباً، بلْ سؤالاً. ونحن لم نعد أنفسنا بالذات، وكما كنّا بعد أن نكون قد قرأناه. لقد كنا نعتقد، سابقاً وفيما مضى، أننا مغروسون بقوة

في عالم قديم، يبلغ عمره آلاف السنين، قوانينه العلمية ومبادئه الأخلاقية، وتقاليده وعاداته الاجتماعية جميعها ثابتة ومقدسة. وفجأة، وإذ بهذا العالم، يهتز ويتأرجح، والأرض تنزاح تحت أقدامنا. وأكثر من هاوية. بل العديد منها يحيط بنا. و «دوستويفسكي» يوقظنا ويشدنا من نومنا المريح، فنستيقظ على حافة العدم. فأين أكاذيبنا المبرأة التي دفعنا ضريبتها، وهي أسلحتنا القديمة الموثوقة. وأين نحن بالذات؟ وماذا نحن، أنفسنا، بالذات. لقد جردنا من جميع القناعات التي كانت الفلسفة تزودنا بالكثير منها، منذ عصور التاريخ الأولى التي عرفتها الأرض، وماذا أعطي لنا، بالمقابل، بدلاً منها؟ لا شيء، لا شيء على وجه التقريب، سيقول البعض وسيجيب الآخرون: بل كل شيء. فقد أدخل «دوستويفسكي» مفهوم «المتعذر الحل» في الغيبية الروائية. وقدم لنا وزاد في معلوماتنا، لقد أغنانا ليس باليقين، ولكن بقلق لا ينتهي وهو لم يفرض علينا عقيدة جديدة. ولكنه دعانا للتذرع بالصبر الجميل والعظيم. إنه لم يعطنا موضوعاً للانتظار، ولكنه علمنا حب الانتظار والميل إليه: «آمن بأن الله يحبك بطريقة، لا تستطيع مطلقاً أن تتصورها».

ودعماً وتأييداً لهذه الحقيقة، ها هو قطيع كبير بكامله، من المخلوقات الغريبة الأشكال، ذات الوجوه النيرة والملابس الضبابية، يصعد ويتقدم نحونا: «راسكولنيكوف»، «ميسشكين»، «روغوجين»، وستافروغين»، «فيرسيلوف» الأخوة «كرامازوف»، هؤلاء المجرمون، هؤلاء الأبرياء، هؤلاء الفاسقون. إنهم، كلهم بجانبنا، وبالقرب منا، منتبهون، وقورون وجادون. ونعرف أنفسنا فيهم، ونعرف أنهم، من الآن فصاعداً، سيرافقوننا طوال مسيرة حياتنا، لاهثين بسبب عطشنا نحن، شاكين ومتأوهين من جوعنا نحن، وهم يدفعوننا بالمنكبين عندما نعتقد أننا وصلنا إلى الهدف، وبلغنا الغاية. وقد كتب «غوته»: «إنّ عدم الوصول الهدف، عدم بلوغ الغاية، يحقق لك العظمة».

و «دوستويفسكي» عظيم لأنه لم يصل إلى هدفه ولم يحقق غايته.

الفهـــرس

الجزء الأول

الفصل الأول: العائلــة ٩
الفصل الثاني: «داروفويّ» «Darovoï e» ٢٥
الفصل الثالث: الدروس الأولى الحداد الأول ٣٣
الفصل الرابع: قصر المهندسين ٤٥
الفصل الخامس: موت الأب ٦١
الفصل السادس: الموهبة ٦٩
الفصل السابع: «الناس الفقراء» ٨٣
الفصل الثامن: الصالونات ١٠١
الفصل التاسع: من «البديل» إلى «مؤجّرة الغرف المفروشة» ١١٥
الفصل العاشر: الانهيار ١٣١

الجزء الثاني

الفصل الأول: المؤامرة ١٤١
الفصل الثاني: السجن ١٥٩
الفصل الثالث: منصّة الإعدام ١٧١

من منشورات دار علاء الدين

- رفاق شقائق النعمان
 ....هنري تروي
- النبيلة الروسية
 ....هنري تروي
- مجد المهزومين
 ....هنري تروي
- سيدات سيبيريا
 ....هنري تروي
- صوفيا أو نهاية المعارك
 ....هنري تروي
- ابنة الكاتب
 ....هنري تروي
- الوشا
 ....هنري تروي
- تشيخوف حياته — أعماله
 ....هنري تروي
- ف. م. دوستوفسكي
 ....ليونيد غروسمان
- قصص من حياة دوستويفسكي
 ....فـ جيلزنياك
- الرواية التونسية حتى عام ١٩٨٥
 ....ن. لـ عصمانوف
- القصة القصيرة في سورية
 ....د. حسام الخطيب
- أبو القاسم الشابي ملامح الموت والحياة في شخصية الشابي وشعره
 ....جان طنوس
- الواقعية في الأدبين السوفيتي والعربي
 ....د. ماجد علاء الدين
- أدب الخيال العلمي
 ....محمد عزام
- بدر شاكر السياب وإيديث سيتويل
 ....د. نذير العظمة
- دراسات في المكتبة العربية التراثية
 ....عادل الفريجات
- دراسات نقدية من الأسطورة إلى القصة
 ....أحمد زياد محبك
- صفحات مجهولة من حياة تولستوي
 ....لـ لومونوف
- صوت الجوهر تأملات في الشعر والنقد
 ....د. نزار بريك هنيدي
- في الأدب والفن دراسات آراء أفكار
 ....د. شاكر الحاج مخلف
- في رحاب الجواهري
 ....صباح المندلاوي
- قراءة في أدب نزار قباني
 ....يحيى محمد الحلح
- ما الأدب المقارن
 ....مجموعة من المؤلفين
- عودة الإنسان
 ....ف. م. دستويفسكي
- أبو فراس الحمداني رحلة الحياة ومسيرة الموت مع مختارات شعرية
 ....د. منذر الحايك



Henri Troyat

كاتب ومؤلف روسي الأصل كان يسمى (ليف تاراسوف) ولد في موسكو عام ١٩١١ ، وهاجر مع أسرته إلى فرنسا في عام ١٩١٨ ، نال شهادة الإجازة في الحقوق وبدأ سيرته الأدبية بعملين هما:

Faux Jour (1935)

و(1938) L'Araigne التي حاز بفضلها على جائزة غونكورت Prix Goncourt في العام ذاته.

نشر سلسلة من الروايات الرومانسية التي عاصرت التاريخ الروسي آنذاك منها:

Tant que la Lumière durera (1947 - 50).

La Lumière des Justes (1959-63).

Le Pain de l'Etranger (1984).

Les Héritiers de l'Avenir (1968-70).

أما عمله Les Vivants (1946) فقد كتب للمسرح.

نشر ايضاً عدداً من بيوغرافيات مشاهير وأعلام روس منها:

Dostoevsky (1940).

Peter the Great (1979).

Maupassant, Zola, Verlaine (1993).

Flaubert, and Baudelaire (1994).

أصبح عضواً في الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٥٩.

لقد أبهرنا الروائي المبدع والناقد هنري ترويّا بسلسلة من الدراسات التي تناولت أعلام الأدب الروسي في القرن التاسع عشر بدخوله إلى عالم هؤلاء الأدباء واقتحام خصوصيتهم وتفردهم وتحليل أعمالهم الخالدة وكشف أسرار عبقريتهم.

وهذا الكتاب واحد من هذه السلسة الرائعة إذ هو إبحار عذب في محيط دوستويفسكي الصاخب، وعبور متأنٍ في محطات حياته الرئيسية، وتقصٍّ للمؤثرات التي كانت وراء عبقريته ونبوغه، فكشف لنا ما كان يحتضنه في داخله من عوامل الضعف والجمال الإنسانيين، الشيطان والقديس في آن معاً، وبوعي متساوٍ، إذ تبرز هذه الثنائية في كل أعماله، فهو المتأرجح بين نسقي الحسي والروحاني، وهو الذي جعل مبادئنا وثوابتنا ومقدساتنا تهتز وتتأرجح، والأرض تنزاح تحت أقدامنا لنجد أنفسنا أمام الهاوية، فيشدنا من نومنا المريح لنستيقظ على حافة العدم..

فأين أكاذيبنا المبرأة؟ .. وأين أسلحتنا القديمة؟ ..

وأين نحن، وماذا وأين؟..

لقد أدخلنا دوستويفسكي في مفهوم المتعذر الحل في غيبيته الروائية، وأغنانا ليس باليقين ولكن بقلق لا ينتهي، على مشارف الانتظار وحدود الترقب.

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy